خاتم النبيين

محمد صلى الله عليه وآله وسلم

مجمع البيان الحديث

سميح عاطف الزين

الشركة العالمية للكتاب

الكتاب العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتاب العالمي

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

الكتاب العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتاب العالمي

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

الكتاب العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتاب العالمي

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

الكتاب العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتاب العالمي

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

الكتاب العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتاب العالمي

مكتبة المدرسة — الدار الافريقية العربية

الكتاب العالمي — الشركة العالمية للكتاب

الدار الافريقية العربية

الشركة العالمية للكتاب — دار الكتاب العالمي











خاتم النبيين

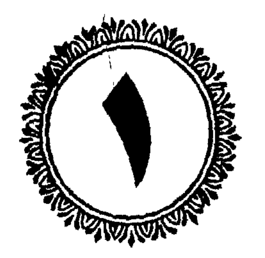
محمد (ﷺ)

دار الكتاب اللبناني
برقياً: كتالبان - بيروت
ص ب: ٣١٧٦
بيروت - لبنان

طبعة ثانية مزيّدة ومنقّحة
١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م

خاتم النبيين

محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)



دار الكتاب اللبناني
بيروت - لبنان



بسم الله الرحمن الرحيم

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ
وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ

(الأحزاب: ٤٠)



وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

عَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ

مُحَمَّدٍ

وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ

وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ

(محمد: ٢)

وَمَا **مُحَمَّدٌ** إِلَّا

رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ

أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ

وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا

وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ

(آل عمران: ١٤٤)



مُحَمَّدٌ

رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ
تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا
سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ
ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ
كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ
فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ
وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم
مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا.

(الفتح : ٢٩)



وَقصّةُ حياةِ النّبيّ (ص) جعلناها
في فصولٍ ثلاثةٍ لا نتعدّاها

الفصل الأوّل
حياة محمّد ﷺ قبل البعثة

الفصل الثّاني
الإعداد الإلهي لمحمّد ﷺ وحمل الدعوة في مكّة

الفصل الثّالث
هجرة محمّد ﷺ إلى المدينة
وإقامة دولة الإسلام

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ
يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم
مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ
وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ
أَحْمَدُ

(الصف: ٣)

المقدمة

تكامل محمد الإنساني جعله رسولاً للناس كافة

وتحققت البشارة . . .

وأيَّةُ بشارة هي ، ومتى كانتْ ؟.

إنها البشارةُ التي احتضنتها الكتبُ المقدَّسةُ كتاباً بعد كتاب ، لِيَجِدَها المؤمنون بين أيديهم في أسفار الله تعالى إلى رسُله رسولاً بعد رسول : إلى أن عَهِدَ الله سبحانه بها إلى أحد أنبيائه المختارين ، عيسى بن مريمَ عليه السلام ، لكي يُعلِنَها في الناس من خلال التعاليم السماوية التي أنزلتْ على قلبه الشريف ، صادعاً بها على رؤوس الأشهاد ، ومثبتاً لها في جوهرة العقد من رسالته الكريمة :

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[1]

وها هو القرآن الكريم ، بعد قرون في سلسلة الزمان ، يحفظ

---

(١) سورة الصف ٣ .

تلك البشارة مصدِّقاً لها ولحاملها ، تماماً كما نطقَ بهـا عن رَبِّه العـزيز الجليل ، وعلى لسانه ـ لسان السيد المسيح بالذات ـ . .

أجل ، لقد تحقَّقَتِ البشارةُ عندما بَعث الله ، منذ نَيِّفٍ وأربعمائةٍ وألفِ عـام ، من قلب الجزيـرة العربيـة ، محمـد بن عبـد الله رسـولاً بالهدى ودين الحق ليخـرج الناسَ من الـظلمات إلى النُّـور ، وليَشفيَ الناس من أمراضهم النفسية والاجتماعيـة ، وليُزيـل عن عقولهم أوهـام المعتقدات الباليـة ، ويقتلع من قلوبهم أدران الوثنيـة الزائفـة ، فيرسيَ على الدهرِ المثل العليا ، والنُّـظُم الكاملة لـلإنسانيـة بأسـرها ، ويُقيم ـ على العصور ـ صروح الأخلاق القويمة الفاضلة لسائر البشـر ، رافعاً أمامهم شعلة العقيدة الإسلامية التي رفـع لواءهـا ، وضاربـاً لهم المثل الأعلى بالمناقب الرفيعة التي امتاز بها ، وموضحاً السُّبل القويمـة التي تمكِّن الإنسان من التكامل الذي يوصله إلى أعلى المراتب الإنسانية ، فيفـوز بالسعـادة في حياتـه الدنيـا ، ويضمن حسن العاقبـة في حيـاتـه الآخرة .

تلك هي البشارةُ التي نتوِّجُ بها عملنا ، ونجعلهـا خاتمـةً لكتابنـا « **قصص الأنبياء في القرآن الكريم** » بعدما آلينا على أنفسنـا بأن نُقـدِّم للقراء الأعزاء قصة محمدٍ الإنسانِ الرحيمِ ، والرسولِ الكـريم ، هذا المخلوق الذي لم تُنجب البشريةُ في تاريخها الطويل مثله ولن تُرهص الحياةُ في مُقبل أيامها بنظيره ، ليكون وحده الإنسان الكامـلَ ، وليبقى وحـده النبيَّ والـرسـولَ ، صـاحبَ الشخصيـة الفـريـدة ، العـظْيم في إنسانيته ، المختـارَ من البريَّـة ، مهما تنـاهت الأزمان ، ومهمـا سمتْ

مآثر الأنبياء والرُّسل ، أو كبرَتْ وتعاظمَتْ قُدُراتِ الرِّجال . .

وهكذا يُطِلُّ محمَّدٌ على الدنيا ، ويعيش مثل كلِّ خلق الله من بني آدم . . ولكنه ـ منذ حداثته ـ ينفرد عنهم بسلوك خاص ، فلا يحفل بسخيف عاداتهم ، ولا يُقحم نفسه في سوء أفعالهم ، بل يسير وفق نهجٍ قويمٍ ، سُبلُهُ حقائقُ الحياة والكون ، وطُرُقُهُ السبل المستقيمةُ التي لا اعْوِجاج فيها ولا الْتِواء . .

ويظل يعيش مع هذه الهداية الذاتية المنبعثة من أعماق نفسه ، حتى يُبعَثَ رسولاً ، فتجتمع له عندئذٍ التربية الإنسانية ، بالتربيةِ الرَّبَّانيَّةِ لكي يكونَ الرسولَ المبَشَّرَ به ، والرسولَ المنتَظَرَ من الناس ، لجميع الناس . .

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[1]

وقد نتساءَلُ بالمناسبةِ : لماذا كانت البشارةُ بمحمدٍ قبلَ بعثتهِ ؟ . وما هي قيمة تلك البشارة ومزِيَّتُها ؟ .

لقد نقل البشارة للإنسانية رسولُ الله الذي قبل الأخير : أعني بالذات عيسى بنَ مريمَ عليه السلام . ولكن لِمَ كان اختيارهَ هو بالذات لهذا التكليف من دون سائر النبيِّين والمُرسلين ؟ . ألِأَنَّهُ قد سبقه في البعث وحسب ؟ لا ، بل لكي تكون للبشارة دلالاتٌ مميَّزة قد تبدو ثلاث أساسية هي :

١ ـ الأولى ، هي أن حامل البشارة قد تميَّز بخاصية لم تعرف

---

(١) سورة سبأ ٢٨ .

لغيره من سائر بني آدم على الإطلاق ، سواء كانوا رُسُل الله إلى الأرض ، أم كانوا أعلاماً من الناس في الفكر والعلم ، أم من الناس البسطاء العاديين .

فالتاريخ البشريّ ـ على امتداده منذ بداية الخلق ـ يثبت بأن السيد المسيح وحده ، كان ـ بعد أبينا آدم عليهما السلام ـ المولودَ الفريدَ الذي كان حَمْلُه وولادتُه بصورة مغايرة لِخَلْق الآدميين أجمعين ، حتى يستدل الناس من خلال هذه الميزة على عظمة الخالق وقدرته ، وعلى قيمة المخلوق ومكرُمته . وبهذه الميزة والمكرمة ، حمل تلك البشارة القيِّمة بالرسول الذي يختصُّ وحده ـ وهو أيضاً ـ من دون البشر جميعاً ، بميزة تكامُله الإنساني .

فكان للتطابق في الخاصيَّة التي تَفَرَّدَ بها كل منهما ، أعظم جامع مشتركٍ للتكليف والتبشير . . .

٢ ـ والثانية هي أن البشارة لم تتناول شأناً معيَّناً من شؤون الكون ، ولا حَفِلَت بأمرٍ محدَّدٍ من أمور الناس والخلائق ، بل اقتصرتْ على مشيئة الله بأن يختم رُسله الكرام ، برسولٍ يكلِّفه بحملِ شريعة تشمل كل الشؤون ، من بداية خلق الكون إلى نهايته ، وتحتوي جميع المسائل التي تعرض للبشر ، وسائر الأمور المتعلقة بحياة الناس وطرق عيشهم .

ولذا وجب أن تعيِّن البشارةُ هذا الرسولَ بالذات ، وتسَمِّيَهُ باسمه بياناً للمكانة الخاصة التي له عند ربه ، لأنه وحدَه قادرٌ على حَمْلِ

عِبء تلك الرسالة التي ستُلقى على عاتقه لتكون خاتمةَ الرِّسالات ، وليكون حلالُها حلالاً إلى يوم القيامة ، وحرامُها حراماً إلى يوم القيامة ، دون تغيير أو تبديل أو اجتهاد ، لأنها تستوعب شؤون الناس في كل زمان ومكان ، وتحقق مطالبهم الكاملة في كل عصرٍ ومصر . .

٣ ـ أما الدلالة الثالثة فهي أن البشارة قد جاءت بصيغة إعلام ، وبمثابة تبشير وإنذار ، خاطب بها بني إسرائيل خاصة ، وإن كان قد عنَى جميع الناس، خاطبهم بها بالذات، لأنهم الشعب الوحيد المكابر المعاند، الذي أتعب موسى عليه السلام ومن جاء بعده من الأوصياء والصُّلَحاء! . فقد سبق في علم الله جلَّتْ قدرته أن هذه الأمَّة العنيدة ستقف في وجه الرسالة ، وستمكر بحاملها ، وتعترض مجرى سيرها ، فصدَع المسيح عليه السلام بها إلى تلك الأمَّة بالذات ، ونَوّه ـ في ذات الوقت ـ بالقدرة الإلهية التي تربط بين عذاب الله الذي يُصيب به من يشاء ، وبين رحمته التي وَسِعَت كلَّ شيء ، حيث لا تكون تلك الرحمة إلا للمتقين الذين يؤمنون بالله وملائكته وكُتُبِه ورُسُلِه ، ويقيمونَ الصلاةَ ويُؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله ، وهم الذين يتَّبعون الرسولَ النبيَّ الأميَّ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل . وحيث لا يكون العذاب إلَّا للذين يكفرون بآيات الله وبنعمه ، والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يُسِرّونَ وما يُعلنون . إنَّه لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

إذن فالبشارة لا تقتصر على أمةٍ واحدة ، ولا شعبٍ معيَّنٍ ، بل هي تخاطب جميع المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها لأن الرسول

المبشَّر به سيكون رسولَ الإنسانية بكاملها .

تلك هي بعضُ دلالاتِ البشارة ومزاياها . فقد كانت لا ترمي إلاَّ للتأكيد على أن الإنسان = وهو الكائن الحيّ الأسمى الذي أهَلَّهُ خالقه بقدرات وملكات خليقة به = قادر على الوصول إلى التكامل الإنساني الذي يجعله ذا مكانة خاصة عند ربه ، تُمَكِّنه من أن يكون حاملاً لرسالة السماء إلى الأرض ، على امتداد الأيام ، ومُدَّة بَقاءِ الحياة ، وإلى نهاية المطاف .

وإنه لفي علم الله السابق ـ وهو وحده علاَّم الغيوب الذي يعلم السرَّ وأخفى ـ أنَّ محمدَ بن عبد الله ، سيكون ذلك الإنسانَ الذي لا يَحْفِل بشيء إلا إذا كان حقاً ، ولا يأبه لأمر إلا إذا كان خيراً ، ولا يسلك طريقاً إلا إذا كان قويماً ، ولا يأتي عملاً إلا إذا كان صواباً ، فكان الجدير بخلائقه الإنسانية الكاملة أن يكون المُعَدَّ لِحملِ الرسالة المتكاملة ، والصادعَ بالنبوّة الأخيرة الخيِّرة ، التي ترهص عن أسمح الشرائع وأشملها ، وأعظم الرسالات وأكملها . .

. . وهكذا خُطَّت في اللوحِ المحفوظِ نبوَّته ، وكُرِّسَتْ عند الله كرامتُه ، وكانت في التنزيل من التوراة والإنجيل بشارتُه . .

تلك هي الحقيقةُ التي كانت في علمِ الله منذ الأزل . فمحمدٌ إنسانٌ كسائرِ الناس : ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[1] ولكنه إنسان في منتهى الكمال ، نزع نحو الكمال فأدركه ، وأوصله ذلك الكمال إلى رضى

(١) سورة الكهف ١١٠ .

ربِّه ورضوانه ، فاختاره لرسالته الكريمة . .

وحَرِيٌّ بنا قبل أن نعرف الكمال المحمَّديّ ، أن نعرف كيف يتحقق الكمال عند الإنسان . أي أن نفرِّق بين التكامل الإنساني الذي يَتمُّ بفعل الإنسان نفسه ، وبين الكمال الرباني الذي يكون بإرادة الله وفعله .

فالإنسان منذ وُجِد على سطح الأرض ، كان مدعوّاً دائماً لمواجهة الخيار الأكبر : إمَّا الاهتداء إلى الحقائق المطلقة ـ وبها يكون جديراً بخلافة الله على هذه الأرض ـ أي الحقائق التي إن عرفها وعمل بوحيها أمكَنَهُ التكامُلَ وبلوغ درجاته العليا . . وإما البقاء في النطاق البشري ، دون الارتفاع إلى مرتبة الإنسان السامية ، فلا يكون لوجوده أيَّة قيمة خاصة ، ولا يكون له أيّ اعتبار مميَّز

وبما أن الخيار حاسمٌ ، والمبادرة دائماً بيد الإنسان نفسه ، فإن تقريرَ مصير ابنِ آدمَ نابعٌ دائماً من ذاته . فإن هو جعل غايتَهُ الكمالَ وجَبَ عليه اعتماد تربيةٍ نفسيَّةٍ خاصة ، وانتهاج سلوكٍ إنسانيٍّ خاص ، لا بدَّ أن يكونا على أعلى درجة من الارتقاء والتسامي . .

إذن فالأمرُ يتناول في جوهرِهِ وفي أعماقِهِ ، الأمر الذي يستحيل معه وضعُ مقاييس محددة تُعيِّن ما في النفس الإنسانية من ميولٍ وحاجاتٍ وغاياتٍ ؛ وإن كان يمكن التنويه بخمس حقائق لا بد من إدراكها حتى يكون الإنسان على بيِّنة من أمره فيما يجب عليه عمله . .

١ ـ **وأولى هذه الحقائق** : مَعْرِفَةُ النفس التي هي محل الثواب

والعقاب ، وإن كان الله تعالى قد خلق الجسد من (سُلالَةٍ من طين) ، ثم أحياه سبحانهُ بواسطة الروح ، فصار التكوين قائماً بالجسد والروح معاً . . ولكن هل الجسد والروح هما الإنسان ؟ . . أم أن هناك عطاءً ثالثاً يفوق كل عطاء ؟ . وما هو ، وما هي أهميَّتُهُ ؟ .

إن الله تبارك وتعالى منح الجسد والروح ملكة المعرفة ، وللتدليل على ذلك قال عزَّ من قائل وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا [1] . .

فأين تكمن هذه المعرفة من الإنسان ؟ .

إنها في النفس . . وهنا تأتي الآية الكريمة لتدل الإنسان على إيجاد النفس وتكوينها ؛ في قوله سبحانه وتعالى : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا [2] ؛
وهكذا نعرف أن خَلْقَ الإنسان صار كاملاً ، بأنْ خلق الله الجسدَ من تراب ، ثم نفخ فيه من روحه ، فحلَّتْ به الحياة ، ثم أوجد في هذا الكائن الحيِّ ملكة العلم والمعرفة ، حتى تكون لديه قابلية الربط للمعلومات السابقة ، فيتكوَّن عنده الإدراك والتمييز ، لتقوم على أساس إدراك الإنسان وتميزه حرية الاختيار ، طبقاً لمنطوق الآية الكريمة : وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا [3] . « قد أفلح من زكَّاها » باختيار الأعمال الطيبة ، والصفات الحسنة ، أي عرَّفها طريق الطاعة والمعصية ، وبواسطة العقل أيضاً ـ فهديناه النَّجْدَين ـ لتفعل الطاعة ، وتذر المعصية ، ولتجتني الخيرَ

---

(١) سورة البقرة ٣١ .

(٢) سورة الشمس ٧ .

(٣) سورة الشمس ٧ ـ ١٠ .

وتَتجنَّب الشرّ .

« وقد خاب من دسَّاها » بتسرُّغه في حمأة الأعمال الخبيثة ، والصفات السيئة . . . وكان رسول الله ﷺ إذا قرأ هذه الآية يقول : « اللهمَّ آتِ نفسي تقواها أنت وليُّها ومولاها ؛ وزَكِّها وأنت خير من زكَّاها » . .

فيكون الإنسان إذن في حقيقته كائناً من جسد وروح ونفس ، والنفْس تتكوَّن من تداخل الروح بالجسد . . .

ويقيناً إن النفس تفارق الجسد أثناء النوم ، وتبقى فيه الروح ، وانه يصير بين الروح والنفس شُعاع كشُعاع الشمس ، يَربط بين عودة النفس ، أو عدم عودتها ، أي بين حياة هذه النفس وموتها ، مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1] . ويُوَضِّح ذلك ابنُ عباس والإمامُ الباقرُ رضي الله عنهما فقد قالا : « ما من إنسانٍ ينام إلاَّ وتصعد نفسُه إلى سماء الله ، وتبقى روحه في بدنه ، ويَصير بينهما شعاعٌ كشُعاع الشمس ، فإذا أَذِنَ الله ببقاء النفس خرجت الروح من الجسد ، وأجابت النفس » . .

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ . . . ﴾[2] .

يتفكَّرون بقدرة الله كيف يتوفَّى الأنفس عند النوم ، وكيف يتوفاها حين الموت . .

(١ ، ٢) سورة الزمر ٤٢ .

وبنـاءً على هـذا الفهم يكـون الجسـد عبـارة عن ثـوب يلبسـه الإنسان في الدنيا ثم يخلعه عند الموت ، فيبلى وينتهي إلى تراب . . أمَّا الرُّوح ، فهي سرٌّ من أسرار الله عزَّ وجلّ لا يعلمه إلا هو . وهو سر الحيـاة ، ومحرِّك الجسـد ، وبـاعث الحيـاة ، ومـوقظ الشعـور بهـا ، وبدونه تنعدم الحياة . وقد عجزَتْ عن فهم ذلك السِّرّ وإدراكـه العقول النيِّرة ، وبقي اللُّغز الكبير دون حلّ . . ليعلم الإنسـان أنه لم يؤتَ من العلم إلَّا قليلًا ، تماماً كما نَصَّ القرآن الكريم حيث قال الله تعالى :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[1]

أمـا النَّفسُ فهي التي تتجلَّى في الفكـر والإرادة ، ويقوم بها الإدراك والتمييز ، ويترتَّبُ على تصـرُّفاتهـا الثواب والعِقاب . .

وبفهم الإنسـان لحقيقته هـذه التي أراده الله عليهـا ، يمكنـه أن يختار الحقائق التي تقوده إلى التكامُل . . .

٢ ـ **وثانية الحقائق** : أن الكمال لا يُخلَق مع الإنسان ، بل يعود تحقيقُـه إلى الإنسـان ذاتـه . والكمـال الـذي وَجَب أن يسعى لـه هـو الكمال النفسي ، إذ ليس للكمال الجسميّ أي وزن في مجـال التقويم الخُلُقي وفي ميزان الحق والعدل والثواب والعقاب . . ومما لاشك فيه أن الانسان في هذه الحياة يتكامل بصورة تدريجية تصـاعديـة ، فينتقل من مرتبة إلى أخرى من مراتب الكمـال ، بحسب قابليتـه وقدرتـه على هـذا الانتقال ، حتى يصـل إلى حالـة تكامليـة معيَّنة لا يعـود بمقدوره تجاوزها . ولذا فإنه يكون مستحيلًا عليه بلوغ الكمال بصورته النهائيـة

---

(١) سورة الاسراء ٨٥ .

إلا إذا شاءَ الله تعالى له ذلك .

فالإنسانُ مـدْعُوٌّ إذن لأن يتكـامل في الحيـاة . وتكامله لا يتعلَّق بسنِّه ولا بغناه ولا بفقره ، كما أنه لا علاقـة له بمـركز ولا بـأسرة ، ولا بـإرْثٍ ولا بـأَبٍ ولاأُمٍّ ، فضـلاً عن أنَّـه لا يـرتبط ببيئـةٍ ولا بعصـرٍ ولا مصر ، بل هو ملَكَةٌ رفيعةٌ ، يحمل الإنسان نفسه عليها ، فيدَرِّبَها على جلائلِ الأعمال ، ويمرّسها بأفضل المزايا ، ويُصْبرهـا على الاستمرار في خـطَّةٍ حكيمـة وفق سبيـل قـويم ، حتى يتسنَّى لـه أن يقهـر النَّفس الأمَّارة بالسُّوء ويقيم على أنقاضها نفساً شـريفة لا تهفـو إلاَّ إلى تحقيق أسمىٰ المُثُل العليا في الحياة . وقديماً قال الشاعر :

يـا خـادمَ الـجسـم كـم تـسـعـى لـخـدمـتـهِ
أتـطلبُ الـربـحَ مـمـا فـيـه خـسـرانُ
أقبـل على الـنفسِ فـا ستـكمـل فـضـائـلهـا
فـأنـت بـالـنـفس لا بـالـجـسـم إنـسـانُ

ولو أخذنا الإنسان في معترك الحياة ، لوجدنا الحياة تفرض عليه مواجهة ظروف قد تكـون قاسيـة صعبة ، أو قـد تكون رضيّـة هنيئة . . ولكن لا يمكن لظرفٍ من هذه الـظروف أن يشكِّل معـوِّقات في طـريق الإنسان إن كان الكمال رائده . .

فالظروفُ الحرِجةُ لا تمنعه من الحفاظ على مبـدئه الـذي اعتنقه ولا تحول بينه وبين النهج القويم الذي اتَّبَعه . . كما أن يُسْرَ الحيـاة ، وإقبـال الدنيـا على الإنسـان ، وإمـداده بـأمـوالٍ وبَنين ، لا يمكن أن تشكِّل كلها عائقاً في طريق الإنسان المتكامل ، ولا أن تكون سبباً لفتنة

أو غواية ، بل على خلاف ذلك تماماً ، قد تكوِّن له الإمدادات ، وتوفِّر له الإمكانيّات التي يستعين بها على تحقيق مُثُلِهِ العليا وغاياته الفُضلى إذا كان حقاً يترسَّمُ الطريق المستقيم الذي اختاره لنفسه . .

٣ ـ وثالثة الحقائق : أن التكامل عند الإنسان لا يخضع لمفهوم مطلق ، ولا يمكن أن تكون له مقاييس محدَّدة وثابتة يجري من خلالها تطبيقُهُ على جميع الناس ، بل العكس هو الصحيح . فإن هذا التكامل يكون نسبياً طالما أنه يتعلَّق بنفس الإنسان ؛ ولذلك فهو يختلف من فرد إلى فرد ، ومن جماعة إلى أخرى . فقد نجده عند الإنسان العادي البسيط ، كما نجده عند أهل العلم والمعرِفة ، بحيث يكون لكلٍّ مفهومه الخاص بتكامله النفسيّ ، وبما يتَّفِق مع تركيبه النفسانيّ والعقلي . . . من هنا كان الاختلاف في المفهوم وفي الأسلوب ، طبقاً للاختلاف بين أبناء البشر ، إذ فيهم القوي والضعيف ، والجميل والبشع ، والقادر والعاجز ، والفطن والساذج ، إلى غير ذلك من الحالات التي تتنوَّع عند الأفراد ، والتي تنجم في الواقع عن العوامل الذاتية ، أو تتأثَّر بالعوامل الوراثية والمجتمعية ، أو بعوامل أخرى عديدة تلتصق بحياة كل فرد من الناس ، وتشكِّل له الشخصية المستقلَّة المتميزة عن غيرها من الشخصيات . ولو لم يكن الناس كذلك ، لكانوا على نسقٍ واحدٍ من الخَلْق والخُلُق ، ولَتوحَّدتْ المقاييس كلها ، ولكانت الحياة على خلاف ما هي عليه وكما نعهدها ونعرفها في مفارقاتها العجيبة الغريبة .

إذن ، فبسبب هذا الاختلاف ، كانت لكلِّ فردٍ نظرتُه الخاصةُ

إلى الحياة ، ومسلكُه الخاص في التَّصرُّف . فتَحَتَّمَ أن يكون له مفهومه الخاص للتكامل . .

هذا مع الإشارة إلى أن مدار بحثنا هو الفرد المتكامل . أما الفرد الذي قعَدَ به العزمُ عن هذا المطلب السامي ، ونأى عن أصالة الإنسان فيه ، فإنه لا يعنينا منه ، إلا القدر الذي نبتغي له به الخلاص من الضياع ، بُغيةَ أن يحرّر نفسه من العبودية التي قيَّدها بها ، وأملاً بأن يبدأ من جديد رحلةَ التكامل التي ترفعه إلى مرتبة الإنسان . .

٤ ـ **ورابعة الحقائق** : أن الاختلاف في النظرة والمسلك إلى التكامل ، كانت له نتائجه الإيجابية على صعيد التقدم والرقيّ في مجالات الحياة العامة .

فعن هذا الاختلاف انبثق التنوُّع في الأفكار ، والتعدُّد في الأساليب والوسائل ، والوفرةُ في المكتشفات والمخترعات التي أدَّت إلى عمارة الأرض ، وإلى نشوء الحضارات والمدنيات لدى الأمم والشعوب . . مع التأكيد على الفارق الواضح ما بين الحضارة والمدنيَّة .

فالحضارةُ مجموعةُ مفاهيم نابعة من وجهة النظر إلى الحياة . أما المدنية فهي الأشكال المادية للأشياء المحسوسة التي تستعمل في شؤون الحياة . ومن هنا كانت الحضارات متميِّزةً عن بعضها البعض ، طِبقاً لِنظرة الأمَّة أو الشعب ، أو وفْقاً للعقلية السائدة في محيط جغرافي معيَّن إلى الحياة . فكانت للمصريين مثلاً حضارتهم ،

وللهند أو الصين حضارتهما ، وكانت أيضاً الحضارة الغربية ، والحضارة الإسلامية . وفي كلٍّ من هذه الحضارات قِيَمٌ معيَّنة في نظرتها للإنسان ، وللحياة ، ولما بعد الحياة ، هي التي جعلت لها طابعها الخاص التي قامت عليه وعُرفتْ به . وهذا بخلاف المدنية ، التي يمكن لأشكالها المادية أن تتجانس وتتقارب ، سواء في الشرق أم في الغرب ، وأن تتلاقى على أكثر من صعيد وفي أكثر من مجال ، بحيث تصير تلك الأشكال مقبولةً عند سائر الناس ، ويصير استعمالها شائعاً في غالبية البيئات والمجتمعات ، فما يلبسه الغربي أو يأكله ، قد يلبسه الشرقي أيضاً ويأكله . . . والأدوات والآلات وأنماط العيش المادية على اختلافها ، هي أشكال مدنية عالمية لا يُراعى في أخذها شرقٌ ولا غربٌ ولا جنسٌ ولا لون ، لأنها ليستْ ناشئة عن الحضارة ولا تتعلَّق بها .

نستخلص من ذلك أن العمل يكون في مضمار الحضارة ، التي تتوافق مع القيَم والمُثُل العليا ، وتؤمِّن السعادة بالطمأنينة الكاملة، وتحقق العدالة لجميع الشعوب ، أو في مجال المدنية التي ترومُ الرفاهية والرخاء باستعمال الأدوات الحديثة . .

هذه الأعمال الحضارية والمدنية هي بعضُ سُبُل التكامل لمريديها ولباذلي قصارى جهودهم العقلية والنفسية والجسدية لتحقيقها . .

٥ ـ **أمَّا خامسة الحقائق** : التي نحن بصددها ، وأهمها ، فهي

أن التكامل لا يكون إلا عند إنسان صحيح النفس سليم الطويَّة نقيّ السريرة . فمن حيث المظهر المادي الخارجي ، خلق الله الإنسان في أحسن تقويم حتى كان مثالاً رائعاً في الخلق . . إذ ليس أجمل ولا أروع من صورة هذا الكائن ، الماثل بجسده الكامل الأجزاء ، التامّ الأوصاف . فهو تعبيرٌ خالصٌ عن الصورة التي أراده الله عليها ، وجعله فيها ، وقد صرَّح القرآنُ الكريمُ بحُسن صُنْعِ الله في مجال خلق الإنسان حيث قال تعالىٰ : ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾[1] .

وحيثُ قال جَلَّ وعلا : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[2] .

ولكن هذا الإنسان ، لم يُدرك هذا الحُسْنَ فيه ، ولا حَمِدَ الله عليه ، ولا عمل بما تستأهله هذه النِّعمةُ لديه ، فأتاه العتابُ والإنذارُ من ربه على هذا الضلال بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ ؟ ! .[3] .

فالإنسان بعد أن خلقه الله تعالىٰ سويّاً ، عدلاً ، لم يُدرك قيمة الشاكلة الجميلة التي خُلِقَ عليها ، فاغْتَرَّ بنفسه ، ثم اغترَّ عن ربِّه ! . .

وقد جاء هذا الاغترار من نفسه حُكماً ، لأن نفسه لم تكن متكاملة ، ولأنها مريضة غير صحيحة . أنعم الله عليها بالوجود وغَمَرها بالنِّعَم ، فانصرَفَتْ عنه إلى إنكاره واتِّباع غواية الشيطان ! . ذاك أن

---

(١) سورة غافر ٦٤ .

(٢) سورة التين ٤ .

(٣) سورة الانفطار ٥ ـ ٩ .

للنفس أمراضها وعاهاتها ، كما أن للجسد أمراضَه وعاهاتِهِ ، مع الفارق المهمّ ، وهو أن أمراض النفس أشدُّ إيلاماً وأصعبُ معالجةً من أمراض الجسد ، فالوصفات التي يعطيها الأطباء ، والعمليات الجراحية التي يقومون بها ، من شأنها معالجة الأجساد وشفاؤها إذا صدق تشخيصُ المرض ، وصحَّتْ معرفتُه ، وبالشروط التي تجعل التشخيص أو الجراحة صحيحين . في حين أن الوصفات لمعالجة النفس قلَّما تكون نافعةً ، إلا إذا تعرَّفنا منذُ البداية على هذه النفْس ، وكانت لديها القابليَّةُ والاستعدادُ للشِّفاء . لأنه لا شيء أكثرُ تعقيداً أو أشدُّ غُموضاً من نفس الإنسان ، لأنها في حال صحَّتها ومرضها تتأثَّرُ بمختلفِ العوامل التي تكمن فيها أو تحيط بها ، ولا شيء يخرج من ذاتية الإنسان ، أو يدخل فيها إلاَّ ولهُ تأثيره على نفسه .

من هنا كان التلازم قائماً ما بين صلاح النفس وتكاملها ، وبين انحطاط هذه النفس وضعتِها . فأمام الإنسان دوماً الفوارق التي تفصل ما بين الهدى والضلالة ، وما بين الحقيقة والخطأ . ويبقى على أيِّ إنسان كان، أن يختار بنفسه المسالك التي يَعْبُرُ فيها مسيرةَ حياته الأرضية، فإما أن ينطلقَ متكاملاً، وإما أن ينحدر مُتسافلاً. والغريب في أمر من يجرفهم تيّار التسافل أنهم لا يقفون عند حدود أنفسهم وحسب، بل كثيراً ما يتجاوزونها إلى جرِّ غيرهم من الضعفاء، وإلى ازدراء غيرهم من الناس ولا سيما المؤمنين، الأتقياء الورعين، الذين يتهمونهم بالتعلُّق بالأوهام الغيبية، ويَصِمونهم بالتَّخلُّف والرجعيةِ، دون أن يعرفوا أنه ما من شيء يشدّ الإنسان ويجذبه أكثر من الرغبة في إدراك سرّ الأمور التي استَعْصَتْ عليه معرفتُها، ودون أن يتفهَّموا أنَّ

الرجعية لا تحمل إلا معنى الرجوع عن نور الحقيقة إلى ظلمة الجاهلية الجهلاء . . .

ونسأل هؤلاء الضالّين المضلّلين : هل أشدُّ رجعيةً من إنكار مِنَنِ الخالق علينا ، وتناسي ما منحنا من ملكات وقدرات ؟ . أم هل أكثر جهالة من نُكران الجميل وكُفرِ النعمة ، أو من ضلالة النفس وانحدارها في كل ما يخالف حقيقة الإنسان في جوهره وفطرته ؟ .

إذن فصحةُ النفس وصلاحُها هما سبيلُ الإنسان للارتقاء في معارج التكامل . . . ولعل العودة إلى النفس ومعرفتها على حقيقتها هو أول السُّبل لتقويمها وشفائها من أمراضها .

ومن هنا كانت الحاجة فيما مضى إلى النبيين والمرسلين ، الذين هم بالحقيقة أطباء النفوس . وما أنزله الله سبحانه وتعالى عليهم لم يكن سوى ادوية لشفاء النفوس المريضة المنحرفة عن جادة الصواب ، وقد قال تعالى عن القرآن الكريم : ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [1] وقال فيه : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [2] ثم قال : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [3] . وأما من ركب عناده ، وبقي على إصراره وكفره وظلمه لنفسه ، فإنه لا يشفيه ولا يزيده إلاَّ فِراراً وخَساراً . .

---

(١) سورة فصلت ٤٤ .

(٢) سورة يونس ٥٧

(٣) سورة الاسراء ٨٢ .

فقد كانت نفوس بني البشر تعيش ـ إذاً ـ في الجهالة والـظلام ، وتُعَشِّشُ فيهـا الأوهام والخـرافات . فبعث الله هـذه الثُّلَّة المختـارة من عباده الصالحين ، برسالة الهدى والدين ، لإصلاح النفـوس الإنسانيـة المـريضة وتهـذيبها ، وإعـادتها إلى جـادة الصـواب وتقـويمهـا . وقـد فرضت الرسالة السماوية على النفس البشرية أن تخضع في كل يـوم ، وفي كل ساعة لمحاسبة دقيقة على كـل ما أدركتْ وميَّـزتْ واختارتْ ، أو على كـل ما سعَتْ وبـاشَرتْ وعملتْ ، فـإن كان في عملهـا نقصان أُكمِـل ، وإن كان فيـه شرٌّ بُـدِّل . أما إذا جهـل الإنسان هـذا التقـويم التهـذيبي اليومي أو تجـاهله ، فإن إدراجـه في لائحة ، الأنعـام يكون أجْدَى ، بل ربما كان الموت أجدر به كيلا يزداد غياً مع غيِّه وإثمـاً مع إثمه . وفي هذا يقـول محمدٌ صلىَّ الله عليـه وآله وسلم ، مبيِّنـاً أهميَّة محاسبةِ الإنسان لنفسه في كل حين، وداعياً له للارتقاءِ والتكامل في كلِّ وقت : (من اسْتَوَى يَوْماه فهو مَغْبون ، ومن كان غدُه شرّاً من يومه فهو ملعون ، ومن لم يتفقد النقصـان في عمله ، كان النقصـان في عقله ، ومن كـان النقصان في عمله وعقله فـالموت خيـر لـه من حيـاتـه . .) وكفى بقوله قولاً كريماً . .

نعم هذا هو قانون محمدٍ عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام . القانـون الذي يصلح في كل زمان ومكان لمجاهدة النفس وتقويمها ، ولا يكون الجهد فيه عبثاً ، لأن مجاهدة النفس في سبيل صحَّتها تؤدي حتماً إلى رضى الله . إذ من خـلال هذه النفس يكـون الإيمان بـالله ، والـطاعـة لأوامره والابتعادُ عن نواهيه ، فمجاهدة النفس كـالجهاد في سبيـل الله

والهـداية إلى سبله : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1] بل لقد أنزل الله على لسان نبيِّه أن مجاهدة النفس أكبـرُ وأصعب من جهاد الأعداء ، ولن ننسى أبداً مـا قالـه النبيُّ صَلَّى الله عليه وآلـه لأصحابـه حين الرجوع من الحرب : انتهيتم من الجهاد الأصغـر ، وبقي عليكم الجهادُ الأكبر . فقيل : وما الجهـادُ الأكبرُ يـا رسول الله ؟. قـال : هو جهادُ النفس .

تلك هي الحقـائق التي تغني الإنسان فيْ مسـار حيـاتـه الأرضي ومنها نصل إلى النتيجـة الحاسمـة وهي : إن عبء التكامـل يقع على عـاتق الإنسان نفســه ، أولاً وقبل كـل شيء . . فهو بـالإيمان بـالله ، وبمعـرفتـه نفسـه ، وبمجـاهـدة هـذه النفس لتخليصهـا من أمـراضهـا وتعقيداتها ، تتوفر له تربيتان :

التربية الإلّهية ، والتربية الإنسانية ، وبهما يستطيع إدراك الكمال الذي يرفعه إلى أعلى علِّيين . .

ولئن كانت التربيـة الإنسانيـة تنبع مَن ذات الإنسـان ومن بيئته ، وظروف حياته ، فإن التربية الإلّهية تأتي من خالق هذا الإنسـان ، تأتي تعاليمَ : أوامرَ ونـواهيَ لا تحتاج إلى درس وتمحيص لتصبـح وصفات صـالحة . . وقـد أتت هكذا فعـلاً ، عن طريق مبعـوثيـه الـذين حملوا رسالاته إلى بني البشر . . وما كانت القدرة الإلّهية لتبعث هادياً إلا بعد إعدادِه ، لأن المسؤولية التي يحملها مسؤولية جسيمة وعظيمة . فَمِنْ

---

(١) سورة العنكبوت ٦٩ .

هذا الإعداد قولُه لنبيِّه موسى عليه السلام :

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ . . [١] .

ولكن ، ينبغي أن نلاحظ أنه برغم هذا الإعداد المسبق فقد ثبت في التاريخ ، أن أي رسول أو نبي لم يُبْعَثْ إلاَّ لِبَني قومه ، ودون أن يحمل أحدٌ منهم تكليفاً لكافة الناس ، بل لقد نصَّ القرآنُ الكريمُ على ذلك ، إلاَّ الرسول الأعظم محمد بن عبدالله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم ، فقد بُعِث لأهل الأرض جميعاً . . فمن قوله عزَّ من قائل : وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ [٢] . إلى قوله : كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [٣] . إلى قوله : كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [٤] . إلى قوله أيضاً : كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ [٥]. ومثل ذلك كان خطابُ لوطٍ ، وشعيب وغيرهما من الرسل الكرام ، إلاَّ محمداً ﷺ فقد خاطبه تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ [٦] . لِعَرَبِيِّهم وأعْجَمِيِّهم ، أبْيَضِهِم وأَسْوَدِهِم ، دانِيهم وقاصِيهم في سائر أنحاء المعمورة . .

---

(١) سورة طه ٣٩ .

(٢) سورة الشعراء ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣) سورة الشعراء ١٠٥ ـ ١٠٧ .

(٤) سورة الشعراء ١٢٢ ـ ١٢٤ .

(٥) سورة الشعراء ١٤١ ـ ١٤٣ .

(٦) سورة سبأ ٢٨ .

والسؤال الذي يرِد ، هو أنه لماذا خصَّ الله سبحانه وتعالى محمداً بهذا الفضل الكبير ؟ .

إنَّنا لو تعرَّفنا إلى محمدٍ صاحبِ الشخصية الإنسانية الكاملة ، وإلى محمدٍ الرسولِ الَّذي أهَّله تكامُله الإنسانيُّ لحمل أكبر وآخر رسالة سماوية إلى الأرض ، لاهتدينا إلى الإجابة على هذا السؤال . . .

فمَن هو محمد بن عبد الله ؟

هل هو الطفل الذي تربَّى يتيماً ، محروماً من رعاية الأب كلِّها ، ومن حنان الأم إلاَّ أقلَّه ، ورغم ذلك لم يذلَّه اليتم ولم تَقْهَرْه قساوتُه ، حتى أنه لم يكن عائقاً في درب تكامله ، بل على العكس ، فقد كان اليُتْمُ له زاداً روحيّاً ، جعله في حياته الإنسانَ العطوفَ الرَّحيم ، فاستحق يُتْمهُ أن يكون معلِّماً وموجِّهاً لا ذُلًّا يُعاني منه الطفلُ في إنسانيته ، ولا مَدْعاةَ تعبيرٍ عن شفقة يتصدَّقُ بها ذوو الفضل على يُتمهِ كما يجري عادةً لليتامَى والمساكين .

أم أنه ذلك الفتى الذي نزع عن الطَّيش ، وترك اللَّهوَ واللَّعب وانصرف منذ مطلع تفتُّحه على الحياة إلى التَّفكُّر بالقِيَم والمُثل التي تُنمِّي مداركه ، والتدبُّر بالطُّرق التي تقوِّي نزعة الخير في نفسه ، وَيتَلَمُّس السُّبل التي تفتح باب الحقيقة أمام عقله ، حتى كانت فُتوَّته نسيج ذاتها ، تختلف فيه تماماً عن فُتوَّة أبناء الأرض كلِّهم ؟ .

أم أن محمداً هو ذلك الشاب الذي قهر شظف العيش ، وانتصر

على مرارة الفقر والجوع ، لا باتِّكاله على غيره ، وإنما ببحثه الدائم عن الكسب الشريف واجتناء الرزق الحلال من العمل اليدوي والجُهد الشخصيّ ، حتى صار مثال العاملين الشرفاء في كل زمان وكل مكان ؟. لا يجذبه طيشُ الشباب ورعونتُه ، ولا تُغويه المحرَّمات ومفاسدها ، ولا يُغريه زُخرف الدنيا وزينتها ، بل هو أبداً الشاب الرصين ، الفاضل ، الذي دَيْدنُه الاستقامةُ ، وناموسه الحلال والطهارة ؟.

أم هو محمدٌ الزوجُ والأبُ المثاليّ ، تُلقي سنواتُ الشقاء والمكابدة أثقالَها عنه ، ويُؤاتيه الوقتُ الذي يُفيضُ به عليه الله من نعمائه ، فيصير غنياً بالمال ، والزوجة والبنين ؟ لا ، وكلاَّ . . فإنه محمدٌ ذاتهُ ، الذي يظلُّ على عهده مع نفسه ، قائماً على تربية ذاته ، لا تبهره حلاوة الدنيا وقد أقبلت عليه ، ولا تَغُره الثروةُ وقد كثرت بين يديه ، فكان مِثالَ الزَّوج الوفيّ ، يقدس حرمة الزواج ، ويصون حقوق المرأة . . ومثالَ الأب البار ، يهذِّب أبناءه ، ويقوم على تربيتهم الصالحة ؟. فليس محمدٌ رجلاً عاديّاً ، إذا أقبلتْ عليه السعادة من كل جانب ، صحةً ومالاً وعائلةً ومكانةً ، يَنصرِفُ عن هموم إصلاح مجتمعه ، أو لا يعودُ يَحفِلُ بالصالح العام ، مكتفياً بنطاقه الحياتي الخاص ، أو مجتهداً في المحافظة على هذا النطاق . لا ، لم يكن محمد بن عبدالله من هذا النوع من الرجال عندما أقبلتْ عليه الحياة ، ولفَّته السعادة بفيضها؟

وحاشا الرسول المنتظر أن يكون في نظره شيءٌ من زخرف الدنيا وغرورها . .

لقد عاش محمدٌ في مجتمع جاهليّ ، تتحكم فيه عاداتٌ وتقاليدُ يَغلب عليها طابع الصلف والعناد ، ويقوم جانب من حياته على الغزو والسلب والاقتتال ، ويقوم جانب آخر منها على أبشع ما عرف الإنسان في تاريخه من هدرٍ لقيمة الإنسان ، كَوَأد البنات ، ويغمر حياة ذلك المجتمع كله ما انتشر من تعاطي الفواحش والمنكرات ، وأكل الربا والْوُلُوغ في اللَّذائذ والمعاصي . . .

في مثل هذه البيئة القاسية الغارقة في العار والشنار ، عاش محمد بن عبد الله ، وهو كارهٌ لواقع مجتمعه السيء ، مُنكِرٌ لفعالِه البشعة ، مبتعدٌ عن كل عاداته وتقاليده الْمُخْزِيَة . .

ولكنَّ محمدا لم يقف عند حدود السلبية من هذه الموبِقات ، ولا اكْتَفَى بِلَعْنِها وترذِيلها ، بل انصرف إلى التفكير فيما يجب أن يعمله حتى يخلِّص أبناء قومه مما هم فيه من كُفرٍ وضلال . .

. . ثم يترامى فكرُه إلى أبعد من حدودِ مجتمعه واستئصال مساوِئه بكثير . . فيتطلع إلى الإنسانية بأسرها . . فيركن إلى التأمُّل والتفكُّر . . ويجذبه الكون بعوالمه ، فيروح يتبصر بما يتناهى إليه الفكر . . ثم يقرِّر الانقطاع إلى الوحدة ، والانفراد بالنفس ، والرجوع إلى العقل ، متأهِّباً للعمل الكبير . . علَّه يجد الحلول التي تجلب الخلاص . . وفي غارِ حراء ، كان انقطاعه . . وفيها كانتْ خَلْوَتُه ، إلَّا من نفسٍ تتأمَّل وتراقب ، ومن عقل ينقِّب ويفتِّش . .

. . وما عتم أن قادته فطرتُه السليمةُ ، وبصيرته النافذة إلى معرفة حقائق الوجود ، وإلى إدراك أسرار الحياة . . فكانت تلك المعرفة أولَ

تمهيدٍ لاستقبال الوحي الإلٰهي في يومٍ ما . .

نعم ، إن محمد بن عبد الله ـ قبل أن ينزل عليه جبريل الأمين بالوحي من ربه ـ إنسانٌ يتدرَّجُ في مراقي الكمال من مراحل عمره . وهو يتزوَّد بحقائق الحياة ، فتقوده الحقائق إلى ما وراء هذه الحياة ، فيعرف خالقه حقَّ معرفته . . ثم . . يصير على موعدٍ معه كي يمنحه الهدايةَ الكاملة ، والفضل الأكبر . . .

وإذا كان محمد قد استحقَّ هذا الفضل بذاته ، ولذاته ، فإن الشهادات التي تزكِّي هذا الفضل الأكبر دليل على استحقاقه لها .

فشهادات أبناء قومه تتوالى من كل صوب ، بعد أن رأوه يتفرَّدُ بخصال وفضائل لم يألفوها عند غيره . وشهادة زوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها بحقِّه لها قيمتُها ، لأنها أقرب الناس إليه وأكثرهم معرفة به . . كما أن الشهادة العظمى بحقه تأتيه من ربه لأنه هو الأعلم بذاته وحقيقته . . .

فهو عند أبناء قومه الصادق الأمين ، بعد اقتناعهم بأنه لا أحد فيهم على شاكلته لا في القول ولا في الفعل ولا في السلوك ، حتى صار هذا اللقب علماً خاصاً به ، لا يعرف به إلاّ هو ، ولا ينادى به غيره . . .

ولكن ، كيف اتفق لأهل مكة ، وفي ذلك المجتمع الجاهلي الضالّ ، أن يعترفوا لواحد منهم ، بهذه المزية ، وأن يُقِرُّوا له ـ من خلالها ـ بالرفعة عليهم ، وهم ، على ما هم عليه ، من الْعُنْجَهِيَّة

والافتخار بأنفسهم ، ومن التباهي والخيلاء والغرور بعظمتهم ؟ . . .

تُرى ، هل كان محمد بن عبد الله ، صاحب ثروة وغنى ، وهو لم يعرفها قبل زواجه من خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فأرادوا أن يتقرَّبوا إليه طمعاً في ماله ؟ . أم أنه كان القائد الحربيّ المرهوب الجانب حتى خافوا من بأسه وسطوته ؟ . أم أنه كان عرَّافاً بارعاً حتى تكون له حظوة عندهم ؟ . أم كان شاعراً ينطق بلسانهم ويفاخر بأمجادهم ، ويدافع عن فعالهم ، حتى تكون له مكانة خاصة في نفوسهم ؟ .

أم أنه تولى حُكمهم فَلَمسوا عَدْلَه قبل بعثته ، أو تسلَّم مقاليد منصب كبير فأذعنوا إليه وتملَّقوه لينالوا رضى منصبه ؟ .

لا ، لم يكن لمحمد شيء من ذلك . ومع ذلك اتفق أهل مكة ومن كان يأتيهم من العرب ، على أنه الصادق الأمين الحَرِيُّ بأسمى مراتب الكمال . .

وليس في ذلك أيُّ عَجَبٍ أو استغراب ، إذا علمنا أنَّ محمد ابن عبد الله لم يكن الإنسان العادي ، ولا كان واحداً من أبناء قومه في المَظْهَرِ والمخبر ، بل لقد امتاز عن أبناء مجتمعه ، بصفات إنسانية عالية ظهرت لأبناء قومه واضحةً كوضوح الشمس ، وفرضتْ عليهم الاعتراف لصاحبها بما يستحقه . .

نعم ، إن محمداً ﷺ ـ بالسلوك القويم وبالقول الصادق والعقل

السليم ـ امتلك قلوب الناس مِنْ حوله ، وحاز على تقديرهم وإعجابهم .

وبعد شهادة الناس له ؛ تأتي شهادة زوجه خديجة رضي الله عنها . فإنه عندما بلغ الأربعين من عمره الشريف ، متردّداً بين غار حِرَاء للتعبُّد وبين الخلوة بنفسه للتأمُّل والتفكُّر ، ينزل عليه جبرائيل عليه السلام ـ وهو في وحدته ـ ويفجؤه الوحي ـ وهو في خَلْوَته ـ ويُلقِّنه أخوه الأمينُ أولَ آياتٍ يحملها إليه من ربِّه :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾(1) . .

ويتلقى محمدٌ ﷺ الوحيَ ، فترتعد فرائصه ، ويرتجف جسده ، ويرتاعُ قلبُه . . فيعود إلى بيته ، لتلقاهُ زوجُه خديجة رضي الله عنها ، مضطرباً ويقول : زَمِّلُوني دَثِّرُوني ! ! ! فيروعها منظره ولكنها لم تؤخذ ولم تضطرب ، بل تبذل ما في وسعها حتى تؤمِّنَ له جوَّ الارتياح والاطمئنان ، ثم تُقْبِلُ عليه مسرِّية تسأله عما أصابه وكيف وصلت به الحال إلى هذا الحد من الاضطرابِ والقلق . فيخبرها بما جرى له في غار حِراء . وتستمع بتمام الإصغاء إلى نبأ الوحي فترتاحُ نفسها ، ويغتبطُ قلبُها ويهنأ بالها ، وتحسُّ بأنها توشك أن تحلِّق في أجواء الإشراق والإيمان . .

فها هو ذا زوجُها محمد يفوز بالمكانة الرفيعة عند ربه ، ويكون

---

(1) سورة العلق ١ ـ ٥ .

رسوله إلى العالمين ، ويكون خاتم المرسَلين ، ويكون النبيَّ المُنْتَظَر المُبَشَّرَ بِهِ من رُسُلِ الله في كُتُبِ الله . .

أجل ، لقد أدركت خديجة بفطرتها الصافية السليمة ، جلالة المسؤولية التي يُلقيها الله تعالى على هذا الزوج الكريم، فرأت نفسها تسجد دون اختيار مسبِّحةً بحمد ربِّها ، موقنة بقدسيته وجلاله . . ثم نهضتْ تُدَثِّره وتُزَمِّلُه وهي تفكِّر . . هل أحدٌ غير هذا الزوج أحقُّ بأن يكونَ موضعَ الرسالة ؟ .

وهل أحد غير محمد أقدر على حمل الأمانة ؟ . .

إنَّ خديجة تنطلق من الصفات التي تعرفها في زوجها . والمرأة الحكيمة هي أكثر الناس معرفة بالزوج ، وقد تكون معرفتها له أكثر من معرفته بنفسه ، لأنه قد لا يلتفت إلى محاسن نفسه فتكون الزوجة هي الدالة على تلك المحاسن . فكيف إذا كانت هذه الزوجة خديجة بنت خويلد ؟ تلك التي آمنت بالنبأ العظيم ، وصدَّقت الوحي ، فكان عليها أن تزيل القلق من نفس زوجها ، وأن تطمئنه قائلة : « ابْشِرْ يا محمد ، فلا والله لا يُخزيكَ الله أبداً ؛ إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِم ، وتَصْدُق الحديثَ ، وتُقْري الضيفَ ، وتَحْمِلُ الكلَّ ، وتُكْسِبُ المعدوم ، وتُعين على نوائب الدهر . . ابْشِرْ يا ابنَ عمي واثْبُتْ ؛ فوالَّذي نفسُ خديجةَ بيدِه إنِّي لأرجو أن تكونَ نَبيَّ هذه الأمَّة » . .

لقد عرفتْ خديجة الأمرَ كما عرفهُ سيِّدُها . . ثم ما إن قالت كلمة الحقِّ ، حتى ذاعت الأخبار بأن النبيَّ الموعودَ لذلك الزمان قد

بُعِثَ . . فشهادةُ الزوجة العظيمة ، شهادةٌ عظيمةٌ مبنيةٌ على واقع حياة زوجها العظيم ، وعلى أفعاله العظيمة التي حفلت بها حياته ، وعلى أعماله الجليلة التي أبرزت مزاياه الإنسانية . .

ثم تأتي الشهادة الكبرى . . الشهادة التي يطرب لها الإنس والجان والملائكة . . والتي يشدو لها الطير فتتجاوب لشدوه أصداء الكون ، وتبتسم لها الزهور ، ويتراقص لها الندى على الأوراق ، وتهتزُّ لها الأشجار وتُغنِّيها الرياح ، وتنتشي لها سائر مخلوقات الله ! .

ولماذا لا ينفعل ويطرب كل مخلوق في هذا الوجود ؟ أوليس كل شيءٍ يتصف بما يتصف به محمد من حيثُ أنه مخلوق ؟ فإذا نال مخلوق صفة العظمة بشهادة الخالق فكيف لا تُسَرُّ وتَغْتَبِطُ وتطرب جميعُ مخلوقات الله لهذه الشهادة ؟ .

تلك هي شهادة الله تبارك وتعالى إذ يقول لنبيِّه صلى الله عليه وآله : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1] .

وهل أعظم منها شهادة ، وأرفع منها وساماً في مدَى الدهر ، ومن الأبَدِ إلى الأزَل ؟ .

الله أكبرُ ما أجَلَّها شهادةً تصدر عن الله ، في الثناء على صفات مخلوقهِ ! . .

وهل أجلّ من الخُلق سجيَّةً وأسمىٰ منه مزية يمكن للإنسان أن يَتَّصِف بها في الحياة ؟ . .

---

(١) سورة القلم ٣ .

إنها شهادةٌ تُقَوِّمُ الإنسانَ بذاته ولصفاته ، وتَخلدُ على الدهر أنشودةَ العظمةِ في فَمِ الدَّهر وفي مشارق الأرض ومغاربها :

يا محمَّد ، إنَّك لعلىٰ خلق عظيم ! ! !

هذه هي الشهادات التي تزكِّي محمداً الإنسان . شهادة من الناس ، وشهادة من الزوجة ، وشهادة من خالق الناس وبارىء الكون بأسره ؛ فحقَّ لصاحبها أن يكون المصطفى من البشر ، والمختار من الخلائق لحمل الأمانة الكبرى التي يريدها الله منار هداية للناس ؛ وليس من باب المصادفة أن يكون أول التنزيل تركيزاً على العلم والمعرفة : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ . ولا من باب المصادفة أيضاً أن يليه التنزيل الثاني تأكيداً لأهميَّة العلم والمعرفة فيكون : ﴿ ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُون ، ما أنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُون وإن لك لأجراً غير مَمنُون وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظيم ﴾ . . . لأنه ليس شيء كالعلم يحتاج إلى تبيان أهميَّته ، ولا كالمعرفة شيءٌ حَرِيٌّ بالعناية . ولذلك بدأ الله تعالى الوحي بذلك . ولذلك قال : رسول الله محمد ﷺ : «إنَّ أولَ ما خَلَقَ الله تعالى القَلَم ، وقال له : اكتبْ . فجرى في تلك الساعة بما هو كائن . » .

ثم يتتابع الوحي على قلب محمد لإكمال تربيته وتوجيهه ، فيخاطبه الله سبحانه من عليائه ، في ثالث تنزيل : يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا[1] .

---

(١) سورة المزمل ١ ـ ٤ .

.. وهكذا تترى التربية من الملأ الأعلى ، وهي تتدرج بمحمدٍ من العلم بحقائق الكون والحياة ، وبمعرفة أخبار الأمم والشعوب حتى تصل إلى إعداده النفسي الذي يمكِّنه من تلقي القول الثقيل الذي ينجم عنه العمل الجليل .

ولكن هذه الصلابة في التربية ـ تكليفه بالعبادة أكثر ساعات الليل ـ هي تدريبٌ على الأتعاب وتحمُّل الصعاب . فمن الصلاة والقيام والقعود والركوع والسجود إلى تلاوة القرآن ، إلى ترتيله ؛ إذ في الترتيل أنغام السلام الذاتي ، والشفاء النفساني ، إذ كلَّما تلا محمَّـدٌ القرآن ، انبعثَتْ في نفسه الراحة وازداد الاطمئنان ، خصوصاً في جو معارضة دعوته ، وفي خضمِّ مقاومتها ، وفي الحال التي يلاقيها في يومه من قومه وقد أقبل الكلّ على التصدِّي له في دعوته ، ومحاربته بشتى الوسائل والسُّبُل . . .

نعم ، هذا هو محمد بن عبد الله ، الإنسانُ والرَّسول .

الإنسان الذي امتلك تلك الشخصية الفريدة التي تميَّزت بخصال نادرة ، وحفلت بقيم وعطاءات جليلة ، فكانت الشخصية التي تنمُّ عن اكتمال تكوينه ، وعن سموّه وعظمته .

وهو الرسول الذي لم تكن لغيره المكرمة التي خصَّه الله بها عندما جعله رسولاً للناس كافة .

ومما لا شك فيه ، أن محمداً لو لم ينزل عليه الوحي ويخاطَب من السماء لكانت له القدرة على أن يقيم مجتمعاً إنسانياً رفيعاً . ولكن

الله عزَّ وجلّ أتمَّ عليه نعمته ، فجعله نبياً ورسولاً كريماً ، وبذلك اجتمعت له الفطرة الإنسانية العالية بالتربية الذاتية المثالية : ثم تلاقيا بالإعداد الرّباني السخيّ ، فكان التكامل الإنساني ، فالتأديب الإلّهي الذي عَبَّرَ هو ذاته ﷺ عنه بقوله : « لقد أدَّبني رَبِّي فأحسنَ تأديبي » .

وهكذا كانت الفطرة الإنسانية السليمة الصافية في محمد ، مقدمة للرسالة الإلّهية ، وما كانت إحداهما لِتُغْنيَ عن الأخرى . فما كانت رسالة الإسلام الشاملةُ لِتَنزِل على غير ذي نفس صافية ، وعقل كامل ، وفكر مدرك ، وشخصية عالية كما رأينا في نبيِّنا عليه أفضل الصلاة والسلام . كما أنها ما كانت تلك السجايا والملكات ، مهما بلغت من الكفاية بمغْنِيَةٍ عن تلك الرسالة الكريمة ، لأنها وحدها لا تؤهل صاحبها لأن يعي الماضي بكل ما فيه ، وأن يتدبَّر حاضره بكل ما يَحفِلُ به ، ثم يتشوَّق إلى مستقبلٍ كريمٍ بكل ما سيكون عليه ، بل كان ربَّما انحصر اهتمامه في حيِّز زمانه وفي نطاق بيئته . ولكنْ شاء الله العليّ الحكيم ، أن يكمِّل ذاتية محمد بما منحه من الهِبات ، حتى يكون قادراً على تلَقِّي الوحي ، وعلى تبليغ الرسالةِ إلى بني الأرض في أسمىٰ معانيها وأرفع غاياتها ، فبُعثَ في مجتمَعٍ كان له من النُّضجِ العقلي ما يُمكِّنه من استيعاب تعاليم السماء والعمل بموجبها إنْ هو أراد تحقيق الإنسانية بأجلى صورها في الأرض ، أو تطلَّع إلى الكمال النهائي فيما بعد الحياة الدنيا . . .

وهكذا نرى : أن محمداً صلَّى الله عليه وآله وسلم ـ بما هو فيه وعليه من الكفاءاتِ الهائلة النَّادرة ، وبعد حمل أمانة السماء وتأديتها

رغم عُتُوّ جبابرة قريش ومن لفَّ لفَّهم من حوله ـ نراه يشكِّل بذاته وصفاته معجزةً كبرى ، إذ المعجزة بحد ذاتها ليست سوى العمل الذي تضعف أمامه قدرة الإنسان مهما بلغت من الرقيّ والعظمة ، وهل المركز الإنسانيُّ الرفيعُ الذي احتلَّه محمد بن عبد الله ﷺ بجهده الشخصيّ وتوفيق بارئه ، إلا دليلاً قاطعاً على بلوغ مرتبة لا ينالها أحد غيره من بني الإنسان ؟ ! فالناس ـ سائرُ الناس العالمُ كلُّه ـ سواء أمام معجزة محمدٍ الإنسان الواحد في معناه وسموُ ذاته . . .

وإذا كان البشارةُ الأولى بِبَعْثِ محمدٍ قد حفلت بها التوراة ، وحَفِل بها من بعدها الإنجيل ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[1] فإن إغفال هذه البشارة ومحاولة كتمانها وطمس معالمها ، ولا سيما وهي في الأيدي الإسرائيلية المزوِّرة التي أدخلَتْ كثيراً من التحريف على الكتب السماوية ، وعلى تعاليمها الإلٰهية ، ما عدا القرآن الكريم الذي قال الله تعالى فيه :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[2] . .

نعم إن العمل المنسَّق الدائب على إخفاء تلك البشارة قد كان ، ولكن لا يخفى أنه قد اصطدم بالحقيقة التي بعد أن ذاعتْ لا تُخفىٰ ، ألا وهيَ بَعْثُ محمد بن عبد الله ﷺ نبيّاً ورسولاً ، وخاتماً للأنبياء والمرسَلين . هذا البعثُ الذي جاء مِلءَ سمعِ الدُّنيا وبَصَرِها ، إيذاناً

(١) سورة الأعراف ١٥٧ .

(٢) سورة الحجر ٩ .

منه للبشريَّة باتباع هذا الرسول حتى يكون لها الفلاح في الدنيا والآخرة ، وفقاً لعهد الله الذي قطعه على نفسه في مُحْكَم كتابه الكريم ، عندما أجاب مَرَدَةَ اليهود الذين قالوا : رَبَّنا . . . ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ بقوله الحازم الجازم : ﴿عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(١)

ذلك هو الجوابُ الصريحُ على طَمْسِ البِشارة ، يوجِّهُهُ الله تعالىٰ لليهود وللناس في كل زمان ومكان . . وهذه هي الدعوة الصريحة للناس من ربِّ العالمين ، وبمقتضاها يكون الناموس الأوحد في الأرض يكشف الطريق الرحب في دار الدنيا ، والدرب السليم إلى الحياة الآخرة . . . إنها دعوةُ الحقّ من الحقِّ ، تَصدرُ عن الحق ، وما على المؤمنين إلا الاستجابة إليها . . .

هذه الدعوةُ من ربِّنا وخالقنا ، هي ما نستلهمُهُ في استجلاء حياة الرسول صلَّى الله عليه وآله وسلم في هذه المحاولة المتطاولة أمام

---

(١) سورة الأعراف ١٥٦ ـ ١٥٧ .

عظمة النبوَّة ، وكلُّنا أملٌ بأن يُمِدَّنا الله تعالى بالتوفيق ، حتى توفِّيَ صاحبَ الرِّسالة حَقَّهُ من التقدير ، وبأن يمنَحنَا قَبَساً من هُدَى الدعوة ، لِنَعمَلَ ما فيه الخير للإنسانية جمعاء .

واللهُ وَلِيُّ ٱلتَّوْفِيق .

الفَصْلُ الأَوَّل
حَيَاةُ الرَسُول الكَرِيْم قبل البِعْثَة



مُعْتَقَدَاتُ العَرَبِ قَبلَ الإسْلام وَوَاقِعهُمُ الجُغرَافِي وَالاقْتِصَادِيُ

أرضُ العرب قبلَ الإسلام بلادٌ واسعة تكادُ تبلغ مساحتُها مساحةَ رُبع القارَّة الأوروبية كلِّها ، وهي تقع في الجنوب الغربي من قارَّة آسية ، وقد أطلق عليها جغرافيُّو العرب اسمَ « جزيرة العرب » فجاء في معجم البلدان لياقوت الحمويّ : « تسمَّى جزيرة العرب لأنَّ اللسانَ العربيَّ فيها شائع » في حين أن المؤرخين سمّوها شبه جزيرة العرب لأن البحار تحيط بها من ثلاث جهات : البحر الأحمر من الغرب ، والمحيط الهندي من الجنوب ، والخليج العربيّ من الشرق ، في حين تؤلِّف اليابسة ناحيتها الشمالية ، وهي الباديةُ الممتدة ما بين وادي الرافدَين والأراضي السورية .

هذه البلاد ، ذات الرقعة الجغرافية الشاسعة ، قسمها المسلمون إلى خمس مناطقَ رئيسيةٍ : الحجاز (ويمتد من أيلة ـ العقبة إلى اليمن)، تهامة الأرض المنخفضة على طول شاطىء البحر الأحمر ، اليمن ، العروض وهي تتصل بالبحرين شرقاً ، وبالحجاز غرباً وسميت بالعروض لاعتراضها بين اليمن ونجد ، وتسمى أيضاً باليمامة ،

ونجـد[1] ، وهو الجـزء المرتفـعُ الذي يمتـدُّ من جبال الحجـاز ويسير شرقاً إلى صحراء البحرين ، وهو مرتفع فسيح فيـه صحاري وجبـال . وقد تغلبت الصحراوية على أرضها ، وسادَ الجفافُ جوَّها ، لإحـاطتها بـالسلاسـل الجبلية التي تحـول دون إشباع أجـوائها بـرطـوبـة البحـار المحيـطة بها ، إلَّا في بعض المنـاطق الجبليـة ، التي عـرفت منـاخـاً معتدلاً ، كما في صنعاء من اليمن .

وقد نَتَج عن هذا الجفافِ قلَّةُ الأمطار ، وعدمُ وجود الأنهار وينابيع المياه ، بَيد أنَّ هناك بعض المجاري المائية في الأودية المتأتية عن المطر القليل الذي يَنزل خلالَ فترةٍ وجيزةٍ من العام ، والتي لا تلبث أن تجفَّ لتجعلَ من تلك المجاري طرقاً يسلكها سكانُ شبه الجزيرة في بحثهم عن الكلأ والماء ، أو مسالك للقوافل التجارية التي كانت تعبر في أماكن عديدة وتتوجه إلى شتى البلاد المجاورة .

إن هذا التكوين الجغرافي ، القاسي في طبيعته ، كانت له آثاره البعيدة على اقتصاديات تلك البلاد ، فكانت الزراعةُ قليلةً ، والصناعة شِبْهَ معدومة ، في حين عرفت بعضُ المناطق التجارةَ بشكل واسعٍ ، كما في اليمن ومكة المكرمة .

وبسبب نُدرة المطر ، وقلَّة الخصب ، اتَّجهت أنظار البدويِّ إلى الرَّعي والانتقالِ من مكانٍ إلى آخر بحثاً عن الكلأ والماء . ثم ساعد العربَ على الارتحال شيوعُ الأراضي وعدمُ امتلاكها ، حيث كان لكل

---

(١) يرجح الرواة هذا التقسيم إلى عبد الله بن عباس (رض).

قبيلةٍ أن تُقيم في المكان الذي تختار ، وطَوالَ المدة التي تريد . إلاَّ أن هذه الحريَّةَ في امتلاك الأراضي لم تكن مطلقةً تماماً ، بل كانت تَخضع لقوَّة القبيلة وقُدرتها على الاحتفاظ بالْوَاحة التي اختارتها للإقامة . فإذا وَهَنَ عزمُها ، وضعفت قُوَّتُها ، صارتْ عرضةً للغزوِ من قبيلة أخرى ، ومن يُكتب لها النصرُ تصبح صاحبةَ الحق في الملكية . وهكذا كانت مواطنُ الماء والكلأ من أهمِّ العوامل الدافعة للاقتتال والغزوات بين القبائل ، وغالباً ما كان يؤدِّي التناحُر فيما بينها إلى التهجير والأسر ، وإلى اسْتِلَابِ المواشي ومواردِ الرزق .

وإلى جانب الغزوات كانت الغاراتُ، تلك التي يَشنُّها المغيرون على الواحات المجاورة لمناطق تَوَاجُدِهم ، حيث كانوا يَنهبون المحاصيلَ ويسوقونَ المواشي والقطعانَ ، أو كانوا يأتون أصحابَ تلك الواحاتِ مُهدِّدين ، بالقوَّة ، فإمَّا دفعُ جزيةٍ من المال ، ومقابلها حمايةُ القبيلة من المُغيرين من أيَّة جهة أتَوْا ، وإما جرُّ القبيلة إلى الويل والثبور وعظائم الأمور . .

والغريب في أعراف ذلك المجتمع القَبَليّ أنَّه كان يعتبر الغزوات أو الغارات ، أو فرض الجزية مصادرَ للكسب والارتزاق ، يُقِرُّها الواقع وتفرضها ظروف العيش ، حتى صارت بمثابة القانون السائد في مناطق البدو الرُّحَّل . بيد أنه كان إلى جانبها مصدرٌ آخر للكسبِ وهو حماية القوافل التجارية وإرشادها إلى الطرق التي تسلكها لقاء أُجور يدفعها أصحابها لأبناء القبائل التي تمر في جوارهم . وغالباً ما كانت هذه الأجور تخضع لقانون العرض والطلب .

هذا وقد كان بعض هؤلاء البدو الرُّحَّل ، يحملون منتوجاتهم من الحليب والألبان والأوبار ، لبيعها من ساكني المدن ، وشراءِ ما يحتاجون إليه من السِّلَع التي كانت تُساعدُهم على العيش في البادية .

ولعلَّ أهم ما تميَّز به هؤلاء الأعراب ، الذين كانت حياتهم تقوم على الرَّعي والارتحال ، هو احتقارهم للزراعة واعتبارها عملاً غير جديرٍ بالمُباهاة ، في حين أن العملَ الرفيعَ في نظرهم هو الرّعي بحريته وانطلاقه ، حتى إن هذه النظرة انعكستْ على شِعْرِهم ، فَحَفِلت قصائدُهم وأشعارُهم بمعاني الحرية ولذّة العيش في البادية الفسيحة ، وتحقير من يرضى بالزراعة مورداً للعيش .

وإذا كانت تربيةُ المواشي ، والنَّهب ، وفرض الجزية وأجور حماية القوافل التجارية هي موارد الرزق لأهل البادية من العرب الرحَّل ، فإن الأمر يختلف بالنسبة لأهل القرى ، وسكّان المدُن الذين كانوا يُقيمون في مناطق آثرتها الطبيعة ببعض فَيضِها ، حيث يهطُلُ المطر وتُخصبُ الأرض ، مما جعلَ أهلَها ينصرفون إلى الزراعة والاهتمام بها . وليس بناء سَدِّ مأرب في اليمن إلاَّ مثالاً لهذا الاهتمام ، طالما أريدَ به حصر مياه الأمطار والإفادة منها في الزراعة وريّ المواشي والبساتين والحدائق .

ورغم هذا الاهتمام ، كانَت المزروعاتُ قليلةً ، بعضُها يتناول الحبوب كالقمح في اليمن . والأرزّ في الحسا وعمان ، والشعير والذرة في مناطق متعددة ، والأشجار كالنخيل والتين والزيتون ، والكرمة والرّمان في المناطق الْمُخْصِبة ، ولكن أكثرها انتشاراً كانت

شجرة النخيل والكرمة . فمن زراعة النخيل أنتجوا التمور بأنواع متعددة وجعلوها المادة الرئيسية للغذاء . ومن هذه الثمار استخرجوا دبساً ونبيذاً ، كما هدتهم التجربةُ إلى استعمال بعض أجزاء النخلة في الطبابة والمداواة من بعض الأمراض ، واستعملوا أوراقها للكتابة .

وكالنخل اشتهرت زراعة الكرمة لجني العنب ، وصناعة الزبيب واستخراج الخمور . وغنيٌّ عن البيان كم كان للخمرة من شأنٍ في الجاهلية ، حتى لا يكاد يخلو شِعْرٌ من ذِكْرِ الخمرة والتَّغزُّل بلذتها حتى إنها اقترنت بِغَزَلِ النساء . . .

وإلى جانب هذه المزروعات وجِدَ في جنوبي شبه الجزيرة العربية موردٌ طبيعي هام وهو إنتاج التوابل والطُّيوب كالْبَخور واللبان والقرفة . وهذه كلها كانت موضعَ اهتمامِ العالَمِ المتمدن ، في تلك الحقبة من التاريخ ، حتى إنها شكَّلت سبباً لاحتلال المناطق التي أنتجته ، كما حصل في بلاد الهند مثلاً ، وإن لم تعرف بلادُ العرب مثل هذا الاحتلال . وقد اتَّجر العرب بهذه المواد ، وصارت بلادُهم مصدراً رئيسياً لتصديرها إلى البلدان الأخرى المجاورة لأرض الجزيرة ، كسورية ولبنان والعراق ، وفلسطين ، ومصر ، ومن شواطىء هذه البلدان كانت تُنقل إلى اليونان والرومان في أوروبا .

وقد اعتبر العربُ التجارة مهنةً شريفة ، فأقدم عليها الأشرافُ وسادةُ القبائل ، حتى شاعت عند الكثيرين من سكان الحواضر ، وباتت مورداً للغنى والثراء ؛ ولعل أبرز البلدان التي عرف أهلها التجارة واتخذوها سبيلاً هاماً للكسب هي مكة المكرمة التي كان

يساعدها موقعها الجغرافي على ذلك إذ كانت ملتقى طرق القوافل التجارية إلى اليمن وإلى الحيرة والشام وإلى نجد وغيرها .

وكانت تتصل من البحر الأحمر القريب منها بتجارة العالم لوقوعها في وسط طريق القوافل المحاذي لهذا البحر ما بين اليمن وفلسطين . ولن ننسى أنه قد ساعد مكة على ازدهار الحياة فيها حكمةُ سيدها هاشم بن قصيّ بن كلاب فهو الذي سنَّ رِحْلَتي الشتاء والصيف ، الأولى إلى اليمن والثانية إلى الشام ، فسمت مكانتها في أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها ، واعتُبِرت العاصمة المعتَرف بها . ثم ساعد على هذا الازدهار أن هاشماً وإخوته أبناء عبد مناف عقدوا مع جيرانهم معاهدات أمنٍ وسلام ؛ فعقد هاشم بنفسه مع الامبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدة حسن جوار ومودَّة ، وحصل من الأمبراطور على الإذن لقريش بأن تجوب بلاد الشام في أمن وطمأنينة ؛ ثم عقد عبدُ شمس معاهدةً تجارية مع النجاشي ، كما عقد نوفلُ والمطلبُ حِلْفاً مع فارس ومعاهدة تجارية مع الحميريين في اليمن . وبذلك صار لمكة من اليسار ، وصار لأهلها من المهارة في التجارة ، ما جَعَلَ الأسواق تُنصَبُ فيما حولها لتصريف التجارة التي تأتيها من كل صوب ، وهذا ما جعل أهلها يبرعون في النَّسيئة[1] والربا وفي كل ما يتصل بالتجارة من أسباب المعاملات .

وإذا كان العرب قد عرفوا التجارة البرية بصورة مبكِّرة ، فإن

---

(١) النسيئة : التأخير في دفع ثمن المباع ، لقاء زيادة تضاف إلى الثمن .

التجارة البحرية عندهم كانت متأخرة ، ولم تُعرَف إلا في العصر الإغريقي ، وبشكل خاص أيام الإسكندر المقدوني وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام العربُ بنشاطٍ تجاري بحري واسع عبرَ مياه الخليج باتجاه نهر الفرات شمالاً حتى مدينة سلوقية . ولكنَّ هذا النشاط تراجع في مطلع القرن الأول قبل الميلاد بسبب تكثيف البطالة لنشاطهم التجاري في مصر ، وإحكام سيطرتهم الاقتصادية في البحر الأحمر والمحيط الهندي ، إلا أنه رغم هذا التأخر ، فقد عاد العرب إلى ممارسة التجارة البحرية بعد منتصف ذلك القرن ، وتصاعد في القرن الثاني ، بعدما أُنشئت الموانىء وازداد عددها .

وإذا كان العرب قد عرفوا الزراعة في بعض مرافقها ، وازدهرت عندهم التجارة على نطاق واسع ، فهل كانت لديهم ، قبل الإسلام ، معرفة بأمور الصناعة ومزاولتها ؟

حتى قيام الإسلام ، لم تكن الثَّروات المعدنية في شِبْهِ الجزيرة العربية قد اكتشفت . ولكن الأبحاثَ كانت قد دلَّت على وجود الذهب ، ولا سيما في شمالي سبأ ، فعرف العربُ ذلك ، سواء في مادته الخام ، أو على شكل قطع معدنية، فزاولوا عَمَلَه ، وصاروا يبادلونه بالفضة والنحاس مع الأماكن المجاورة لهم ، خلال المقايضات التجارية . وكذلك عَثر المنقِّبون على بقايا من رصاص في المباني الأثرية في اليمن ، وهي تشير إلى أنه كان يُصهر قديماً ثم يصب لتقوية أسس البناء .

هذا وقد عُرفت في اليمن صناعة السيوف ، وبعض أنواع

النسيج ، وقد دلَّت نصوص الجاهلية على أن صناعة النسيج قد بلغت مستوىً رفيعاً من المهارة .

ومما عرفه العرب أيضاً ، بعض أنواع الأحجار الكريمة كالعقيق والزمرد وما إليهما . .

وبالإجمال يمكن القول بأن الصناعة لم تكن ذات شأنٍ كبير في حياة العرب الاقتصادية ولعل مردَّ ذلك كان يكمن في احتقارهم العمل اليدوي ، رغم حاجتهم إلى السلع المصنوعة ، وكثرة ذكرها في أشعارهم .

هذا مجمل لبعض الملامح العامة عن حياة العرب الاقتصادية ، الزراعية منها والتجارية والصناعية ، فكيف كانت عليه معتقداتهم الدينية ؟

المُعتَقَداتُ الدِّينيَّة

مما لا شك فيه أن الباحثين في الغرب قد اهتموا اهتماماً كبيراً ، بالمعتقدات الدينية التي كانت سائدة في شبه الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام . وقد ذهبوا في ذلك مذاهب كثيرة ، بعضها يميل إلى الاعتدال ، وبعضها يغلب عليه التعصُّب لأسباب شتى ، مما يفرض علينا الرجوعَ إلى التراث العربيِّ نستقرئه في هذا المجال ، خاصة ولن ننسى أن القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف ، قد صوّرا لنا مذاهب العرب ومعتقداتهم الدينية أصدق تصوير ، الأمر الذي جعل المؤرخين المسلمين يبحثون هذه الأمور بشكل واسع ومطوّل .

فلو رجعنا إلى الشهرستاني في كتابه « الملل والنحل » لوجدناه يفسِّر لنا كيفية ظهور الوثنية وعبادة الأصنام في شبه الجزيرة العربية ، بعد أن عرفت ملة إبراهيم عليه السلام ، إذ يقول : « قبل أن نَشرَع في ذكر مذاهب العرب نريد أن نذكر حكم البيت العتيق ـ حرسه الله ـ ونصل بذلك حكم البيوت المبنية في العالم ، فإن منها ما بني على الدِّين الحق قبلةً للناس ، ومنها ما بُني على الرأي الباطل فتنةً للناس . وقد ورد في التنزيل : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾[1] وقد اختلفت الروايات في أول مَنْ بَناه . فقيل إنَّ آدم عليه السلام لما أُهبط إلى الأرض وقع على سرنديب من أرض الهند . وكان يتردد في الأرض متحيِّراً بين فقدان زوجته ووجدان توبته حتى وافى حواء بجبل الرحمة من عرفات وعرفها . وسار إلى أرض مكة وتضرَّع إلى الله تعالى حتى يأذن له في بناء يكون قبلةً لصلاته ، ومطافاً لعبادته ، كما كان قد عهد في السماء من البيت المعمور الذي هو مطاف الملائكة ومزارُ الروحانيين ، فأنزل الله تعالى عليه مثالَ ذلك البيت على شكل سرادقَ من نور ، فوضعه ، فكان البيت ، وكان يتوجه إليه ويطوف به .

ثم لما توفي ، تولى وصيُّه شيث عليه السلام بناءَ البيت من الحجر والطين على الشكل المذكور . ثم لما خرب بطوفان نوحٍ عليه السلام ، وامتدَّ الزمان حتى غيض الماء ، وقُضي الأمر ، انتهت النبوَّة إلى إبراهيم الخليل عليه السلام ، الذي حمل زوجه هاجر ، إلى

---

(١) سورة آل عمران ٩٦ .

الموضع المبارك ، فولدت اسماعيل عليه السلام هناك ، فترعرع وشبَّ برعاية والدته ، ثم كان مجيء إبراهيم عليه السلام لزيارة عائلته واجتماعه به على بناء البيت ، وذلك لقوله تعالى :

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾(١) فرفعا قواعد البيت على مقتضى إشارة الوحي ، مراعيين فيها جميع المناسبات التي بينها وبين البيت المعمور . وشرّعا المناسك والمشاعر محفوظاً فيها جميع المناسبات التي بينها وبين الشرع الذي جاء به محمد ﷺ. وتقبل الله تعالى ذلك منهما ، وبقي الشرف والتعظيم لهذا البيت الكريم إلى زماننا هذا وسيبقى إلى يوم القيامة دلالة على حسن القبول .

ثم يتابع الشهرستاني حديثه فيقول : « وأولُ من وَضع فيه الأصنام عمرو بنُ لحيّ بن عامر الخزاعي ، فإنه لما سار قومه إلى مكة واستولى على أمر البيت ، ثم صار إلى مدينة البلقاء بالشام ، فرأى هناك قوماً يعبدون الأصنام ، فسألهم عنها ، فقالوا : هذه أربابٌ اتَّخذناها على شكل الهياكل العلويَّة والأشخاص البشرية ، نَستنصر بها فنُنصَر ، ونَستقي بها فنُسقىٰ ، ونَستشفي بها فنُشفىٰ . فأعجبه ذلك وطلب منهم صنماً من أصنامهم ، فدفعوا إليه « هبل »، فسار به إلى مكة ، ووضعه في الكعبة ، وكان معه « إساف ونائلة » (صنمان على شكل زوجين) فدعا الناس إلى تعظيم هذه الأصنام والتقرُّب إليها والتوسُّل بها إلى الله تعالى : وكان ذلك إلى أن أظهر الله الإسلام ،

---

(١) سورة البقرة ١٢٧ .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأخرجت جميع الأصنام من الكعبة الشريفة وحُطِّمت » .

هذه إحدى الروايات التي تفسِّر ظهور الوثنية عند العرب .

وهنالك روايات أخرى تُشبه في جوهرها روايةَ الشهرستاني . فقد أورد « ابن الكلبي » في كتابه « الأصنام »، روايةً تقول بأن « نسل إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام ، لما تكاثروا ضاقت بهم أم القرى ـ أي مكة ـ فبدأت العداوات والمنازعات والحروب بينهم . ونتيجةً لتلك الحروب أخرج البعضُ منهم الآخرين ، فراحوا يتنقلون في البلاد سعياً للمعاش . وكان كلما رحلَ من مكة راحلٌ حملَ معه حجارة الحرم ، تعظيماً له وحباً بمكة . فحيثما حلّوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة تيمُّناً وتبرُّكاً ، وهم بعد يُعظِّمون الكعبة ومكة ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل .

ثم تطوَّر الأمر بهؤلاء القوم إلى أن عبدوا ما استحبّوا ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام غَيَرهُ ، فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأممُ قبلَهم ، وعبدوا أيضاً ما كان يعبد قومُ نوح على إرث ما بقي فيهم من ذكرها ، وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، يتنسكون بها من تعظيم البيت والطواف والحج والعمرة والوقوف على عرفة ومزدلفة ، وإهداء البُدن ، والإهلال بالحج والعمرة مع إدخالهم فيه ما ليس فيه »

وهكذا يتبين من هاتين الروايتين ، وغيرهما من الروايات في التراث ، أن العرب في الجاهلية ، وقبل بُزوغ شمس الإسلام

ساطعة ، كانوا في الغالبية الساحقة منهم على الوثنية .

وبالفعل كان العربُ في تلك الحقبة من تاريخهم يؤمنون بقوى غيبية ، يُطْلِقون عليها اسم « الآلهة »، وكانت سائر الأمم قد سبقتهم إلى هذه التسمية ، فالاغريق والرومان ـ أصحاب الحضارات المعروفة ـ كانوا على الوثنية وأطلقوا على أصنامهم أسماء مختلفة للآلهة . وكان الاعتقاد سائداً بأن سُكنى الآلهة في الكواكب ، أو أنها موجودة في قوى الطبيعة ، أو في مظاهر النبات ، والجماد ، والطير ، والحيوان . . وبخلاف غيرهم ، لم يكن إيمان العرب بتلك القوى الخفية ليمنع عنهم معرفةَ الله ، بل على العكس ، فقد أقرّوا بوجود الله ، وبأنه الإلّهُ الأعظمُ ، وصانعُ الكون كله ومدبِّره . ورغم ذلك وقعوا في الشِّرك ، وعبدوا الأصنام لِتُقَرِّبهم إلى الله زلْفَى ، بدليل قوله تعالى : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[1] .

وهكذا كان لكل قبيلة صنم أو وثن[2] وهو رمز الإلّه ، وموضعُ

---

(١) سورة الزمر ١٣ .

(١) الصنم ، ما اتخذ إلّهاً من دون الله ، والوثن ما لا صورة له .
قال أهل اللغة : « ما اتخذوه من آلهة وكان غير صورة فهو وثن . فإذا كان له صورة فهو صنم . وقيل في الفرق بين الوثن والصنم : « إن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة يُنحت ويعبد ، والصنم هو الصورة بلا جثة ».
ومن العرب من جعل الوثن المنصوب صنماً .
وقد روي عن الحسن (ع) أنه قال : « لم يكن حيٌّ من أحياء العرب إلا وله صنم يعبدونه يسمى أنثى فلان . ومنه قول الله عز وجل : « إن يدعون من دونه إلّا إناثاً ».

العبادة والتقديس وقد كانت الأصنام يطاف بها في مكة ، فيشتريها أهل البادية ويخرجون بها إلى بيوتهم . ولعلَّ أهم أصنام العرب وأوثانهم كانت :

ـ العزّى ، وقد عبدها آل غطفان . وهي شجرةٌ كانت بوادي نخلة شرقي مكة ، وكان سدنتها من بني صرفة بن مرة . عظَّمتها معهم قريش ، وقبائل غنى وباهلة .

ظلَّت العزَّى قائمة حتى انتصر الإسلام ، فقطعها خالد بن الوليد وهو يكفرها بقوله :

يـاعُزَّ كفـرانك لا سبحـانـك إني رأيتُ الله قـد أهـانـك

ـ اللاّت ، وهي صخرةٌ مربعة بيضاء قيل إنهم استقدموها من البتراء في الأردن ، بُنيَ عليها بيت للعبادة ، ومقرها الطائف ، كانت موضع عبادة عرب الحجاز وعرب الجنوب .

كانت ثقيف تضاهي ببيت اللات هذا الكعبة المكَّرمة ، وقد جعلت له ضحية وكسوة حتى صارت العرب تكبِره ، وإن ظلَّ إكباره بعيداً عن أن يصل إلى مكانة البيت العتيق .

وقد دام بيت اللات قائماً حتى نَصرَ الله دينه القويم ، فأرسل النبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة ، فهدماه وحطَّما صنمه .

ـ مَنَاة ، وهي أيضاً صخرة كبيرة منصوبةٌ على ساحل البحر ، في

موازاة ما بين مكة والمدينة ، عبدَها الأوس والخزرج وأَزد شَنُوءَة . كانوا يحجّون إلى الكعبة في مكة ، ويقفون مع الناس المواقف كلها دون أن يحلِقوا رؤوسهم ، فإذا نفروا أتوا « مناة » وحلقوا عندها ، لا يرون لحجهم تماماً إلا بذلك . وقدَّست تلك الصخرة أيضاً قبائل هذيل وخزاعة وغيرها .

وأبرز آلهة العرب الجنوبيين كانت :

ـ « وَدّ » وهو صنم في دومة الجندل ، وسدنته من بني كلب .

ـ « سواع »، صنم هذيل وكنانة ومزينة ، وهو حجر تعبده عشائر مضر ، وقبائل « سواع »، ولذا كانت سدانته لبني صاهلة من هذيل ، بينما كان « يغوث » صنم قبائل مذحج وهوازن ، ومقامه في « أنعم » قاتلهم عليه بنو غطيف ففروا إلى نجران ، وكان « يعوق » صنم همدان وخولان ، وقد أقاموا في مكان يسمَّى « الأرحب ». وإليهما يضاف « نسر » معبود حِمْيَر في أول الأمر ، ثم قدَّسته فيما بعد بعض القبائل في المناطق الشمالية .

أما أصنام قريش فأبرزها :

ـ « إساف ونائلة »، وقيل في الأسطورة إنهما كانا زَوجَين ، مارسا مرةً الجماع في الكعبة فَمُسِخا حجَرَين ، فصارت قريشٌ تعبدهما بعدمـا وجدتهما في مكة . وكان موضع « إساف » إلى جانب الحجر الأسود من الكعبة الشريفة ، بينما « نائلة » وضعت بإزاء الركن

الجنوبي ، وقد نقلتهما قريش إلى موضع زمزم ، وكانوا ينحرون عندهما ويذبحون .

ـ « مناف » وبه اشتهر اسم « عبد مناف » .

ـ أما أهمُّ آلهة قريش ، بل العرب كلها ، فقد كان « هبل » . وهو صنم على صورة إنسان نحت من عقيق أحمر ، وقد كسرت يده اليمنى ، فجعلت له قريش يداً بديلة من ذهب . وكانت تلبية من نسك إلى هبل : « لبيك اللهم لبيك ، إننا لقاح ، حرمتنا على أسنة الرماح . يحسدنا الناس على النجاح » .

ومن شدة تعظيمهم لهبل ، كان القرشيون لا يقدمون على أمر ، إلَّا إذا جاؤوا إليه واستقسموا عنده ، سواء من أجل سفر ، أو احتكام على شأن ، أو إعلان نبأ هام . . . وعند هبل ضرب عبد المطلب ، جدّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالقداح عندما أراد أن يفتدي ولده عبد الله أبا النبيّ عليه أفضل الصلاة والسلام .

« وهبل » هذا كان موضع الضَّرَاعة والابتهال من مشركي قريش في حربهم مع المسلمين . باسمه كانوا ينادون طالبين أن ينصرهم ، وكم ترددت منهم الصرخات ومنها صرخة أبو سفيان بعد وقفة أحد : « أعلُ هبل »، ولكنها كانت صرخة الشرك التي لا بد أن تُدْحر ويُدَمَّر أهلوها الضالون .

ويمكن أن يذكر من أوثان العرب وأصنامها ، بصورة سريعة «الخُلَّصة» بأسفل مكة وكانوا يلبسونها القلائد ويهدون إليها الشعير

والحنطة ويصبون عليها اللبن ويعلقون بها بيض النعام . « جهار » لهوازنْ بعكاظ ، و« الغلس » لطيء ، و « السعيدة » في أُحُد ، عبدتها قضاعة ، وسدانتها في بني العجلان . و « ذو اللبا » لعبد القيس . و « المحرق » لبكر بن وائل وسائر ربيعة . و « ذريح » لكندة باليمن . و « مرحب » في حضرموت ، وسادنه ذو مرحب نسبة له ، و « ذو الكفين » وكان لخزاعة ودوس ، كسره عمرو بن حممة وهو يقول :

يا ذا الكفين لست من تلادك ميــلادنــا أكبــر من ميــلادك

ولبيان كثرة الأصنام والأوثان عند العرب في الجاهلية ، يكفي أن نشير أنه كان في جوف الكعبة وفنائها ما يزيد على ثلاثماية وستين صنماً .

تلك على الغالب كانت الآلهة المكرمة عند عرب الجاهلية . صخور أو أحجار أو أشجار . . فواعجباً لأولئك الذين سوَّلت لهم أنفسهم أن يَعْزُوا الألوهية إلى مثل تلك الجوامد وليس فيها ما يروع ولا يفتن أضعف العقول . بل العجب كله أنهم استرسلوا في الأوهام حتى صورت لهم أحلامهم شتى الظنون . . . فقد كانوا يعتقدون مثلاً بأن للعزّى شيطانة تبدو في بعض الأوقات على صورة امرأة شَعثَة ذات شعر كثيف يتدلى على الأكتاف . ولذلك أقاموا لها معبداً خاصاً يتولى السدانة فيه أربعة من شياطين الإنس مــاهرون بأساليب التدليس ومراسيم العبادة المفتعلة التي ورثوها عن أسلافهم لأنها كانت تدُرّ عليهم المال الوفير . وجعلوا حول ذلك المعبد فسحات تُلقى فيها

لحوم الأضاحي من البُدن[1] التي كان يأتي بها أصحاب النذور للعزَّى بين آن وآن ليذبحوها عند صنمها أو شجرتها إذا برىء مريض أو عاد غائب أو وضعت أنثى أو تحققت أُمنية من أماني النساء وأشباه النساء من الرجال ؛ وإذا لم يكن في مقدور بطون السَّدنة أن تَهضم كلّ لحوم تلك الجمال ، فقد كان لا بد أن يتركوا بقيتها في العراء هي وروثها فتنتن ويملأ نتنها الجوَّ حتى تأتي وحوش الجبال والفلوات المحيطة بتلك البقاع فتريح الناس منها بما تحمل منها بطونها الجائعة . ومع ذلك لم يكن لها انقطاع ولولا أنها كانت تحت الريح الغالبة وشمس الجزيرة المحْرِقة ، لما ترك وباؤها أحداً ممن يعيشون في الديار المجاورة .

نعم تلك كانت مقدَّسات عرب الجاهلية . وقد منحوها القدسية والعبادة لتوهمهم بأنَّ تلك الأنصابَ هي مقرٌّ للأرواح .

فلما جاء الإسلام ، نبَّه القرآن الكريم إلى خطر هذا الوهم الأفَّاك الذي هو من عمل الشيطان زرعهُ في العقول والنفوس ، وطلع على الناس بالآية البيِّنة : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[2] .

ولقد تعرَّض ابن الكلبي في كتابه « الأصنام » لمعتقدات العرب

---

(١) البدن : الجمال التي يضحى بها .

(٢) سورة المائدة ٩٠ .

الدينية ، مشيراً إلى أنها معتقدات لا تدل على المنطق والموضوعية وإنما كانت العاطفة تلعب فيها دوراً كبيراً ، فقال : « واشتهرت العرب بعبادة الأصنام ؛ فمنهم من اتَّخذ بيتاً ، ومنهم من اتَّخذَ صنماً . ومن لم يقدر عليه ، ولا على بناء البيت ، نصب حجراً أمام الحرم ، وأمام غيره مما استحسن ثم طاف به تَطَوُّفَه بالبيت . فكان الرجل إذا سافر ، فنزل منزلاً ، أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها فاتخذه ربّاً ، وجعل ثلاثة أثافيَّ[1] لِقِدْره . وإذا ارتحل تركه . فإذا نزل منزلاً آخرَ فعل مثل ذلك ؛ وكانوا ينحرون ويذبحون عند تلك الأحجار ويتقربون إليها » . .

ولما كانت الكعبة هي بيت الله العتيق ، فقد اتخذ العرب تَيَمُّناً بها بيوتاً لأصنامهم كانوا يسمونها كعبات يحجون إليها ، مثل كعبة الطائف ، بيت « اللات » وكعبة ذي الحلقة وهي الكعبة اليمانية . ولكن رغم ذلك ظلَّت الكعبة في مكة أشهر كعبة عند العرب وحولها أقامت القبائل أكثر أصنامها . وهكذا حافظت الكعبة على مكانتها ، وبقي العرب يعتبرونها حارسة لمعتقدهم الديني ؛ فإليها يحجّون كل عام ، ويقيمون الشعائر . . وكان من شعائرهم الطواف حول البيت أسبوعاً ، والسعي بين الصفا والمروة ، والوقوف في عرفَة ، ومنها ينزلون إلى المزدلفة ثم إلى منى ، حيث يبقون إلى ما قبل الشمس ثم يعودون إلى مزدلفة ، إلا قريشاً فإنها لم تكن تقف في عرفات أو تخرج إلى مزدلفة ، وهي تقول : لا نعظم من الحل ما عظم من الحرم ؛ فبنى قصيّ المشعَر ، وكان يسرج عليه ليهتدي به أهل عرفات إذا أتوا

---

(١) أثافي : الأثفية : الحجر من ثلاثة تنصب وتوضع عليها القدر جمع أثاف وأثافي .

مزدلفة ، فأبقاه الله مشعراً ، وأقرَّ الوقوف عنده . وفي هذا الوقوف في الجاهلية قال العامريّ :

فأقسم بالـذي حجَّت قريش   وموقف ذي الحجيج إلى إلال[1]

وقد كانت القبائل العربية تختلف في طوافها بأصنامها . ولكن طوافهم على الأغلب ، كان سبعة أشواط . وبعضهم كان يطوف عرياناً ، وبعضهم مرتدياً الثياب ؛ وكانوا يرمون الجمرات في منى .

ومن شعائرهم في الحج كانت التلبية ، وهي تختلف من قبيلة إلى أخرى ، وإن أشرك أكثرهم في تلبيته . فكان نُسك قريش لإساف : « لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْك ، لا شَرِيكَ لَكَ إلَّا شريكٌ هُوَ لَكَ تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَك » .

والحَجُّ عندهم كان في الأشهر الحُرُم : رجب ، ذو القعدة ، ذو الحجة ومحرم . والحج إلى مكة كان في شهر ذي الحجة . ومن عاداتهم أنهم كانوا لا يُبيحون في هذه الأشهر دماً ، ولا يشنُّون حرباً ، وإذا صادف وحصلت أثناءها حرب ، دُعيت حرب الفجَّار ـ مشتقة من الفجور ـ وعدّت انتهاكاً لحُرمة البيت الحرام . وقد قيل في لغة العرب : الفاجر هو الساقط عن الطريق ، المائل عن القصد . والفجور معناه : شقٌّ ستر الديانة أو شقٌّ للستر وخرقٌ للحجاب . ومن هنا كانت الحرب في الأشهر الحرم تعتبر فجوراً . .

وقد كان لكل بيت من بيوت العبادة عند العرب سدنة (حجّاب)

---

(١) اسم جبل عرفات .

وكانت سدانة الكعبة في مكة لبني عبد الدار ؛ وإلى جانب السدنة ، قام أناسٌ اشتهروا في العرب بالكهّان وهم الذين كانوا يدّعون معرفة الغيب . ومن هؤلاء من ذاع صيته وعمّت أخباره ، أمثال سطيح الذائبي ، وشق بن مصعب الأنماري ، من الرجال ، وكاهنة بني سعد ، وكاهنة ذي الخلصة من النساء . .

ومن عادات العرب التي تتعلّق إلى حدٍّ كبير بالدِّين ، أنهم كانوا يغتسلون من الجنابة ، ويُغَسِّلون موتاهم ، كما أن من معتقداتهم تكفين الموتَى والصلاة عليهم ، حيث كانت تقوم هذه الصلاة على حمل الميت في سرير ، ووقوف وليِّه عليه يذكر محاسنه ويثني عليه ثم يختتم ذلك بالقول : عليك رحمة الله .

ومن هنا كان معنى الصلاة في الجاهلية الدعاء . وفي ذلك قال شاعر جاهلي من بني كلب لأبيه :

أعمرُ : إن هلكتَ وكنتُ حيّاً فإني مكثرٌ لك من صلاتي

وقال راجز جاهلي متحدِّثاً عن الكَفَن :

وتُبعاً قد أهلكتْ وذا يَزن وذا نواسٍ أهلكتْ وذا جَدَن
فحظه مما حوى وما خزن مسحة كافورٍ وغسل وكفن

هذه على الغالب كانت مظاهر الوثنية في معتقدات العرب الدينية . على أن الوثنية وإن كانت الديانة الكبرى في شبه الجزيرة إلا أن الكثير من سكانها كانوا على اتصال دائم بالأمم المجاورة لحدود الحجاز كاليمن وسوريا ، وبخاصة قريش التي كانت تستغل جوار

البيت فتجوب البلاد للتجارة وغيرها في فصلي الشتاء والصيف من كل عام . وكانت مكة من أوفر المدن الحجازية بوسائل العيش وأسباب الراحة ، هذا فضلاً عن أن القريشيين كانوا على اتصال دائم ببلاد الحبشة للأغراض التجارية وغيرها . وهذا الاختلاط القائم على التجارة كان يزود أهل الحجاز بالمعلومات عن حضارة تلك البلدان وعاداتها وتقاليدها ومعتقداتها مما جعلهم يستفيدون منه في تحسين أوضاعهم إلى حد ما . . وكما استفاد عرب الحجاز من جيرانهم ، استفاد كذلك عرب الحيرة من جيرانهم الفرس الذي كان لهم الاشراف على تلك البلاد وإدارتها ورعاية شؤونها، وكان ملك الفرس يختار أحياناً بعض العرب لإدارة بعض أعماله . ويذهب بعض المؤلفين إلى أن عرب الحيرة قد تسربت إليهم بعض علوم اليونان وآدابها . وهم يعتمدون في ذلك على أن الحكومة الفارسية في عهد هرمز الأول أنشأت بعض المستعمرات وأقامتها على سواعد الأسرى الرومانيين وكان من بين هؤلاء من تأثروا بالثقافة اليونانية وسبقوا الفرس أشواطاً بعيدة في الهندسة والطب وغيرها . وقد نزل هؤلاء الحيرة وامتزجوا بأهلها . ولا يستبعد بعض الباحثين أن يكون هؤلاء المصدر الأول لانتشار الديانة المسيحية بين عرب الحيرة

إذن فإلى جانب تلك الوثنية التي عرفتها شبه الجزيرة قامت معتقدات أخرى مختلفة ، كالصابئة والدهرية والحنفية واليهودية والنصرانية . . .

فأمّا الصابئة ، وهم قلّة ، فقد عبدوا النجوم والكواكب ، وأقام معظمهم في المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة ولا سيما في حران ما بين النهرين .

ويعتبر ابن النديم أن جماعة منهم « آمنت بإبراهيم عليه السلام وحملت الصحف التي أُنزلتْ عليه من الله سبحانه ».

وفي الواقع تبدو معتقدات الصابئة أنها كانت مزيجاً غريباً من التوحيد ، ومن عناصر خرافية تقوم في الشيء الكثير على التنجيم والسحر ؛ فكانوا مثلاً يُعَظِّمونَ الجنَّ والشياطين ، إضافة إلى الكواكب ، ويجعلونها واسطةً بينهم وبين الله ، ويقدِّمون إليها القرابين .

وتدل بعض الأبحاث على أن تعظيم الجن ، وتقديسه لم يكن من معتقدات الصابئة وحدهم ، بل معتقدات كثير من العرب الذين أقروا بوجودها وبقدرة ما تتمتع به من قوى خارقة، مما وسَّع نشر الأساطير حول الجن. فلما جاء الإسلام، كان للجن سورة خاصة في القرآن الكريم لدحض ذلك الاعتقاد السخيف، وإبطال الوهم الذي سيطر على تلك العقول حتى باتت تظن أن الجنَّ شركاء لله، فقال سبحانه وتعالىٰ :

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ [1] .

أمَّا الدَّهريون ، وكانوا قِلَّةً أيضاً ، فإنهم لم يدِينوا بإله ولم يتَّبعوا

---

(١) سورة الانعام ١٠٠ .

ديناً معيَّناً ، بل قامت عقيدتهم على أن الدهر هو الذي جاء بهم وهو يهلكهم .

فالصابئةُ ، والدهرية ، تَمزج ما بين الوثنية والقوَى الخفيَّة الغريبة ، فتؤمن الأولى بالله وتجعل بينه وبين الشياطين نسبَاً . بينما يثقل الدهر على الثانية ، ويغلب طوله على عقلها ، فتراه وحده هو القادر والغالب . وهكذا تضرب كل منهما في وثنية من نوع خاص ، تختلف عن عبادة الأصنام والأوثان لدى غيرها من العرب .

وفي خضم تلك الوثنيات المتعددة ، قام الأحناف الذين لم يستسيغوا أية وثنية منها ، بل رأوا فيها ضروباً من الخرافات التي لا يقبلها عقل ولا يقرّها فكرٌ ، فراحوا يبحثون لهم عن دين يهديهم إلى الحق حتى اهتدوا إلى ملَّةِ إبراهيمَ الخليل سلامُ الله عليه ، فاتَّخذوها دِيناً وآمنوا بالله الواحد الأحد وعبدوه ودَعَوا إلى عبادَته . وقد عُرِف هؤلاء الأحناف في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية ، وأوردت كتب التاريخ أسماء بعضهم أمثالَ قسٍّ بنِ ساعِدَةَ الإيادِيِّ الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الله في سوق عكاظ ، وصِرمَةَ بنِ أبي أسن ـ وهو من بني النجار ، أخوال النبيِّ ﷺ وكان سكنه في المدينة المنوَّرة . وفي مكة قام أيضاً عددٌ منهم كانوا يأخذون على بني قومهم ضيق الأُفق في التفكير والضياع بين زحام المعتقدات السخيفة ، فحرَّموا على أنفسهم ما أحلَّه غيرهم ، كالخمر والميسر والأزلام . . ومن الأحناف المكيِّين عبد المطلب بن هاشم ـ جدُّ الرسول الكريم ﷺ ـ وقيس بن عاصم التميمي .

وينوّه بهؤلاء الأحناف ابنُ هشام في السيرة النبوية ، حيث يقول : « قال ابن إسحٰق : واجتمعت قريش يوماً في عيدٍ لهم عند صنم من أصنامهم ، كانوا يعظِّمونه ، ويخرُّون له ، ويعكفون عنده ، ويديرون به ، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً . . فخلص منهم أربعة نفر نجيّاً . ثم قال بعضهم لبعض : تَصادقوا ، ولْيَكْتُمْ بعضُكم على بعض ؟. قالوا : أجل ، وهم ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصيّ بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي . وعُبيد الله ابن جحش بن رئاب بن يعمر بن صبيرة بن مرة بن كبير بن غنم ابن دودان بن أسد بن خزيمة ، وكانت أمّه أميمة بنت عبد المطلِب . وعثمان بن الحويرث بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ . وزيد بن عمرو ابن نفيل بن عبد العزى بن عبد الله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عديّ ابن كعب بن لؤي .

فقال بعضهم لبعض: تَعلَمونَ والله ما قومُكم على شيء. لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، وإنهم يعبدون حجراً ، لا يَسمع ولا يُبصر ، ولا يضرُّ ولا يَنفع !. يا قوم الْتَمِسُوا لِأَنْفُسِكُم دِيناً فإنكم والله ما أنتم على شيء ، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية ، دين إبراهيم . .

فأمّا ورقة بن نوفل فاستحكم في النصرانيةِ واتَّبع الكتب من أهلها حتى علم علماً من أهل الكتاب . وأما عبيد الله بن جحش فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم ثم هاجر مع المسلمين إلى

الحبشة ، ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان مسلمة ، فلما قَدِمها تنصَّر وفارق الإسلام .

وأما عثمان بن الحويرث فقدم على قيصر الروم ، فتنصَّر وحسنتْ منزلته عنده .

وأمّا زيد بن عمرو بن نفيل فوقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية ، وفارق دين قومه ، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان ، ونهى عن قتل الموءودة ، وقال أعبدُ ربَّ إبراهيم ، وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

قال ابن إسحاق :

وحدَّثني هشام بن عروة عن أبيه عن أمّه أسماء بنت أبي بكر ـ رضي الله عنهما ـ قالت : لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل شيخاً كبيراً مسنّاً ظهره إلى الكعبة وهو يقول :

يا معشر قريش ! . والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري . ثم يقول : اللَّهمَّ لو أني أعلم أيّ الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحته .

قال ابن إسحٰق :

وحدثت أنَّ ابنه سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وعمر ابن الخطاب ـ وهو ابن عمه ـ قالا لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم :

أَنَسْتَغْفِر لزيد بن عمرو ؟

قال : نعم ؛ فإنه يبعث أمَّة وحده .

وقال زيد بن عمرو بن نفيل نفسه ، في فراق دين قومه ، وما كان لقيَ منهم في ذٰلك :

أَرَبّاً واحداً أم ألف رَبّ أدينُ إذا تقسّمتِ الأُمورُ
عَزَلتُ اللاّتَ والعُزَّى جميعاً كذلك يفعل الجَلْد الصَّبورُ
فلا العُزَّى أدِينُ ولا مَناة ولا صَنَمَيْ بني عمرو أزورُ
ولا هُبَلاً أدين وكان رَبّاً لنا في الدهر إذ حلمي يسيرُ
عجبتُ وفي الليالي مُعجباتٌ وفي الأيام يعرفها البصيرُ
بأن الله قد أفنى رجالاً كثيراً كان شأنهُمُ الفُجورُ
وأبقىٰ آخرين ببِرِّ قومٍ فيربل[1] منهم الطفلِ الصغيرُ
وبينا المرء يفتر شاب يوماً كما يتروَّح الغصن المطيرُ[2]

وبعد هذا الإنكار لمعتقدات قومه ، يتوجه زيد بن عمرو ، بعد توبة نصوح ، إلى عبادة الرحمٰن الحق ، فيتابع قائلاً وهو يستغفر ربَّه :

ولكن أعبد الرحمن ربي ليغفر ذنبيَ الربُّ الغفورُ
فتقوى الله ربّكم احفظوها متى ما تحفظوها لا تبوروا
ترى الأبرار دارهمُ جِنانٌ وللكفَّار حاميةً سعيرُ
وخزيٌ في الحياة وإن يموتوا يلاقوا ما تضيق به الصدورُ

---

(١) . ربل ربلاً القوم : كثروا أو كثرت أموالهم وأولادهم .
(٢) : المُطَيَّرُ : المشقوق ، المكسور .

وقد لقِيَ زيدٌ الكثير من العَنَتِ والعُنف من الخطَّاب والد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه . فنَزَحَ من مكَّة يطلب دين إبراهيم عليه السلام ، ويسأل الرهبان والأحبار حتى بلغ الموصل والجزيرة والشام ، وانتهى إلى راهبٍ في أرضِ البَلْقاء ، فسألَه عن الحنيفية فقال له : إنك لتطلب دِيناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم ، ولكن قد أطلَّ زمان نبيٍّ يخرج من بلادك التي خرجتَ منها ، يُبعث بدين إبراهيم الحنيفية فالْحَقْ به ، فإنه مبعوث الآن ؛ هذا زمانه .

فعادَ سريعاً حتى توسَّط بلاد لَخم فعدوا عليه وقتلوه .

وهكذا يتبيَّنُ لنا كمْ شهدَتْ بلاد العرب من تنوُّعٍ في العقائد الدينيَّة : كعبادة أصنام ، وإيمان بأوثان ، واعتناق للصابئة والدهرية والحنيفية ، وهذه الأخيرة أقربها إلى الدين الصحيح لأنها كانت على دين إبراهيم الخليل أبي الأنبياء عليهم السلام ، وإن كان بعض رُوَّادها قد اعتنقوا النصرانية فيما بعد ، مما يدل على أن النصرانية قد عرَفها العرب ، كما أنهم عرفوا قبلها اليهودية أيضاً في مناطق متفرقة من بلادهم . فكيف كان ذلك ؟ .

يُثبت التاريخ أنَّ بعضاً من اليهود قد عاشوا في اليمن والحجاز ، ولكن : من أين جاؤوا ؟ ومتى ؟ ولماذا ؟ .

تلك أسئلةٌ لا يقطع الجدل فيها يقين ، ولكن يبدو أن عدداً من اليهود قد هاجروا إلى بلاد العرب من فلسطين هرباً من القتل الذي أوقعه فيهم قيصر الروم طيطوس ، بعدما هدم هيكلهم في

سنة ٧٠ للميلاد ، أو بعد الداهية الدهياء التي حَلَّتْ بهم من قيصر الروم هدريان سنة ١٣٢ ميلادية .

فقد حدثت في هاتين السنتين موقعتان عظيمتان بين الشعب اليهودي والقياصرة ، وكان النصر فيهما لحكَّام روما ، فرأى كثير من اليهود أنَّه لا مفرَّ من القتل والتعذيب على يد أولئك الحكَّام ، إلا بالهرب من تلك البلاد إلى بلاد أخرى ، فهاجر نفرٌ كبيرٌ إلى اليمن وهاجر آخرون إلى الحجاز ، حيث لا تطالهم يدُ القياصرة .

وبدأ اليهود حياتهم في اليمن ، كما يبدأ كل شعب مهاجر ، في الخدمة عند أسياد البلاد ، وفي الزراعة ، والحرفة ، ولكن لم تمر سنوات طويلة حتى كانت لهم مكانة اقتصادية هامَّة وصار لهم شأنٌ كبيرٌ في تلك البلاد ؛ مما ساعدهم على الدعوة إلى دينهم ، حتى وصلوا بهذه الدعوة إلى نشرها واعتناقها من قبل ملوك اليمن والحميريين . وأول هؤلاء الملوك الذين اعتنقوا اليهودية كان ذو نواس الحِمْيَري ، وهو صاحب قصة الأخدود الذي أحرق فيه أهل نجران .

أما يهود الحجاز فكانوا أكثر عدداً من يهود اليمن ، وأكثر تأثيراً على العرب في البقاع التي سكنوها في تلك المنطقة .

وأهم مواطنهم فيها ، كانت الواحات الحجازية في يثرب وخيبر وتيماء ووادي القرى . وكانت أبرز عشائرهم وأظهرها قوةً وبأساً ، تعيش في يثرب ، وهي من بني قُرَيظة ، وبني قَيْنُقاع ، وبني النَّضِير . وقد انصرف يهود يثرب إلى معاطاة الزراعة والصناعة ، مما أكسبهم

قوةً اقتصادية وجعلهم يتبوأون مكان الصدارة بين القبائل التي جاورتهم . ولكنهم بعد أن فازوا بتلك المكانة لم يتخلوا عن أساليب المكر والخداع وحبك المؤامرات التي اشتهروا بها أينما حلُّوا ، حتى يتمكَّنوا من إضعاف غيرهم والإفادة من هذا الضعف من أجل تحويله قوةً في صالحهم . . وبمثل هذه الأساليب ، أوغَلَ اليهود في يثرب ، يحيكون المؤامرات ، ويدبِّرون الخلافات بين القبائل المحيطة بهم ، وكان أقواها : الأوس والخزرج ، وبالفعل نجح اليهود في الوصول إلى الغاية التي سَعَوا إليها ، ووقعت العداوات بين القبيلتين ، وتأجَّجت نار العصبية فيهما ، حتى وصلت إلى القتال العنيف الذي كاد يفتك بجمعهما . وظلَّ اليهود على دأبهم هذا ، يُشعلون نار الفتنة بين الأوس والخزرج ، وهؤلاء لا يفطنون إلى الشَّرَك الذي يُدَبَّر لهم . حتى حَلَّ الإسلام وآخَى الرسولُ الكريم بين القبيلتين ، فوقفتا له ناصرَتَين . . .

ولكن هذه العصبيَّة التي أنبتها اليهود كرهاً للعرب لم تكن قاصرة على أهل يثرب ؛ بل إن تعصُّب أهل خيبر وتيماء وفدك ووادي القرى لم يقلَّ عنها عداوةً وبغضاء . .

ومما اشتهر به أيضاً يهود شبه الجزيرة ، إتقانهم اللغة العربية وآدابها ، حتى نبغَ منهم شعراء ما تزال آثارهم تشهد على طول باعهم بمعرفة تلك اللغة ، كالسَّمَوأل بن عادياء الذي ضرب به المثل في الوفاء والحفاظ على الأمانة . وقد صدق الله العظيم حيث يقول :

﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ

إِلَّا مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَآيِمًا (1) . . ولكن اليهود ـ رغم حذقهم ومهارتهم في الاحتيـال والتَّمَلُّق ، ورغم قدرتهم على التـأثير في البيئـة التي يعيشـون فيها ـ لم يستطيعوا أن يستميلوا العرب إليهم ، بـل ظلَّ هؤلاء بعيـدين عنهم ، وعن دينهم . . . ولعــلَّ الصفـاء الــذهني الــذي أنعمتْ بــه الصحراءُ على العربي ، قد أغناه بحصانة ضد الاحتيال والرياء ، فقبع بعيداً عن أُناسٍ عـرف، أنهم لا يطيبُ لهم عيشٌ إلا بمزاولة استغـلال الآخرين . . . ولعلَّ اعتماد العربي على الشجاعة والمـواجهة هي التي منعته أيضاً من مخالطة اليهـود ، بعدمـا عرف أن دأبهـم التحيُّـل وحَبْك الدَّسائس والمؤامرات . . .

ولو كان أبناء العرب في أيامنا ، يتَّعِظُون بما سَنَّهُ لهم الأجداد رغم جاهليتهم ، لكان بقدرتهم خذل كافة المؤامرات ، ودَحر جميع المخططات ، التي يَحوكها اليهود وأمثالهم في العالم ضدّهم ليَظَلّوا مشتّتين متفرقين ، ولكان بإمكانهم ـ وقد توفَّرتْ لهم الطاقات البشرية ، والإمكانيات المادية الهائلة ـ أن يبرزوا كأصحاب مواقف جادَّة في وجوه أعدائهم المتآمرين على وجودهم والطامعين في ثرواتهم وخيرات بلادهم ، وكسادةٍ أقوياء لهم مساهمة في نشر العدل والسلام في العالم ، ونصيبٌ بالمشاركة في إرساء قواعد المدنية الحديثة ، والتعاون من أجل نفع الإنسانية وخيرها . . .

تلك هي اليهوديَّة التي عرفها أبناء شبه الجزيرة العربية . .

---

(1) سورة آل عمران ٧٥ .

أما النصرانية فقد انتشرت في اليمن وفي شمالي شبه الجزيرة . . ولعلَّ سبب وجودها هنا وهناك ، يعود إلى محاولة قياصرة الروم ـ الذين دخلوا في الدين المسيحي ـ نشر هذا الدين في أرجاء مختلفة من الأرض ، إضافة إلى أسباب أخرى تتعلَّق بالأوضاع الخاصة في المناطق .

فقد بدأ انتشار الدين المسيحي في اليمن حوالى القرن السادس الميلادي ، عندما بعث إليها النجاشي عاهل الحبشة ، بجيش يقوده أرياط للانتقام من ذي نواس لما فعله بأهل نجران . فغزا أرياط اليمن ومَلكها باسم عاهل الحبشة ، ثم ظلَّ على حُكمها حتى قتله أحد جنوده أبرهة الأشرم وتولى الأمر مكانه . وأبرهة هذا هو الذي بنى كنيسة القليس لصرف الناس عن عبادة الكعبة حتى إذا أخفق قام بحملة على مكة لهدم البيت العتيق ، فأخفق أيضاً ، ولاقى هو وجيشه الموت الزؤام ، كما سترى في متن هذه القصة . .

وقد عرفت النصرانية عند عرب الحيرة الذين أنشأوا دولة المناذرة في تلك المنطقة التي تفصلهم عن المناطق التابعة لحكم الرومان .

ورغم أن أهل الحيرة لم يكونوا كلهم على النصرانية ، فإن ملوك المناذرة أيضاً لم يكونوا كذلك ، وقد قيل إن آخر ملوكهم ، النعمان ابن المنذر اعتنق النصرانية ، بينما قيل إن امرأته هنداً هي التي اعتنقت النصرانية ، وكان تأثرها بتعاليمها شديداً إلى درجة أن أقامت ديراً للرهبانية ظل يعرف بدير هند إلى ما بعد القرون الأولى من تاريخ الإسلام .

في الوقت الذي كانت تخضع فيه الحيرة لحكم المناذرة في ظل الانتداب الفارسي ، قامت دويلة أخرى في بلاد الشام تحت الانتداب الروماني عرفت بإمارة الف سنة ؛ وقد امتد نفوذهم إلى حوران والبلقاء ، بعد أن اتخذوا مدينة جلق ، قرب الشام ، عاصمة لهم .

وكان من أبرز أمراء الغساسنة الحارث بن جبلة الذي عيّنه الامبراطور الروماني جوستنيان سنة **٥٢٩** ميلادية أميراً على جميع القبائل العربية في جهات سوريا ، ومنحه لقب (فيلارك أو بطريرك) ، وقد كان نصرانياً على مذهب اليعاقبة.

وظل حكم الغساسنة قائماً إلى أن غزا الفرس بلاد الروم واستولوا على اورشليم والقدس سنة **٦١٤** ميلادية ، فانحط شأن الغساسنة . وكان آخر أمرائهم جبلة بن الأيهم الذي عاصر ظهور الإسلام . وقد ذكر بعض المؤرخين أنه ذهب إلى المدينة والتقى الخليفة عمر بن الخطاب (رض)، فأكرم وفادته . ولكن حصل أن وطأ رجل فزاري ، على غير قصد منه ، إزار جبلة ، فما كان من الأمير الغسانيّ إلّا أن لطمه على رأسه ، فشكاه إلى الخليفة . وأراد الخليفة أن يحاكم جبلة على فعلته ، فلما أيقن ذلك فرَّ إلى القسطنطينية وبقي فيها حتى آخر حياته . . هذا في حين أن رواية اليعقوبي تقول بأن جبلة ابن الأيهم طلب من الخليفة عمر بن الخطاب (رض) أن يأخذ منه صدقة أمواله كما يفعل مع المسلمين ، إلّا أن الخليفة أصر عليه بأن يدفع الجزية ، لأنَّ الصدقة هي فرض على المسلم ؛ فما كان من جبلة إلّا أن ارتحل مع ثلاثين ألفاً من أتباعه إلى بلاد الروم . .

هذا وقد جاء في (تاريخ العرب قبل الإسلام) أن النساطرة من النصرانية أقاموا في الحيرة وجوارها ، بينما انتشر اليعاقبة بين الغساسنة وقبائل الشام ، وكانت نجران مركزاً لهم .

وجاء في سبب دخول النصرانية إلى نجران ، أن رجلاً صالحاً من أتباع عيسى (ع) يدعى قيميون كان قد هاجرمن بلاد الروم إلى نجران ، واستقر فيها ، ثم بدأ بنشر تعاليم النصرانية فاتبعه الناس هناك ، وما زال عددهم يزداد حتى غلبوا على أتباع الوثنية .

هذا وإن بعض الجاليات الرومية كانت قد حملت رقيقاً إلى مكة ، وكانت على النصرانية .

يضاف إلى ذلك كما رأينا أن أعلام الأحناف وهم من أهل مكة قد نزعوا إلى النصرانية ، أمثال ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، ولكنهم كانوا قلّة جداً ، حتى ذكرتهم المصادر التاريخية بأسمائهم . . .

ولكن مع ذلك فإنه يتبيّن أن النصرانية لم تتوسّع في أنحاء كثيرة من شبه الجزيرة العربية ، لأنها لم تتمكن أن تستميل قلوب أبنائها ، بل بقيت في أطرافها من الجنوب أو الشمال ، حيث سلطة الروم وقوتهم ، وحيث كان العرب محكومين لهم أو مضطّرين لمسايرتهم والتعاون معهم . .

تلك هي المعتقدات الدينية التي عرفها بعض العرب في بلادهم التي عاشت الحرية بأجلى مظاهرها وأعمق معانيها ، حتى بات

العربي ، في تلك الحقبة من تاريخه ، يرفض أية فكرة تقيِّد حريَّته وتحدُّ من انطلاقته في صحراء شاسعة لا تعرف الأنظمة والقيود ، ولا تقرّ بالقواعد ولا تعرف الضوابط . . . وإنه إن كانت تلك النزعة قد تعمَّقت في نفس العربي ، في جاهليته ، إلى درجة جعلته يكره التسلُّط من أيّ مصدرٍ أتاه ؛ فإنها أيضاً قد عطَّلَتْ مفاهيمه حول أهم القضايا الرئيسية التي واجهت العقل البشري منذ تفتُّحه على الوجود ، كقضية البعث والحياة الآخرة والخلود والثواب والعقاب ، وما إلى ذلك من القضايا التي لامست مشاعر الإنسان ؛ وقد جعل الشهرستاني العرب في نظرتهم إلى هذه القضايا على ثلاث فئات :

١ ـ الفئة الأولى التي أنكرت الخلق والبعث والإعادة فقالت : بالطبع الدهر هو المُحْيي والمُفْني ، وفي أصحابها قال القرآن الكريم : ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾(١) .

٢ ـ الفئة الثانية التي أنكرت البعث والإعادة ، فأقرت بالخالق وابتداء الخلق والإبداع ، ولكنها أنكرت النشور ، وفيها قال القرآن الكريم :

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ . وأجاب القرآن في الآية نفسها : ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٢) .

٣ ـ الفئة الثالثة : التي كانت تُنكِر الرسُل ، وقد عبـدَت الأصنام

---

(١) سورة الجاثية ٢٤ .

(٢) سورة يٓس ٧٨ ـ ٧٩ .

مع إقرارها بالخالق العظيم . وهي التي زعمت أن تلك الأصنام هي صاحبة الشفاعة لها عند الله في الدار الآخرة .

وقد أوردَ القرآن الكريم آيات عديدة حول عبادة الأصنام ، وسمَّى أهمها عند العرب بأسمائها كاللات والعزى .

وحول انقسام العرب في المعتقد الديني فِرَقاً ، يقول المسعودي : « كانت العرب في جاهليتها فِرقاً منهم الموَحِّد المُقِرُّ بخالقِهِ ، المصدق بالبعث والنشور ، موقناً بأن الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي ، كقس بن ساعدة الأيادي ، وبحيرا الراهب .

ومنهم من أقرَّ بالخالق وأثبت حدوث العالم وأقرَّ بالبعث والإعادة وأنكر الرسُل ، وعكف على عبادة الأصنام .

ومنهم من أقرَّ بالخالق ، وكذَّبَ بالرسُل والبعث ، ومال إلى قول أهل الدهر .

ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية ، ومنهم المارُّ على عُنْجَهِيَّتِه ، الرّاكبُ لهمَجِيَّتِه . وقد كان صنف من العرب يعبدون الملائكة ويزعمون أنها بنات الله » .

ويبدو أن أهم شُبهات العرب كانت تقتصر على شُبهَتَين اثنتين هما :

إنكارُ البعث ـ وإنكار الرسُل .

ولذلك فإن القرآن الكريم ركَّزَ على هاتين القضيَّتين ، وبيَّنَ

للناس بالأدلّة العقلية أن هذا الإنكار لا يستند إلى دليل بل هو مجرد قول ، كما جاء في الآية الكريمة . ﴿وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[1] . والآية الكريمة : ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾[2]. والجواب على هذه الشبهة بالآية : ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يَجۡمَعُكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ﴾[3] وبالآية : ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[4] .

وكتكذيب الرسُل كما حدَّث القرآن الكريم في أماكن كثيرة نختصرها بقول الله عزَّ من قائل : ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ۝ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ۝ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾[5] . . . وكقوله عزَّ وجل : ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ۝ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ۝ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[6] .

أمّا شعراؤهم فقد عبَّروا عن هذا الشَّك بالبعث والرسل ، فقال أحدهم :

حياةٌ ثم موتٌ ثم نشْر حديثُ خرافة يا أمَّ عمرو

وقال آخر :

---

(١) سورة الانعام ٢٩ .

(٢) سورة الجاثية ٢٥ .

(٣) سورة الجاثية ٢٦ .

(٤) سورة العنكبوت ٦٤ .

(٥) سورة الحج ٤٢ ـ ٤٤ .

(٦) سورة ق ١٢ ـ ١٤ .

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهامٍ ؟

والأصداء والهام تتصل بتصورات العرب للنفس ، إذ كانت لهم في الجاهلية مذاهب في النفس ، يقوم بعضها على الزعم بأن النفس هي الدم لا غير ، وأن الروح هو الهواء في باطن جسم المرء ومنه نفسه ، ولذلك سَمَّوا المرأة حين تَلِدُ نَفسَاءَ لما يخرج منها من الدم .

وذهبت طائفة مذهباً آخر يزعم أن النفس طائر ينبسط في جسم الإنسان ، فإذا مات أو قُتل لم يزل مطيفاً به متصوراً إليه في صورة طائر يصرخ على قبره مستوحشاً ، وفي ذلك يقول الشاعر ذاكراً أصحاب الفيل :

سلَّطَ الطَّيرَ والمَنُونَ عليهم فلهم في صدى المقابر هامُ

والهام هو هذا الطائر ، وواحدته الهامة[1] . وفي زعمهم أن الهامة تكون في أول الأمر صغيرة ثم تكبر حتى تصبح كالبوم . وفي زعمهم أيضاً أن الهامة تبقى عند ولد الميت مقيمة في ديارهم ، لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به ، ويستدل على ذلك من قول الصلت بن أمية لبنيه :

هامي تخبِّرني بما تستشعروا فتجنَّبوا الشنعاء والمكروها

ومن بعض خرافاتهم أن روح القتيل الذي لم يدرك ثأره تصير

(١) ورد في المعاجم من معاني الهامة أنها طير من طيور الليل . أو طير صغير يألف المقابر . وأنها البومة . ولكل هذه المعاني صلة بمذاهب الجاهليين وأساطيرهم حول الروح والنفس . وقيل عن الصدى بأنه الهامة أوذكرها . أو أنها طائر يخرج من رأس القتيل إذا بلي . .

هامة ، تزعق عند قبره وهي تصيح :

اسقوني !.. اسقوني !.. فإذا أُخِذَ بثأره طارت .

وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلَّم عن الاعتقاد بهذه الأساطير واعتبرها خرافة ، فلا صدى ولا هامة في دينه عليه الصلاة والسلام .

هذه بعض الملامح عن معتقدات العرب الدينية في الجاهلية . ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن العرب في نهاية العصر الجاهلي ، وقد سئموا هذه الوثنيات والخرافات ، ولم تستطع اليهودية ولا النصرانية أن تخلصهم من هذا السأم ، الذي وصل إلى درجة القلق والحيرة بحثاً عن العقيدة الصحيحة .

ولذلك نجد في شعرهم ـ وما حفظ منه يشكل الدليل التاريخي على طرق حياتهم ومنهجية تفكيرهم ، ومنه استقينا بعض ما أوردناه ـ ما يبين بصورة جليَّة أنهم وصلوا إلى حدِّ السخرية من آلهتهم ، ومن معتقداتهم ، ولذلك يقول الشاعر الكناني في سعد ـ صنم بني كنانة ـ :

أتيْنا إلى سَعْدٍ ليجمع شملنا فشتتنا سعدُ فلا نحن من سَعْدِ
وهل سعدُ إلا صخرة بتنوفةٍ من الأرض لا يدعو لغيٍّ ولا رشْدِ

وقال شاعر في ذي الخلصة (صنم بجيلة وباهلة وأزد) :

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا

مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

والحادثة أن أبا هذا الشاعر قد قتل ، فأراد الأخذ بثأره وأتى صنمه - ذا الخلصة - يستقسم عنده الأزلام فخرج السهم - مصادفة - ينهى عن الأخذ بالثأر ، ولم يُعجبْ هذا الحُكمُ الشاعرَ فقال فيه أبياته .

وهذا يظهر عدم اهتمام بعض القبائل بالإله الذي تعبده ، وكأن الأمر قد أضحى عادة بالنسبة إليها وحسب ، فهي تروح وتغدو إليه في المناسبات والأعياد بدافع العادة ، وإن كانت لا تكنُّ له التقديس اللائق بالإله الذي يستحق العبادة ولن نسهوَ عن ذكر حادثة بني حنيفة ، الذين كان لهم إله من تمرٍ عبدوه زمناً طويلاً ، فلما أصابتهم المجاعة أكلوه ، وقد قال شاعرٌ من بني تميم في ذلك ساخراً من حنيفة :

أكلتْ حنيفةُ رَبَّها زمن التقحُّم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والتباعة

وقد بلغ في حياة العرب الدينية ، أنَّ بعضهم أبَوا عبادة الأصنام ، ولكنهم لم يُدركوا الطريق الذي يهديهم إلى الحق ، ولم يعرفوا السبيل الذي يقودهم إلى الرشد ، فتمنَّوا أن يبعث الله لهم نبيّاً ، يدلّهم على طريق الهداية ، وفي هذا يقول أمية بن أبي الصلت :

ألا نبيٌّ لنا منَّا فيُخبرنا ما بعد غايتنا من رأس مجرانا

وقد علمنا لو أنَّ العلمَ ينفعنا أن سوف تلحق أُولانا بأُخرانا
وقد عجبتُ وما بالموت من عجب ما بال أحيائنا يبكون موتانا

وقد قال النبيّ ﷺ في أميَّة : « كاد أمية يُسْلِم » .

وخلاصة البحث في معتقدات العرب الدينية أن هذه المعتقدات قامت على الوثنية وعبادة الأصنام مع الإيمان بالله ؛ وقد اختلفت عادات العرب في عبادة الأوثان ، وتفاوتت تقاليدهم في درجات تقديسها رغم جليل المكانة التي كانت لها في النفوس ، والمهابة التي غرستها في العقول .

ولئن عرفت أرض العرب ، عقائد دينية غير الوثنية ، كالصابئة ، والحنيفية ، والدهرية ، وعرفت في الوقت نفسه اليهودية والنصرانية . إلَّا أن أيّاً من هذه المعتقدات الدينية لم يستطع أن ينزع من نفوس العرب التشبُّث بالوثنية ؛ إذ لم تقدِّم لهم تلك المعتقدات الاقتناع فيما تطمئن إليه نفوسهم الحائرة ، السارحة في أجواء الحرية ، والمُوغلة في التفلت من كل قيدٍ أو نظام ، إلا نظام القبلية الذي يحميها في حومة الصراع من أجل البقاء .

لذلك ، كانت أجواء شبه الجزيرة العربية مهيَّأة لاستقبال عقيدة دينية تتركَّز عليها حقائق الحياة ، وتزيل كل صراع قد يواجه الإنسان في حياته الدنيا ، كما في حياته الآخرة . . إذْ كان الشعب العربي قد تأهب لإقامة دولة ، بعد أن تيقظ لوجوده وشعر بمكانته كما شعر بالخطر على كيانه وبمواقع النقص عنده .

النسب النبوي

محمد ﷺ — علي ، جعفر ، عقيل ، طالب

عبد الله ، حمزة ، العباس ، أبو طالب ، الزبير ، المقوم ، ضرار ، حجل ، أبو لهب ، الحارث ، عاتكة ، أميمة ، البيضاء ، برة ، صفية ، أروى

عبد المطلب ، أسد — ومنه فاطمة ام علي بن (ابي طالب)

ربيعة ، أمية

عبد شمس ، المطلب ، أبو عمرو ، هاشم ، نوفل — ومنه جبير بن مطعم

عبد العزى ، عبد مناف ، عبد الدار — فمنهم عثمان بن طلحة

قصي ، زهرة — ومنها آمنة وعبد الرحمن بن عوف

تيم ، كلاب ، يقظة — ومنه خالد بن الوليد

هصيص ، مرة ، عدي — ومنه عمر بن الخطاب

أسامة ، سعد ، خزيمة ، الحارث ، كعب ، عامر ، عوف

لؤي ، تيم

غالب ، محارب — ومنه ضرار بن الخطاب شاعر قريش

الحارث ، فهر

مالك

قريش

قُصَيّ بن كِلاب

وتستمرُّ الأجيالُ في التعاقُبِ منذ أيام إسماعيل بعد أن رفعَ هو وأبوه إبراهيم ، عليهما السلام ، قواعدَ البيت العتيق في مكَّةَ المكرمة ، ويستقُّر الحُكمُ في ذلك البلد الأمين لقبيلة جُرهم أخوالِ أبناء إسماعيل ، بعد أن غلبوا قبائل العماليق وأجلَوهم عنها ، حتى يجيءَ عهدُ مضاض بن عمرو بن الحارث .

ويَشيعُ في قوم جُرهُمَ ـ بعد ذلك الاستقرار ـ البذخُ والترفُ ، وتسودُ حياتَهم اللَّذائذُ الفانيةُ ، وتَنتشرُ بينهم المُتَعُ الرخيصةُ ، حتى يصيرَ عدمُ الدأب ومواصلةُ الكفاح فيهم عادة على خلاف ما تتطلبه ظروف الحياة في تلك الأرض القاسية ، فلم يعودوا يأبهون لنوائب الأيام وصِعابها ، أو يتحسَّبون لعثرات الدهر ونكباته . .

ويرى سيِّدُهُم مضاض ما هم عليه من سوءٍ ورذيلةٍ ، فيقوم محذِّراً من سوء مغبَّة ما يفعلون ، ولكن أبناء قومه لا يَسمعون له ولا يرعوون ، حتى يبلغَ بهم آلسَّفَهُ أن نَضَبَ ماءُ زمزم ولم يُكلِّفوا أنفسَهم عناءَ البحث والتنقيب عن الماء في أيِّ مكانٍ من باطنِ الأرض ، وكأن مثل هذا النذير لا يَعنيهم بشيء .

ويخافُ مضاضُ من استلابِ القبائل المعاديةِ كنوز الكعبة ، دون أن يتمكن قومه من الدفاع عنها لما هم عليه من الضعف والانحلال فيعمَدُ إلى تعميقِ بئرِ زمزم ، ويدفُنُ في قعرها غزالَتَين أو أسَدَين من ذهب مع غيرهما مما تجمَّع في الكعبة من نذور العرب النفيسة

والثروات القيِّمة . . . ويصدُقُ ظنُّ سيدِ جُرهم ، وتداهمُ قبيلةُ خزاعةَ مكةَ وتَستولي عليها بعد أن تَطرد الجرهميِّين منها . . ولا تلبث أن تأتيَ بالمضارب وتُقيمُ في ذلك البلد وتجعل منه موطناً .

ومع الأيام تثبتُ الأمورُ لخزاعة في تولي شؤون الكعبة ، وتتعاقب هذه القبيلة على تلك التولية أجيالاً بعد أجيال حتى يكون منتصف القرن الخامس الميلادي ، فيؤولُ أمرُ الكعبة إلى قُصَيٍّ بنِ كلاب ، الْجَدِّ الخامس للنبيِّ محمدﷺ . فقد مات كلابْ وابنْه قصيٌّ ما زال طفلاً في المهد ، فتزوَّجتْ أمُّهُ فاطمةُ بنتُ سعد بن سيل الأزدي من ربيعة بن حَرَام العذري من قبيلة قضاعة الذي ارتحل بها إلى حدود بلاد الشام حيث كانت تسكن قبيلته ، وقد حملت معها ولدها قصياً وكان اسمه الأول زيداً فلما بعد عن بلاده سمته قصياً فراح ينمو ويكبر وهو لا يعرف أباً له غير ربيعة ، حتى كان يومٌ وقع فيه خلافٌ بينه وبين بعض فتيان قضاعة ، فعيَّروه بأنه ربيبٌ ، دُخلةٌ على القوم لا تَربطه بهم أَيَّةُ رابطةٍ من أصلٍ أو نسَبٍ .

وعزَّ على الفتى ما سَمِعَهُ من تهكُّم على نسبه ، وللنسب في حياة العربي أهميَّة بالغة ، ففيه التفاخر والرفعة ، أو الخُذلان والذُّلّ ، فيذهب إلى أمّه مسرعاً وهو يريد أن يعرف حقيقة أصله . . .

وتَلقاه أُمُّهُ وهو على حاله البائسة تلك ، وتراه دامع العينين ، مهيضَ الجناح ، كسيرَ الخاطر ، فتبادِرُه مُستفسِرة : ما الذي أصابَك يا بُنَيّ ؟ . .

ويَصمت قُصَيٌّ ، وهو مطرقٌ إلى الأرض ، ثم يرفع عينيه نحو أمِّه ويقول لها :

ـ ابنُ مَنْ أنا يا أُمَّاه ؟

لم تكن تنتظر الأمُّ أن يبادرها الفتى بهذا السؤال ؛ ولكنها ادركتْ على الفور ما يرمي إليه فلم تجعل المفاجأة تأخذها ، بل تبتسم في وجهه مُطمئنة وهي تقول :

ـ أنتَ من أعرَقِ العرب نسباً يا ولدي ، وأشرفِهم حسباً . .

ـ وربيعةُ بنُ حَرَام ، أليس أبي ؟

ـ إنَّه حاضنُك ومربِّيك يا بنيّ ، وإليه يعودُ الفضلُ في تنشئتِك ورعايتك . . .

ـ وهل أنا يتيمُ الأبِ منذُ زمنٍ طويل ؟

ـ مُنذُ كنتَ رضيعاً . . فقد مات أبوك كلابُ بنُ مرة وأنت لم تبلغْ من العمر بعد بضعَةَ أشهر . . .

ـ إذن فأنا ابنُ كلاب بنِ مُرة ؟ فمن هو هذا على الحقيقة ؟ وأين أهلوه وقومه ؟ . . .

ـ أنت والله لأكرمُ من آل ربيعةَ أباً . . وقومُك بمكةَ آل الله وفي حرمه . ومن أين لأحدٍ أن يعيِّرك بحَسَبٍ أو نَسَب ، أو أن يستهين بقومك وعشيرتك . . .

. . وتفكَّر الفتى مليّاً ، ثم هبَّ واقفاً يقول لأمه :

ـ إذن فأنا راحلٌ الساعةَ إلى مكَّة . .

ودهشتِ الأمُّ لقرار ابنها السريع ، ورأتْ أنه ناجمٌ عن الغضب الذي يستبدُّ به ، فلم تجد إلَّا الملاطفةَ وإرضاءَ خاطرِه سبيلاً لِتَثْنِيَهُ عن عَزمه ، فوقفت في وجهه وهي تقول :

ـ بل تبقى فينا . . . وإني لأشكو الأمر إلى زوجي ربيعة حتى يكون له شأن مع أولئك الفتيان المارقين . .

ولكن ابنها لا يرغب فيما تبديه فيجيب على الفَور :

ـ لا يا أمَّاه ! . . . إنها حياتي ، ولن تطيب لي إقامة بعد اليوم في هذه الديار .

ـ ولكن زوجي ربيعة لن يرضى برحيلك وأنت عنده بمثابة الابن الحقيقي ، لا الولد الحضين .

ـ قد يكون حقاً ما تقولين ، فأنا لم أحسَّ من قبلُ بما يُشعرني بغير أبوته ، ولكنَّ مقامي بين بني ربيعة صار يوجفني ، وكأني دعِيٌّ بينهم . . .

ـ أَتَنْسُبُ لِنفسِكَ مِثلَ هذا الدَّرك ؟ ! . لا والله ، فإنكَ لمن أحسن العرب سيادةً وشرفاً ، ومن أفضلهم عَراقةً وكَرماً . . خلِّ عنك هذه الهواجسَ اللَّعينة ، ولا يَجنحْ بك الوجدُ إلى مثل هذا الشعور . . .

ـ قلتُ لكِ يا أمَّاه إنَّ مقامي في قومي ، وليس هنا . . ولن

يغمضَ لي جَفنٌ بعدُ بين بني ربيعة . . .

. . وأدركت الأمُّ عدمَ جَدْوَى المحاولة ، وقد شقَّ عليها أن يأتي اليومُ يُعيَّرُ فيه ابنُها بحضانته ، ولكنَّ شقاءَها سيكون صعباً لفراقه ، إذ هو يعتزم الذهاب دون أن تفلح محاولاتها في منعه من الذهاب . . فتُذعِن لرأيه على مَضضٍ ، وتقول بحسرة :

ـ ولكن هل تُسافر بلا أودٍ ولا رفيق ؟ لا يا بني ، إنك لا تعرف الطريق إلى مكة ولا تدري صعابها . . .

ـ سيكون زادي الاعتزازُ بالنَّفس والْحِفاظُ على الكرامة . . أمَّا رفيقي في دربي فسيكونُ العزم والشدة . . .

ـ ولكنك لن تنجح في الوصول وحدَك ، وأرى أن نَتَبَيَّنَ قافلةً تُغادِرُ الشامَ إلى بلاد الحجاز فتذهبَ في رَكْبِها ، ويطمئِنَّ قلبي عليك . .

ـ إذن ، فأنا ذاهب الآن للبحث عن تلك القافلة . . .

ـ ولكن ألا ترى انتظار ربيعة لوداعه ؟

ـ إنني لن أنسى ما قدَّمَهُ لي هذا الرجلُ من عطف ، ولا أُنكِرُ فَضلهُ عليَّ ، ولكنني لم أعدْ أطيقُ الانتظار ، فأرجو أن تبلِّغيه صِدْقَ مشاعري وحُبِّي له . . .

ـ وليُبارِكَكَ الله يا بُنَيَّ ، وليكُنْ حليفك التوفيقُ أينما رحلتَ ، والنجاحُ حيثما حلَلتَ . . .

كان ذلك دعاءُ فاطمةَ بنت سعدٍ لابنها قُصَيّ ، وهي تندفع نحوه ، تحتضنه بين ذراعيها ، وتشدُّه إلى صدرها ، لتودعه قبيل رحيله . . .

وانفلت قصيٌّ من أمِّه ، وهو يُجهِشُ بالبكاء كطفلٍ صغيرٍ ، ثم اندفع يعدو إلى حيث تحطُّ قوافلُ العرب رحالها في الشام ، علَّه يجدُ إحداها تهمُّ بالعودة إلى مكة . . .

انطلق قصيٌّ كالسهم حتى بلغ المكان ، فوجد عدَّة قوافل هناك وهو لا يعرف أيّها آتية وأيّها ترغب في الرحيل ، ولكنه لم يشأ أن يُضيعَ الوقت سُدىً ، فراح يسأل عن ضالَّته حتى اهتدى إلى واحدة منها ، فتقدم من كبير أصحابها يعرض عليه أن يصحبه في الذهاب إلى الحجاز وهو يبدي استعداده لكي يعمل له بدون أجر لقاء نقله إلى تلك البلاد . . .

وكانت رغبة السفر بادية على الفتى بوضوح ، إلاَّ أن رجل القافلة قد استرعاه منظرُه فأراد أن يعرف من يكون ، ولماذا يلحُّ في الذهاب إلى هذا الحدِّ ، فتريَّثَ قليلاً قبل أن يوافق على مصاحبته ، ثم سأله من هو وماذا يعتزم من رحيله ، وأي مكان يقصد بالضبط ؟ . . وما زال يحاوره حتى عرف حقيقة أمره ، لأن الفتى كان لا يخفي عنه شيئاً ، بل يبدي الاعتزاز بما يقول :

أنا قصيّ بن كلاب بن مرة ، وقد أقمت في بلاد الشام مع أمي

فاطمة بنت سعد في بني ربيعة ، وأريد العودة إلى مكة ، لأعيش بين ظهراني أهلي وقومي . . .

ويَلقاهُ كبيرُ أصحابِ القافلة ، بعد أن يعلم نَسَبَهُ بالترحاب ، ويَعِدُهُ بمرافقتهِ ويطلب إليه البقاءَ بجانبه بعد أن يُطيِّبَ خاطِرَهُ بالكلام اللطيف ويؤانسه بالمعشَرِ الحسن . . .

لقد كان في ملاقاة هذا الرجل ما هَدَّأ من سَوْرةِ غَضَبِ قصيّ ، ولكنَّ رغبته في الرحيل العاجل كانت أقوى من كل شيء ، فبات ينتظر على أحرّ من الجمر . . .

ثم تَحينُ الساعةُ ، وتَسري القافلةُ ، وقصيّ في ركابها ، لا يَحفلُ بِوُعورة المسالك ، ولا يَعبأ بمشاقِّ السفر ، بل يجدُ الأيامَ طويلةً قاسيةً ، ما دامت تَفْصِلهُ عن مكة . .

وتصل القافلة أخيراً إلى ذلك البلد ، ويهتدي قصيٌّ إلى ذويه وأقاربه ، فيحسُّ بالراحة والاطمئنان .

لقد قدم قصيٌّ إلى مكة فتىً خالي الوفاض ، فقيراً لا يملك مالاً ولا ثروة ؛ فرأى أن يعمل في التجارة ، وقد عرف بعض أمورها ، أثناء رجوعه مع القافلة ؛ فذهب إلى الرجل الذي اصطحبه وعرض عليه رغبته تلك فرحَّب به الرجل وأدخله في عمله بأَجْـر . . ثم كان كلما تقدمت به الأيام ازداد المال الذي يجمعهُ ، حتى تكوَّنَ لديه المال الذي مكَّنه من المشاركة في القوافل والاتِّجار لحسابه .

وكانت سدانةُ البيت ، يومَ جاء قصيّ إلى مكة ، في خُزاعة

وكان سيِّدُها حليل بن حبشية . وكان قصيّ قد شبَّ وتكاملت رجولته وصار له من المال ما يكفي ، ومن السمعة الطيِّبة ما يُغني ، ففكَّر بالزواج ، ثم عزم عليه وسعى لتنفيذه . .

وذهب إلى حليل يخطب لنفسه ابنته حُبَّى : فلقيه سيِّدُ خزاعة بالترحيب ، وكان على معرفةٍ به ، بعد ما ذاعَ صيتُه واشتهر بين الناس بدماثةِ الخُلقِ وحُسن الاستقامة والجِدِّ في سبيل الثروة ، ولم يتردَّد عن إجابة ما سأله ، بل وافق على مطلبه ، وزوجه ابنته برضىً واقتناع . .

وانتقلت ابنةُ حليل إلى بيت زوجها قصيّ ، وعاشت معه في السعادة والوئام ، واجتمع لها بعد هذا الزواج ، رفعةُ الشأن في النسب ، وعلوُّ المكانة في الزواج ، فكانت أكثر الزوجات في أيامها سعادة ، وأشدَّهُنَّ وفاءً ونُبْلاً . .

وكان حليل عندما زوّجَ ابنته من قصيّ قد تقدَّمَ به العمر ، وشارفَ على الكِبَر ؛ فلما أحسَّ بأن أجله قد قَرُبَ ، لم يجد خيراً من أن يوصي بسدانة الكعبة لابنته حُبَّى ، وفي يقينه أنَّ من يتولى أمورَ هذا البيت من بعده سيكون زوجَهـا قصيّاً وإنه لأفضل الرجال ، وأقدرهم على القيام بتلك المهمة .

ولكنَّ ابنته اعتذرت عن قبول هذه الوصاية لأن مهمة الدين تتطلب جهداً لا تستطيع امرأة مثلها أن تقوم بإدائه فاضطر والدها أن يجعل السدانة لأحد أولاده (المحترش) إلاَّ أن هذا لم يكن أهلاً لحسن الظن به ، ولم تردعه المهمة الجليلة التي تولى أمرها عن سابق عهده

من التهتك والعربدة ، والإدمان على شرب الخمرة ، بل زادَ مع الأيام مجونُهُ ، حتى فقد كل ما لديه من مال ، وتبددت ثروتُه برمَّتها ، فعاش فقيراً معدماً ، لا يملك بضع دريهمات يقتات بها . .

وإذا كان الحقُّ يأنف من ذوي النفوس الصغيرة ، فإن مفتاحَ البيت الحرام قد كَرِهَ البقاءَ في يدي ذلك الرجل الأرعن . فها هو ذا يُعْوِزه الشراب يوماً ، فيأتي إلى قصيّ ويعرض عليه أن يُعطيه المفتاح لقاء دراهم معدودات . فيأبى قصيّ أن يأخذه منه قبل أن يُشاور زوجته حبّى في الأمر ، فيذهب إليها ويخبرها بما يعرض عليه (المحترش) ويستقر بهما الرأي على أن يتولى قصيّ المسؤولية حتى تبقى للكعبة الشريفة حُرمتها وكرامتها ، فاشترى المفتاح من الخزاعيِّ بدراهم معدودات وصار يقوم بشؤون الكعبة من ذلك اليوم .

ورأت خزاعةُ أن الأمر قد أفلت من يدها ولم يَعُدْ لها شرف القيام بمناصب الكعبة ، فقامت مستنكرةً تحاول انتزاعَ المفتاح من قصيّ بالقوة . . ولم يكن أمام قصيّ إلا أن يستنفر بني قومه من قريش فهَبُّوا لنجدَته ونُصرته ، وشهروا القتال على خزاعة ووقعت بين الطرفين حروب دامية استمرت ردحاً من الزمان ، ولم تتوقف إلَّا بعد الاتفاق على التحكيم ، فنصَّبُوا حكماً رجلاً من أشرف العرب يدعى يعمر ابن عوف بن كعب بن ليث ، فقضى بأنَّ قصياً هو أحق من خزاعة في حجابة البيت وزعامة مكة ، وحكم على خزاعة بدية القتلى من أصحاب قصيّ ، وأن تترك الكعبة ومكة له ، لقدرته على إدارة الشؤون العامة . .

وهكذا استطاعت قريش أن تحقق النصر على خزاعة ، وأن تنتزع منها المكانة التي كانت تعتزُّ بها مما وفَّر لها الهيبة والسطوة على القبائل الأخرى .

وحينها أقرت قريش على أثر ذلك لقصيّ بالسيادة عليها، فقد تقلَّد جميع المناصب، واجتمعت له الحجابة والسقاية والندوة[1] واللواء والقيادة . ولكنه ، وقد أصبح سيد القوم ، فقد فرض عليهم الرفادة[2]. وهو يقول لهم : « يا معشر قريش ! إنكم جيران الله وأهلُ بيته وأهل حرمه ؛ وإن الحجيج ضيوف الله وزوار بيته ، وهم أحق الأضياف بالكرامة . فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج حتى يصدوا عنكم » .

صار قصيّ السيد المطاع بين المكيين وغيرهم ، فقسَّم مكة أرباعاً ، وأعطى لكل حيٍ ربعاً فاتسع عمرانها ، وتزاحم الناس على

---

(١) أسس قصيّ بن كلاب دار الندوة ، وجعل بابها إلى مسجد الكعبة . وكانت هي دارته ودار الشورى لقريش ودار الحكم في مكة ، فلا يتزوج رجل من قريش ، وما يتشاورون في أمر نزل بهم ، ولا يعقدون لواء لحرب إلاَّ في هذه الدار . . ولم يكن يدخل دار الندوة من قريش إلاَّ من بلغ أربعين سنة ، بينما يدخلها بنو قصي جميعاً ، وحلفاؤهم كبيرهم وصغيرهم ، ولذلك كانت خاصة ببني هاشم ، وأمية ، ومخزوم ، وجمح ، وسهم ، وتيم ، وعدي ، وأسد ، ونوفل ، وزهرة ، وهؤلاء عشرة رهط من عشرة أبطن .

اللواء : الراية التي يرفعها القوم على رمح ، وتكون علامة على إعلان قتال العدو .

(١) الرفادة ، إطعام الحجيج جميعاً بإنفاق ما يخرج من أموال القوم كل سنة لهذا الغرض حتى يغادر الحجيج مكة قافلين إلى منازلهم . . .

الهجرة إليها ، نظراً لموقعها من البيت ، ولما صار لها من المكانة عند العرب .

ويقال إن اسم قبيلة قريش تعود إلى قصيّ نفسه ، بعد أن جمع بطونها وألّف قبيلها . وتروي الأخبار عن ذلك بأن القريشيين لم يعرفوا بهذا الاسم قبل قصيّ بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر ابن مالك . وأنَّ هذا الأسم غلب على من تناسل من فهر بعد أن جمعهم قصيّ حول الحرم وأسكنهم بجواره بعد أن كانوا يسكنون شعاب مكة وبطاحها ، فسمَّاهُم الناس قريشاً أي المتجمعين .

ومهما يكن من أمر فإنه يعود لقصيّ الفضل الأكبر في إبراز قبيلة قريش التي لولا جهوده لما كانت وصلت إلى ما وصلت إليه ، وإليه يشير الشاعر بقوله .

أبوكم قصيّ كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

وعاش قصيّ سيداً في قريش سيداً في العرب ، وقد ظل طوال حياته عزيز الشأن عاليَ القدر ، لا تُرَدُّ له كلمةٌ ولا يُسفَّهُ رأيٌ يعطيه ، إلى أن صار شيخاً هرماً فَقَدَ القدرة على إدارة المناصب التي كان يتولاها ، وخاصةً الحجابة والسقاية لما كانت تتطلَّبه من جهدٍ وعناء ، فاختار من بين أبنائه الثلاثة (عبد الدار وعبد المناف وعبد العزى) . أكبرهم عبد الدار وأوكل إليه تلك المناصب حتى تظلَ للقبيلة مكانتها المرموقة بين القبائل الأخرى ، ولتُحافظ على سمعتها الطيِّبة بين جميع العرب .

ويأتي اليوم الذي يتوفَّى فيه الله قصيّاً فتصير جميع الأمور إلى ابنه عبد الدار كما أوصى أبوه ، فكان دأبه كدأب أبيه ، كرماً ، وشجاعةً ، وحزماً ، فسَهِرَ على شؤون بني قومه وعلى حسن قيادتهم حتى صار موضع إكبارهم وإعجابهم ، الأمر الذي ساعده على تولي القيادة في قريش .

ثم برز إلى جانبه أخوه عبد المناف الذي لا يقلُّ عن عبد الدار فضلاً أو مزيَّةً ، بل يفوقه عزّةً في النفس ، وعلُوّاً في الهمَّة ، فالْتَفَّت القلوب من حوله ، وصارت تتطلَّع إليه في كثير من الشؤون . ولكنه رغم بروزه ذاك لم يطالب أخاه بالمشاركة في مناصبه ، بل قام إلى جانبه خير معين على تولِّي مناصبه ، وخير مساعدٍ على إدارتها ورعاية أمورها .

عَبدُمنَاف

ومع دوران الأيام وانقضاء السنين ، يكبرُ أبناء الأخوين ، ويظهر للملأ من قريش بأن أبناء عبد مناف هم أقدر من أبناء عمهم عبد الدار على قيادة قريش ورعاية شؤون الكعبة ، فيلتفُّ جمْعٌ غفيرٌ حولهم يطالبونهم بتسلُّم مقاليد الأمور .

ولكنَّ رهطاً آخر من قريش يُخالف هذا الرأي ، مما يجعل الخلافَ يَدبُّ بين أبناء القبيلة الواحدة ، ففئة تنصُرُ أبناء عبد مناف وأخرى تُنجد أبناءَ عبد الدار . . ثم تعقد كل جماعة ندوات خاصة للتشاور والتباحث فيما ينبغي القيام به ، وينتهي الأمر بهما إلى قيام حلفين :

١ ـ حلف المطيَّبين الذي عقده بنو عبد مناف مع مَن آزرهم ، بعدما جاؤوا بِطِيْبٍ من الكعبة وغمسوا أيديَهم فيه وهم يُقْسِمُون على الوفاء بالعهد وحفْظ الذِّمَّة ، فعُرِفَ باسم : حلف المطيَّبين . .

٢ ـ وحِلْف الأحلاف الذي عقده بنو عبد الدار مع جماعتهم وتعهدوا فيه بألاَّ يتخلَّوا عن أي منصب من مناصب الكعبة ، ولا عن أي منصب من مناصب مكة كلها . .

وتوشك قريش بسبب هذا الشقاق أن تقع في حرب مدمِّرة لولا أن تداعَى شيوخُها وعقلاؤها إلى الصلح ، واتَّفقَ الرأي أخيراً على أن تُعْطَى السِّقايةُ والرِّفادةُ لبني عبد مناف ، وأن تظلَّ باقي المناصب في أيدي بني عبد الدار . .

هَاشِمْ

ورضيَ الفريقان بهذا الاتفاق ، ودام فيهم حتى جاء الإسلام . وكان أكبَرَ أبناء عبد مناف وأبرزهم عمرو العلاء ، وكان ذا يسارٍ وغنىً ، رأيه سديدٌ ، وحصافتُه قويَّةٌ ، فتولى هو وحده من دون أشقائه عبد شمس والمطلب ونوفل وأبي عمرو زعامة قريش ، كما تولى أمور السِّقاية والرفادة ، وكان مُنذ عهد جدِّه قصي ، يأخذ من القرشيين كلَّ عام قسطاً من أموالهم ، ليجعلَ منه طعاماً للحاجِّ حتى نهاية الموسم .

وتأتي سنةُ جَدْبٍ على مكة ، وتُحيق بأهلها الشِّدَّة ، حتى كادت تُفقدهم سُبُلَ العيش ، فتصدَّى عمرو العلاء للنكبة ، وراح يوزع الزاد والمؤن على المكِّيين ، ويقدِّم لهم العَون حتى زالت عنهم الشدَّة ،

وكان ينحر لهم الجمال ، ويَهْشِمُ لهم الخُبز ، ويُطعم القاصي والداني ، حتى لُقِّبَ بهاشم ، بعد أن قال شاعرهم فيه :

عَمْرو العُلَى هَشَمَ الثَّريد لقومه ورجالُ مكة مُسْنتـونَ عِجَافُ

ولكنها لم تكن تلك الضائقة الكبرى هي وحدَها التي جعلتْ هاشمَ بن عبد مناف سيد مكة المطاع ، وكبير القوم وقائدهم ؛ ولم تكن هي الظاهرة الأبرز في اهتماماته بشؤون الجماعة ، بل لقد عملَ على أن يكون لأهل مكة مجالاتٌ رحيبةٌ في العمل والثراء ، فاستنَّ لهم رِحْلَتَي الشِّتاء والصَّيف ، رِحلة الشتاء إلى اليمن ، ورِحلة الصَّيف إلى الشام ، مما جعل لمكة وأهليها مكانةً مميَّزةً في تلك البقاع الجافَّة ، حتى صارت أكثرَ من أي عهدٍ سبق ملتقىً لطُرق القوافل كلِّها إلى اليمن ، والحيرة ، والشام ، وإلى نجد ، وباتتْ مركزَ الاتصال بتجارة العالم عن طريق البحر الأحمر ، الواقع على مَقْرُبَتِها . .

وزيادةً في رعاية شؤون قومه وتأمينِ مصالحهم ، فكَّرَ هاشم في عقدِ المحالَفاتِ التجارية ، واتِّفاقات الصَّداقة مع الممالك المحيطة بمكة ، فعقد بنفسه مع الإمبراطورية الرومانية ومع أمير غسان معاهدتَي حُسنِ جوار ومودَّة ، ثم حَصَلَ من الامبراطور الروماني نفسه على الإذن لقريش بأن تجوب بلاد الشام بحريَّة وأمان . ثم أوكل إلى إخوانه الاتصال بحُكَّام البلاد المجاورين حتى يعقدوا معهم اتِّفاقيات مماثلة . وبالفعل اضْطَلَع هؤلاء الإخوةُ بالمهمة ، وقاموا بها خيرَ قيام ، فأبرم عبدُ شمس مع النجاشي في الحبشة اتفاقاً تجارياً ، وعقد نوفل حِلْفاً

مع فارس ، وتعاهد المُطَّلب مع الحِمْيَرِيِّين في اليمن على الأعمال التجارية .

وهكذا كان يقوم هاشم على تدبير الشؤون العامة ، ورعاية مصالح أبناء قومه. ولكنَّ انشغاله بأمور الجماعة لم يَحُلْ دون دأبه على السعي والمتاجرة لمصلحته الخاصة ، فظلَّ يقود بنفسه قوافلَه في ذهابها وإيابها أثناءَ رِحلَتَي الشتاء والصيف ، حتى صادف ذات مرة أن عاد من رحلة له إلى الشام ، مروراً بيثرب فأناخ رِحالَ جِمالِه هناك طلباً للراحة ، وسمع أثناء إقامته العابرة بوجود امرأة بارعة الجمال ، حميدة الخصال ، تتحلَّى بالحكمة والمعرفة ، قد ذاعَ صِيتُها ، وامتدَّت شهرتُها ، وعُرِفَ تفوقُها على كافةِ نساء بلدها .

ثم عَرَفَ أنها عازِفَةٌ عن الزواج لا ترغبُ فيه إلا إذا وافقَ طالب يدها على ما تبديه من شروط ، ثم تعهَّد بالوفاء لها . ومن شروطها ترك الحرية لها في اختيار الإقامة في بلدها يثرب إذا رغبت في ذلك .

عَلِمَ هاشم بأمر المرأة ، فأحسَّ برغبة شديدةٍ تدفعه لمقابلتها . فهيَّأ نفسه وذهب إليها ليرى مَنْ تكون ، وماذا تريد من خاطب يدها . . .

ثم يشاء الله الذي يُقلِّب القلوب كيف يشاء أن تستهويه تلك المرأة عندما يراها وأن يستهويها عندما يقع نظرها عليه، فيخطبها لنفسه فتقبل به زوجاً . . .

نعم : لِمَ لا توافق سلمىٰ بنت عمرو بن زيد بن خداش من بني

النجار على الزواج من هاشم بن عبد مناف وقد وجدت فيه كلَّ ما كوَّنته في نفسها عن الرجل الذي كانت تتمنى أن تلتقي به ويكون لها زوجاً، لا ينقصه كمالُ الخَلْقِ ، ولا يعوزه كرمٌ في الخُلُق . فهو بهيُّ الطلعة ، جميل المحيا ، بارز السمات ، ذكيٌّ ، سريعُ البديهة ، تبدو عليه علائم النبل والكرم .

فلِمَ لا تعجبُ به عندما طرَق بابها ؟

ولِمَ لا تُوافق في الحال على الزواج منه ؟

.. وما عتم أن سار هاشم وعروسُهُ متَّجهاً إلى مكة ، قريرَ العين . .

وأقامت الزوجة معه ردحاً من الزمن ؛ ثم جاء يوم حنَّت فيه سلمى إلى العودة إلى يثرب والإقامة فيها ، ولم تَتَلَكَّأ عن إبداء شعورها ذاك للزوج الذي لم يرفض ما طلبت ولم يضع حائلاً بينها وبين تحقيق رغبتها ، بل على العكس قام هو بنفسه يحملها ويوصلها إلى ديارها ، بعد أن أودع في أحشائها جنيناً من صُلْبِه .

قدمت سلمى إلى يثرب في سنة ٤٩٥ ميلادية ، ولم يمضِ على قدومها بضعة أشهر حتى حانت ساعة ولادتها فأنجبتْ ابناً لها اسمته شيبة ، ظلَّ في حضانتها ورعايتها حتى غدا فتىً لا مثيل له بين أترابه في نضارته وبهائه وحكمته ، فكان مصدرَ غبطةٍ وسرورٍ عظيمَين لأمه ، خصوصاً وقد كان أعظم سلوَى لها بغياب أبيه الذي كان يقوم بواجباته تجاه الكعبة ورعاية شؤون قومه ، وتجاه رحلاته التجارية ، التي رغم

اجتماعها عليه لم تُنْسِهِ تَفَقُّدَ أهلِهِ في يثرب وتقديم كلِّ ما يحتاجون إليه .

ثم يذهب هاشم في إحدى رحلاته الصيفية إلى غزة ، فَتُفَاجِئُهُ المنيَّةُ هناك ويُدفنُ فيها وتجزع قريش عليه وتخاف أن تتقلص زعامتها على العرب ، فيذهب عبد شمس إلى النجاشي ليجدد العهود التي كانت بينه وبين القرشيين كما توجه نوفل بن عبد مناف إلى العراق للاتصال بكسرى ولكن لم يكتب لهما البقاء طويلاً ، إذ توفي عبد شمس بعد أيام من رجوعه إلى مكة ، وتوفي نوفل في موضع يقال له (سلمان) بعد أن كان قد تسلم أخوه المطلب الزعامة بعد أخيه هاشم . كان المطلب رجلاً حكيماً ، عالي الهمة رفيع الشأن بين القوم فلم تتغيَّر الأمور بعد استلامه الزعامة ، بل دامت على استقامتها وظلَّتْ مكَّة محتفظةً بالمكانة التي كانت تعتزُّ بها أيام أخيه هاشم .

ولم يَنسَ المُطَّلبُ أن له ابنَ أخٍ في يثرب . فعقدَ العزم على المجيء به إلى الدِّيار حتى لا يبقى بعيداً عن أهله وقومه ، واغتنم فرصةً سانحةً فذهب إلى أمِّه سلمى يسترضي خاطرَها ويَعرض عليها تسليمه ابن أخيه شَيبة .

ولم تستطع الأم الفاضلةُ رفضَ طلبه ، فهي تعرف أن العصبية القبلية تُعطي الولاية على الولد لجدِّه لأبيه أو لعمِّه . ولكنَّ فراقَ الولد صعبٌ ، والبُعدَ عنه مُرٌّ ، وهي لا تتحمَّلُ العيشَ في مكة لأنها لم تتمكن من التأقلم فيها حتى أثناء حياة زوجها ، فهل يُعقل أن تُقيمَ بها بَعده ؟ .

فما كان عليها إلا اختيار التسليم بالأمر الواقع . فقامت إلى ابنها شيبة تحتضنه وتقبِّله وهي لا تستطيع أن تكفكف الدمع والعبرات .

ويراقبُ العمُّ المشهد . . ولكنه لا يرى مناصاً من التقدم وأَخْذ الولد من بين ذِراعَيْ أُمِّه ، فتتقدم منه الأم مودِّعةً على كُرهٍ ، ودون أن تنسى الوصية التي تتلفَّظ بها كل أم في مثل حالها ، ثم ترجو أخا زوجها أن يرعى ولدها ويحميه . . . ويُطَيِّبُ المطَّلب خاطرها ثم يرتحل بابن أخيه وقد أردفه خلفَهُ على بعيره وسار به حتى دخل مكة . .

عبد المطّلب

قظنَّت قريش أن الفتى عبدٌ له قد جاء به من بعيد فنادت : عبد المطَّلب ، عبد المطلب . . . ولكنَّ الرجل صاح فيهم :

وَيْحَكُم ! . . إنه ابن أخي هاشم ، وقد حملته معي من يثرب . ولكنَّ مناداة القوم غَلبت صيحة عمِّه المُطَّلب ، فالتَصقَ اللَّقب بفتاه فَدُعِيَ الولدُ به ونَسِيَ الناسُ اسمَه الحقيقيَّ : شَيبة .

أما أبو الفتى (هاشم) فإنه لمَّا قضى نَحبَه ، قد خلَّف وراءه ثروة كبيرة ، ولم يكن عنده أبناء في مكة فاستأثر بتلك الثروة أخوه نوفل من دون إخوته الآخرين .

فلما أعاد المطلبُ معه شيبة سعى لدى نوفل لكي يردّ الأموال إلى وارثها الحقيقي ، فأبى عليه ذلك لشدَّة تعنُّته وطمعه . . . وأراد

المطَّلب أن يقتله أو يهدر دمه ، ولكنَّ حِرصَه على ألَّا يتشتَّت شمل بني عبد مناف ، وخوفَه ألَّا تلوكَ أَلْسِنَةُ العرب سُمعتَهم جعله يتركه وهو يُخزيهِ ويلعنه . . .

وكان عبد المطلب ـ شيبة ـ خلال هذه المدة في أول تفتُّحه ونضوجه ، يرى كل ما يدور حوله دون أن يستطيع فِعل شيء . ولكن شدَّ ما آلمه وأحزنه أن تهدر حقوقه بهذه الصورة ، وأن يَسْلُبَ مالَه أقربُ الناس إليه ، فيأخذها عمُّهُ نوفل ، دون وجه حق . . .

كتم الفتى هذا الأمر في نفسه ، حتى شبَّ وقويَ ساعِدُهُ ، فجاءَ إلى عمِّه نوفل يطالبه بردِّ إرثه ، فلما أبى ذلك ، استعدى عليه أخواله في يثرب . .

وفي ليلةٍ دهماء جاء فرسان خزرج ورجالاتها الأشاوس إلى مكة وهم يلوّحون بالقتال أو تُرَدّ الأموال لابن أختهم . واستقبلهم الشيوخ والعقلاء من قريش ولاطفوهم وأنزلوهم على الرحب والسّعة ، ثم نُودِيَ نوفل فجاء الجمع خائفاً ، مرتجفَ الأوصال ، بعدما رأى أن الأمر قد استفحل ، ولم يعد بإمكانه التمادي في غيِّه . فلما طُلِبَ إليه أن يُحْضِر الثروة التي استَلَبها ، رضخ للحكم صاغراً ، وذهب فأحضرَها مُكرَهاً . .

وهكذا عاد إلى عبد المطَّلب إرثُه ، فعقد الفتى العزم على ألَّا يبدِّد الأموال التي آلتْ إليه ، وأن يعمل على زيادتها ، وتوفير الرعاية للمحتاجين ، فراح يشتغل في التجارة ، حتى برَزَ فيها ، وصار من

أكثر رجال مكَّة غِنىً ومالاً . ولكنَّ غناه هذا لم يؤثِّر على خُلقه السَّمح ، ولم يُنسِه معشَره الطيبُ أحداً من الناس ، فكان أَوْلاهُم بتولي المناصب التي يقوم بها عمّه المطَّلب . وبالفعل فقد أوصى له هذا العمّ بعدما رأى محبة القوم له واحترامهم إياه بالسِّقاية والرِّفادة ، وعهدَ إليه بالسَّهر على رعاية أمور الجماعة .

ومات المطَّلب ، وتسلَّم ابنُ أخيه الأمانة بعده ، فاجتهد في الحفاظ على هذا التراث الذي آل إليه ، وعمل كل ما في وسعهِ لرعاية المناصب التي تقلَّدَ زمامها . ولكنه مع الأيام أحسَّ بالتعب يُنهكه ، وبالشقاء يحرمه لذة الراحة .

فلم يكن له من الأبناء يومذاك سوى ولد وحيد اسمه الحارث ، وهو لا يقدر أن يزيل عن كاهل أبيه ما يثقل همّه من أمور السِّقاية ، إذ كان عليهما أن يأتيا بالماء كل يوم من الآبار العديدة ، المبعثرة حول مكة ، وأن يضعاه في الأحواض التي يُستسقى منها ، وهو الأمر الشَّاق الذي كان يرهق الفتى وأباه . .

لقد استحقَّ عبد المطلب الولاية على قريش بقوَّة شخصيته وسداد رأيه ، وتولى الرئاسة بكرمه ، وسماحة خُلقه ؛ إذ كان من مزاياه الشهيرة بين القوم ، الحدبُ على الكهول ، ورعايةُ الشباب ، فلا يتأخر عن نُصرة ضعيف ، ولا يهادن ظالماً ، حتى بات الكلّ يحبُّونه ويخشونه في آنٍ واحد . . .

كان يعرف مكانته في قريش ، ويعرف أنهم لا يردون له طلباً ،

ولكن آلمه عدمُ اكتراثهم له في عبئه ، وقلّة محاولتهم مساعدته . ولو حاول أن يطلب يدَ العونِ منهم ، لما توانَى الجميع ، الشيب قبل الشباب عن تقديمها له . ولكنه أبى ذلك ، بل منعته نفسه من أن يستخدم البعض في أمور السِّقاية ، خوفاً من اتِّهامه بالتقصير في أداء مناصبه حقّها . . . وحدهم هم الأبناء ، لو كان عنده البنون ، يقدرون على إزالة الهمّ عن كاهله ، وعلى إراحته من الأتعاب التي تُشْقيه . . . فانصرف فكره إلى إنجاب الأولاد . ولكنَّ هذا التفكير لم يمنع عنه الهواجس والقلق ، حتى باتت رفيقته في أيامه ولياليه . . إن بات ليلة تراءت له أحلام الماء وثقله ، وإن استيقظ صباحه طالعه هذا الهمّ . . حتى فقد كل أمل في الخلاص ، ولكنه رغم ذلك كان يغتنم الفرصة فيذهب بضع ساعات من النهار حتى يخالط حرُّ الشمس الوهّاج رمال الصحراء ولا يعود يطيق احتماله فيذهب إلى جوار الكعبة حتى يستلقي في قيلولة ، ويَغُطَّ في نوم عميق يُنسيه هموم الدنيا كلها . . .

ولكنَّ هذه السكينة لم تدم طويلاً ، إذ سرعان ما عادت الأحلام تؤرقه وتقضُّ عليه مضجعه ؛ ثم كان يوم ، جاءه أثناء قيلولتهِ هاتف في المنام يقول له : احْفِرْ بئرَ زَمزم ! . .

وأَنِسَ عبد المطلب لهذا الهاتف واستمرأ طعمه ، ولِمَ لا ؟ أليس إن وجدَ الماء ، وجد الشفاء لنفسه ، والراحة لجسده ؟ ! . . وفي اليوم التالي أَلَحَّ عليه الهاتف وأمره مرَّةً أخرى ؛ وعاوَده بمثلها في اليوم الثالث ، فاعتقد أن في الأمر سرّاً ، بل أيقن أن الخلاص بات وشيكاً . . . ولكنَّ المشكل أنه لا يعرف مكان البئر ، فما عساه أن

يفعل ؟ . . ولم يجد وسيلةً إلاَّ في البحث عمَّن قد يكون عنده علم بذلك . . فراح يفتِّش في الناس حتى أعياه الأمر دون أن يعثر على ضالَّته . . .

وعاودته الحيرة ! . . ماذا يستطيع أن يعمل للاهتداء إلى البئر ؟ وجاءه الجواب بعد تفكير عميق وطويل وهو مستلقٍ إلى أحد أركان الكعبة المكَّرمة ، وكان الجواب كأنه أمرٌ يعطى له : اذهب إلى الطاعنين في السِّنِّ ، واقصد الرواة ، وحفظة أخبار العرب ، فلعلَّكَ تصِل من أقوالهم إلى ما يهديك إلى مكان زمزم . .

وقام من فوره يسعى لدى المعمِّرين في قريش ، يستقي منهم ما يعرفونه عن زمزم ، ثم يذهب إلى الرواة ، ويطلب إليهم قصَّ ما عندهم من أخبار بعيدة ، حتى انقضت مدة من الزمن ، وتجمعتْ لديه خلالَها بعض المعلومات التي تمكِّنه من تعيين الأماكن التي يمكنه البحث فيها .

وانكبَّ عبد المطَّلب على الحفر ينبش هنا وينقّب هناك ، حتى أتى على جميع الأمكنة التي تصوَّر أنه سيعثر على زمزم في أحدها ، ولكنه لم يجد ما كان يبحث عنه ، غير أنه بقي أمامه أمل وحيد وهو الحفر في المكان الأخير ما بين إساف ونائلة ، الوثَنين الشهيرَين في مكة ، فانصرف إليه مع ابنه الحارث ، وراحا يحفران فيه ، وظلاَّ على تلك الحالة حتى انقضت عدة أيام دون أن تظهر أية علامة تدل على وجودَ الماء . . .

وهالَ الأمرُ عبدَ المطَّلب ، وروَّعه تعبُ ابنِهِ الذي أضناه العمل ، وكاد يدخل اليأس إلى قلبه حين رأى ابنه الوحيد يكابد معه التعب المضني ويأبى أن يتركه أو يفارقه لحظة في عمله ، بل دأب يكدّ إلى جانبه ، ويبذل كل ما أمكنه البذل ، حتى نحل عوده ، وهزل منه الجسم ، وشحب الوجه . . ووصل به اليأس إلى حدٍّ دفعه في أحد الأيام لأن يترك ابنه وحده في العمل ، ويتوجه إلى الكعبة ، لِيُمسك بابها ، ويرتمي عند أركانها متضرّعاً إلى الله بالدُّعاء كي يُخَلِّصَهُ من هذا العذاب الذي يوشك أن يفتك به وبولده . .

وتخور قوى عبد المطلب ، فيهوي على الأرض وقد أخذ منه التعب مأخذه ، ويلوذ كمثل طائر كسير الجناح إلى ظلِّ ركن الكعبة ، فيغفو ، ومضت فترة على ذلك الإغفاء فأتاه الهاتف يصرخ في وجهه : قم يا عبد المطلب إلى زمزم . . .

فهبَّ عبدُ المطَّلب من غفوته القصيرة مذعوراً ، وقَعَدَ متلفِّتاً حوله ، فلم يجد أحداً في تلك الناحية ، ثم سار على غير هدى ، ومشى لا يُحِسُّ غير أنه كان يفكِّر في الهاتف الذي أيقظه من نومه ! . .

أين تقوده قدماه . . ؟ .

إلى المكان الذي كان يحفر فيه عند إساف ونائلة ! . .

وهناك ، خلع عنه جبَّته ، ونزل إلى البئر التي حفرها ، ثم أمسك بولده ، وأقصاه جانباً بعد أن تناول المعول وأخذ يضرب في الأرض بكل ما أُوتي من قوة ، حتى تلاشتْ قواه ثانية ، فوقع مُغْمىً

عليه ، وأسعفه ابنه ، حتى أفاق ، فأخذه من يده وقاده إلى البيت تحت ستار الظلام .

لم يذق عبد المطلب طعم النوم في تلك الليلة ، وقبل أن يطلع الفجر ، قام من رقاده وذهب إلى الكعبة يدعو الله سبحانه وتعالى كي يسهل عليه مهمَّته ؛ وبعد أن فرغ من الدعاء ، توجه إلى البئر ، وبدأ العمل وحيداً . .

وأفاق ابنه الحارث في الصباح وتفقد أباه فلم يجده ، فقام مسرعاً إليه . وما ان وصل إلى مكانه ورآه حتى اطمأنَّ قلبه ، فألقى عليه تحيَّة الصباح فلم يجب . . فنزل إليه وأراد أخْذَ المعول من يده فأعرض عنه ونحَّاه جانباً ، وهو يتابع عمله باجتهاد ، حتى ظنَّ الحارث أن أباه قد فقدَ شعوره ، أو لامَسهُ مسٌّ من الجنون . وعاد الحارثُ محاولاً أن يقترب منه ومحاذراً من ضربات المعول أن تطاله ، فإذا به يتعثَّر ويسقط على الأرض . .

لقد تعثَّر الفتى البارُّ وهو يسعى لإنقاذ أبيه من قلقه النفسي ، فسقط على وجهه غارقاً في التراب . . .

ويا للعجَب ! . فقد أحسَّ الحارثُ أن التراب الذي عَلِقَ بوجهه مليءٌ بالرطوبة ، فلم يأبه لسقوطه ، بل أمسك كتلةً منه وراح يعتصرها فوجدها تنضح بالماء . . فصرخ بغير وعي منه ، وبملء فيه : أبي أبي ، إنه الماء . . . ! .

ولكنَّ أباه كان لا يَنتبه لصراخه . إنه في عالمٍ ليس فيه إلاَّ

أرض ومعول . . المعول يضرب في الأرض ، والأرض تتفتَّق تحت ضرباته القاسية . وكلما زادت تلك الضربات ، ثقلَتْ وتعمَّق تحتها الحفر ، حتى حانت الساعةُ التي أرادها الله سبحانه ، فإذا بالماء ينبجس بين قدَمَي عبد المطَّلب ، ويُعيدُ إليه الوعيَ بعد شروده ، فيهوي عليه بجسمه جميعاً ، يريد بذلك أن يشفي ظمأ قلبه قبل أن يروي عطش فمه . .

ينكبُّ عبد المطلب على الماء ، فيمرغ وجهه فيه طويلاً ، ثم يلتفت إلى ابنه الحارث ويُلقي عليه نظراتٍ ملؤها الحنان والأمل ، كأنها تقول له : لقد ذهب القلقُ والتعبُ يا بنيَّ وجاء وقت الراحة والاطمئنان . . نعم يلتفت عبد المطلب إلى ابنه فيراه واقفاً بجانبه يتأمله ، وقد بدَتْ عليه علائم البشْر والسرور فيقول له :

ـ تعالَ يا بنيَّ ، واروِ ظمأ فؤادك من هذا الماء القراح . . . تعالَ يا بني ودَع عنك الهموم التي أثقلت كاهلك ، فلا نصبَ ولا تعبَ بعد اليوم . . تعالَ يا بني إلى جانبي واجعلني أغسل بهذا الماء وجهك لأزيل ما علق عليه من تراب ووحل . . .

وتقدم الحارث من أبيه يحوطه بذراعيه ، ويعانقه طويلاً وهو يهنّئه على نجاحه في اكتشاف البئر ، ثم لا يلبثان بعد استراحة قصيرة ، أن يقوما ويعاودا العمل ، وهكذا حتى اهتديا إلى جوانب البناء ، وتكشَّف لهما عمق البئر في آخره ، فنزل إليه عبد المطلب وعثر فيه على الذهب والأموال التي كان مضاض الجرهمي قد خبَّأها في قعر هذه البئر ، والتي كان عبد المطلب قد عرف أخبارها ممن

ذهب إليهم في سعيه لمعرفة مكان (زمزم) . .

وبينما كان عبد المطلب وابنه الحارث مُنكبَّين على إعادة التعمير ، تناهت الأخبار إلى قريش بأن عبد المطلب قد وجد بئر زمزم ، فجاءت قريش مندفعةً ، زرافات ووحداناً ، وراحت تتحلَّق حول الرجل وابنه ، وهي تتأمل ذلك العمل الجبَّار الذي كان الفضل فيه لله عزَّ وجلَّ ولجهود هذين الرجلين اللَّذين يعملان بكد متواصل .

لقد جاءت قريش إلى عبد المطلب هاتفةً محَيِّيةً ، ولكنَّ هتافاتها لم تلبث أن هدأت وتلاشت ، كيف لا وهي ترى الذهب والثروات إلى جانبه ! . .

لقد رأى شباب قريش أن نجاح عبد المطلب يجب أن يشاركهم فيه ، ولكن شيوخها آثروا الدعوة إلى الاجتماع ، فتركوه في عمله ، وذهبوا إلى حيث يتشاورون فيما يفعلون . .

وبعد جدال ونقاش كثير استقرَّ رأي قريش على أن لها نصيباً فيما وجده عبد المطلب ، لأن الذهب الذي وجده مُلكٌ للكعبة ، وقريش هم أحقُّ العرب بالكعبة ، وأقرب الناس مجاورةً لها . .

فألَّفوا وفداً من كبارهم ، وجاؤوا عبد المطلب في بيته مساءً ، يطالبون بحصتهم من الأموال ، فكانت صرخةُ عبد المطَّلب عظيمة في وجوههم جميعاً ، إذ لم يكادوا يفاتحونه بما جاءُوا من أجله حتى ثار بهم ثورة قوية وراح يذكرهم عندما تخلَّوا عنه ، وعندما تركوه وابنه وحيدَين يَشقيان في البحث عن الماء ، في سبيل تأمين السِّقاية لحُجَّاج

بيته ، ولتظَلَّ هذه العادة الشريفة قائمةً بين الناس . . .

ثم راح عبدُ المطَّلب يُظهر لهؤلاء القوم سفاهة رأيهم الذي أبدوه حين جاؤ وا يطالبون بما ليس لهم فيه حق ؛ فأعرض عنهم رافضاً مستنكراً مستهجناً سفاهتهم وخَطَلَ آرائهم . . ولولا شهامتُه لَدَعاهم إلى الخروج من منزله ، ولَطَردهم طرداً قبيحاً ، ولم يحسم الموقف إعراضُ عبد المطلب عن القوم ، بل ظلوا جالسين يحاجّونه ، ويبدون كل ضروب المراوغة والخداع ، حتى سئم دناءتهم ، وكره طمع نفوسهم ولم يعد قادراً على احتمال رؤ يتهم في منزله فهبَّ واقفاً ، وقد استبدَّ به الغضب ، وراح يكيل لهم التوبيخ واللَّوم ، ويوجِّه لهم الإهانة بأقسى ما يمكنهم أن يسمعوه ، ثم يعود ويقدم لهم الحجج والبراهين بأن ليس لهم الحق بالذي اكتشفه ، وهم قابعون في مقاعدهم ، ساكتون مبهورون من بلاغته وحُسن بيانه . حتى هدأت ثورة غضبه فعاد إلى مكانه وجلس ساكناً لا ينبس ببنت شفة . .

نعم جلس عبد المطَّلب ، ولكنه ظلَّ يحدِّق في وجوه تلك الزمرة التي انتدبتها قريش لمفاوضته ، فرأى في أصحابها أناساً قد بهرهم مرأى الذهب ، فلم يعد لهم من همٍّ إلا الوصول إليه ، ونيل نصيبٍ منه ، وفي ذلك ما يزيد من سخطه عليهم ؛ ويجعله يملُّهم ويملُّ التطلُّع إليهم ، فأطرق إلى الأرض مفكراً بما عليه أن يفعل . . ثم لم يَطُلْ إطراقُه ، بل رفع رأسه نحوهم وقال بلهجة التعالي والأنفة :

ـ ليكن ما تريدون يا قوم ولكن بشرط أن تعملوا بما أراه . .

وتلفت الجميع إلى بعضهم البعض متأملين فيما عساه يقول . . ثم صوَّبوا أنظارهم إلى شفتَي عبد المطَّلب ، وكأنَّ كلاًّ منهم يتساءل في نفسه : « ماذا يريد أن يشترط هذا الرجل ؟ »، لقد علقتْ عيونهم بشفتَيه حتى كادت أن تتمزَّق من التحديق ، فلما لم يعد بإمكانهم الاصطبار ، وقف أحدهم يقول بذلَّةٍ وانكسار :

ـ وما ترى يا سيد قريش ؟ ؟ . .

فأجاب عبد المطَّلب بلهجة السيد الآمر :

ـ اجلس أيها الرجل وستسمع مني كل شيء . . . ثم خاطب القوم قائلاً :

ـ يا معشرَ قريش ، إن أموال الكعبة هي حق للكعبة . وأسياف مضاض الجرهمي ملك للقوم ، ولكني سأضع كل الثروة التي وجدتها تحت القسمة ، فأجعل للكعبة قدَحين ولكم قدحَين ، ولي مثلهما ، ومَنْ خرجتْ قدحاه على جزء كان له ، ومن تخلَّفتْ قدحاه فلا شيء له . وإني لفاعل ذلك حتى لا تقول العرب بأنَّ ابن هاشم قد طمع على بني قومه ، واستعدى عليهم بحقوق طالبوه بها ، وإن كنت على قناعة بأن لا حقَّ لكم بما تطلبون . فإن رضيَ جميعُكم بما أعرض ، ذهبنا إلى الكعبة ، وإلاَّ فلا شأن لأحدكمْ فيما أفعله بالمال . . .

ولم يوافق رأي عبد المطلب هوى في نفوس القوم . ولكنهم نزلوا عند قوله صاغرين ، فقاموا جميعُهم إلى صاحب القِداح عند

هُبل . وهنالِكَ ضُرِبَتِ القِداح ، فلم تُصِبْ قَدَحا قريشٍ شيئاً ، بينما كانت السيوف من نصيب عبد المطَّلب ، والتِّمثالان الذهبيان حصة الكعبة . .

هكذا وبمثل هذه العدالة السماوية ـ وإن كانت بطريق القداح ـ خرجت قريش خاسرة ، وعاد القوم إلى بيوتهم فارغي الوفاض ، يجرُّون وراءهم أذيال الخيبة ، بعدما أمَّلوا أن يُصيبُوا مالاً دون عناء أو تعب .

رجعت قريش خاسئةً ، بينما ذهب عبد المطَّلب إلى الصناعي فصهر الأسياف وجعلها باباً للكعبة ، ثم ضرب تمثالي الذهب حليةً للبيت الحرام ، فأكبرت ذلك قريش وامتدحت عمل عبد المطّلب في مجالسها ، وأصبحت راضية بعدما كانت ساخطة . .

واستقرَّت الأمور لعبد المطَّلب ، فلم تعد السِّقاية تُقلقه بوجود بئر زمزم الغزير الماء . ولم تعد أمور القوم تُرهقه ، لتصرفاته الرشيدة في التدبّر والرعاية . ولكنَّ أملاً واحداً ظلَّ يشغل باله حتى صار بمثابة الهم ، وهو إنجابُ البنين . فبالأمس البعيد ، ويوم وقع في الضائقة ، وتحلقت قريش حوله تنازعه ثمرة أتعابه . أحسَّ بحاجته لأبناء يذودون عنه، ويقفون في وجه القوة الغاشمة، التي تحاول أن تفرض أمور الباطل عليه . . نعم يومذاك ، وفي تلك الفترة الحرجة من حياته نذر إن جاءه عشرة من الأبناء ، أن ينحر أحدهم عند الكعبة ، عرفاناً بفضل الله عليه . .

ثم أخذت السنون تمرّ ، والأيام والشهور تكرّ . . حتى كان لعبد المطَّلب ما أراد . فقد توافى بنوه حتى صاروا عشرة، منهم: الحارث ، وأبو طالب واسمه عبد مناف ، وقثم وأبو لهب واسمه عبد العزى ، وعبد الله ، والعباس ، وحمزة . . يملأون الدنيا من حوله ويشغلون الحيِّز الكريمَ الرحب في وجوده . فهو لا يهاب صعاباً تعترضه ، ولا يغتمّ لحسرات توجعه ، فقد انقضت الأيام الصعبة من حياته ، وها هو اليوم يعتزّ بأبنائه ، ويحمد الله على ما أنعم عليه من فضلٍ جزيل ونعمة واسعة . .

ولكنه رغم هناءة العيش ، لا ينسى النَّذر الذي أخذه على نفسه من قبل .

عَبدالله

ولذا جمع في ذات يومٍ أولاده ، واستشارهم في أمر نذره لتكون التضحية التي يُقدِمون عليها ، تضحيةَ رِضىً وقبول ، لا تضحية طاعة وقهر . . .

ويجد عبد المطلب في كل واحد من أبنائه ، يشبه إلى حدٍّ قريبٍ ما وجد إبراهيم في ابنه إسماعيل عليهما السلام . . .

هكذا وقف أبناء عبد المطلب وكلّ منهم يريد أن يكون الفداء ! . .

ثم احتدم بينهم الجدال في أروع مباراة عرفها الإنسان لهذا

البيت الكريم الذي ضرب المثل الفريد في التضحيات ، فهم يتسابقون في تقديم رقابهم للنَّحر إرضاءً للأب ، وصوناً لعهده مع ربِّه . .

فقد سما حقاً أبناء عبد المطلب وهم يتوثبون للعلا . . فكم أعطَوا من مثلٍ رائعٍ للأبناء في الوفاء بعهد الآباء ! . .

فأين منهم الآن أبناء البشرية في عهدها الحاضر ، حيث تصطدم كل يوم بأكثر من قصة وخبر ، عن مروق الأبناء ، وعقوق الآباء ، وازدراء الاخوان والأصدقاء ، حتى وصل الأمر إلى أن صار الابن يقتل أباه ، والأجير يفتك بوليِّ نعمته ومولاه . . .

لقد هبَّ كل ولدٍ منهم يريد أن يَفِيَ نذرَ أبيه ، ويفتدي برقبته رقاب إخوته ، حتى أوقعوا أباهم في مأزق حرِج ، وجعلوه في حيرةٍ من أمره . . . ولكنَّ عدالة هذا الأب ، وصدقه مع رَبِّهِ ومع نفسه ، هدياه إلى الطريق الصحيح .

وها هو ، يُهَدِّئُ خواطر أبنائه ويدعوهم إلى الجلوس ، ثم يقول :

ـ أنتم أبنائي وأعزُّ عشيرتي ، وكلكم عزيزٌ على قلبي ، غالٍ على نفسي . . . ولشدَّ ما يعتصر فؤادي ويلوعني أن أفارق أحدكم . فليس هيِّناً على المرء أن ينتزع بيديه حبَّة قلبه ، ولولا مرضاة ربي ، والوفاء معه بعهدي لما فاتحتكم بهذا الأمر ؛ ولطويته في قلبي حتى

أموت كمداً . . ولكن العهد أُعْطِيَ لله ونحن مُذعِنون لمشيئته ومُستسلمون لقضائه . .

وكان أولاده يستمعون إليه والدموع تملأ مآقيهم . . . فقد أحسّوا بلوعةِ الألم التي تمزق فؤاد هذا الأب الجليل ، فقالوا له بلسانٍ واحدٍ :

ـ إذن ، اخْتَرْ أنتَ مَن تشاء ، وسترانا صابرين بعون الله . .

ويقول لهم الأب ، بلهجة الحازم الجازم :

ـ لا يا أعِزَّائي ، لن تكون لي القدرة على الاختيار بنفسي ، ولن أقبل بفداء أحدكم دون الآخرين ، ولكننا نترك الأمر لاختيار الله عزَّ وجلَّ .

ـ فقال أحدهم : ونِعْمَ الاختيار . . .

ورد آخر : وكيف ذلك يا أبي ؟ . .

فأشار الأب إليهم بالهدوء ، ثم قال :

ـ اسمعوا جيِّداً يا أبنائي . . . إن الأمر جليل حقاً ، ولكن لا مفرَّ منه ولا مهرب . . فسوف نأتي بالقداح ، ويأخذ كل منكم قدحه ، وفيه علامة تدل على صاحبه ، ثم نتوجه في الصباح إلى الكعبة بيتِ الله ومقام أبينا إبراهيم عليه السلام ، حيثُ تُضرَب القداح ، فمن خرجت قدحُه كان القربان لله تعالى . . .

ثم باتوا ليلهم على حالة من الأرق والقلق ، حتى مطلع

الفجر . . . فقام عبد المطلب يقول لأبنائه :

ـ تناولوا طعام الفطور ، ثم تفرَّقوا في مكة ، تدعون أهلها للمجيء إلى الكعبة ، حتى يشهدوا الوفاء بالنذر ، وبعدها وافوني هناك لتجدوني بانتظاركم . .

تفرَّق أبناء عبد المطَّلب في مكة ، يدورون فيها من شِعْبٍ إلى شعب ، ويطرقون بيوتها بيتاً بيتاً يدعون الناس إلى الكعبة . حتى إذا فرغوا ذهبوا لملاقاة أبيهم حيث وجدوا الصفوف متراصَّة ، إذ سبقتهم جموع غفيرة إلى مكان الاحتفال . .

نعم ، الاحتفال بذبح أحد أبناء عبد المطَّلب . . .

وأزفت الساعة ، وتقدم صاحب القداح يضربها ، فإذا بقدح عبد الله ، أصغرِ أبناء عبد المطَّلب وأحبهم إلى قلبه ، هي التي تخرج دون قداح إخوته . وتعالت الصيحات والهتافات من كل جانب . . .

جماعةٌ راقها الحدث ، فهتفت تستعجل النحر ، وجماعة أخرى أدركت عواقب الأمر وجسامة خطورته ، فصرخت مستنكرة ، رافضةً . . .

واختلطت أصوات الجموع ببعضها البعض ، وامتزج اللَّغط بالنقاش ، حتى شاعت الضوضاء ، وعمَّت الفوضى ، ولم يعد باستطاعة أحد أن يفهم ما تريده هذه الجموع الغفيرة . .

في خضمِّ هذا الصراع تعالتْ صرخاتُ عبد المطَّلب ينادي بالإخلاد إلى الهدوء والسكينة . وكأن صرخاته تلك قد وقعت على

القوم كالصاعقة ، فأوجفوا منه ، ووقفوا يتطلَّعون إليه مشدوهين . . .

أخذ عبد المطلب ابنه عبد الله بيده ، ثم أمسك بالسكين بصدقٍ وعزيمة تقوى على وهنه ، واحتضن ابنَه بين ذراعيه ، ثم طلب إليه أن يجثو أمامه على ركبَتَيه . . . وامتثل الابنُ للأمر ، ونزل إلى الأرض مطأطىء الرأس . . .

فدار عبد المطلب من ورائهِ يستلُّ السكين ويهمّ بأن يهوي بها على رقبته ، وإذا بصوت جهوريّ تهتزُّ منه جنباتُ تلك الناحية ، يصرخ في الناس لكي ينتبهوا من غفوتهم ويتقدموا للوقوف في وجه عبد المطلب للحيلولة بينه وبين ما يعزم على تنفيذه . . . واستقرت الصرخة في آذان الناس ، فكانت لهم بمثابة النذير الذي أعادهم إلى دنيا اليقظة . . .

وما هي إلا لحظات ، كان خلالها عبد المطَّلب قد تلفَّتَ ليرى ما يجري ، فإذا بالجموع تتدفَّقُ نحو عبد الله ، وتتحلَّق من حوله هاتفةً : لا يا عبد المطَّلب ، لن تذبح ولدك عبد الله . . .

ثم ينبري من بين الجموع عبدُ الله بن عمرو بن مخزوم ابن يقظة ، المعروف بالمخزومي ، فيتقدم من عبد المطَّلب ، وهو يقول له :

ـ إيه يا سيد قريش ، أوَتدري ما أنت فاعله ؟

ويدهش عبد المطَّلب من سماع هذا القول ، فيصمت قليلاً ، ثم يجيب :

ـ نعم والله أيها المخزومي .

ـ كلا أنت لا تعلم عاقبة ما تُقْدِمُ عليه . . .

ـ وكيف أيها المخزومي ، وأنا أقوم على الوفاء بنذرٍ عاهدتُ الله عليه . .

ـ إنه نذرك أنت ، ولكنَّ نتائجه على العرب عقيمة ، ولا يعلم مدى صداه وآثاره إلا الله . .

ـ ومتى كان الوفاء بالعهد ، يؤدِّي إلى شرّ ؟ ! . .

ـ أبداً يا عبدَ المطَّلب إلاَّ عهدُكَ ، فإنك إن فعلتَ ، وذبحت ابنك وفاءً لنذرك ، لقامت هذه العادة في العرب ، ولا يزال الرجل ينذُر ، ويأتي بولده فيذبحه حتى تذهب أعداد من أبنائنا إلى الفناء دونما فائدة ترجى إلا ما رضيت به أحلام الآباء ، وما للناس احتمال لهذا الأمر الخطير . . .

وسكت عبد المطَّلب لا يدري بما يجيب ، فتابع المخزومي قائلاً :

ـ يا عبدَ المطلب ، إن ابنك عبد الله هو ابنُ أختنا ، فإن كان فداؤه بأموالنا فدَيناه ، وبدافع قرابتنا ، وحرصنا على أبنائنا لن ندَعك تذبح هذا الفتى حتى نُعذَر فيه .

وأحسَّ عبد المطلب بالعبء الذي يرزح تحت ثقله ، ولكنه لا يستطيع أن يُخِلَّ بالعهد الذي قطعهُ على نفسه ، فقال للناس :

ـ وكيف أرضي ربي أيها الناس ؟ .

وتنادت صيحات القوم من كل جانب تتلاقى في أنحاء الحرم :

ـ أنا أفدي الذبيح بمالي . .

ـ أنا أقدِّم إبلي قرباناً بدلاً من عبد الله . . .

ـ أنا أهبك غِلالي يا عبد المطلب كي تجدَ فيها الوسيلة التي تحفظُ ابنك ، تلك صيحات رجالات قريش ، بل ورجالات مكة بأسرها تتجاوب مستجيبة للدعوة التي تُخَلِّصُ الفتى من الذَّبح . . .

ولم تكن النسوة أقلّ حماساً من الرجال ، فتقدمت كثيرات منهن متبرعات بحلاهنَّ والأساور ، أو ناذِراتٍ الإقامة على خدمة الكعبة ردحاً من الزمن ، إن أعتق عبدُ المطَّلب ابنَه وخلَّى سبيلَه من الموت . .

ورأى الفتيان أهلهم يتدافعون ، آباءً وأمهاتٍ ، في سبيل عبد الله ، فكان لهم موقفهم الشريف من رفيق الطفولة ، وعشير الفتَّوة في مكة .

ورأوا أنهم أحقّ بحمايته من أهلهم فتحلَّقوا حوله زرافات ووحداناً وهم يصرخون :

ـ لا نرضى أن يموت عبد الله . . . نحن نفديه بأرواحنا . . . اذبَحونا مع عبد الله . . .

إنها لَثورة قرشية ، أشعل لهيبها المخزوميُّ ، فاندفعت

الاحتجاجات العفوية تنطلق من القلوب ، رائدُها الرحمةُ والرفقُ بالإنسان بعيداً عن أيَّةِ قَبَلِيَّةٍ أو عصبيَّةٍ . .

وأذهلَت هذه الانتفاضةُ شيوخَ قريش إذ رأوا فيها شيئاً لم يألفوه من قبل . فأكبروا تلك البادرة الطيِّبة من الجميع وشكروا للجموع المحتشدة حماسها ، وتطلَّعوا من خلال هذا الاندفاع إلى مستقبلٍ مجيدٍ للعرب جميعاً ، يقوم على صفاء النفوس وصدق العزائم ، فتداعوا إلى التشاور فيما بينهم حتى يجدوا مخرجاً للمأزق الذي يواجهونه بعد نذر عبد المطَّلب . . ثم وقف أحدهم يدعو الناس للانصراف إلى منازلهم ، وقال :

يا أهل مكة إنَّ عبد المطلب هو السيِّد ، وهو صاحب مناصب الكعبة . فما يهمه يهمنا ، وما يفرحه يفرحنا . وإنه لجدير بكم ، وقد فعلتموه ، أن تشفقوا على ابنه ، وأن تفدوه بالأنفس والأموال . وإن السماء لَتُبارك هذا الفداء ، لأنه يُعَبِّرُ عن قوَّة الجماعة وتضامنها . . .

وكان لكلام الخطيب وقع حسن على قلوب المحتشدين ، وأحبوا أن يسترسل بأمثال العبارات التي تفوَّه بها ؛ وانتظروا أن يستأنف القول فما خاب ظنهم . .

إذ تابع الشيخُ المهيب متوجهاً بالخطاب إلى القرشيين بالذات :

يا معشر قريش ، إن أمرنا اليوم صعب ، ولكنَّ حُسْنَ التدبير قد يجلب السعادة ويأتي بالراحة . . تعودون اليوم إلى بيوتكم ، وتتركون لنا نحن الشيوخ الفرصة كي نجدَ الوسيلة التي تحفظ على عبد الله

حياته ، ولا تُحرِجُ أباه بعدم الوفاء بنذره .. فإن تفرَّقتم الآن ، شَرَعْنا في العمل وأتَحْتُم لنا فرصة التفكير الهادىء ، وأن لم تفعلوا بِتْنا عاجزين عن الوصول إلى حَلٍّ صحيح ..

واقتنعت الجموع بما أبداه هذا الشيخ ، فذهب كل منهم في سبيله ، بعدما أقاموا بعضَهم رقباءَ على كل ما يجري من أُمور ...

وعلى الفور ، تحلَّق الشيوخ ، والمُسِنُّون في مكة ، حولَ عبد المطَّلب وكان قد سكن إلى ركن من أركان الكعبة متخوفاً من الخَطب الذي يوشك أن يحلّ .

تحلَّق الجمع حوله ، وراحوا يتبادلون الآراء ويتشاورون حتى استقرَّ بهم الرأي على اللجوء إلى عرَّافة في يثرب قد تهديهم إلى الطريق الذي ينبغي لهم أن يسلكوه . وما هي إلا ساعةٌ من وقتٍ ، حتى ارفَضَّ الاجتماع وذهب الوفدُ المقترح إلى رِحالهم يمتطونها ، وراحوا يغذُّون السير إلى يثرب التي استعدَّت لاستقبالهم بعدما نقلت الرُّسُل أخبار الوفد القادم ..

.. ووصل الوفدُ .. وجيء بالعرافة ، يستفتونها في قضية الوفاء بالنذر ، فاستَمهلت الناسَ إلى الغد لتبديَ ما تراه ..

وجاء الغدُ ، وعُقدت الندوة المؤمَّلةُ ، فسألت العرافة أهل مكة :

ـ كم الدِّية فيكم ؟

فقيل لها : عشرة من الإبل . . . وأطرقت هنيهة ، ثم هزَّتْ رأسها قليلاً وقالت :

ـ إذن فارجعوا إلى دياركم ثم قرِّبوا صاحبَكم وعشرة من الإبل واضربوا القداح ، فإن خرجت عليه فزيدوا مثلَها حتى يرضى رَبُّكم .

وكان أكثر الناس فرَحاً بما رأت العرَّافة ، عبد المطّلب يقيناً . . فقام إلى العرَّافة يجزيها بالمال ، وهو يدعو لها قائلاً :

ـ لتبارك السماء خُطاك يا أُختاه ، وليرافقك حُسن الطالع في كل ما تعملين .

عاد عبد المطَّلب وأبناء قومه إلى مكة مستبشرين بما رأت العرافة ، لأنه بالغاً ما بلغت أعداد الإبل ، فإنها لا توازي بضع قطرات دمٍ تنزل من عبد الله . .

وفي الصباح الباكر ، ساق عبد المطَّلب بنفسه الإبل إلى ما حول الحَرم وعلى مرأى من الجماهير المحتشدة ، وتقدم صاحب القداح يضربها ، فإذا بها تخرج على عبد الله . وزاد عبد المطَّلب عشرة منها ، فخرجت أيضاً على ابنه ، وما زال صاحب القداح يضرب ، وعبد المطَّلب يدفع بالإبل عشرة بعد عشرة حتى بلغت المئة ، عندها خرجت القداح على الإبل . . . فهتفت الجماهير مهلِّلةً : أبشر بالفوز يا عبد المطَّلب ، فقد رضيَ ربُّك .

ولكنَّ عبد المطَّلب لم تأخذه الفرحة ، بل أراد أن يكون ضرب القداح لمراتٍ ثلاث . ونزل القوم عند رغبته ، وضُربت القداح

فخرجت في المرتين الأخريين على الإبل . . .

عندها لم يعُد للناس قدرة على الانتظار ، وقد تاقوا إلى الخلاص، فقاموا يستلُّون شفرات سيوفهم وخناجرهم، ويهوون بها على أعناق الإبل ينحرونها فِداءً لعزيزٍ بنِ عزيز . . ثم تركت الإبل لا يُصدُّ عنها سائل من الناس ، ولا جائع من الوحش والطير . . وهنا تستوقفنا ثلاثة أحداثٍ هامة :

ـ أولها أن التسلسل التاريخي في رئاسة قريش يقف عند عبد المطَّلب ، الذي وقع عليه الاختيار بأمر غيبيّ حين أُمِرَ أن يكون هو حافر بئر زمزم ، البئر التي جعل لها العرب مكانة خاصة في نفوسهم لأنها تعود إلى عهد إسماعيل عليه السلام ، صاحب القصة الشهيرة في تاريخهم الذي أكرمه الخالق أول مرة وهو يفجِّر الماء بين يديه حتى يروي عطشه وعطش أمِّه ، فكان ذلك الماء من بعده مصدر سقاية لأهل مكة ، ولحجيج العرب إلى الكعبة ، وبسبب إعادة حفر بئر زمزم كان نذر عبد المطلب .

ـ وثانيها خروج القِداح على عبد الله دون أبناء عبد المطَّلب الآخرين ، حتى يكون له شأن خاص يمتاز به في قصة الوفاء بنذر أبيه .

ـ وثالثها ثورة قريش ، بصغيرها وكبيرها ، لتفديَ عبد الله من الذَّبح . .

ولعلَّ أهمية هذه الأحداث ، تبرز فيما جاء التاريخ يثبته فيما

بعد . حيث يلد عبد المطَّلب ابنه عبد الله ، ويكون هذا الابن موضع الفداء ، فتقوم قريش تحميه من الذبح ، حتى يظل على قيد الحياة ، فيلد بدوره الولد الوحيد الذي تختاره الإرادة الإلٰهية ليكون أكفأ وأجدر مَنْ يحمل رسالة سماوية إلى الأرض .

ومن خلال هذه الأحداث تبرز القدرة الإلٰهية وهي تعد كل شيء بمقدار .

وتبقى تلك الأحداث علائم على الدهر ، تشهد بأن الإعداد لبعث نبي مكرَّم ، يجب أن تسبقه أحداثٌ عظيمةٌ في البيئة التي سيُبعث فيها ، لتكون مقدماتٍ للمكانة التي سيتبوأها هذا النبيُّ الكريم في مقبل الأيام ، تماماً كما هي الحال بالنسبة للأحداث التي سبقت ولادته صلى الله عليه وآله وسلم . .

ثم تتعاقب السِّنُون بعد حادثة الفداء ، حتى يبلغ عبد الله الرابعة والعشرين من عمره ، فيرى أبوه أن يزوجه ؛ ويعرض عليه هذا الأمر ، ليختار الفتاة التي يرغب فيها . ولكنّ عبد الله يترك لأبيه حريَّة التصرُّف وهو على يقين بأنه ليس أحدٌ أقدرَ منه على الاختيار . .

وبالفعل يبحث عبد المطَّلب عن فتاة ذات عفةٍ وشرف ، ومن قوم ذوي عزَّة وسيادة ، فيهتدي إلى منازل بني زهرة . ثم يصطحب عبدُ المطَّلب ابنه عبد الله إلى ديار وهب بن عبد مناف بن زهرة ، فينزلان عنده أكرم زائرَين ، وأنبل قاصدين . .

ويعثر عبد المطَّلب على مبتغاه ، فيخطب يد آمنة بنتِ وهَب

لولَده ؛ وآمنة يومذاك فتاة السؤدد والرفعة ، فهي زيادة على حُسن خُلُقِهَا ، وطيبِ مَعْشَرِها ، أصيلة في النَّسب أباً وأماً ، لأنها ابنة سيد زهرة وأمّها برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصيّ ابن كلاب . .

ويتعيَّن موعد عرس الشابَّين ، فتذهب الرُّسُل في أرجاء الجزيرة العربية ، تدعو الناس للمشاركة في الحدَث البهيج . . . فتسارع قبائل العرب وأشرافها ، قبل الموعد المضروب بعدة أيام ، وتأتي إلى ديار بني زهرة تتقدمها الرايات والبيارق ، فتلاقيها الفرسان خارج المضارب وتتنقَّل أمامها بخيولها المطهَّمة ، وبجيادها العربية الأصيلة ، حتى تصل إلى دارة سيد القبيلة المضيفة ، فتنزل على الرَّحب والسعة ، ثم تخطو إلى الداخل على الإبل والنعاج المنحورة احتفاءً بقدومها الميمون . وتظل القبائل تتوافد حتى اليوم الموعود . فيقام الاحتفال الكبير ، ويعقد قِران عبد الله على آمنة .

ثم يُحمل العروسان في هودج ، وينتقل الرَّكب على أناشيد الحداء حتى يصل بيت عبد المطَّلب حيث تتوالى إلى هناك الأفراح عدة أيامٍ أُخَر .

فيكون عرسُ عبد الله عرساً كبيراً شهيراً لمكة بأسرها ، إذ لم تَر العرب مثيلاً له من قبل .

دخلت آمنةُ بنت وهب إلى بيت الزوجيَّة بعد أن ألِفَتْ زوجَها عبدالله ، وألِفها منذ اللحظة التي تلاقيا فيها ، وربط الحبُّ بين

قلبيهما ، وشُغِفا ببعضِهما وكأنهما كانـا حبيبين منذ حـداثة الـطفولـة ، فعاشا في الهناءة والسعادة لفترة وجيزة من الوقت . .

أجل ، خيَّمت السعادة بوارف ظلالها على البيت الزوجي الجديد ، ولكنها كانت سعادة قصيرة لم تدم أكثر من شهور معدودة ، ارتحل بعدها عبد الله ، في تجارة إلى بلاد الشام ، سعياً وراء العمل والكسب ، حتى يؤمن سبل العيش الكريم ، والحياة الفاضلة له ولعياله . . .

ارتحل عبد الله عن زوجه آمنة بعد وداعٍ صعبٍ وفراق أليم ، وسافر يحدوه الأملُ في الرجوع إلى الزوجة الودود ، وقد أمَّنَ كلَّ أسباب الرفاهية لها ولوليدها المنتظَر ، الذي بدأت حياته في أحشائها منذ تزوَّجا . .

ولكن نصيبه من الدنيا ، ومن السعادة مع زوجه بالذات كان قليلا . . فقد ذهب والآمالُ العريضةُ ترافقهُ ، وعاد والمرض يلاحقُه ويغزوه ، حتى إنها لم تُتحْ له فرصة إكمال الطريق ليصل إلى مكة ويتمتع برؤية الزوجة التي تنتظره بفارغ الصبر . . . وقد اشتدَّ عليه المرض في يثرب ، واضطّره للبقاء عند أخواله من بني النجار ، ولكنه لم يلبث بعدما تركته القافلة طويلاً، فغلب عليه المرض ففارق الحياة ! . .

هكذا هي الحياة . . تعطي ولكنها تأخذ بالمقابل . . .

قد تصوَّر الناسُ أن عبد الله بن عبد المطلب هو الإنسانُ الذي

صفتْ له الأيام ، فأعطته شأناً تحدَّثت به الركبان في البوادي والقفار ، يوم فدائه ، ومنحته عزةً شهدت له بها بلاد العرب قاطبةً يوم زواجه ، فكان حَرِيّاً بالناس أن تحسدهُ على ما حازه من الشهرة .. ولكن هيهات أن يدوم مجدٌ ، أو تطول سعادة ما دام في السماء قدَرٌ مقدور لابن آدم . وها هو قدَرُ عبد الله ينفذ ، فيُختطفُ مفارِقاً الدنيا وهو في ريعان شبابه ..

وتبكيه زوجه آمنة ، بحرقة القلب ، قبل دمعة العين ..

وكيف لا تبكيه ؟ وكيف لا يشق عليها فِراقُه ، وقد عشقته نفسُها ، وعاش في كيانها رغم قصر المدة التي ضمَّتهما معاً؟..

كيف لا تبكي الحبيب الذي أفاض عليها من قلبه حباً قلَّ مثيلُه في الحياة .. وكيف لا تندب الزوج الذي أغرقها بالعطف والحنان ، والذي طبَّقت شهرته الآفاق ، وتحدَّثت بمزاياه الكريمة الركبان ، وهو مَن هو في علوِّ شأنه ورفيع منزلته ؟ .. أو كيف لا تنوح على الشاب ، الجميل المحيا ، صاحب الطلعة البهيَّة ، والثغر الباسم ، الذي لم تره فتاة وقعت عيناها عليه إلا تمنَّتْ أن يكون لها زوجاً ورفيق حياة ؟..

لقد فُجِعَتْ آمنة حقاً ، عندما نُعِيَ إليها زوجُها ، وأحسَّتْ أن نَفسَها نُعيَتْ إليها ، ولكَمْ تمنَّت في تلك البرهة لو يأتيها الموت ، حتى تلحق بزوجها فلا يكون بينهما فراق أبداً ..

حقاً إن مصابها عظيمٌ وفاجعتها أليمة .. ساعد الله قلبَ الزوج العروس ، وأعان الله العروس المفجوعة بأغلى أمانيها في الحياة ...

إنها قد تحلُّ بالإنسان النوائب ، وقد تدهمه الأخطار والشدائد . . وقد يُواجهُ قساوة الحياة بعتوّها وجبروتها ، وتداهُمه الهموم بجسامتها . . ولكنه في كل ذلك قد يتحمَّل ويصبر ، لأن نفحَة الأمل في الخلاص تظلّ موجودة . . .

أما أمام الموت ، وحيال جبروته ، فلا أمل ولا مطمع ، لأنه لا شيء يقهرُ الإنسانَ ، ويهزمه كهذا القدر المحتوم . . . إنه قاسٍ ، وقاسٍ جداً ، فلا إرادة فيه إلا إرادةُ الله ، ولا قوة قادرة على الصمود أمام نزوله ، ولا رادَّ له حين حلُوله . .

وهل أشدّ إيلاماً على الإنسان من فقد حبيب إليه ؟ . .

فكيف إذا كان الفقيد أقرب الناس إلى النفس ، بل عشير الروح والقلب ؟ ! تلك هي مأساة الإنسان الكبرى ، ومصيبته العُظمى . . وقد يتأسَّى الإنسان ، بمن حوله وبمصائب الآخرين من بني جنسه ، ولكن ذلك لا ينفي الحُرقة ولا يُذهب اللَّوعة . . ولولا رحمة الله ، وفضله على الإنسان ، ونعمته بالسّلوان والنسيان رويداً رويداً ، لعاشَ مَن يفقد عزيزاً ، حياته كلها شقاء ولم يذق فيها طعم السعادة أبداً .

هكذا كانت مصيبة آمنة بنت وهب . . .

إنها مصيبة الموت التي فجعتها بعبد الله الذي فارقها في ريعان صباها ، وخلَّف لها في القلب حُرقةً ، وفي الأحشاء أمانة ، عليها صَونُها ورعايتُها في كل حال . .

كثيرات من النساء لا يطقن ما أطاقت آمنة ، ولو كُنَّ مكان

آمنة . . لكن هذه المرأة رغم كثرة بكائها ، وشدة لوعتها ، كانت أقوى من المصاب الأليم فلم تَدَعْهُ يُهلكها . . .

لقد رأت أن عليها الصبر على البلوى ، ما دام لها أملٌ بالحياة ، يوجب عليها أن تعيش لمولودها من عبد الله . . لتتحمَّل مسؤولية الأمانة الكريمة الغالية . .

ثم تنتصرُ الحياةُ من جديد على الموت . . فتخلد آمنة للسكينة ، وتعاوِدُها ذكرى الماضي يوم كانت في أهلها فتاةً تفيضُ عليها النِّعَم من كلِّ جانب ، فهي كريمةُ أصلٍ ، جميلةُ قوام ، رضيةُ فكر ، هادئة تصرفاتٍ ، تعاشرُ أترابها بأدب ، وتُكرِمُ الضيف بكياسة ؛ تغدو إلى العمل مع رفيقاتها ، فيتخايل فرسانُ بني زهرة أمامهُن بِخُيَلاء ، والسعيد من يمكن أن يحظى برضاها ، ولكنها تصرف ناظريها عنهم ، ولا تعيرهم اهتماماً . . ويأتون لخطبة يدها فترفض الزواج ، لأنَّ قلبها لم يَطرقه الحب إلا ساعة أتاها ذلك الشاب مع أبيه عبد المطَّلب ، يومَ تطلَّعتْ إلى ملامحه ، فأُعجبت به ، وسمعت أخباره فراقت لها ، وأنصتت إلى أحاديثه فَفَتَنْتها ، وإذا هي بين ليلة وضحاها لا تعود ترى الدنيا إلا بوجوده ؛ ثم تكتمل عليها النعمة فتصير زوجة له ، تعيش معه في هناء وسعادة تامتين ، ثم لا يلبث القدَر أن يختطفه منها ، ويجعلها وحيدة ، رغم كثرة الأهل والأقارب ، إلا من ذلك الأمل الذي باتت حياتها رهينة له . . مولودها المنتظَر . .

وتُقصي آمنة الماضي وذكرياته ، لتعيش في الحاضر ومقوّماته ، وللمستقبل ومستلزماته . . فترى أنها ما تزال في مقتبل العمر ، ولكنها

لا تفكر كما تفكِّر مثيلاتها ، من أنَّ أشراف العرب في ديارها ، وفي أنحاء أخرى من الديار ، قد يطمعون برضاها ويتمنون لو تقبل الزواج بهم . . إنها ليست هناك ، ولا هي من هذا الصنف الذي تراوده هذه الفكرة ، أو تساوره هذه النزعة . . ولا تفكر البتَّةَ في مثل هذا المعنى . .

إنَّ عقل آمنة يدعوها لرؤية الواقع ولاختيار جلائل الأمور ، والتطلع إلى مستقبل يؤمن لها حياة الاستقرار في عهد أُمُومة تستقبله ، أُمومة يجب أن تتمثَّل فيها آيات إخلاصها وإكبارها للزوج الراحل ، وكأنها لا تزال تلتصق به ولو صار في عالم آخر ، وهي فيما هي فيه وعليه من فجيعة تحاول أن تخفِّف آلامَها بأن تتصور مستقبلاً سعيداً وذلك كله لمجرد التنفيس عن كوامن الألم القابعة في أحشائها ، مع فِلذةِ كبدٍ . . مولودٍ تكون فيه كل السلوى . . وأما ما بقي مفقوداً من سعادتها ، فسيكون مجرد ذكرى تعيشها ، وحقيقة تراها في الأمانة التي خلَّفها في أحشائها عبد الله ، فهي التي تمدُّها بالحياة ، وهي التي تمنحها القوَّة التي تنتصر بها على كل يأس . . .

لَكَمْ هو جميل هذا الوفاء في حياة الإنسان ! ولَكَمْ يتعالى به صاحبه عن الآخرين ، الذين لا يقيمون له اعتباراً ! ! ! . .

فَقِلَّةٌ من بني آدم هم الذين يُدركون قيمة هذا المعنى السامي . أما بالنسبة لآمنة فهو صنو نفسها ، ولذا فهي جديرة بأن تحمل اسمها ، لأنها هي الأمينة ، وهي الآمنة . . المطمئنة إلى قضاء الله وقدَره . .

فهل من قوة خفية دفعت وهب بن عبد مناف بن زهرة ، يوم أن وُلدت له تلك الطفلة لكي يُطلق عليها اسم آمنة ؟ ! . .

وهل كان في حُسبان تلك القوَّة أن آمنة هذه ، التي يحمل اسمها معنى الأمن والسلام ، هي ذاتها التي ستلِد ـ عندما تصير أُمّاً ـ الإنسان الذي يحمل أكبر دعوة للسلام على الأرض ؟ .

فما حَمَلَ محمد بن عبد الله ، ابنُ آمنة بنت وهب ، إلا رسالة الإسلام ؟ وما كان شعاره إلا السلام ؟ . .

إذن لم تكن مصادفة أن تحمل تلك المرأة اسم آمنة ، بل إن الذي ألهمَ والدَها أن يخلع عليها هذا الاسم هو المُلْهِم جلَّ وعلا . .

قدَرٌ بقدَرٍ يُحْكِمه الله سبحانه ، لأحداث الوجود تسير بمقتضى ناموس كوني ثابت أراده الله ، وأَقامهُ بقدرته وحكمتِهِ ، جلَّت عظمته ، وتَخَيَّرَهُ بإرادته ، وليس للمصادفة ذكر عند الله ، لأنها من بضاعة السفهاء من الناس الذين لا يعرفون ربط الأسباب بالمسببات ، ويطلقون على المصادفة قانونهم الخاص ، كلما قصُرَ إدراكهم عن تعليل الوقائع والأحداث ، وكلما قصَّر عن إدراك شيء من الماورائيات ، ولكنَّ هذا الزعم ، وأي زعم آخر ، لا يغيِّرُ شيئاً مما قضت به حكمة الله عزَّ وجل ، ولم يكن آدم مصادفةً حين قضت حكمة الخالق جلَّتْ عظمته . أن يَهبه الحياة وهو من طين ، وأن يولِدَ عيسى ابن مريم من دون أب ، كما أنها لم تكن مصادفةً حكمتهُ الجليلة لتي أعطت آمنة بنت وهبٍ اسمها حتى تكون أمّاً لمحمد بن عبدالله ،

الذي سيتولى مقاليد الدعوة لأمن الناس وأمانهم . . أمنهم في النفوس ، وأمنهم في القلوب ، وأَمنهم في العائلة ، وفي المجتمع ، كما هو أمنهم في الحياة الدنيا ، وفي الحياة الآخرة . .

فآمنة بنت وهب ، هي التي حملت أحشاؤها نُطْفَةَ الإنسان الذي حمل الأمن للناس ، وكان حَمْلُها به في الأيام التي تُسَمَّى عند العرب بأيام التشريق ، وهي الأيام التي تقع ما بين الثالث عشر والسابع عشر من شهر ذي الحجة ، حيث كان العرب خلالها يقومون بنشر لحوم الأضاحي في الشمس لتجفَّ ، بعد أن تشرق عليها أشعَّة الشمس . . فكأنَّ حَمْلَ آمنة ما كان ليتمَّ إلا في وقتٍ كُلُّه إشراق ونور .

هذا النور الرَّبَّاني هو الذي جعل آمنة تقوى على المصاب وأن تخلد للراحة ، يُريحها ويُسري عنها الجنينُ المبارك في أحشائها ؛ فهي ـ كُلِّيَّةً ـ بخلاف كل امرأة حاملٍ لا تتأثَّر جسدياً بالحمل ولا تشعر بالثقل ولا بالضِّيق ، كما أنها لا تُحِسُّ بأي قلق ، ولا بأية اضطرابات عصبية ، مما يرافق الحَمل في العادة والمألوف . . . فمعظم الحوامل من النساء يتعرَّضن للقيء بسبب أن نطفة الرجل التي تدخل جسم المرأة تختلف بتركيبها البروتيني عن تركيب جسمها الذي يعتبر أن جسماً غريباً قد دخل عليها ، فتفقد التوازن الفيزيولوجي ما دام كل بروتين غريب ساماً ، الأمر الذي يسبِّب تسمّماً للحوامل في الأسابيع الأولى من حملهنَّ فيكون القيء ، ولا سيما في الصباح يكون القيء هو أحد

السُّبل للتخلص من تلك السموم التي تأتي من نواة الرجل عندما تلتقي ببويضة المرأة . . . .

ومن العوارض التي تصيب الحوامل أيضاً شعور كثيرات منهن بآلام في النهدين بسبب نموّ الجنين . أما أبرز تلك العوارض فتبقى الاضطرابات النفسية أو ما يسمى « بالوحام » وهي تنتج عن التبدلات التي تحدث في المرأة ويظهر تأثيرها في المخ ؛ مما يؤدي إلى اضطرابها العصبي والنفسي ، وأهم مظاهره تقلُّب شهيَّتها بين ألوان الغذاء . . .

فحريٌّ بالذين يحيطون بالمرأة الحامل أن يأخذوا أهواءها بعين الاعتبار ، وأن يبذلوا كل جهد من أجل الترويح عن نفسها ريثما تخرج من هذه الضائقة الحرِجة ، التي تتحمَّل آلامها في سبيل الأمومة . .

أما آمنة بنت وهب فلم يكن معها في حياتها مَنْ يُروِّح عن نفسها ، أو يخفِّف من اضطراباتها لو حدثت لها اضطرابات ، لأنها كانت وحيدة إلَّا من جارية خلَّفها لها زوجها الراحل . . . على أنها ـ بمشيئة الله ـ لم تكن بحاجة أبداً لأية رعاية أو علاج ، لأنها لم تتعرض لمثل تلك الاضطرابات أثناء حملها ، ولم تعانِ من ضيقٍ ولا كَرْب ، ولم تظهر عليها عوارض الحمل وإزعاجاته ، بل على العكس ظلَّت طوالَ حملها تشعر بالارتياح والاطمئنان ، وهي تذكر أن مصدر هذا الشعور هو الجنين لا غيره . . . فقد كان ـ هوَ هُوَ ـ الزاد المعنوي الذي جعلها تَقْوى على كل عارضٍ أو اضطراب ، مثلما جعلها تَقوى من قبلُ على تحمُّلِ المصاب بزوجها .

عَامُ الفِيل

ومما لا شك فيه ، أن أية امرأة ألَمَّ بها مثل ذلك المصاب ، لا بدَّ أن يؤثر على حمْلها ، وقد يؤدِّي بها إلى الإجهاض . فكثيراً ما تعجز المرأة الحامل عن مواجهة مأساة عُظْمَى قد تداهمها فتكون نتيجتها طرح الجنين بصورة قَسْرِيَّة، وقد تكون المآسي فرديَّة وخاصة ، أو قد تكون جماعية وعامة . وقد عاشت آمنة ظروف هاتين الحالتين . . . فبعد أن تناست مُصيبتها الخاصة وآنست الاطمئنان ، وراحت تنتظر وليدها ، إذا بخطب يصيب قومها ، فتعيش مأساة قومها بعد أن عاشت لوعة مأساتها .

إنه في تلك الأيام بالذات اعتلى ذو نواس عرش حُكم اليمن ، وراح يسُوس الناس وفق أحكام الوثنية وتقاليدها ، ثم كان يوم قدم فيه ذو نواس إلى يثرب ، لاقـاهُ أسياد الجالية اليهودية بالحفاوة والإكرام ، وأنزلوه فيهم منزلة الوافد العزيز . . . وكانت تلك الجالية قد أقامت في يثرب معابد لها جعلتها منابرَ لبثِّ دعوتها والترويج لها ، يساعدها في ذلك الثراء الذي كانت تمتلك منه القدر الكثير . .

ولم تكن حفاوة يهود يثرب بذي نواس دون غاية ، إذ من المعروف في حياة الشعب اليهودي أن أبناءه لا ينفقون درهماً واحداً إلا إذا رأوا فيه تجارة رابحةً . . وقد وجدوا في هذا النواسي رجلاً بسيطاً ، فأرادوا استغلاله لما فيه مصلحتهم ، فأحاطوه بالتبجيل والعَظَمة ، ورعوه بالتَّمَلُّق والمُداهَنَة . حتى جعلوه يتخلى عن عقيدته الوثنية ويعتنق اليهودية ، بعدما زيَّن له الأحبار مزاياها ، وجعلوها تلقى هوىً

في نفسه . . ثم لم يكتفوا بتهويده بل كان تأثيرهم عليه كبيراً مما جعله يقسم أن يبذل حياته في سبيل نشر العقيدة التي اعتنقها ، والعمل على نصرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . .

وكان جديراً بيهود يثرب أن يفخروا عندما أخرجوا حاكم اليمن من الوثنية وأدخلوه في دين الله ، لو لم تُظهره أعماله فيما بعد كأعتى حاكم ظُلماً ، وكأقسى وثنيّ جوراً ، وكأشدّ من أي ملحدٍ بطشاً . . إذ لم يلبث بعد عودته إلى اليمن أن جهّز الرسلَ ، وحمّلهم الدعوة إلى سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية ، لدخول أهلها في دينه ، ولم ينسَ أن يوصيَ أولئك الرسل ، باستعمال شتى الوسائل لحمل الناس على القَبول بما يدعو إليه ، ولو اضطرّهم الأمر لإرغامهم على ذلك بالقوّة . .

وفعلاً كان لذي نواس ما أراد ، فخافت قبائل عديدة من وعيده ، ودخلت في اليهودية خوفاً من بطشه . .

ووصلت دعوة ذي نواس إلى أهل نجران ، وهم على دين السيد المسيح عليه السلام ؛ فلم يعبأوا برُسُله ، ولم يكترثوا لدعوته ، لأنهم أصحاب عقيدة سماوية ، قد آمنوا بعقيدتهم التي ترسّخت في نفوسهم ، وصار من المستحيل أن يثنيهم عنها داعٍ من الدُّعاة مهما كان شأنه ، أو يبعدهم عنها حاكم مهما عظُم سلطانه . .

وردَّ أهل نجران الرُّسل خائبين ، وأظهروا تمسُّكهم الشديد بنصرانيتهم ، فعاد الرسل إلى ذي نواس أذلّاء يغمرهم الفشل . .

وشاع الخبر في اليمن ، وراحت الألسُن تتهامس وتحكي : لقد رفض أهل نجران الانصياع لأوامر الحاكم وامتنعوا عن قبول دعوته والتنازل عن عقيدتهم . .

وثارت ثائرة أحبار اليهود ، فتشاوروا فيما ينبغي عملُه ، فرأوا أن أفضل طريقة توصلهم لمآربهم هي بأن يوغروا صدر ذي نواس بالحقد على النجرانيين ، آملين أن يوقع فيهم من العذاب ما يجعلهم ينزلون عند رغبته .

وجاء الكهان والأحبار إلى ذي نواس وهم يخفون كيدهم فيما بينهم ، ويبدون الاستعداد لنُصحه وإرشاده في إدارة شؤون الحكم وتوجيهه لما يحفظ هيبته وكرامته . . ثم تولى كبيرُهم الكلام ، وقال :

« أيها الحاكم الجليل ، أنت سيدُ هذه البلاد وقائدُها ، وصيتك ذائع في بلاد العرب كلها ، فلا يجوز لمثل أهل نجران أن يردُّوا دعوتك ، وأن يصل بهم الغرور إلى حد العصيان لأوامرك ؛ لا نريدُك أن تعبأ أيها السيد الجليل بتفاهة تلك الحُثالة من الناس ، فهم أقل قدراً من أن تُعيرهم اهتماماً أو أن تشغل بهم بالاً . . . ولكن ما يهولنا يا سيدَ البلاد أن ينتشر خبرُ أهل نجران بين العرب ، وأن يُعرَف في الناس عصيانهم لأمرك وتمردهم على طاعتك . ولربما حذتْ حذوهم قبائل كثيرة ، الأمر الذي يُضْعِف شأن العقيدة التي تحمل لواءها وتعمل على نشرها ؛ ومثل ذلك يؤدي إلى مهانتها ، ومن يدري فقد تخبو شعلتُها ، فيكتب لنا جميعاً الخسران ؛ إنَّ هذا يُخيفنا ويدعونا إلى القلق على العرش وعلى العقيدة . . وذلك أمرٌ خطيرٌ فيه عارنا إلى

الأبد ، واحتقار العرب لنا على الدوام . . وها نحن قد أتيناك لنضع الأمور بين يديك ، والرأي لك يا مليكنا الموقَّر ، أطال الله بقاءَك وأمدَّ بعمرك . . » .

ويستمع النواسي لكلام الكاهن : فيغضب ويهبُّ من مكانه مُحنَقاً ، يرغو ويُزبد يروح ويجيء ذارِعاً رُدهة القصر بذهابه وإيابه ؛ والشر يتطاير من عينيه . .

ووقف الكهان يشهدون انفعال الرجل وغليانه ، ثم تلاقت نظراتهم مُعَبِّرة عن ارتياح في نفوسهم بعد نجاح المهمة التي أخذوا على عاتقهم أمر تحقيقها ، وهي أن يوغروا صدر النواسي بالحقد على أهل نجران لينتقم منهم أشد انتقام . .

وبالفعل كان لهم ما أرادوا ، ولكن زيادة في تأجيج النار انفلت أحدهم يزيدُ في القول :

« هَبْ يا سيدي أنك غيرُ مُباغتٍ أهل نجران بفرسانك وخيولك لتقتيلهم وتشريدهم أفلا ترى أن القعود عنهم يُغري الناس باعتناق نصرانيتهم فتضمحل اليهودية من بلاد العرب ، ويأتي وقت يكون فيه مصيرنا للاندثار ؟ » .

وجُنَّ جنون ذي نواس ، فصرخ في حرسه أن يستعجلوا بإحضار قوّاده إليه . . وما هي إلا ساعات حتى كانت الاستعدادات للزحف قد اكتملت ، وتأهّبت الفرسان للاندفاع ، فركب ذو نواس في مقدمة جيشه ، وأصدر الأوامر بالمسير حتى بلغ نجـران . وهنالك دارت

الدائرة على المساكين من أهل تلك البلاد . لقد أرادوا الوقوف في وجه جيشه الجرّار ، ولكن أنَّى لهم بمقاومة جيش لجب زحف عليهم بعدده وعدّته ، وأعمل في رقابهم السيف ؟ .

لقد قاوموا ما أمكنتهم القدرة ، ودافعوا ما وسعتهم القوة ، حتى هلك منهم من هلك ، وبقي من بقي ، غير قادر على حمل سيف أو رفع رمح ، فاستسلموا لذي نواس بعد أن تلاشت قواهم ، فوقعوا بين الأيدي الظالمة مستسلمين . .

وعلى خلاف ما يفعله قادة الحروب ، وعكس ما تقره الشرائع السماوية والقوانين الدنيوية في مثل هذه الحال ، لم يأخذ ذو نواس من بقي من أهل ذلك البلد أسرى ، بل أمر بإقامة حفرة كبيرة في الأرض ، ما لبث رجاله أن ملأوها بالحطب ثم أشعلوا فيها النيران ، وتوعَّد ذو نواس مَنْ بقي مِنْ أهل نجران بإحراقهم في ناره الملتهبة أو الدخول في دينه اليهودي . . .

ولكن أنَّى للنيران أن تثني ذوي الإيمان الصادق عن إيمانهم ، وأنَّى للظلم مهما بلغت قسوته ، أن يجعل الإنسان يتنازل عن عقيدةٍ ترسَّخت في نفسه . . فكثيراً ما حدَّث التاريخ عن إرهاب الظالمين وبطشهم في أهل الإيمان ، بغية صرفهم عن معتقداتهم ، فكان نصيب الظالمين الفشل على الدوام ، وكان الفوز والفلاح للمظلومين المقهورين . . فهل يقدر ذو نواس بناره أن يُغيِّر عقيدة أهل نجران ؟

وتاريخ النصرانية بالذات ولا سيما في أيام انتشارها الأولى حافل

بمآسي البطش والعذاب الذي ينزل على أتباعها من ذوي الملك دون أن تستطيع أن تغيِّر من نفوس أولئك الأتباع شيئاً بل لم يزدهم العذاب إلا إيماناً ، ولم تزدهم المصائب إلا ثباتاً .

وتاريخ الإسلام أيضاً له سجلٌ كبير حافل بالصفحات المليئة بالأحقاد التي ظهرت من قريش وحُلفائها من الكافرين ، فانصبَّتْ على المسلمين والمؤمنين سُمّاً زعافاً وموتاً زؤاماً ، ورغم كل ما فعله أولئك الطغاة ، ظلَّ هؤلاء المؤمنون على عهدهم وعلى تصديقهم برسالة محمد ﷺ ، حتى قتل منهم مَن قُتِلَ ، وشُرِّد من شُرِّد ، وهاجر من هاجر وما بدَّلوا تبديلاً !..

هذه هي حالُ أهل الحق مع أهل الباطل : فإمَّا الشهادة وإمَّا النصر ..

وهكذا انتصر أهل نجران ، لأنهم لم يتخلّوا عن عقيدتهم ، ولو جعلهم ذو نواس شواءً لنيرانه ، ووقوداً لسعير غيظه ..

نعم لم يتخلَّ أولئك المؤمنون عن الدِّين الذي آمنوا به هُدىً ورحمة ، فكان مصيرهم القتل إحراقاً ، ولكنهم كانوا شهداء عند الله ، وفيهم نزلت الآيات القرآنية تمجدهم وتمنحهم لقب المؤمنين : ﴿قُتِلَ أَصْحَـٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[1] .

---

(١) سورة البروج ٤ ـ ١٠ .

ومن بأساء الحديد والنار ، وبعيداً عن الجثث المكدَّسة تتلظَّى ، وخفية عن الجموعِ التي تحيطُ بالحفرة وهي تتلهَّى ، أمكن لنجراني واحد أن ينجوَ من الموت الزؤام ، وأن يهرب هائماً على وجهه في البراري والقفار ، حتى قُدِّر له أن يبلغ مقرَّ قيصر الروم ، ثم ما عتم[1] أن قاده الحرس إلى سيِّدهم ، فارتمى متهالِكاً أمام عرشه وراح يُخبر القيصر بأمر بني قومه ، وفصَّل له ما كان من أمر ذي نواس وجنوده .

كان قيصر الروم على دين النصرانية ، وكان من واجبه أن يثأر لأبناء عقيدته وأن يقاتل اليهوديَّ الذي وقف في وجه دينه . . ولكنه لم يفعل ، بل طيَّب خاطر النجراني ، وأبدى أسفه لما حلَّ بقومه ، ثم أمر أحد كتَّابه بتحرير رسالة إلى عاهل الحبشة ، يُخبره فيها بما حلّ بأهل نجران ، ويتمنَّى عليه أن يتدبَّر أمر ذي نواس ، وأن يُزيحه عن حكم اليمن ، حتى لا يتَّسعَ سلطانه ويصبح ذا قوَّة تشكِّل خطراً على ملوك الحبشة والروم معاً . . وارتحل النجراني بكتاب قيصر الروم إلى بلاد الحبشة ؛ ودخل تلك البلاد بعد أن لاقى عناء وتعباً شديدين . . ثم استراح حتى ذهبت عنه وعثاء السفر ، وقام يهيىء نفسه ليذهب إلى قصر امبراطور الحبشة . .

ودخل البلاط ، فأُجْلِسَ في قاعة الانتظار ، حتى دعاه الملك إليه ليسأله عن حاجته . فلما دخل عليه قبَّل يديه ، فبادره بالسؤال :

---

(١) عتم : سار في العتمة .
ما عتم أن فعل ، ما لبث أن فعل .

ـ مَن تكون أيها الرجل ؟

ـ أنا دوس ذو ثعلبان يا سيدي ، من أهل نجران . .

ـ وما تريد منا أيها النجراني ؟

ـ لقد جئت جلالتكم برسالة من سيدي قيصر الروم ! . . .

ـ أعلم ذلك ، وقد أتونا بالرسالة فقرأناها . . .

ـ جئت لأخبرك بالعذاب الأليم الذي حلَّ بنا يا سيدي . .

ـ هاتِ قُصَّ علينا ما حدث لأهل بلدكم . . . .

وأخبر دوس ملك الحبشة بما حصل لبني قومه من الألف للياء . . وعظُم ذلك على النجاشي ، وعزَّ عليه أن يَفْعَل يهودي بأتباع النصرانية ما فعله ذو نواس ، ورأى في بقائه على دستِ الحكم في اليمن خطراً على دينه ، فقرَّ رأيه على مقاتلته . .

وكما فعل ذو نواس من قبل ، فقد أمر عاهل الحبشة قُواد جيشه بإعداد العدة والتهيُّؤ للزحف على اليمن . . .

وما هي إلا بضعة أيام حتى كان الزحف قد بدأ . وتناهت الأخبار إلى ذي نواس ، فقام يُعد العُدَّة بدوره لملاقاة الغُزاة ، ودقت طبول الحرب ، والتقى الجمعان في قتالٍ جرى في معارك ضارية ، لاقى فيها كلا الطرفين خسائر فادحة . . ثم لم يمضِ مدة من الزمن ، حتى أسفرت المعارك عن انتصار ساحق لملك الحبشة ، ثم تبيَّن أن ذا نواس قد وقع قتيلاً ، فانهزم جيشه شرَّ هزيمة .

فدخل النجاشي اليمن ظافراً منتصراً ، فدانت لحُكمه وصارت ولاية من ولاياته . . ومضت الأيام والسنون ، وتوالى على حكم اليمن حكام عديدون ، ثم جاء وقت أصبح فيه عامل النجاشي على تلك البلاد ، رجلٌ يُدْعَى أبرهةَ الأشرم ، وقد كان ذا مطامع كبيرة ، وغايات بعيدة . .

لقد أراد أن تبقى له الولاية على اليمن دائمة فراح يعمل لإرضاء ملك الحبشة ، وكسب وُدِّه بشتى الوسائل . ثم أخذ يُغرقه بالهدايا والأموال ، ويبعث إليه بالجواري والعبيد ، ويقيم له الاحتفالات والمباهج ؛ ورغم ذلك كله فإنه لم يكن مطمئناً إلى مصيره ، حتى باتَ هاجسُهُ القيامَ بعمل هام ، يجعل النجاشي يقرُّ بقوَّته في الحكم ، وبمقدرته على إرضائه ، فلا يخلعه عن حكم اليمن أبداً . . .

وصار يفكِّر في السبيل إلى ذلك باستمرار . . .

وكان أبرهة هذا يعرف أن مكة تمتاز عن سائر بلاد العرب ببيتها الحرام ، وبمركزها التجاري الهام . وكان يعرف أن لذلك البيت العتيق في مكة المكرمة مكانة خاصة في النفوس ، لأنه الجامع الكبير والرابط المتين ، لقلوب العرب أجمعين ، يأتونه كل سنة في مواسم معيَّنة ، يؤدون فيه الفرائض ، ثم يعودون قافلين إلى بلادهم ، وهم عاكفون على تقديسه وتكريمه واحترامه . . .

فلِمَ لا يقيم هو في اليمن بناءً شامخاً يطغَى على بيت مكة العتيق بهندسته وزينته وسِعته ؟ . .

لئن فعل وأقام ذلك البيت فإن بناءه سيستهوى العرب ويستميلهم إليه ، وسينال إعجابهم فيجذبهم إليه ، ويُقبلون على الحج فيه ، وبذلك يمكنه أن يزعزع مكانة مكة التجارية ويحوِّلها إلى اليمن ، فتزداد ثروته ، ويعلو جاهه ، ويحقق المطامع التي يؤملها . . .

وصمم أبرهة على تنفيذ ما رأى . . . فبعث بالرُّسل ، تجوب الأقطار بحثاً عن أمهر البنَّائين ، وأحذق الصناعيين ، وأقدر الفنانين . .

وطوَّف جنوده في أنحاء اليمن ، لجمع الأموال ومصادرة الثروات حتى تجمّع عنده عدد غفير من الرجال ، وصار لديه مقدار كبير من الأموال . وانكبَّ أصحابُ الحِرَف والصناعة على أعمالهم . . . فئةٌ تعمل في البناء ، وأخرى في النقش ، وغيرها في صَهْرِ النحاس والفضة والذهب ، وفئات تنحت التماثيل والأصنام وأما الفئة الأخيرة فكان عملها ترصيع الأبواب والنوافِذ والجدران بالذهبِ والأحجارِ الكريمة . . . والجميع مُنْكَبُّونَ على أعمالهم ، دائبون عليه حتى اكتمل البناء بـ (صنعاء) وصار على أحسن ما أراده أبرهة . . . وطاف هذا الرجل في جنبات تلك الكنيسة يتأمل ما شيَّد وأقام ، فبهرته الصناعة وخَلبَهُ رونق البناء ، فلم يلبث أن أخذته النشوة ، فصرخ مزهواً ، وقد تمثل له ذلك البناء كائناً حياً يستطيع محادثته ومخاطبته : « إيه يا كنيسة القليس » . .

وكأننا به يخاطب نفسه قائلاً : « أيها الصرح الشامخ . . . أنت شاهدٌ على إنجاز أبرهة العظيم وعلى قوَّته واقتداره . . لقد أقمتُك آيةً في الروعة والإبداع ، ولسوف يكون شأنك عالياً مثل علوك . . . إنَّ

العرب سيأتون إليك حاجِّين ، وقد صرفوا أنظارهم عن البيت العتيق في مكة . . . فيجلبون لي معهم الثروة والمجد » . .

وطاف الدعاة في أرجاء شبه الجزيرة العربية ، يعرضون على البدو والحَضَر عظمةَ البيت الذي أقامه سيدُهم أبرهة الأشرم في اليمن ، ويحثُّونهم على الحجِّ إليه ، للتمتع برؤية منظره الرائع ، ولتقديم فروض العبادة في ردهاته وفسحاته . . .

وظنَّ أبرهةُ أن العرب سوف تُقبل على الصرح الذي بناه بلهفةٍ وشوق ، ومن كل حدبٍ وصوب . ثم أخذ ينتظر قدومهم ، والأيام تتراكض منقلبة ، ولا يرى أبرهة أحداً من قبائل العرب يُقبل على بيته كما توهَّمَ . . . فبدأ اليأس يتسرَّب إلى نفسه ، وخيبةُ الأمل تقضُّ مضجعه . . .

وهذا شيءٌ محقق فأنَّى لأبرهة وبيته ، بل أنَّى لصروح البشر كلها ، مهما كبرت مساحة ، ومهما عظُمت شأناً ، أو ازدانت زخرفة وبهرجة ، أن يؤثِّر في نفوس الناس كبيت : هو لله أقامه بمشيئته : يلجأ إليه الناس مُلَبِّين خوفاً وطمعاً ويلوذون به طالبين الرحمة والغفران ، لا يأبهون لصغر حجمه ، ولا لخلوِّه من أيَّة زينة أو زخرفة ، فتلك بيوت للناس ، وهذا بيتٌ لله .

ولم يُقم أبرهة الأشرمُ كنيسة « القليس » بيتاً خالصاً لله ، يروم فيه العبادة والصلاة ، بل أراده بيتاً مناوِئاً لبيت الله ، رامياً من ورائه إلى كسب المجد والثروة ، فهل يكون له ما يريد ؟ ! . . .

كلا !.. لأنَّ بيتاً بناه النبيُّون بأمرٍ من ربِّ العالمين ، سيظلُّ على مدى الدهر ، البيت الذي يشدُّ الناسَ إليه ، فيأتونه حاجِّين ، مُلَبِّين دعوة الله ، متبرِّكين متطهِّرين .. فكان من الطبيعي أن تظلَّ نفوس العرب مشدودة إلى الكعبة ، وقد أكرمها الله بدعاء إبراهيم عليه السلام ، إذ ما زال دعاؤه الكريم يتردَّد عبر الأثير ويُدَوِّي في الآذان :

﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1] .

فأمرُ أبرهة عجيب !.. وكيف لم يفطن وهو على دين النصرانية إلى هذا الدعاء من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؟

وعجيبٌ أمره كيف لم يَفْقَهْ أنَّ البيتَ العتيقَ في مكة ، هو بيت مقدَّس ، وأنَّ بلَدَه بلدٌ آمِن ، فلا يمكن لأيِّ بيتٍ كان أن يَصرف الناس عنه ؟..

هيهات يا أبرهة أن تكون قد أصبتَ فيما فعلت .. وها أنت تحصد ثمرة أفعالك خسراناً مبيناً ، فأتعابك كلها ذهبت أدراج الرياح ، وراحت رمال الصحراء تتحرك في الكثبان والبطاح ، لتطمرَ الأماني التي عللتَ نفسك بها ، حتى لا يبقى منها إلاَّ خبر التاريخ ، لا لشيء ، إلاَّ ليدل على سوء فِعلك ، وقِلَّة درايتك فيما حاولت ، وفيما عزمت عليه ونفَّذت ...

وإذا كان التاريخ يشهد على أبرهة ويدين أحلامه الفاشلة ، فإن

---

(١) سورة إبراهيم ٣٧ .

الواقع اليوم يشهد على كثيرين أمثال أبرهة ذاك ، ويُدين أعمال الذين يُقيمون البيوت الكبيرة ، والصروح الشاهقة باسم الدين ، وهم في أعماقهم لا يتوخَّون إلا الشهرة أو اكتساب المغانم .. هو حقٌّ على المؤمنين ، وواجبٌ مقدَّس ، إقامةُ المعابد الدينية ، وتشييد صروحِ بيوتِ الله ، في حال كون تلك المعابد والصروح خالصةً لوجه الله تعالى ، ومن أجل التقرب إليه ، ونَيْل رضاه .. أمَّا أن تقام من أجل الشهرة والسُّمعة ، ومن أجل كتابة اللوحات الرخامية الفخمة التي تدلُّ على الباني ، ومن أجل دفعِ الناس للتحدُّثِ بِبُناتِها ، كأصحاب مآثر وفضائل ، فهذا مما لا يرضاه الله ربُّ العالمين لأنه هو وحده يعلم ما تنطوي عليه الصدور . . .

هكذا كانت خيبةُ أبرهةَ الأشرم عندما سفَّهت العرب أحلامه ؛ بل لم تقف بهم الحال عند حد التسفيه ، إذ شاعت عنه السخريات في كل مكان ، وذاع تحقيرُه في كل قبيلة ، مما دفع أحد رجال كنانة الطائشين أن يذهب ليلاً إلى صرح أبرهةَ ويُحدث فيه ويلوِّث أبوابَهُ ومَداخله .

وعلم أبرهة بالأمر ، فثارت ثائرته ، وغلى الدم في عروقه ، فراح يتهدد ويتوعد ، وزعمَ أنه ـ بقوة جيشه وشدة بأسه ـ قادرٌ على أن يثأر من العرب أجمعين ، فأقسم على أن يزحف إلى مكة ويَهدمَ الكعبة ويزيل آثارها من الوجود ، فلا يَدَعُ أحداً يتحدث عنها فيما بعد ولا يعود أمام العرب إلا الحجّ إلى بيته طَوعاً وإكراهاً . ويرى بعض المؤلفين أن السبب في حملة أبرهة لفتح مكة قد يكون لربط اليمن

ببلاد الشام ، وتوسيع حكم النصرانية في الجزيرة العربية ، فيكون ذلك في صالح الروم وأهل الحبشة وهم نصارى على السواء . على أنه مهما كانت الدوافع لذلك الغزو فقد أريد به خراب بيت الله الحرام ، وتجريد مكة من سيادتها الروحية ويمكن أن يكون الروم هم المحرضون لأبرهة على فتح مكة لمآرب سياسية ، ومنها إضعاف نفوذ الفرس . المنافس الوحيد للنفوذ الروحي على بلاد العرب .

. . . ثم زحف أبرهة بهذه النيَّة الخبيثة على رأسِ جيشٍ لجب ، وهو يركب فيله ، قاصداً الكعبة ، فتناهت أخبارُ زحفه إلى قبائل العرب ، فخافوا على مصيرهم منه أكثر من خوفهم على بيت الله ، ودفع الخوف بعضهم للتهيُّؤ لمحاربته وإعداد العدة لملاقاته .

وكان أول من استنفَر قومه ، وعزم على التصدي له ، أحد أشراف البادية ، ويُدعىٰ ذا نَفَر . فقد اعتزم أن يقاتله علَّه يمنعهُ من الوصول إلى البيت العتيق . ولكنَّ مقاومته لم تُجْدِ نفعاً ، إذ سرعان ما غُلِبَ على أمره ، فهُزِم وقُتِل عددٌ كبيرٌ من أبناء قومه ، ووقع أخيراً هو نفسه في الأسر . .

وكما فعل ذو نَفَرٍ ، قام نُفَيْلُ بنُ حبيب الخثعمي ، سيد قبيلتَي شهران وناهس ، يتصدَّى وفرسانَه للغازي الأحمق ، فكان نصيبه الهزيمةَ والأسر ، ثم أجبره أبرهة على أن يكون هو نفسُه دليلاً له ولجيشه ، فنزل على حكمه مكرهاً ، بعدما طلب إلى أبرهة أن يقتله فأبى عليه وكلَّفه بهذه المهمة .

وظلَّ ملِكَ اليمن ، يتقدم على رأس جيشه ، لا يغزو قبيلاً إلاَّ هزمه وشرَّد أهله ، وهدم مضاربه ، ولا يمر في واحةٍ ، إلاَّ قطع غرسَها ، وأتلف زرعها ، حتى وصل الطائف ، فأراد أن يهدم بيت صنمهم « اللات » وهو يحسبه الكعبة : ولكن أهل الطائف لاقوه بلا قتال ، وقدَّموا له المالَ فِديةً ، والإبل والأغنام هدية ، وتعبوا في إقناعه بأن بيتهم ليس هو البيت الذي يقصده للهدم . .

وصلت إلى مكة أخبار نزول أبرهة في الطائف ، وهم يعرفون أنه يقصد بلدهم ، فقاموا يعقدون المشورة لتدبُّر أمرهم معه . . ورأت طائفة أن تقاتله ذَوداً عن حياض البيت ودفاعاً عن الشرف والكرامة ، بينما ارتأت غالبية القوم أنْ لا قِبَلَ لهم بالقتال ، ولا طاقة لهم على احتماله ، لقلَّة عددهم ، ونقص عدتهم بالنسبة لما هو عليه جيش أبرهة عدداً وعدة ، فأقرّوا الرأي على أن يستكينوا وأن يتربصوا حتى يتبيَّن لهم الطريق الذي يسلكونه معه .

كان هذا ، وأبرهة يواصل الزحف ، حتى أدرك مشارفَ مكة ، فكان أول ما فعلَه جيشُه أن اقتادَ المواشي المتفرقة في المراعي ، ومن بينها مئة بعيرٍ لعبد المطَّلب جدِّ رسول الله ﷺ . . .

أقام أبرهة مضاربَه في تلك المشارف ، ثم بعث برسولِه = حناطة الحميري = إلى سيد مكة يُعلمه بأمره ، ويُخبره بأنه غير آتٍ لمحاربة أهل مكة ، وأنه إنما يريد هدمَ الكعبة . فإن نزل أهل مكة على رأيه ، وامتنعوا عن مقاومته ، فإنه لا يَعرِضُ لهم بسوء ويعفُّ

عنهم إذ ليس به حاجة إلى الولوغ في دمائهم . . .

وفكَّر عبدُ المطلب مليّاً برسالة أبرهة ، ثم استقرَّ رأيُه على الذهاب لمقابلته ؛ ورأى أن يصحب معه عدداً من شيوخ مكة . فجاءه أسياد القبائل ملبين دعوته ، مسرعين إليه ، وسار الوفد برفقة سفير أبرهة حتى بلغوا معسكر جيشه الغازي ، فتقدم يدلهم على خيمة قائده ، ثم سبقهم في الوصول إليه ليخبره بأن سيد مكة عبدَ المطلب ابن هاشم في الباب يطلب مقابلته ، فأمر أبرهة على الفور بإدخاله إليه . .

وازدلفَ عبد المطلب إلى خيمة أبرهة ، بخطواتٍ ثابتة، وبدا رافع الرأس ، عزيز النفس ، تظهر عليه سيماءُ العظمة وملامح السيد الجليل الذي لا يهاب بطش الغازي ، ولا تُروِّعه أخبارُ انتصاراته . .

وإذ صار عبد المطلب على مقربة من هذا الملك ، الجالس على كرسي الرعونة والطيش . وقف قبالته لا يُلقي عليه تحية ولا يبدي حركة ، فلم ينتبه أبرهةُ لذلك لما بَهَرَه من هيبة الداخل عليه . وتفرَّس أبرهة في وجهه فأحسَّ بقوةِ هيبته ، وبُهتَ أمام علائم بأسه وحدَّة نظراته ونفاذها ، فأرعبه المنظر ، فكبتَ الرعبَ في نفسِهِ ، وابتسم للقادم واحترمه ، وطلب إليه الدنو منه ، والجلوس بقربه . .

وبدأت المفاوضة على يد الترجمان . . فسأل أبرهةُ سيدَ قريش عن مطالبه . فقال عبدُ المطَّلب :

ـ أطلبُ مواشيَ قومي . . . ! ! . .

فَدُهِشَ أبرهة لِلَحظات . . ثم راح يُقهقه بملء شدقَيْه ، زعماً منه بأن الرجل الذي حَسِبَهُ ذا هيبة واقتدار ، لم يخرج عن كونه رجلاً ضخمَ الجثة ، قاصر التفكير ، ضعيفَ الشخصية !. .

فقال للترجمان بلهجة ساخرة :

ـ قل لهذا الرجل بأنني أكبرتُه حين رأيتُه ، وزهدتُ فيه حين كلَّمته . . . كيف يُهمل ذِكْرَ بيتٍ يعتقدون أنه مقدَّسٌ ، وأنه يمثِّل تاريخ تُراثهم العريق ، ثم يأتي ليسألَني أن أردَّ عليه بعض الإبل التي لا قيمة لها ولا حساب في جنب البيت العتيق ؟ !. .

وجاء ردُّ عبد المطلب يختلف عن توقُّع أبرهة المتعجرف ، إذ قال للترجمان :

ـ قل لسَيِّدِكَ : يا هذا ، إن عبدَ المطلب بن هاشم هو ربُّ الإبل ، التي جاء يطلبها ، وللبيت ربٌّ يتكفَّله ويرعاه . . .

وصعق أبرهةُ لمّا سمع الرَّدّ !. . ثم صمت يتأمل عبد المطَّلب مليّاً ؛ وذهب مع التفكير بقول هذا الرجل بعيداً . . .

فهل عاوَدَ الإيمان قلبَ هذا الرجل ، ورجع إلى نفسه وأخذته رهبة ذِكر الله ، وتراءى له خطَل ما هو قادم عليه ؟!. .

لا أحد يدري . فهكذا كان شأن أبرهة مع نفسه . . . ولكنَّ ما وصل إلينا من التاريخ ؛ بل ما نَقَلَهُ لنا القرآن الكريم ، كل ذلك يُثبت أنه ظلَّ على تماديه في غيِّه ، فقال لعبد المطلب :

ـ ولكن ما كان هذا البيتُ ليمتنعَ عليَّ ؟

وتأتي إجابةُ عبد المطلب صفعةً ثانية في وجه هذا الملك ، لأنها تُبطِن الوعيدَ والإنذار :

ـ أنت وذاك . . .

ما هذه الكلمات : « أنت وذاك » ! ؟ ؟ . .

إنها وجيزة وواضحة وصادقة . . .

أراد عبد المطلب أن يُفهِم ملك اليمن أن الكعبةَ بيتُ الله ، وهي مكرَّمة عند ربِّها ، فلا يأخذنَّه الغرور ، ولا يجازف في محاولة هدمِها . لأنه إن فعل فستكون العاقبةُ عليه وخيمة ، وقد تحمل له شرًّا مستطيراً ، لا يعلم مداه إلَّا ربُّ الكعبة وحده . .

ولكن أبرهة رغم التهديد ظلَّ على تماديه في الضلالة ، ولم يعبأ بما أشار إليه عبدُ المطَّلب من تهديد بقدرة رب الكعبة ، ورأى عبدُ المطَّلب أن يُبَرِّىء ذمَّته أمامَ الله في حِرْصِه ودِفاعه عن البيت الحرام ، فعرض على ملك اليمن أن ينزل عليه ضَيفاً عزيزاً مكرَّماً ، وأن تُقدِّم له تهامةُ وأهلُ مكة المبالغ التي يريدها ، وأن تقام بينهم علاقاتُ المودَّة وحسن الجوار ، فأبَى أبرهة . . .

أبى أبرهة ذلك العرض إباءً تاماً ورفض أي حديث في أمر الكعبة ورجوعه عن هدمها . . عندها رأى عبد المطلب أنَّه لا طائل من التفاوض مع هذا الجلْف الصَّلف . . . فطلب الإذن بالذهاب . . وعاد الوفد إلى مكة . . . لينادي المنادي في أهلها بالخروج واللجوء إلى

شعاب الجبال ، لأنهم غير قادرين على مواجهة جيش أبرهة ومقاتلته . .

ودَبّت في القوم حالةٌ من الذُّعر . فقد أحسَّ الجميع بخطرٍ يُداهمهم ، ولا يعرفون نتائجه عليهم ، فهل يفتك بهم ويُبيدهم ، أم يقتصر على هدم البيت والسلب والنهب وتخريب الأملاك ؟ وهل يؤدِّي دخوله إلى سبي نسائهم وتقتيل أولادهم ؟ . . فإنهم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، وكل ما يعرفونه أنهم في خطر ، وأن البيت العتيق مهدَّد بالهدم . . .

ويتشتَّت الشمل ، ويتفرق أهل مكة في الشِّعاب ، بينما يذهب عبدُ المطَّلب إلى الكعبة ليُمسك حلقة بابها ، وهو يستغيث ، بقلب ملهوف ، ويبتهل إلى الله أن يحميَ بيتَه ، وأن يحميَ أهل مكة من ظُلم قد يحلُّ بهم على يد أبرهة الطاغية . . .

أجل ، ذهب عبد المطلب إلى الكعبة مستنصراً برب البيت العتيق وهو ينشد :

لا هــمَّ إن الـعـبـدَ يـمـنـعُ حِـلَّهُ ، فـامـنـع حَـلاَلَـك
ولئـن فـعـلتَ فـربـمـا أو لا ، فأمرٌ ما بَدَا لـك
لم أستمـع يـومـاً بـأرجس مـنـهُـمُ يـبـغُـوا قـتـالـك
جَـرُّوا جـمـوع بـلادهـم والفيـل كي يَسبـوا عيـالـك
قـصـدوا حمـاك بـكيـدهـم جهـلاً ومـا رقبـوا جـلالـك
إن كـنـت تـاركـهـم وكـعـبَتنـا فـأمرٌ مـا بـدا لـك

يا لَضيق أهل مكة ويا لَشقائهم ! ها هم يتفرقون في العراء ، وقد خلَّوا وراءهم الديار وما فيها . .

ويا لكُربة هؤلاء القوم وتعاستهم ، والقلق يثور في أفئدتهم ، والهمُّ يتكدَّس فوق صدورهم ! . . .

إنها أشقّ وأشقىٰ حالةٍ واجهت القوم في حياتهم . . فكم تكاثرت عليهم الصعاب ، وكم احتدم بينهم وبين القبائل الأخرى القتال ، حتى إنهم جاعوا في سني جَدْبٍ ، وعطشوا في سني جفاف ! . . وفي تلك الظروف ، ورغم قساوتها ، لم يشعروا أبداً بمثل الشدة التي تواجههم اليوم . . والأدهى من ذلك كلّه أنهم كانوا عاجزين عن تدبُّر الحيلة للخلاص ، وكأن المفاجأة المُذهلة سدَّت عليهم منافذ التفكير ! . .

فهم قلِقون حائرون ، مؤرقون . . هؤلاء هم تحت وطأة هذا الظرف يبيتون في ظلال الخوف . . .

ويتزايدُ خوفُهم ، وتدبُّ الرعدة في أوصالهم ، عندما تلوح لهم طلائع جنود أبرهة وهي تتَّجه إلى مكة وتتقدم نحوها ، وقد ملأت خيولها الجوَّ اغبراراً ، وتردَّدت أصوات قعقعة أسلحتها في جنبات المشارف والوِهاد ! . .

ولكنَّ تلك الجلبة وذلك الصخب لا يلبثان أن يخفّا رويداً ، رويداً . . فقد ركب أبرهة على فيله الكبير متقدماً أمام الجند نحو

الكعبة . . ولكنها لم تمضِ فترةٌ وجيزة على تقدُّمه حتى وقف الفيل يأبى الحِراك ومتابعة السَّير . .

وقف الفيل في مكانه جامداً كأنه صنم . . . وصرخ أبرهة في رجاله ، كي يَحثُّوا الفيلَ على المسير ، فجاؤوا يجرُّونه ويزجرونه فلم يفلحوا ، وأشبعوه ضرباً بالسياط فلم ينجحوا . . . وتكاثر عددُهم من حوله ، يشدُّونه من الأمام ، ويدفعون به من الوراء ، وهو لا يسمع ولا يُطيع ولا يدير وجهه صوب الكعبة أبداً ، بل يدور ويدور على نفسه ، ثم يتجه نحو اليمن .

وحارَ الملكُ والجنودُ في أمرِ الفيل ، فتباعدوا عنه بإشارة من سيدهم ، فما كان منه إلا أن أدار وجهه ناحية اليمن ، وهمَّ بالهروب ، لولا أن جمعاً غفيراً تكاثر عليه ، وأوقفوه عن الرجوع . . .

ولم تفد محاولات أبرهة وجنوده في معالجة أمر الفيل . . . فارتأى أن يأتوه بجوادٍ مُطهَّم يركبه . . فجيء به ولكن ما إن اعتلى صهوتَهُ وأعاد تنظيم جيشه بعد التَّشتُّت الذي أصابه نتيجة تصرُّفات الفيل واللغط الذي دار حول هذه التصرفات ، وفيما هم يهمُّون بالاندفاع نحوَ الكعبة مرة أخرى ، إذا بالمفاجأة تحلّ : فها هي جماعاتٌ من الطيور ، جاءت من أماكن مجهولة ، كأنها السحاب المتقطع . . . أخذت تتجمَّع حتى ملأت الجوَّ مُحلِّقةً فوق جيش أبرهة ، تحمل في مناقيرها حجارة صغيرة قاسية كحبَّات العدس ، لتقذف بها أبرهة وجنوده . . . ويا للهول ! . . . فإنه لا يكاد يصل حجرٌ إلى جسم أحدهم ، حتى يخرقه ، ويُخلف وراءه جُرحاً بليغاً ، لا

يلبث بسرعة فائقة أن يلتهب ، ويبدأ الدم والقَيْحُ ينزفان منه ، ويدبُّ التسمُّم في الأجسام !. . .

وهلعت القلوب من الخوف !. . وتعالت الصرخات من شدَّة الآلام . . وترامت الأجساد ملقاة على الرمال . . ودبَّ الذُّعر في صفوف الجيش فهامت الجنود في البراري لا تلوي على شيء ولا تعي شيئاً ؛ وكيف لا يهلعون ويجزعون ويتعالى صراخهم ، والحجارةُ تخترق جلودهم ؛ وتدخل من رؤوسهم فتخرج من أدبارهم ، وتوجعهم كلسعات العقارب ولدغات الأفاعي ، ثم تنثر لحومهم مهترئةً ، وتنخر عظامهم بسرعة كسرعة البرق ، وتحرقه كإحراق الكهرباء لمن يموت في مسِّ تيارها . . فكيف يتحمَّل جيشٌ لَجب هذا المصاب ، وقد جعلته الطَّيرُ الأبابيلُ كعصفٍ مأكول ؟. . وما هي إلا فترةٌ وجيزة ، تشتَّت بعدها جنود أبرهة ، ولاذ بعضهم بالفرار خوفاً من الموت وهو لاحِقٌ بهم وماحقٌ لهم ، لأنه لم ينج منهم مَنْ ركَنَ إلى الفرار !. . إنه الموت المحتَّم أينما اتَّجه الواحد منهم . . فالداء التي كانت تحمله جماعات الطير لا دواءَ له ، بل لا بدَّ أن يفتك بالطغاة المتعنِّتين . . . إنها لعنة السماء حلَّت على هؤلاء الأغبياء الذين سمِعوا أوامر ملِكٍ ضالٍّ ، فجاؤوا بركابه عبيداً أذِلَّاء لهدم بيت الله ، ولم يكن بينهم رجلٌ رشيدٌ يقف في وجهه وينصحه ويمنعه . . فكان العذابُ الأليم جزاءهم وجزاءه . . . لقد تفرَّقوا أشتاتاً يرومون العودة إلى بلادهم . . . ولكنَّ الموت كان يسبقهم ويقطع عليهم الطريق ؛ فلكلِّ واحدٍ منهم طائر يلحقه . . . ولكل واحدٍ حجرٌ فيه هلاكُه ، والموتُ

يختطفُ أرواحهم مثلما يختطف أحلامهم ، وأحلام سيِّدهم الذي شاء الله تعالى أن يُكابر على البلاء حتى وصل صنعاء ، فإذا بلحمه يتناثر ويتساقط عن عظامه ، فلوى عنقه كالفرخ المذبوح الممرَّغ بالدماء والوحل ، لاحقاً بأموات جيشه الذين سبقوه إلى الجحيم المقيم . . .

هكذا كانت نهاية أبرهة الأشرم ، ملك اليمن . . فقد جاء قويّاً معتدّاً بنفسه وبجيشه الجرَّار يريد هدم الكعبة المكرَّمة ، فإذا به يعود وهو يرى فلول جيشه يتساقطون على جنبات كل منهل وكل طريق ؛ ويهلكون بين الوهاد والتلال ، وفي مسارب كل جبلٍ ، وفي فسحة كل بقيع ، حتى انتهى أمرُه ، ودُمِّرَ الجميع إلى جهنم ، وبِئسَ المصير . .

وما يثير الدهشة في أمر حادثة أصحاب الفيل ، هو أن بعض الناس قد توهَّموا بأن الطيور كانت تحمل حجارة ملوَّثة بميكروب مرض الجدري الذي هو من الأمراض المعدية التي تنتشر بسرعة فائقة في البيئة التي تصاب به ، وأن هذا المرض لم يتفشَّ في أهل مكة ، بل اقتصر وباله على تلك الجماعة الباغية ، إذ لم يثبت في التاريخ أن عدوى ذلك المرض بالذات قد انتشرت في أهل مكة ، أو في أية ناحية أخرى مرَّ بها أفرادُ جيش أبرهة وهم منهزمون في طريق العودة إلى اليمن ! . . وقد غاب عن بال من يقولون ذلك أن الطير الأبابيل كانت آيةً من آيات الله تعالى ، وأن الحجارة كانت من سجِّيل مرصود عنده عزَّ وعلا لحرب الطغاة والمارقين ، وأن الميكروب الذي تحمله لم يكن الجدري ولا أي مرض آخر ، بل هو الموت الزؤام بعد عملية

آلام واهتراء ، ونزيف يتناثر منها اللحم عن العظم . .

إنها العذاب الأليم الذي أعدَّه الله تعالى للظالمين . . وليس لأهل مكة فيه من نصيب ، لأنهم نزلوا بعد الواقعة من الشعاب إلى بلدهم ، وأوَوْا إلى بيوتهم آمنين ؛ مطمئنين . .

ذلك بفضل الله تعالى ، وبفضل البيت العتيق وحُرمته ، والكعبة المكرَّمة وشرفها ، إذْ أرادها الله تعالى حرَماً آمناً وملاذاً للناس يقصدونها ليتخلَّصوا من أمراضهم النفسية والمجتمعية، فحُقَّ لها أن تبقى على الدهر مَحَجَّةً ومزاراً للشفاء من كل داء . .

ويتوجه عبد المطلب ، والمسنُّون من أهل مكة ، إلى ذلك البيت يطوفون حوله ، ويؤدُّون فروض الولاء ، ويتلون آيات الشُّكر لله الذي حماه ، وآمنهم من خوف وخلَّصهم من هلاك . . . ويظلّ هذا البيت الحرام البيت المقدَّس الطاهرَ ، الذي لا يمكن أن تُدَنِّسَ أرجاءه أطماع الطامعين ، أو تُقلِّل من كرامته أحقادُ الباغين ، أو تمسَّ شرَفَهُ يـدُ الكافـرين بفضل الله ربِّ العالمين ورعايته إنه هـو السميع العليم.

وهذا القرآن الكريم ـ كتابُ الله العزيز ـ يحذِّر الطغاة في كل زمان ، فيسوق حادثة أصحاب الفيل بقوله عزَّ من قائل : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

---

(١) سورة الفيل .

وفي هذه الآيات بيانٌ واضح لكل من يريد أن يتعدّى حُرمات الله ، ويعتدي على حرمه ومقدساته ، وبُرهان قاطع لكل من يريد أن يفيء إلى أمر الله ويتمسّك بحبل الله ، ويطلب الأمن والأمان في حماه وحرمه ، كأمثال عبدالمطّلب وأهل مكة . . وقد أعظمت العرب قريشاً بعد تلك الحادثة الهامة وقالوا : هم أهل الله قاتل الله عنهم وكفاهم العدو وازدادوا تعظيماً للبيت وإيماناً بمكانته عند الله تعالى . .

ويوم واقعة الفيل كانت سنة (٥٧٠) ميلادية . . .

ولن يفوتنا أن نقول : إن آمنة بنت وهب كانت من بين هؤلاء الذين اعتمدوا على الله ، وأنابوا إليه ، فلم تجزع كغيرها من نِسوة قومها ، ولم تُرعبها الشدّة التي حلّت بالجماعة ، بل باتت معهم في العراء وهي تشعر بالأمان والسلام ، ما دامت تتمسك بحبل الله وتأوي إلى رحمته ، وما دام الجنين في بطنها يتحرك فيزيد من راحتها وطمأنينتها . .

ثم تعود آمنة بعد تلك الحادثة إلى حياتها العادية . . لا يعنيها من شؤون الدنيا إلّا أن تضع حَمْلَهَا ، وكانت مدة الحمل قد قاربتْ على الانتهاء . . .

وما هي إلا خمسون يوماً تمرُّ بعد واقعة أصحاب الفيل حتى يجيء اليوم الموعود . فقد شعرتْ آمنة في اليوم الثاني عشر أو السابع عشر من شهر ربيع الأول من تلك السنة ببشائر الولادة . . . وأحسّتْ بأنها قد تتم بين ساعة وأخرى . .

ولادة محمد ﷺ

وفي مثل هذه الحال ، وخلال هذه الساعات القليلة ، يطرأ على المرأة ـ عادةً ـ اضطرابٌ عصبيٌّ شديد ، يجعل تلك الفترة أدقّ وأحرج الفترات في حياتها على الإطلاق .. ذاك أن الحامل تعاني خلالَها آلاماً مبرحة ، وتعيش في صراع بين الموت والحياة .. فمن المؤكد أنها تحسُّ آنذاك كأن أوصالها تتقطَّع ، وأن أركان جسدها تتصدَّع فتخور قواها ، وتتلاشى عزيمتها ، حتى لا تعود تقوى على ضبط نفسها ، فتستسلم للتعبير عن تلك الآلام ، بآهات ، وزفرات ، وصرخات ... وأتصور أن كثيرات من النساء يُضْمرن في أنفسهن أثناء ذلك الكرب ، أنهنَّ لن يَحملن بعده أبداً . ولكنَّها الأمومة ، وطمأنينة النفس إليها ، وروعة حنانها ، هي التي تُنسي المرأة كل تلك الأوجاع ، فتعود إلى أداء وظيفتها السامية ، وتعاودُ الحمْلَ والإنجاب ..

وإذا كانت هذه هي حالة المرأة على العموم ساعة يأتيها المخاض ، فإن آمنة بنت وهب لم تشعر ساعة الوضع بشيء من ذلك ، بل على العكس قد أخلدت إلى السكينة ، يجلِّلها وقار السيدة الفذَّة العظيمة النادرة المثيل .. فكلُّ ما فعلته ، وهي تحضِّر نفسها لساعة الوضع ، هو أنها طلبت إلى جاريتها ـ أم أيمن ـ التي ظلَّت بجانبها كالظل لا تفارقها أبداً منذ رحيل زوجها عبد الله عنها ، طلبت إليها أن تستدعي القابلة لتُعينها على الوضع ...

وطارتْ أمُّ أيمن .. على جناح السرعة ، حتى أتت دارة الشفاء

أم عبد الرحمن بن عوف ، وكانت أشهر قابلات مكة ، وأقدرهنَّ على هذا العمل ، ودَعَتها إلى الحضور إلى سيِّدتها آمنة عليها السلام . .

وأسرعت أم عبد الرحمن لتلبية الدعوة ، فالسيدة التي تطلبها من علية القوم ، وعليها أن تكون بجانبها بأقصى ما تستطيع من سرعة .

صحيح أن واجب القابلة يدعوها إلى تلبية نداء المولِّدة ، أيّاً كانت هذه المرأة ، ولكنَّ الاهتمام يشدّها أكثر عندما تكون المرأة من السيدات البارزات . وهذه حال الدنيا ، مهما اختلفت البيئات أو تباعدت الأزمان ، إذ يظل لذوي النفوذ وأصحاب الشأن مكانة مميزة عن غيرهم . يقبل عليهم الناس في السراء والضَّرَّاء . . يفرحون لفرحهم ويحزنون لحزنهم . .

فأعراسُ سادة المجتمع ، ومآدبهم ، واحتفالاتهم ، شواهد على هذه الحقيقة ، وهي بغنى عن ضرب المثل . حتى إن مآتمهم وأتراحهم لها امتيازاتُها ، وأين منها مآتم وأتراح الفقراء والمساكين ، أو مَنْ غمرتهم الحياة بالنسيان ، فهؤلاء لا يحسّ بأوجاعهم إلا بعض ذوي القربى ، أو ذوو النفوس الكريمة . .

وصلت أم عبد الرحمن إلى بيت آمنة ، وهي لاهثة ، فإذا بها أمام امرأة تجلس في فراشها ، وقد بدَت عليها إمارات الرضا ، وعلائمُ الارتياح ، لا تَئِنُّ ولا تشكو من ألم ولا تتخوَّف من مصير مجهول . . إنها على العكس من ذلك كله ، تبدو هادئة ، مطمئنة ، تشارك النسوة اللواتي تحلَّقن حولها الحديث ، وتمضي معهنَّ فيما هنَّ فيه دون أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تظهر عليها أية سمةٍ تُلفت النظر . .

وقفت أم عبد الرحمن ، أمام مشهد آمنة هذا ، دون أن تبدوَ منها حركة ، فتبادرها آمنة قائلة : أهلاً بالخالة أم عبد الرحمن ، عسى ألَّا تكون أم أيمن قد أزعجتْك باستعجالها ، فأنا أعرف إلحاح هذه المرأة الطيِّبة . . .

ـ مرحىٰ لك يا آمنة . . فقليلات هنَّ النساء الصابرات على مثل ما أنت فيه .

ـ ما بال الخالة ما تزال واقفة ، ألا ترغبين في الجلوس ؟ . .

ـ سأجلس بعد أن تخبريني بأمنيتك . .

ـ أية أمنية تقصدين يا أم عبد الرحمن ؟ ! . .

ـ أمنية المرأة التي يوشك أن تضع حَمْلَها ، هل ترغبين في مولود ذكر أو أُنثى ؟ . .

وابتسمت آمنة ثم قالت لأم عبد الرحمن بلهجة مليئة بالثقة :

ـ بل أراه في أحضاني طفلاً سوياً ، صبوحَ الطلعة ، مُشرقَ الوجه ، باسم الثَّغر . .

ـ إذن فأنت تتمنَّينَ سيداً لبني هاشم ، يرعى العهد في قريش ، ويقيم في العرب الودَّ والصفاء ؟! . .

ـ ما أروع أمانيك يا خالة . . . وكل أماني السيدات الجليلات في قريش كبيرة مثلهنَّ . .

وجلست أم عبد الرحمن إلى جانب آمنة تمسح العرق عن جبينها ، وهي تقول لها :

ـ بماذا أبدأ ؟ وماذا أقول ؟ ! . .

ـ لا فرق ، فجُعبتُكِ تظل مليئةً منها هاتي أحسنَها وأهمّها . .

وكأنما لاحظت أم عبد الرحمن ، أن الساعة قد حانت ، فراحت تُسَرِّي عن آمنة مُداوِرَةً : ـ ما بال أم أيمن قد ألحَّتْ عليّ بالإسراع ، في حين أنني أرى الوقت ما زال متسعاً أمامنا ؟! . . فقالت آمنة بصدق : ـ لا تحاوري ولا تداوري يا خالة ، فقد قرب الحين . فقالت أم أيمن : ـ هذا ما آمله ، وبعد قليل يُطِلُّ علينا السيدُ الجليل ، فيملأ الدنيا حولنا بهجة وفرحاً . . .

وما كادت أم أيمن تنتهي من قولها حتى قالت آمنة :

ـ يا أم عبد الرحمن ،لا أدري بماذا أحسّ ! . .

فصرخت أم عبد الرحمن في النِّسْوة :

ـ لتجلس إحداكنَّ خلف السيدة آمنة ، وعلى من بقيَ الخروج من البيت . .

ونساء قريش يعرفن أم عبد الرحمن وحزمها في الأمور ، فما عليهنَّ إلا الطاعة . . وتقدمت إحداهن لتجلس وراء آمنة ، فأومأت إلى أم عبد الرحمن أن تبقى وحدها بجانبها . . وصارت النسوة خارج الغرفة ، فأمسكت أم عبد الرحمن بآمنة ، تشدها إلى صدرها وتقول :

بسلامٍ وأمان تضعين مولودك يا عزيزتي . . . ستباركك السماء أيتها العفيفة الشريفة . .

وترفع آمنة ناظرَيها نحو السماء قائلةً : « أعِنّي يا الله . . » فيخرج المولود المبارك نقياً منظفاً . . . بِلا ألم . . وبِلا دَمِ نفاس . . وبِلا بكاء ولا صراخ . . وعلى خلاف العادة في المواليد ! . . لقد تلقّى الأرض بمساجده السبعة ، رافعاً سبّابته نحو السماء ، موحِّداً ، كأن ذاته قد اتصلَتْ بخالقه ، فاتّحد كيانه بقدسيته ، وكأنها قد تفتّقتْ له الحُجُب فَبدا خاشعاً في حضرة القُدُس . . تماماً كما وُلِدَ من قبله السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام ، وكما وُلِد موسى وإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم الصلاة السلام . .

فليس في ذلك ما يُدهش . . . ليست ولادةُ خير خلق الله كولادة غيره من الأطفال ، ولكن من يرى المشهد بأمِّ عينيه لا بدَّ أن تأخذه الدهشة . وهذا ما حصل لأم عبد الرحمن بن عوف ، حين رأت المولود الذي كان للحظاتٍ خَلَتْ جنيناً يأتي إلى الدنيا على مثل هذه الحالة الرائعة من الإشراق الروحي والخشوع الجسديّ ! . لقد ذهلت أم عبد الرحمن فقبعت في مكانها بلا حراك . . .

وتسترعي حالتُها هذه انتباه أم أيمن ، فتشدُّها من ذراعها لتقول : ـ ما بال سيدتي أم عبد الرحمن ، لم تقطع « حبل المشيمة » للمولود ؟

وتستفيق أم عبد الرحمن من ذهولها ، ولا تستطيع أن تخفي ما

في نفسها ، فتقول بصراحة وعجب : قضيتُ حياتي كلها في هذه المهنة ، ولكنني ما رأيت من قبل مشهداً مماثلاً . . . فالأم تضع بلا وجع ولا تقاسي آلاماً ، ولا يظهر عليها دم نفاس . ولا مشيمة ولا حاجة لخدمة . . . والوليد لا يصرخ ولا يبكي وهو يستقبل الدنيا ساجداً . . يُرافقه نورٌ غطى أرجاء المكان كله ، ولا يعلم مدى ضوئه إلّا باعثُ هذا النور . . فأيّ سر عجيب أراه اليومَ في بيت آمنةَ بنتِ وهب .

لقد حقَّ لأم عبد الرحمٰن أن تعجب . . وحق لأم أيمن وقد بَهَرَها النور أن تعجب . . لأنه أمر يُذهل العقول .

ولكن آمنة لم تدهش ولم يأخذها أي عجب ، فكأنها وهذا النور على موعد مع خروج هذا المولود المبارك إلى دار الدنيا ! . لقد رأت آمنةُ النور ولكنها لم تعقِّب على حديثها بشيء ، بل طلبت أن يُقدَّم لها ابنها لتراه . .

نعم بمثل هذه الآيات الباهرات حصل الوضعُ وتمتْ ولادةُ آمنة أرملة عبد الله بن عبد المطَّلب ! ! ! نظرَت إلى مولودها ، فأحسَّت بأن جميع آمالها قد انتعشت ، وأن جميع همومها قد تبددت ؛ وشعرت في هذه اللحظات ، أن هذا المولود قد نزع الحزن الدفين من أعماقها ، وقلَب قلقها إلى اطمئنان ، وحوَّل شقاءها إلى راحة ، فشكرت الله على العطاء الكبير ، وعلى النعمة الجليلة التي أفاضها الله عليها من عليائه ، وفي غمرة هذا الصفاء الفكريّ ، لم تنسَ آمنةُ حماها ـ عبد المطَّلب ـ فأرسلت إليه من ينقل له البشارة السعيدة . .

وجاءه الرسول وهو يطوف في البيت الحرام . . وزفَّ إليه البشرى الكبرى ! . فطار إلى بيت ابنه عبد الله فرحاً ، لهفانَ الفؤاد لرؤية طفلِه الذي ربما أطفأت اللَّوعةَ التي تتأجَّجُ في فؤاده ، وأخمدت اللهب الذي ما زالت تتلظى منه أحشاؤه منذ شهور . . يوم عَلِمَ بموت عبدالله أصغرِ أبنائِهِ ، وأحبهم إلى قلبه . . لقد جاء عبدُالمطَّلب مسرعاً لا يعوقُهُ تقدمه في السِّنِّ عن الهروَلة ! . فهو ابنُ السبعين حولاً ، ولا تمنعه هيبةُ سيد قريش وسيد البطاح عن إبداء البهجة . . لا يمرُّ بأحدٍ ، إلَّا ويُلقي عليه التحية ويقول : ـ لقد جاء المولود المنتظَر . . وُلِدَ ابني المرصودُ للأمر الخطير .

لقد قطع عبد المطَّلب المسافة بين الكعبة والمكان الذي يُعرف بـ « سوق الليل » بثوانٍ معدودة . . وصل إلى الدار التي امتلكها من بعدُ محمد بن يوسف الثقفي ، أخو الحجاج بن يوسف والتي جعلتها الخيزران أم الهادي والرشيد مسجداً يُصلَّى فيه ، وكانت من قبل لعقيل ابن أبي طالب ؛ قطع عبد المطلب المسافة يطوي الثواني طيّاً ، وبوقتٍ لا يتأتّى فيه للشّابِّ في مقتبل العمر قطعُها بهذه السرعة . .

وكانت تحملُه اللَّهفةُ ويدفَعهُ الشوقُ لرؤية المولود الحبيب ، ابن الحبيب . . دخل عبد المطلب على آمنة المباركة ، وشكر الله تعالى على سلامتها وعافيتها . . ثم أخذ المولود بين يديه ، يتأمل وجهه مليّاً . . ثم أدناه من صدره بعطف وحنان فائقَين . . وكان يخالُ أنه لا يصدِّق عَينَيه بما يرى وبما يحتضن بين ذراعيه الكريمتين برفقٍ وشغفٍ ! . .

عجيبٌ أمر هذا الشيخ حقّاً !..

فإنَّهُ لم يُعرَف في حياته إلَّا سيداً وقوراً ، حكيماً ؛ لا يعمل إلا برصانة ، ولا يتحرك إلَّا بعقلٍ ورويَّة .. فما باله الآن ينفلتُ من صفاته التي عرفه عليها الناس ، ويظهر أمام الجميع ، وكأنه لم يُرزق أحدٌ من قبله بمولود ذكر .. أو كأنَّ هذه النعمة لم تشمل أحداً من بني البشر ؟ !.. فما هو السِّرُّ في ذلك ؟!..

جميعُ الناس ينجبون الأولاد ، وهو نفسه أبٌ لأبناء عديدين ، وجدٌّ لأحفاد كثيرين .. فمن يصدِّق أن عبد المطَّلب ذا المهابة المعروفة والوقار العظيم ، يبدو فَرِحاً مَرِحاً وكأنَّه شابٌّ يُرزَقُ طفلاً لأول مرَّة في حياته !..

نعم، لن يصدِّقَ أي إنسان ، أن سيد قريش ، وصاحب مناصب الكعبة يمكن أن يظهر على هذا الشكل ، وينقلب بصورة مفاجئة ، إلى رجل تبدو عليه الانفعالات !. ولكنَّ الحقيقة أنَّ الحياة بانتصارها على الموت ، تُحيي في الإنسان المماثل لعبد المطَّلب جذوة الأبوَّة ، فيحسّ أن ابنه عبد الله ، الذي كان يحتلُّ شغاف قلبه ، قد عاد ليحيا في مولوده فغمرته السعادة والغِبطة ..

وهذه الجذوة في النفس الإنسانية وهي تتميَّز بتلك القوَّة الساحرة لا تفرِّق بين سيِّدٍ ووضيع ، وبين كهل وشاب .. إنها تتناول الإنسان في خلجات نفسه ، وفي نبضات قلبه ، لأنها مظهر من مظاهر الحياة يَبينُ في أعماق الإنسان المتطلّع إلى الحياة ، ولا يكون تطلُّعه ذاك

أكثر من استمرار لوجوده ، ولا يتحقق هذا الاستمرار إلاَّ بالأبناء . . فإذا طرأ ما يُخِلُّ بثبات هذا النظام الحياتي ، ثم حصل ما يُقوِّم هذا الخلل ، فإن ردَّة الفعل تكون قوية ، ويستجيب لها الإنسان بدافع إحساس وشعور عارمَين ، فينطلق في التعبير عن دافعه بمظاهر مختلفة ، منها الفرح والسرور أو البشاشة والارتياح ، أو غيرها من المشاعر التي تُري الإنسانَ سعيداً حقاً ، تماماً كما بدت سعادة عبد المطَّلب لكل مَن صادفه في تلك الساعة ، عندما اندفع يُعبِّر عن اطمئنانه الوجداني ، وعن كوامنه الإنسانية . . .

لم يخالف عبد المطلب ، فيما فعل ناموس الحياة الصحيح ، وأهل مكة يعرفونه على حقيقته ، ولذلك لم يخامر أحد منهم أي شكٍّ فيه وهم يَرونه أسيرَ تلك النشوة ، بل على العكس زادتهم حالته تلك ثقةً بسيِّدهم ، واطمئناناً إلى مصيرهم أكثر من أي وقتٍ مضى ، ما دامت هذه السعادة تمنح هذا السيد دفعاً جديداً ، يقوم به على خدمة القوم ، وتدبير شؤونهم . .

إن سعادته هي انتصار على المأساة التي أوهنت العَزمَ فيه ، فلا يمكن للقوم أن يبخسوه حقَّه في هذا الانتصار ، ولذا فلا أحد في قريش يلوم عبد المطلب في مظاهر غبطته . . . والسيد ذاته لا يتَّهم نفسَه بشيء . .

ولذا نراه منشغلاً بالمولود ، يتأمل وجهه محدِّقاً كأنه يريد أن يعوِّض في لحظات ، ما فقده من عطفٍ نحو أبيه خلال شهور مضتْ على فَقدِه . . . ويلتفت عبد المطلب إلى آمنة ويقول لها :

ـ إني آخذ المولود إلى الكعبة ، وسأعيده حالاً إن شاء الله . .

وتفتَّحتْ أسارير الأم ، وهي تسمع ما يقوله الجدّ . لأنه يريد أن يبارك حفيده في رِحاب الكعبة الطاهرة ، وأن يعيذه ببركاتها من شرور الدنيا ومفاسدها . .

فتقول آمنة لِحَمِيها عبد المطَّلب :

ـ دونك وما تريدُ يا عماه . . فأنت السيد المطاع ، وأنت خير من يحرص على صلاح مولوده . . .

ويذهب عبد المطلب ويطوف بحفيده سبعة أشواط ، ثم يقف في ركن من أركان الكعبة الشريفة ، ويرفع ناظريه نحو السماء بالدُّعاء والحمد ، وهو يقول :

الحمدُ لله الذي أعطاني هذا الغلامَ الطيِّب الأردان
قد سادَ في المهدِ على الغلمان أُعيذه بالبيتِ ذي الأركان

لقد وعد عبد المطَّلب آمنة بأن يعود سريعاً ، ولكنه طال الوقتُ ولم يَعُد . . فأين يكون يا ترى ، وماذا فعل بمولود عُمْرهُ بضع ساعات ؟

ليس في الأمر أكثر من أنَّ أبناءَ قومه اضطَّرّوه إلى البقاء في الكعبة ، لأنهم كانوا يتوافدون إليه زرافاتٍ ووحداناً كي يرَوا الطفل الجديد ، ويباركوا قدومه .

وقد دُهش الآتون لمنظر هذا الطفل ، وقد سكن في أحضان

الكعبة ، غافياً ، هانئاً ، يطفح النور من أساريره ، وتنعقد حول وجهه هالة من النور العجيب .

لقد تدافعَ أهل مكة في ذلك اليوم إلى الكعبة فرأوا طفلاً لا كالأطفال ، ومولوداً لا كالمواليد . . لا يبكي بدافع جوع أو عطش، ولا يئن بإحساس الامتعاض أو الضيق ، بل يبقى على هذا الرونق ، حتى تميل الشمس نحو المغيب ، فيعتذر جدُّه من القوم ، ويحمل حفيده عائداً به إلى أمه . . .

لم تسأله آمنةُ عن دوافع تأخيره ، فأصداء وفود القوم عليه في الكعبة كانت قد ملأت أرجاء مكة كلِّها ، وتناهت إلى مسامع كل الناس حتى وصلت إليها ، فزادها ذلك اطمئناناً وغبطة وسعادة .

فلما دخل عليها عبدُ المطَّلب ، لاقته بالبشاشة والابتسام ، وطلبتْ إليه أخذ قسطٍ من الراحة بعد يومه الحافل بالتبريك والتهاني ، ثم نادت أُمَّ أيمن لتأتيَهُ بالطعام . فالتفت إليها عبدُ المطَّلب وهو يقول :

ـ أتدرين يا عزيزتي أني لا أحس بجوع ولا عطش ؟ ! . .

ـ وكيف ذلك يا عمّاه ؟ ! . .

ـ لست أدري ، فكل ما أشعر به أني أشعر بسعادةٍ عظيمةٍ ولا أجد عندي أي إحساس بالجوع . .

ـ ولكن أرجو أن تتناول شيئاً من الطعام ياعمّ . .

ـ ليكن ما تريدين أيتها الابنة العزيزة . .

ـ هل تفضل شيئاً من اللبن والتَّمر ، أم تختار لحماً وثريداً ؟ .

ـ لا يستميلني نوع الطعام بقدر ما أحبُّ أن أتناوله بصحبتكِ أيتها الحبيبة .

ـ وأنا لشدَّما تُسعدني هذه الصحبة المشرفة .

ـ وأنا أعيشُ الآن أسعد لحظات عمري . .

ـ أطال الله عمرك يا سيِّد القَوم ، وأبقاك ذُخراً لنا ولبني قومك . .

ويمتدُّ الحديث بين السيِّدة العظيمة وعمّها ، فتقول آمنة :

ـ الحقيقة يا عمَّاه أنني لم أذقْ طعم الهناء منذ رحيل عبد الله . . ولكن لا أدري كيف تبدَّلَت بي الحال اليوم ، فأراني في فيض من الحبور والانشراح . .

ـ هذا الطفل يا بنيَّتي هو الذي يمنحك ويمنحني هذه المشاعر السَّارة . . .

وتنهدت آمنةُ من قلب جريح وقالت :

ـ ليت أجل أبيه استأخر بضعة شهور ، حتى يشهد مولد طفله . .

ـ هذه مشيئة الله يا بنيَّتي . . قد فديته بأغلى ما فَدَت العربُ ابناً من أبنائها يوم كان بيدي الفداء . أما وهو الموت ، فلا رادَّ لقضاء الله

وقَدَرِه . . إنَّه حكم الله الذي لا مفرَّ منه . .

ـ رحم الله عبدَ الله ، لقد ذوى في ريعان الصبا ، فمزَّق مني الأحشاء ، وهدَّ فيَّ القوى ، ولولا الجنين الذي حملته منه ، وتلك الرؤ يا التي كانت تعاودني مرة بعد مرة ، لكنت فارقت الحياة ، أسىً عليه . .

ـ وأية رؤ يا يا آمنة ؟ .

ـ إن أَنْسَ لا أنسَ ليلةً خيَّم ظلامُها على مكة ، وهجرني فيها النوم ، فبتُّ وضجيعي القلقُ وذكرى عبد الله . وقبل أن يطلع الفجر بقليل ، غلبني النعاسُ فجأة ، فنِمتُ وما أن استسلمتُ للإغفاء حتى رأيت أنني أضع حَمْلي ، فيشعُّ منه نورٌ ، يضيءُ ديار مكة كلها ، حتى يصل آفاقاً بعيدة ، بل يصلُ إلى عنان السماء . . لقد صَدَقَتِ الرؤ يا يا عمَّاه ، ورأيت ذلك النور حقاً في صبيحة هذا اليوم ، عندما خرجَ الجنينُ إلى الدنيا .

ـ ولِمَ لَمْ تَقُصّي عليَّ هذه الرؤ يا من قبل يا عزيزتي ؟ . .

لقد أبقيت تلك الرؤ يا وغيرها في مخيلتي . .

ـ تقولين وغيرها ؟ ؟ ماذا تراءى لكِ غيرها ؟ .

ـ نعم يا عماه ، لقد كان يأتيني من حين لآخر ، هتافٌ في المنام يقول :

ـ « أنتِ حاملٌ بسيدِ هذه الأمة يا آمنة . فإذا ولد فأَعيذيه بواحدٍ

أحَدٍ من شرِّ كل حاسدٍ ، وسَمِّيه محمداً ؟ . . .

فأطرَق عبد المطلب يسمع ما تحدثه به آمنة ، ثم رفع عينيه نحوها وقال :

ـ يعلم الله أن رؤياك صادقة يا بنيَّتي ؛ فقد جاءتني أنا أيضاً رؤيا غريبة تتعلَّق بمولودك . . . فقالت آمنة متلهِّفة :

ـ وما هي رؤياك يا سيِّدي ؟! . .

ـ نعم يا آمنة كنت أضطجع مرة في جوار الكعبة ، فرأيت في المنام أنَّ شيئاً يخرج من ظهري وكأنه فيضٌ من نور يغلب أشعة الشمس قد رأيتُ طَرَفَيْه يمتدان ما بين السماء والأرض . . . وقلت يومئذ : إنها أضغاث أحلام . ولكنَّ الرؤيا عاودتني مرَّة ثانية ، فإذا بي أرى الفيض النوراني وكأنه شجرة كثيفة الأوراق ، ينبعث من كل ورقة منها نور وهَّاج ، وتنعكس تلك الأنوار على آفاق فسيحةٍ تعجُّ بالناس وهم يستقبلون النورَ الذي كان بالنسبة إليهم كمصابيح الهداية في الظُّلُماتِ . .

وسألت آمنة : وما تعبيرُ رؤياك يا عمّ ؟ .

فقال وعيناه ترنوان إلى الطفل :

ـ بعدما عاودتني رؤياي مرات كثيرة ، أحسست بدافع خفيّ يلحُّ عليَّ لمعرفة ما ترمز إليه ، فرحت أسأل أهل الحكمة ، ولم أجِد التعبير المرضي عند أحد ؛ ثم اهتديتُ إلى رجلٍ من أهل الكتاب ،

وهو شيخٌ هَرِم ، كَسَتْهُ السنون بياضَ الشَّعر ، وضرَّسته الحياة بأنيابها ، حتى بانت عليه الهيبة والوقار ، فأخبرته برؤياي . . . وراح ذلك الحكيم يُقَلِّبُ الفكر دون أن ينبس ببنت شفة ، ثم طال به التفكير ، ثم قام إلى كتاب تناوله ، وراح يقلِّب صفحاته ، ويقرأ ويقرأ ويطوي الصفحات تلو الصفحات حتى بان عليه الجهد ، فوضع الكتاب جانباً ، ثم حدَّق فيَّ وسألني :

ـ من أنت أيها الرَّجُل ؟ ! . .

فأخبرته مَن أكون ، وكيف أعيش ، وما عندي من أولاد وأحفاد . . . وكنتُ بين الفَيْنَةِ والفَيْنة أسكتُ قليلاً ، فيستعجلني في متابعة الحديث ، حتى عرف كل ما يتصل بحياتي ، من خاصٍّ أو عامٍّ ؛ وبعدما انتهيت تقدَّم مني وشدَّني إلى صدره ، ثم مسح بيديه على ظهري وهو يقول :

ـ « لقد وضع الله في نسلك مولوداً عظيماً ، ولسوف يكون له شأن كبير في الناس ، فتحمدُه أهل الأرض ، كما هو محمودٌ في السماء » . .

وما كاد عبدُ المطَّلب ينهي كلامه ، حتى قالت له آمنة :

ـ ليس علينا ـ إذن يا عمّ ـ إلاَّ تصديق الرؤىٰ . . فقد أوحَتْ لنا السماء باسم وليدنا ، فهو محمد بن عبد الله ، كما اختارت له السماء .

تلك كانت رؤى الجد والأم . . ولن نتوقف عندها طويلاً ما دام

في حياة المصطفين والمختارين من أبناء البشر آيات كثيرة لمن يريد التفكُّر والذِّكرى . .

فإبراهيم عليه السلام جاءته الرؤيا بذبح ابنه اسماعيل فصدَّقَها ومضى لتنفيذها .

وأمُّ موسى عليه السلام ، جاءتها الرؤيا بإلقاء ابنها في اليمِّ ، فآمَنَت بها ، وعملَتْ بوحيها ؛ ويوسف الصدِّيق عليه السلام قد رأى في المنام ، أن أحدَ عشرَ كوكباً والشمسَ والقمر يسجدون له ، وتحققت رؤياه بعد أن قصَّها على أبيه ، وبعد أن أضاعه إخوتُه ، وبعد أن صار في مصر الآمر الناهيَ في السنواتِ العِجاف . .

إن هذه الرؤى ، ما كانت إلَّا لتدلّ على أمورٍ هامَّة وأحداث جسيمة تقع في حياة أصحابها . . . ومثلها رؤى آمنةَ وعبدِالمطَّلب، فإنها لم تكن إلَّا للدلالة على أن محمد بن عبد الله ، الذي اختارت السماءُ اسمه ، هو الذي حمَلَتِ الرسالات السماوية البشارة به من قبل ، ثم أوحَتْ لأمِّه في المنام ، بأن تدعوه بهذا الاسم ، لأنه هو نفسُه المرصودُ لأن يكون إنساناً ذا شأن عظيم في الحياة . . .

ويبرز هذا الشأن جليّاً ، عندما نعلم أن لفظة « محمد » مأخوذة من الحمد ، والتحميد فوق الحمد ، فمعناه المستغرق لجميع المحامد ، لأن التحميد لا يستوجبه إلَّا المتولي على الأمر في الكمال ؛ وهي صيغة تكريم وتفضيل ، أي إنها تعني تجدُّد الحمد ، وحدوثه وقتاً بعد آخر ، والحمد لا يكون إلا نتيجة لفعل خير ، فيكون

اسم محمدٍ ، دالاًّ على أنَّ صاحبَه فاعلٌ ـ أبداً ودائماً ـ للخير الذي يقتضي ثناءً وحمداً مستمرَّين . .

وقد أكدَّ القرآن الكريم هذه الصيغة بقوله سبحانه :

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [1]

فالصلاة هنا من الله وملائكته تعني الثناء والرحمة على هذا النَّبي فكأنَّ الله تعالى قد أمر الناسَ أن يحمدوا هذا النبيَّ ويسلِّموا عليه دائماً وأبداً . .

أجل . . وضعتْ آمنةُ بنت وهبٍ ابنها ، وسمَّته محمداً ، كما جاءتها الرؤيا ، وكما يتوجَّب أن يُسَمَّى بعد أمر السماء، فتعالىٰ على الزمان محَمَّداً ، وأحمَد ، ومحموداً . . .

ثم مضتْ بضعة شهور على ولادته التي كانت يوم الأثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول (عام ٥٧٠ م)، وآمنة ترعاه بكل جوارحها ، وتحنو عليه بكل مشاعرها ، حتى باتت لا تطيق مفارقته لحظة واحدة . . . ولكنها رغم تعلُّقها به على هذا النحو قد نزلت على حُكم عادات مجتمعها ، وخضعت لتقاليده السائدة ، عندما فرضت عليها البُعد عن الرضيع الحبيب . . .

فقد كان من عادات أشراف مكة أن يدفعوا بأبنائهم إلى مرضعات من البادية يتولَّين إرضاع أطفالهم ، وتربيتهم في سني

---

(١) سورة الأحزاب ٥٦ .

حداثتهم الأولى في أجواء الطبيعة الفسيحة ، وحيثُ الهواءُ النقيُّ ، حتى يمتلكوا صحةً سليمةً وجسماً قويّاً . . .

إضافة إلى أن أشراف مكة كانوا يرغبون أيضاً في هذا النوع من التربية لأنه يُكسب الطفل اللهجة العربية الصافية ، ويُعوِّده فصاحة اللسان ، ويمرسه بالبلاغة والبيان ، فضلاً عن أن تلك الطريقة تتيح للأمهات المكِّيَّات التفرغ لأزواجهنَّ ، فلا يأخذ الطفل شيئاً من وقت أمِّه ، ولا تصرفها العناية به عن تقديم واجباتها الزوجية . . .

ونحن في وقتنا الحاضر نرى أن بعض أهل الطبقات الغنية الموسرة ، لا ترضع نساؤهم الأطفال ، ولا يتولَّين تربيتهم بأنفسهنَّ ، إمَّا للحفاظ على جمالهنَّ ورونقهن ، فلا يتهدَّل جسم الزوجة من معاناة تربية الصغار ، وإما لأن أعباء العمل خارج البيت ـ وقد دخلت المرأة نطاقه من بابه الواسع ـ تحول بينها وبين إرضاع الطفل في مواعيده ، وإمَّا لأن الحياة في المجتمع تفرض على سيِّدات تلك الطبقة الأرستقراطية ، الاهتمام بالأزياء ، وبارتياد صالونات التجميل ، وتلبية الدعوات ، وإقامة الاستقبالات ، وحضور المناسبات ، وهذه كلها أمور تتطلَّب كثيراً من وقت المرأة فلا تعود لها الفرصة متاحة أمامها لرعاية الطفل وحضانته ، فتدفع به إلى مرَبِّيَةٍ أو إلى خادمة المنزل ، لتقوم هذه على إرضاعه والعناية به ، ونحن نشاهد ـ في كل بيت ـ أن الرضاعة أصبحت قائمة اليوم على القنينة والحليب المجفَّف ، وبعيدةً كل البُعد عن صدر الأم ، وربما أن هذه الطريقة

من الإرضاع قد شاعتْ عند جميع طبقات المجتمع حيث صارت الأم لا تُرضع طفلها أكثر من أيامٍ معدودات ، ثم تلجأ إلى القنينة تقليداً لسائر أترابها . .

مُحَمَّد الرَّضِيع

إذن كان أشراف مكة يدفعون بأبنائهم إلى مرضعات من البادية ، حتى صارت لبعض قبائلها شهرة في ذلك ، ومن بينها قبيلة بني سعد ، التي كانت نساؤها تتردد إلى مكة ، لتأخذ أطفالها للرضاعة بقصد الاستفادة المادية ، إذ كان الآباء والأمهات يُحسِنون الأجر ويغدقون العطايا والهِبات للمرضعات . .

وجاءت، بعد ولادة محمد بن عبد الله ﷺ بشهور قليلة نسوة من بني سعد ، يلتمسن كعادتهن الرضعاء في مكة .

واستطاعت كل واحدة من تلك المجموعة ، أن تأخذ رضيعاً لها ، إلاَّ واحدة كانت تُدعى حليمة السعدية ، وهي أكثرهُنَّ فقراً .

فقد جاءت مع زوجها الحارث بن عبد العزى ، والأمل يحدوهما بالحصول على رضيع من أهل الغِنى ، ليَنتَفِعا بما يجود به أهله عليهما . .

ولكن حليمة هذه لم تُوَفَّق فيما جاءت إليه ، لأنها لم تستطع الحصول على رضيع . . .

وكانت أم أيمن ، قد طافت على المرضعات ، تعرض عليهن محمداً ، فلم يَقْبَلْنَ وأعرضن عنه لأنه يتيم الأب ، ولا مال عند أمه . . . وحاولت أم أيمن أن تُظهر للمرضعات مكانة جد الطفل ، عبد المطَّلب ، سيد قريش ، وصاحب المناصب في مكة والكعبة ، ولكنهنَّ أبَيْنَ حمله ، لأنه يتيم . . . إلَّا حليمة السعدية . . . فإنها قد شعرت بدافع يلحّ عليها بأخذ هذا اليتيم ، فعادت إلى زوجها الحارث بذلك الشعور وهي تقول له : لقد صددت عن يتيم صدَّ عنه الأتراب مثلي ، ولكني لما رأيته أحببته ، ونظرت إليه فرفقت له . ولقد نازعتني نفسي إلى أن أحمله لولا أني أشفقت مما تقول ، ولولا أني ذكرت الجدب وشدة السنة وانقطاع المادة ، واشفقت عليه مما نحن فيه . . قال الحارث لزوجه :

ـ وما حاجتنا إلى يتيم ؟. ألا يكفينا فقرنا ، وقلَّة ذات يَدِنا ؟. وهل تقدرين على إرضاعه وإرضاع صغيرك البائس ، وأنت لا تشبعينه من جوع ، ولا ترويته من عطش ؟!. ها نحن سنقفل كما أقبلنا ويقفل القوم راضين وإني والله يا ابنة ذؤيب ما أدري أتبلغنا أتاننا وشارفنا[1] ديار بني سعد ، وهذه الشارف ما تبضّ قطرة من حليب وتلك الأتان منهوكة مكدودة .

---

(١) الشارف : الناقة المسنة .

فحاولت حليمة أن تُهَدِّىء من روعه ، وقالت :

ـ أرى أنك قليل التبصُّر يا حارث . ألا تعلـم إن رجعت بدون رضيع أحمله ، سخِرتْ مني نساءُ بني سعد ، وذاع خبري في البلاد ، فلا أؤمل برضيع في مكة بعد اليوم أبداً ؟ !

ولكنَّ زوجها يظلُّ على عناده ويقول لها :

ـ لا أرى فيما تقولين ما يقنعني . . وبأي حق تسخر منك نسوة بني سعد ؟ فكثيرات جئن مكة من قبل ، ورجعن خاليات الوفاض ، ولم يؤثِّر ذلك على سُمعتهنَّ ، وكنَّ يَعُدْنَ في الحَول التالي ، ويأخذن الرضيع .

ولم تكن حليمة تعبأ حقاً بالفشل يُصيبها ولا بالسخرية تطال سُمعتها ، ولكن ما يهمها هو تلبية ذلك النداء في داخلها ، فهو يدفعها لأخذ محمد اليتيم . . فتحاول أن تؤثِّر على زوجها فتقول له :

ـ ويحك يا حارث ألا ترى أن الرأفة باليتيم أوْلى ؟ أم أن قلوب الناس فرغت من كل عطف ، فلم تعد ترى أبصارهم إلا المال والكسب ؟

ـ لا يا حليمة ، ليس قلبي خالياً من الرحمة أو الرأفة ، ولكننا فقراء مدقعون ، وقد لا نقوى على حضانة هذا اليتيم . .

وتجد حليمة لِيناً في كلام زوجها ، فتحاول من جديد أن تنتزع قبوله بما ترى ، فتقول له بدهاء :

ـ أو تعلم يا حارث أننا إن أخذنا محمد بن عبد الله هذا معنا ، لسوف تحمدنا العرب على ذلك ، وهي تقول : إن الحارث وزوجه لم يطمعا بمال ، بل كان حنانهما على يتيم أقوى من المال ، وبذلك يكون سبيلنا لإقبال أهل الغنى علينا فيما بعد ؟! . . ثم إنَّ نفسي لتنازعني إليه وإن قلبي ليعطفني عليه ، وإني لأشعر كأني لا أستطيع عليه صبراً . وإني لأرجو إن استجبت لهذا الدعاء الخفي أن يكون الله قد قدَّر لنا خيراً وآثرنا ببعض ما نحب .

ويَعجِبُ الحارث مما أبدته زوجه ، فيقول لها :

ـ لابأس ، لابأس يا حليمة . . اذهبي وخُذي يتيمك هذا ، فعسى أن تكون لنا فيه بركة . .

كانت أم أيمن ما تزال بين المرضعات ، وقد شقَّ عليها أن ترجع إلى سيِّدتها بدون واحدة منهن ، فآثرت البقاء حتى يذهبن ، وبذلك تعرف آمنة أنها لم تقصِّر فيما ذهبت إليه ، ولكنَّ الحظ لم يكن حليفها ، فلا تغضب ولا تؤاخذها . .

ولو درت أم أيمن أن سيِّدتها آمنة كانت على غير ما تتصوَّر ، وأنها في قرارة نفسها تودُّ من صميم قلبها أن تُكْمِلَ رضاعةَ وحيدها وألَّا تفارقه أبداً ، لعادت لتوِّها إليها ولكن من أين لها أن تدرك ذلك فظلَّت قريبة من المرضعات . .

وجاءت حليمة السعدية ، تطلب إلى أم أيمن أن تقودها إلى الطفل لتحمله معها . فبادرت تُهرول أمام المرأة فرحة مستبشرة ، حتى

أتت سيـدتها فبادرتها بالقول :

ـ ها قد أتيت يا سيِّدتي بإحدى مرضعات بني سعد ، فقومي إلى الطفل وهيِّئيه . .

وتلقَّت آمنة المرأة بالترحاب ، ودَعَتْها للجلوس ثم قالت :

ـ هل ترغبين حقاً يا أختاه بأن تكوني مرضعة لهذا الطفل اليتيم ؟

ـ نعم يا سيِّدتي . .

ـ ولكنني لا أملك مالاً وفيـراً أفيكِ به أجر هذه الخدمة ، وأجزيكِ به على كل هذه التضحية . فالله تعالى هو المسؤول عن توفيقي لأداء حقك وعن تعويضكِ على هذا العمل .

ـ لابأس يا سيدتي ، فالسماء كريمة ، وهي تمنحنا من عطائها وبركاتها الشيء الكثير . .

ـ ونِعْمَتِ السماءُ وبركاتها أيتها المرأة ، ولكنَّ الحقوق واجبة الأداء لأصحابها ؛ وإنني يشقُّ عليَّ ألَّا أكون قادرة على مكافأتك على هذا العمل النبيل . . .

ـ إنني غير طامعةٍ بالأجر يا سيدتي فلا بأس عليك ، وإني والله ما أدري ما الذي عطفني على طفلك حتى رجعت إليك آخذة ابنك ،نعم إنه شعور خفيّ دفعني إليه ، فلا تبخلي عليَّ بإرضاء هذا الشعور . .

وتستشعرُ آمنةُ صِدقَ هذه المرأة ، فتطمئِنّ إليها ، وتسألها :

ـ من أنت يا أختاه ، ومن تكونين ؟ .

ـ أنا حليمة بنت أبي ذؤيب ، وزوجي الحارث بن عبد العزى ، من بني سعد بن بكر بن هوازن .

ـ أهلاً بك يا أختاه ، وأنا آمنة بنت وهب ، وزوجي عبدُ الله ابن عبدِ المطَّلب سيد قريش .

ـ إذن فسوف يكون لي شرفُ إرضاع طفلٍ من سادة القوم . . وإنني لفخورة بذلك . .

وبعد أن دار الحديثُ بين المرأتين وطال ؛ رغبت حليمة في الذهاب ، فقامت آمنة وحمَّلتها ما عندها من زادٍ ، ثم سلَّمتها الطفل ـ بأمرٍ من جدِّه وبرضاه ـ ودَعَتْ لها بالتوفيق ، ودعتْ له بالصحة والعافية . .

وكانت حليمة قد جاءت على أتانٍ هزيلة قمراء ، وزوجها كان يركب ناقةً مسنَّةً عجفاء ، بحيث لا تكاد تقوى كلتاهما على السير . وكانت نسوة بني سعد ، يتقدَّمن عليهما مسافاتٍ طويلة في الطريق ، وهن يرثين لحالهما وفقرهما المدقع . .

. . أمَّا الآن ، وفي طريق العودة ، فإن حليمة هي التي تتقدم رفيقاتها ، فلا تستطيع إحداهن سبقها ، أو اللحاق بها ، إذ كانت حليمة على أتانها ، وزوجها على شارفه ، وكأنهما تطوى لهما الأرض طياً :

فأخذ النسوة العجبُ ، فحاولت بعضهن اللحاق بها حتى إذا أدركتها سألتها بدهشة :

ـ أليست هذه أتانك التي أقبلت بك إلى مكة يا ابنة أبي ذؤيب ؟ !

وترد حليمة ببساطة وهدوء : أجل . هي والله أتاني ما غيرتُها .

ـ ولكن ما بال أتانك قويت حتى لم تعد رحالنا قادرة على اللحاق بها ؟.

فتقول حليمة بلهجة ساخرة ، إذْ بدا عليها الامتعاض وخافت في قرارة نفسها من حسد النسوة ، فقالت :

ـ لا أدري ؛ ولعلَّ هذه الأتان تعرف ما بدَّلها فاسأليها . . .

وشعرت المرأة ، بل أحسَّت جميع النسوة بسخرية حليمة اللاذعة فلُذن بالصمت .

سارَ الركب حتى بلغ منازل بني سعد . ودخلت حليمة بيتها ، وهي تشعر باطمئنان لم تعرفه من قبل ، حتى بدا عليها حبورٌ لم يألفه زوجُها ، ولا ألِفَهُ الأولاد في أمهم أبداً . . وراحت حليمة ترضع محمداً دراً وافياً كافياً يفيض عنه وعن ولدها الصغير الذي كانت ما زالت ترضعه . . وأخذت مع الأيام حياتها وحياة عائلتها المؤلفة من خمسة أشخاص وهم هي وزوجها وابنتيها أنيسة وشيماء وأخ محمد في الرضاعة عبد الله ، تتبدل شيئاً فشيئاً .

فقد أخذ العُسْرُ يسحبُ أذيالَه عن ذلك البيت ، وبدأ الفقرُ يُلملِمُ أطرافَه من جنباته ، لتحلَّ مكانهما الخيراتُ والبَرَكات ! . وقد كانت أولى بوادر النعمة أنَّ أحد شيوخ بني سعد طلب من الحارث زوج

حليمة أن يرعى له طروشه ومواشيه ، فأقبل الحارث على عمله بجد ونشاط ، وبدأت ثمرات هذا العمل تترى لسيده ، فزاده أجراً ، حتى صار هذا الأجر يكفيه وعياله ، ويزيد على حاجاتهم . فاشترى بما زاد عن حاجات العيال بعض النعاج . ثم ما إن أتى الموسم حتى أولدت كل نعجة زوجين فصار للحارث قطيع من الأغنام ، يسرح به أولاده في البراري ، مثل قطعان القبيلة كلها ، فضلاً عن أنه كان لِنِعاجه درٌّ أكثر من المألوف ! .

هكذا ، وبسرعة تبدَّلت أحوال حليمة السعدية وعائلتها . فتفتحت سُبل العمل أمام زوجها ، وكثرت المواشي عندهم فشبع أولادها بعد جوع ، واكتسوا بعد عُريٍ . . وأدركت حليمة بنت ذؤ يب ، وأدرك معها زوجها الحارث بن عبد العزى ، بأنَّ الفضلَ فيما أفاض الله عليهما وعلى أولادهما من النِّعَم إنما كان ببركة هذا الرضيع محمد بن عبدالله ، الذي منذ أن ولجت به حليمة باب الخيمة ، راحت الحال تتبدَّل بهم من العُسر إلى اليُسر ، حتى صاروا في أحسن حال وأهنأ بال . . .

نعم ، أدركت تلك العائلة فضائل محمد ومَكْرماته عليها ، فلم يعد رضيعاً عندهم وحسب ، بل صار الابنَ الغالي والحبيب المفدَّى . إن نام رانَت السكينة على البيت ، وأخلد الجميع إلى الهدوء حتى لا يزعجه أحد . . وإن أفاق تدافع الصغير والكبير لاحتضانه وتقبيله . . فحليمة ترضعه ، وأولادها يأتونها بالماء يسقونه ، أو بالحليب واللبن يُطعمونه ، والسعيدُ السعيدُ من يقوم بعمل لأجله . .

لقد كانت السعادةُ تغمرهم ، حين كان يناغي بألحان الطفل البريء ، أو حين يحبو أو يدرج ، فتحتضنُه الأعيُن قبل الأكُفّ والأذرع . . فهم يتناقلونه من حضن الابن ، إلى ملاطفة الابنة ، إلى حدب الأب وحنان الأم . . وكان الحارث يأنس للمنظر البديع كلما عاد في الغروب . بل كان يغبط أولاده وزوجه على ما ينعمون به خلال يومهم ؛ ثم كان لا ينام قبل أن يأخذ نصيبه من ملاطفة الطفل ، والاستئناس بحمله على صدره ، وعلى ظهره ، ذارعاً به الخيمة ذهاباً وإياباً ، والكلّ من حوله مبتهجون مسرورون . .

ولم يكن رضيع حليمة محور عناية عائلتها ومدار حبِّها وحسب ، بل شاع حُبُّه في قبيلة بني سعد كُلِّها ، وصار حديث أهلها ، لأنهم يعلمون أن عائلة الحارث بن عبد العزى لم تعرف الهناء إلَّا منذ أن دخل هذا الطفل في حياتها . وما تدفَّق هذا الخيرُ بعد أيام العسر والمجاعة والجفاف ، إلَّا ويوحي بأن هذا الطفل سيكون على يديه خير كبير ليس لمحيطه فحسب بل إلى ما هو أبعد بكثير من المحيط ، حيث ينعم الناس ببركاته المليئة بالشبع المادي والروحاني على حد سواء .

ثم أدركتْ ـ يومها ـ قبيلةُ بني سعد أن بركة هذا الرضيع لم تكن مقصورة على حليمة وأهلها وحدهم ، بل أن وجوده في تلك المضارب قد مَنَع عنهم الجدب والجفاف ، فهطلت الأمطار في موسمٍ لم يعرفوا فيه مطرا من قبل ، حتى امتلأت مراعيهم بالأعشاب ، وحمل نخلهم أضعاف ثماره ، وحتى بات بنو سعد يقرُّون بفضل الله تعالى ويعترفون عن حقٍّ ببركة محمد بن عبد الله عليهم جميعاً . .

. . ثم تمضي الأيام سريعاً ، وينقضي حَوْلا الرضاعة ، فيتحتَّم على حليمة أن تعيد الطفل إلى أمِّه حسب المتعارف عليه في ذلك الزمان .

مُحَمَّدالطِفْل

وتهيّأت عائلة الحارث لوداع هذا الطفل الميمون . . فكان وداعاً أليماً حقاً . . لقد خيَّم السكون على البيت وغمره الحزن والأسى . .

ذلك أنَّ محمداً ، هو أحبُّ الناس إلى قلوبهم ، وأقربُهم إلى نفوسهم ؛ ولسوف يغادر الحيّ ويرحل عنه إلى مكة البعيدة . فهل يطيقون الصبر على فراقه . . وهل عندهم القدرة على وداعه !. حتى صغير حليمة ، أخ محمد في الرضاعة ، فقد أفاق من نومه في صبيحة ذلك اليوم ، وهو يصرخ ويبكي ، دون دافع لبكائه وعويله ، إلَّا ما تعرفه حليمة وزوجها ، وهو أن محمداً سيغيب عن هذا البيت . .

إنه لو قُدِّر لتلك العائلة أن تحبس الرضيع عندها ، لما توانت . . ولو كان الأمر بيدها ، لما فارقته أبداً . . ولكنَّ الواقع غير الأماني ، والحقيقة غير الخيال . فمحمَّد يجب أن يعود إلى أمِّه في مكة . وما عليهم إلا مواجهة فراقه بصبر ، رغم ما يحمل لهم هذا الفراق من عذاب وألمٍ شديدَين . .

وحملت حليمة السعدية محمداً ، وسارت به ، فإذا زوجها وأبناؤ ها يلحقون به ، وبكاؤ هم يملأ الناحية كلها . . . ثم راح هؤلاء الأبناء يمشون في ركاب دابة أمهم التي تُقِلُّ محمداً في حضنها ، وهم يتلمَّسونه بأيديهم ، حتى بعُدت بهم المسافة عن المضارب ، فوقفت الأم والدمعة في عينيها ، والحرقة في قلبها ، وطلبت إلى أولادها

الرجوع . فوقفوا في أماكنهم ، وعيونهم معلَّقة بتلك الراحلة ، حتى غابت عن أنظارهم . .

ودخلت حليمة بنت ذؤيب على آمنة ومعها الطفل ، فهبَّت أمه تلقاه بلهفة وشوق ، وقد أخذت منها الفرحة كل مأخذ ، فلم تدرِ كيف تشكر حليمة على عملها . . . وتأخذ آمنة ابنها إلى صدرها . . . ثم تتنفس الصعداء . . كم هي مشتاقة لهذا الطفل ، وكم كانت لوعتُها شديدةً أثناء بعاده عنها . فهي تتأمل ابنها مليّاً ، ثم تتلمس كل موضع في جسده ، فتقرَّ عيناً لأنها وجدته ممتلئاً صحة وعافية . . ثم تُقبل على حليمة تشكرها حق الشكر على ما بذلته في سبيل طفلها من حنان ورعاية . .

ثم تمرّ لحظات ، فتعود آمنة إلى طفلها لتشدَّه إلى صدرها ، ولتمرغ وجهها بيديه ، ثم لترفعه بين ذراعيها ، ولتعود فتضعه إلى جوار قلبها، فتسكن جوارحُها حتى لَيُخيَّلُ إلى من يراها أنها قريرة العين، راضية النفس ، لا تحس بهموم الدنيا ، ولا تشعر إلا بالسرور والطمأنينة . .

وترقب حليمةُ السعدية هذا المشهد ، مشهد الأم مع وحيدها بعد الفراق الطويل ، فتحسّ وكأن صدر هذه الأم يحتوي الطفل في داخله ، ولكنها لا يدهشها هذا المشهد ، لأنها تعرف الحُرقة التي تُصاب بها الأم إذا فارقت رضيعها . .

إنها قد تخيَّلت ما ستكون عليه حال أم الطفل وهي تلقاه ،

ولكن ما تراه الآن كان أكبر بكثير من تخيُّلاتها وتصوراتها . . . وحليمة الآن تخشى أن تُصاب بأملها في العودة بالطفل لتُكمل تربيته ، وقد جاءت بمحمد وهي تُمني النفس بالعودة به ، حتى يظلّ في حضانتها مدة أطول لِمَا رأت من بركته وكراماته . .

أمَّا وهي ترى أمه على هذه الحال ، فهي لا تجرؤ بعد على البَوح لها بما ترغب وتأمل!.. وهيهات أن يكون لها ما تريد . . . ولكنها لن تتخاذل وسوف تحاول . . . ثم تبادر آمنة بقولها :

ـ أرى أن سيِّدتي سعيدةٌ حقاً بعودة طفلها إليها . .

ـ ألا يحق لي أن أُسَرَّ بوجوده في حضني بعد هذا الفراق الطويل ؟

ـ بلى ، ولكنَّ سيدتي لم تسألني عن حال الطفل يوم كان عندي . .

ـ إنه أمام عينيَّ ، وكل ما فيه يُنبِىءُ بمقدار اهتمامك به ، فلا حاجة بي للسؤال . . أنتِ يا حليمةُ تستحقين كل تقدير وامتنان . .

ـ عفواً ، بل أراني أَولى بتقديم فروض الشكر والتقدير لك يا سيدتي ، على ما أوليتني من ثقة في رعاية الطفل وإرضاعه ، والذي أرغبُ في الحديث عنه ، هي الأمور التي حلَّت بحياتي وحياة عائلتي يومَ دخلَ محمد علينا . .

ـ وما تعنين يا حليمة ؟

ـ أقصد يا سيدتي أن محمداً لم يكن رضيعي ، بل كان ابناً لي ولزوجي ، وأخاً لأولادي . .

ـ بوركت أيتها المرأة الطيِّبة . .

ـ بل هي الحقيقة يا سيدتي . . آه لو تعلمين كيف كانت أيامنا التي سبقت دخوله إلى منزلنا . كانت أيام حرمانٍ حقاً . . وكانت ليالينا طويلة ، لأننا كثيراً ما كنا نعاني فيها الجوع والعَوز . . وديار بني سعد تشهد على صرخات أطفالي في وجهِ لُقمة العيش . . . وقد كنتُ بذلتُ كل ما وسعني ، وبذل زوجي كل ما قَدِرَ عليه لردّ غائلة الحاجة عنا ، فكان نصيبنا الفشل والمرارة . . ولكن ، ما إن حلَّ الحبيبُ حتى بدأت طلائعُ النحس والشقاء تُدبِر ، وراحت تحمل مكانها بحبوحة العيش وسعته . . فُتِحتْ أمام بعلي سبلُ العمل ، وكثرت عندنا المواشي ، ففاضت علينا الخيرات والأرزاق . . ولم يكن ذلك ليحصل لنا ، وبنو سعد كلهم يشهدون ، إلاَّ ببرَكة هذا الطفل الحبيب . . فهل أبخل عليه بأمومتي ، وهو بفضل الله ، قد جلب الرزق والنعمة للأولاد ، ولجميع أفراد العائلة ؟ ! . .

وكانت آمنة تسمع وهي صامتة . تحمد الله على ما أنعم به على تلك العائلة . ثم أرادت أن تبدي ارتياحها فقالت لحليمة :

ـ لشدَّما يفرحني أن تحلَّ عليكم النعمة ، وإنني لأضرع إلى الله أن تدوم هذه النعمة إلى ما لا نهاية . .

ـ أخشى أن تزول عنَّا يا سيدتي ! . .

ـ لا سمح الله بذلك . لا تقولي هذا يا حليمة .

ـ بلى يا سيدتي ، إن بَعُدَ عنا محمدٌ . . .

ـ أرى أنك تقصدين أمراً معيَّناً ؟ ؟ ؟ . .

ـ نعم يا سيدتي ، فكلِّي رجاء وأمل أن أعود به لأكمل التشرُّف بالعناية به قدَر الإمكان .

ـ ولكن ألا تدركين يا حليمة أن محمداً جزءُ من حياتي ، بل هو حياتي كلها ؟ ألا تعرفين قلب الأم الكليم ؟ .

ـ أعرف يا سيدتي ولكن . . .

ـ إذن أنت لا تقدِّرين العذاب الذي أقاسيه في بعاده عني ! . .

ـ فداك نفسي ، فأنا وعائلتي خَدَمٌ لسيِّدَتنا آمنة ، ولسيدنا محمد .

ـ إنك تطلبين أمراً صعباً يا حليمة . وقد لا تعلمين ما عصف بحياتي ، ولولا رأفةُ الله واعتمادي على الصبر لَمَا احتملت مصيبة الدهر . وقد تعرَّفت إلى الحياة من جديد بسبب ابني هذا ، فهل أتركه بإرادتي وأعود إلى وحشتي وانفرادي ؟! . .

ألا إن آمنة صادقة فيما تبدي . وصدقها تعبير عن مشاعرها فهي أسيرة الحنان والعطف على وحيدها . ولا يمكن لحليمة أو لغيرها النفاذُ إلى قلب تلك الأم . .

ولكنَّ حليمة هي أيضاً تحب الطفل . . وهي إن رجت عودته

بدافع بركته في حياة عائلتها ، فإنها في الوقت ذاته تحرص على أن يمضيَ محمدٌ مدة أخرى في البادية من أجل مصلحته هو ، فتقول لآمنة : ـ

ـ أنتِ أمُّه التي ولَدته ، ولَكِ حقوقُ الأمومةِ كلُّها ، فلا يمكن لأحد منازعتك في حقوقك ومشاعرك . . ولكني أحب طفلَكِ أيضاً ، وحبي يمنحني بعض الحقوق . فأنا أرغب في حمايته من حياة الحضَر هنا ، حيث تضيق أجواء الحرية ، ويقلُّ الهواء النقيّ الطيب . . . وأين الحياة في مكة وحضرها من أجواء باديتنا الفسيحة ، حيث ينطلق الولد هناك في رحاب السَّعةِ والمرح ، ويسرح في البراري مع أترابه ، فيقوى عودُه ، وينشأ قويَّ الشكيمة ، صلبَ الإرادة ، فيترعرع ثابتَ الجنان ، عظيم الثقة بالنفس .

تلك هي حياة البادية التي أرجوها لسيدي وابن سيدتي آمنة . . فالباديةُ لا تقوّي فيه الجسد والنفس فحسب ، بل تمنحه لساناً عربياً فصيحاً ، وبياناً بليغاً ، وتفكيراً حصيفاً ، لا تشوبه عيشة الحضر بأدرانها . . .

هذا ما أرغبه لمحمد سيِّدي ، فهل تمنعين عنه ذلك ؟. لا ! فأنا على يقين بأنك لا ترغبين إلا في مصلحته وخيره .

وكانت آمنة تنصت إلى الحديث باهتمام شديد ؛ فما أن سكتت حليمة حتى ذهبت بها الأفكار إلى البعيد ، فرأت أنها صبرت طويلاً على عواطفها لمصلحة الطفل . . . وأنَّ ما تقولُه حليمة صحيح . .

فلماذا لا تضغط على عواطفها ، وتكبت مشاعرها من أجل مصلحة ابنها ؟ نعم لا يحق لها أن تكون صعبة أمام حليمة التي اخترقت بحجتها قناعات الأمومة وعطفها وحنانها . . . ويبقى عليها هي أن توازن وتقرِّر . . . والموازنة عندها يجب أن تنصبّ على ثلاثة أمور لا رابع لها : أولها مشاعرُها هي ، وثانيها : مشاعر هذه المرأة ، فقد أظهرت من صدق العاطفة نحو ابنها ما يجعلها بمنزلة الأم ، فإن انتصرت آمنةُ لنفسها فإنها ستوقع هذه المرأة البريئة في الضيق والمرارة .

وثالثها : وأهمُّها رأيُ الجَد العظيم ، سيد قريش . .

ثم تعود آمنة إلى قرارة نفسها ، فترى أنها هي أيضاً ستقع في الضِّيق النفسيّ وألم الفراق . . ثم تقع في صراعٍ مُر ما أقساه على النفس الصافية ! وينتهي ذلك الصراع بتغلُّب المشاعر الإنسانية عند آمنة على مشاعر الأم . . . فتقف أعظم موقف ، لأعظم امرأة في مكة ، موقفاً غلب فيه سمو الشعور وروعة الحنان فجعل آمنة بنت وهب تنتصر لإنسانية الإنسان وحدها على الحقوق والقوانين . . وتستجيب لطلب حليمة ولكن إن وافق جدُّ محمد على طلبها . . .

فلِلّه ما أنبل آمنة في موقفها ! وما أعظم شجاعتها وهي تتخذ القرار الحاسم إذ ترنو إلى حليمة بعين العطف وتقول : لكِ ما ترغبين . . ولْنكلِّم السيِّد الجدّ . .

أيَّة نفس كبيرة عند آمنة التي ترى أن حليمة لم تعد مرضعة لمحمدٍ ، بل صارت أمه الثانية ! فلئن كانت هي قد حملته ووضعته

وأعطته من ذاتها ، فإن حليمة السعدية برضاعها له قد أعطته أيضاً من ذاتها ، فلا يجوز أن تبخل في التضحية ، مهما غلا ثمن التضحية . ولا نستغرب موقف آمنة بنت وهب حين توافق على طلب حليمة السعدية ؛ فهي أعظم أم وأكملُ أم ، لأعظم إنسانٍ وأكمل إنسان عرفته الأرض قاطبة ؛ فآمنة أمُّ هذا الإنسان ، ومن كانت أمّاً له ، فلا يمكن إلَّا أن تتخذ القرار الذي اتخذته آمنة بنت وهب ، لأنها أم محمد الذي ستشهد الدنيا بأسرها عظمته عندما يتحقق أمر الله ويبعث محمداً نبياً . .

وتطير حليمة السعديَّة فرحاً بالقرار ، فتهبُّ ترتمي على قدَمَي آمنة ، فتدفعها آمنةُ برفق وهي تقول :

معاذ الله يا أختاه هدئي روعك يا حليمة ، ما أنت إلَّا امرأة طيبة .

فترفع حليمة رأسها نحو آمنة وهي تقول :

ـ ولكن كيف أعبِّر عن مشاعري نحوكِ أيتها السيدة الجليلة . . لا ، ليس عندي ما أقوله ، لأنني عاجزة عن الكلام ، فهلَّا تعذرني سيدتي وتتركني ألثُمُ أناملها لتفريغ شيء مما يعتمل في نفسي . .

ـ بل أنكر عليك ذلك يا حليمة ، فارجعي إلى مقعدك . .

ـ سمعاً وطاعة لما تقوله سيِّدتي .

فتقول لها آمنة :

ـ تبقين هنا بضعة أيامٍ ، تلتقين جدَّ ابنك عبد المطَّلب ،

وبعدها ترحلين بهذا الابن الحبيب .

ـ نعم يا سيدتي إنه ابني حقاً ، وأنا طوع إرادتك فافعلي ما تشائين . .

وتنقضي الأيام القليلة بعد موافقة عبد المطَّلب ، جدِّ محمد ، ومباركته لِفكرة آمنة التي هي من صميم خياراته لأنه يريد إبعاد ابنه عن أجواء مكة المشحونة . . بل هي فكرتُه هو بالذات وتصميمه الأقوى لشدة ما يحرص على سلامة ابنه الجسدية ، والنفسية ، ولاهتمامه الكبير ، بإبعاده عن كَفَرَةِ قريش ومارِقِيها .

وأخيراً . . تذهب حليمة السعدية سعيدةً بحملها الثمين ، ليكون لها في التاريخ شأنٌ أيُّ شأنٍ ، لِمَا أرضعَتْ ولِمَا حملَتْ في حجرها .

حليمة بنت ذؤيب ، المرضعُ من بني سعد ، لها شأن في التاريخ . . . وكيف لا ، وقد تجلَّت حقيقتها مثلما تجلَّت حقيقة آمنة بنت وهب من قبل ! . . .

آمنة هي أم محمد ، وقد حملت اسمها ـ هذا الذي يرمزُ للأمانة ـ قبل زواجها . فكان مطابقاً لما نُدبتْ إليه من صَون الأمانة التي أودعها الله في أحشائها لتكون بشير الخير للإنسانية . . .

وهكذا مُرْضِعُ محمد ، فيجب أن تظهرَ حقيقتُها هي الأخرى . .

فلمّا أعرضتْ نساءُ بني سعد كلّهنَّ عن محمد بن عبد الله ، وأَبيْنَ لأنه يتيم ، وخِفْنَ قِلَّة الأجر ، وقلَّة الهدايا وأنواع البِرّ ، شاء الله

سبحانه أن تكون حليمةُ هي مرضع محمدٍ المرصودة لهذا العمل الكبير ، لأنها تحمل النفس الكبيرة المتحلية بالقناعة والحلم والرضا في كل حال . . .

وليس المطلوب من المرضع تزويدَ الطفل بحليبها وحسب ، بل هناك ما هو أهمُّ من الحليب : كالحنان ، والرأفة ، والحلم ، وجميع المشاعر الخيِّرة التي بدونها قد لا يفيد الحليب ، ولا يبعث في الرضيع النموَّ السليم . . فالغذاء الروحي للطفل لا يقلّ أهمية عن غذائه المادي . . .

فكيف اتَّفق أن كان اسم مرضع محمد يعني الحلم بالرضيع ؟ . .

لم يكن ليخطر على بال أبي ذؤيب أن ابنَتَه ستكون في يوم من الأيام مُرضعاً ، فتعمد إعطاء هذا الاسم الذي فيه الحلم والسعد ؛ ولكنها العفوية عند الإنسان التي لم تكن إلّا بقدَر مقدَّر من الله ، هو ـ أعني التقدير في سابق علم الله تعالى ـ حمل أبا ذؤيب على تسمية طفلته « حليمة » لأنها سترضع في مقبل الأيام محمد بن عبد الله رمزَ الحلم والعلم ، النبيَّ الذي هو على خُلُقٍ عظيم . .

ها هما حقيقتان قائمتان في التاريخ ـ الأم التي أنجبت محمداً واسمها آمنة ، والمرأة التي أرضعته واسمها حليمة ـ . . ومن هاتين الحقيقتين انبثق شأن كلٍّ من المرأتين في التاريخ . .

وإذا كان فضل الله قد تمَّ على آمنة بأمومتها لمحمد ، فإن فضله

لم يقل شأناً على حليمة بإرضاعها له . وبفضل الله هذا كانت تنعم حليمة وعائلتها حين كان محمد يعيش بين ظهرانيهم . . ويوم كان يكبر رويداً رويداً ، في أجواء البادية الفسيحة ، ويتدرج في مَرَحِه حول المضارب أو أبعد منها بقليل . . .

وشيئاً فشيئاً يُصبحُ صِبيَةُ الحيِّ رفقاء له ، يأتونه في صبيحة كل يوم ؛ ويذهبون معاً إلى السباق ، وإلى جمع الحجارة والحصى من أجل إقامة مضارب على شاكلة حياة القوم ، ثم ينقُضون ما بنوا ويعودون إلى بنائه بعد هدمه ، يثابرون على ذلك وعلى توزيع الأدوار بينهم مقلِّدين رجال الحي فَرِحين مَرِحين . . .

هذا ومحمدٌ بينهم الأميرُ ، والسيدُ في البيت الكبير من الحجارة ، يعطي الأوامر ، ويسوس الجميع بحكمة المدبر القادر ، يوزِّع المناصب على الأتراب ، فيقبل كل منهم بمنصبه ، ويقوم بالأعمال التي يتطلَّبها هذا المنصب .

فهم يمثِّلون الطفولة في مرحلة من مراحلها، وبراءتها الناصعة كنصاعة الثلج . . يرون ما يفعله الكبار فيحاولون تقليدهم . .

فالطفولة صفاءٌ وإلفَةٌ ؛ قد يتخلَّلها غضب الأطفال بعضهم من بعض ، وقد يدبُّ الشجار بينهم على أمورٍ يراها الكبار بسيطة تافهة ، ولكنها بنظر الصغار أمور هامَّة ؛ لذا نراهم يدافعون عن حقوقهم بكل قوَّة وصلابة ، وقد يصل بهم الحال إلى الخلاف ، أو إلى أن يكيلوا لبعضهم الضربات واللكمات . . ولكن تنتهي المعركة في لحظات ؛

فيذهب الغضب ويزول الانفعال ، وتُسوَّى الأمور على طريقتهم الخاصة ، ويعود الصفاء من جديد فيأخذهم حماسٌ أشد في اللعب . .

حالات عديدة ومتنوعة يعيشها الأطفال ، في كل زمان ومكان ولكنها تكون أفضل لهم وأدعَى لحياتهم المَرِحَة لو عاشوها في أجواء الحرية والهواء الطلق . . وفي أرجاء الفسحات الواسعة ، بعيدِين عن البيت وجدرانه التي تشكِّل أسوار الضيق والأسْر . . فإذا تأمَّنتْ لهم تلك الأجواء فإن الطفل ينعم بطفولته ، ويتمكَّن ـ من خلالها ـ من تقوية ملكاته ، فينشأ قوي الجسم والنفس ، قادراً على مواجهة الحياة بثقة وعزم . . . لذا أتاحت البادية أمام الطفل العربي أن ينعم بطفولة رائعة رغم طبيعة بلاده القاسية . فكانت الحرية متنفَّسه وناموسَ حياته ، وتوأم عيشه . . ينحدر إلى اللعب في الرمال ، ويجعلها فراشه ، ويتمدد تحت أشعة الشمس المحرقة ، فيجعلها ظلاله . .

وقد يفترش أرض الواحة الخضراء ، أو قد يلحق بقطيع الماشية ، فإذا جاع أمسك بالشاة يرتوي من حليبها ، وإن تعب أناخَ الجملَ واعتلى ظَهْره . .

وقد يقع وهو يركض مع أترابه ، أو أثناء لِحاقه ببعض الماشية الشاردة ، فيهب وقد حمته الرمال من الكسور ؛ أمّا أن يتخاذل ويبكي فذلك عيبٌ في حياته . .

إن قساوة الطبيعة تصنع معدن الرجال ، لأنها تغرس في نفوسهم

البأس ، وتنمّي فيهم الشجاعة ، فيشبُّون في الغالب رُعاةً أو فرساناً ، ويصيرون رِجالاً أُباة ، أشاوس ، فلا يكونون ضعفاء ، ولا يعيشون عالةً على من يؤويهم . . .

في مثل تلك الطفولة العربية ، عاش محمد بن عبد الله ، في ديار بني سعد ، حيث اللعب البريء ، في أحضان الطبيعة ، وفي أجواء الحرية . . ولم تكن أعوامه القليلة هنالك مقصورة على اللعب والمرح فحسب . بل تمرَّسَ على تجربة الرعي ، فذهب مع أبناء حليمة إلى البراري يقود القطيع ، ويردُّ الشارد ، ويحمل في أحضانه صغار الماعز والأغنام . . . وهو في ذلك سعيدٌ هانىءٌ . . .

ثم يظلّ محمدٌ في بني سعد ، وهو على هذه الحال ، ينهل من معين الحرّيَّة ، ويستفيد من قساوة البادية ، ويتمرَّسُ باللسان العربي الفصيح الخالي من الدخائل والشوائب ، حتى بلغ الخامسة من عمره . فعادت به حليمة ، على كُرْهٍ منها إلى أمِّه ، وبطلبٍ من جدِّه سيِّد القرشيِّين وحامي حرم الله . . .

ويعود الموقف ذاته بين المرأتين : إذ تحاول كلٌّ منهما أن تَتَشَبَّثَ بالصبي لتُبقِيه قربها ، ولكنَّ التضحية تكون هذه المرة من حليمة ، إذ أبَتْ عليها نفسها أن تُجبر آمنةَ على تحمُّل رأيها .

فقد حقَّ لهذه الأم أن تأخذ نصيبها من السعادة بوحيدها الفذِّ بين أمثاله . . . تلك هي نفوس الكبار في هذه الحياة ، يُقدِمون على التضحية عندما يدعوهم الواجب ، وهم راضون ؛ ويؤثرون التغلُّب

على عواطفهم عند نداء الواجب ، وهم راضون قانِعون . .

فلا عجب إذا رأينا السيدة حليمة السعدية ترتحل بعد أن عاد محمد إلى أمِّه آمنة ، إلى ديار بني سعد مهمومة وسعيدة في آن ، مهمومة لفراق ابن اعطته من حشاشة قلبها وهي ترضعه وسعيدة لأن أمه الثانية سوف تهنأ بجواره منها . . أما آمنة فها هي تحتضن الطفل الغالي بعد فِراقٍ طويل قاسٍ عاشته تلك العفيفة الفاضلة ، ولم تذق فيه طعم الراحة إلاَّ من ذكرى الزوج الحبيب ، والأمل بالولد العزيز . . وها هو ذا ولدها معها ، فما عليها إلا أن تتذوَّق حلاوة الأيام ، وتنصرف إلى رعاية هذا الابن لِتُوفِّر له كل أسباب الراحة والهناء ، فسعادتها من سعادته ، ورضاها من رضاه ، وهي إنما تعيش من أجله ، ومن أجله فقط . . وهكذا قامت على تربيته وتنشئته بما يعمِّق في وجدانه معاني الحقائق ، وبما يؤصِّل نفسه على أفضل الصفات وأحسن الخصال ، ومنها حُبُّ الأقربين والاطمئنان إليهم ، ولذلك قرَّرت أن تأخذه إلى أخواله بني النجار في يثرب لتتمَّ غبطتها وغبطتهم به .

وقد كان من دوافع آمنة أن يُقيم ابنها فترة من الزمن بين أهلها من جهة وأن يتيح لها ذهابُها ، إلى يثرب الفرصة كي تقيم هي بجوار مَثْوَى زوجها وفاءً لِذكْراه من جهة ثانية ؛ فإن وفاءَها لهذا الزوج قد ظل ثابتاً في نفسها منذ وفاته ، فهي لا تنساه ، ولن تنساه . .

وأمَّت آمنة يثرب وألزمتْ نفسها الوفاءَ بالعهد ، فكانت لا تترك يوماً يمرُّ خلال إقامتها هناك ، إلا وتذهب إلى قبر الزوج الراحل

الكريم لِتذرف الدموع ولتَتْلُوَ لَهُ آيات الرحمة ، ولتعدِّد مآثره الحميدة ، رغم قلَّة ما عرفت من تلك المآثر ، في الفترة القصيرة التي عاشتها معه . .

مَوْتُ آمِنَة أُمُّ مُحَمَّد

. . ولكنها لم تطل بها الإقامة عند ذويها رغم الحفاوة البالغة التي أحاطوها بها هي وابنها ، ورغم العطف الذي أغدقوه عليهما . فقد آثرت العودة إلى مكة ، حتى تظلّ قريبة من حَمِيها عبد المطَّلب ، هذا الحمو الذي رافقها في أيام تعاستها ، وبذل كثيراً من نفسه لأجلها ، فلا يعقل أن تطيق البعاد عنه ، خصوصاً وهي تعرف بأنه كان لا يطيقُ فِراقَ محمد بعد عودته من البادية ، ولا يرغب بتحمُّل بعاده عنه . . فودَّعت أهلها وارتحلَتْ . . . وكان الوَداع الأخير ! . . .

فقد فاجأها المرض في طريق عودتها وأدركها الموت السريع عندما وصلت إلى مكان « الأبواء » ما بين مكة والمدينة ، فَدُفِنَتْ هناك ، تَغَمَّدها الله برحمتِه ورِضوانِه . .

ماتتْ آمنة . .

ماتت أم محمد ﷺ . .

نعم ، داهم الموت تلك الأم الطاهرة ، دون سابق نذير إلَّا حمَّى الموت في أيام لا تصل إلى أصابع اليد عدّاً ! . .

فصار محمد ، بين عشية وضحاها ، يتيم الأبوين . . . كان

محمد يوم موت أمه قد بلغ سن السادسة ، وهي السنّ التي يبدأ فيها أول الوعي عند الولد . .

فقد عاش مع أمِّه سنةً كاملةً ذاق فيها من حنانها ، وارتوى من عطفها ما قد يفوق حنان الأمهات خلال أعوام ؛ كانت آمنةُ لابنها بمثابة الظلّ ، لا ترغب في مفارقته أبداً ، إن خرج من البيت ، أرسلت أم أيمن تجيء به ، وإن جلس ليأكل أطعمته بيدها ، وإن عطش سقته بجوارحها ، ينام فتحتويه في حجرها قبل أن تؤويه إلى فراشها ، ثم تستلقي بجانبه تحتضنُه الليلَ كلَّه . .

كان جدُّه يرغب في اصطحابه إلى مجالسه وندواته ، فتظل قلقة ، متلهفة حتى يعود ، رغم قناعتها بأنه أحب الناس إلى قلبه ، وأنه لا يدعوه حفيداً ، بل يناديه بابنه . . . وكم من مرة عاد هذا الجدُّ فوجدها مضطربة لغيابه مع أنه برفقته ! . ولكنه لم يكن يلومها أبداً ، بل كان يحاول دوماً أن يُهَدِّىء بالها ويرضي خاطرها . .

وكان محمدٌ ـ رغم حداثة سنِّه ـ يدرك مقدار تعلُّق أمِّه به ، فيدفعه تفتُّحه ووعيُه إلى التعلُّق بها هو أيضاً . . وها هي ذي الآن تغيب عنه إلى يوم البعث ؛ وهو يرى بناظرَيه كيف تُوارَى جدثَ الرَّحمة ، فيرتمي فوق قبرها والِهاً ، ملتهب الفؤاد ، مُلتاع النفس ، جريح القلب . . ويبكي محمد في تلك الساعة ، وهو يعرف أن بكاءه لا ينفع ، وأن حزنه لا يجدي ، فقد أخذَ الموتُ أُمَّه ، في هذه السِّنِّ المبكِّرة ليكون له آيةً في الكِبرِ ، وليكون هو نفسه آيةً في اليُتْم من الأب والأم . . ثم تصحبه أم أيمن المرأة البرة ، مفارقةً وإيَّاهُ قبرَ الأم

الـرؤوم ، ومستسلمة معه للمسافات الشاسعة في تلك الصحراء القاحلة . . .

مُحَمَّدٌ يَتيمُ الأَبِ وَالأُم

إن محمداً وحيدٌ الآن . . بلا أبٍ وبلا أم . . لم يعرف أباه عبدَ الله أبداً . . . وعرف أمَّه آمنةَ ، وعاش في كنفها أشهراً معدودة من الزمن . . . وها هو في جوف الصحراء ، لا أُمَّ ولا أنيسَ له في جوفها الواسع الموحش ، إلَّا هذه الجارية الحبشية الوفية التي تأخذ بيده ، وتحنو عليه حنان الأم ، ولكن لا كَحَنان آمنةَ مهما بلغ حنان النساء الأمَّهات . .

وماذا على هذه المرأة المسكينة أن تفعل ؟ . .

إن قلبها تعتصره وفاة آمنة ، ويشق عليها أكثر بكثير حين تنظر إلى الصبيِّ والحزن يُغطِّي وجهه ، والدموع السخيَّة تنهمر من مآقيه ! . فتحسُّ كأن قلبها يكاد ينخلع . . وتحاول أن تُسَرِّي عنه وأن تخفِّف آلامه ، وتفديه بحياتها ، وتحوطه بكامل عنايتها . . ولكن ذلك لا يُزيل أسى محمد ولا يُذهب الحرقة من قلبه ! . طيِّبةٌ هي هذه المرأة ، لأنها تبذل قصارى جهدها في سبيل تهدئة خاطر سيدها . ولكنها هل تفلح ومحمدٌ يحسُّ في تلك الساعة بلوعةٍ لا تخفِّفُها المؤاساة ؟ . لله من عوادي الدهر ما أقساها ، وما أشدّ وقعها حين تنقضُّ على صبيٍّ في السادسة من عمره فتسلبه أمَّه ، بعد أن كانت سلبته أباه قبل ولادته ! . ويزيدُ هذا الحدثُ وقعاً ، ويكون أشد وطأة عندما يفارق الصبي تلك

الأم وهو في غربةٍ بعيداً عن الأهل والأقارب . .

نعم إن محمداً الآن غريب حقاً . . ففي اليُتم غُربةٌ عن الوالدين ، وفي الوحدة في الصحراء غربة عن الناس . . فيا للغربة العاتية ، يستوحش فيها محمد من كل شيء ، حتى لتكاد نفسه أن تتقطع من هَوْل ما حلَّ به !.

ولكنّ الله تعالى يُعينه ، فتستطيع أم أيمن أن تقوده إلى شاطىء الأمان في البلد الحرام ، قرب جدِّه عبد المطَّلب .

. . . ثم يقع خبر وفاة آمنة على جدِّ محمد كالصاعقة ، فيصدعه في كثير من آماله . . . ويغوص في نهرٍ جارٍ من الدموع والآلام ، حتى لتكاد روحه أن تفارق جسدَه لو لم يكن حفيدُه بين ذراعيه . . .

لقد آلم موتُ آمنة حماها عبد المطَّلب ، وشقَّ عليه يُتمُ محمدٍ لأَبَوَيه فاحتضنه في كنفه وجعله تحت رعايته ، وبذل في سبيله كل ما يستطيع ، فكان الجدّ ، والأب ، والأم ، لأعظمِ مَنْ أنجبتهُ البشريةُ من جدّ عظيم ، وأبٍ شريف ، وأمٍّ كريمة !.

وتتوفَّر لهذا اليتيم أسباب الراحة من جدِّه الحنون العطوف، ومن زوجه هالة أيضاً ، التي كانت ابنةَ عمٍّ آمنة المتوفاة ، فها هي ذي ترعى ابنها محمداً خير رعاية ، وتحرص عليه كل الحرص ، فلا تعتبره دخيلاً على بيتها ، بل تنزله منزلة ابنها حمزة الذي هو في مثل سنِّه تماماً ، فتقوم على تربيتهما تربيةً سويَّةً ، دونما تفرِقة في المعاملة ، ودونما تمييز في الرأفة والمحبة ، بل قد يرجح سهم محمدٍ على سهم

عمِّه في بعض الأحيان . .

ويتوفّر لليتيم هذا الجو المُشْبَع بالحنان ، في تلك البيئة الصالحة لتنشئته ، فلا يشعر باليُتْم يَقهره ، ولا بفقدِ الوالدين يُرهقه ، بل يكون له في الحضن الدافىء ما يخفِّف عنه مرارة الحرمان . . . بل لو لم تتوفَّر لمحمد محبةُ المحيطين به ، لكان حبُّ جدِّه عبد المطَّلب وحده كافياً له ، إذ تلاقت فيه محبَّتان : محبة أبيه الذي افتقده في ريعان صباه ، ومحبة ابنه المتفرد في كثير مما رافق مجيئه إلى الحياة . . ولذا أدناه منه عبد المطَّلب وقرَّبه إليه ، حتى أبعد عنه كلَّ أثر للوحشة النفسية ، وحماه من الانكماش على الذات ، وصانه من الانفعالات التي يعيشها الأطفال في مثل سنِّه ، عندما لا يجدون حولهم من يعطف عليهم حقاً ، أو يُشعرهم بوجودهم وكيانهم صدقاً . . وقد زاد من محبة عبد المطَّلب لحفيده محمد ما كان يَظْهَرُ عليه من علامات النبوغ والذكاء . . . وبفضل تلك الرعاية تمَّ لمحمد من المأكل والملبَس والمسْكَن ما تمَّ لحمزة والعباس ، فذكر الله سبحانه وتعالى هذه الفترة من حياة محمد ، وعدَّها في جُملة نِعَمِه التي أنعمها عليه ، عندما خاطبه بقوله عزَّ وعلا :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يتيماً فآوى ﴾ . فلم يُبْقِك مُشرَّداً تستدِرُّ شفقة أحدٍ من الناس . . .

وفي العادة ، والمتعارف ، أنه مهما كانت الرعاية لليتيم متوفِّرة ومهما كانت سُبل الحنان والعطف مهيّأة ، ومهما تسامتْ نفوس مَن

يُحيطون به ويَرعَونه ، فإنه يظلّ يشعر في قرارة نفسه بالحرمان والانكسار . . .

فاليتيم ـ عادةً ـ يظلُّ محروماً من شيء هام : هو فقدان الأب والأم ، أو أحدهما . وهذا الحرمان لا يمكن أن يُعَوِّضه شيء في الوجود ، لأن اليتيم يفتقد أهله في كل لحظات حياته ، وكلما رأى الأطفال ينعمون بوجود الأم والأب . . . وكلما سمع أترابه ينادون بملء جوارحهم : أمي . . . أبي . . .

ولكن الأجواء التي أُتيحتْ لمحمدٍ ﷺ في صغره لم تتركه عُرضةً لهذه العُقَد ، ولم تتركه هدفاً لحسرة الأبوة والأمومة في ظلِّ ذلك الجدِّ الذي هو فذٌّ في الأجداد ، وفي غمار الحدب الذي كان يميِّزه به جدُّه على أولاده وسائر الأولاد . .

فهو عنده أعزُّ أولاده بلا مراء ولا مداورة . . وهو عنده المقربُ الأثير ، الذي يستقطب كل مشاعر جدِّه بلا تصنُّع ، وبلا رياء . . . وهو الحبيب المفدَّى في المنزل ، والسيدُ المطاعُ المسموعُ الكلمة بين الجميع . .

فلا محذورَ عند محمدٍ في حالٍ من الأحوال ، لأن لهُ ملاذاً أميناً وحصناً حصيناً في ركنٍ ركين عند سيِّد زمزم والحَطيم . . . وكذلك لا غُصَّة عنده ، ولا حسرةَ تعتصر قلبه ، ولا حاجة به إلى شفقة ولا رحمة في كنف عبد المطَّلب ، الذي بذل كل ما في وسعه حتى يبعد عنه مرارة اليُتم وقساوته ، وعمل كل ما قدر عليه حتى يعوِّض عليه فقد

الأب والأم ، لا بدافع حبه له المغروس في نفسه وحسب ، بل ولأن حفيده محمداً كان يفرض عليه ، وعلى كل من يراه محبته لما يجد فيه من معانٍ وأسرار تجذبه إليه وتميزه عن سائر الأطفال ، ولما يرى عليه من علائم النبوغ والذكاء اللذين ينفرد بهما بين كل أترابه .

وقد كان كلما كبر وترعرع ، ازدادت صفاته وضوحاً ، وزاد تعلُّق جده به . . .

فهل كان عبد المطَّلب يعلم ، أم كان بمقدور أي أحد من الناس أن يعلم ، بأن هذا الصبيَّ سيكون ذا شأن كبير في مستقبل حياته ؟ ربما كان ذلك أو شيءٌ منه . .

فقد كان الجدُّ بصورة خاصة يشعر في قرارة نفسه بسرٍّ يحيط بحياة حفيده ، فينطلق ، وهو الفطن الحصيف ، فيقول للناس ، كلما واتتِ المناسبة :

دَعوا ابني ، فوالله أن له لَشَأْناً ! . .

فعبد المطَّلب يردِّدُ هذه العبارة باستمرار . . وكلَّما أوى إلى القيلولة في ظلِّ الكعبة ، حيث يوضع له فراش يجلس عليه ، ثم يأتي أبناؤه يتحلَّقون حوله ، هم وعليةُ القوم من رجالات قريش وعظماء مكة ، حتى إذا جاء محمد نادَى في الجَمْعِ بأن يفسحوا له الطريق للوصول إليه ، مردِّداً على مسامعهم : « دَعوا ابني يدنُ مني ، فوالله إن له لَشَأناً » ! ! . .

وظلَّت إلى جانب محمد ﷺ في تلك المرحلة من حياته أمُّ

أيمن ، الجارية الحبشية التي خَلَّفَها أبوه عبد الله ، وعاشت مع أمه ، ثم أوت به إلى جدِّه بعد موت تلك الأم ، وقد أبقاها عبد المطَّلب كي لا يشعر حفيدُه ، بفقدان كل من كان من حوله ، فكانت له خير حاضنة ، وخير عاطفة ، وخير راعية .

فقد اعتمد عبد المطَّلب على أم أيمن برعاية الصبي لأنه كان يعرف مقدار حبِّها له . ولكنه رغم معرفته بها كان يطلب منها أن تظل دائماً ساهرة عليه ، واعية ، مُتَنَبِّهة . وكانت أم أيمن تعمل بما يوصيها به الجد ، وإن كانت بغنى عن كل وصية تخصُّ محمداً ، ذاك بأن قلبها لا يحمل حُباً لأحد يزيد على حُبِّ هذا الصبي ، لأنها كانت مثله وحيدة ، محرومة من عطف الأهل ، ومن حنان الأبناء ، فكان محمدٌ المُتنفَّس الوحيد لعواطفها ومشاعرها الإنسانية . . .

وفاة عبد المطّلب جدّ محمّد ﷺ

وتتواصل أيامُ محمد في حضانة جدِّه ، ورعاية أهل بيته ، ومداراة أم أيمن ، حتى يبلغ الثامنة من عمره ، حيث تفاجئه النكبة الجديدة .

كان ذلك يومَ عادَ من زيارة له مع أم أيمن قام بها إلى أحد أقاربه ، ودخل بيت جدِّه ، فإذا هو غاصٌّ بالناس في صمت رهيب . . . وتطلَّع محمد في جنبات البيت ، فرأى جدَّه ملقىً في فراشه ، مغمض العينين ، يعاني زفرات متقطعة ؛ فأحسَّ بالخطب ، واندفع يرتمي فوق الجد ، في حين فاضت روحُ عبد المطَّلب ، التي

كأنها كانت تنتظر وصول محمد حتى تعود إلى خالقها ، وتصعد إلى عالمها . . . فحدَّق محمد بجدِّه ، فإذا هو جثة هامدة لا حراك فيها ، فصرخ بأعلى صوته : جدَّاه . . جدَّاه لا ترحل عني ، وارتمى فوق الجثة المسجاة ، باكياً دامع العين ، لفجيعة رآها أقوى فجيعة ، لأنه استوعبها جداً ولأنها حلَّتْ بسيِّد القبيلة ، وحامي سؤددها . . .

ويبقى الصبي على حاله تلك لا يمكّن أحداً من دفعه عن جده ، حتى تحين ساعة الفراق .

وتمشي قافلة التشييع ومحمد في رَكبها ، وراء النعش يمضي لمواراة جدِّه ، كلّ ما بقي له من أمل وأماني !.

ويعيش الحزن في نفس محمد ، ويزيد في أحزانه مرأى أعمامه ، ومرأى أهل مكة ، طالما كانوا يقيمون الذكرى للفقيد الغالي ، وطالما كانت تندبه المراثي ، وتتردد مآثره على ألسِنَة النساء ، وفي حناجر الرجال . . .

ولئن كان موت عبد المطَّلب قد آذى حفيده محمداً في صميمه ، فإن هذا الموت لم يكن أقل إيذاء لأهل مكة . فقد أفقدهم موته الرجلَ السيدَ الذي كان يجمع مناصب مكة ، ومناصب الكعبة كلها ، وجعل هذه المناصب تتوزع على أبنائه ، فآلت السقاية دون الرفادة إلى ولده العباس ، وتولَّى الزبير أمور الكعبة . .

ذاك أن عبد المطلب كان يعرف أبناءه حق المعرفة ، ويرى أن العباس كثير المال ، ولكنه غير أهل للمناصب ، كما كان يرى أن

أكبرهم الحارث قليل المال رغم كفاءته ، فلم يُرد أن يرهقه ويزيد من فقره .. وأن أحبَّهم إليه ، بعد عبد الله ، كان أبو طالب ، عبد مناف ، لنبله وشدَّة كرمه ، وسامي صفاته ، لذلك فقد تخيَّره هو من دون أبنائه الآخرين ، وأوصاه بأن يكفل محمداً ، بعد موته ، رغم قلة ذات يده وكثرة عدد أبنائه ، فهو أحق به من أعمامه الآخرين ، لأنَّ أم أبيه عبد الله هي ذاتها أم أبي طالب ، فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم ...

أبو طالب يكفل محمداً ﷺ

فقد رحل عبدُ المطَّلب عن الدنيا ، وآلت كفالة محمد إلى عمه أبي طالب ، فقام هذا العم بحضانته ورعايته خير قيام ، وكان يؤثره بعطفه ولطفه ومحبَّته ، فلم يكن حبه له بأقل من حبِّه لأبنائه ، بل قرَّبه إليه أكثر منهم ، تماماً كما كان يفعل أبوه عبد المطَّلب من قبل .

لقد آلى أبو طالب على نفسه ـ وهو يرى أبن أخيه فَذّاً في الأولاد ، نادراً في الصفات ـ ألَّا يدَّخر جهداً في تنشئته وفق ما تستحقه نفسه الصالحة ، وحسبما يتناسب مع ملكاته الشخصية ؛ فجعله رفيقاً له يصطحبه في الاجتماعات العامة ، ويأخذه في زياراته الخاصة ، ولا يتركه أبداً ، ما دام في البيت ، أو حينما يتجول في أنحاء مكة وجوارها ..

ولكي يزيده صلابةً ، وثقةً بالنفس ، فقد جعله يتمرس بالعمل ، فوجهه إلى رعاية الغنم ، وكان عنده إلمام بمزاولتها منذ طفولته يوم

كان في بيت حليمة السعدية . . .

وإذا كانت غاية حليمة يومذاك أن يعيش محمد أجواء الانطلاق الفسيح في البادية ، فبعثت به للرّعي مع أبنائها ، فإن غاية عمه أبي طالب ، زيادة على ذلك ، أن يعتمد على نفسه ، بكسب عيشه ، وتحصيل قوته ، حتى يكون له ذلك بمثابة الزاد الذي يمكِّنه من مواجهة أعباء الحياة وشظف عيشها . . .

على أنه مهما تكن البواعث عند أبي طالب ، فإن من إنصاف الحقيقة أن نقول إن هنالك قدرة خفية ، كانت تدفع المحيطين بمحمد لأن يوجهوه الوجهة التي تتوافق مع ما ينتظره في مستقبل حياته من ضرب المثل الأعلى للبشرية ، ليخرُجَ من هذا الجوّ مَنْ يُخرِجُ الناسَ من الظلمات إلى النور . . . فرعاية الغنم من شأنها أن تجعل الإنسان رقيقاً ، حليماً ، عطوفاً على الضعيف ، يكتسب تلك المزايا وهو يقود الحيوان الأعجم ، إلى ما فيه قوام حياته من الكلأ والماء . وقد ينفر أو يشرد بعض القطيع ، أو قد يضِلُّ عن رفاقه ، مدفوعاً بالغريزة التي تسيِّره ، فيكون دور الراعي إدناء هذا النافر ، وإعادته إلى القطيع ، حتى تبقى اللُّحمة قائمة فيه ، وحتى لا يكون فيه هلاكه ، إذا ما واجهه حيوان مفترس وراعيه بعيد عنه ، لا يستطيع حمايته وتجنيبه الموت . .

ولعلَّ في هذه الرعاية ما يؤصِّل الإنسان على روح القيادة ، فتصير لديه ملكة قيادة شؤون الناس ، والعمل على التأليف بينهم ، ومَنْعِهم من التنافر والتفرقة . . . سيما وأن الرعاة قد يكونون من فئات متعددة من الناس ؛ ولو غلب على جلِّهم أبناء الفقراء والخدم

والعبيد ، ولكنهم في البرِّيَّة ، يجتمعون سويَّة ، ويخالط بعضهم البعض ، ويتشاركون في المأكل والمشرب ، وفي التعاون على العمل ، وبذلك يمكن معرفة أحوالهم وتقويم طباعهم ، وإدراك ما تنطوي عليه نفوسهم من الضعف أو العنف أو الطيبة أو الشراسة . فإن أتيح لمن خبرَ تلك النفوس أن يتسلَّم مقاليد ، ويقوم بإدارة شؤون الناس ، فإنه ولا شك ستكون عنده النزعة لمساعدة الضعفاء والمساكين ، وسيعمل على إيصالهم إلى الحقوق التي ينعم بها أبناء الطبقات الأخرى ، حتى يتحقق نوعٌ من العدالة التي تفرضها الحياة المشتركة . .

فالمساواة في الحقوق ، والعدالة في التوزيع ، عندما يعتمدها الحاكم القدير ، والقائد الواعي ، قد تؤديان إلى تخفيف الفوارق ، وإزالة التفاوت الكبير بين أبناء المجتمع الواحد ، وقد تقضيان على أسباب الضعف والانحلال عند فئاته الشعبية ، فيقبل الجميع على البناء الاجتماعي ، ويعمُّ التعاون بينهم ، وتسود الالفة في نفوسهم ، وتغمر المحبة قلوبهم . . .

فبمثل هذه القيَم يزول كل سبب لضعف الأمة ، إذْ لا يمتاز فردٌ على آخر إلا بمقدار ما يعمل لخدمة المجتمع وتأمين الصالح العام .

وإذا كانت حياة الأوطان والمجتمعات ، تقوم عل هذه المفاهيم الرئيسية ، فإن ما ينطبق على الوطن أو المجتمع ينطبق على العالم بأسره ، في سعيه لتحقيق مقاصد الإنسانية وغاياتها السامية ، التي

يتحقق معها في النهاية الرخاء والرفاهية في ربوع الأرض من أطرافها .

من هنا كانت حكمة الله البالغة ، التي جعلت كثيراً من النبيِّين والمرسَلين ، رعاةً أو عُشراء لرعاة من أجل معرفة كيفية سياسة المجتمعات . .

فكان موسى ، وداود ، وشعيب عليهم السلام رعاة أغنامٍ . وأول من حدب على المسيح عيسى ابن مريم سلام الله عليه ، واجتمع حول أمِّه في المغارة يوم مولده ، رعاة بيت لحم .

وعلى غرار تلك الثلَّة الصالحة ، كانت لمحمد بن عبد الله ، تجربةُ الرَّعي ، منذ نعومة أظفاره ، ليكون في يومٍ ما ، أعظم المتمرسين بمهمة القيادة والسياسة ، وأعظم العاملين على توجيه الشعوب وإرشادها وتوجيهها إلى ما فيه خيرها وحياتها . .

مُحَمَّد الفَتَى

وقد ظلَّ محمد يعمل راعيَ غنم حتى بلغ الثانية عشرة من عمره !

ثم تطلَّع حواليه . . فإذا أكثر الناس في مكة يعملون بالتجارة بالنظر إلى موقع بلدهم الجغرافي ، حيث تمر القوافل فيها لتذهب إلى اليمن والشام أو لتعود منهما . وقد دفعهم لهذا العمل ، وجود الكعبة في مكة ، وهي البيت الذي يقصده الناس من أنحاء شبه الجزيرة العربية كلها للحجّ ، وأداء فروض العبادة ، ثم ينصرفون بعدها لعقد

الندوات وإقامة أسواق الشِّعر والخِطابة ، فتزدهر في تلك البقاع تجارة البيان إلى جانب تجارة البضائع والسلع . .

إن هذه المزايا الثلاث : وجود الكعبة المكرمة ، والموقع الطبيعي ، والاتجار بالأموال وفنون الأدب ، جعلت الموسرين من أهل مكة والقرشيين خاصة ، ينصرفون إلى المتاجرة ، متجاوزين بلدهم هذا إلى الآفاق البعيدة في رحلتي الشتاء والصيف كما أسلفنا سابقاً . .

أجل ، أدرك محمد بن عبد الله ذلك ، وإن كان ما زال في أول تفتُّح شبابه على الحياة ، فأراد أن يعمل في التجارة من أجل الكسب الحلال . .

ولكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ .

وفكَّر في الأمر . . . وانتظر الوقت الذي يؤاتيه لتحقيق رغبته تلك ، وراح يتحيَّن فرصة تنفيذ ما فكَّر فيه بتعقُّل وتبصُّر . .

وجاءت فرصة البَوح بفكرته ، عندما رأى عمَّه أبا طالب يتهيَّأ للخروج في تجارة له إلى الشام ، فعرض عليه مرافقته في رحلته ؛ وكأنَّه بذلك نبَّهه إلى شيء هامّ أثار عنده عاطفة الأبوَّة وصعوبة الفراق . . فنظر عمه العطوف إلى وجهه البريء ، وإلى عوده الطريّ ، فتحركَ عنده الحنان وإن لم يدهش لما أبداه فتاه من رغبة ، ولكن ماذا يفعل ؟ هل يمكنه أن يرفض طلبه ، وهو لا يريد أن يمسَّ إحساسه بسوء ، أم يوافق رغم أن الموافقة عَلى حَمْلِهِ إلى الشام ، تُعَرِّضه إلى وعثاء السفر في الصحراء ، وإلى قساوة السير فيها .

وهل يقدر هذا الغلام على تحمُّل تلك الصعاب وهو لا يعرف من أمرها شيئاً ؟ . .

ويحار أبو طالب بما يُجيب ابن أخيه ، وإن كان قد أيقظ فيه الشعور بعدم تركِهِ وعدم مفارقته ؛ ورأى محمَّدٌ عمَّه صامتاً مفكِّراً ، فخشيَ الرفض وعاود الطلب .

فرأى أبو طالب أن لا مناص من مصارحته ، فأقبلَ عليه ـ بحنان الأب الرؤوف ، وبحكمة الرجل العاقل ـ يشرح له صعوبة السفر وعناء قطع المسافات لِيَخْبُرَ عَزمَهُ ، فظلَّ محمدٌ ﷺ على عزمِهِ متمسكاً بموقفه ، مُصِرّاً على مصاحبة عمِّه ، مظهراً كامل استعداده لتحمُّل كل تعب وعناء ؛ وتحركت عند أبي طالب مخاوفه على ابن أخيه . . فهو ـ رغم عواطفه نحوه ـ لا يريد تعريضه للأخطار ، ولا يجب أن يخرجه من مكة لمخالطة الناس ، لأنه يخشى عليه منهم ، ويخاف عليه كل شيء . .

فحاول أبو طالب من جديد إقناع ابن أخيه بالعدول عن رأيه ، فلم يجد عنده إلَّا التمسُّك والإصرار . . فصارحه عمُّه بمخاوفه . . . وأبدى لابن أخيه مقدار تعلُّقه به ، وحرصه على سلامته ؛ وبيَّن له أنه يخاف عليه وأنه يتردَّد في موافقته على رأيه . . ثم راح أبو طالب يُمَنِّيه بالتريُّث حتى تتقدَّم به السنُّ وتشتدَّ منه القوَّة ، وحتى يصير قادراً على مواجهة الصعاب وتحمُّل مشقات السفر ، فيصطحبه في العديد من رحلاته . . فكانت محاولات أبي طالب للتأثير على عواطف ابن أخيه جميعها غير كافيةٍ كي تثنيه عن عزمه ! . .

وجد أبو طالب نفسه أمام غلام أين من رأيه وقوّة عزيمته آراء الحكماء وصلابة الشجعان ، الأمرَ الذي كان يُمكِن أن يوقع أبا طالب في الارتباك لولا عاطفته المتّقدة ، وحرصه على سلامة ابن أخيه . . ولذا ، وازنَ بين موافقته ورفضه ، فرأى أن السفر متعب ، ولكنَّ اصطحابَ محمد أولى ، لزيادة المحافظة عليه من جهة ، ولجعله يتمرَّس بالتجارة ، رغم الأتعاب والمشاقِّ من جهة ثانية . ومصاحبته أكثر حِرصاً عليه من إبقائه راعيَ غنم ، قليلَ الكسب والمال ؛ فضلاً عن أن الرحلات إلى البعيد تمكّنهُ من اكتساب الخبرات ، وتؤهله لمواجهة أمور الحياة على أكثر من صعيد .

نعم . . قارن أبو طالب بين مضارِّ سفرِ محمدٍ معه ، وبين منافعه ، فرأى أنَّ خوفه عليه وضرورة اصطحابه للمحافظة عليه يشكّلان السبب في الاستجابة لرغبته . فهو ـ على كل حال ـ قادرٌ على إزالة جميع المخاوف بجعلِ محمدٍ إلى جانبه ليمنعه دوماً بقوّته ، وليخفّف عنه بنفسه المشاق . .

ثم انتهى أبو طالب من التفكير ، وعزم على ألاّ يخذل ابن أخيه فيما يطلب ، فأدناه منه وقبّله ثم استحثّه على التهيُّؤ للرحيل ، مصمِّماً على أن يقيَهُ بنفسه ، وأن يُسكِنه قلبه في كل حلٍّ وترحال . .

وها هوذا ركب القافلة يقطع بسيره البواديَ والبراريَ والقفارَ ، ويجتاز المسافات الطِّوال ، مارّاً بمدْيَن ، ووادي القرى ، وديار ثمود . .

وكان محمد يسمع أثناء ذلك رجال القافلة يتحدثون عن المنازل

التي كانت في هذه الأماكن ، ويسردون أخبار أهلها فتستهويه هذه الأخبار ، ويُقبل على الرواة مصغياً بكل انتباه . .

كيف لا ، وهو يستمع إلى ما حلَّ بأهل مدين ، وإلى ما نزل بقوم ثمود ، وإلى ما أصاب الأمم السالفة من آيات الخسف والتدمير والطوفان وغيرها ! . .

ويشعر عمه أبو طالب بأن أحداث الماضي تسرّي عن حبيبه المفدَّى . . وتبعد السأم والضجر عن نفسه ، فيقصّ عليه كل ما يعرف من تلك الأحداث ، ويحدِّثه بكل ما يحفظه من أخبار الرواة ، حتى تقطع القافلة مسافات طويلة وتصل إلى بُصرى من أرض الشام . وفي بُصرى أناخت الرجال رِحال الجمال والدواب ، وأنزلت عن ظهورها الأحمال والأثقال ، ثم قدَّمت لها الماء والعلف ، حتى إذا فرغوا من أمرها ، مالوا إلى تدبير الشؤون الأخرى ، حيث راح يقوم كل واحد بما أُوكل إليه . إلاَّ أبو طالب ، فقد آثر اصطحاب ابن أخيه إلى الظِّلِّ كي يستلقي ويستريح من وعثاء السفر ، وحَرِصَ عليه قبل أن يفكِّر بنفسه أو بالآخرين . .

وكان القوم يعلمون مقدار حبِّه له ، وتعلُّقه به ، فلم يعترضوا سبيله ، بل خلَّوه وشأنه ، وانصرف كل واحدٍ منهم إلى عمله الشخصي . . .

اضطجع أبو طالب بجانب ابن أخيه ، في ظلِّ شجرة وارفة ، تقوم إلى جانب الصومعة الشهيرة القابعة على رابية في تلك الناحية ؛

هذه الصومعة التي يعرفها رجال القوافل أشد المعرفة براهبها الجليل ، الذي قضى حياته في العبادة ، وانصرف إلى التأمُّل ، غارقاً في بطون الكتب يغترف منها ما يزيده علماً ومعرفة . .

ويبدو أن أصوات البهائم والضجيج الذي أثاره قدوم القافلة ، قد حَمَلا راهب الصومعة على إلقاء نظرة ، من خلال نافذته ، إلى ما يدور بالقرب منه ؛ فوقف يتأمل دبيب الرجال ويراقب حركاتهم وهم يروحون ويجيئون وقد شغلتهم الغايات والمطالب ، إلاَّ واحداً منهم ، يبدو عليه جِدٌّ ووقار ، اكتفى من هموم الدنيا ، في تلك الساعة ، بالاسترخاء إلى جانب غلام يستلقي في الظل ، وعيناه لا تحيدان عنه ، بل تُغرِقانه بالعطف والحنان . . .

استرعى هذا المشهد راهب الصومعة ؛ فتأمَّله مليّاً . . وحدَّق فيه كثيراً . . . فرأى على الغلام فيضاً روحانياً . . ورأى على الرجل مسحةً من المشاعر النبيلة يحوط بها غلامه وهو مستلقٍ في ظل الشجرة . . . فتسمَّرت عيناه بالمشهد الرائع ، ووجد نفسه منجذباً إليه ، فأطال به الوقوف وراءَ نافذته ونسيَ كلَّ ما حوله . . وأحسَّ من وراء القضبان الحديدية بأن دافعاً خفياً يلحُّ عليه بلقاء الرجل وغلامه ، لأنه يعلمُ ما لا يعلمُه غيرُه ، ويكتمُ معلومات لعلامات لا يفشيها لسائر الناس . . فما أسرع أن استدار من وقفته ، ونادى واحداً من رعيَّته بأن يذهب لمقابلة هذين الشخصين ودعوتهما إليه . . ونزل رسول الراهب حتى وصل إلى مكان أبي طالب ، فألقى عليه السلام ثم قال له :

ـ إنَّ سيِّدي الراهب بحيرى يرغب في لقائك مع هذا الغلام ؛

فأرجو أن تتفضَّلا بزيارته في داخل الصومعة . . .

وتعجّب أبو طالب لهذه الدعوة . . .

وله حقُّ التعجُّب ، لأنه لا يعرف في رحلاته السابقة أن الراهب بحيرى يدعو أحداً لمقابلته ؛ وإن كان لا يتخلَّف عن استقبال كل من يقصده لأمر من الأمور ! . .

ويجيب أبو طالب رسولَ الراهب بأنه سيُلبِّي دعوته بعد تأخُّرٍ قليل ، لأنه سينتظر حتى يستفيق ابنه من غفوته في هذه القيلولة . .

وبعد فترة قصيرة ، صحا محمدٌ ، وجلس منتبهاً من غفوته ، فقام عمّه واصطحبه معه إلى الصومعة حيث تلقَّاهما الراهبُ بحيرى بالتأهيل والإكرام ، وأدناهما منه ، هاشّاً باشّاً ، مُرَحِّباً مُستأنِساً بقدومهما أشد استئناس . . .

وبعد لحظات الاستقبال ، سأل الراهبُ الرجلَ الجليلَ عمَّا جاء بهما إلى هذه الناحية ، وعمَّن يكونان ، فلم يتأخر أبو طالب أن يعرّف بنسبه ، وأن يبيِّـن مكانته في قومه ، ومكانة ابن شقيقه من نفسه وأن يُظهر حرصه على ابن أخيه ، الذي دفعه إلى اصطحابه في تلك الرحلة . . .

وأراد الراهب أن يُشعِرَهما بما يلقيان في نفسه من إجلال وإكبار ، فانصرف إلى الحديث عن شؤون الكون وآياته ، وعن العوالم الفسيحة التي يحتويها هذا الكون ، موحياً إليهما ـ من حيث لا يدريان ـ أنه عالم في الفلك والتنجيم ؛ ثم يُعَقِّبُ على ذلك بأن هذا

النظام الهائل ، إنما هو من صنع الله وقدرته ، ولا يمكن لقوَّة غير قوَّة الله أن تقيمَه بما فيه وبما هو عليه من روعة ودقة . . .

ثم انطلق الراهبُ بحيرى ـ على مدى ساعات ـ يجول في أجواء العلم ، ويتنقَّل في آفاق الإيمان ، حتى بدا جليّاً أنه يرمي إلى غاية معيَّنة ، لم يتوانَ قبل نهاية حديثه من أن يفصح عنها بكل وضوح وصراحة، وبما لا يدع مجالاً للشك أبداً وذلك عندما استحلف محمداً ﷺ قائلاً :

ـ استحلفك بحق اللاَّتِ والعزَّى الا أخبرتني عما أسألك. .

ولم يكن مُراد الراهب بحيرى استحلاف الغلام بأوثان ، فهو النصراني الذي يُدرك تفاهتها ، وحقارة شأنها ، ولكنه يعرف أن قريشاً تقيم العبادة لها ، وهذا الغلام أحد أبنائها ، فلا يمكنه أن يُؤَثِّر فيه إلا من خلال معتقده الديني . لذلك كان استحلافُه له باللات والعزى . .

ولكنَّ جوابَ محمد أتاه صريحاً ، يُزيل كلَّ ظن يخالطه بشأنه ، ويؤكد العلم الذي عرفَه من بطون الكتب السماوية ، فسمعه يردُّ عليه بثبات :

ـ لا تسألني باللاَّت والعُزَّى شيئاً ، فوالله ما أبغضتُ شيئاً قط بُغضَهُما . .

وطابت نفس الراهب بحَيرى ، وهو يُصغي إلى محمد . . ففي حَلْفِه ما يُبعده عن وثنية آبائه . إنه يمين المؤمن بفطرته الصادقة ، وإيمانه العفوي . . إنه الحَلْفُ الحق ، لأنه الحَلْفُ بالله . . وأي يمين

أعظم من هذا اليمين الذي يرفض تكريس الأصنام الجامدة التي لا تملك ضَراً ولا نفعاً ! . بل أي حَلْفٍ أعظم من هذا الحَلف الذي يُنكر تلك الأوثان التي أقامها العربان أرباباً ؟ . . .

وإنه قسمٌ بالله ، النابع من النفس الإنسانية الصافية ، ذاك الذي أقسمه محمدٌ مُستنكراً على راهب الصومعة استحلافَه بالأوثان . .

استأنس الراهب وارتاح خاطره ، فعدل عن استقسامه وقال لمحمد :

ـ والله إلاَّ أخبرتني عما أسألك عنه .

فقال محمد بلهجة الصادق ، الواثق : سَلْني عما بدا لك . .

وسأل الراهبُ بحيرى محمداً عن كل ما يتصل بحياته : عن أبيه ، وأمه ، وأقاربه ، وعن إرضاعه ، وعن حضانته ، وما كان يقوم به من أعمال قبل سفرِه ، وعن سبب خروجه مع عمه ، حتى ألمَّ بكل تفاصيل حياته ، ودقائق أمورها ، من خلال الاجابات التي كان يُطلقها محمد أو يردَّ بها على الراهب بكل صدقٍ واتِّزان ، وكأنَّه في موقفه ذاك شيخ مجرِّب خَبَرَ السنين وأحوالها ، وليس غلاماً في الثانية عشرة من عمره ! .

واستقرَّ في رأي بحيرىٰ أن الأمارات التي تظهر على هذا الغلام ، وأن ما خَبَرَهُ منه عن حياته ، إنما هي الدلالات التي يُفتَرضُ أن تصاحب الإنسان الذي سيُبعثُ نبيّاً كما عرفها من علمه الذي اكتنزه من التوراة والإنجيل . .

ولا نَظُنَّنَ أن بحيرى ، رجلَ العلم ، والراهب المُسنَّ كانت له القدرة على أن يجرؤ بالبَوح بما انتهت إليه قناعته ، وأن يعلن عن غلامٍ بأنه سيكون نبيّاً . . . فهذا أمر خطير ، رهيب تترتَّب عليه مسؤوليات جسام ، خاصة وهو يعرف العداوة التي يُضمِرها اليهود للنبي المُنتَظَر ، وأنَّ أبسطَ مظاهرها خوفُه منهم على حياة هذا الغلام ، وعلى حياته هو ، إن دَروا بعلمه هذا والجهر به . . ولذا آثر بحيرى أن يسكت . . إلَّا أن ضميره لم يطاوعهُ بإخفاء كل ما يَعلم ، فاكتفى بأن يُشير على أبي طالب بالاهتمام بابن أخيه ، وبإحاطته برعاية خاصة ، وبحفظه من كل ما قد يُسبِّب له الأذى ، لأنه كما قال لأبي طالب سيكون لهذا الغلام ، في مقبل أيامه ، شأن عظيم . . وزاد على ذلك بأن نصح له بالعودة بابن أخيه إلى مكة ، لأن عودته خيرٌ له وأبقى . .

فما الذي دفع الراهب بحيرَى للإفصاح عن خوفه على ذلك الغلام ، والنصح لعمه بإعادته إلى مكة يا ترى ؟ . .

إن من الثابت في التوراة والإنجيل ، قبل التحريف الذي أدخلته عليهما الاسرائيليات، أن نبيّاً يبعث بعد عيسى ابن مريم (ع) وقد دلَّ الكتابان على صفاته وعلاماته وجميع مميّزاته . . وكان أهل العلم من اليهود والنصارى أدرى الناس ببعث ذلك النبيّ . فإذا اجتمع العلم الصحيح ، والإيمان الصادق لأحد أهل العلم ـ مثل الراهب بحيرى الذي اسمُه مشتق من الكلمة الآرامية بحيرا ومعناها المُنْتَخَب ، فهو لقَب له ، كما ورد تفسيرها في دائرة المعارف العربية للبستاني ـ فإن هذا العالم المؤمن بما يعلمه ، قد يهدي غيره إلى الحقيقة الجلية ،

ويدله على امارات النبوَّة وعلائمها . .

والحدثُ الهامُّ في لقاء بحيرى بمحمد هو إيمان الرجل النصراني بل الراهب النصراني بحقيقة النبوَّة التي ستكون . . فعندما بشَّر هذا الراهب الجليل بأنه سيكون لهذا الغلام شأن عظيم ، فإنه قد انطلق من علمه بالبشارة التي احتوتها الكتب السماوية . . أما الحكمة الإلٰهية من ذلك التبشير ، فتكون بالتأكيد على أن النصرانية هي التي تبشِّر بالإسلام كنتيجةٍ حتميَّةٍ لدين الله الواحد ، إذ كما جاءت البشارة في التوراة بعيسى عليه السلام وأنكر اليهود نبوَّته ، كذلك جاءت البشارة في التوراة وفي الإنجيل بأحمد عليه الصلاة والسلام ، فلم تنكِرها النصرانيَّةُ المؤمنةُ ، يوم أفصحت بذلك على لسان الراهب بحيرى . . هكذا تتجلى حكمةُ الله البالغة . . فإن أهل العلم من النصارى هم أوْلى بمعرفة محمد ، وبمعرفة الشأن العظيم الذي سيكون له في الناس ، لأن العقيدة الحقيقية في ذلك الوقت هي النصرانية . .

وهكذا هيَّأت حكمة الله تعالى اجتماع الراهبِ النصرانيِّ الحكيمِ بمحمد الذي كان له ذلك الشأن فيما بعد . .

أما حادثة الغمامة التي يوردها كُتَّاب السيرة ، والتي قيل بأن الراهب بحيرى رآها تظلِّل الشجرة التي يستلقي تحتها الغلام قبل أن يعرِفه ، فقد جعلها المؤرِّخون المسلمون سبباً لذلك الاجتماع ، وسواء أكانت الشجرة أم الغمامة ، أم هما معاً ، فإن ذلك يبقى دليلاً

على الحكمة الإلٰهية التي شاءها الله تعالى أن تكون النصرانية هي المبشِّرة بمحمد ﷺ .

وسيّان بعد ذلك إن صحت تلك الرواية للغمامة أم لم تصح ، فلا فرق في اعتبارها معجزة أو غير معجزة ، ما دام أن المعجزات ، هي براهين على قدرة الله التي يؤتيها لأنبيائه ومُرسَليه ، لتكون دلالات على مكانتهم العظيمة ، تمكِّنهم من البرهنة على صدق حملِ الدَّعوة إلى الله من أجل إيصالها إلى الناس ، سائر الناس وليست الغمامةُ الظاهرة الأولى التي تنبىء عن قدرة الله ، بل هناك أحداث عظيمة رافقت حياة الكثيرين من مبعوثي السماء ، رآها الناس بأمِّ أعينهم فآمن مَنْ آمن ، وكَفَرَ مَنْ كَفَر . . فموسى عليه السلام مثلاً ضرب البحر بعصاه ، فانشقَّ عن طريق عَبَرَ عليها قومُه إلى برِّ الأمان من ظلم فرعون الذي كان يلاحقهم هو وجيشه كي يقضي عليهم .

ومريم ابنةُ عمرانَ عليها السلام كان رزقها ينزل عليها من السماء وهي معتكفة وحيدة في محرابها وكان يجد زكريا عليه السلام في ذلك الرزق فاكهة الصيف أيام الشتاء ، وفاكهة الشتاء وقت الصيف .

وعيسى ابن مريم عليه السلام تكلَّم في المهد صبّياً وأبرأ الاكمهَ والأبرصَ ، وأحيا الموتَى . . تلك كلها قدراتٌ من صنع الله لا تُعَدّ ولا تُحصىٰ ، فلا عجبَ إن أظلَّتِ الغمامةُ محمداً ، ما دامت عينُ اللهُ ترعاه وتُعِدُّه للأمر الجليل . .

إذن ، فالذي يهمنا التأكيد عليه أيّاً كانت الأمور التي حصلت

أثناء لقاء الراهب بمحمدﷺ، هو أن تلك الرؤية الصافية التي حفظتها صفحاتُ التاريخ للرّاهب بحيرى ، حين أعلن بأن محمداً : سيكون له شأن عظيم كما أثبتتها فعلاً حياة محمد فيما بعد فتكون الرؤية قد صدقت وصدق صاحبُها . . .

أجل لقد تمَّ اللقاء الذي أراده الله ؛ وغادرت القافلةُ بُصرىٰ إلى الشام ، حيث سارع أبو طالب إلى بيع ما كان يحمله ، وقفَلَ راجعاً بابن أخيه إلى مكة ، وفي ذهنه نصيحة الراهب لا تُفارقه . . . نعم ، عاد أبو طالب من رحلته إلى الشام ، غير مبالٍ ، ولا عابىء ، بأموال الأرض يُصيبها ما دامت هذه الأموال لا توازي شعرة في رأس ابن أخيه عبد الله ، ذلك الفتى الذي عليه حمايتُه من أهل السوء الذين قد يقدمون على قتله فيما لو عرفوا أنه هو صاحبُ الشأن العظيم والنبيُّ الكريمُ ، كما قال له الراهب بحيرى الجليل ، الذي حمل له في نفسه ، ومنذ التقاه ، كل محبة وتقدير . .

عادَ أبو طالب إلى مكة بمال غير وفير من تجارته ، ولكنَّ رعايته لابن أخيه كانت عنده تُعَوِّضُ عليه ، وتُشْعِرُهُ بالقناعة والاطمئنان . .

وكان محمدٌ الفتى ، ابنُ الثانية عشرة ، يرى اهتمامَ عَمِّه الزَّائدَ به ، فيعيش في أجواء حُبِّهِ الكبير الذي يفوق حُبَّه لأبنائه فيهنأ في كنفه ويُقيم قرير العين ، راضي النفس ، لا يُزعجه إلَّا سببٌ واحد ، وهو كثرة عيال عمِّه ، وقلَّةُ ماله ، فيلجأ إلى العمل كي لا يكون عالة على العائلة التي تحتضنه ، وكي لا يزيد في فقرها وحاجتها ، فيُقبِل على رعاية مواشي عمِّه عدة سنوات . ولكنه لا يرى نفسه قادراً على تأمين الدَّخل الذي يُعين ذلك

العم بما فيه الكفاية ، فيعود إلى البحث عن وسيلة أخرى ، تكفل له الحصول على عملٍ يرضيه ، ليحصِّل منه أجراً أوفى . . . ويومَها أيضاً تعاود مخيلتَه الرغبةُ السابقةُ في تعاطي التجارة . . ولكن كيف يمكنه ذلك ، وكيف يصارح عمَّه به وهو لا يملك رأس المال ؟ فيومَ خرج مع عمِّه أبي طالب في تجارة له إلى الشام قبل سنوات ، كان يرغب في التجربة للوصول إلى عالم الخبرة في التجارة ، فعرف بعض ما يعود إلى هذه المهنة ، أما الآن فلا مجال إلى الرحلات التجارية بدون رأس مال ، وما عليه إلا أن يسعى إلى مزاولتها في أسواق مكة الداخلية ليزداد خِبرَةً ومراساً . .

ونزل محمدٌ إلى تنفيذ ما اعتزمه فاتصل ببعض تجار مكة يعرض عليهم رغبته في العمل معهم . .

ولقيَ ممن جاءهم الترحيب والقبول كأمرٍ طبيعيّ لأن الجميع في مكة ـ تجاراً وغير تجار ـ يشهدون له بالصدق والأمانة ، ويقرون له بلطف المعاشرة ، وحُسن سلوكه ، رغم حداثة سنِّه ، فكيف لا يلقونه مرحِّبين متيحين له العمل وباذلين له العون ؟ .

وزاول محمدٌ التجارة عند عدة تجار . . ولكنه لم يسترحْ إليهم جميعاً ! . . .

فالتجار هم التجار في كل زمان ومكان . . همُّهم الوحيدُ جنيُ الأرباح وتكديس الثروات بكل وسيلة . أمّا كيف يدخل عليهم المال ، وكيف يحصلون على الأرباح ، فهذا ما لا يُقيمون له اعتباراً . فهم لا

يأنفون من إقامة المضاربات ، واحتكار السِّلع ، ولا يتورعون عن رفع الأسعار ، وسلب الناس أموالهم بألاعيب تجارية مختلفة . . وليس عندهم وازع من ضمير ، أو خوف من حاكم ، فهم سادة البلاد الفعليين ، يتحكَّمون في رقاب العباد وفي لقمة عيشهم ، تحميهم قوة الأموال ، فلا يأبهون لشيء ولا يهمُّهم إلا ما يعود لحساباتهم ومعادلاتهم . . يفعلون ذلك كله تحت ستار المهنة الشريفة ، أو باسم الحرية التجارية . .

وكان محمد ﷺ يأنف تلك الأساليب المخزية ويرفض مثل تلك الأفعال الشنيعة ، فيتساءل : هل يمكن لإنسان ، مهما بلغ به الجشع والطمع ، أن يعمل على امتصاص دماء الناس ، بطريقة البيع والشراء ، وتحت شعار مبادلة السِّلع المباحة ؟.

لا ، لا . . فمن المستحيل على النفس الإنسانية الأبيَّة أن تُقِرَّ ذلك وتَقْبَله . . ولا يمكن لمثل حامل نفسيَّة محمد ﷺ إلَّا أن يرى التاجر إنساناً نظيفاً ، عادلاً ، يعمل في التجارة بأمانة واستقامة ، ويسعى إلى الربح بقناعة وعدالة . .

لقد رغب محمد في التجارة ، لأنها ـ في حُسبانه ـ تمكِّن الإنسان من كسب عيشه من وجوه الحَلال ، فلما خبرَ أهلَها كَرِهَهم ، وكرِهَ ما هم عليه من سوء تصرف ، حتى عاوده الحنين إلى رَعْي الغنم لولا أن التقى مصادفةً بالسائب بن أبي السائب الذي يعمل في التجارة ، على خلاف غيره من تجار مكة ، إذ يحرم على نفسه الاتِّجار

بالخبيث من البضائع ، ولا يخدع من لا يجادل في الشراء ، ولا يظلم من ليس عنده خبرة في البيع ، بل يقوم في تجارته ، على الصدق والأمانة ، ويحرص على توفير حاجات الناس بأسعار معتدلة وبأرباح مشروعة . .

وجد محمدٌ هذه الصفات بابن السائب ورأى فيه ما يُلائم أخلاقه الشريفة ، فأقبل على مشاركته لأنه رآه قد أخذ على نفسه عهداً بأن يؤمِّن لمكة متجراً أميناً مستقيماً بعيداً عن أعمال الغش والمخادعة ، حيث يتمكن أهل هذا البلد الأمين والوافدون إليه في موسم الحج من أنحاء بلاد العرب كلها ، أن يجدوا فيه ثقةً ونزاهةً عند شراء الحاجيات أو بيعها . .

أعجب محمداً هذا النهجُ القويم في الأعمال التجارية ، فراح يعمل مع ابن السائب في نطاق مكة ، وأظهر كل يقظة وبراعة واهتمام ، بل ضرَبَ مثلاً أعلى في عمله حتى صار فريداً في صفاته ، ومميَّزاً في كل مزاياه . .

ولكن محمداً ﷺ لم يكن جلُّ اهتمامه في تلك الأثناء ، منْصَبّاً على العمل وحسب ، بل كان نظره يتطلَّع دوماً إلى معرفة ما يدور حوله ؛ فقد كان يذهب إلى الأسواق المجاورة : كعكاظ ، ومجنَّة ، وذي المجاز ، حيث تقام - إلى جانب الاتجار بالسِّلع والبضائع - أسواقُ الأدب ، والبلاغة ، وندوات البيان . .

وهناك كان يشهد المباريات بين الشعراء . . ويسمعهم يتغنّون

بالفخر والغزل ، ويتبارون بذكر الأنساب ، ويتباهون بالكرم والشجاعة . .

كما أنه كان يستمع إلى إنشاد المعلقات ، ويصغي إلى الخطباء ، ثم يعرض ذلك كله على بصيرته ، فتلفظ منه ما تلفظ ، وتُعجب بما هو جدير بالإعجاب مما يوافق الحقائق البديهية التي تنبع من أعماق نفسه . .

ولشدَّ ما كان يسترعي انتباهه ، في تلك الندوات والمباريات ، آراء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، وهم يرفضون وثنية العرب ، ويعلنون بديلاً عنها تعاليم موسى وعيسى ، نَبِيَّي الله ورسُولَيْهِ إلى الناس بالدين والتوحيد . . فتجذبه أقوالهم ، وتشده أكثر من سواها ، فأخذ يميل إلى التفكُّر والتدبُّر ، وتاقت نفسه إلى العزلة والانفراد والتأمُّل والتبصُّر . .

وهكذا كان محمد يزن تلك الدعوات بميزان قلبه وعقله في خَلَواته . فيراها خيراً من وثنية غرق فيها أبناء قومه . . .

ولكنها لم تكن تؤمِّن الاطمئنان لقلبه ، فيعود إلى التفكير والتأمُّل والتساؤل عما يجب أن تكون عليه الحقيقة ! . . وتأتيه القناعة ، بعد كل تأمُّل وتفكير ، بأن وثنية العرب باطلة حقاً ، ويجب تسفيهُها وترذيلُها . . . ثم يقتنع بأن دعوة أهل الكتاب من يهود ونصارى ، هي أفضل بكثير من تلك الوثنية الزائفة ، ولكنها لا تستأصل الأوثان من القلوب ، ولا تطمئن النفوس إلى كثير مما دخل

فيها من شوائب الإسرائيليات . . وإلّا فلِمَ هذا التناحر والاختلاف بين اليهود والنصارى إذا كانوا يؤمنون بعقيدة الحق ؟ . . فكَّر بأنه لا يجوز أن يكون بينهم أدنى تفرقة ، ولا يجوز أن يحمل بعضهم لبعض حقداً أو ضغينة ، إذا كانوا يدعون إلى إله واحد وإلى عدلٍ أرضيٍّ بين الناس . . والذي يبدو له منهم أنهم على خلاف ذلك تماماً . . .

لقد كان محمد يرى ، ويشهد ، ويسمع ، ويحاور في ذلك كله ، ثم يسأل نفسه : وأين الحقيقة ؟ . .

فلو اهتدى إلى هذه الحقيقة لاطمَأَنَّتْ نفسه ، وذهب عنه ما يقلقه ؛ فما عليه إلا المثابرة في التفكير ، والتزوُّد بالمعرفة من أجل الوصول إلى الحقيقة التي يسعى لإدراكها . . .

ولئِن كان عملُه ، أو كانت انشغالاتُ باله ، تأخذ قسطاً كبيراً من جهده ، ومن وقته ، فإنها لم تكن لِتَصْرِفَهُ عن مشاكل البيئة التي يعيش فيها ، وهي مشاكل كثيرة وعديدة ؛ تُثير في قرارةِ نفسه السخط والحسرة والتألُّم مما يرى ، وما يدور مِنْ حوله من مشاكل ومتاعب ، وما يحيط به من مساوىء ومصائب . . .

إنها مشاكل الفساد والنفاق والفسق والفجور . . فالناس منكبون على اللذائذ الرخيصة القذرة ، مندفعون إلى السفاسف الزائفة ، يتعاطون الدعارة ، والربا والفحشاء ، ويتناحرون على أتفه الأسباب ؛ ينكرون ولادة البنات ، ويقومون بوأدهنَّ ، تُكبِّلهم العصبية ، وتشدهم حبال القبلية ، فيحمون الظالم ما دام ابن عشيرة ، ولا يأبهون للمظلوم

إذا كان لا ينتمي إلى عصبة تحميه . .

يرى محمدٌ ذلك كلهُ ، ويشهد مخازيَ القوم ، فتشمئز نفسه وتغرق بالهموم والقلق من كل ما يرى ويشهد ، ويفتش عن سبيل يريحه فلا يجد السبيل إلا بالخروج للفلاة ، فهو ينتظر قدوم الليل حتى يهجر فراشه ، ويرتحل عن الناس إلى الوحدة ، في واحة الهدوء ، وأمن السكينة . .

وهناك في الأرجاء الفسيحة ، وفي هدأة الليل البهيم ، يتطلع إلى ما حوله ، فلا يرى شيئاً مما يدور في بيوتات مكة وأوكارها ، بل يرى ويتأمل عوالم مليئة بالكواكب والنجوم ، حافلة بالخفايا والأسرار ، ينتظمها كون واسع ، جلَّت القدرة الخفية التي أنشأته وسوته على أحسن نظام وأدقّه . .

ويحسّ محمد وهو يتأمل ذلك الكون ، تفاهةَ أبناء قومه ، ومقدار حقارتهم وتفسُّخهم الخُلُقيّ . . فهم لا يحفلون بشيء مما في هذا الكون ، ولا يكلفون أنفسهم التطلُّع إليه والتعرف على أسراره ، بل ينغمسون في حمأة الرذائل والجهل ، وهم في الضلال يعمهون . .

مُحَمَّد الشَاب

وعندما كان محمدٌ يعود إلى حياته اليومية ، فإنه لم يكن يكتفي بالابتعاد عن مجاراة القوم فيما يفعلون ولم يكن يرى أن هذا الابتعاد يجب أن يكون باعثاً على الانصراف عنهم ؛ بل كان يفكر فيما يصلح

حالهم ولذا كان لا يتوانى عن توعية الشباب باذلاً قصارى جهوده في النصح لهم وإرشادهم، منكراً عليهم ما هم فيه من جهل وجاهلية ومحاولاً ردعَهم عن التصرفات الرديئة ، التي تمجُّها كل نفس أبيَّة ، ويأباها كل ذي شرفٍ ومروءَة . وقد كان يضرب لهؤلاء الشباب المثل بنفسه وبسيرته . .

لقد كان اهتمام محمد منصَباً على الشباب من غير ذوي اليسار الذين أبطرتهم النعمة ، وجَرَفَهُمْ تيّارُ الرذيلة ، فهو يعتقد أن الشباب هم أمل المستقبل ، وأنه بمقدار ما يكون لهم من الخُلق السويِّ ، والسيرة الحسنة ، بمقدار ما يتصرَّفون بوعيٍ وإدراك ، ويكونون قادرين على تغيير البيئة التي هم فيها ، وإبدالها ببيئة صالحة تسودها العدالة والمساواة ، وتغمرها القيم والمُثُل العليا .

وإذا كانت تلك الأعمال الفردية التي كان يقوم بها محمد ، في توجهه نحو الشباب ، لم تحفل بها كتب السيرة ، ولم تُعرها انتباهاً ، فإن حياة هذا الإنسان بمجملها هي أكبر عنوان على أنه كان القدوة الصالحة لأبناء مجتمعه . .

لقد ابتعد محمدٌ الإنسان ، عن مساوىء المجتمع الذي عاش فيه ، وانصرف إلى المفاهيم السامية والأعمال الجليلة ؛ حتى كان له الخلق العظيم ، الذي يدفعه إلى تقويم نفسه والسموّ بها في حياته الشخصية، وإلى التحسُّس بكل ما يحيط به في حياته العامة، لكي تكون له القدرة على التأثير في أبناء قومه بما يساعدهم على عمل الخير وسلوك طُرق الصواب . .

وهكذا انطلق محمد في صباه للعمل على صلاح مجتمعه ، عبر الاهتمام بشؤون أبناء قومه ، فإن وجدهم على أمر جامع ، ذهب إليه ، وشارك فيه ما وسعته المشاركة ، من غير أن يرضى بباطل أو يتوانى عن دعوة إلى حق ، يظل قائماً بينهم لا يفترق عنهم إلا إذا ركبوا العناد ، ولم يرعَوُوا للنصح والإرشاد .

بل كان يشتد موقفه منهم في الكريهة أكثر من أيام الرخاء لعله يهديهم إلى صلاح أحوالهم وتقويمها ويسد عليهم منافذ التسرع والتهور، كما حصل في حرب الفجار وقد جاء عن أسباب هذه الحرب الفاجرة التي وقعت بين كنانة وقيس ، أن البراض بن قيس وثب على رجل من هذيل فقتله ، وكان البراض إلى جوار حرب بن أمية فأخرجه هذا من جواره ، ففرَّ إلى الحيرة والتحق بالنعمان بن منذر حيث اجتمع عنده إلى عروة بن عتبة .

وكان النعمان يوجّه كل عام قافلة إلى سوق عكاظ للتجارة تحمل المسك وتأخذ بدلاً عنه الجلود والحبال وأنسجة اليمن المزركشة دون أن يتعرض لها أحد ، حتى قتلَ أخاً لبلعاء بن قيس ، فصار بلعاء يعترض قوافل النعمان ويستولي عليها ، فطلب النعمان من عروة ابن عتبة ومن البراض بن قيس حمايتها ، ولكنّهما تنازعا على ذلك ، فأقدم البراض على قتل عروة حتى يتفرَّد بخدمة النعمان ؛ وهنا اجتمعت قيس على مقاومة البراض ، والتجأت كنانة لقريش ، ونشب القتال بين الطرفين في رجب ، أحد الأشهر الحرم ، فسميت تلك الحرب بالفجار لأنها تحدَّث حرمة الأشهر الحرم ، وهي ذو القعدة ،

وذو الحجة ، والمحرم ، ورجب ، وكانت تعتبر عند العرب ، في ذلك الوقـت ، أيام فضيلة ، يمتنعون خلالها عن أي قتال حتى يسود الأمان والسلام موسم الحج إلى البيت العتيق والعودة منه . .

ولشدة ما استهجنت العرب تلك الحرب ، فقد سعى شيوخ القبائل إلى وقفها وتدارك نتائجها ، مخافة أن تحلَّ اللعنة على بلاد العرب بأسرها . وأمكن لمساعي الخير أن تنجح ، فعقد الصلح على حسب العادات الجارية وهي أن يدفع الطرف الأقلّ قتلى ، دية العدد الذي يزيد على قتلاهم من الطرف الآخر ، ويقال إن قريشاً اضطرت إلى دفع دية أحد عشر رجلاً . . وصار البرّاض منذ ذلك الحين ، يضـرب به المثل بالشقاوة والفجور . .

شهد محمد ، وقد كان في العشرين من عمره ، حرب الفجار ، فسفَّه أحلام المشاركين فيها ، وعاب عليهم خزي تلك الفعال ، رغم أن أعمامه ـ كما قيل ـ ساهموا في القتال . . ولكنَّ ذلك فيه اختلاف ، إذ رأى بعض المؤرخين أن الزبير بن عبد المطلب كان قائد الهاشميين في تلك الحرب ، بينما رأى غيرهم أن أبا طالب منع الهاشميين من الاشتراك في حرب قذرة ، كما تخلف عنها عبد الله بن جدعان ، وحرب بن أمية . .

ومهما يكن الأمر ، فقد مقت محمد تلك الحرب ، إذ لم يرها عادلة ، وليس لها ما يبررها ورأى فيها حرباً فجوراً فعلاً ، لأنها انتهكت قدسية الأشهر الحرم . .

نعم ، لقد لعن محمد تلك الحرب ، لأنها إثم كلها ، إثم بمكانها ، إثم بزمانها . . ولو قدر له أن يمنعها لما توانى لحظة عن ذلك ، ولكن عادات العرب القاسية ، وطبائعهم الغليظة كانت أقوى من أصحاب العقول النيرة ، كما كانت فعال أصحابها أسرع من أن تفسح مجالاً لتداركها فوقعت تلك الحرب ، وكان ما كان . .

لقد عايش محمدٌ تلك الحرب ، ولكنه لم يمتشق رمحاً ، ولم يُلْقِ سهماً ولا ضرب بسيف . بل حضر واقعتها ، لأنَّ أبناء عشيرته من قريش كانوا مشاركين فيها ؛ وقد شهدها وفي قلبه غصَّة ، وفي نفسه لوعة ، لِخِزي الإنسان وسفاهة أعماله ، وقبح فِعاله . . فهو فيها الشاهدُ على أبناء قومه ، ولهُ الحُجة على المتقاتلين .

وقد كان لمحمد ، ابن العشرين ، دوره البارز في وقف القتال ، وفي تحقيق الصلح ، لكثرة ما بذل من جهد وهو يحثُّ ذوي الرأي وأصحاب الشأن ، على تهدئة الحال ، وإثارة الحمية في النفوس للإبقاء على النفوس . .

صحيح أن أيام العرب كانت في غالبها حرباً وغزواً واقتتالاً ، حتى صارت هذه الأمور وكأنها من أنماط حياتهم وطرائق عَيْشهم ، فلم يعودوا يحفلون بقتال يدور هنا ، أو غزوة تتم هناك ، ولكن ما إن وقعت تلك الحرب بين كنانة وحليفتها قريش ، وبين قيس حتى عمَّت أصداؤها سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية ، فراحوا ينعتون أصحابها بالفجور ، ويصفونهم بالآثمين ، لأنهم أقدموا على القتال في الأشهر الحُرم وإلى جوار الكعبة الشريفة ، خلافاً لأعراف العرب التي تعتبر

الحرم آمناً لا جواز للقتال فيه أو بقربه . .

وكما لعَنَت العربُ الفِجار وأصحابها ، فقد خَمدتْ من سَعَوا لإخماد أوارها ، وفي طليعتهم ذلك الشاب ، ابن العشرين ، محمد ابن عبد الله ﷺ الذي بذَّ في رجاحة عقله ، وحثيث سعيه لإيقافها أكبر الرجال سنّاً، وأعظمهم قدراً ، وأرفعهم مقاماً ، مما جعل له من بني قومه المكانة الخاصة دون سائر الآخرين من قريش . . .

وكما شارك محمدٌ في حرب الفِجار ، تهدئةً وتسويةً وصلحاً ، فقد شارك أيضاً وهو في ريعان الشباب، في حلف الفضول، وإن كان هذا الحلف حدثاً آخر ، يختلف عن تلك الحرب، معنىً ومغزىً . .

وقصة حلف الفضول أن رجلاً من زبيد كان قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاص بن وائل دون أن يدفع له ثمنها . فلجأ الزبيدي إلى من يُجيره في حقه ، ولكنه لم يُفلح . . عندها ذهب إلى مكان مرتفع من مكة ، وراح ينادي في قريش لكي تهبّ لإعانته ، ورفع الظلم عنه . .

وثارت في نفوس القرشيين الحميّة ، إذ لا يمكن أن تُسلب بجوار بيت الله الحرام الأموال ، ولا أن تضيع في كنفه الحقوق . وهذا نداء رجل ضاع حقّه ، فهل يقعدون عن الاستجابة لندائه ، هبَّ أبناء عبد المطلب بدعوة من أخيهم الزبير ، وهبَّت من ورائهم قريش ، فاجتمعت بنو هاشم ، وزهرة ، وتميم بن مرة ، في دار عبد الله ابن جدعان ، وكان صاحب نخوة وكرم ، فأقام للجميع وليمة ، تعاقدوا

أثناءها على أن يكونوا على الظالم حتى يرتدّ عن ظُلمه ، ومع المظلوم حتى يُرَدَّ إليه حقُّه ، فَسُمِّيَ حلفهم بالفضول أي دخولهم في فضائل الأمور والتزامهم بها .

ونفذت قريش حلفها فور انعقاده ، فذهبت جماعة إلى العاص ابن وائل ، واستردوا منه بضاعة الزبيدي وأعادوها إليه .

وبذلك قال الزبير بن عبد المطلب معتزّاً :

إن الفضول تعاقدوا وتحالفوا ألا يقيم ببطن مكة ظالمُ
أمرٌ عليه تعاقدوا وتوافقوا فالجارُ والمعتَرُّ فيهم سالمُ

وأقامت قريش على الوفاء لحلفها ، إذ رأت فيه الجامع الذي أعاد لها المكانة التي فقدتها بموت هاشم وعبد المطَّلب ، اللذين تفرقت بعدهما كلمتها ، وصار كل فريق يطمع في أن يكون صاحب الأمر والسلطان ، مما أطمع العرب فيها ، بعد أن كانت أمنع من أن يطمع فيها طامع .

ومن مآثر حلف الفضول أن أصحابه هبُّوا لنجدة رجل من خثعم ، قدم مكة مرة ومعه ابنته ، وهي فتاة رائعة الجمال ، فما أن رآها نبيه بن الحجاج حتى أخذها منه عنوة وغاب بها . فنادى الخَثْعَميُّ : من يعديني على هذا الرجل ؟ فقيل له : عليك بحلف الفضول . . وبالفعل جاءه أصحاب الفضول ، مُشرِّعي السيوف ، ووقفوا على باب دارة ابن الحجاج ، وما زالوا به حتى أعادوا الفتاة إلى أبيها دون أن تمسَّ بسوء . .

وقد شهد محمد ﷺ حلف الفضول هذا ، وشارك أعمامه في الدعوة إليه ، وفي عقده ، فكان محبَّباً إلى نفسه التي تكره الظلمَ وأصحابه ، وتَحنُّ إلى نُصرة المظلوم وإنصافه . ولشدَّة ما أثَّر فيه هذا الحلف ، فإنه لم ينسَهُ في حياته ، فكان يقول بعد بعثته عليه الصلاة والسلام : « ما أحبُّ أنَّ لي بحلف حضرته في دار ابن جُدعان حُمْرَ النّعم ، ولو دعي به في الإسلام لأجبت » .

بمثل تلك الصفات الفاضلة ، وبمثل ذلك السلوك اللين القويم عاش محمد بن عبد الله ﷺ حياة الجماعة بأفراحها وأتراحها ، بعزِّها وضَيْمِها، فكان الإنسان المدرك والمواطن الصالح . يحرص على مصلحة الجماعة حرصه على صون نفسه من العثرات . لا يعمل إلا للحق ونشر الفضيلة ؛ ولا يُقدم إلا على توثيق عُرى التعاون والتضامن ؛ ولا يقوم إلَّا لشدّ أواصر الأُلفة والمحبة ، حتى كان عَلماً في البيئة التي عاش فيها ، ونبراساً في الجماعة التي ينتمي إليها . .

وتنطوي بعد حلف الفضول سنوات خمس . . . فيبلغ محمد ﷺ الخامسة والعشرين من عمره ، دون أن تغيِّر السنون من اهتمامه بشؤون الجماعة شيئاً ، ودون أن يمنعه هذا الاهتمام من تدبير أمور تجارته المحدودة التي كان يزاولها داخل مكة ، وإن كانت لا تدر عليه مالاً يفي بتطلُّعاته لمساعدة الآخرين . .

ولم يكن محمد ﷺ بَرِماً بحياته تلك ، ولكن لوحظ أنه حَبَسَ نفسه عن الزواج لا يفكر فيه ، بسبب عاملين : غناه النفسي ، وتقديم ما يكسبه لعمه أبي طالب . . وهذه الحياة من الزهد ، والتضحية ،

فرضها محمد ﷺ على نفسه بإرادته وقناعته ؛ لأنه لو رغِبَ في زواج لكان له أن يخطب أكرم فتاة في قريش ، وأن يتزوج من أرفعهن حسباً ونسباً ، وأغناهن جمالاً ومالاً . .

لقد كان قادراً على الزواج متى شاء ، ولكنه مال عنه ، لا لضعفٍ وهو في ريعان الشباب والنضارة ، ولا خشية إملاق لأن ما يحصِّله كان يكفيه ويكفي من يعول . بل لأن حاجاته الروحية كانت تشغله عن حاجات الجسد التي لا تثير اهتمامه . فمثلُها عنده كمثل المال لا يعتبرُه غاية يسعى إلى تحقيقها ، لأن قلبه وفكره كانا مشغولَين بما هو أسمى وأعلى : إنه يتطلع إلى بعيد ، إلى ما فيه معالي الأمور ، وجليل الغايات . إنه يرنو إلى غنى النفس وتزويدها بحقائق الحياة . .

فهل تدع هذه العظائم مكاناً للهوى عنده ، أو تجعل لها سلطاناً عليه . . . أم أنها تجعل كل الرغبات وسائر الغرائز تحت سلطان إرادته ودون سمو نفسه ! . .

لقد آثر محمد ﷺ أن يعيش حياةً نقيةً ، صافيةً ، مُفعمةً بالروحانيات ، بعيدةً عن هموم الجسد ، ومباهج الدنيا وفتنتها ؛ وهذا أمر طبيعي لأن من كان في طبعه كُرهٌ للأمور المادية ، يستغنى عن الزواج ما دام يرى فيه ما يعوق تطلُّعاته البعيدة ومراميه السامية . . ولكنه ـ على كل حال ـ إن صادف المرأة الحكيمة ، الفاضلة ، التي تقدِّر غنى نفسه ، وتعمل على مَلء حاجاته الروحية ، وتقبل واقع طموحاته وتطلُّعاته ، إنه عندئذٍ يُقدِم على الزواج مختاراً ، قانعاً .

ولكنَّ محمداً ﷺ لم يصادف حتى تلك الحقبة من حياته ، امرأةً من هذا القبيل ، فعاش إنساناً ، نظيفاً ، شريفاً ، طاهر البدن والنفس والقلب ، والناسُ كلهم من حوله ، يعرفون ذلك ، فيتحدَّثون عن محمد ﷺ وشرفِه ، وصدقه ، وأمانته ، وعن سائر صفاته وأخلاقه ، في مجالسهم وندواتهم ، أفراداً وجماعات .

في تلك الحقبة من الزمن ، كانت في مكة ، امرأة تعيش وحدَها ، وقد آثرت تلك المعيشة بعدما تزوجت رجلًا من بني مخزوم فتوفاه الله ، ثم تزوجت رجلاً آخر من بني مخزوم ، كان قريباً لزوجها ، وكان صاحب ثروة كبيرة ، ولكنه بعد فترة وجيزة ـ ولحكمة من الله ـ توفاه سبحانه ، فآثرت بعد ذلك عدم الزواج ، وارتضت بالعيش وحيدة لتقف جهودها على رعاية شؤون أموالها لتنمية ثروتها ، التي بلَغت حداً كبيراً . .

كانت تلك المرأة خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، فهي من أواسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ؛ قد اتصفت بالحكمة ، واشتهرت بثرائها الوافر لأنها أحسنت رعاية شؤون أموالها ، وما ورثته عن زوجها ، مما جعلها من أوفر أهل مكة غنىً . .

وكانت تستخدم مالها في التجارة ، حتى عُرِف أن عِيرَها التي تحمل بضائعها يمكن أن تعادل عِيرَ قريش كلها ، وما تحمله من بضائع ، وقد تفوقها في بعض الأحيان .

ولم تكن خديجة تتولى تجارتها بنفسها ، لأن الإشراف على

تسيير القوافل ، والسفرَ إلى الشام أو اليمن ، من شؤون الرجال ، فكانت تستأجر من الرجال من يقوم بأعمال تجارتها ، مقابل أجور تدفعها لهم ، أو لقاء نصيب من الأرباح يتقاضونها نتيجة عقود مضاربة تجريها معهم ، فيتولَّون بموجبها القيامَ بشؤون تجارتها ، فيظل لها رأس المال ، ويُقسم الربحُ حسب الاتفاق الذي يجري بينها وبينهم مثل ٤٠ ٪ أو أكثر ، أو أقل ، وعليها وحدها تقع الخسارة حين الخسارة . .

ومما لا شك فيه ، أن خديجة ، ما كانت تسيِّر القافلة إلَّا وتبعثُ معها بعض خُدَّامها أو من تثق به ليراقب الرجال ، وليشرف على سير العمل خلال الرحلة . وفي ذلك حُسن إدارة وحكمةٌ من امرأة مثلها لأنها وإن كانت تولي ثقتها من تتعامل معه ، إلَّا أنها كانت حريصة أيضاً على أن يكون هؤلاء على قدر الثقة التي تمنحها لهم ، وهي لا تراهم إلا ساعة الرحيل ، وعند الإياب للبحث في أمور الربح أو الخسارة . .

وفي أحد الأيام ، وبينما كانت خديجةُ تجهزُّ القافلةَ للسير بتجارتها إلى الشام ، عرف أبو طالب ، فرأى الفرصة قد تكون سانحةً لتسهيل خروج محمدٍ ﷺ في هذه القافلة من أجل أن يحقق له أجراً كافياً .

ففاتحهُ بالفكرة ، وعرَض عليه الأمر ، فوجد عنده قبولاً ، فذهب إلى خديجة ليطلب إليها أن تجعل ابن أخيه في القافلة .

بلغ أبو طالب دارة خديجة ، فوجدها منهمكة في بعض

شؤونها ؛ ولكنها عندما رأت أبا طالب أقبلت عليه بكليتها ، وراحت تسأله عن أحواله وشؤونه وهو يحييها بأدب واحترام ، حتى قال لها :

ـ هل لكِ يا خديجة أن تبعثي محمداً في تجارتكِ ؟

فقالت خديجةُ ، قبل النفي والإيجاب :

ولكنَّ محمداً يعمل في تجارة داخل مكة فيما أعلم ، فهل يقبل الخروج بتجارتي مأجوراً ؟ . .

ـ أولا تعرفون ابن أخي يا معشر قريش ! . . إن محمداً لا يربح من تجارته مالاً كافياً لأنه يكره كل كسب إن لم يكن حلالاً . وإن حرصه لشديد على مساعدتي وأبنائي ، ولكنه لا يجد السبيل إلى ذلك ، فيتألم ويؤلمني معه . . وها أنتِ ذي يا خديجة تجهزين قافلةً في تجارةٍ لك إلى الشام فكلِّفيه بمسؤولية خاصة في عملك التجاري ، وعسى أن تكون بداية الفرج ، الذي أؤمِّله للفتى الحبيب . .

سمعت خديجةُ ما قاله أبو طالبٍ ، فردَّت عليه بغبطة وارتياح :

ـ أهلاً بك يا أبا طالب ، وأهلاً بابن أخيك يعمل عندنا . فوالذي نفس خديجة بيده، لأَنَا الخاسرةُ إن ردَدْتُ طَلبك ؛ فما عاقلٌ في مكة كلّها ، يعرف بأن محمداً يرغب في عمل عنده ، ويرفض ذلك .

ـ حسناً ، ولكن محمداً لا يرضى إلا بالعقد والاتفاق والشَّرط المسبق . وقد بلغنا أنك تستأجرين الرجال بِبكْرَين ، ونحن لا نرضى لابن أخينا محمد بأقل من أربعة . . .

فرحَّبت خديجة ، وقالت للفور :

ـ سهلٌ علينا ما يطلب ابنُ عبد المطَّلب ؛ ولو أنك سألتَ هذا لِغَريبٍ بَغِيضٍ لأَجَبْنا ، فكيف وأنت تسألُه لقريبٍ حبيب ؟.

ورد عليها أبو طالب قائلاً : بارك الله بك يا خديجة . ثم هبَّ من مقامه مودعاً قاصداً محمداً ، فلما رآه بادره بالقول :

ـ بُشرى أزفُّها إليك يا ابن أخي . .

ـ خيرٌ إن شاء الله يا عمَّاه ! .

ـ رزقٌ حلالٌ ساقه الله إليك . . ثم قصَّ عليه ما دار بينه وبين خديجة ، فَسُرَّ محمدٌ لسرور عمِّه وحمد الله ، وهبَّ من فوره يستعد للسفر إذ شعر بأن الوقت قد حان ليرضي طموح نفسه ، وإن لم يكن في يومٍ من الأيام ليطمع في الغنى والثروة إلّا بمقدار ما يُعينُه الغنى على مساعدة المحتاجين ، وبمقدار ما تتيح له الثروةُ فِعْلَ الخير وإسداء المعونات .

وحين أزف الرحيل ، انطلقت قافلة خديجة بنت خويلد وفيها محمد ، وراحت تمرُّ في نفس الأماكن التي عرفها منذ ثلاث عشرة سنة خلَتْ ، يوم عَبَرَ هذه البقاع مع عمِّه في أول رحلة إلى الشام ، يوم كان في الثانية عشرة من عمره ، فعاودته ذكرياتُ تلك الرحلة ، واستعاد في ذاكرته كل ما يعود منها إلى أخبار أهل الأماكن السالفة ، وما جرى لهم من أحداث . .

وبقي محمدٌ على هذه الحال من التذكُّر والتأمُّل ، والقافلة تُغِذُّ

السَّيرَ ، حتى بلغتْ بصْرَى ، فحطت الرحال فيها ، تماماً كما عرف من قبل ، وكأنَّ قوافلَ التجارة كلَّها إلى الشام مدعوَّةٌ للرَّاحة في هذه البقعة.نزل محمد عن راحلته ، وبعد تدبير بعض الشؤون توجَّه إلى ظلِّ الشجرةِ نفسها ، تلك الشجرة التي استظلَّ بها مع عمِّه أبي طالب ، دون أن تكون في نيته ملاقاةُ الراهب بحيرى ؛ مخافةَ أن يعاودَ هذا العابدُ الجليلُ اجتماعَهُ به ، محاولاً أن يَثنِيَه عن عزمه في الوصول إلى الشام .

وكان إلى جانب محمد في رحلته هذه المرَّة ، ميسرةُ ، مولى خديجة ، وقد بعثتْ به مع القافلة ، لا ليراقب محمداً ، بل ليقوم على خدمته ، وتقديم العون له كلما احتاج الأمر،لأن محمداً كان يقوم لأول مرة بمثل هذه الرحلة التجارية الخارجية . .

وقد عمل ميسرة بأمر سيدته ، فلم يترك محمداً يغيب عن ناظرَيه ، بل كان يلازمه كالظِّلِّ ، ويدور معه كيفما دار ، مسرِّياً عنه ، مبدياً استعداده لتلبية جميع طلباته . حتى أنه عندما أراد محمد أن يستلقي في ظلِّ هذه الشجرة ، لَحِقَ به ميسرةُ ، يسأله عن أيَّة حاجة يمكن أو يؤمنها له ؛ فلما علمَ أنه لا يرغب بشيء ، جلس بجانبه يحدثه ويؤنسه . .

ومثلما التقى محمدٌ من قبلُ بالراهب بحيرى ، التقَى هذه المرة براهبٍ نسطوري ، جاء إليه يحادثه ، فسمع منه محمدٌ أقوالاً تدل على علمه بالكتاب ، وعلى معرفته بمآثر النبيِّين والمرسَلين ، ودعواتهم إلى الهدى والحق وصلاح أحوال العباد . .

وما زال الراهبُ النسطوريُّ يحاوره ويجادله حتى هَبَّت القافلة لمعاودة السير ، فودَّعه وهو يدعو له بالتوفيق ، ويوصيه بأن يكون حريصاً على نفسه ، ساهراً على سلامته ، محاذراً كلَّ أمرٍ يصادفه . ثم ما زال يكرِّر عليه الوصية باليقظة والحذر ويبتهل إلى الله بحفظه وتأييده حتى افترقا حين رحيل القافلة . .

وكان ميسرة ، يرى ، ويسمع ، ويعجب . . إنه لم ينبس ببنت شفة خلال الحديث بين الرجلين ، ولكنه أدرك أن اهتمام الراهب بمحمدٍ ليس عبثاً ، بل لقد سمع ميسرةُ من الراهب بالذات أنه سيكون لمحمد شأن عظيم ، وسوف ينتظره مستقبل حافل بجلائل الأمور ! . سمع ذلك بصراحة ، ولكنه لم يشترك في حديث حتى ولم يلفظ كلمة واحدة . .

أجلْ ، وعَى ميسرةُ كلَّ ما دار في ذلك الاجتماع بين الرجلَين ؛ فازداد تعلُّقاً بمحمدٍ ، وزاده ذلك حرصاً على خدمته ، وتوفير سبل الراحة له . .

ثم وصلت القافلة إلى الشام ، فجاء التجار يشترون أحمالها من البضائع ، وينقدون أثمانها ، حتى إذا فرغ محمدٌ من البيع ، راح يشتري لخديجة كل ما رغبت أن يأتيها به من سِلَع الشام ، فلما أتمَّ كل ما أراده ، نادى بالاستعداد للعودة ، بعد أن لبثت القافلة في بلاد الشام وقتاً قصيراً ، ولكنَّ محمداً استطاع بإدارته الحكيمة ، وبصدق معاملته ، وحسن تدبيره في هذه البرهة الوجيزة أن يجذب إليه جميع

التجار من مُرافقيه وأن يتفاهم معهم على ما يؤمن مصالحهم ، كما يفعل في تأمين مصلحته والحرص عليها ، وقد تمكّن أن يحقّق من هذه الرحلة أرباحاً ، زادت ـ بتقدير ميسرة ـ على أرباح كل مَنْ سبقهُ إلى العمل في تجارة خديجة . .

لقد حالف النجاحُ محمداً في رحلته هذه ، فعاد سريعاً ، بالأموال الوفيرة والبضائع الفاخرة . فيا له من شابٍّ قويٍّ أمينٍ مدبّرٍ قدير ! . ويا له من إنسان سويٍّ حكيم لم يَر أحدٌ مثله صدقاً واستقامةً . .

عاد محمدٌ ، وعادت معه قافلته تحملُ الخيرَ والبركة . . وكانت تبدو على نفوس رجالها نشوة الفرح ، فراحوا في طريقهم يتنادمون ويهزجون ؛ ويتبارون بالأراجيز والأناشيد ، ويتباهون بالمفاخر والأمجاد ، ثم ما زالوا كذلك حتى وصلوا مشارف مكة ، فهدأت الأصوات بعض الشيء ، ولكنَّ فرح القلوب لم يهدأ ، بل ازداد تأجُّجاً وهم مقبلون على الأهل والعيال ! .

كان محمد على رأس القافلة عندما دخلت مكةَ وقتَ الظَّهيرة . . وكانت أخبارها قد وصلت خديجة ، فخرجت إلى عِلِّيَّةِ دارتها ، منتظرة ، وها هي القافلة تُقبِل نحوها ، فيقع نظرُها أول ما يقع على محمد ، وهو على بعيره في المقدمة ، فتلوحُ إليه ، ثم لا تلبث أن تلاقيه وهو يوقف راحلته ويدخل الدار ، فتنزل مسرعة إليه ، وتستقبله بالسرور والترحاب .

نزلت خديجة إلى فناء الدار ، فإذا بها أمام طلعة شابٍّ ، قد لوَّحتْ حرارةُ الشمس الوهاجة لون وجهه ، فخالطت حمرتَه المُشربة بلونٍ نُحاسيٍّ جذَّاب . . وإذا بتلك الطلَّة البهيَّة تعقد لسانها عن الكلام ، فلا يقوى على أكثر من أن يقول له : « حمداً على سلامتك يا محمد » . .

وقفت خديجة تتأمَّله ، وكأنها تراه لأول مرة . . إنها تراه ذا قامة معتدلة ، لا بالقصير اللَّاصق ولا بالطويل الشامخ ، عريض الصدر ، بعيد ما بين المنكبين ، قوي الزندين ، رَحْبَ الراحة ، ممتدّ الأطراف ؛ في جسمه صلابة الرجل العربي ، الذي عالجته قساوة الصحراء ومنحته القوَّة والبأس ، حتى بدا وكأنه مجبولٌ من قطعة فولاذ بشرية . . ورنا إليها محمدٌ بنظرة إكبار واحترام ، وهو يردُّ عليها التحية ، ثم ما لبث وهو يرى صفاء تلك المرأة أن أعقبها بابتسامة عريضة انفرجت عن فمٍ برّاقٍ ذي أسنان مفلَّجة كأنها حبات اللؤلؤ الفاخر في العِقْد الثمين . . فسُبحان الله الخالق ، ما أجمل هذه الملامح ، وما أروع هذه القسمات ! . .

هكذا كانت خديجةُ تقول في نفسها وهي تتطلَّع إلى شابٍّ مثالٍ للخلق الرائع ، وقد بدا أدعَجَ العينَين ، أزجَّ الحاجبين ، يتناسق ذلك كله مع أنفه الأقنى ، وخدِّه السهل ، ويتآلف مع جبينه الواسع ، وعنقه المتين ؛ وتدعوه خديجةُ ـ بعد تأمُّلٍ طويل ـ للدخول وأخذ قسط من الراحة . فتراه يتقدم بخطىً وئيدة ، رافعاً قدميه عن الأرض رفعاً سوياً كأنه يقتلعُهما اقتلاعاً . فتراقب جميع حركاته فتراه يسير بانتظام ، غير

متخايل ، ولا متمايل ، بل يجَلِّله الوقار من رأسه إلى أخمص قدميه . . وتتبعه خديجة إلى الداخل ، فيجلس بأدب واحتشام ، ثم يؤخِّر لباس رأسه قليلاً ، فيَبينُ شعرهُ الأسود ، فيسحب منديلاً يمسح به العرق الذي يتصبَّب من جبينه ووجهه كحبَّات لؤلؤ ؛ فتأتيه خديجة بشراب يبرِّد غلّته ، فيأخذه من يدها ، وإذا بمنديله يقع على الأرض فتلتقطه وتجده مبلَّلاً كأنه غمس في الماء . .

وتجد خديجة رائحة طيِّبة تفوح من هذا المنديل ، فتسأله عن نوع المسك الذي وضعه عليه فلا يُجيب ، فتعرف أن لا مسك ، ولا طيب ، وإنما هي رائحة عَرقِ صاحبه وحسب . . وتجلس غير بعيدة عنه ، لتسأله عن سفَرِه ؛ فيحدِّثها عمَّا جرى معه في رحلته ، وما أصاب فيها من فيض ، وما حمل معه من بضائع . .

وترقب حديثه اللطيف ، وتستمع إلى كلماته العذبة التي تدخل إلى القلب فتريحه . . فتنجذب إليه مصغيةً حتى يُكمِلَ حديثه الشيِّق ؛ ثم ليقوم مودِّعاً على أمل أن يلتقيا من جديد ليتشاورا في أمور تجارتها . .

وما أن يخرج محمدٌ من بيتها ، حتى تستدعي مولاها ميسرة لتسأله عن كل ما جرى أثناء الرحلة ، ولتعرف منه كيف تمكَّن محمدٌ من تدبير شؤون قافلتها ، وكيف لاقى هذا النجاح وجنَى هذا الربح ؟! . . فاستفاض ميسرة في الحديث ، ثم قال لسيدته :

ـ مولاتي ، من أين أبدأ ، وكيف أنتهي . . إن حدَّثتك عن

محمدٍ فإن الحديث يطول ، وقد لا أستطيع أن أعبِّر عن صفات هذا الإنسان . . وكل ما أقوله لسيدتي : أن محمداً إنسانٌ عظيمٌ ، ما رأيت في حياتي قط مثيلاً له ، في صدقه ، وأمانته ، وحُسن معشره ومعاملته ، ورقَّة حديثه ، وقوة بأسه ، وصلابة رأيه . . إنه إنسانٌ متواضعٌ ، جُلُّ نظره إلى الأرض لشدة تواضعه ؛ يسبق من يلقاه بالسلام ، ويبادر أصحابه بالمصافحة . . وهو دائم التفكير ، طويل السكوت ، وكأن شيئاً عظيماً يكمن في أعماق نفسه . لا يتكلم في غير حاجة . وإن نطق أحسَّ المرءُ بأنه يتكلَّم بجوامع الكلم ، وبمنطق سويّ منتظم . .

إنه صاحب خُلُقٍ دمث . أجود الناس كفّاً ، وأجرؤهم قلباً ، وأوسعهم صدراً ، وأصدقهمْ لهجة . بل قُولي يا سيدتي إنه أوفى الناس ذِمَّةً ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، مَن رآه هَابهُ لما عليه من الوقار والجلال ، ولما فيه من ملامح العزم والحزم ، وعلو الهمَّة وشدة البأس . أما إذا خالطه وعرفه فإنه يولع بحبِّه لما يجد فيه من سعة الصدر ، وحسن الخلق ، وكثرة البر والجود . . لله يا سيِّدتي تلك الرحلة الكريمة التي حظيتُ فيها بمرافقة هذا الرجل العظيم : ! . . إنك لَتَرَيْنَهُ دائماً ليس بالجافي ولا المهين . لا يحفل بالدنيا وما كان لها ، ولا تغضبه هذه الدنيا بما فيها ! . ومع ذلك فإنه يحرص على الرزق ويعظِّم النعمة . .

كنت أراه دائماً يوجِّه النصح للرجال بقوَّةِ الرجلِ الحازمِ دون أن يراعي أحداً إلَّا في الحق ؛ فلا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ،

ولا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر له . فإذا غضب أعرض وأشاح ؛ وإذا رضي غضَّ طرفه خشوعاً لله . . .

يتحدث بهدوء ورويَّة ، وقد يضرب بإبهامه اليُسرى باطنَ راحته اليُمنى . وإذا أشار ، فبكفِّه كلها ، وإذا تعجَّب قلَّب تلك الكف بحركة جامعة مُعبِّرة .

هذا هو محمد بن عبد الله يا سيدتي ، بأقلّ ما يمكنني القول عنه . .

وسكت ميسرةُ قليلاً ، ثم تابع :

ـ آه يا سيِّدتي . . كيف أصف لك ذلك اللقاء الذي حصل بين محمد والراهب النسطوريّ في بُصرى الشام ! . وكيف أُبيِّن ما كان من اهتمام الراهب به ، واحترامه له ، وإعجابه به ، حتى أيقنتُ ساعتئذٍ أنَّ محمداً الذي أقوم على خدمته رجلٌ لا كالرجال ، بل وإنسانٌ غير سائر الناس ! . .

لقد حدَّثه الراهب كثيراً ، واحتفى به كثيراً . . وقد أوصاه أكثر ما أوصاه بالمحافظة على نفسه ، وبالحذَر كلّ الحذر من الأعداء ! . . أما إن أردتُ أن أحدِّثك عن أمانته واستقامته ، وعن صدقه وإخلاصه ، فهذا ما أعجز حقاً عنه ، لأنه يفوق كلَّ توقُّع ، ولكنني أترك لسيدتي أن تتحقق من هذه الصفات العظيمة عندما تجري حسابها معه ، وتقارن بين ما جاءت به هذه الرحلة وبين ما سبقها من رحلات متعدِّدة . .

وكانت خديجةُ تستمع لخادمها بلهفةٍ وشوق . ولئن دهشتْ

لقصة الراهب ؛ فإنها لم تدهش أبداً لصفات محمد ، وتصرفاته ، كما حدَّث بها ميسرة ، لأن محمداً كان مشهوراً بين قومه ؛ بالخلق العظيم ، وبالصفات الرفيعة المميزة ، وبالصدق والأمانة كاسمٍ على مُسمًّى . . ولكن رؤيتها له اليوم ، وحديث ميسرة عنه ، جعلها توقن بأنَّ هذا الشاب هو خير رجال قريش ، وبأنه أجلُّ وأشرف مكانة من أي إنسان آخر في قريش وغيرها .

وخَلَتْ خديجةُ تلك الليلة إلى نفسها ، فإذا بها دائمة التفكير بيومها . . تنساب أمام مخيَّلتها الذكريات ، فتعاودها صُوَر حياتها الماضية ، يوم كانت فتاة في بني أسد ، تعيش في كنف أهلها ، عزيزة النفس ، منيعة الجانب ، يتوافد الشبَّان لطلب يدها من أبيها وهي تعزف عنهم ، حتى جاءها عتيق بن عائذ بن عبد الله بن عمرو ابن مخزوم فقبِلَت به زوجاً ، وعاشت معه ردْحاً من الزمن ثم مات ؛ فجاءها من بعده أبو هالة النبَّاش بن زرارة المخزومي ، فقبلت به زوجاً ، ولكنه هو الآخر ، لم يلبث طويلاً حتى مات . . .

تستعيد ذلك ، وهي من هي في الأصل والمحتد ، والحسب والنسب ، والشرف والرفعة ، فيعتصر قلبها الألم . . . وتتذكر ، وتتذكر . . فلا تجلب الذكرى إلا الحَسَرات . . فتقوم من فراشها ، وتخرج إلى الشرفة تستنشق الهواء العليل ، وتحاول أن تنام فيهجرها النعاس ، ويعاودها شريط الماضي فتجد نفسها امرأة عزفت عن الزواج ، رغم كثرة الذين خطبوها من كبار قريش ، ومن سادة العرب ؛ كانت تردهم غير عابئة بما يحملون من جاهٍ وثروة ، قانعةً بما

قَسَمَ الله لها من نصيب ، ومسرِّيةً عن نفسها بمزاولة تلك التجارة الواسعة ، التي تشغل الرجالَ فضلاً عن النساء . .

نعم في بضع ساعات ، استعادت خديجة بنت خويلد كل ما جرى لها خلال السنوات الأربعين التي انقضت من عمرها ، حتى انتهى بها المطاف إلى هذا اليوم ، فإذا بها تحسُّ ، لأول مرة ، أنها وحيدةٌ حقاً ، وأنها بحاجة إلى من يؤنس هذه الوحدة ، بعيداً عن تطلعه إلى مالها أو جمالها . .

وفي تلك اللحظة بالذات ، قامت من فراشها مرة ثانية ، وتقدمت نحو المرآة ، ونظرت إلى وجهها مفكِّرة : هل ما زلتُ أحتفظ بالجمال حقاً ؟ . .

إنها المرأة ـ أية امرأة ـ تغلبها أنوثتها ، ولا تجد إلاَّ الجمال سلاحاً تقوَى به . . ولكنَّ خديجة بنت خويلد تسائل نفسها في تلك اللحظات : هل الجمال وحده كافٍ للمرأة ؟ ثم تجيب نفسها بنفسها : إن جمالَ الخُلق هو قبل كل شيء . وما نفعُ جمالٍ لا يَحميه الخُلُق الرفيع ؟ . .

وتعاود تسائل نفسها من جديد متعجِّبة : وما اهتمامي في هذا الليل بأمورٍ لم تخطر على بالي منذ أيام الشباب ؟ . . ويأتيها الجواب من داخلها : لأنني أحسُّ اليوم أن شيئاً واحداً يريحني ، ويدخل الطمأنينة إلى قلبي ، وهو التفكير بمحمد بن عبد الله ! . .

لقد كانت خديجة صادقة صريحة ، وهي تواجه حقيقة

مشاعرها . فهل تراها أحبَّت محمداً حتى باتت تحس بذلك الاطمئنان الوجداني ؟ ولِمَ لا ؟. وهل في الحب والمَيْلِ النفسيِّ الشريف ما يَعيب ، أو يحطُّ من كرامة الإنسان ؟.

لا . . أبداً ، بل إن الحبَّ الصادقَ المؤمنَ هو قوام حياة الإنسان . فالدنيا ـ إذن ـ كلُّها مقفرة إلَّا من حبيب يؤنس وحشة خديجة سلامُ الله عليها . . والحياة كلها باهتة إلا من سراج ينير ظلمة قلبها . . ومتطلبات العيش كلها تافهة لولا واحة حب كريم يرتاح الإنسان في ظلال هدأتها وجمالها . . فالحب هو ناموسٌ إلٰهيّ ، أمدَّه الله من عليائه شُعاعاً من نور يربط به بين القلوب فيشدّ بعضها إلى بعض . . فمن هذه القلوب ما يعمرها التقدير والاحترام ، ومنها ما يسيطر عليها الحنان والعطف ، ومنها ما يجذبها الشوق وتشدُّها الرَّغبة . . ولكنَّ عنوانها جميعاً التضحية في سبيل من نحبُّ والقربُ منه .

فكان على الإنسان ـ ذكر أو أنثى ـ أن يبحث عن حبٍّ صادقٍ شريفٍ كريم يعيشه ويحياه . . وأتعس إنسان هو من لا يجد قلباً يحبه ويعطف عليه . . وأشقى إنسان من لا يلتقي بمن يشاركه في سروره وهنائه ، ويرافقه في تعاسته وشقائه ؛ ولعلَّ أغبى الناس وأشدهم جهلا ، من وجَدَ حبّاً من هذا النوع ثم ضيَّعهُ . . فإذا كنا لا نريد في حياتنا شقاءً وضياعاً ، فما علينا إلا الاستفادة من المشاعر والأحاسيس ، نبحث عنها في مكامنها ، ونطلبها في خفاياها حتى نهتدي إلى بذرة الحب مزروعة في حبات قلوبنا . . فمن أصاب

الحبُّ حبة قلبه ، كانت له الكلمة التي يُعبِّر فيها عن عاطفته وعن تفكيره . . ومن أخطأهُ، أخطأه سهم الحياة السعيدة . . فكلمةُ الحبِّ التي كوَّن الله سبحانه معطياتها وأدواتها ، كانت من أجمل ما خلق الله تعالى للإنسان : فهي شعورٌ يتدفق ، وبصرٌ يلمع ، وبصيرة تشعّ ، وأذن تطرب . . وقلب يطمئنّ ! . .

بكلمة الحب ، وبالحب ، تعارف الناس وتكاثروا ، وبتأثيره عمروا الحياة وصَلُحوا . . ولذا أراده الله سبحانه صلـةً دائمةً ، خالدةً في مخلوقاته ؛ لا تَفوقُه سماءٌ وما تزدان به من كواكب ، ولا أرض وما في جوفها وعلى ظهرها من خلائق .

أوَلَيسَ الحب ما أراده الله سبباً لمعرفته ، فجاء في الحديث القدسيّ : « كنتُ كنزاً مخفِيّاً ، فأحبَبْتُ أن أُعرف ، فخلقت الخلق ، فَعُرِفتُ ». « وجَنَّة الله التي عرضُها السمٰواتُ والأرض ، سيُسكِنُ فيها من يحبُّهم ويحبُّونه ». .

وعلى هذا كانت بداية الخلق : حب من الله الرحمن الرحيم ، ثم تكون نهاية الخلق : اختيـار الله للمحبِّين له المحبوبين منه . . فالله سبحانه وتعالى يحب من أحبهُ ، فجاء في الحديث القدسيّ قال : ﴿ **وجبت محبتي للمتحابين فيَّ** ﴾. ورسوله قال : « اللهمَّ اجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلي ». « من أحبَّ لله وأبغَضَ لله فقد استكمل الإيمان ». .

ولو لم يكن محمد بن عبد الله ﷺ أحبَّ الخلق إلى الله ، لما

أوجبَ محبَّته علينا جميعاً ، بقوله سبحانه : **قل لصفوة خلقي وخلفائي في أرضي ، عليهم أن يقتفوا أثرك ويقتدوا بك ، حتى يبرهنوا باتباعك حبهم لي قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**[1] .

ومن أعجب العجيب ، أنَّ فئات من الناس ، تزهد في الحُبِّ ، وتريد أن تعيش في ظلمات القهر والفراغ . . . ذاك أن تلك الفئات لا تعرف الحُبّ بمعانيه السامية الجميلة ، أو لأنها تعتقد أن الحب والميوعة توأمان لا يفترقان ؛ فهؤلاء ليسوا حُجَّةً على الحقيقة نستعملها لظُلم الحب الذي هو ـ من منطلقاته الجميلة ـ لا يعني إلاَّ نُشدان الحق والخير والجمال . . فإذا نشرنا ألوية الحب في النفوس ، ورعيناه بكل جهودنا ، فإنه سيُنبت في النفوس الصفاءَ ، والطمأنينة وحبَّ الحياة .

نعم . . إنَّ الحُـبَّ نِعمةٌ ربَّانيَّة ، وهبها الله لعباده ، ليَعرفوا به الله ويحبُّوه ، وليعرفوا به ملائكتَه ورُسُلَه وأنبياءه ويحبوهم ، وليَعرفوا أنفسهم ويحبُّوها ، وليعرف الناسُ الناسَ فيحبّ بعضهم بعضاً . .

نعم هذا هو الحُب ، هو نور يشعُّ في القلوب فينير أرجاء الحياة ويعمل على بنائها ؛ فمن رام الحياة وجبت عليه محبتها ورعايتها ، كما أن رعاية الحياة الآخرة لا تكون إلا بمحبتها والعمل لها . . هذا الحب بجميع معانيه دخل قلب خديجة بنت خويلد ، عندما التقتْ بمحمد بن عبد الله لدى عودته من رحلته ، فأرادت من صميم قلبها أن

---

(١) سورة آل عمران ٣١ .

تكون له زوجاً ، لا هياماً ، ولا رغبة في امتلاك هذا الشاب الهاشميّ ، بل لأنها أحسَّت في حُبِّه إشراقاً روحياً ، وصفاءً نفسياً ، جعلاها تنظر إلى الحياة نظرة الأمل والسعادة ، فلم تعد تعبأ بسنِّها ـ والحبُّ لا يُقيمُ وزناً للسِّنِّ ـ ولم تحفل بجمالها ، ولم يعد لأمرٍ مادِّيٍّ قيمة في نظرها . . . فقد أحبت محمد بن عبد الله في كل حال . .

وخديجةُ مثال المرأة الرصينة ، فهل يعيبها أن تعرض على محمد الزواج منها ؟ لا ! لا ترى غضاضةً في ذلك . .

ولكنَّ المرأة يغلب عليها الحياءُ عادةً ، فلا تجرؤ على البَوح بحبها ! ولذا آثرَت خديجة أن ترسل صديقتها نفيسة بنت منبّه إلى محمد ، لتقف منه على رأيه بالزواج ، فإن آنستْ به مَيْلاً إليه ، أفضتْ له صراحةً برأي خديجة . .

وذهبت نفيسة تسأل عن محمد حتى وجدته . . ولكنها ما إن وقع نظرُها عليه حتى تملَّكَتها رَهبةٌ غريبة ، فسكتتْ . .

ورأى محمد الارتباك بادياً عليها ، فأغضى ومال بطرفه عنها ، وسألها بلهجة مُطَمْئِنةٍ عما تُريد . . . وكأنه عندما أشاح بنظره عنها قد أذهب عنها الرَّوع ، فحاولت أن تحدِّثه ، ولكنها رأت أن لسانها ما زال يتلعثم ، وكلماتها ما زالت تختنق ، فصمتت من جديد . .

صمتَتْ نفيسة ، فراعَى محمد هذا الصمت ، ولم يُحرِجها بالكلام بضع لحظات . . ثم قال لها : بصوت خافت ، هادىء :

ـ أفْصِحي يا خالةُ عما جِئتِ من أجلِه . . .

فكأن كلماته هذه كانت بمثابة رَوْحٍ جلَبَ السكينة إلى نفسها ؛ فلم تلبث أن عادت إليها رباطة جأشها وأحسَّت بالارتياح ، فبدأت تُطري صفاتِه الكريمة التي عرَفها الناسُ فيه ، وتعدِّد مزاياه الحميدة التي أقرَّ له بها أبناء قومه ، وأطالت فلم تجرؤ على الدخول في صُلب الموضوع ، ومحمد مطرق ، مُصغٍ بكل حواسه كما هي عادتُه مع المحدِّثين ، ولكنها قالت أخيراً :

ـ وما يمنع سيِّدي ، وقد اكتمل فيه رونق الشباب ، أن يتزوج ؟!

.. لم تبدُ على محمد دهشةٌ ، ولم يَبْدُر منه استغرابٌ ، حين سألته نفيسة عما يمنعه عن الزواج ، لأن الزواج من الأمور الهامة في الحياة ، ولا ينبغي للمرء أن يأنَفَ التحدُّث بموضوعه ..

فأجاب بلهجته المعهودة الصادقة ، إنه لا يملك المال الكافيَ الذي يجعله يُقدِم على الزواج وتحمل مسؤولياته ..

وكأنَّ نفيسة وجدت في جوابه الضالَّة التي تبحث عنها ، فقالت للفَور :

ـ ولكن أغنياء قريش وسادة العرب بأسرهم ، لا يبخلون على سيِّدي لا بالمال ولا بالجمال ، إذا رغِب في مصاهرة أحدهم !..

فقال لها محمدٌ : إنه لا يطمع في مال ، ولا يُغريه جاه ولكنه عندما يعتزم الزواج ، فإن اختياره سيقع على المرأة التي تتحلى بجمال الخُلق قبل جمال الوجه ، وبغنَى النفس قبل غِنَى المال والثراء ،

وبالطهارة قبل الجاه ، وبالشرف قبل النسب ، وبالوفاء قبل أي شيء آخر . .

ـ فإن كُفيتَ ذلك يا سيِّدي ، ودُعيتَ إلى الجمالِ والمالِ والشرف والكفاءة ، ألا تُجيب ؟ . .

قال : فمن هي ؟! . . قالت على الفور : خديجة . . خديجةُ بنت خوَيلد يا سيِّدي ؛ سيِّدةُ نساء قريش . إنها أعلاهُنَّ شرَفاً وكمالاً ، وأكثرهنَّ مالاً ، وأحسنهنَّ خُلُقاً وجمالاً . وقد خطبها أكابر القوم ، وقدَّموا لها الأموال والخدَم ، وما شاءت وتمنَّتْ . . فصدَّت كل من خطبها لنفسه . . وهي الآن تريدك زوجاً إذا شئت . .

فكَّر محمدٌ قليلاً ، ثم شكرَ للمرأة سعيها الحميد ، وقال : ـ إن مشيئة الله فوق كل مشيئة ؛ فإن رغِبتْ خديجةُ بنتُ خويلدٍ في الزواج مني ، ثم أراد الله ذلك ، فلا رادَّ لما سبقَ في قضائه عزَّ وجلّ . ثم لم يزد على ذلك شيئاً إلَّا أنَّه كلَّفَ نفيسة أن تقرِىء خديجة السلام حين قامت لتوديعه . .

ذهبت نفيسة إلى صديقتها وأخبرتها بما دار بينها وبين محمد من الألف إلى الياء ، فرأت خديجة أن جوابه يحمل الإيجاب أكثر مما يحمل الرفض ، فباتت في انتظاره في يومٍ ما . . وصدق حدسُها . . . إذ لم تمضِ إلا أيام معدودة ، حتى ذهب إليها محمد يبحث الأمر معها ؛ فدار بينهما حديثٌ صامتٌ ، وحوارٌ هادىء ، ثم صارحته خديجة بحقيقة شعورها بأدب المرأة المهذبة الشريفة ، وبلهجة

السيِّدة الرصينة ؛ فنالت رِضاه وإعجابه . .

محمد الزوج

ولم يمضِ شهران على ذلك ، حتى تمت الدعوة لعقد قران محمد على خديجة بحضور كبراء مكة ، وأشراف قريش ، وما إن اكتمل الجمعُ حتى قام أبو طالب خطيباً فيهم ، فقال :

« الحمدُ لله الذي جَعَلنا من ذريَّة إبراهيم ، وزَرْعِ إسماعيل ، ومعدِن معد ، وأصلِ مُضَر ، وجعلنا حَضَنَة بيته ، وسُوَّاسَ حَرَمِه ، وجعل لنا بيتاً محجوجاً ، وحَرَماً آمناً ، وجعلنا الحُكَّام على الناس .

وإنَّ ابن أخي هذا محمد بن عبد الله ، لا يوزن برجُل إلا رجح به شرفاً ونُبلاً ، وفضلاً وعقلاً . فإن كان في المال قِلًّا ، فإن المال ظلٌّ زائل ، وأمرٌ حائل . ومحمد مَنْ قد عرفتُم قرابته . وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذلَ لها ما آجلُه وعاجِلُه اثنتا عشرة أوقية ونصف ذهباً ، وهو والله بعد هذا له نبأٌ عظيمٌ وخطرٌ جليل » .

وجلس أبو طالب ، بعد خطبتـه تلك ، فوقف ورقة بن نوفل ، ابن عم خديجة ، وردَّ قائلاً : « الحمد لله الذي جعلَنا كما ذكَرْتَ ، وفضَّلنا على ما عددت . فنحنُ سادةُ العرب وقادتُها ، وأنتم أهل ذلك كله ؛ لا تنكر العشيرة فضلكم ، ولا يرد أحد من الناس فخركم ولا شرفكم . وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم ، فاشهدوا يا معاشرَ قريش تزويج خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله » .

لقد قام ورقة بن نوفل يُشهِد على التزويج ، لا لأنه أقرب الناسِ من خديجة بل لأنه كان مخولاً عندهم بعقد القِران . ولذا قام من بعده عمُّ خديجة عمرو بن أسد ، وزوَّج ابنة أخيه من محمد ، لأن أباها خويلد كان قد مات قبل حرب الفِجار ، وكان هو وليَّ المرأة من بعده . .

. . وهكذا اختار محمدٌ المرأة التي وجد فيها الأنس والحنان يُفيضهما قلبٌ نقيٌّ ، ونفس صافية إلى جانب الشرف والعزَّة ، والعِفَّة والطَّهارة ، فكأن الله سبحانه أراد أن يعوِّضه عن عطف الأمِّ الرؤوم ، وحدب الأب الكريم ، فوهبه خديجة الفاضلة لتكون له زوجاً صالحةً ، وأُماً حادبةً ورفيقة حياة وفيةً . . فعاش الزوجان في هناء وسعادة ، يغمرهما الحبُّ وتجمعهما الإلفة . .

وإذا كان مال خديجة وفيراً ، فقد جعلت إلى زوجها السلطة التامة للتصرُّف به ، وفوَّضت هذا الزوج الكريم أن يصرف ما شاء وكيف شاء ، وإن كان لم يغرَّه المال في يومٍ من الأيام . . فأبقى أكثر مالها ، رأسَ مالٍ لتجارتها ، وجعل بعضه في سُبُل الخير ، وبعضاً لذوي الحاجات ، فلم يجد ذا مسغبة إلا أشبعَه ، ولا ذا متربة إلاَّ رفعه ، ولا ذا حاجة إلاَّ ورأب صَدعَه ، حتى صار عَلَماً في العَون والرحمة والإحسان .

ولم ينسَ ، وحاشا أن ينسى في غِناه ، عمّه الذي كفِلَهُ وأحبَّهُ وقرَّبه على أبنائه ، فإنه كثيرُ العيال ، فلم يلبث بعد زواجه بقليل ، أن ذهب إلى عمِّه العباس ذي المال الوفير ، وعرض عليه أن يعيل بعض

أبناء أخيه أبي طالب ، ليخفِّف عنه العبء ، فوافقه العباسُ على رأيه ، وكفل ابن أخيه جعفراً . ثم كفل هو ابن عمِّه عليّاً ، يربِّيه في كنفه ، ويقوم على رعايته ويبذل في سبيله خيرَ ما أوتيَ من وسيلة وجُهد . . .

وتَشهد خديجةُ ما يقوم به زوجُها من أعمال البر والخير ، فتمتلىء نفسها بالسعادة ، ويمتلىء قلبها بالغبطة ، فتشجِّعه راضيةً ، مطمئنةً ، إلى كل عمل يأتيه ، موافقةً على كل تصرُّفٍ يقوم به . وتُقبِل على عليٍّ ترعاه كالأم الحنون ، وتحبُّه كالابن العزيز لأنها ترى فيه النجابة والنبوغ ، وترى في وجوده ما يرضي زوجها ويُسعدُ أيامه . .

لقد عرفَت خديجة زوجَها محمداً على حقيقة نفسه ، فرأت فيه العظمة ، ولمستْ فيه الكمال ، وآنست منه الطيبة والوفاء ، والخُلُق والسَّمح ، ونُبل الشمائل ، فعاشت معه سعيدة ، قائمة على مودَّته ، عاملة لرضاه . .

وزاد في سعادة هذه الزوجة ، ما رزقها الله من بنين وبنات ، فقد كان لها منه القاسم ، وعبد الله (الطيب الطاهر) كما لُقِّب ، ورقية وزينب وأم كلثوم وفاطمة عليْهم السلام ، فأنِسَ الوالدان بهذا الفَيضِ من نِعَمَ الله ، وأقبلا على تخليق أولادهما بأخلاقهما ، فرفرفت على ذلك البيت أجنحة السعادة من جميع جوانبه ، وغمرَ الأمانُ جميع أرجائه . .

ولكن صفاء الأيام لا يدوم طويلاً ، والحزن لا بدَّ أن يُعكِّر صفو

الإنسان ، أيّاً كان هذا الإنسان ، ومهما كانت مزاياه وخصاله . . فهذا محمد يحتسب ابنيه القاسم وعبد الله ، فيحزن لهما ، ويتألم لفقدهما ، ويزيد في آلامه ما يراه من حزن زوجه خديجة وحسرتها ومرارتها .

فكانت المصيبة كبيرة ؛ ولكنَّ حكمة الزوجين البالغة كانت هي الأقوى ، فاستطاع محمدٌ أن يواسي نَفسَه ، ونفس زوجته ، واستطاعت خديجة أن تملأ فراغ زوجها العظيم ، ورأيا ـ معاً ـ في بناتهما ما يعوِّض عليهما فقدان البنين ، فأحاطاهنَّ بالبرِّ والمحبة ، وجعلاهن في موضع إكرام وإعزاز . .

ويعيش محمد لعائلته ، فلا يدع الحزن يسيطر عليها لأنها مدار اهتمامه الشخصي ؛ ولكن اهتمامه بعائلته لم يكن صارفاً له عن الاهتمام بحياة الجماعة ، بل ظلَّ على دأبه ، قائماً على مشاركة أبناء قومه في كل شأن من شؤون الحياة العامة ، ما دام فيه أمر جامع ، ونفع عام . أما إذا واجه عداوة أو بغضاء ، أو رأى اندفاعاً في إثم ، أو إلحاحاً في أثرةٍ ، فإنه كان يندفع لمحاربتها بشتى الوسائل ، حتى يقوِّم ما يستطيع تقويمه ، ويبعد منها ما يمكنه إبعاده . .

ويظل على هذه الحال لا يُهمل حقوق عائلته ، ولا يتوانى عن واجباته حيال جماعته حتى يبلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، وتكون قريش في تلك الحقبة منشغلة بأمر الكعبة ، تريد إعادة بنائها ، بعد أن طغى عليها سيل جارف ، انحدر من الجبال ، فخرَّب البناء وصدَّع جدرانه ، ولكنَّها كانت تخشى الإقدام على هذا الأمر ، لِما للكعبة من

قدسية ومهابة . . فهي بيت الله الحرام ، الذي يأتيه الناسُ حاجِّين متبرِّكين منذ أيام إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام . .

أجل ، توجَّلُوا من هدمها وإعادة بنائها ، ولكن السَّيل خرَّبها فأصبح مفروضاً على قريش هدمها وبناؤها من جديد كيفما كانت الحال ، فمن الإهانة للكعبة أن تبقى مُتصدِّعة ، فهدمُها يبرِّره التجديد والعناية بشأنها ، فهل تُقدم على هذا الأمر الجليل ؟ . .

تشاورت قريش في هذا الشأن ، وأقرَّت الهدم والبناء على الفور ، ولكنها اشترطتْ ألاَّ يُنفق مالٌ في سبيل الكعبة إلاَّ إذا كان مالاً طيباً ، لا يُخالطه أي خبَث في دِيَةِ دَمٍ هُدِر ، أو رِبا مال أُخِذَ ، أو مهرِ بَغِيٍّ اسْتُحِلَّ حتى يتقبَّل الله العملَ ، ويكون خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى . .

وهكذا عزمَت قريش ـ بنيَّةٍ خالصةٍ وبعزيمةٍ صادقةٍ ـ على إعادة بناء الكعبة ، فاقتسمت جوانبها أربعة أقسام ، لكل قبيلة جانب تقوم بهدمه وبنائه : فكان لبنى عبد مناف وزهرة الجانب الذي يقع فيه شق الباب ، ولبني مخزوم ومن انضمَّ إليهم من بُطون قريش القسم الواقع ما بين الركن الأسود والركن اليماني ، وظهر الكعبة لبني جُمح وسهم ، وشقُّ الحِجرِ ـ وهو الحطيم ـ لبني عبد الدار بن قصيّ ، ولبني أسد بن عبد العزّى بن قصيّ ، وبني عدِي بن كعب .

قد تمت القسمة . . وكان قد سبقها العزم . . ولكن مَنْ يُقدِم على الهدم ، وضرب المِعْوَل في حائطها أو سقفها ؟ . فالخوف

والرهبةُ ما زالا يسيطران على النفوس ، ولا أحدَ يجرؤ على البدء . .

وتظل قريش تتردد حتى يقدم الوليد بن المغيرة المخزومي ، ويبدأ ببعض من جانب الركن اليماني وهو يقول : « اللّهمَّ لا نُريد إلاَّ الخير . » .

وحده المغيرة أقدم في يومه على ذلك العمل ، وظلَّ فيه حتى أمسى ، وأمسى الناس ، وهم ينتظرون ما الله فاعلٌ بالوليد ، حتى إذا أصبح ولم يُصبه أذىً وعاد إلى عمله كيومه السابق ، اندفع الجميع من قريش إلى الهدم ، إذ هم أحق بهذا الشرف من سائر قبائل العرب . ولذلك كنت ترى بينهم من بني هاشم أصحابَ السقاية : أبا طالب والعباس وحمزة ومحمداً ﷺ وبني أعمامه ، ومن بني أمية أصحاب الراية : أبا سفيان بن حرب وأولاده ، ومن بني نوفل أصحاب الرفادة : الحارث بن عامر وأهل بيته ، ومن بني عبد الدار أصحاب السدانة والحجابة ودار الندوة : عثمان بن طلحة وعشيرته ، ومن بني أسد : يزيد بن زمعة بن الأسود صاحب رياسة الشورى ، ومن بني تميم : أصحاب الاشناق والدّيات والمغارم : أبا بكر الصدّيق (رضي الله عنه) وعبد الله بن جدعان ، ومن بني مخزوم أصحاب القبة والأعِنة : الوليد بن ربيعة وابنه خالد ، وعمرو بن هشام (أبا جهل) ومن بني عدِي ، أصحاب السفارة : الخطّاب وابنه عمر وسعيد بن زيد ابن نفيل ، ومن جُمح أصحاب الأزلام والقداح : صفوان بن أمية وإخوته ، ومن بني سهم ولاة الأموال المحجرة لآلهة قريش : الحارث ابن قيس وعشيرته . . .

نعم اندفع أبناء قريش الأكرمين في العمل حتى انتهى الهدم إلى حجارة صُفْرٍ ضربوا عليها بالمعول فارتدَّ عنها ، فاتخذوها أساساً للبناء فوقه . .

وانكبَّ كل بطن من قريش ، يرفع قسمه من البنيان حتى صار في طول قامة الرجل ، وآن وضع الحجر الأسود في مكانه ، فاختلفوا عليه ، وأراد كلٌّ أن يكون له هذا الشرف العظيم . وكان أبرز من أرادوا الاستئثار بوضع الحجر في موضعه بنو عبد الدار ، باعتبارهم أصحاب سدانة البيت منذ أيام جدهم قُصَيّ . لقد أقسموا أن يمنعوا أية قبيلة عن ذلك وإلاَّ فالموت المحتَّم . . وحالفهم على الموت بنو عديّ بن كعب بن لؤي ، فجاء بنو عبد الدار بجفنة مملؤة دَماً ، وأدخل المتحالفون أيديهم فيها حفاظاً على العهد الذي أخذوه على أنفسهم . . .

فنشب الخلاف بين بطون قريش ، واحتدَّ الخصام عدة أيامٍ حتى كاد القتال أن يقع وتزهق الأرواح لولا أن دعا أبو أميَّة بنُ المغيرة المخزومي وكان يومها أسنَّ قريش كلها إلى اجتماع عُقِد في داخل الحرم ، وقام فيهم خطيباً ، يدعو إلى الوفاق والوِئام ، ثم عرَضَ على الجميع الحلّ الذي ارتآه ، آملاً أن ترضى به كافة الأطراف ، فقال : « والآن يا معشر قريش ، أدعو إلى حَكَمٍ عادل ، يُنصف فيما بينكم ، وإن رأيتم أن الخيار يعوزكم ، فاجعلوا الحَكَم أول من يدخل هذا الباب » وأشار بيده إلى باب الصفا .

وكَمثل رياح هوجاء هبَّتْ فجأة ، ثم ارتحلت دون أن تخلف وراءَها

إلا شمساً مشرقة ، وجوّاً صافياً ، ذهبتِ العصبيَّةُ ، وهدأ الغضبُ في النفوس ، وسكنَ حماسُ القوم ، ولم يظهر أيُّ معارض مما دلَّ على الرضا بما قال ، فتوجهتْ أنظارُهم نحو باب الصفا وراحوا ينتظرون . . . وكالخاطرة العابرة رأوا محمداً أول من يدخل من ذلك الباب فهتف الجميع : يا لله إنه الصادقُ الأمينُ محمدُ بن عبد الله ! . وليس أفضلَ منه خُلُقاً ولا أعدلَ منه حَكَماً ! . .

وصلَ محمد وحيّا القومَ ووقفَ بينهم ، فألقَوا عليه عبء التحكيم في الأمر بعد أن عرضوه عليه . . فأدار ناظريه في جوانب الكعبة ، ثم رفع برأسِهِ نحو السماء . . . وبعد لحظات تأمُّل وتفكير قال للقوم : « هلمّوا إليَّ ثَوباً ».

وجاؤوه بالثوب ، فأخذَ الحجر ووضعه بيده فيه ، والجميع ينظرون إليه مشدوهين ، ثم قال لهم :

ـ لِيَأخُذ كبيرُ كلِّ قبيلة بطَرفٍ من أطراف هذا الثوب وارفعوه جميعاً . . ففعلوا ، عندها اعتلى محمد إلى موضع الحجر الأسود من البناء ، ثم تناوله من الثوب ، ووضعه بيده الشريفة في مكانه ، ثم طلب أن يناولوه بعض الحجارة ، ففعلوا ، فبناها فوقه . .

وبذلك حسم محمد ﷺ خلاف القوم ، وفضَّ نزاعهم فعادوا إلى العمل حتى أتموه ؛ وعادت الكعبة بيتاً لله حراماً ، وستظل بيت الله الحرام ، وعلى قدسيتها وطهارتها ، مؤلفة للنفوس ، جامعة للقلوب بإذن الله حتى تقوم الساعة . .

تلك كانت حكمة محمد بن عبد الله ﷺ . وهكذا كان تدبيره الرشيد ، عندما حجب دمَ العباد ، وأقام قاعدة المساواة بين الناس ، من خلال ذلك العمل الرائع الذي ساوى فيه بين جميع قبائل قريش وبطونها ، مما جعل قريشاً كلَّها تُقِرُّ له بالحكمة ، وبالرأي السديد ، وهي قانعة بما أقرَّت ، لأنَّ محمداً ما فعل ذلك إلاَّ لخيرها ، ولن يفعل إلا ما فيه الخير . .

ثم تتعاقب الأيام بعد إعادة بناء الكعبة ، وربُّ البيت قائم على رعاية شؤون بيته ، يملأ قلوبهم حناناً وعطفاً بطيب معشره ورفق معاملته حتى باتوا يشعرون أنهم أسعد الناس حقاً . .

. . وكبرت بناتُ محمدٍ ﷺ وتزوجت الواحدة تلو الأخرى . تزوجت زينبُ من ابن خالتها ، أبي العاص بن الربيع ابن عبد شمس . وتزوجت رُقيةُ وأختُها أم كلثوم من ابني عمهما أبي لهب .

أما فاطمة عليها السلام فكانت ما تزال في فجر طفولتها فظلَّت في بيت أبيها ، مع ربيبه عليٍّ عليه السلام ، ومع زيد بن حارثة ، الذي كانت خديجةُ قد أهدتهُ لزوجها محمدٍ ﷺ فأعتقه وتبنَّاه ، فصار يُدعى زَيد بنَ محمد . . .

وتنقضي على إعادة بناء الكعبة خمسُ سنوات ، كان خلالَها محمد ﷺ خيرَ مشارك في حياة بني قومه . لقد نظَّم حياته ـ وكأنه يُعدُّ نفسه للدعوة الكبرى والمهمَّة العظمى ، أو كأنَّ شيئاً يُلحّ بالتفرُّغ لإدراك الحقائق واكتشافها ـ فاستأجر من يعمل في تجارة زوجته التي

رغبت ـ هي نفسها أيضاً ـ ألاَّ يخرج زوجها في تجارة خارجية ليتفرَّغ إلى إدارة الأموال وهو في مكة ، وليكون لديه متَّسعٌ من الوقت ينصرف فيه إلى مشاغل نفسه ، وهي كثيرة على ما تعرف . . فقد كانت تراه دائم التفكير والتأمل بأمورٍ كبيرة لا تدركها هي ذاتها ولم تشأ إزعاجه في البحث عن معرفتها . .

لقد كانت خديجة على حق ، فمحمد مشغول دائماً ، وشغله كان بكل ما يدور حوله . . إنه يرى العرب مُكِبَّةً على عبادة الأوثان والأصنام . . فيتفكر بمعبوداتهم من الجوامد التي لا تضر ولا تنفع ، والأشجار التي تُقطع ، أو الأكوام المخلَّقة من التمور التي تؤكل ، هل هي حقاً آلهة ؟ وهل تستأهل أن تكون موضعاً للعبادة ؟! .

وهو يرى اليهودَ والنصارى ، يعيِّرون العرب بعبادة الأصنام والأوثان ، ويزرعون في نفوسهم الشك حولها ، حتى إن تقديسها قد زال من نفوس الكثيرين من أهل مكة ، بل من القرشيين أنفسهم ؛ وهو يعلمُ قصة الأربعة من قريش ، الذين اجتمعوا وتحاوروا وتشاوروا ثم انتهى بهم الأمر إلى الانصراف عن عبادة الأوثان ، وخرجوا وهم يتوافقون على القول : « نعلم والله ما قومنا على شيء ، وإنهم لفي ضلال . فما هذا الحجر الذي نطوف حوله وهو لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضر ، ولا ينفع ، ومن فوقه يجري دم النُّحور ! . . يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدِّين الذي أنتم عليه » .

أولئك الأربعة هم : زيد بن عمرو ، وقد ترك دين قومه وراح يطوف في الشام وفي العراق بعدما فرَّ من زوجه ومن عمِّه الخطَّاب .

وعثمان بن الحويرث الذي ترك مكة وذهب إلى بيزنطة وتنصَّر ، وحسنت مكانته عند قيصر الروم . .

والثالثُ ، عبيدُ الله بن جحش ، الذي لم يعُد يقيم عيد العزّى منذ ذلك العام ، ولا يقيم وزناً للأصنام ، وظلَّ على حاله تلك حتى أدرك الإسلام . . .

ثم ورَقةُ بن نوفل ، ابن عم خديجة ، الذي دخل في النصرانية .

وقد حملَ انصراف هؤلاء الأربعة عن معتقدات قومهم على التقليل من تقديس الأصنام وتعظيمها ، ثم ساعد على ذلك تحقيرُ أهل الكتاب للأصنام مما جعل الشك ينتشر في النفوس . .

كان محمد يرى ويعلم كل هذه الأمور ، فلا يجد في هذا ولا في ذاك ما يقنعه . . ولذلك اتخذ لنفسه سبيل التأمُّل والتفكير ، فاتجه إلى مراقبة الكون يلتمس الهدى ، وغاصَ في كُنه الكائنات علَّه يرى الحقيقة التي يبحث عنها .

وكان من عادة العرب أن ينقطع أهلُ الحكمة ، أو مَن رغِبَ في تأمُّل وتفكير ، مدةً من الزمن بعيداً عن الناس ، في مكان هادىء يخلو به إلى نفسه ، حيث يلتمس الهداية والصواب . . وكانوا يدعون هذا النوع من الانقطاع بالتجانُف والتَّحَنُّث .

فلما اشتدَّ الوَجْد بمحمدٍ من إنكار الأباطيل المنتشرة في عقيدة قومه ، ومن رفض مجادلات أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، تاقت

نفسُه إلى الاعتكاف ، فذهب إلى خير مكان يصلح للانقطاع والتحنُّث . .

نعم ، هنالك في الناحية الشمالية الشرقية من مكة ، وعلى بعد ثلاثة أميالٍ منها ، يقع جبل حراء ، وفي أعلاه كهفٌ يقال له غار حِرَاء . . ففي تلك الناحية ، لا زرع ولا غرس ، بل صخور بلا عمران ، وأرض بلا نبات ، وسماءٌ لا تعدم الصفاء ، وجوٌّ كلُّه هدوء ، فلا حيوان ولا طائر ، ولا نأمَة ولا أناس ، إذ كيف يقطنها الناس ولا يصل أحد إلى سفح ذلك الجبل إلا بعد مسيرة على الأقدام تقرب من الساعتين ، يصل إليها في طرق متعثرة ، ومسارب صعبة ترتفع بالسالك تدريجياً حتى يبلغ الغار ، في ذلك المكان الخالي الذي تهيمن عليه الرهبة ؛ وإذا أراد الإنسانُ الدخولَ ألى جوف ذلك الغار اعترضته صخرتان كبيرتان ، يضيق ما بينهما حتى لا يمكنه التجاوز إلاَّ بشق النفس . وإن أعانهُ الله ، وانسلَّ من بينهما ، وجد نفسَهُ في وحدة تامة ، معزولاً عن السماء ، وعن الأرض والناس ، وعن العالم كله . .

في هذا الكهف . . أي في غار حِرَاء اختار محمدُ ابنُ عبد الله ﷺ عُزلته ، فكان يأتي إليه طوال شهر رمضان من كل سنة ، مكتفياً بالقليل من الزاد والماء ، وبسراج ذابل ينير الظلمة التي تحيط به ؛ وكان من عادته ألاَّ يذهب إلى الغار إلاَّ بعد أن يطوف حول الكعبة ويتبرَّك في ثناياها ، ثم يخرج يوزِّع الصدقات ، ويتوجَّه بعدها

إلى رحلة انفراده ، بعيداً عن ضوضاء الحياة ، يبتغي التماس الحق ، والحق وحدَه . .

ولكن كيف السبل للاهتداء إلى هذا الحق ؟ ! . .

ليس صعباً على محمد ﷺ بالذات . . ففي ذاته فطرة سليمة نقية ، وصفاء وجداني ، ووعي عقليّ ، وتفتُّح ذهنيّ ، ومقومات كثيرة أخرى جوهرية تساعد على إدراك كل غاية ، مهما كانت بعيدة ! . .

نعم ، كانت نفس محمد ﷺ قوية ، وعقله فعّالاً ، وفكره ثاقباً ، وبصيرته نافذة ؛ وإلاّ ، فكيف رأى أن كلَّ ما في حياة الناس من حوله ليس حقاً ؟ . .

بقيَ عليه أن يهتديَ إلى هذا الحق الذي يُشبع نفسه ، ويروي غليلَها ، فهي توّاقةٌ إلى ذلك الحق ، هائمة في طلبه . . فما السبيل إلى ذلك ؟ . . أليس ما في الكون من عوالم وآفاق ، آيات بيِّنات كفيلة ـ من خلال تأملها ـ بأن تهديَ الإنسان إلى حقيقة وجود خالق العوالم والأكوان ؟ . .

فمن قبلُ ، اهتدى أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى معرفة الله ، من خلال تأمل هذا الكون ، وبعد أن عاب على قومه عبادة الأصنام ، وأنكر عليهم عبادة الكواكب والنجوم ، لأنه لم يرَ فيها إلا أجراماً ، تطلُع ثم تأفُل ، وتُشرق ثم تسير إلى مستقرٍّ لها . فأعلن على الملأ براءته مما يشركون ونادى : ﴿يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾[1] .

---

(١) سورة الأنعام ٧٩.

وها هو محمد ﷺ ـ بعد أن طوَتْ آلافُ السنين كيفيَّة اهتداء أبيه إبراهيم ـ منقطع في غار حراء للتبصُّر والتأمُّل ، يرقب ما في الكون الفسيح ، بأرضه وسمائه ونجومه . ويتفكَّر في أمور الناس وما هم فيه من خيرٍ قليلٍ ، وشرٍّ مُسْتَطِير . . .

ثم يجولُ فكرُهُ في شتَّى شؤون الحياة ، فيملأ تفكيرُه نفسه ، ويَعمُر فؤادَه ، ويغمرُ ضميرَه ، فيبدأ في استشفاف مكنون أسرار الكون ، وإدراك حقائق الوجود .

وكان محمد ﷺ يبقى في غار حراء حتى ينقضيَ شهرُ رمضان ، ثم يعود وعليه أثر التفكير الذي كان يُضنيه ، فتسأله زوجه خديجة عمَّا به ، فيطمئنها ويهدِّىء بالَها . . ثم لا يحلُّ شهر رمضان من العام التالي ، حتى يُعاود محمدٌ ﷺ سيرتَه الأولى . . وتبدأ الحقائق التي تشغل نفسه تتكشف له شيئاً فشيئاً . . فيرى في نومه الرؤى الصادقة التي تزيل الأستار لتبدوَ لعينيه أنوارُ الحقيقة التي ينشُد ، وليرى أباطيل الحياة ، وغرور الناس . .

ولا يَلِجُ محمدٌ ﷺ سنَّهُ الأربعين ، إلَّا وتكون نفسه قد امتلأت من رؤاه الصادقةِ المُنبئةِ بالهداية إلى الحق ، وإذا هذا الحق هو الله وحده ، خالق الكون وما فيه ، وخالق العالمين أجمعين . . فيُقبِلُ بكل جوارحه على عبادة الخالق عزَّ وعلا ، ويتوجَّه بكليته إلى ملكوت الله العظيم ، حتى يصير كامل الاستعداد لتلقي نورِ السماء ينزل عليه من خالق الأرض والسماء . .

مُحَمَّدٌ الرَّسُول

وفيما هو في غارِه يومِ السابع والعشرين من شهر رمضان ، وقد أخلد إلى النوم ليرتاح قليلاً ، إذ جاءه المَلَك جبرائيل الأمين عليه السلام وفي يده صحيفة ، فقال له : « اقْرَأْ ». فأجاب محمد مأخوذاً :

ـ ما أقْرَأ ؟ . .

فقال له الملَكُ : « اقْرَأْ ».

فعاد يسأل : ما أقْرَأ ؟!! . .

قال الملَكُ : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾[1] .

فقرأها محمدٌ ﷺ وانصرف الملَكُ عنه ، وقد نُقِشَتْ في قلبه الكبير . . .

أفاق محمد ﷺ من غيبوبة نومه التي كانت أشبه باليقظة ، فَزِعاً ، واجِفَ القلب ، وراح يتلفَّتُ حواليه ، فلا يرى أحداً . . فأخذته رهبة الموقف . . ورأى المكان مُتَّسِعاً متراميَ الأطراف ، وضيّقا ضَيِّقاً في آنٍ واحد ! . .

نعم أحسّ بالوحشة فخرج من الغار يتساءل : من الذي دفعه ليقرأ ؟! . . وانطلق سالكاً شعاب الجبل حتى يتوسطه ، ورهبةُ الموقف

(١) سورة العلق ١ ـ ٥ .

تأخذ من نفسه كل مأخذ . . ثم ما أسرع ما سمع صوتاً يناديه : يا محمد ! . . أنت رسولُ الله ، وأنا جبرائيل . .

ورفع رأسه ليرى من يهتف بمثل هذا القول ، فإذا الملك الذي رآه في منامه ، قد ظهر على صورة رجلٍ ، كان محبب الصورة إلى محمد ﷺ . .

حدَّق محمد فيه . . فأيُّ رجُلٍ هذا ؟ إنه رجلٌ . . لا كالرجال . . مما أعاق قدرته عن السَّير ، فوقف في مكانه يجيل ناظريه في السماء : وما أعجب مارأى . . لقد رأى ذلك الملَك في آفاق السماء يملأ آفاق السماء كلها ! فهو ماثِلٌ نُصْبَ عينيه ، .كيفما تطلَّع ، وكيفما أدار عينيه . . إنه لا يرى إلا صورة واحدة : هي صورة الملَك الذي أتاه في المنام . . فلبث في وقوفه ، وفي تطلُّعه فترةً ، انصرف بعدها الملَك ، فعاودَ المسير وما أُوحيَ إليه كان يلفُّ كيانه ! .

ورجع مسرعاً إلى بيته بعد تلك الوحدة التي انتهت بالمفاجأة المذهلة . فدخل على زوجه خديجة بحالةٍ لم تألفها فيه من قبل ، ثم ارتمى في مقعده وهو يقول : (زَمِّلُوني ، زَمِّلُوني). ـ أي غَطُّوني ـ . فأسرعتْ زوجُه الفاضلَةُ تُزَمِّله ، ولبثت بجانبه مهدِّئة ، حتى ذهب عنه الروع . فطلبت إليه أن يُخبرها بالذي فيه ، فصمت ولم يقُل شيئاً . . ثم ما زالت تلحُّ عليه مُواسِيةً مدارِيَةً ، فيرتاح ويقصّ عليها الذي جرى له . .

لقد طمأنَت المرأة الفاضلةُ زوجها ، فهدأت سَوْرَةُ الرهبة وظَهَرَ الاطمئنانُ الوجدانيُّ الذي سبق إلى قلبه من ربِّه . . .

وأنصتت زوجُه الحكيمة إليه بكل جوارحها . ولم تُبْدِ جزعاً مما سمِعَتْ ، ولم تُظهر رهبةً مما علمتْ ، بل رَنَتْ إليه بنظرة المحبَّة والإكبار وقالت : « أبْشِرْ يا ابن عَمِّي ؛ واثبُتْ ، فوالذي نفسُ خديجة بيده ، إني لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمَّة !. والله لا يُخزيكَ الله أبداً . إنك لَتَصِلُ الرَّحِم ، وتَصْدُق الحديثَ ، وتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتُقْري الضيفَ ، وتُعين على نوائب الدهر »...

فألقى على تلك الزوجة نظرة مودة وتقدير ، وطلب فَسْحَ المجال له للنوم ليرتاح ..

ولكن أيَّةُ راحةٍ بعد اليوم لمحمدٍ عليه أفضلُ الصلاة والسلام فلئن نام في تلك الساعة ، فإن يقظةَ الحياة الحرَّة الكريمة كلها معلَّقةٌ به ، وآمالها معلَّقةٌ عليه ، إنه رسولُ الله إلى الناس كافة .. وقد أرسله الله ـ منذ اليوم ـ بالهدى ودينِ الحَقِّ ، لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كلِّه ولَو كَرِهَ الكافِرون : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[1]

وما دينُ الحق هذا إلَّا الوحي الذي بدأ ينزل من عندِ الله ؛ ليتلقَّاهُ محمدٌ ﷺ قرآناً عربياً جامعاً لحقائق الوجود كلها ، وفرقاناً بين كل حقٍّ وباطلٍ في فهم هذه الحقائق : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾[2] ..

فما محمدٌ ـ هذا ـ إلا رسولٌ قد خَلَتْ من قبله الرُّسُل .. إنه

---

(١) سورة سبأ ٢٨ .
(٢) سورة الفرقان ١ .

رسولٌ منذ اليوم . . وإنه لخَاتم الرُّسل ، وليس أليَقَ منه لختام رُسُلِ الله ، لأن تاريخ حياته كلَّه ، صفحات ناصعة مجيدة تفيض بالمآثر والعظائم التي كرَّست قدرة الإنسان وقيمته في ذاته ، ومكرمته عند ربِّه على أساس إيمانه وتُقاه . إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ[1] .

ولكن أبرز ما حفلَتْ به حياة هذا الإنسان وأسمى ما ينمُّ عن محبَّة ربِّه ورعايته له ، ثلاثة مِنَنٍ تشدّ كل ذي بصيرة للتأمُّل والتمعُّن . . فقد وجَدَهُ يتيماً فآواهُ ، ووجدَهُ عائلاً فأغناهُ ، ووجدَهُ ضالاًّ فهداهُ . .

نعم ، إن المنَّة الأولى هي نعمة الله على محمد ﷺ حين آواه من اليتم على الشكل الذي رأيناه في سالف سيرته الشريفة ، فدلَّ على العناية الربَّانية التي هيّأتْ له القلوب الكبيرة ترعاه وتحضنه فلا يكون طفلاً متشرِّداً ، هائماً في بيئته ، عاجزاً عن تدبير شؤون ذاته ، لا يعرف كيف يواجه ظروف الحياة القاسية التي تُذِلُّ اليتيمَ . .

أوَلَيستْ قساوةُ اليُتم وفداحتُه على اليتيم قد حملت الناس على وقف أنفسهم لخدمة اليتامى من أجل تأهيلهم للحياة الشريفة الفاضلة ؟ . .

أوليست هي التي دفعتهم إلى إيجاد المؤسسات التي تَحول دون تَسيُّب الأيتام ، وتُجَنِّبُهُم مزالقَ الحياة ؟ . .

---

(١) سورة الحجرات ١٣ .

فاليُتمُ بطبيعته قهرٌ وذل ومسكنة . . ورعايته الحقّة تُبعد ذلك عن اليتيم . وقد كانت أيام محمد ﷺ والبيئةُ التي عاش فيها بالذات ، قاسيتين ، لأنه لم يكن يومذاك من وزنٍ لغير الأمور المادية البحتة ، فلا رأفةَ بالمسكين ، ولا حدْب على الفقير إلّا عند كبيري القلوب والنفوس . .

فمن هنا تبرز قيمة أهمية الرعاية بمحمد ﷺ أي رعاية أقاربه له ، أولئك الذين عطفوا عليه وآووه وأحبُّوه إلى حدٍّ كبيرٍ فاقَ حُبهم لأولادهم ؛ فقد كان جدُّه عبد المطَّلب ومن بعده عمُّه أبو طالب ، يقرِّبانه على أبنائهما ، ويجعلان له مكانةً خاصة مميّزة عن الجميع . .

هكذا آوى الله تعالى محمداً وأغدق فضلَه عليه ، فمنَّ بتلكَ القلوب الرؤوفة ، فصان محمداً ﷺ خير صيانة . . فصدق سبحانه وتعالى إذ قال : ﴿ **ووجدك يتيماً فآوىٰ** ﴾.

أما المنّة الثانية في حياة محمد ﷺ فهي استمرار رعاية الله له منذ اشتدادِ عُوده حتى رَيعان شبابه ؛ إذ مكَّنه من الأسباب التي حوَّلتْ رغبته من الاكتفاء إلى غنىً ينهض بجميع مسؤولياته . . فقد كان لا يملك من أسباب الحياة إلّا الشيء الزهيد . تُوفي أبوه ﷺ عن شيء زهيد ، وجارية ـ هي أم أيمن الحبشية ـ وناقة . وهو خلال طفولته لم يتعلَّم حِرفة في كنف عمِّه أبي طالب ، وإن كان قد رغِبَ في التجارة ، ولكنه لم يَغُصْ في حقلها الفسيح ، فضلاً عن أنه لا يملك رأس المال الذي لا تقوم التجارة إلّا به . . . فكم كان محمد ﷺ فقيراً ! . .

ولكن كم وكم سعى وفيه الحسُّ القويُّ لأن يغالب شظف العيش . . . فجاء عَوْنُ ربِّه وأنقذه في شبابه مما كان فيه ، فأغناه بكسبه وبمال أهله (خديجة بنت خويلد) رضي الله عنها ، لئلاَّ يبقى وقت محمد ﷺ مشغولاً بالفقر الدائم الذي يصرفه عن التأمل والتفكير والتهيُّؤ لِمَا ينتظره من الأمور الجِسام التي ستكون الشغلَ الشاغل في حياته الخاصة والعامة . .

نعم لو التفتَ كُلٌّ منا إلى نفسه ، وكان في مثل تلك الظروف ، وحيداً فريداً ، لم يترك له أهله شيئاً ولا تعلَّم مِهْنَةً ، فماذا كان يفعل ، وكيف تكون الحياة بالنسبة إليه ؟ . .

فمما لا شكَّ فيه أن الأكثر قد ينحرف ويشذُّ ويصير عالةً على المجتمع ، وأن القليلَ القليل قد تُتِيحُ له الظروفُ النجاح والفلاح بأقل السبل وأيسرها . . ويبقى ذلك الصنف من البشر الذي يتذرَّع بالصبر ، ويتجنَّب العثرات ويذلِّل العقبات ويعمل ما بوسعه حتى يتغلب على الصعوبات ويصل إلى شاطىء الأمان . . وهذا لا يتسنى إلاَّ لبعض العصاميِّين والأفذاذ في الحياة إلا أنه لا يكون طبعاً إلاَّ بفضل الله ورحمته ورعايته . . لأنه سبحانه مع العبد ما دام العبد مع ربِّه ومع نفسه التي يُوجهها لصالح الأعمال ، فهو ـ على هذا الأساس ـ قد أفاض على عبده محمد بن عبد الله ﷺ نعماءَه ، ومَنَّ عليه بجوده ، إذ وجده عائلاً فهيّأ له سُبُلَ الخلاص من الفقر . وأمدَّه بالمال الوفير والغنى الواسع . . فسبحان الرزاق الكريم ، الذي أجزل العطاء لنبيِّه الكريم وقال له : ﴿ ووجدك عائلاً فأغنىٰ ﴾ .

وأما المنّة الثالثة : وهي الأهم في تاريخ محمد ﷺ فهي مِنّته عليه بالهدى إلى دين الحق وإلى صراط الله المستقيم . .

فقد نشأ ﷺ في جاهلية غبية ، فاجرة ، منحرفة السلوك والأوضاع ، فعافتها نفسُه ونفَرَتْ منها أشد النفور . . ولكنه لم يجد الطريق واضحاً سهلاً ، ولا هو وصل إلى الحقيقة بيُسرٍ ، إذْ أتعبَه أكثر ما أتعبه رعونةُ الجاهلية وضلالُها ، والتحريفُ الضالُّ الذي وجده عند معظم أتباع موسى وعيسى عليهما السلام . . فقاده هذا الاضطراب إلى التأمل والتفكير . . .

فوصل إلى الحق . . .

ولكن ربَّه هو الذي هداه إلى هذا الحق بالوحي الذي أنزله عليه ، والحقيقة الكبرى التي حملها جبرائيل عليه السلام إليه .

نعم قد أذهب الله عن نفسه الحيرة والتيه في خضم تلك المعتقدات التي غطَّتْ بيئتَه .

فتبارك الخالقُ سبحانه وتعالى ، وما أروع ما قال حين قال لرسوله الكريم : ﴿ ووجدك ضالا فهدىٰ ﴾ .



الفصل الثاني

الإعداد الإلهي لمحمد (ﷺ) وحمل الدعوة في مكة

مَراتِبُ الوَحيْ

قسَّم بعض الفقهاء مراتب الوحي إلى سبع ، وإن كانت كل مرتبة قد تتداخل مع الأخرى ، بحيث لا يمكن الفصل التام بين بعضها البعض . .

المرتبة الأولى : ـ الرؤيا الصادقة

والرؤ يا تكون في النوم . ولكنها تحدُث وتقع صادقة في الحقيقة واليقظة ، ويراها في الواقع تماماً كما رآها في المنام . . وأول ما نزَلَ الوحي على النبيِّ ﷺ كان بالرؤ يا الصادقة ، وذلك عندما جاءه روح القدس جبريل عليه السلام ودعاه للقراءة :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق ﴾ . .

والرؤ يا الصادقة هذه قد توجب أحياناً التكليف الذي أراه الله سبحانه للخليل إبراهيم عليه السلام في قصة الذبح والفداء . .

المرتبة الثانية : ـ النفث في الروع

كان الوحيُ يأتي الرسول ﷺ بما كان يُلقيه جبرائيلُ عليه السلام ،

في روعه وقلبه . بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « إنَّ روح القدس نفثَ في رَوْعي لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ، فاتَّقوا الله وأجملوا في الطلب ».

وفي هذه المرتبة كان التكليف من الله سبحانه لروح القدس جبرائيل عليه السلام أن يلقي في نفس محمد وفي قلبه وعقله ما يريد أن يوحي به لرسوله الكريم . فيكون جبرائيل الوسيطَ لإلهام أمر الله تعالى .

المرتبة الثالثة : ـ المخاطبة وجاهة

والمخاطبةُ هنا هي مخاطبة الملك جبرائيل للرسول ﷺ وجاهة حين كان يتمثل له رجلاً . وهذا التمثيل كان تجسيداً للروح الأمين ، حيث يظهر للرسول بصورة رجل بهي الطلعة ، يجلس إلى محمد ويلقِّنه أوَامر ربّه ، فيعي ما يقوله له . .

والمعروف عنه ﷺ أنه قال : كان جبرائيل عليه السلام يأتيني بصورة دحية الكلبي ، وهو رجل جميل كانت صورته محبَّبة إلى النبي ﷺ .

المرتبة الرابعة : ـ الاتحاد في الروح

لقد كان جبرائيل عليه السلام ، وهو الروح الأمين ، يختلط بالنبي ويمازج روحه ، فيتحدان مع بعضهما . . ثم ينقل الملك الوحي مخاطباً به روح محمد ، فتأتي المخاطبة قوية شديدة الوقع ، ذات تأثير عجيب . .

وشدَّة الوحي هذه كانت تجعل الرسول يتصبَّب عرقاً ، ولو في شديد البرد ، ويثقل جسمه ، وتشتدّ قوّته ، حتى ليكاد أن يرضّ عظم اليد أو الفخذ إذا توكّأ عليها وهي في هذه الحالة . .

المرتبة الخامسة : ـ نزول جبرائيل على صورته الحقيقية

كان جبرائيل عليه السلام ينزل بالوحي في صورته التي خلقه الله تعالى عليها . فيبلغ الرسول ﷺ ما شاء أن يوحيَه الله تعالى إليه . . كما جاء في سورة النجم ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾(١)

(أي جبرائيل عليه السلام) . .

المرتبة السادسة : ـ التلقي المباشر

في هذه المرتبة حصل الوحي مباشرة من الله تعالى ، ليلة العروج برسول الله ﷺ . إذ كان التلقّي عن الله تعالى مباشرة ، دون أي وسيط ، كما في تكليمه لموسى عليه السلام وفقاً لقوله تعالى :

﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ . . .

المرتبة السابعة : ـ الوحي من وراء حجاب

في هذه المرتبة كان الله تعالى يكلّم رسوله ﷺ من وراء حجاب ، بصورة مباشرة أيضاً وبدون وسيط . وقد حدث ذلك

---

(١) سورة النجم ١ ـ ٥ .

للرسول ﷺ ليلة الإسراء والمعراج ـ كما سترى ـ وهذه المرتبة كان قد اختُصَّ بها من قَبلُ موسى (عليه السلام) كليمُ الله ، وقد تأيدت بنصِّ القرآن الكريم . .

وفي الحقيقة إن هذا التقسيم لمراتب الوحي لا يتعدَّى كونه نوعاً من التوضيح الذي يقرِّب للأذهان الطرق التي كان يتلقى فيها محمد ابن عبد الله ﷺ رسالة الإسلام من الله إلى الناس كافة وهي في حقيقتها تبين أنها مراتب روحية حتى ولو رأى الرسولُ ﷺ جبرائيل عليه السلام ، على حقيقته وعلى الصورة التي خلقه الله تعالى عليها ، لأن جبرائيل نفسه مخلوق روحاني ، ولا يمكن للإنسان العاديِّ أن يدرك حقيقة هذه المراتب باعتبارها جوهراً روحيّاً ، بل يمكن له تصّورها فقط ، كما لا يمكن لإنسان أن يعرفها إلاَّ إذا عايشها . . ولم يعشها إلا المصْطفون الأخيار من رُسُل الله عز وجل . .

وما دامت تلك المراتب ذات جوهر روحي ، فإنها تكون متداخلة بعضها ببعض ، كما في المرتبتين السادسة والسابعة ، أو في المرتبتين الثالثة والخامسة . والتي لخَّصها القرآن الكريم بقوله تعالى :

* وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ"[1] .

---

(١) سورة الشورى ٥١ .

الإعداد الإلهي لمحمد ﷺ وحمل الدعوة في مكة

«يا محمد!.. أنت رسول الله، وأنا جبريل»..

بهذه الكلمات الوجيزة والمعبِّرة، خاطب الملَكُ جبرائيلُ عليه السلام، محمداً ﷺ وجهاً لوجه، وبيقظةٍ تامةٍ، ووَعيٍ كاملٍ لا بالرؤ يا، من أجل أن يُثبت في عقله، ويُقرَّ في نفسه، بأنَّه هو المختار من ربِّ الكون، وربِّ ما فيه من عوالم وخلائق.. فهو سبحانه اختارهُ، من بين أهل الأرض، ليحمل الأمانة الكبرى التي يكلِّفه بها، ولتكونَ دعوته هدى للناس ورحمةً للعالمين..

ولئن كان محمد ﷺ قد اهتدى إلى الحق من خلال تأمُّله وتفكيره بكل ما يحيط به، رغم أن هذا الحقّ كان كامناً في ذاته منذ أن أطلَّ على الدنيا..

ولئن كانت كلماتُ ربه قد نُقِشَتْ في قلبه ككتابٍ مسطور، عندما أقرأهُ إيّاها جبريلُ عليه السلام في الرؤ يا، وهو نائم في غار حراء، فكانت رؤ يا صادقة كفلَق الصبح..

لئن كان ذلك كلّه حقاً تجلّى في مواجهته لجبرائيل عليه السلام حين رآه على صورة رجل يملأ كل ناحيةٍ، تطلّع إليها محمد ﷺ ما بين الأرض والسماء، فإن المواجهة كانت شديدة عليه، إذ لا يمكن لأيِّ قلب إلّا أن يوجِفَ منها، ولو كان هذا القلب، قلبَ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، الأمر الذي جعله يُفاجأ فيخافُ، ويذهب إلى بيته توّاً، ليطلب إلى زوجته الرضية خديجة، أن تدثِّره بعد أن استلقى على فراشه، لعله يرتاح من هول ما لاقى ويهدأ من شدة ما عانى، ونام النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلم في هدأةٍ جلَبت القلق لزوجته المُحِبَّة الصادقة، لأنها (رضي الله عنها) ليست بالمرأة التي تستهين بأمور الزوج، أياً كانت تلك الأمور، ومهما كان شأنها من الصغر أو الكبر خاصة وهي ـ أكثر من أي إنسان آخر ـ تَعلَم ما تَعلم من بحث هذا الزوج عن الحق، ودأبه في سلوك طريق الاهتداء إلى الحقيقة، وأنها ـ أيضاً ـ في حالِ انتظار شأنٍ كبيرٍ لهذا الزوج العظيم. . . فما كانت خديجة (رضي الله عنها) ـ في مثل هذه الحالة ـ لِتتخلّى عن حملِ أعباء زوجها. فلا عجب إن قلقت عليه في هذا الظرف بالذات. ولا عجب إن رأينا الآن أن الزوج والزوجة في جوٍّ اضطراب المفاجأةِ للحَدَثِ الخطير. . .

فمحمد ﷺ تحت الدثار مضطربٌ من هول المفاجأة. . وإن كان يحملُ اطمئنان مَن وصل إلى الحق. . وخديجة (رضي الله عنها) ترفرف من حوله مضطربة في جَذَل!. وهادئة البال في قلق، لأن زوجها سيكون لا كالأزواج العاديين.

ولكن ماذا تَفْعَل؟. هل تجلس بجانبه، وترقبه، حتى يفيق من هدأته؟ وإن فعلت، وهي تحب أن تبقى بجواره، وتأنسُ بالتَّطلُّع إلى الوجه الذي تحب، وتطمئن إلى النائم الذي إليه تخلص، إن جلستْ، ونعمتْ بمرآه، فهل بعد هذا من جدوى تعود عليه وتحمل إليه الخير؟!...

لا!.. فإذن لن تبقى ساكنة.. بل عليها واجب الحركة والعمل.. ولذا تفكَّرت مليّاً، ثم قامت منطلقة.. إلى أين؟ ماذا تفعل من أجل الاطمئنان إبَّان هذه الظاهرة الغريبة؟، ثم ما عتمت أن قالت في نفسها: «عَليَّ بابن عمِّي ورقةَ بنِ نوفل.. فهو رجلٌ تاركٌ لعبادة الأوثان قائمٌ على عبادة الله، قد اختار النصرانية ديناً له، وبلغَ سنَّ الكهولةَ ونضوجَ الفكر، فلعلَّه يعلم من الكتاب، ما قد يُدخل الطمأنينةَ إلى نفسي..». نعم وجدتْ باب فَرجٍ فانطلقَتْ مهرولةً حتى أدركت ابن عمها ورقة قابعاً في زوايا تبتُّله وعبادته الخاصة، فقصَّت عليه ما جرى لزوجها، وسألته أن يخبرها بما يفتح الله عليه من تفسير لهذه الظاهرة الغريبة..

وقام ورقةُ إلى كُتُبِه، وراح يبحثُ في بطونها حتى مرَّت ساعةٌ من الوقت.. ثم أغلق الكتاب الذي كان بين يديه، والتفت إلى خديجة قائلاً: «لقد علمتُ الحقيقة... عرفتها منذ أن قصصتِ عليَّ الخبر.. ولكني أردت التأكد مما عَلِمت.. فاسمعي جيداً يا خديجة.. والذي نفسُ ورقةَ بيده، لئن كنتِ صدقتني القولَ، فقد

جاءهُ الناموسُ الأكبرُ الَّذي كان يأتي موسى، وإنَّه لَنَبيُّ هذه الأمَّة، فقولي له فَلْيَثْبُت».. .

وهل ورقةُ إلا صادقٌ فيما أنبأها به عن كُتُب ربِّه؟ وهل خديجة رضي الله عنها إلا صادقة، صدوقة فيما نقلته لورقة؟

وهل كان في كلامها إلا الصدق؟!...

فهذا الرجل النصراني ـ ورقة بن نوفل ـ الذي عرف حقيقة ما في التوراة والإنجيل، حتى قيل إنه نقل كثيراً من التوراة إلى العربية ـ قد قال هو أيضاً حقاً وصدقاً.. وهو الآن يعلن لزوجة محمد بأن زوجها نبيُّ هذه الأمَّة؟!!..

إيْ والله!.. قد نطقَ ورقةُ بالحق، ولكنه لم يقل الحقَّ كلَّه... لا لشيء، إلّا لأنه غاب عن باله أن الله تعالى لم يبعث محمداً نبياً لأمَّة واحدة. بل للأمم كافة، ولم يرسله لشعب واحد، بل لجميع شعوب الأرض قاطبة.. فلئن شهدَ هذا الرجلُ بأنَّ محمداً ﷺ نبيُّ الأمة، فقد أصاب الجزء الأكبر من الحقيقة، ثم صحَّح التاريخُ بعضَ ما غاب عن ورقة حين أثبت كلَّ الحقيقة، وشهِد لمحمدٍ بأنه رسولُ الله بشيراً ونذيراً للناس كافةً.

ففَضْلُ ورقـة (رحمه الله) أنه أدخل الطمأنينةَ إلى قلبِ خديجة الملهوف.. فعادت إلى بيتها، مسرعة الخطى، تكاد تطير لرؤية محمد والاطمئنان عليه.. فلماذا ذهبت خديجة إلى ورقة؟ وهل انتابها شك فيما قاله زوجها محمد، فأرادت أن تبدد هذا الشك؟ لا لم يكن

الشك ليخامر قلب خديجة يوماً بما يقوله زوجها محمد العظيم . . فهي تعلم بأنه لا يقول إلا الصدق ، ولا ينطق إلا بالحق . . ولكنَّ ذهابها كانت له دوافعه ، لأن أية امرأة ، مهما بلغت من الا حكمه والرصانة ، لو كانت في موقعها يومذاك ، وكانت على شاكلتها ، لكانت لها نفسُ دوافعها . فالنبأ الذي أخبرها به زوجها ، نبأ عظيم . . . وعظيمٌ جداً ! . ألم يقل لها بأن جبرائيل عليه السلام ـ أمين الله على وحيه ـ قد أبلغه الرسول المنتدَب ؟ وهل بعد هذا النبأ ما يفوقه أهمية وشأناً للدلالة على حقيقة الأمر ، وعلى صدق الدعوة والانتداب من لدن الله الحكيم الخبير ؟ وخديجة ـ وهي تعلم أنها زوجة النبيّ ـ ألا يدفعها هذا العلم للسعي إلى أهل الكتاب حتى تعرفَ شأنَ النبيين والمرسَلين ؟ . فهي تدرك بأن دعوة زوجها لعبادة الله الواحد الأحد هي قضاء على الوثنية .

أفلا تثير هذه الدعوة عداوة المشركين، وتؤلِّبهم على الداعي؟. مما سيجعل حياته في خطر، وعليها هي أن تستحضر نفسها وتُعدَّ عدَّتها للذَّود عن حياة نبيّ الله، ودفع الأذَى والخطر عنه؟. فقد فعلت حسناً إذن زوجة محمد عليه الصلاة والسلام، وقد قامت بمحاولة مباركة عندما ذهبت إلى ورقة بن نوفل كي تكون على بيِّنةٍ من الأمر، وعلى أهبةِ الاستعداد لمواجهة الأحداث التي سوف تنجم عن النبأ العظيم. . .

وعلى كل حال، فقد عادت خديجة من مهمتها ظافرةً منتصرة، إذ أكَّدَ لها ورقةُ صدق مشاعرها. . ولكنه ظفَرٌ يحمل في طياته الحَذَر،

والخوفَ والترقُّب.. فماذا عليها الآن يا ترى من عملٍ تقوم به من أجل السهر على راحة هذا الزوج المفدَّى، لكي يجنِّد قواه فيكون قادراً على حمل العبء الثقيل الذي ينتظره؟!..

وفيما كانت جالسةً إلى جانب زوجها تقلِّب الأفكار، ولا تَحيد بنظرها عنه. إذا بها ترى تنفُّسَهُ يثقُل... وترى العرقَ يبلِّل جبينَه.. ثم يصحو فجأة، وتراهُ مصغياً، منجذباً، وعيناه معلَّقتان فوق!. في ناحية معيَّنة، وكأنه في عالم غير عالم الأرض، وفي دنيا غير دنيا البشر.

فلم تجرؤ الزوجة وهي تراه على تلك الحالة من التقدم نحوه، لأنها كانت تحسُّ أن قوةً خفيةً تشلُّ حركتها، وتعقد لسانها، فتجعلها ثابتة حيث هي.. تعي وتدرك كل ما يقع عليه نظرها، ولكن دون أن تكون لها القدرة على فعلِ أيِّ شيء...

ويظل محمد ﷺ على تلك الحالة فترة لا يلبث بعدها أن يتطلَّع إلى زوجته مبتسماً هانئاً راضياً.. إذ ذاك أحسَّت خديجة بأن العبء الثقيل الذي كان يرزح تحته زوجها قد انزاح، وبأنها هي قد تحلَّلتْ من قيودٍ كانت تكبِّلها. فقامت إليه تسأل بلهفة عمَّا ألمّ به.. فقال صلوات الله عليه إنه قد جاءه جبرائيل عليه السلام بكلمات من ربه..

فلم تشأ خديجة (رضي الله عنها) أن تسأل زوجها عما أوحي إليه من الله تعالى، بل تركت له وقتاً كافياً ينقضي من ذلك اليوم دون أن تسأله.. ثم قامت على تدبير شؤون البيت ورعاية الزوج والأولاد،

إلى أن آنست هدأةً وراحةً تامتَّين، فجاءت إليه، تسألُ عن الوَحي.. ونظَرَ إليها الرسولُ بعين الرضا، ثم تلا عليها من آيات ربِّه العظمَى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾[1].

وسمعتْ خديجة التلاوة المباركة.. فصرخ بها دافع الإيمان من الاعماق بعد أن ملأ قلبها وعقلها. وأشبعَ نفسها الصافية، فقالت لزوجها: «أشهد أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنّ محمداً رسولُ الله» ثم تابعت قائلة:

قد آمنت بالله الواحد لأنه وحده الحق. وأيقنتُ بصدقِ نبوَّتكَ لأنك الصادق الأمين. ولكنَّ قلقك يا رسول الله قد أقلقني مُذْ جئتني اليوم من غار حِراء... ولم تكن الحالة التي جئتَ عليها لتَسْمَحَ لي بغير التفكير بما رأيته على وجهك من رهبةٍ للأمر الكبير والحدث الخطير... ولم يكن هولي من الأمر حينئذٍ ليسمح لي بإعلان إيماني... وها إنني الآن أشهد أنّ لا إله إلّا الله وبأنك رسول الله.. فقُم أنذر الناس لتوقظهم من سُباتهم العميق، وتخلِّصَهم من الشرك والوثنية والجاهلية العمياء، وحتى يكتب الله سبحانه لهم الهداية والفلاح.. وإنَّ الله تعالى الذي بعثَك بالحق، سوف ينصرك ـ بحوله وقوَّته ـ على كل من ناوأك، فهو على كل شيءً قدير..

هذا هو صدق خديجة (رضي الله عنها)، وهذه هي أولُ بوادر

---

(١) سورة المدثر ١ ـ ٧.

عطائها الكبير.. إيمانٌ بالله سبحانه وتعالى.. وتصديقٌ لرسوله الكريم.. ومتابعة على دعم الرسول في هداية الناس إلى الحق.. والحق وحده.

وبذلُ النَّفس.. والمال.. والمال الوفير الذي كانت تتحدَّثُ به الرُّكبان.. مال خديجة بنت خويلد وكفى.. كل ذلك بذلته خديجة في سبيل الله.. ولمرضاة رسول الله ﷺ.

كيف لا!.. والحقُّ نزل به الوحي من السماء على محمد بن عبد الله ﷺ، كي يكون النذيرَ العام للبشرية، ويكون الرسولَ الموحَى إليه، والداعيةَ لهذا الأمر الجليل...

أمَّا الرسول ﷺ فكان يعلم جيِّداً بأن صعاباً كبيرة، وكبيرة جداً، سوف تعترضه في تبليغ هذا الأمر. ولكنَّ إيمانه بخالقه الذي بعثه وبأنه وحده القوي العزيز، وبأن كل المخلوقات تستمد القوة والمنعة منه، وتفتقر في وجودها، وقوتها، وكمالها إليه.. نعم إن هذا الإيمان الشديد هو الذي مكَّن رسول الله ﷺ من أن يستصغر كلَّ أمر، ويمضي في دعوته وسط خضم الشرك، وهو مزوَّد بالقدرات والإمكانيات في خاصة نفسه التي تسخو بالبذل والعطاء وفق ما تفرضه الدعوة العظيمة التي يحملها. فإنَّ زاده في المعركة الشاقة الطويلة، التي تواجهه، سوف يكون الصبر، والصبر الطويل حتى يؤيِّده الله بنصره، ويجعله الأعَزّ الأقوى..

ذلك ما أوصى به الله تعالى رسوله الكريم عندما أمره: **﴿يا أيها المدثر، قم فأنذر...﴾**.

ومُنْذُ أن تبلَّغ الرسولُ ﷺ هذا الأمر، صار يقضي أكثر أوقاته في رحاب الكعبة الشريفة، حيث يكثُر تردُّد الناس، وتُعقد المجالس، ويجري التشاور في الأمور العامة، وتتناول الأحاديث كلَّ أمور الجماعة الخاصة، في عيشهم ومأكلهم، وملبسهم، وعملهم، وفي ممارسة شؤون حياتهم اليومية عامة.

في هذا المكان الطاهر، ومن رحاب الكعبة، أراد محمد ﷺ أن يبدأ دعوتَه، حيث ظلالُ القداسة، وأسسُ العبادة تنبثق من ذلك المكان.. فلعلَّ الكعبة المكرَّمة بما تحمل من معاني التعبُّد وربط الأرض بالسماء ـ لعلَّها توحي لمن حولها من الرواد استعداداً للهداية، فيصدِّق الناسُ محمداً بما يدعو إليه.

نعم صار محمد ﷺ يأتي الكعبة في معظم وقته، فيطوف ثم يجلس إلى الناس..

وبعد ما فرغ ذات يوم من طوافه، وجد ورقة بن نوفل في جمع حوله يحدِّثهم .. فانتظر حتى أراد ورقةُ الذهاب اخذه محمد ﷺ بيده، وانتحى به جانباً، ثم أخبره بما بعثه الله به، وراح يتلو عليه بعض آيات الله تعالى.. فما كان من ورقة إلاّ أن أمسك برأسه الشريف، وكان بصره قد كفَّ وصار عاجز النظر، وأدناه منه وقبَّل جبينه وهو يقول له: «والذي نفسُ ورقة بيده، إنك لنبيٌّ هذه الأمَّة، ولقد جاءك الناموسُ الأكبر الذي جاء موسى عليه السلام.. ولَتُكَذَّبَنَّ، ولَتُؤذَيَنَّ، ولتُخرجنَّ، ولَتُقاتلَنَّ، ولئن أدركتُ ذلك اليوم، لأنصرنَّ الله نصراً يعلمهُ».

وارتاحت نفسُ الرسول لهذا اللقاء، وشكرَ لهذا الشيخ الجليل نيَّته الصادقَة لنصرة دين الله.. ولكن الله سبحانه لم يكتب لورقةَ أن يَشهد المعركة التي قامت بين الحق والباطل، إذ لم يلبث أن توفاه الله بعد مدةٍ وجيزةٍ، وهو يدعو لمحمدٍ ﷺ بالتوفيق والتسديد.

وإذا كان ورقة بن نوفل ـ رحمه الله ـ قد نبَّه محمداً ﷺ إلى ما سيلقاه من عنتٍ ومشقة، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يعرف ما ينتظره... ولكنه وإن كانت الصعاب والعقبات شديدة، فإنه سيمضي بأمر الله قُدُماً، داعياً إلى الحق، وترك الوثنية مهما كانت المسؤولية جسيمة..

وفي ذات يوم وقد توجه صلوات الله عليه كعادته إلى الكعبة، وجد جماعة من قريش يجلسون بقربها كما هي العادة، فرأى أن الفرصة سانحة للحديث معهم عن دعوته..

فما كان أسرَع أن طافَ حول الكعبة وتقدَّم من القوم، يشارك في الحديث الذي كان يشغلهم، تماماً كما هو نهجه الذي عرف به دائماً..

وإذ احتدَمَ النقاش حول الأمر الذي هم فيه، حَلَف أحدُهم باللاَّت والعزّى على صدقِ ما يقول، فإذا بالرسول ينهاه عن ذلك ويدعوه إلى الحَلْف بالله الواحد، لأن هذه الأصنام التي يحلِف بها لا تنفع ولا تَضر...

ثم لم يلبث الرسول أن جهر بدعوته لعبادة الله الواحد الأحد

والإيمان بصدق ما يقول. . .

وكانت المصادفة شديدةً على القوم. . فراح ينظر بعضُهم إلى بعض كأنَّهم لا يصدِّقون ما يسمعون. . وتسآلوا ماذا يقول محمد بن عبد الله؟!. . وهل جُنَّ الرجل؟!. .

لا. . . لم يعرفوا عنه إلاّ الصادق الأمين، وها هو يقول قولاً غريباً. . وهل أغرب من أن يحثَّهم على ترك عبادة آلهتهم ويدعوهم إلى عبادة إله واحد؟! لقد عقدت الدهشة ألسنَتهم فلم يجيبوه، ولكنهم قاموا من حوله منفضِّين، وكل يظنُّ بمحمدٍ الظنون.

ولكن النبيّ لم يستغرب موقف هذه الجماعة، فهو يعلم أن قلوب القريشيِّين، وإنْ كانوا أهلَه وأبناء عشيرته، قلوبٌ قاسيةٌ غليظةٌ، وأنهم قد عكفوا على ما كان يعبد آباؤهم بعناد. فهل يمكن أن يتخلَّوا عن تلك المعتقدات البالية بسهولة؟!. .

إنهم وجدوا آباءهم على عبادة الأصنام، ولذلك حين دعاهم رسول الله إلى التخلي عن عبادتها لأنها لا تنفع ولا تضر، وإلى عبادة الله الواحد الأحد، ما كان جوابهم إلاّ أن يقولوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[1]!.

لقد كان النبيّ يتوقع هذا الإعراض، وهذا النفور من دعوةٍ تسفِّه أحلام الآباء والأجداد، وينتظر منهم عدم الاستجابة لدعوته. . فلم

---

(١) سورة الزخرف ٢٣.

يفاجئه موقفهم. ولكنه، وهو يعلم بأنه يحمل تكليفاً كبيراً، وأنه يرجو أن تتفتَّح أمامه السُّبُلُ التي تُزيل عن عقول القوم جهالتها وضلالتها، صار يهفو إلى لقاء الروح الأمين، جبرائيل عليه السلام، علَّه يتلقَّى منه أمرَ الله الذي يحمل إليه التوجيه الحكيم والتدبير الرشيد الذي ينبغي له أن يسلكه..

ولكنَّ الوحيَ تأخرَ، ولم ينزل جبرائيل إليه.. فزاده ذلك حزناً على حزنه من موقف القوم..

ورأى عليه الصلاة والسلام أن يذهب إلى غار حِراء.. فهناك مكان الأنس لقلبه، والطمأنينة لنفسه..

فهو المكان الوحيد الذي يبدِّد فيه قلقه عن فتور الوحي.. وهو المكان الوحيد الذي نزل فيه جبرائيل عليه السلام لأول مرة، لأنه المكان الهادىء المبارك.. وإنَّ النبيَّ ﷺ في واقع أمره، يحرص على لقاء جبرائيل ﷺ.. فهو مشتاق إلى لقاء الحبيب، ولو أن الأمر بيده، لاستعجله، لأنه استبطأ حضوره، واستطال غيابه.

ولهذا، صار يتردَّد إلى غار حِرَاء.. فيقيم الساعات الطوال، مؤملاً، راجياً، داعياً، منيباً.. ولكنَّ هذا التردد لم يخفِّف من غلواء نفسه التي ازدادت تألُّماً، إذ فوق فُتور الوحي، صار المشركون يتقوَّلون عليه، ويستهزئون به، ويقول بعضهم لبعض: «أرأيتم محمد بن عبد الله.. لقد تركه ربُّه، وقلاه..»

لقد كان أخبرهم بوحي السماء إليه.. فانفضُّوا عنه وتركوه.. ثم

فتر نزول الوحي زمناً، فراحوا يسخرون منه..

وكان النبيّ عليه الصلاة والسلام يسمع ذلك.. فيزيده ضيقاً، ويزيده حَرَجاً. ولكنّه رغم كل ما كان يواكبه في ليله ونهاره من قلق أو ضِيق أو همّ، لم ييأس.. بل ظلَّ على تلك الحالة بضعة شهور..

لقد اشتاق للقاء جبرائيل عليه السلام.. فصار ينتظره كل يوم.. إلى أن كان ذلك اليوم.. فبينما هو في انفراده وعزلته، في غارِ حِراء، إذ عاوده الوحيُ، وجاءه تنزيل العزيز الحكيم:

﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾ (١).

سبحان الله!. ما هذه الروعةُ في الإيناس، وما هذا الفَيضُ من المحبة والرضا؟..

نزل الوحي ليُطَمْئِنَ الرسولَ بأنَّ ربَّه لم ينْسَهُ، ولن ينساه.. ولم يتركه... ولن يتركه.. وما قلاه كما توهَّم المشركون، بل هو حبيبُه المصطفى، ونبيُّه المجتبى.. وإنَّ في حياته كلِّها الأدلة والشواهد الثوابت على محبة الله ورعايته له: فقد كان يتيماً فآواه، ووجده يتحمَّل مسؤولية حياته وحياة غيره، ومفتقراً إلى معونة ربِّه، فأغناه...

---

(١) سورة الضحى.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وليس هذا وحسب..

بل إن الفيض الإلٰهي يبدأ بالقسم...

فالله سبحانه وتعالى يُقسِمُ بالضُّحى الذي ينشر النور والحياة على وجه الأرض بعد هدأة الليل وظُلْمته، وسكون الأحياء وهدوئهم.. وبالليل وقد لفَّ المعمورة بعد عملِ بياضِ نهارٍ كامل، يقسم بالآيتين العظيمتين الدَّالَّتين على عظَمَة الخالق وحُسن تقديره لعباده.. إنه لم يهجر حبيبَهُ، ولا ابتعد عنه.. بل يذكِّرهُ بِنِعَمِه عليه وبألطافه به، فأية مكانة لهذا الحبيب عندك يا رب العالمين. وأنت تقسم ـ سبحانك ـ بأصفى طرفَين من النهار والليل وأشفِّهما، بأنك لم تنس هذا الحبيب أبداً، وبأنك كما اغدقت عليه من رحمتك ورعايتك في دنياه، فلَسوف تُفيضُ عليه من عطائك له في آخرته، ليكون في الحالين راضياً مرضياً؟!.

وعاد محمد عليه الصلاة والسلام إلى زوجه الرضية خديجة يخبرها بنزول الوحي عليه، ويتلو عليها آياتِ ربِّه الكريمة التي تحمل الحبَّ والرضَى والرحمة وكَرَمَ الكريم على رسوله الأمين..

جاءها منشرح الصدر، جَذِلَ الفؤاد، فتلقَّته الطاهرةُ بفرحٍ لا يقل عن فرحه، وقاما يصلِّيان إلى الله، ويشكرانه، ويُثنيان على صنيعه الجميل (إذ كان التبليغ، قد اقترن بفرض الصلاة[1] اقتراناً

---

(١) عندما نزل قوله تعالى: «يا أيها المدَّثِّر قُم فأنذر.. نزل التكليف بتبليغ الرسالة والدعوة إلى أمر الله ودينه.. ولكن لا دينَ من غير عبادة، ولا عبادة من غير صلاة.. ولذلك فرضت الصلاة ركعَتين بمجرد البعثة المحمدية، وكانت تقام مرتين في الصباح وفي المساء. وذلك بدليل قوله تعالى: وسبِّح =

زمنياً، وكان عليه الصلاة والسلام يصلي منذ البدء مع زوجته في بيته). .

وكان يقيم مع محمدٍ في بيته ابنُ عمِّه عليُّ بنُ أبي طالب، الذي جاء به منذ حداثته، يكفله ويؤدِّبه، ويربِّيه، بدافعِ ما كان عنده من مودَّةٍ في القربى، إذ كان عمه أبو طالب كثير العيال، قليل المال، فاقترح النبيُّ ﷺ على عمِّه العباس أن يأخذ كلٌّ منهما ولداً من أولاد أبي طالب يكفله، فكان عليٌّ من نصيبه وما زال عنده وفي رعايته حتى مبعثه عليه الصلاة والسلام.

وكان علي ـ يوم البعثة المحمدية ـ صبياً في العاشرة من عمره. ولكنه كان يمتاز عن أترابه بذهن متوقد، وذكاء شديد، وزادته التربية المحمدية قوةً في ذاته، لأنها كانت تشعره دائماً بأنه من أحب الناس إليه، وأقربهم إلى نفسه.. وكان وهو في مهبط الوحي يلاحظ أن حدثاً هاماً في حياة ابن عمه قد حصل. وأدرك بفطرته السليمة استغراق محمد ﷺ في هذا الحدث وانصرافه بكلِّيته إليه، ورغب في معرفته مراراً، ولكنه لم يسأل،.. ثم عاد إلى البيت في يومٍ من الأيام فوجد محمداً وزوجته يتلوان كلاماً لم يسمعه من قبل قطُّ.. فوقف يستمع مشدوهاً لبلاغة التلاوة.. وجذبه القول فوقف يتأمل حتى انتهى ابن عمه ودعاه للاقتراب والجلوس بجانبه فجاء يسأله متلهفاً عما كان يقوله هو وزوجته خديجة.. فأخبره النبيّ ﷺ بأنَّ الله بعثه رسولاً وبأنهما

= بحمد ربك بالعشي والإبكار». أما الصلوات الخمس فقد فُرضت بعد الإسراء. وصارت أربع ركعات في كل من الظهر والعصر والعشاء، وثلاثاً في المغرب وركعتين في الصبح على نحو ما هو معروف عند المسلمين..

كانا يصليان له ويسبحانه، لأنه هو الذي لا إله إلاّ هو وحده لا شريك له، وهو أحق بالعبادة من تلك الأصنام وتلك الأوثان، كاللات والعزّى التي تعبدها قريش، والتي لا تملك ضراً ولا نفعاً ولا تدفع سوءاً لأنها مجرد أحجار صماء بكماء...

وكان عليّ يصغي لابن عمه بكل جوارحه وقد بدت على وجهه علائم معبرة عن استيعاب ما يسمع.

وكان محمد عليه الصلاة والسلام يرقب تلك التعبيرات، فزاده من الإيضاح، وراح يتلو عليه من آيات الله ما يوقظ في نفسه وهج الإيمان. حتى إذا فرغ من تلاوته المرتّلة، توقف برهة، ليستعيد علي وعيه المأخوذ بجمال الآيات، فدعاه إلى عبادة الواحد الأحد وإلى تصديق نبيّه..

وجاءت الدعوة صريحة وواضحة. وكان للصبِي ابن العاشرة أن يقبلها أو أن يرفضها.

ولكن علياً وقف أمام ابن عمه يعلن إسلامه مصدقاً بأن لا إله إلاّ الله وبأن محمداً رسول الله دون أن يستشير أباه في ذلك، ثم جلس بقرب حبيبه محمد يستزيده من تلاوة آي الله الواحد الأحد.

وأخذت الغبطة محمداً عليه وعلى آله الصلاة والسلام، فاندفع يرتِّل القرآن على مسامعه، ويفسر له معاني الآيات التي يتلوها حتى أشبع نفسه، ثم أخذ يلقنه الصلاة ويعلمه أصولها...

وما إن فرغا من ذلك،الا وكان الوعي الإيماني قد ملأ نفسيهما

فركنا إلى هدوء الهناءة والسعادة. . ولكنَّ نفس علي كانت تطلب الاستزادة، فسأل ابن عمه أن يقص عليه خبر الوحي وكيف نزل عليه جبرائيل عليه السلام من السماء، فاستجاب محمدٌ ﷺ لطلب ابن عمه، ولكنه سأله قبل أن يبدأه في إخباره، عمّا منعه من الذهاب إلى أبيه ومشاورته في أمر دعوته إلى دين الله، فأجاب عليٌّ بما لم يخطر على بال أحد أن يجيب الصبي الذي هو في مثل سنه، إذ قال: «لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا إلى مشاورته، لأعبد الله. وإن هذا الذي تدعوني إليه هو دينه الذي ارتضاه لعباده، فعليَّ أن أدخل في دينه دون استشارة أحد من الناس».

ألا إنها نفحة الرضا الإلّهي عندما ينعم على عباده الصالحين فقد أفاض الله تعالى من عليائه على قلب عليّ رضي الله عنه من نعمته وفضله ورحمته، ما جعل الإيمان يعمر ذلك القلب الفتِيَّ حتى يكون عليٌّ أول مسلم، رغم حداثة سنه فهو لم يتجاوز العاشرة من عمره ـ علماً بأن والده أبا طالب لم يخفَ عليه أمر ابنه عندما عرفه ولا وقف في وجه إسلامه بل شجعه عليه.

ذلك أنه جاء مرة لزيارة ابن أخيه محمد في بيته، وكان برفقته ابنه جعفر بن أبي طالب. حتى إذا دخل وجد محمداً وابنه علياً يصليان، ومن ورائهما خديجة الطاهرة. فما كان منه إلّا أن التفت إلى جعفر رضي الله عنه وقال: يا بني، صل جناح ابن عمك. أي صلِّ عن شمال النبي ﷺ كما يصلي علي عن يمينه. . وهذا يعني بأنّ ابا طالب رضي إسلام ابنه عليٍّ، ثم أمر ابنه جعفراً باعتناق الدعوة والمبادرة إلى إقامة إحدى اهم

شعائرها، وهي الصلاة . .

وكان في بيت محمد ﷺ أيضاً غلامٌ آخر هو مولاه زيد بن حارثة الذي كان عربياً من بني كلب . . وقد اختار الله تعالى له أن يعيش في كنف محمد ﷺ رقيقاً على أن يعيش في أسرته حراً طليقاً ذلك أن الرقّ كان قد جرى عليه بالطريقة الجاهلية ، يوم أخذه جماعة من الفرسان ، وهو ابن ثماني سنوات وباعوه في سوق الرقيق . . وظلّ ينتقل من يد سيد إلى يد سيد آخر حتى آل أمره إلى خديجة بنت خويلد رضي الله عنها . فاشترته ووهبته لزوجها محمد ﷺ فصار مولى له على مقتضى العرف الذي ساد البشرية أزماناً طويلة . . .

ولكن محمداً لم يدعه مولىً ولا خادماً ، بل تبناه . . وفي ذلك ما فيه من المعاني التي سيعرض لها الدين الجديد عند حُكمه في الرق . .

وكان أبوه قد بحث عنه في بلاد العرب حتى اهتدى إليه في بيت محمد بن عبد الله ﷺ وجاء يطلبه من محمد ، فأجابه إلى طلبه ، ونادى على زيد بأن يهيىء نفسه ليذهب مع أبيه ، ولكنّ زيداً رفض ذلك مؤثراً البقاء عنده . .

وشهد الأبُ رَفْضَ الابن . . . فلم يصدق ما رأى ولا ما سمع من رغبة زيد في البقاء عبداً لمحمد بن عبد الله ﷺ فقال له بدهشة غريبة : « أتختار العبودية يا زيد على أبيك وأمك وقومك »؟ .

فارتمى زيد على أبيه يقول له : « ومن قال لك بأني عبد في

هذا البيت . والله لم أشعر قط بسعادة في حياتي كالسعادة التي تغمرني في هذه المدة التي أقضيها هنا . . . وإني يا أبي ، قد رأيت من هذا الرجل ـ وأشار إلى محمد ﷺ ـ شيئاً ، وما أنا بالذي أفارقه أبداً » . .

وعقلت الدهشة لسان حارثة ، فلم ينبس ببنت شفة . .

وكان محمد ﷺ واقفاً ، يراقب ما يجري . . وإذ رأى وفاء زيد ابن حارثة له ، ومحمد إنسان الوفاء ومقيم أواصره بين الناس ، فإنه تقدم من زيد وأعتقه ، ثم دعاه ابناً له . .

ومن يومها صار زيد يدعى في قريش : زيد بن محمد . . .

وظل زيد ابناً لمحمد بن عبد الله ﷺ حتى بعثه الله رسولاً . . وعندما نزلت الآيات التي تمنع التبني في الإسلام بقوله تعالى :

ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ (١) .

إذ ذاك ، عاد زيدُ يدعى باسم أبيه : زيد بن حارثة . .

عاش زيد في هذا الكنف الرحيم الطاهر . . ورأى أنوار النبوة تسطع في البيت الذي أكرمه وربَّاه ؛ فأسلم راغباً سعيداً ، هانئاً بإسلامه ، مغتبطاً بنبوة محمد ﷺ. وألغى سبحانه وتعالى التبني في الإسلام ، وصار زيدُ المولى زيداً بن حارثة . . بل صار زيد بن حارثة

(١) سورة الاحزاب ٥ .

هذا شريفاً بإسلامه وإيمانه ، متمتعاً بحريته واحترامه أكثر مما كان مغتبطاً بنسَبِه الأصليِّ الذي لم يشوِّهْهُ الرق ، منذ رعاية محمد ابن عبد الله ﷺ له . . .

وكذلك كانت « أم أيمن » الجارية الحبشية التي خلفها أبو الرسول ﷺ ـ عبد الله بن عبد المطّلب ـ في بيت محمد يوم البعثة المحمدية . فهي لم تتركه أبداً ، بل ظلت ترافقه وتقوم على تربيته ورعايته أينما انتقل . فمن كنف جده عبد المطّلب بعد موت أبيه ، إلى كفالة عمه أبي طالب بعد وفاة جده ؛ إلى بيت محمد ﷺ بعد أن تزوج من خديجة بنت خويلد ، فقد انتقلت معه إلى بيته الجديد ، وظلت قائمة على محبتها له وتفانيها في سبيله . .

وهكذا رافقت أم أيمن البعثة المحمدية منذ بدايتها ، وكان محمد قد أعتقها من قبل لفرط حبه لها حتى كانت عنده بمثابة الأم . . . فلما نزل عليه الوحي وصدع بالرسالة وآمنت به زوجه خديجة رضي الله عنها ، أعلنت أم أيمن إسلامها . . .

ثم شهدت بأم عينها لقاء بنات رسول الله ﷺ زينب ورقية وأم كلثوم مع أبيهن . وكان ذلك بعد أيام قليلة من إسلام زيد بن حارثة إذ جاءت بنات محمد ﷺ الشقيقات الرفيقات معاً . وجلسن إلى أبيهن وأمهن ، ينعمن بفيض المحبة التي تربَّين عليها في كنف هذين الأبوين الكريمين . . . فجلس إليهن الرسول ، وصرن يستخبرن عن الدعوة السماوية التي صدع بها أبوهن ، فدعاهن الأب إلى الإسلام ، فشهدن أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . . .

وكم كانت فرحة أم أيمن شديدة ، عندما رأت البشر يغمر وجه الرسول الذي استأنس لإسلام بناته . . حتى إذا ما قاربت الشمس على المغيب ، قامت البنات يودِّعنَ الأبوين وأهل الدار . . فدعا لهنَّ الجميع بالتوفيق والتسديد . .

ووقفت خديجة رضي الله عنها مع بناتها في صحن الدار وبقربها أم أيمن ، تنصح ابنتها رقية زوجة عتبة بن أبي لهب ، وابنتها أم كلثوم زوجة أخيه عتيبة ، وتوصيهما بالحذر والانتباه من حَمَوَيْهِما أبي لهب وزوجه أم جميل وأفهمتهما أنه لا ينبغي أن يعرفا بإسلامهما حتى لا يُناصِباهما العداء ، ويظهرا لهما البغضاء لأن حقدهما لم ينقطع قط على كل نابذٍ لمعتقدهما . . وبعد أن فرغت من رقية وأم كلثوم التفتت إلى ابنتها زينب وقالت لها: أما أنت يا ابنتي فلا خوف عليك لا من زوجك العاص بن الربيع ، ولا من أمه هالة بنت خويلد . . فخالتُك هالة تحبك حباً شديداً ، ولا يقل حبها لكِ عن حبها لي ولزوجي . . ولا تنسَيْ أن تبلغي أختي هالة وابن أختي زوجك سلامي ، وآمل أن تدعيهما إلى زيارتنا . .

وبعد أن ذهبت بنات محمد ﷺ ، التفتت أم أيمن إلى خديجة رضي الله عنها وقالت :

لا والله لا أخاف على زينب أبداً . ولكنَّ خوفي من أم جميل وما سوف تبذله من الأذى لرقية وأم كلثوم إذا وقفت هي وزوجها أبو لهب ضد دعوة رسول الله . . .

تلك هي الجماعة الأولى التي كانت في الإسلام . . وهم عائلة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وابن عمه علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة . .

أما زوجه الطاهرة فقد آمنت به منذ ابتداء الدعوة ، فكان إيمانها أمناً وسلاماً له ، لأنها أقامت له بيتاً يتوفر فيه الهدوء والبركة والأمن ، ويهيمن عليه المحبة والرضا والسلام ، فأثابها الله تعالى على حسن صنيعها بما وهبه لها من بركة اختصت بها دون سائر نساء النبي ﷺ وذلك عندما أمر الله نبيَّه أن يخبرها على لسان جبرائيل الأمين ، بأن الله تعالى يقرئها السلامَ ويبشرها ببيت في الجنة من قصب[1] لا صخب فيه ولا وصب . .

وردت المؤمنة الصادقة التحية لخالقها وبارئها ، عندما أقرأها زوجها سلامَ الله سبحانه وتعالى ـ بقولها : « الله السلامُ ومنه السلام ، وعلى جبرائيل السلام » . .

وأما علي عليه السلام فقد لازمَ ابن عمه وحبيبه رسول الله ، فكان إلى جانبه في كل مكان . . في ذهابه إلى شعاب مكة للتأمل والصلاة ، وفي ارتياده ندوات قريش ، وفي طَوافه الكثير حول الكعبة الشريفة ، حتى إنه كان لرسول الله بمثابة الظِّل لا يفارقه أبداً . . .

أما أبو طالب فكان ـ بعد أن شاع خبر نزول الوحي على محمد في مكة ـ يرقب تحرك ابن أخيه وملازمة ولده علي له . . ورغب في

---

(١) أجمع المفسرون على أن المقصود بالقصب هنا اللؤلؤ المجوَّف .

أن يعرف عن الأمر شيئاً مفصَّلاً ، فلحق بهما يوماً إلى شعاب مكة متخفياً عن الأنظار ، حتى إذا وصلا إلى ناحية من تلك الشعاب ، جلسا في ظل صخرة كأنهما يتحدثان ، فأخذ يرقبهما ، ويراهما يُكثران من رفع أيديهما مبتهلين متطلِّعين نحو السماء . . .

ولا يمل أبو طالب من الانتظار لأنه يريد أن يكتشف الشيء الذي يتوخاه ، فظل في مكانه حتى حلت الظهيرة ، فرآهما يقومان إلى قربة ماء يغسلان الأيدي والسواعد والوجه ، ثم يمسحان به الرأس والقدمين ، ثم يقفان بعد ذلك خاشعين ، ويركعان ويسجدان ولكن دون أن يكون أمامهما شيء، بل كانا يتلوان قراءاتٍ لم يستطع أن يتبيَّن ما هي لبُعده عنهما . . .

فتركهما أبو طالب حتى فرغا من تلك الصلاة ، ثم أظهر نفسه وجاء يسأل محمداً عما يقول أثناء الصلاة إذ شغل عن هذا السؤال يوم جاءه في بيته مع جعفر ، وهو يريد أن يعرف الآن بعد ما رآه يقوم به ثانية ، فأخبره محمد ﷺ بأن الصلاة هي حمد ودعاء وخشوع لله الواحد الأحد ، الذي لا شريك له ولا شبيه ، وبأن المؤمن بدين الإسلام الذي ينهى عن الشرك وعبادة الأوثان ، لا بد من أن يؤدي هذا الفرض لله تعالى . .

فسأل أبو طالب ابن أخيه : « وما هذا الدين يا ابن أخي ؟ » .

فقال له عليه الصلاة والسلام : « إي والله ياعم . . هذا دين الله . ودين ملائكته ورُسله . ودين أبينا إبراهيم عليه السلام . بعثني

الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت يا عم : أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى ، وأحق من أجابني وأعانني عليه »..

ووقف أبو طالب متفكراً بين عاملين : هل يلبي دعوة محمد ﷺ إلى دين الله الواحد ويعلن إسلامه ويقطع الصلة بالزعامة ويجعل من نفسه خصماً لعامة قريش وسائر العرب ، ويصير خصماً لهم مع الخصوم ؟ أم يظل مُظهراً بقاءه على دين آبائه الذي يشعر في قرارة نفسه بأنه دين غير مكين ، ليتمكن من الذَّب عن ابن أخيه ومن حمايته من المشركين ، ومن نُصرة الدين وحفظ سيد المرسلين وخاتم النبيين ؟ ! نعم ، قد أحسَّ أبو طالب بهوان دين آبائه أمام دعوة محمد ، ووازن الأمور بمقياس العقل الحصيف شأنه في ذلك شأن كل سيد من هذه الأسرة الكريمة من الشجرة المباركة التي أصلها ثابتٌ وفرعُها في السماء ... ولكنه تباطأ في الرد ، لأنه لم يجد عنده الجواب الفوري الذي ينبغي أن يجيب به .. فعاود محمدٌ ﷺ دعوته له من جديد ...

وظلَّ أبو طالب صامتاً فترة .. ثم لم يلبث أن قطع حبل صمته ، وقال لابن أخيه :

« إي والله يا ابن أخي ... دعْ لي فرصة التفكير .. والله لا يَخلص إليك من الناس شيء تكرهه وأنا على قيد الحياة »..

لقد كان محمدٌ ، وعلي مثله يرجوان أن يعلن هذا الشيخ الجليل إيماناً صريحاً .. وكانا يؤملان أن يحمل معهما دعوة الحق ، حتى

ينصر دين الله علناً ، ما دامت له السيادة في قريش ، وهو صاحب الرئاسة على القوم . .

ولكنهما علِما أنه لا يفعل إلاَّ ما فيه حكمة ، ولا يقوم إلا بما فيه صلاحهما وحفظهما من كل سوء . .

ولكن ، وإن كان أبو طالب لم يجاهر بالإسلام ، فإنه ناصب العداء لكل من وقف في وجه الدعوة إلى هذا الدين الجديد ، ولم يكن في كلامه لمحمد ما يثنيه عن المضي في هذا الأمر ، أو ما يثبط عزيمته على القيام به . . بل على العكس ، كان في كلامه الصريح ، مشجعاً له على الثبات في دينه ، وفي دعوته ، ومعلناً عزمه على نصرته ودفع المكاره عنه . .

وقد يتراءى للناس أن موقف أبي طالب كان على طرفي النقيض . . فهو يبدو وكأنه لم يرغب في ترك دين آبائه الذين وجدهم عليه قائمين من جهة ، ويبدو في الوقت نفسه أنه لم يعلن رفض الدعوة لدين الله ، ولم يشهر سلاح العداوة ، كما فعل غيره لهذا الدين القيِّم الذي جاء ليقتلع الشرك من جذوره ، ويبدد كل ما يتصل به ، من جميع جوانبه . . فأي دافع غلب على أبي طالب ؟ .

هل كان دافع العصبية القبلية التي تلزمه بحماية ابن أخيه ، ومن ورائها ذلك الحب الكبير الذي يحمله له في قلبه ؟ .

أم أنه آمن وأراد أن يكتم إيمانه حتى يكون لديه السبيل لمساعدة رسول الله إلى أبعد الحدود . . لأنه إن أعلن إسلامه فإنه سيكون

خصماً لقريش ، وستكون قريش خصماً له .. فيفقد الحجة التي تمكنه من حماية محمد ﷺ ومن الذود عن دعوته !...

نعم أي دافع غلب على ذلك الشيخ الحكيم ؟.

هل هي العصبية ؟

لا !. ليست العصبية بتاتاً ، وإلَّا لما كان عمه الآخر أبو لهب ـ عبد العزى بن عبد المطَّلب ، وأخو أبي طالب بالذات ، قد وقف ذلك الموقف العدائي من محمد ﷺ ، وكان من أكثر الناس حرباً على دعوته ، وأشدهم عملاً على مناهضتها ..

إذن فحكمة الله البالغة هي التي ألهمت أبا طالب الوقوف بجانب ابن أخيه ذلك الموقف الذي لا شأن له بالعصبية ، ولا حساب له في ميزان القبلية والجاهلية ، وخصوصاً عند ذلك الشيخ الحكيم الجليل .

وهل هي الأهواء الشخصية ؟.

أبداً !.. لأن حبَّ أبي لهب لابن أخيه محمد ، كان لا يقل عن حبِّ عمه أبي طالب ، فقد أحبه أبو لهب قبل البعثة حباً جمّاً وشديداً ، وقد أعتق جاريته عندما بشرته بولادته وعقد قران ولديه عتبة وعتيبة على ابنتيه رقية وأم كلثوم ، وكان يمدحه ويفخر به كلما ذكر اسمه في مجلس أو نادٍ ...

إذن فلا العصبية ولا الأهواء الشخصية هي التي جعلت كلا من عمَّيْ محمد ﷺ يقف منه موقفاً مغايراً لموقف الآخر ..

موقف أبي طالب المناصرة والمنع والحث على المضي في دعوته . .

وموقف أبي لهب نفثُ السموم ، والتمادي في العداوة للدعوة ومن يحملها ، حتى ولو كان محمداً ابن أخيه ، أو سواه من الناس . .

وموقف كل منهما يتبيَّن من خلال صفاته :

فأبو لهب كان كافراً مشركاً بالله ، دأب طوال حياته على شرب الخمر والإسراف في اللذائذ والتهتك في اللهو ، لا يرعى حرمة ، ولا يأبه لذمة . .

وأبو طالب كان على ملة أبيه عبد المطَّلب ، ملة إبراهيم عليه السلام . وقد أهلته مزاياه الشخصية لرئاسة قريش ، ورعاية شؤون القوم والقيام على خدمتهم . .

ومن صفات الرجلين يظهر التباعد بينهما في العقلية والمسلك ، وفي اتخاذ المواقف والتقرير . .

فكان من الطبيعي أن يكون موقف أحدهما مغايراً لموقف الآخر من الدعوة إلى دين الله الواحد ، دون حساب للعصبية أو للأهواء والعواطف . .

إنه المبدأ . . فإما الحق أو الباطل ، وإما الإيمان أو الكفر ، ولا سبيل للالتقاء بينهما . .

فلا يمكن لإنسان أن يكون كافراً ويناصر الإيمان وأهله . .

ولا يمكن لمؤمن إلاَّ أن يحارب الكفر وأهله . .

نعم هذا هو المبدأ ، وهو الجوهر والأساس . .

وموقف أبي طالب كان واضحاً لدرجة أن لا أحد يتهمه بأنه لم يكن عوناً لابن أخيه الداعي إلى الإيمان ، ولا أحد ينكر عليه أنه كان حرباً على الكفار ، حتى ولو كانوا أبناء عشيرته الأقربين . .

لقد كان أبو طالب في الحقيقة والواقع من الذين آمنوا برسالة محمد ﷺ . . ودلالات إيمانه كثيرة :

ـ فهو قد عرف أن لابن أخيه محمد شأناً عظيماً من أبيه عبد المطَّلب الذي كان لا يتوانى عن إعلانه على ملأ قريش كلما حلَّت المناسبة لهذا الإعلان . وهذا الشأن قد حدثه عنه الراهب بحيرَى منذ سنوات عديدة يوم كان محمد ما يزال في سن الثانية عشرة . . ولقد ظهر هذا الشأن العظيم لأبي طالب ، عندما أعلن محمد بأن الله سبحانه وتعالى بعثه نبياً ورسولاً . .

ـ وهو قد عاهد رسول الله أن يمنع عنه كل كريهة قد يتعرض لها . وفي هذا المنع حماية لدعوة الرسول ونصرةٌ لها . .

ـ وهو قد ثبَّت ابنه علياً على دين الإسلام ، ودعاه لملازمة النبي والبقاء بجانبه . .

ـ وهو الذي رفض عروض قريش السخية كي يقنع ابن أخيه بالعدول عن دعوته . .

ولقد ظلَّ ثابتاً على هذا الإيمان طوال حياته ، في كل حال ، وعلى كل حال . .

وإننا لنراه يتوجه بهذا الإيمان ، بعدما أنهى حديثه مع النبي ﷺ ، إلى ولده عليّ ، فيسأله :

« أي بني . . . إني أراك على دين ابن عمك محمد » ! . .

« ويجيب الفتى عليّ : نعم يا أبتِ . آمنت بالله وبرسول الله وصدقت بما جاء به واتبعته وصليت معه لله » .

فيبدو هذا الشيخ الوقور ـ مرة أخرى ـ يبرز من جديد ، كبيراً في نفسه ، وفي تعامله مع ابنه كتعامله مع ابن أخيه ، إذ لم يتبرم بما سمع ، ولم يضق صدره بما شهد ولم يغضبه أبداً أنَّ ابنه لم يحفل بدين عبدة الأوثان والأصنام على خلاف ذلك تماماً يُعلن له إيمانه بالله الواحد ، وبصدق دعوة رسول الله . . . ويصر هذا الابن على إيمانه ، ويدعم عقيدته ، فيقول له أبو طالب : يا بني « أما إنه لم يدْعُك إلاَّ إلى خير ، فالْزَمْهُ » . .

هذا بعض ما جرى بين أبي طالب ورسول الله ، وبينه وبين عليّ . . . فقد ظهر شيخُ قريش رجلاً حكيماً ، ومفكراً رشيداً ، وسيداً في القوم بحق ، إذ عاهد ابن أخيه أن يمنع عنه كل كريهة قد يتعرض لها ، وهو منْعٌ له حُسبانُه عند قريش وعند العرب ، وشجع ابنه على اتِّباع ما دعاه إليه من الخير . . .

وإذا كان يتراءى للناس أن هذا الموقف من أبي طالب لم يرض

رسول الله ، وأنه كان أحبَّ إلى نفسه أن يدخل عمه سيدُ قريش في دين الله ، فإن الناس لعاجزون أمام حكمة الله وحكمة رسوله وحكمة عمٍّ هذا الرسول الذي نصره باليد واللسان ونظم فيه وفي دينه من الشعر ما ملأ بطون الدواوين . . وفي كل حال ، قد حمل موقفُ العم إلى قلب ابن أخيه الطمأنينة ما دام عمه لم ينفر من الدعوة، ولم يشنَّ عليه حرباً كأبي لهب وغيره من العُتاة الجُفاة قد تعوقه عن المضي قُدُماً في الدعوة التي يريد إيصالها إلى الناس . .

إلى هنا كانت دعوة محمد ما تزال محدودة ، دون أن يتعدى الإسلام جدران بيته .

لقد حاول أن يحدِّث أهل مكة عن هذه الدعوة ، فما وجد آذاناً مُصغية ، بل إعراضاً وهزءاً . . وبذلك ظلَّ الإيمان بالله محصوراً في بيت النبّوة . . .

ولكن أمر الله ما وجِدَ ليبقى في نطاق محدود ، وإن كان هذا النطاق منطلقه ، بل يجب أن يعلَن للناس ، وتكون بداية إعلانه على الملأ من قريش ، عشيرة النبي الذي بعثه الله بأمره . . وأن يكون لهذا الأمر روادٌ ، يحملون لواءه ، وينشرون رايته خفاقة عالية . . فمن ترى يكون من هؤلاء (ومن قريش بالذات ، وفي مكة) أهلاً لهذه الريادة ؟ .

هذا ما كان تَوَجُّه النبي ﷺ إليه في تفكيره . . وإننا في الأمور الهامة والجليلة ، أول ما يندبنا العقل ، ويحثنا الشعور ، على الاتصال

بأصحاب النفوس الكبيرة ، التي نتوسم فيها القدرة على الإدراك وحمل المسؤولية ، ومن بين هؤلاء نختار ـ أول من نختار ـ الأصدقاء . . .

هذا النهج اعتمده النبي عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، فتوجه إلى أبي بكر ، عتيق بن أبي قحافة ـ عثمان بن عامر ـ لأنه أكثر من تربطه به صداقة حميمة ، ومودة صافية . .

ولم تكن تلك الصداقة إلا نتيجة معرفته بالرجل حق المعرفة . . فقد كان أبو بكر يعمل في تجارة بيع الثياب داخل مكة ، حتى صار من أشهر تجار هذا الصنف الذي در عليه أموالاً طائلة ، وجعله صاحب ثروة كبيرة ، فعُدَّ من أغنياء قريش . .

التقى به محمد بن عبد الله ، عندما زاول التجارة في صباه ، فوجده دمث الأخلاق ، رقيق الطبع ، حسن الحديث ، صادق القول ، لطيف المعشر . . فأحبه وأعجب به ، وزاده حباً عندما رآه محبوباً من الناس . . فتوثقت العلاقة بينهما ، وشهدا معاً حلف الفضول . . .

وكان يزيد في مكانة أبي بكر الاجتماعية، علمه بأنساب العرب، وإحاطته بتاريخ قريش، وإلمامه بأدب العرب وأشعارهم . .

لقد ألَّف حسن الخلق وسكينة النفس بين الرجلين، وجمع بينهما تقارب العمر، إذ لم يكن أبو بكر ليصغر محمداً بأكثر من سنتين وبضعة شهور فصارا الصديقين المتحابين، والصاحبين المتآلفين، حتى لا يمر يوم إلاّ ويلتقيان فيه على خير. . تلك المعرفة، وتلك

الصفات النبيلة بأبي بكر، كانت الدافع للرسول في الذهاب إليه، وعرض دعوته عليه..

دخل النبي ﷺ على أبي بكر في داره، فقام إليه مرحباً كعادته، وأجلسه بقربه، يحفه بالبشر والمكرمة.. ونظر أبو بكر إلى صديقه محمد بن عبد الله، فرأى على قسمات وجهه ما يعبر عن اهتمامه بأمر يشغل باله، فسأله عنه..

ولم يكن النبيّ ﷺ بحاجة لمثل هذا السؤال.. فقد جاء يقصد أبا بكر ليخبره بأنه أوحي إليه من السماء وأن الله بعثه رسولاً يدعو إلى الإيمان بالله الواحد الأحد...

قصَّ الرسول على صديقه خبر الوحي، وتلا عليه من آيات الله البينات، ثم دعاه للدخول في الإسلام.

وعرف أبو بكر الحق، فلم يتردد في الاستجابة لنداء الإيمان، سيما وهو يعرف محمداً حق المعرفة، وقد وقف من قبل على مزاياه النفسية، وخصاله الخلقية، وما فيها من خصائص النبوة ما يؤهل محمداً لأن يكون رسولاً لله الخالق والرازق. فنطق من فوره بشهادة أن لا إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً رسول الله.. وهل من غرابة في هذه التلبية والاستجابة من رجل مثل أبي بكر (رضي الله عنه) وهو يحمل في جوارحه نفساً صافية، ما لبثت أن انشرحت لدعوة الحق، حين عرفتها، فأقبلت عليها صادقة، مؤمنة، رافضة كل أشكال عبادة الأصنام الصماء، كارهة كل أنواع الوثنية الجاهلية العمياء!...

لقد أعلن أبو بكر إسلامه على الفور، فطابت نفس النبي ﷺ لإسلامه، وجلس عنده يرتاح، ويأنس أحدهما بالآخر.. فقد كانا رفيقي صبا، وها هما الآن أخوان في الإسلام.

وراح النبي ﷺ يحدث أخاه عن تعاليم الإسلام، وآفاقه الواسعة، ومراميه البعيدة، وآثاره في حياة الناس. وأبو بكر (رضي الله عنه) يصغي مأخوذاً، منشرح الصدر، راضي النفس.. حتى سمعه يناديه: «عبد الله»..

واغتبط أبو بكر (رضي الله عنه) لهذه المناداة، فقال لرسول الله فرحاً:

أنت تعلم يا رسول الله أن أمي سلمى بنت صخر بن عامر، هي التي أسمتني «عبد الكعبة» عندما أنجبتني أول طفل لها، وفاءً للنذر الذي قطعته على نفسها.. وإن هذا الاسم، وفيه بعض دلالة الجاهلية، لا يمكن أن يأتلف مع عقيدتنا، ونهجنا القويم.. وإنه لمن رضاء الله ونعمته عليَّ، أن تسميني «عبد الله» فأثابك الله أجراً على حسن ما استبدلت..

لقد كان أبو بكر (رضي الله عنه) أول رجل في الإسلام.. لأن من سبقه، أمثال علي بن أبي طالب، وزيد بن حارثة، كانا غلامين، لم يبلغا عمر الرجولة بعد. ولذلك فقد وجد فيه الرسول خير من يقف إلى جانبه، ويعهد إليه بالسعي لدى الآخرين، بحثاً عمن عنده الاستعداد لقبول الدعوة الجديدة، والدخول فيها..

ولم يتردد أبو بكر (رضي الله عنه) في العمل بما ندبه إليه رسول الله.. بل صار عنده، منذ أن شرح الله تعالى صدره للإسلام، دافع قوي يلح عليه بالدعوة إلى دين الله.. وإذا كان الرسول يؤثر الاتصال بمن يثق به من قومه وأصحابه فإنه سيتخذ السبيل ذاته، ويسعى لدى الخلان وذوي القربى..

وكان أول من قصده أبو بكر «سعد بن أبي وقاص». ذهب إليه في دكانه، حيث كان يعمل في صنعة بري النبال، وقد حمل معه بعض نبال قنصه، يعرضها عليه ليشتريها منه، أو يبيعها له.

وجلس أبو بكر إلى سعد، يحدثه ساعة من الوقت، حتى قال له:

«يا سعد!.. هل تصغي إليَّ جيداً.. فقد جئتك بأمر هام؟!.»
وترك سعد ما بين يديه، وتقدم من أبي بكر وهو يقول له:
- فداك نفسي يا أبا بكر.. هاتِ ما عندك!..
- أليست الأصنام والأوثان كلها جوامد فارغة جوفاء لا تنفع ولا تضر؟ وهل سمعنا يوماً أن صخرة أو شجرة أو نصباً من الأنصاب أتى فعلاً أو حركة؟!..

وسكت سعد بن أبي وقاص..
فعاد أبو بكر يسأله: ما بالك لا تجيب يا سعد!.. أرأيت أن ما تعبد العرب من أصنام وأوثان هي محض خرافات وأساطير؟.. صحيح

أن العرب تؤمن بوجود الله، ولكنها تجعل تلك الأصنام والأوثان شركاء له.

- بم تفكر يا سعد؟

- إنني والله أرى الحق فيما قلت.. وإذا كان محمد بن عبد الله يدعو إلى هذا الحق فإنني مصدقه ومتابعه حتى الموت.. فأين ترانا نجده؟..

وتبسم أبو بكر، وقد انشرحت أساريره. فوقف وقال لسعد: هلم بنا إليه..

وذهب سعد بن أبي وقاص، برفقة أبي بكر إلى شعب «أجياد» ليلتقيا برسول الله، فوجداه قائماً بالصلاة مع ابن عمه علي بن أبي طالب.. حتى إذا فرغا من صلاتهما، التفت الرسول فرأى أبا بكر ومعه سعد. فهشَّ لهما، ودعاهما للجلوس بقربه...

وطلب سعد من رسول الله أن يحدثه عن الإسلام، ففعل.. وإن هو إلا وقت قصير حتى كان الإيمان قد تملك قلب سعد بن أبي وقاص. فقال:

أشهد أنَّ لا آله إلاّ الله. وأشهد أنَّ محمداً رسولُ الله.

وغمرت الفرحة رسول الله ﷺ. فقد كان يرى في دخول أي إنسان في دين الله، خيراً من الدنيا وما فيها..

وما أن فارق سعد بن أبي وقاص جماعته حتى التقى عثمان فسأله:

ـ من أين يا سعد، فقد ذهبت إلى دكانك ولم أجدك؟.
ـ لقد ذهبت برفقة أبي بكر بن قحافة إلى صديق له حميم..

قال عثمان على الفور: إنه محمد بن عبد الله.. كلنا يعرف صداقتهما وملازمتهما. ولم يجب سعد، بل حدّق في وجه عثمان بـن عفان، وهو يقول في نفسه:

«آه يا عثمان لو تقول: محمد رسول الله »!..

ثم انصرف عنه مسرعاً، وقد خلفه وراءه.. فتابع عثمان سيره، حتى دخل داره، فوجد عندهم خالته «سعدى بنت كُريز» تجلس مع أمه أروى بنت أم حكيم بنت عبد المطّلب، توأمة عبد الله بن عبد المطّلب، والد محمد ﷺ، وقد انهمكت المرأتان بحديث يشغل اهتمامهما، فقال عثمان متدخلاً:

ـ إيه يا خالة ما الأمر وأنت تبدين له مثل هذا الاهتمام؟.

قالت سعدى: لقد جئت من بيت أبي طالب إليكم تواً.. وقد سمعته يقول بأن ابن أخيه محمداً قد نزل عليه الوحي من السماء، وبعَثُه الله نبياً..

قالت أروى أم عثمان: والله لو كان ما يقال عن بعث نبي آخر الزمان حقاً، فلن يكون هناك نبيٌّ غير محمد بن عبد الله. فما عرفنا منه إلّا أنه الصادق الأمين..

فقال عثمان: وهل أحدٌ من سادة قريش صار من أتباع محمد؟..

ـ قالت سعدى: لقد بات شائعاً بين الناس أنَّ أبا بكر عتيق بن أبي قحافة، قد دخل في دين محمد، وصار يدعو معه إلى هذا الدين..

ترك عثمان أمه وخالته، ثم دخل يقبع في حجرته وهو يقول في نفسه:

«ليس عبثاً أن يكون سعد بن أبي وقاص مع محمد وأبي بكر اليوم،.. ولكن ما هو هذا الدين الجديد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله»؟.

وكان عثمان كلما حاول أن يبعد عنه، التفكير بما سمع، كلما وجد نفسه غارقاً في هذا التفكير حتى أمضى ليلته مؤرقاً، ولم يلامس الإغفاء جفنيه.. فلما طلع الصباح، وجد نفسه على أهبة الاستعداد للخروج، إذ لم يعد يطيق ما حلَّ به..

ولكن إلى أين يذهب في مثل هذا الصباح الباكر؟!..

وما كادَ عثمانُ يسائل نفسه أين يذهب، حتى سمع طرقاً على الباب، فقال: اللهم اجعله خيراً..

ثم قام يفتح للطارق، فإذا به يُفاجأُ بأبي بكر، وهو يستأذنه في الدخول..

ودخل أبو بكر، فسأله عثمان بلهفة:

ـ ما الأمر الذي جاء بك يا أبا بكر في مثل هذه الساعة المبكِّرة؟.

وقال أبو بكر، وهو يحاول أن يزيل عنه الدهشة:

ـ لقد جئت أتناول طعام الإفطار عند أخٍ كريم، إلاَّ إذا أبى عليٌّ ذلك. .

قال عثمان: يا مرحباً. . يا مرحباً. . لقد حلَّتْ البركة بقدومك، فأنت على الرحب والسعة. .

قال أبو بكر: إذن هاتِ لنا ماءً بارداً، ولنجلس نتحادث. . . وسرعان ما نادى عثمان على أهل بيته، فهبُّوا يلبُّون ما طلب، ثم جلس بجانب أبي بكر.

قال أبو بكر: ويحك يا عثمان. . والله إنك لرجل مدرك. وإنَّك لتميِّز الحق من الباطل. . فما هذه الأوثان التي تعبدها وقومك؟! أليست حجارة وأخشاباً صمّاء، بكماء، يقلِّبها الإنسان كيف يشاء، ومتى يشاء؟!. .

فهل ترضى عن عبادة تلك الأوثان من دون الله الخالق المتعال؟.

قال عثمان: لا والله. . إن عبادتها لا تُرضي. .

قال أبو بكر: ومن غير الله وحده أحق بالعبادة، وهو خالقنا وخالق الكون كله؟!. .

قال عثمان: إنها والله دعوة حق. . .

قال أبو بكر: وقد جاء محمد بن عبد الله بالحق، فهلمَّ إلى رسول الله. .

ولبَّى عثمان بن عفان الدعوة: فجاء رسول الله مع أبي بكر، وقد

دخلا عليه وهو يقرأ القرآن، فقام يستقبلهما، ويبيِّن لعثمان حقيقة الأمر الذي ندَبه الله تعالى إليه، ثم يدعوه للإسلام وهو يقول له: «يا عثمان أجب الله إلى جنته».

وتملكت كلمات الرسول قلب عثمان، فأسلم وشهد أنَّ لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله..

وهكذا كان عثمان بن عفان (رضي الله عنه) أول أمويّ أسلم وجهه لله. مؤمنا بالله ربّاً وبمحمدٍ نبياً ورسولاً..

وتوالت الدعوة. وتوالت جهود رسول الله ﷺ تحثُّ ذوي النفوس الصافية على الدخول في دين الله.. ففي أحد الأيام، وبينما كان محمد ﷺ يجلس في أحد شعاب مكة، متأملاً متفكراً، إذا به يرى الزبير بن العوام ابن عمته صفية بنت عبد المطلب، قادماً نحوه، فأشار إليه أن يقترب منه ويجلس بقربه... ثم لم يلبث الرسول ﷺ أن سأله عما قدم به إليه، ومن دلَّه على مكانه، فقال له الزبير:

ـ لقد كنت عند عمتي خديجة بنت خويلد، وقد حدَّثتني طويلاً عن دين جديد بعثك الله به نبياً، فأحببتُ أن تُسمعني هذا الدين..

فقال الرسول الكريم للزبير: اسمع يا بني.. يقول الله تعالى:

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا

يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ثم عقَّب قائلاً: سبحان ربي الأعلى وبحمده. لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له..

وكان الزبير ينصت بجوارحه كلها، وقد امتلأت تفهُّماً وإيماناً.. فراح يسأل الرسول ﷺ عن معاني بعض الآيات التي سمعها، وراح النبي يشرح له تلك المعاني السامية التي توجب على كل المخلوقات أن تسبِّح باسم الله الأعلى الذي خلق كل شيء فسوَّاه، فأكمل صنعته، وبلغ به غاية الكمال الذي يناسبه. والذي قدَّر لكل مخلوق وظيفته وطريقه وغايته فهداه إلى ما خلقه لاجله، وألهمه غاية وجوده، وقدَّر له ما يصلحه مدة بقائه، وهداه إليه...

وكان الزبير بن العوام يتابع تفهُّم المعاني فيحسُّ باطمئنانٍ في نفسه وخلاص هذه النفس مما كان فيها من الحيرة والتساؤل، فيمتلىء قلبه بالإيمان، ويعلن لرسول الله ﷺ إسلامه ويقول:

«أشهد أنَّ لا إله إلاّ الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

فيرتاح الرسول العظيم لإسلام الزبير، فيعلِّمه الصلاة، ويبقيه بجانبه حتى يصلي معه الظهر، ثم ينزلان إلى مكة من الشعاب..

هكذا كانت الدعوة تتم. في هذا الإطار الفردي الضيِّق، من خلال الاتصال الشخصي الذي كان يقوم به الرسول ﷺ أو أحد المسلمين القلائل الذين كان عددهم لا يتجاوز أصابع اليد.. أو من

(١) سورة الأعلى.

خلال حديث يسمعه فردٌ فيدفعه حب الاستطلاع، أو الاستعداد الكامن في نفسه، لمعرفة ماهية تلك الدعوة، فيحصل الاتصال ويتم الدخول في الإسلام..

وبمثل هذه الخطوات الوئيدة والمحسوبة، كان يتابع رسول الله ﷺ والذين آمنوا معه دعوتهم. وقد كان لأبي بكر، فضلُ جمٌّ في الاتصال بعدد من الأشخاص، أظهر لهم حقيقة الإسلام، ودعاهم إلى دين الله، ثم أخذ بيدهم، وجمعهم إلى رسول الله، فأبان لهم حقيقة الدعوة. وهداهم إلى الحق الذي بعثه الله به. فكانوا من المسلمين الأوائل في دين الله..

ومن هؤلاء المسلمين الأوائل، الذين استجابوا لنداء الإيمان بدين الله، عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة ـ عامر بن الجراح ـ وأبو سلمة ـ عبد الله بن عبد الأسد ـ زوج أم سلمة التي تزوجها النبي ﷺ بعد موته ـ والأرقم بن الأرقم، وعثمان ابن مظعون بن حبيب، وإخوته الثلاثة، قدامة، وعبد الله، والسائب..

واجتمعت قافلة الأخيار على الحق والهدى، وراح أفرادها يبحثون بين رجالات قريش ونسائها، وبين أهل مكة كلها، عن أفراد آخرين أخيار، لديهم الاستعداد لقبول الدعوة الإسلامية.. وكانوا في بحثهم هذا أكثر ما يحاذرون إثارة عداوة قريش لكل من يحاول الخروج على وثنيتها، ويأبون مخالطة من يعرفون فيهم الحقد والضغينة على بني هاشم عامة، وعلى محمد ـ الداعية إلى الله ـ خاصة..

وبدأ دين الله الذي أظهره محمد بن عبد الله يذيع في أرجاء مكة.. ولكنه ذيوع لا يتعدى مجرد الأحاديث العابرة التي لا تثير اهتماماً ولا تشغل بالاً.. يأخذه الناسُ على أنه مجردُ أمرٍ اختُصَّ به محمدُ بن عبد الله، وهو يعنيه وحده، ولسوف ينمحي ويزول، عاجلاً أم آجلاً..

وبمثل هذه اللامبالاة، كانت تجري أحاديث الناس، دون أن تعبأ بدعوة محمد أو تكترث بها..

ففي أحد الأيام كان «العباس بن عبد المطلب» يجلس بجوار الكعبة مع صديق له يدعى «عفيف الكندي». وقد استرعى انتباه «عفيف» رجلٌ يأتي، ويقف عند بئر زمزم، ثم يغسل وجهه ويديه إلى المرفقين، ويمسح برأسه ورجليه، وإلى جانبه فتى ناهد يفعل ما يفعل، وبجوارهما امرأة عليها خمار تنتظرهما. حتى إذا فرغ الرجل وفتاه، وقفا ومن ورائهما المرأة، وراحوا يركعون ويسجدون...

كان «عفيف الكندي» يرقب هذا المشهد، فتطلع إلى «العباس» وقال له:

ـ من هؤلاء الذين أراهم يفعلون ما يفعلون؟

وكان ««العباس بن عبد المطلب» نفسه مأخوذاً بما يرى.. فجاءه سؤال صديقه الكندي ينبهه من شروده مع الفكر وحديث النفس، فقال له:

ـ نعم يا عفيف!..

ـ لقد سألتك عن أولئك الثلاثة، وما يفعلون؟!..

ـ إن الرجل هو ابن أخي، محمد بن عبد الله، والفتى بجانبه هو ابن أخي أيضاً، عليّ بن أبي طالب. . وأما المرأة فهي زوج محمد، خديجة بنت خويلد.

ـ وما عساهم يفعلون؟

ـ إنهم يصلُّون لله، وعلى دين الله، الذي يقول محمد إنه بعثه لإظهاره. أما والله ما على وجه الأرض من أحد نعلمه إلى الآن يعبد الله بهذا الدين إلّا هؤلاء الثلاثة.

ـ ولكنني لا أرى أمامهم صنماً أو وثناً!. .

ـ إن دين الله الذي يقول به محمد لا يأبه للأصنام والأوثان. بل على العكس يرى في عبادتها كفراً وشرْكاً بالله. .

ـ عجيب أمر هذا الرجل، أوَيَترك دين آبائه وأجداده؟!. .

ـ إنَّه يعبدُ الله وحده. .

وسكت الرجلان، وعادَ كل منهما إلى حديث نفسه. .

فأما «عفيف الكندي» فقد ظلَّ يتأمل المشهد الذي يراه لأول مرة في حياته، وهو مأخوذ بما يرى. .

وأما «العباس بن عبد المطلب» فقد ذهب بفكره إلى البعيد، فقال في نفسه: «ما أراني والله إلّا راضياً عن هذا الدِّين الذي يدعو إليه محمد. . . ألم تؤمن به زوجتي أم الفضل؟ وإنها لتصلي على دينها هذا عندي في بيتي، وما طاوعتني نفسي يوماً أن أنتهرها أو أنهاها عن الصلاة . . وإني على علم من أمرها، وهي تتردد إلى أسماء بنت أبي بكر من أجل هذا الدين. . وأسماء تأتي إليها من أجل ذلك.

وما سمعتهما يوماً قط في بيتي إلّا وتتحدثان عن دينهما، ولا تذكران محمداً إلّا بالخير، وتدعوان له بأن يمدّه الله بالعَون. . . .

فما أمر هذا الدين الذي يتغلغل في نفوس مثل هؤلاء الناس، حتى يصير عندهم أولَى من الزوج والولد، ومن كل شيء؟!!. .

كان العباس غارقاً في أفكاره، فلم يشعر إلّا ويد صديقه الكندي تهزه من كتفه، وهو يقول له:

ـ ما بال أبي الفضل في شرود، بحيث أكلِّمه فلا يجيبني؟. .

ـ لقد شغلت بأمر هام والله يا صديقي. .

ـ وهل لي أن أعرف هذا الأمر. . ـ دعك منه الآن وهيا بنا إلى تناول طعام الغداء. .

وبينما كان «العباس بن عبد المطلب» منهمكاً في ضيافة صديقه عفيف الكندي في داره، كان في جواره، وفي دارته أيضاً «سعيد بن زيد بن نفيل» منشغلاً مع زوجته «أم جميل ـ فاطمة بنت الخطاب بن نفيل» بالامر الذي دخل بيوت مكة كلها، وصار حديث أهلها. .

قالت فاطمة لزوجها، وهما يتحدثان: أتدري يا ابن عمي؟

قال سعيد: ماذا يا فاطمة؟. .

قالت: منذ مدة ولا يشغلني إلّا ما علمتُ من أمر محمد بن عبد الله. . ولم تكن عندي جرأة على مكاشفة أحد بما يدور في خلدي، حتى أنت يا ابن عمي لم أقدر على البوح به لك. . فهل تلومني إذا أخفيت عنك؟!. .

وتطلع سعيد إلى زوجته ملياً، ثم قال لها:

ـ ولِمَ الملامة يا فاطمة.. ألا يقول محمد بأنه رسول الله.. فلئن كان صادقاً، فإنه لحدَث هام حقاً..

قالت أم جميل: لو كان أحدٌ غير محمد يقول ذلك، لما عَبَأْتُ به، ولا أعرته اهتماماً. أما وإنه الصادق الأمين، فالأمر يختلف!..

قال سعيد: أوَتدْرينَ يا فاطمة بأنني أحفظ ذكرى عن أبي لا تفارقني أبداً!.. إنني أتخيله الآن ماثلاً أمامي مثلما كان ذاك اليوم وهو يجلس قرب الكعبة، ويتحاور مع شيخ بني أسد «ورقة بن نوفل» عن نبيّ يبعثه الله آخرَ الزمان، وهما يمنيان النفس بأن يكون هذا الزمان زمانهما حتى يصدقا النبيّ المنتظر وينصراه.. وإنَّ صوته ما زال يرنُّ في أذني وهو يوصيني ونحن عائدانِ إلى البيت، بقوله، «لئن أظهرَ الله خاتمَ أنبيائه، وكتب لك أن تلقاه أو تسمع به يا بني، فاتَّبِعْهُ، والْزَمْهُ، وآمِن به، وأَقْرِئْهُ عنّي السلام»...

ونظرت فاطمة إلى زوجها، وقد أخذتها الدهشة، ثم قالت له: ولكني ما سمعتك قطُّ تحدِّث بهذه الوصية لأحد.. فما الذي جعلك تخفي أمرها ولا تخبرني بها..

قال سعيد لزوجته: وهل كنتُ أظنُ يوماً بأن هذا النبيَّ سيكون بين ظهرانينا؟!..

قالت فاطمة: إذن فأنت تصدِّق محمداً بأنه نبيُّ الله!..

قال سعيد: ولكني لم أجتمع به، ولم أكلِّمه بعد، بأمر دعوته..

وسكت سعيد، وراح ينظر إلى زوجته، فالتقت عيناهما، وأدرك كل منهما ما يسره الآخر في نفسه، فقال لها:

ـ هيا بنا ننطلق إلى بيت محمد بن عبد الله، فعسى أن نؤمن، ويجعلنا الله من المهتدين..

وجاء الزوجان، اللذان تاقت نفساهما إلى الحق، قبل سماع داعيته، وسرعان ما توهج الإيمان في هاتين النفسَين الصافيتين، إذ ما كادَ الرسول ﷺ يتلو عليهما بعض ما تيسَّر له من آيات ربِّه، حتى نطق كلٌ منهما بشهادة: أن لا إله إلّا الله وأن محمداً رسول الله..

وهكذا كانت تسري دعوة محمد إلى دين الله الواحد.. فأخذ يزداد عدد المسلمين، وأخذ الناس في مكة يدخلون في الإسلام، أفراداً من الرجال والنساء..

إنهم إلى الآن جماعة قليلة، ولكنَّهم يؤلِّفون كتلة متراصة، يجمعها الإيمان الصادق، ويطهر قلوبها حبّ الدين الجديد، هم قلائل، ولكنَّ واجب الوفاء للدعوة، والإخلاص لصاحبها، هما سبيل العمل على إيصالها لأهل مكة، ونشرها بين الناس..

كانوا جماعةً تُفرقُ بينهم دار السكن، ولكنهم يحملون العقيدة الواحدة المتكاملة التي تصهرهم وتؤلفهم...

نقطة الابتداء في دار الأرقم

ولكي تتمرَّس هذه العقيدة في نفوس تلك الفئة المؤمنة من الأوائل ، ولكي يكون اجتماعهم على أكمله ، حتى في بعض مظاهره الخارجية ، فقد شاءَ رسول الله ﷺ أن يتخذ لهم مكاناً يجتمعون فيه ، ويكون مدرسة يتعلمون فيها أصول الدين ، ونَهجه القويم . .

وقد حرص الرسول ﷺ على أن يتجنب مواقف الاصطدام بينه وبين قومه ، فاختار لهم مكاناً منعزلاً عن الناس هو دار الأرقم بن أبي الأرقم وهو سيد من سادات قريش الذين سابقوا في الإسلام ، وكانت داره تلك على مقربة من الصفا . فكان رسول الله ﷺ يجتمع فيها ، يعلِّم ، ويثقِّف ، ويربي ، ويُعِدُّ ويُدَرِّب أصحابه . . .

لقد كان القرآن الكريم يتنزّل على قلبه الشريف فيحفظه . . وقد تكفَّل له ربه تعالى بحفظ القرآن العظيم الجميل الحبيب إلى قلبه . الذي كان يندفع بعاطفة الحب له ، وبشعور الحرص عليه ، وبإحساس التبعة العظمى فيه . . إلى ترديده آية آية . .

وجبرائيل يحمله إليه ، فيحرِّك به لسانه ، خفية أن ينسى حرفاً

منه ، حتى جاءته البُشرى العظمى بأن ربه سيتكفل بهذا الأمر عنه ، فيُحفظه قلبه لمجرد التبليغ : ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾[1] فكان عليه وعلى آله الصلاة والسلام أول ما يبدأ في الاجتماع بتلاوة الآيات التي كان ينزل بها جبرائيل عليه السلام . . والتي كانت تتناول التبليغ والتذكير ، وما يتناسب مع نشر الدعوة . . ثم يأخذ بعد التلاوة بتفسير المعاني التي تحملها تلك الآيات الكريمة والتي تتناول في أحيان كثيرة ، كل ما يتعلق بشؤون الكون والوجود والإنسان . . حتى يكون لدى دعاة الإسلام الإحاطة الشاملة بكل ما يمكن أن يواجههم حين إيصال دعوتهم للآخرين . . ولذلك فقد كان همُّ الرسول الكريم ، أن يحفظ الصحابة القرآن مثله ، وأن يفهموا معاني الآيات التي يحفظونها . وذلك من أجل الهدف الذي يسعى إليه ، وهو إعداد هؤلاء الصحابة الإعداد الكامل لحمل الإسلام ونشره . .

كان عليه الصلاة والسلام في دار الأرقم بن الأرقم ، لا يألو جهداً في هذا الإعداد ، وتزويد الصحابة بالعلم والمعرفة ، وهو يبعث فيهم دوماً الروحانية العالية ، بالصلاة ، وبالمنهجية القويمة ؛ ويثير في أعماقهم مكامن التفكير والتأمل بآيات الله . . كل ذلك في أجواء القرآن ، وترتيل آياته ، وتفسير معانيه ، حتى تكون الهداية كاملة ، وتهذيب النفوس شاملاً ، ومفاهيم الإسلام وحقائقه واضحة ثابتة . .

سار الرسول ﷺ على هذا النهج القويم حتى غدت دار الأرقم

(١) سورة الأعلى ٦ ـ ٧.

ابن أبي الأرقم ، مدرسة الإسلام الأولى بحق ، وهي في الوقت نفسه مجمع العلم والبيان ، ودار الندوة والشورى ، ومكان الأنس والراحة لنفس الرسول ولاصحابه الأبرار . . وغدا هؤلاء الصحابة نخبةً بين الناس ، مؤهلين لأن يحوطهم الله تعالى بعنايته ، فَيُعِزُّون دينه ، ويَنصرون نبيَّه . . ولكن ، لم يكن عمل الرسول ، وما يبذله من جهود خارج دار الأرقم بن الأرقم ، لتقلَّ عما يقوم به في داخل تلك الدار . . فقد دأب على دعوة أهل مكة جميعاً إلى دين الله . . دونما تمييز لا في المكانة الاجتماعية ، ولا في السن ، ولا في اللون ، ولا في العرق . . لا يختار من بينهم أحداً اختيارا ، بل الجميع عنده خلق الله ، وكلهم مدعوون إلى الدين الحنيف . .

ولقد لبَّى الدعوة من أهل مكة تلك الجماعة الأولى من المسلمين ، الذين كانوا في غالبهم شباناً من ذوي العزم والإرادة ، وأصحاب الثبات والإقدام . . وتلك الجماعة الشابة كان لها الفضلُ في حملِ الدعوة أول نشوئها ، وجعل الإسلام ينتشر في تلك البيئة الوثنية الكافرة .

وإنَّ في تلبية تلك الفئة من الشباب للدعوة إلى الإسلام ، في أول عهد الدعوة المحمدية ، وإقبالهم على اعتناق عقيدة الحق ، وجهادهم منذ البداية وحتى النهاية ، بالنفوس والأموال . . إنَّ في ذلك تذكرةً إلى شباب اليوم ، ودعوةً ملحَّةً صادقة ، كي يقدموا هم أيضاً على حملِ لواء الإسلام ، تماماً كما حمله أسلافُهم ، وعلى نشرِهِ عقيدة ، وإيماناً ، ومنهجاً ، وطريق حياة ، في ربوع الأرض كلها . .

وهل يُظن أن في حملِ الدعوة عبئاً كبيراً على عاتق الشباب ؟ ! .

لا ، وكلا ! . .

فإنهم ، وإن لم يحملوا هُمُ الإسلامَ ، فمن يحمله ويبشّر به ؟

نعم ، يُبشِّر به ، لأنه صار بحاجة إلى تبشيرٍ جديد ، في جاهلية القرن العشرين ! . .

وليس لهذا التبشير ، بل وليس للإسلام نفسه ، إلاَّ عزيمة الشباب ، وصدق الشباب ، وإيمان الشباب ، وقوَّة الشباب وثباتهم ! .

إنْ لم يُقدمْ هؤلاء ، أصحاب الهمم الشمَّاء ، على اعتناق مبدأ الإسلام - المبدأ الواحد السليم ، والإيمان بعقيدته المتكاملة الكاملة - وإنْ لم ينبَرِ هؤلاء ، ذوو النفوس العالية السامية ، إلى حملِ لواء الحق الأبدي السرمدي ، فمن يتحمل العبء والمسؤوليةَ غيرُهم ؟ . .

نعم مَنْ غيرُ هؤلاء الأفذاذ ، مؤهلٌ وقادرٌ على التمنطق بهذه المحامد ، وهذه القضايا من معالي الأمور ؟ ! . .

يا شباب الإسلام ! .

أنتم أصحاب القضية ، وعليكم المعوَّل والاعتماد . . كونوا تلامذة محمد اليوم ، وطلابَ عقيدة الإسلام معرفةً وفهماً وإدراكاً ومسؤوليةً ، لأن تلامذته الأولين في دار الأرقم بن الأرقم وخارجها لم يكونوا إلاَّ من الشباب . . . فقد كانوا فتياناً حقاً وأعمارهم تراوحت بين العاشرة والثلاثين عاماً في حُسبان السنين . .

لا ، ولم يكن إلا شباناً أيضاً ، إخوانهم الآخرون ، المقداد ابن الأسود ، وعبد الله بن جحش ، وعتبة بن غزوان ، وأبو حذيفة بن عتبة ، وبلال بن رباح ، ونعيم بن عبد الله ، وعمار بن ياسر . .

ولم يكن من هؤلاء وأولئك ، من الصحابة الذين تقدم ذكرهم الطيِّب من قبل ، إلا شبابٌ ، وكلهم في ريعان الصبا . .

كانوا جميعاً مثلكم يا شبابَ اليوم ، ولكنهم كانوا نخبة مجتمعهم ، وصاروا القدوة الصالحة . . فحق لكم أن تكونوا أنتُم خير خلفٍ لخير سلَف . . إنَّ أبواب الإيمان بالحق مُشَرَّعةٌ ، فأقبلوا مُلَبِّينَ . .

وكيف لا تكون سائر أبواب الأرض والسماء مشرَّعةً ، وفيكم القرآن الكريم الذي يهدي إلى الحق وإلى صراط مستقيم ؟ . .

ولكم في الرسول ﷺ وأصحابهِ الأسوةُ الحسنةُ والمثال الرائعُ ، فهل بعدُ أقوى ، وأمتنُ ، وأشدُّ ، وأصلبُ ، وأعلى وأسمىٰ من مثال ؟ ! . .

هلمَّ أيها الأبناء إلى البناء الصحيح . . بناء الفكر الإسلامي ؛ وأنتم تمتلكون كل مقوِّمات هذا البناء وأسبابه وأسسه . . إنه البناء الذي يدعوكم الله ورسولُهُ لإقامته وتشييده فكراً ثاقباً ونوراً هادياً ، وحقيقة ثابتة ، حتى يمتد ويبلغ في امتداده آفاق الأرض ، ويعلو حتى يبلغَ في علوه عوالمَ الله اللامتناهية ، وحتى تبلغوا أنتم روَّاده ، ذُرى الفوز برضاء الله تعالى ونعمه الكبرى . .

الـدعوةُ مفتـوحـةٌ أمـامكم أيهـا الشبـاب . . وهي مـوجهـةٌ لكم خـاصة ، ولجميـع خلق الله عـامـة . لأنَّ الله عـزَّ وجـلَّ عنـدمـا بعث محمداً ، قد بعثه رسولاً للناس كافـة ، وقد بـدأت دعوتـه منذ أن نـزلَ الـوحيُ عليه من السمـاء وهي ما تـزال قائمـة وستبقى إلى أن يرثَ الله الأرضَ ومَنْ عليها . .

ولقـد جعـل عليـه الصـلاة والسـلام نقـطةَ الابتـداء لـدعـوتـه ، والـدعامـة التي تقوم عليهـا ، الشبابَ الـذين أقبلوا على هذه الـدعـوة مؤمنين ، راضين ، بـاذلين . . وقد جمـع منهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، التي كانت أول دار عامة للإسـلام ، نفراً لا يتعـدون الأربعين شخصـاً - رجالاً ونسـاءً - من قريش ومن عـامة أهـل مكة وعبيـدها . . بينما ظلَّ أهل مكة كلهم ، بـاستثناء هؤلاء النفـر ، لا يحفلون بدعـوة محمد ، ولا يأبهون له ولصحابته ، ولا يبدون أي اهتمام لما يعرضـونه عليهم ، أو يقيمون وزناً لما يقولونه لهم . . ولكن ، وعلى طول امتداد السنوات الثلاث - منـذ بدء الـوحي - التي كان يعمـل خلالهـا الرسـول الكريم وصحابتـه ، بصبر وجلَد ، وبـأناة ، وتؤدة ، لم تـظهر العـداوة لدعوته إلا في أواخر تلك السنوات ، عندما بدأت فئة باغيـة تدرك قـوَّة تلك الـدعوة ، وتتبيَّن مـدى تـأثيـرهـا على حيـاتهـا فيمـا لـو كتب لهـا النجاح . .

ولم تكن تلك السنـوات الثلاث سهلةً على النبي ﷺ بـل كـانت عصيبـةً حقاً ومؤلمـة . . خصوصـاً وأنـه لا يـرى إعـراض النـاس عن دعوته ، وعدم المبالاة بها وحسب ، بل ويرى أيضاً الكيد والمكر وقـد

بدا أصحابهما يعملون في الظلام ، لمناوأة الدعوة . .

وإذا كان قد عمل كثيراً لكي يُدخلَ الإيمان الحقَّ إلى النفوس ، ولكي يجعل الناسَ تقبلُ على الهداية والفلاح ، فإن شيئاً من ذلك لم يحصل ، وظلّت دعوته شبه يتيمة لا يتجاوز أتباعُها بضع عشرات . . إلاّ أن الشيء الهام الذي أحرزه الرسول العظيم هو علمُ الناس بالدعوة ، وقد بدأ هذا العلمُ يَسري في مكة بصورة تلقائية ، حتى إنه ما من بيت من بيوتها ، وخاصة بيوت القرشيين ، إلاّ وصار أهله يتحدثون بالإسلام ، وبدعوة محمد ﷺ ، وبأنه يوحى إليه من السماء . .

المجتمع في مكة

لقد تميزت مكة في منتصف القرن الخامس الميلادي ، بانتقالها من طور البداوة إلى طور الحضارة البدائية ، وخضعت لنظام يقوم على اتفاق طوعي وتفاهم جماعي وتوزع للمهام والمسؤوليات تبعاً لما أسسَّ قصيّ بن كلاب الجد الخامس لرسول الله ﷺ .

وكانت مكة بين الأخشبين : جبل « أبي قبيس » المشرف على الصفا ، وجبل « الأحمر » الذي كان يسمى في الجاهلية بـ « الأعرف » ويشرف بوجهه على قعيقعات . . ولكن وجود البيت وما كان عليه من شرف ومكانة وأمن جعل كثيراً من القبائل العربية تنتقل إلى جواره ، فازداد العمران ، وتوسع النطاق على مر الزمان ، وحلت البيوت

المرصوفة بالحجر ، أو المبنية بالطين والحجر محل الخيام والأخبية يسكنها أثرياء مكة وسادتها ، يتكون كل بيت من عدد من الغرف ، وله بابان متقابلان ، لتمكين النساء من الخروج من الباب الآخر عند وجود ضيوف في الدار . واتسمت مكة بعد العمران بالنشاط التجاري حيث تقام الأسواق التجارية ، خلال أشهر الحج الحرم ، بجانب البيت وداخل حدود الحرم ، فيُهرع الناس إلى هذه الأسواق ، ويؤمونها من مختلف جهات الجزيرة ليقضوا منها حاجتهم ، ويتزودوا لقومهم ؛ ومن أهم تلك الأسواق سوق العطارين ، وسوق الفاكهة ، وسوق الرطب ، وأمكنة للحجامين والحلاقين . . كما وجد فيها زقاق للحذائين ، وسوق للبزارين .

وكانت تلك الأسواق رحبة واسعة تباع فيها البضائع التي تحملها العير من بلاد أفريقيا وآسيا ، فكانت تأتي محمَّلة من أفريقيا بالصمغ والعاج والتبر ، وخشب الأبنوس . ومن اليمن بالجلود والبخور والثياب . ومن العراق بالتوابل ، ومن حاصلات الهند بالذهب والقصدير ، والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل ، والتوابل والزعفران . ومن مصر والشام بالزيوت والغلال والأسلحة والحرير والخمور .

وهكذا تميزت مكة بالتجارة وأثرى كثير من أبنائها . وقد كانوا يتعاملون بالعملة الرومية البيزنطية والعملة الايرانية الساسانية . وكانت تلك العملتان على نوعين : دراهم من الفضة وهي الشائعة والكثيرة الاستعمال ؛ ودنانير من الذهب وكلها رومية . وقد جاء في الدراسات

أن الدينار البيزنطي يزن ٤٢٥ من الغرامات . وكان الدينار يصرف في ذلك العصر بعشرة دراهم . . وكانوا يستعملون في أسواقهم الموازين والمكاييل مثل الصّاع ، والمدّ ، والرطل والأوقية والمثقال .

ولم تكن للصناعات مكانة كبيرة في مكة ، بل كان عند أهلها نوع من الاحتقار لها ، ولم يكن يهتمُّ بها عادة إلاَّ الموالي وأبناء العجم ، باستثناء بعض الصناعات التي كان يمارسها أبناء العرب ، كما يروى عن خباب بن الأرت أنه كان يعمل السيوف . وكانوا يلجأون في صناعة البناء إلى عمال من الروم والفرس .

ومن الناحية القتالية ، فقد كانت قريش تؤثر السلم والهدوء عامة ، لأن مجتمعها تجاري يفترض التقاء الناس في أجواء من التفاهم وتبادل المنفعة . ولكن رغم إيثارها للسلم فقد كانت قوة حربية يحسب لها الحساب ، وكانت مشهورة بالشجاعة ، والفروسية العربية . « والغضبة المضرية » معروفة في جزيرة العرب بآدابها وأمثالها .

وهكذا وبفعل المركز الديني الذي كانت تتمتع به ، وما وصلت إليه من مكانة اقتصادية ، أضحت مكة أهم مدن الجزيرة العربية وفاقت صنعاء اليمن في زعامة الجزيرة ، بل تفوقت عليها ، بعدما استولت الحبشة على اليمن ، وتملكها الفرس في منتصف القرن السادس الميلادي ، وبعد أن فقدت مملكة الحيرة ومملكة غسان الشيء الكثير من أهميتها ، حتى صارت مكة عاصمة الجزيرة الروحية والمجتمعية من غير منافس .

ولكن رغم تلك المكانة الكبيرة فقد كانت الناحية الخلقية في مكة ضعيفة للغاية. صحيح أنه كانت عند أبنائها، أعراف الجاهلية وآدابها وقيمها ، إلَّا أنه فشا فيهم الميسر إلى حد الافتخار ، كما انتشرت الخمرة ومجالس اللهو والقيان ، وحفلات العزف والطرب وما إلى ذلك من فواحش ولهو ، هذا فضلاً عن الظلم والقسوة وغمط الناس حقوقهم ، وأكل أموالهم بالربا والباطل ؟ والذي يدلُّ على ذلك كله ما جاء في خطبة جعفر بن أبي طالب الهاشمي ـ وهو ابن مكة الأصيل ـ أمام النجاشي ، وهو يقول له : « أيها الملك ! كنا قوماً أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ؛ ويأكل القوي منا الضعيف ».

في هذه الأجواء الدينية ، والاقتصادية والاخلاقية ، قام المجتمع المكي ، وتوزع إلى فئات أو طبقات ثلاث، تتفاوت في المكانة والمنزلة ، وتختلف في علاقاتها المجتمعية ، ونظام حياتها . وقد توزعت تلك الطبقات بين أهل مكة الأصيلين ، وحلفائهم من العرب والأحابيش ، والعبيد من الرقيق والإماء .

فأهل مكة كانوا يشكلون طبقة الأسياد والزعماء ، وقد اشتهرت بيوت كثيرة منهم بالثراء وسعة الأرزاق والرفاهية في العيش أمثال الوليد ابن المغيرة ، وعبد العزّى بن عبد المطلب (أبو لهب)، وأبو أحيحة ابن سعيد بن العاص بن أمية ، وعبد بن أبي ربيعة المخزومي ، أما أبرزهم فكان عبد الله بن جدعان التيمي الذي كان يشرب في كأس من الذهب ، وكان يطعم عدداً كبيراً من المساكين والجائعين ، كما

كان من أثرياء قريش العباس بن عبد المطلب الذي كان ينفق أمواله في الناس ويتعامل بالربا حتى جاء الإسلام وألغى الربا .

وكان لمترفيهم مجالس السمر ، وأرائك منصوبة وموائد ممدودة ، ونواد للشراب يلهون فيها ويسكرون ، وكانوا يشتون بمكة ويصطافون بالطائف . كما كانت للأشراف مجالس أمام البيت ، ينشدون فيها الشعر ، ويحضرها بعض كبار شعراء الجاهلية مثل لبيد ابن ربيعة صاحب المعلقة المشهورة . وكان يوضع لعبد المطلب ابن هاشم فراش في ظل الكعبة ، فيجلس أبناءه من حوله دون الفراش إجلالاً لأبيهم ، إلَّا ابن أخيه محمد فقد كان يضعه في حضنه وهو على فراشه ذاك ، وهو يقول للقوم : دعوا ابني ، إنَّ له لشأناً عظيماً . .

وكانت قريش على اختلاف بطونها وعشائرها ، هم في اعتقاد العرب أهل الحرم . ولما كان للحرم مكانته العظمى في نفوس العرب جميعاً ، فقد عظّمت العرب قريشاً ، ودانت لها بالسيادة عليها ، فاعتقدت بأن زعماء قريش هم أصحاب الأمر ، وأولو الحل والعقد في كل ما يتصل بشؤون عقيدتهم الدينية .

واستفادت قريش من ذلك أيما فائدة : فمكانتها مرموقة ، وسيادتها مطلقة ، وحياتها في ظل البيت آمنة مطمئنة ، أمّنت فيها على الأموال والأنفس من غائلة العثار والقهر ، ونعمت بحرية واسعة ، وجاه عريضٍ ؛ والعرب مع ذلك كله يسعون إليها في كل موسم من مواسم الحج ، وهم يحملون المتاع والأموال ، ويقدمون للبيت الهدي الذي

يسوقون ، وإلى الأصنام القرابين والنذور التي ينذرون . .

هذا بالإضافة إلى نوع من الدخل المستمر الذي كان يتمثل بالضرائب التي تفرضها قريش على الداخلين في أرض الحرم ، والتي كانت العرب تتقبلها بحكم العقيدة الدينية ، غير باخلةٍ بها ولا متأففةٍ من دفعها .

أما طبقة الأحلاف فكانت مؤلفة من العرب وغير العرب . فالعرب كانوا من الأحابيش وهم بعض بطون القبائل الضاربة حول مكة أمثال كنانة ، وخزيمة بن مدركة ، وخزاعة . وقد تحالفت مع قريش على النصرة والقتال . . وما عداهم من أبناء هذه الطبقة ، هم الذين جاؤ وا للعيش في مكة ، فارتبطوا بأشرافها وزعمائها بروابط الحلف والجوار . . وذلك أن من عادات العرب كان التعصب للحليف والجار والذود عنه ، وردّ كل ما يسوؤه ، تماماً كما يتعصّبون للعشيرة والقبيلة . .

من أجل ذلك كان الغرباء والدخلاء الذين يفدون على مكة ، من العرب والأعاجم على حد سواء ، للإقامة فيها ، يتحالفون مع بعض سادتها من أجل العيش في جوارهم ، وتحت حمايتهم ، بحيث يأمنون بعد ذلك التحالف الاعتداء عليهم من القريب والبعيد ، ويصبحون بمثابة الاسرة الواحدة لحليفهم السيد ، يحاربون من يحاربه ، ويسالمون من يسالمه ، على أن يكونوا فيما عدا ذلك ، أحراراً في شؤ ونهم الخاصة ، وأن يتخذوا من أسباب الرزق ما يكفل لهم ولعيالهم استمرارية الحياة بأمان .

أما الطبقة الثالثة فكانت الرقيق من العبيد والإماء الذين يشكلون مورداً آخر من موارد الرزق ، وسبباً من أسباب الرفاهية التي استمتع بها زعماء قريش ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من أصحاب السلطات والنفوذ لدى جميع الأمم والشعوب ، ذلك أن الرق كان نظاماً سائداً في تلك العهود ، وكان الرقيق يُباعون ويُشترَوْن ويستخدمون كما تُستخدَم وتُباع الأنعام وتُشترى . فهم يعملون لسادتهم ما يريدونهم عليه من الأعمال ، دون أن يتقاضوا على ذلك أجراً ، ودون أن يكون لهم شيء من الحرية فيما يأخذون وما يتركون ، ودون أن يكون لهم رأي بعد رأي سادتهم في شأن من الشؤون ، فهم يعملون كآلات مسخَّرة ، تنتج الزرع والضرع ، والخير الكثير ، وتنتج فوق ذلك ما شاء الله من البنين والبنات ، فيصبحون بحكم الرق عبيداً وإماءً لسادتهم ، يسلكون ـ كما يسلك آباؤهم وأمهاتهم ـ مسخَّرين بلا أجر ولا جزاء ، اللهم إلا رضاء سادتهم عنهم إذا هم أحسنوا ، أو غضبهم عليهم إذا هم أساءوا . فإذا ما رضي السادة عن أعمالهم يكافئونهم ببسمة كبرياء عابرة يرسمونها على شفاههم ، أو كلمة عطفٍ ساخرة يستنزفون بها جهدهم ، ويستنهضون بها قواهم ، وقد يبالغون في هذا الرضا ، فيبيعون لهم حريتهم بما يفرضون عليهم من الثمن ، وربما منُّوا عليهم . فيخرجون بذلك من ضيق العبودية إلى سعة الحرية ، ولكنهم يظلون على كل حال أسرى الولاء لسادتهم حتى يموتوا . أما إذا غضب عليهم السادة ، فالويل كل الويل لهم يلاقون من ضروب الإيذاء ، وألوان العذاب .

إذن هذا الدين الإسلامي الذي يبشر به محمد ﷺ هو خطر

عظيم من شأنه أن يهدد مصالح سادة قريش ، ويقلق أمنهم وراحتهم ، وأن يغير الأوضاع في علاقات المجتمع التي تعارفوا عليها ، وتوارثوها عن آبائهم وأجدادهم جيلاً بعد جيل . . .

وما الخطر إلاَّ لأن هذا الدين يسوِّي بين العبيد وأسيادهم ، فهل يقبل هؤلاء بأن يكونوا هم وعبيدهم بمنزلةٍ سواء ؟ ! . . وكيف تستقيم أمورهم بعد ذلك في تجارتهم وزراعتهم ، وفي رعاية أنعامهم ، وخدمة بيوتهم ، وفي كل ما يسخر له العبيد من شؤون حياتهم ؟ .

إنه الفوضى والاضطراب إذن . . !

بل هو الفساد الشامل الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله ، وينشره بين الرقيق فيغريهم بسادتهم ، ويُفسدهم عليهم . . . ! ! !

هذه هي الصورة الحقيقية التي كان قائماً عليها المجتمع في مكة . وتلك هي المخاوف التي كانت تساور نفوس سادة قريش من انتشار الدعوة وسريانها في نفوس أهل مكة ، وخاصة في نفوس الأرقاء منها . . .

نعم سرى نور الدعوة وأعشى نواظر أهل مكة ، وقريش بالذات . . ولكنهم لم يحركوا ساكناً ولا أعلنوا خصومة مكشوفة أو عداوة ظاهرة إلى الآن بل كل ما تعمدته قريش هو الكيد والمكر تجاهلاً للدعوة وتقليلاً من شأنها ، وفي حُسبانها أن مثل هذا التصرف يجعل أهل مكة غير مبالين ، فلا يعيرون دعوة محمد اهتماماً ، فتختنق الدعوة ويذهب ريحها . .

وبمثل هذا الظن الأحمق ، والوهم الطائش قعدت قريش خلال تلك الحقبة دون أن تعلن عداوة لدعوة محمد ﷺ أو تُشهر حرباً عليها وعليه .

وإذا كانت قريش قد غرقت بمثل هذا الوهم ، فإن فئة من مجتمع مكة ، قد أزاح الله الوهم عن بصيرتها ، فوجدت في الدعوة الجديدة سبيلاً للعودة إلى إنسانيتها التي أفقدتها إياها الجاهلية خلال حقب طويلة من الأجيال . .

وتلك الفئة كانت تضم الضعفاء من المساكين والفقراء ، ومن العبيد والموالي . .

فهؤلاء كانوا قد غرقوا في العبودية التي كبلتهم بأصفادها الثقيلة ، وسُحقوا تحت ممارسات الضغط والظلم والاستعباد من أسيادهم القرشيين الذين كانوا يقومون على خدمتهم ، وعلى تأمين أعمالهم ، في سبيل لقمة العيش فقط . . .

وها هي أبواب الحرية تتفتح لهم من خلال الدعوة الجديدة ، أفلا يُقبلون عليها وهي وحدها ، بتعاليمها السامية ، قادرة على إطلاقهم من الاستعباد ، وتحريرهم من كل عبودية ، إلاَّ العبودية لله الواحد القهار . .

ولم لا يُقبلون على هذه الدعوة ، وهم يجدون فيها روحاً وريحاناً لشفاء نفوسهم ، وإشعاراً بوجودهم ؟. ولِمَ لا يتهافتون على تلبية نداء الحق وهو النداء الذي يجعلهم بشراً مثل غيرهم ، ولهم

الحق في الحياة والكرامة والحرية التي يبخل بها عليهم أسيادهم القرشيون ؟ ! .

لقد كانت الاستجابة من هؤلاء الضعفاء بديهية للدعوة إلى دين الله الواحد . ففي نفوسهم توق إلى الحق والعدل ، وفي قلوبهم شوق إلى الأمان والسلام ، وفي أعماقهم صرخة إلى الإخاء والمساواة . .

وإذا كان إقبالهم هذا على الإيمان قد جعل عيون قريش تتفتح عليهم ، فتندفع لتخويفهم وتحذيرهم ما هم عليه مُقدِمون ، وتقف في وجوههم كسدٍ منيع يحول بينهم وبين اعتناق الإسلام . . شاهرة في ذلك كله سلاح العذاب والقتل والبطش . . فإن كثيرين منهم ، أمثال عمار بن ياسر وأبيه وأمه ، وبلال بن رباح الحبشي ، وخباب ابن الأرت ، وصهيب الرومي ، وغيرهم ، لم يُرهبهم قهرٌ ولا بطش ، ولم يَثنهم تهديد ولا وعيدٌ ، بل أقبلوا على الإسلام مؤمنين ، صادقين ، غير هيّابين ولا وجِلين . .

انقضت السنوات الثلاث الأولى من بدء الوحي ، ووضْعُ المسلمين على حاله ، لا يطرأ عليه أي تغيير . . يذهبون للصلوات في شعاب مكة ، ويستخفون عن العيون في دار الأرقم ، وكان كلما دخل أحدٌ في الإسلام أوصوه بالحرص على التكتم ، وعدم ذيوع خبره ، إلاّ لمن يأنس عنده نفحة للإيمان ، وقابلية للهدى ، وقبولاً بالإسلام . .

وإذا كان وضع المسلمين قد ظل قائماً على الكتمان ، وعدم الإفساح لقريش بمناصبتهم العداء ، فإنهم صاروا يرون أن قريشاً لم

تكن خلال تلك المدة مكتوفة الأيدي ، بل إنها عملت في السر على إقامة طوق ضربته من حولهم ، وأن هذا الطوق بات ينذرهم حقاً ببغضائها وعداوتها لهم . . .

وهاهم يرون العداوة تظهر سافرة عندما اجتمع بعض السادة من القرشيين في دار أبي جهل « عمرو بن هشام » من أجل التشاور في أمر محمد بن عبد الله وأصحابه . . وقد ضمَّ ذلك المجلس ، عدا صاحب الدار ، كلاًّ من أبي لهب ـ عبد العزى بن عبد المطَّلب ، عم الرسول ﷺ وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط وغيرهم من أهل الكفر . .

فقال أبو جهل : أما والله لقد أصبح محمد بن عبد الله خطراً علينا ، لا ندخل بيتاً من قريش إلاَّ ونجد أهله يتحدثون عنه وعن الدين الذي جاء به .

قال عقبة بن أبي معيط : وأي خطر تخافه يا أبا الحكم !. . أو تظن أن تلك الشرذمة التي تسمي نفسها أتباعاً لمحمد قادرة على الوقوف في وجهنا !. . . لا يا أبا الحكم ، لا تشتد في الوهم ، وخفف عن نفسك عبئاً تحملها إياه بلا سبب موجب !. . .

ولكنَّ أبا لهب ردَّ على عقبة ، بحدة وغضب : أية حماقة أسمعها . وهل نستهين بقدرة أبي بكر عتيق بن أبي قحافة ، أم لا نعبأ بمكانة أبي طالب بيننا وهو لم يمنع ابنه علياً عن محمد !. . أم أنكم

نسيتم منزلة عثمان بن عفان من نفوس بني أمية ، وغيرهم وغيرهم ؟ ! . . .

توقف أبو لهب ليلتقط أنفاسه من شدة انفعاله ، ثم تابع قائلاً : لا يا قوم . . لم يعد السكوت جائزاً عن محمد ، وهو يغري كل يوم أتباعاً له . . فإما أن نقوم بعمل يوقفه عند حده ، وإما أن نتركه يصرف الناس عن عبادة آلهتنا ، ويقوض الأركان التي تقوم عليها مكانتنا في العرب . . فهلاّ وعيتم ذلك وأدركتموه ؟ ! . .

وقال أبو جهل : واللاتِ والعزى لا أجد في ما يأتيه ابن عبد الله إلاّ شراً . ولا أرى إلا أن نقف وقفة رجل واحد ضد هذا الفساد الذي يتسرب إلى ديارنا . . .

قال أمية بن خلف : رويدكم يا قوم ولا تعجلوا في الأمر . . إن في قريش سادة آخرين ، وما يصيبنا يصيبهم ، فهل نتخذ رأياً دون أبي سفيان بن حرب سيد بني أمية ، أو عتبة بن ربيعة شيخ بني عبد شمس ، أو دون الوليد بن المغيرة شيخ بني مخزوم ؟ ! لا والله يا قوم ، لا يكون لنا موقف من دون هؤلاء ! . .

وكأن عقبة بن أبي معيط ، قد أحس بالخطر فعلاً وهو يسمع ما يبديه القوم ، فعاد عن رأيه الأول وقال : عما قريب يعود أبو سفيان بن حرب من تجارة له في اليمن ، ولا يجوز لنا أن نتخذ رأياً من دونه ، حتى لا نُغضبه ، ويمتنع عنا . .

وتفرق القوم من دار أبي جهل هكذا ، ودون أن يتفقوا على

شيء ، إلاَّ عودة أبي سفيان بن حرب ، ودعوته مع عتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، وغيرهم ، للتشاور فيما يصنعون . . .

وذهب جماعة الكفر ، كلٌّ في حال سبيله . فلم يطق أبو جهل البقاء في داره بعد خروجهم من عنده . ذلك أنه كان يحقد على محمد حقداً يكاد يقتله . فهو يؤمِّل في زعامة قريش ، وقد جاء سليلُ بني هاشم يضع العقبات في طريق وصوله إلى زعامته ، أفلا يؤلِّب القوم عليه ، حتى يحاربوه ويميتوا دعوته ، فيصل إلى مبتغاه ؟ !

خرج أبو جهل من داره يهيم في طرقات مكة على غير هدى . . إنه لا يقصد مكاناً معيناً ، ولا يعرف ماذا يريد ولكن شيئاً واحداً فقط يعرفه ويريده ، وهو النيل من محمد بن عبد الله . .

وفيما هو يهيم في حقده الأرعن ، لقيه رجل من قريش ، وقد لفته منظر وجهه المكفَهِرِّ ، فاستوقفه ، وسأله :

ـ إلى أين يا أبا الحكم ؟

ورد عليه أبو جهل بعبوسه ولؤمه :

ـ دعني يا رجل ، ولا تسل عما لا يعنيك ! . .

ـ وكيف لا يعنيني وأنا أعرف ما تريد ! . . .

ـ قلت لك دعني وشأني . .

ـ بل لن أتركك حتى أخبرك بأن محمداً عند الكعبة وحوله جماعة يحدِّثهم . . فهل تذهب إليه ، وإن رمت مؤازرة سرت معك ؟ .

وكأن ما قاله هذا الرجل قد هيج حِقْدَ أبي جهل الدفين ، فقال له :

ـ هيا بنا إليه . .

ذهب الرجلان حتى صارا على مقربة من مكان محمد ، فوقفا يحدقان به دون أن يتقدما خطوة واحدة نحوه . . وظلاَّ على تلك الحالة فترة ثم ما لبث أبو جهل أن ارتدَّ إلى الوراء ، وعاد يتعجَّل خطى العودة إلى بيته ، دون أن يؤثر فيه تهكم الرجل الذي يرافقه ، وهو يقول :

ـ أرى أن أبا الحكم قد امتنع عن محمد خوفاً أم رهبةً لست أدري . . ولكن لو علم القوم من أمره ما أعلم لما سرّهم ما فعل ! .

وعاد الرجل يردد ما قاله ، وأبو جهل ماضٍ في سبيله ، حتى إذا كان في وسط الطريق ، رأى عن بعد سعد بن أبي وقاص آتياً في اتجاهه . . فما كان منه إلاَّ أن راح يرغي ويزبد ، وهو يشتم ويسب ويلعن كل من يلوذ بمحمد ويستمع إليه . . ولم يكتف بذلك ، بل إنه ما ان قارب سعداً ، حتى تناول حجراً وضربه به ، فوقع على رأسه فشجَّه ، ثم تابع سيره وكأنه شَفَى غليله بضرب هذا الرجل . .

ولملم سعد بن أبي وقاص شتات نفسه ، وذهب إلى أهله يغسلون دمه ، ويضمدون جراحه ، فلما اجتمع بالرسول ﷺ مساء ذلك اليوم ، في دار الأرقم بن أبي الأرقم ، تقدم منه الرسول ومسح بيده الطاهرة المباركة على رأسه ، وقال له :

« في سبيل الله دمك يا سعد » . .

لم ترهب حادثة التعرض لسعد بن أبي وقاص إخوته في الدين ، ولكنها كانت بداية النذير . .

وإذا كانت الحادثة بسيطة بحد ذاتها ، فإنها جعلت الرسول ﷺ يرى ما سوف يتعرض له المسلمون من أذى وكرب . . إنهم قلائل ، وأعداؤهم من المشركين كثر . وهم فوق عددهم الكثير ، يحوزون أسباب القوة والمنعة ، ويمتلكون أسلحة العداوة والكراهية ، وهي أسلحة فتاكة تنذر بأوخم العواقب على المسلمين وها هم أعداء الله بدأوا يشهرون تلك الأسلحة ، فماذا عليه أن يفعل حتى لا تتعرض جماعةُ الله إلى الأذى الشديد ؟ ! . .

لاذ الرسول من قلقه بالصلاة والابتهال إلى الله ، فانتحى ركنه في حجرته ، وراح بعد الصلاة يتلو القرآن حتى قارب الفجر الطلوع ، فإذا به يحس بالشدة والثقل ، وإذا بجبرائيل الأمين ينزل إليه حاملاً الوحي من ربه . .

صادعاً بالأمر الجليل :

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ (١)

فما أعظمَ هذا الإله العلي القدير ! . لقد انكشف الكرب الذي أقلق نفس نبيّه ، وهو يعلم العذاب الأليم الذي سيحل بأهله وذويه

(١) سورة الشعراء ٢١٤ ـ ٢٢٠ .

الأقربين ، إن هم استمرُّوا على ضلالهم وظلوا في غيهم يعمهون . . فقد كان ﷺ يريد لهم الخلاص من عذاب الله الشديد ، ولكنهم أعرضوا عن دعوته مُؤْثِرين الشرك بالله ! . .

وها قد جاءه الأمرُ من ربِّه بإنذارهم والبدء بهم . . فعَليه أن يدعوهم في هذه المرة ، وأن يُنذرهم بما سوف يحلُّ بهم من عقاب ربهم إن هم استمروا على الكفر والعناد . .

ولبّى محمد ﷺ أمر ربه فدعا عشيرته إلى وليمة في بيته ، وكان فيهم عمه عبد العُزَّى بن عبد المطلب (وكان يُدعى « أبا لهب » لأن وجهه ، فيما يقال ، كان مشرقاً حسناً ، تتلهب وجنتاه بالحُمْرَة كما تتلهب النار) سرياً من سراة قريش ، كثير المال مسموع الكلمة شديد التعصُّب لدين قريش ، وتقاليدها ، حريصاً أشد الحرص على أن يظلَّ دينه مرعيَّ الجانب ، موفور الكرامة . وكانت فيه حدَّة وسفاهة ، واندفاع مع الغضب . وكان أشد ما يسوءه أن تَمَسَّ قداسة الآلهة ، أو تمتهن كرامةُ الآباء ، فيثور لذلك أعظم ثورة ، ولا يبالي أن يعادي في سبيل ذلك أقرب المقرَّبين . .

وكان رسول الله ﷺ يعرف منه ذلك ، ويخشى أن يُفْسِد عليه أمره بما فيه من حمق وجهالة ، فجعل يفكِّر في الوسيلة التي يستطيع بها أن يدعو عشيرته إلى الإسلام ، بحيث يتَّقي شرَّ هذا العم الجهول ، ويأمن من أثر نفوذه القوي على بني هاشم ولذلك صنع لهم طعاماً ودعاهم إليه فحضروا وكانوا نحو الأربعين رجلاً . فلما انتهوا من طعامهم ، تأهب الرسول ﷺ ليعرض دعوته عليهم ولكنّ أبا لهب كان

أسرع بالبدء فبادره بقوله : هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك فتكلم ودع الصبأة فلا تخرج على دين قومك ، ولا تعرضهم لغضب العرب قاطبة ، وليس لهم بحربهم طاقة ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به ! . . .

وكان ثائراً مهتاجاً ، يلقي الكلام على عواهنه ، ويشير بيديه مهدداً متوعداً ، وقد جحظت عيناه ، وانتفخت أوداجه .

ونظر رسول الله فإذا القوم سكوت ، وإذا الجو كله وجوم وكآبة ، فعلم أن الفرصة لم تحن بعد ، وأن الجو غير ملائم ، فسكت ولم يتكلم في ذلك المجلس . .

ولبث الرسول ﷺ أياماً ثم دعاهم إلى وليمة أخرى ؛ فما إن فرغ القوم من طعامهم ، حتى قام خطيباً فيهم وقال :

« الحمد لله ، أحمدُه وأستعينُه وأثقُ به وأتوكَّل عليه ؛ وأشهد أن لا إلّه إلاَّ الله وحده لا شريك له . . » ثم قال :

«إن الرائد لا يكَذِب أهلَه . والله الذي لا إلّه إلاَّ هو إني لرسولُ الله إليكم خاصةً وإلى الناس كافَّة ؛ والله لَتَموتنَّ كما تنامون . ولَتُبعَثُنَّ كما تَستيقظون ولتحاسَبُنَّ بما تَعملون ، وإنها للْجنّةُ أبداً أو النَّار أبداً » .

وراح يشرح لهم صلَّى الله عليه وآله وسلم كيف أن الله سبحانه قد أمره بأن يُنذرهم لأنهم عشيرته الأقربون ، حتى يكونوا أول المهتدين وفي طليعة المجيبين لنداء الحق ، وحتى يكونوا قدوة للناس باتِّباعهم الإيمان بالله العلي القدير ، وليفوزوا بخير الدنيا والآخرة . . .

أما إذا لم يلبوا الدعوة ولم ينصاعوا لأمر الله فإن عقابهم سيكون شديداً أليماً . .

وهو وإن كان من أبناء هذه العشيرة فإنه لا يُغني عنهم من الله سبحانه شيئاً ، لأن الثواب والعقاب يتوقفان على عمل الإنسان نفسه ، ولا يشفع به إلاَّ صدق إيمانه بربه وعمله الطيب . . . حتى إذا أبان الحق وأظهر أمر الله ، عاد يكرر دعوته لهم من جديد وهو يقول : « نعم إن ربي قد أمرني أن أدعوكم إليه ، فأيُّكُم يؤازرني على هذا الأمر . . ؟

فوجَمَوا كالأموات ! إلاَّ الفتى الطريَّ العود ، علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد انبرى من بينهم يقول : « أنا يا رسول الله » . .

فما كان أجدر عشيرة محمد الأقربين بأن تتفهم صدق ما قاله لها ، بل ما كان أولاهما بأن تعاضد النبيَّ وتؤازره . . ولكنَّ هذه العشيرة لم تفعل شيئا من ذلك ، بل أعرضت رجالاتُها عنه ، وقاموا يهمون بالخروج لولا أن وقف علي رضي الله عنه الفتى اليافع ، وأخزى سادة قريش كلهم ، وأعلن على ملئهم استجابته لأمر الله ، وتلبيته لنداء رسول الله ، قائلاً : « أنا يا رسول الله . . أنا حرب لمن حاربت ، وسِلمٌ لمن سالمت » ! ! .

وبدل أن تهزّ صرخة هذا الفتى ضمائرهم ، وأن يدبَّ الإيمان في قلوبهم ، راحوا يتضاحكون ويتغامزون ، وهم ينقلون أنظارهم بين علي الغلام الحدث ، وبين أبيه أبي طالب ! كأنهم يوحون إليه بخروج

ابنـه من يده . . أو كـأنهم يقولـون له : أصبـح ابنك في واد وأنت في وادٍ : بل صار يأمرك بترك دين قريش عشيـرتك ، وبـاتباع دين محمـد ابن عبد الله . . ثم خرجوا يسخرون ويستهزئون . .

ولكن لم يفتَّ هذا الإعراض من عزيمة محمد شيئاً . . بـل عاد بعد تلك الدعوة إلى مثلها . . . إذ ذهب بعد أيام قلائل ، وصعد على جبـل الصفا ، ونـادى بأعلى صـوته : « يـا صباحـاه ». وكانت صيحـة معروفة ، كلما أراد إنسان أن يخبر قومه بأمـر هام ، فلم تتـأخر قـريش في تلبيـة النداء ، وتنـادت أصواتهـا في جميـع جنبـات مكـة تقـول : محمـد على الصفـا يهتف . . فَلْنـرَ مـاذا يـريـد » . . . ثم جـاء القـوم يسألونه ، ما به ؟ . . واجتمعوا إليه بين رجل جاءه بنفسه ، وبين رجـل بعث إليه رسوله ، فقال لهم :

يا معشر قريش ! . . يا أهل مكة ! . . أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تصدقونني ؟ فكأنه بـادأهم بالسؤال عن معرفتهم بصدقه ، فلم يُنكروا ، بل قالوا :

« نعم ! أنت عندنا غير متهم ، وما جرَّبنا عليك كَذِباً قط » .

قـال : « فاسمعـوني إذن . . فإنِّي نـذيـر لكم بين يـدي عـذابٍ شديد . . يا بني عبد المطَّلب ، يا بني عبد مناف ، يـا بني زهرة ، يـا بني تيم ، يا بين مخزوم ، يـا بني أسد ، يـا أهل مكـة ! . . إن الله قد أمـرني بأن أُنـذر عشيـرتي الأقـربين . . وإني لا أملك لكم من الـدنيـا منفعةً ولا من الآخرة نصيباً إلاَّ أن تشهدوا أن لا إِلّه إلاَّ الله . . هذا مـا أدعوكم إليه فآمنوا بالله وبرسوله إليكم . . »

فقد بلّغ وأنذر . ولكن الرد جاءه من غاشم جهول . . . إذ انبرى من بين القوم ، عمُّه أبو لهب ـ عبد العزى بن عبد المطَّلب ، وقال له بقحةٍ وغلاظة :

« تبّاً لك سائر اليوم ! أما دعوتنا إلاّ لهذا ؟ ! » . .

بمثل هذا الرد جُوبه محمد ﷺ ! وهو ردٌّ صلفٌ عبَّر عن قلوبهم العامرة بالشرك ، وعن نفوسهم القائمة على الوثنية ، جاء من أحد سفهاء شيوخهم ، أبي لهب من أكثر أبناء العشيرة قرابةً له . . وثَقُلَ عدم انصياع قريش لأمر الله على محمد . وأحزنه موقف عمه أبي لهب ، فسكت صابراً محتسباً . مما جعلهم يتفرَّقون من حوله . . ولكنَّه حزنٌ زائلٌ ، إذ ما لبثت المواساة أن جاءته من الله العلي القدير ، فنزل عليه الوحي بقوله تعالى :

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾ [1]

هكذا يأتي العقاب من الله ، مالك رقبة أبي لهب ورقاب عشيرته ورقاب العالمين . . لقد تجرأ على رسول الله غيرَ وجل ولا هيَّاب . . فارتدَّ عليه كيده ، وأتاه الوعيدُ الأبدي بهلاك نفسه ، وقطْع يَديه اللَّتين أشار بهما إلى محمد . . . وويلٌ له من عذاب أليم ، حيث لا يغني

(١) سورة المسد.

عنه ماله الذي يفاخر به في دنياه . . . وأي فائدة لهذا المال والنار تنتظره بلهبها الآكل ، وبتوقدها المحرق . فهو من أهل جهنم وبئس المصير . .

وهكذا عاد أبو لهب بلعنة خالدة ما خلد القرآن الكريم ، ويوم القيامة يكون من المقبوحين في الدرك الأسفل من الجحيم . . .

ولكنْ لم يقفْ تعزيزُ القدرة الإلٓهية لمحمد ﷺ عند حد الوعيد لأبي لهب ، بل تناولَ الوعيدُ زوجته أروى بنت حرب بن أمية ، أخت أبي سفيان . . فكانت لها حصَّتها من الوعيد بالعذاب والتكبيل بسلاسل النيران .

فقد كانت هذه المرأة الخبيثة جعلت زوجها أبا لهب أُلعوبةً بيدها ، فراحت تُحرِّضُهُ على النبي والإيقاع به ، يدفعها إلى عملها السيء الحقدُ الدفين الذي توارثته عن آبائها بني أمية الذي كانوا يناصبون بني هاشم العداء ، منذ اليوم الذي ظنَّ فيه أميةُ بنُ عبد شمس أنه قادرٌ على أن ينتزع رئاسة قريش من هاشم ابن عبد مناف ، فثار عليه يريد أن يطرده من مكة ، فكان الطردُ من نصيبه هو ، حيث غلبه هاشم على أمره فذهب بالخزي إلى بلاد الشام ، وعاش فيها عشر سنوات كاملة بعيداً عن العار الذي جلبه لنفسه . . لقد كان حلم أروى بنت حرب بن أمية بل همُّها الأوحد في حياتها أن يغلب أهلها « بنو أمية » كلَّ بطون قريش ، وفي الطليعة « بني هاشم ». وها هي ترى في عداوة قريش لدعوة محمد سبيلاً لنفث سمومها الدفينة ، فراحت تؤلب زوجها عليه وتدفعه لعداوته

والإيقاع به . ولم يكن زوجها أبو لهب وحده ألعوبةً بيدها ، بل جعلت ابنيها عتبة وعُتيبة رهنَ رغباتها ، خاضِعَيْن لحكمها . . فأمرتهما أن يطلقا ابنتي محمد رقية وأم كلثوم اللتَين تزوجاهما قبل بعثة محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام . ظناً منها أن هذا الطلاق يؤذي محمداً ويُثقل كاهله . . .

ولم يكن حقد تلك المرأة وقفاً على محمد وحسب ، بل كانت ذاتَ نفس مشحونة بالسوء ، قد عرفت قريش كلها بأنها امرأة تحب النميمة وتروجها ، لا لشيء إلَّا لتوقع العداوة بين الناس ، وتشفي غليل اللؤم الذي يملأ قلبها . . فبادرتها السماء بلعنة خالدة أبدية ! ! . . فإنها وهي تثير حرباً شعواء على الرسول ودعوته ، لم تكن لتبقى بدون جزاء شديد تناله على ما تفْعَل . . فلما نزلت آيات الله تخزي زوجها أبا لهب بعد أن تجرأ على نبي الله ، لم يكن الوعيد الذي حملته الآيات المباركة ليقتصر عليه وحدَه ، بل خَصَّتها هي أكثر من زوجها لا بسعير النار الملتهبة تحرقها في الآخرة وحسب ، بل وفي الحياة الدنيا حيث جعلتها ايات الله سُخرية على الأفواه ، وهي ترسم صورتها تحمل الحطب لتوقد النار ، بعد أن تدلى في عنقها حبل الليف الذي تحزم به ذلك الحطب . . . فكان الجزاء من جنس العمل . وكانت أيضاً هذه الصورة السافرة التي رسمتها الآيات الخالدة لزوجة أبي لهب ، تحقيراً لفعلها الشنيع ، حين كانت تجمع الشوك ، وتضعه في طريق الرسول ، وعلى باب بيته ، إذ كانت تجاوره في السكن . .

ولقد خيل لتلك المرأة اللعينة، بعدما تناقل الناس كلمات الله المعبرة، بتصوير قرآني قوي تجذب بلاغته العرب، ويثير السخرية من امرأة معجبة بنفسها، مُدِلّةٍ بحسبها ونسبها، لقد خُيِّل لزوجة أبي لهب بأن رسول الله (ص) يهجوها بالشعر، فعمدت هي تقرض الشعر لتذمه به، وتسمِّيه مذمماً لا محمداً، فقالت ذلك خائبة:

مذمماً قَلَيْنا ، ودِيْنَه أَبيْنا ، وأَمْرَه عَصَيْنا !.

وهو قول يثير الضحك فعلاً.. لذلك تبسَّم محمد ﷺ وهو يسمع شعرها. لأنه في الحقيقة لا يحمل ذماً إلّا لكل مذموم، ومحمد هو محمود. مكرم، ومعظم عند خالقه وعند ذوي النفوس الكبيرة السامية. أجل سخر ﷺ من حمالة الحطب وقال: «انظروا كيف يصرف الله تعالى عني شتمهم ولَعْنَهم يشتمون مذمَّماً وأنا محمد»..

لقد نالت زوجة أبي لهب العقاب الذي تستحقه، فكانت مثالاً دائماً لكل امرأة، فاسدة حاقدة.. وهل أشد معاقبةً ممن تقع عليه لعنة الله السرمدية، كما وقعت على امرأة أبي لهب حمالة الحطب!..

ولم تكن أروى بنت حرب بن أمية، وحدها التي تحرض زوجها أبا لهب وأولادها على عداوة النبي، ونَصْب البغْضاء له، بل كانت في قريش نسوة كثيرات أمثالها، يذكر منهن ذات الشأن اثنتان: أسماء بنت مخرّبة بن جندل - أم أبي جهل - وهند بنت عتبة بن ربيعة - زوج أبي سفيان بن حرب، وزعيم بني أمية -..

فأسماء بنت مخرّبة كانت من بني تميم، وقد تزوجت من «هشام بن المغيرة» من بني مخزوم، فولدت له عمراً (أبا جهل) والحارث.. وبعد أن طُلقت من زوجها هشام، ظلت في بني مخزوم، وتزوجت من «أبي ربيعة ـ عمرو بن المغيرة» ، شقيق زوجها الأول.

وكانت تعمل عطارة، تأتيها العِطارة من اليمن. فجمعت مالاً كثيراً وأعدته لأحد أبنائها الأربعة: عمرو أو الحارث ـ ابني هشام ـ أو عبد الله أو عياش ـ ابني أبي ربيعة ـ أي لمن تسلم زعامة بني مخزوم ، ومنها زعامة قريش كلها..

وعاشت تلك المرأة على هذا الأمل.. فلما جاء محمد بن عبد الله بدعوته، رأت أسماء أن أملها قد ضاع. ثم ازداد غضبُها أكثر، واستبد بها الهم، حين رأت أحد أبنائها «عياش بن أبي ربيعة» قد دخل في دين الله ، الذي يدعو إليه الرسول الأمين محمد ﷺ .. فصارت لا يهدأ أوارها، ولا يهنأ بالها، ما دام محمد ماضياً في دعوته.. بل وزاد في حنقها وسخطها أن رأت «أبا سلمة بن عبد الأسد» المخزومي يدخل في دين الله ويتابع محمداً ﷺ على هذا الدين.. فأدركت أسماء ما في دعوة محمد من قضاء على الأمل الذي عاشت له، فراحت توغر صدُور أبنائها بالحقد عليه ولكن منَّ الله عليهم بعدم بغضه، إلاّ عمرو بن هشام الذي استجاب لحقد أمه ، وثبت على عداوته لمحمدٍ، وحربه لدعوته..

ومثل أسماء بنت مخرّبة، كانت هند بنت عتبة بن ربيعة، امرأة ذات هوىً للسيادة، وهوسٍ للزعامة. وقد تزوجت من سيد بني

مخزوم «الفاكه بن المغيرة» عندما رأت تسابق بني مخزوم هؤلاء على زعامة قريش، وإن كانت تعلمُ أن بني أمية ينفسون عليهم هذه الزعامة ويريدونها لهم . .

عاشت هند في بني مخزوم على أملها الموعود من نفسها . . ولكن حدث ما لم يكن بحسبانها، إذ أقبل في أحد الأيام رجلٌ على ضيافة زوجها، حتى إذا دخل الدار ولم يجده قفل راجعاً دون أن يسأل أهل بيته عنه . . وصادف أثناء خروجه، رجوع الزوج ـ الفاكه ـ إلى بيته، فرآه وهو يخرج ولكنه لم يدركه حتى يسأله عن حاجته، فدخل بيته ليرى زوجته هنداً نائمة . . فوسوس له الشيطان بالخيانة، وتقدم من زوجته يَركُلها برجليه وهو يصيح بملء فمه :

«قومي يا خائنة، وأخبريني عن رجلك الذي خرج لتوه من مخدعك» . .

ودهشت زوجه لهذا الاتهام الشنيع، فأبدت احتجاجها وهي تقول :

ـ دعك يا رجل من أوهامك، فإنني والله ما صحوتُ حتى جئتني بثورتك الجامحة .

ولكن الغضب كان قد استبد بالفاكه، فأفقده رشده، وما زال بالمرأة يضربها، حتى أنهكت قواه، ثم طردها وهو يقول لها :

ـ ارجعي إلى أمك . .

وعادت هند إلى منازل بني عبد شمس، ودخلت دار أبيها عتبة

ابن ربيعـة، وقلبها يقـطر دماً من هـول ما لحق بهـا، ونالهـا في شرفهـا وكرامتها. .

واختبـأت هنـدُ عن العيـون، لتلوذ إلى الـدمـوع والألم على مـا أصـابها. . ورأى عتبـة حال ابنتـه فلم يعد يـطيق إصطبـاراً، فجـاءهـا يسألها، بعد أيام على رجوعها:

ـ أي بنية!. . إن الناس أكثروا فيك، فأخبريني بحقيقة ما كـان، فلئن كان الفاكه يقول حقاً بما يشيـع، بعثت إليه من يـدس له السم أو يقتله، فتقـطع عنك المقـالـة. . وإن كـان كـاذبـاً حـاكمتـه إلى كهـان اليمن. . .

ونفت هنـدُ التهمة عنهـا. . فـدعـا أبـوهـا الفـاكـه للذهـاب إلى اليمن. . ورافق عتبة بعض بني عبد شمس، كمـا رافق الفـاكـه بعض بني مخزوم. .

وهنالك في اليمن أعلن الكـاهن الذي ذهبـوا إليه بـراءة هند. . فأراد أبوها أن يقتله ولكنَّ القوم منعوه منه. .

وعـادت هند لتقيم في بيت أهلهـا حتى تزوجهـا أبو سفيـان بن حرب بن أمية. .

جاء أبو سفيان يخطب يـد هند، فـوافقت تواً على الـزواج منه، وهي ترى فيه العوض عما كانت ترنو إليه يوم تزوجت في بني مخزوم. ذلك أن أبا سفيان بن حرب كان لا يألو جهداً، ولا يقـل أملاً، عن أي شخص آخر يناصب أصحاب المقام العداوة والبغضاء. بل وكان لدى الرجل

دافع يقوى على دوافع غيره وهو الانتقام لجده «أمية»، وسلب بني هاشم زعامة قريش. . وكان بنو أمية يعرفون ذلك، وبنو مخزوم وغيرهم من بطون قريش، يعرفون هوى أبي سفيان في الثأر ورغبته في الوصول إلى الزعامة. . فلما جاء يخطب هنداً وافق هواها هواه، فانتقلت إلى منازل بني أمية، وهي تداعب نفسها بالأمل المنشود. . ولم تكن هند لتخفي هذا الأمل، بل كانت تترنمُ به في أغانيها. وزادت في هذا الترنم بعدما أولدت من أبي سفيان ابنها معاوية ، إذ كانت تحدو له بذلك الأمل، قائلة:

ثَكِلتُ نفسي وثَكِلتُ بكري   إن لم يسُد فهراً وغير فهر

هؤلاء النساء الثلاث: أروى بنت حرب زوجة أبي لهب، وهند بنت عتبة ـ زوج أبي سفيان وأخي أروى ـ وأسماء بنت مخرّبة، تلاقَين على بُغْضِ محمد بن عبد الله ، فقد كانت لهن أطماع وأهواء متقاربة فرَّقتهنَّ في التنافس والتسابق على زعامة قريش، ولكن جمعتهن على الحقد للإسلام ، وقد أظهرت كيدهن لمحمد ﷺ رسول الله ، فكن عاملات ، ليلَ نهارَ ـ على حث رجالهن أزواجاً وأبناءً ـ ودفعهم لمعارضة محمد ومحاربة دعوته .

ولم تكن «حمدونة بنت سفيان» أقل من تلك النسوة كراهية لدعوة محمد. . فقد توارثت الحقد على كل مخالفٍ لمعتقداتها حتى أعماها هذا الحقد عن رؤية الحقيقة والاهتداء إلى الإيمان. . فقد دخلت هذه المرأة يوماً حجرة ابنها «سعد بن أبي وقاص» وهو يركع ويسجد ويذكر اسم الله كثيراً . فتقدمت منه لتكلمه، ولكنه لم يرد

عليها، بل ظـل متابعـاً ما يقـوم به، ممـا أذهلها وجعلهـا تقف بجانبـه تـرقب، وتنحو عليـه باللائمـة على مـا يفعـل، وهي تـظن في نفسهـا الظنون، وتتوهم بأن ابنها قد وقع في سوء لا تعرفه، ولا تعرف من أين أتاه. .

ظلت حمدونة واقفة، حتى فرغ سعد من صلاته، فأسـرعت إليه أمه تسأله:

ـ ماذا تفعل يا سعد؟

قال لها:

ـ كنت أصلي لله رب العالمين. .

وبـانت الدهشـة على وجه حمـدونة، ولكن ابنهـا لم يترك لهـا فـرصـة للكلام، بل قال:

ـ أماه!. . لقد آمنت بـدين الله الواحـد الأحد. وشهـدت بأن لا إلّـه إلّا الله وأن محمداً رسـول الله. . وإنني أدعوك لتؤمني بمـا آمنت به، فهلمي أُسمعْكِ ما يُرضي ويطمئن الفؤاد. .

وصرخت حمدونة في وجه ابنها:

يا ويلتاه. . لقد صبأتَ يا سعد!. .

وتبسم سعد ليقول لأمه:

«بـل لقد اهتـديت يا أمـاه. . اهتديت إلى الـدين الحنيف الذي يدعو إلى خير بني الإنسان، وإلى البر بالـوالدين، وإيتـاء ذوي القربى واليتامى والمساكين». . .

ـ وعادت حمدونة إلى صراخها وهي تقول:

ـ أوتترك دين آبائك أيها الولد اللعين الطائش؟

فقال لها سعد: وأي دين هذا، يقوم على عبادة الأصنام والأوثان . . إنه ليس ديناً بل كفراً ووثنية وزندقة . .

وعادت من جديد تصرخ قائلة:

ـ اخرس أيها الصابىء . .

وقال سعد: لا يا أماه . . لن أسكت حتى تستمعي إليَّ وبعدها تحكمين بأني أقول الحق أو أنني من الصابئين! . . فقد أراد أن يأخذها باللين، ولكن غضبها كان أقوى من إدراكها، فأقسمت وهي تقول:

ـ واللات والعزَّى لا يهنأ لي مقام في هذا البيت وأنت بجواري على دينك أو تعود إلى عبادة آلهتنا . .

وخاف سعدٌ بأن يزيد في غضب أمه. فقال لها: هدئي من روعك يا أماه واجلسي بجانبي حتى أحدثك بأمر هام . .

ولكن حمدونة ظلت على عنادها وهي تقول: لتدعنَّ هذا الدين أو . . .

فقال لها سعد: لا تفعلي يا أماه! . . فلست بتاركٍ دين الله وقد رشدت إلى الهداية بعد الضلال، وإلى الإيمان بعد الكفر . . ثم تركها وانصرف.

عادَ سعد مساء ذلك اليوم ليجد أمه حمدونة وقد امتنعت عن

تناول أي شراب، وبقيت على تلك الحال قرابـة يومين. . فجـاء سعد بعدهما وقال لها:

ـ اتدرين يا أماه! . . والله لو أن لك مائـة نفس تخرج نفسـاً نفساً ما تركت دين الله، فلك إن شئتِ أكلتِ، ولكِ إن شئتِ جعتِ. . .

وهكـذا لم تفلح محاولات تلك المـرأة الكـافـرة حمـدونـة بنت سفيان في ثني ابنها سعـد بن أبي وقاص عن دينـه فانتصـر الإيمان في بيت سعد على الكفر، وكان لسعد الثواب والخلود. .

وإذا كان في قريش مثل هاتين النسوة اللواتي أكل الـطمع قلوبهن، واعماهن الحقد، فناصبن العداء لمحمد بن عبد الله ﷺ لأنه ـ بحسب ظنهن ـ جاء يقتل الآمال التي عِشْنَ لها في الزعامة والرياسة، فإنه كـان في قريش أيضاً، غيرهن من النسوة الفاضلات، بنات الشرف والكرامة والحمـد، اللواتي تلاقت قلوبهنَّ الـطاهـرة على الإيمـان بـالله، وعلى تصـديق محمـد رسـول الله، فكنَّ من خيـار نسـاء أهـل الأرض على الإطلاق.

ومن تلك النساء المؤمنات البـارات، صفية بنت عبـد المطلب، أم الزبير بن العوام. . وأسماء بنت أبي بكر، وأم الفضل زوجة العباس ابن عبـد المطلب ـ عم الـرسول ـ . . . وفـاطمة بنت أسـد ـ زوجة أبي طالب ـ عم الرسول، وشيخ قـريش ـ وهي أم علي بن أبي طالب ـ . . وأم جميـل فـاطمــة بنت الخـطاب أخت عمـر بن الخـطاب وزوجـة سعيـد بن زيد بن نفيـل وغيرهن . . وغيـرهن من النسـاء ، اللواتي لم يدخلن في الإسلام إيماناً وعقيدة ونهجاً مستقيمـاً وحسب ، بل ووقفن

من وراء الرجال لحمل الدعوة ، ونصرة النبيّ ﷺ والـذبّ عنه من أذى المشـركين . . فكن المبرورات ، الكـريمات . . قـد نلن رضـوان الله سبحانه . ورضاء رسوله عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام .

وهكذا سرت الدعوة الإسلامية في النفـوس الطاهـرة، وتغلغلت في الأفئدة النقية، يحملهـا رجالٌ ونسـاءٌ آمنوا بـالله العظيم، وأخلصـوا لرسوله الكريم، فازداد الرسولُ بهم ثقة وراحة واطمئناناً. .

لقـد دعا النبيّ ﷺ عشيـرته الأقـربين، وأنذرهم بـأمر الله ولكن دعـوته وانـذاره لم يلقيـا تجـاوبـاً من تلك العشيـرة التي أصـرّت على الكفـر، ورفض أمر الله. . ولم تقف في غلوائهـا عند هـذا الحد، بـل قامت بعد دعوة محمد لها، تجهر بأشد العـداوة له، ويحمـل لواء تلك العداوة رهطٌ من سادة الكفار أمثال أبي جهـل، وأبي لهب وأبي سفيان ابن أميـة، والوليـد بن المغيرة، والنضـر بن الحارث، وعتبـة بـن ربيعة وعقبة بن أبي معيط، وغيرهم. فقد راحت تلك الطغمـة الباغيـة تؤلب الناس على محمد ﷺ وتحث القوم على الإيقاع بـه، والنيل منـه ومن المسلمين. . ولكن، ومهمـا تـألبت قـوى الشـر على محمـد، وعلى الإسلام، فإنه ماضٍ في دعوته قدما، ولن يفتَّ في عضده، أو يصرفـه عن إظهار أمر الله، أي عائق، أو أية شدة أو عداوة. .

وإذا كانت قريش قد أظهرت عداوتها السـافرة لعقيـدة التوحيـد، فإن محمداً ﷺ كان جريـاً على عادتـه يحاول أن يـدعو النـاس باللين والـرفق، بعيداً عن إعـلان أي عداوة، حتى انقضت على تلك الحـال ثلاث سنوات بكاملها. . .

صحيح أن تلك المدة لم تذهب سدى، بل كان خلالها الرسول يقوم على تربية الصحابة، وإعدادهم الإعداد اللازم، حتى صار هؤلاء المسلمـون جذوةً متّقِـدةً بالإيمـان، ولا همَّ لهم، ولا أمل أو رجـاء إلاَّ إعلاء كلمة الحق، ونشر دين الله، أيا كـانت المصاعب والأهـوال التي سيلقونها، والتي بدت نُذُرهـا تلوح في الأفق، بما تقـوم به قـريش من تآمر وأحابيل على الدعوة.

ولكن إذا كـانت قريش قـد أعلنت عداوتهـا بصلافـة، فهل تبقى الدعوة مقصـورة على بعض الأفراد الـذين يعيشون مُخفين إيمانهم، ساترين إسلامهم ؟ وهل يجوز للبـاطل أن يسـود ، وتكون المجـالات أمامه مفتوحة ، بينما يبقى الحق ساكناً ، متخفياً ، قابعاً في نطاق ضيق محصور ؟ ! . لا والله إن الوقت قد حان لإعلان الإسلام دعوة عامة لا تقف عنـد حـدود دعـوة عشيـرة النبي ، ولا تقتصـر على مـلأ قــريش وحدهـم بل تتعداهم إلى الناس أجمعين ، كما أرادها رب العالمين أن تكـون . ولـم يكن النبي ﷺ يفكر ، ويخـطط ، ويعمل وحـده . . بـل كانت العناية الإلّهية ترصد تحرّك الدعوة ، فتوحي للرسـول بالأوامـر ، وبما يتناسب مع جو الدعوة ، والمرحلة التي صارت إليهـا . . في هذا الوقت بالذات ، وبعد مرور ثلاث سنين ، على تخفي أمر المسلمين ، وإذ عزم الرسول العظيم على اعتماد نهج جـديد في تحـركه ، امتثـالاً لأمر الله تعالى ، عنـدما نـزل الوحي يـأمره بـأن يسلك طريق التحـدّي بـالجهر والإعـلان ، في تبليـغ رسـالـة ربـه ، وذلـك بقـولـه تعـالى : ﴿ فاصدع بما تُؤمر ، وأَعْرِضْ عن المشركين ﴾ .

وها قد بان تحسب الرسـول والمسلمين للمصاعب والأهـوال . .

فأمر الله الذي نزل، يبين أن للدعوة أتعابها ومشاقها، ولولا ذلك ما كان الله العليّ القدير، ليصف ملاقاة تلك المشاق، بالصدوع. . تدليلاً منه ـ سبحـانه ـ على القـوة والنفاذ في أمـر الله . . فلا يُقعِـدنَّ الرسـول عن التحدي بدعوته شِركُ مشرك، ولا يثنيـه عن عزمـه استهزاء مستهـزىء، فـالله ـ سبحانـه ـ سوف يـرد كيد المعتـدين، ويكفيه شـر المستهزئين، وسـوف لا يكون لعـداوتهم أو استهزائهم إلا العذاب، وصدع الـرسولُ العظيم بالأمر الجليل، فمضى قدماً! . .

﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝٩٥ ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٩٦ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدۡرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ۝٩٧ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٩٨ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾ (1)

لم يعد يدعو لدين الله أفراداً بالسر. ولم يَعُد يستخفي عن عيون المشركين. بل انبرى يتبع الناس في الأندية، ويلحق بهم في المجامع والمحـافـل، ويـدخـل عليهم في النـدوات، وينتـظرهـم في المـواسم ومواقف الحج. . يَغشَى جوانب مكة وأسـواقها، ويـذهب إلى الأسواق المحيطة بها في مجنة وعكاظ وغيرهما. . يَطرق الأبواب، ويستأذن في الدخول على أهلها، هادياً مبشراً، منذراً.

نعم أُعلنت الـدعوة، وراح الـداعي وأتباعـه يعملون ليل نهـار، وعـلانية وجهـارا، لا يهتمون لمن يصـرفهم، ولا يأبهـون لمن يردهم،

(1) سورة الحجر ٩٤ ـ ٩٩.

ولا يعبـأون بمن يصـدهم. . إنهم حـزبُ الله، يحملون في قلوبهم، وفي نفـوسهم، وعلى أكتافهم رسـالة الله. . يـدعون النـاس من أجـل خيرهم وصلاحهم، وينشرون الفضائـل ومكارم الأخـلاق في حياتهم، فـإن أعرض عنهم النـاس فتلك جهالـة، وإن ردُّوهم فتلك ضـلالـة. . ولكنهم من أجل محو الجهالة وقتل الضلالة يعملون، ولَسوف يأتي اليوم الذي تظهر فيه أحقية أعمالهم، فيهتدي الناس إلى الإسلام، ويعرفـون آلاء الله وفضـائله ونعمـه على عباده، عنـدمـا أنـزل لهم هـذا الـدين العظيم. .

ولـم يكن هذا النهج الذي اتَّبعه الرسول ﷺ وأصحابه في الجهر بالدعوة ليذهب سُـدى. . فالاتصـال بالجمـاعات والقبـائل التي كـانت تأتي إلى مكة، وإلى بيت الله الحرام، حجيجاً أو معتمـرين، أو تجاراً مضاربين، قد جعل دعوة محمد حديث هؤلاء، عندما يَفِدون، وعندما يُغَادِرون. . يلازمهُم خبرُ الدعوة في السفر وفي الحل والترحـال، وبين الأهل والأقارب، وبين الآحاد والجماعات. . فتناقل الناسُ الخبر فشاع بين قبـائل العـرب جمعـاء، قـريبهـا وبعيـدهـا. . إلّا أن تلك الأخبـار المتناقلة عن دعوة محمد ﷺ ظلت في نطاقها الإخباري وحسب، فلم تتفاعل ولـم تتجاوب مع ما يجري في داخل مكة. . حتى كـان يومٌ مـر فيه رجل في طريق عودته من مكة على ديار بني غفار. . وانعطف أثناء مـروره على أبي ذر الغفـاري، لحـاجـة بـه إليـه. . فجلس الـرجـلان يتحدثان. . وإذ عَلِمَ أبو ذر بقدوم الرجل من مكة، سأله بقوله:

ـ ما أخبار أم القرى في هذه الأيام، يا أخـا العرب!. . هـل حقاً ما يشاع عن رجل فيها، يقول بأنه يُخاطب من السماء؟!. .

ـ قال الرجل: هذا حديث أهل مكة كلها. .

ـ قال أبو ذر: وما كان من قريش معه؟! . .

ـ أجاب الرجل: لقد آمن به بعض منها، ونفرٌ من أهل مكة، وآمن الضعفاء منهم خاصة. أما كبار قريش فإنهم يستخفون بالدعوة ويستهزئون بأتباع صاحبها. .

ـ قال أبو ذر: وهل يقف جميع زعماء قريش في وجه ذلك الرجل ودون ما يدعو إليه؟! . .

ـ فقال: بل إنَّ نفراً قليلاً من أولئك الزعماء آمن به واتبعه. .

وانصرف الزائر بعد قضاء حاجته، وظلَّ أبو ذر الغفاري يفكر بما قاله له. إنه يعرف ذلك الدافع في أعماقه الذي يلح عليه في هذا التفكير. . وكلما طالت عليه الساعات كلما غرق في الإمعان فيه. . حتى صار يحس وكأنه معني بالأمر والوقوف على حقيقته . . ذلك أن هذا الأمر الذي أخبر به، لم يكن في مفهومه غريباً عنه، فهو ومنذ ثلاث سنوات تغيرت مشاعره تجاه الأصنام، وتجاه مناة بالذات، صنم قبيلة غفار، عندما وضع أمام هذا الصنم وعاءً مملوءاً لبناً، فإذا بأحد الثعالب يهجم على اللبن ويأكله، ويصادف أن يبول في تلك الساعة في مكان أكله، مما جعل أبا ذرٍ يرقب وهو مشدوه، لا يعرف كيف يفسّر هذا الذي يراه، حتى هداه تفكيره إلى الاقتناع بأنَّ مناةَ لا يمكن أن يكون معبوداً، طالما أنه جمادٌ لا حياة فيه، ولا يقدر على شيء، حتى ولو على دفع امتهان حيوان له. . فهل يجوز أن يعبده إنسان له مثل هذا الخلق الذي يجعله يتحرك، ويرى، ويسمع، ويتكلم، ويفكر، ويشعر، وما إلى غيرها من خصائص هذا الإنسان؟

لقد نفض أبو ذر بفطرته السليمة عبادة الأحجار والأخشاب والتماثيل، وآمن بأن من يخلق الإنسان وكل شيء هو أحق بالعبادة، ولم لا يكون الله الذي تؤمن به العرب معبوداً ولكن تشرك معه في العبادة تلك الأصنام والأوثان التي لا تملك من الأمور شيئاً؟!

وبقي أبو ذرّ في شغل شاغله بحقيقة الإيمان الذي يجب أن يكون عليه، حتى جاءه هذا الرجل اليوم وأخبره بخبر ذلك النبي في مكة، أفلا يأخذ عليه الخبر مجامع تفكيره ويشده لأن يتحرّى حقيقته؟

وظلّ أبو ذر الغفاري على تلك الحال من التأمل والتفكير حتى انقضت بضعة أيام، ولم يعد يقوى على الصبر والاحتمال، فبعث بطلب أخيه أنيس كي يأتيه.. فلما جاء أخوه وجده باديَ الهم، وأمارات القلق ظاهرة على وجهه، فسأله عما به، فأخبره أبو ذر بما يُقلقه ثم طلب إليه الذهاب إلى مكة قائلاً:

ـ تذهب يا أنيس وترى ذلك الرجل ثم تعود إليَّ بالخبر اليقين.

وأجابه أخوه: سمعاً وطاعة يا ابن أمي.. مسيري في الغد الباكر.. وانطلق أنيس الغفاري مع الفجر إلى أم القرى.. وما إن وصلها حتى توجه تواً إلى الكعبة يطوف.. وما كاد يفرغ من طوافه ويجلس ليستريح حتى رأى رجلاً مشرق الوجه، على رأسه عمامة، وعلى جسده بردة، يأتي إلى الكعبة طائفاً، ومن حوله نفر من الشباب، بدت عليهم إمارات النخوة والمروءة، يفعلون كما يفعل.. فأعجب المشهدُ أنيساً، فراح ينظر إلى الرجل وجماعته بعين راضية.. ثم ما

عتم أن اجتمعوا في حلقةٍ ورأى الرجل يحدثهم وهم يصغون إليه . . وأحس أنيسٌ بأن لهذا الرجل مكانةً في نفوس هذه الجماعة، وشعر بأنه يرغب في الاستماع لحديثه. فتقدم لأحدهم يسأله عنه . . وكم كانت دهشته كبيرة عندما عرف أنه الرجل الذي قصد مكة لرؤيته ومعرفة خبره ، لأنه لم يكد يسأل عنه حتى قالوا له : إنه محمد بن عبد الله ، رسول الله للناس كافة ، فاجْلسْ واستمع إليه . .

وجلس أنيس بجانب تلك الجماعة وراح يصغي، فإذا به يسمع قولاً لم يسمع بمثله قط في حياته . . فقد كان الرجل يتلو من مجامع القول ما يفوق كل بلاغة وفصاحة، ويحدث بما يعبر عن معاني تلك التلاوة، حتى أُخذ أنيس عن نفسه بحلاوة وطلاوة ما يسمع . . فظل في مكانه، إلى أن قام الرجل هو وجماعته منصرفين . .

ولم يشأ أنيس الغفاري أن يترك مكة، قبل أن يسمع من الناس ما يقولون عن محمد بن عبد الله، حتى إذا توفرت له المعلومات التي رغب بمعرفتها، عاد على جناح السرعة إلى دياره في بني غفار، ليلتقي أخاه الذي تركه على همّ وقلق . .

عاد أنيسٌ، وما كاد يدخل على أخيه أبي ذر، حتى بادره هذا بالقول:

ـ حمداً على سلامتك يا أنيس، هاتِ ما عندك من أخبار . . قال له أنيس: أَوَ لا تتركني حتى أستريح؟! . .

قال أبو ذر: أنت متعب الجسد، ولكنني أنا متعب النفس، فهاتِ وعَجل بما وراءك . .

قال أنيس: والله لقد رأيت محمد بن عبد الله بأم العين. وسمعته بأذني . . وإنه لا ينطق إلا بجوامع الكلم . . يأمر بالمعروف، وينهي عن المنكر . . وإنه لَيقول بأنه رسول الله الذي جاء من لَدُنْهُ مبشراً ونذيراً . .

قال أبو ذر: وما يقول الناس فيه؟

أجابه أنيس: أما والله إن قريشاً غير متفقةٍ على رأيٍ فيه . . ففريق يقول: إنه شاعر، وفريق يقول: إنه كاهن. وفريق يدعي بأنه ساحر . . وإنهم والله لكاذبون جميعاً لأنني ما رأيته يدعو إلاّ إلى مكارم الأخلاق . .

قال أبو ذر: وهل وجدت لك صحْباً في أم القرى، أصدقوك القول فيه؟

قال أنيس: والله لقد كفتني لهجة محمد بن عبد الله وهي تصدر صادقة، ولكنني حبّاً بأخي أبي ذر عمدت إلى تحرّي القول فيه، فما أقنعني إلاّ ما سمعته منه . .

وسكت أبو ذر يفكر، ثم لم يلبث أن قال لأخيه:

ـ ما شفيتني يا أنيس! . . ولسوف أذهب إلى الرجل بنفسي . . وأنظر . .

فقال أنيس: ليكن ما تريد ولكن حذار معشر قريش فإنهم

يحذرون من الاتصال به ولا يتورعـون عن أذية من يعـاندهم أو يخـرج على رأيهم . .

وجـاء أبو ذر الغفـاري إلى مكة، وفي نفسـه توق شـديد لـرؤ ية محمـد بن عبد الله، والتحـدث إليـه . . جـاء متخفيـاً لا يُعلن مـراده، وذهب إلى الكعبـة حيث يجلس الـرجـل طـويـلاً كمـا علم من أخيــه أنيس . .

طـاف أبـو ذر حــول الكعبـة المبـاركـة ثم جلس ينتــظر قـدوم محمد ﷺ . . وانقضى ذلك النهـار وحلَّ المسـاء دون أن يرى الـرجل فهمَّ يريد أن يضطجع وإذا بفتىً يافع يتقدم منه ويسأله:

ـ وكأن الرجل غريب؟ أجاب أبو ذر: نعم! . .

قــال الفتى: هــلاَّ تبعتني. فـنحـن نُقــري الـضيـف، ونؤمـن الغريب! .

قـال أبو ذر: ونِعْمَ أهـل العرب أنتم، وديـار بركـة تدعـون إليها العابرَ وابن السبيل . .

ثم قام يتبع الفتى، ولا يسأل أحدهُما صاحبَه شيئاً، حتى وصـلا إلى دارٍ أنزله بها الفتى، ثم جاءه بطعام العشاء، فقدمـه له، وانصـرف عنه، وهو يدعو له بالراحة . .

لقد كان أبو ذر تعِباً من وَعْثـاء السفر، فمـا كاد ينتهي من تنـاول عشـائه حتى قـام إلى حاجـة لـه، ثم انـدسَّ في فـراشـه يغطُّ في نـوم عميق، ولم يستفق إلاَّ قبيـل طلوع الشمس، فنهض من نـومــه، وهـو

يحسُّ ارتياحاً واطمئناناً لم يشعر بهما قطُّ في حياته. . نهض أبو ذرٍ ليجد طعام الفطور بجانبه، فقال في نفسه: «ما أكرم أهلَ هذا البيت» ! . .

وتناول أبو ذر فطوره، ثم خرج إلى الكعبة، ينتظر ويرقب قدوم محمد بن عبد الله. . ولكنَّ النهار انقضى ولم يَره، فأراد البقاءَ بجوار الكعبة، ولكنَّ فتى البارحة جاءه من جديد، ودعاه لمرافقته وهو يقول له:

ـ أما آن للرجل أن يعرف منزله؟.

وانقضت تلك الليلة أيضاً، ولم يكن أحدٌ منهما قد عرف صاحبَه. . وعادَ أبو ذرّ في الصباح إلى الكعبة، وأمضى نهاره في الانتظار دون أن يعثُر على الضالة المنشودة التي جاء يبحث عنها ـ كما قال في نفسه ـ وهو يحاذر أن يسأل عن محمد، ويخشى التحدث إلى أحدٍ عنه. حتى إذا حلَّ المساء جاءه الفتى ودعاه للذهاب معه. ولكنه لم يسكت هذه المرة، فما أن سارا بضع خطوات حتى قال بعدها الفتى:

ـ هل يضيق صدر الغريب إن سألناه من يكون، وما غاية مكوثه قرب الكعبة؟! . .

فأجابه أبو ذر: إن كتمتَ عليَّ أُخبركَ. .

ـ قال الفتى: والله إني لأَكتُمُ السرَّ وأعين صاحب الحاجة على قضائها بما قدَّر الله لي من العون. .

واطمأنَّ أبو ذر إلى قول ينمُّ عن خلُق كريم، فقال للفتى:

- إنني من ديار بني غفار، على مقربةٍ من مكة، واسمي أبو ذر الغفاري.. فهل يخبرني الفتى الطيِّب من يكون؟!..

- عليّ بن أبي طالب..

- ابن سيد قريش؟!..

- بل قل إن والدي أبا طالب هو شيخ قريش. أما سيِّدها وسيِّدُ العالمين فهو رسول الله محمد بن عبد الله..

وأحس أبو ذر بقشعريرة تسري في جسده وهو يسمع قول الفتى، ولكنَّه مضى يسأل في دهشة:

- واعجباً منك يا بن أبي طالب!. أتنكر السيادة على شيخ البطحاء، ولا تطمع فيها من بعده، ولك مثل هذه النجابة، ومثل هذا الذكاء؟!..

- دونك يا أخي ومعتقدات الناس، فلو تفكرتَ جيداً لرأيتَ أن السيادة الحق هي التي تنبع من الإيمان بالله تعالى، وبقدر ما يشعر الإنسان بعبوديته لله خالقه وبارئه، بقدر ما يحسُّ أنه سيِّد في الحياة الدنيا.. فلا الحسبُ ولا النسبُ، ولا المالُ ولا الجاهُ، فيه مجلبة للسيادة، إن لم تنضوِ تحت لواء العبودية هذه. وعندما بعث الله محمد بن عبدالله، صار هو سيد العالمين، فزالت سيادة أبي طالب وسيادة العرب، أمام سيادته..

وعادت الدهشة تعقد لسان أبي ذر، فسكت.. فقال له عليّ:

- ولكنَّ رجلَ بني غفار لم يُخْبِرنا عن غايته بعد؟!..

فقال أبو ذر: بلغَنَا أنه خرج رجلٌ هنا يقول إنه يخاطب من

السماء، فبعثتُ أخي ليلقاه ويعرف حقيقة خبره، فرجع إليَّ دون أن يأتيني بما يشفي غليلي. . وإنني جئت مكة أطلب لقاء هذا الرجل الذي يقولون إنه محمد بن عبد الله، فقد اشتاقت والله نفسي لرؤيته ومعرفة ما يقول. . .

وسكت أبو ذر هنيهة، ثم تابع يقول:

ـ ولكني أرى أني وقعت على فتىً من أتباع محمد ومصدِّقيه، بل ويجعل له السيادة حتى على أبيه، فهل لك أن تحدثني عنه يا ابن أبي طالب؟!. .

وتوسَّم عَليٌّ خيراً بصُحبة هذا الرجل، فقال له:

ـ إنك ضيفهُ قدْ جئت ديارنا يا أبا ذرّ. . فقد كنت اصطحبك إلى داره، وتبيت في الناحية التي ينزل فيها ضيوف بيت النبوة. .

ـ ما أغرب ما تقول يا آبْنَ أبي طالب. . فأنا ما جئتُ مكة إلا لألقى محمد بن عبد الله، وها أنا أبيتُ، بشريفِ جواره ليلَتين كاملتَين، ولا أراه ولا أعرف أنني نزيل داره.

ـ واعجباً منك يا أبا ذرّ. . ألم تسمع محمداً يرتِّل القرآن في آناء الليل؟!. .

ـ لا والله، ولعلَّ وعثاء السفر قد أخذت مني، فما أتناولُ طعام العشاء حتى اندس في فراشي، وأغطّ في نوم عميق لا أفيق منه إلا قبيل طلوع الشمس. .

وكانا قد بلغا دار الرسول ﷺ فأنزله عليٌّ (عليه السلام) كعادته في نفس المكان الذي كان ينزل فيه، ثم استأذنه ليذهب إلى الصلاة

ثم يعود إليه . . ولم تمضِ ساعة من وقت إلا ورجع عليٌّ وهو يحمل الطعام، فجلس إلى الضيفِ، وراحا يأكلان سوية، وعليٌّ يحدِّثه عن دين الله، وعن الدعوة الجديدة لهذا الدِّين، ثم خلص إلى القول: « والله إنه لحقٌّ يقين ، وإنه لرسول كريم » .

فقال أبو ذر:

ـ كم أتوق لرؤية هذا الرسول . .

قال له عليّ: إذا أصبحتَ فاتبَعني، وادْخُلْ حيثُ أدخُل، فإن رأيت شيئاً يدعو إلى تأخُّرِكَ عني، قمتُ إلى الحائط كأني أصلح نعلي . . فخذ حذرك لأنَّ القوم لا يرغبون أن يلقى أحدٌ نبيَّ الله.

وفي الصباح انطلق عليٌّ (رضي الله عنه) وأبو ذر الغفاري يتبعه حتى دخلا مجلس النبي دونما عائق . .

وهناك في دار الأرقم بن الأرقم جلس أبو ذر بجوار رسول الله، والاطمئنان يملأ نفسه، ثم قال له:

ـ هاتِ أسمعني من قولك . .

وتردَّد صوت النبيِّ في أرجاء الحجرة، يهزُّ كيان أبي ذر، وهو يُسمِعه قول الله سبحانه وتعالى، ويتلو عليه شيئاً من القرآن الكريم . .

نعم . . راح النبيُّ ﷺ يتلو آيات الله البينات، وأبو ذر يستمع مبهوراً . . حتى إذا امتلأ قلبُه بالإيمان، هَبَّ واقفاً وهو يقول: أشهدُ أن لا إله إلّا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله . .

وانشـرح صدرُ النبيّ ﷺ بـإسلام الـرجل، فسـأله من يكـون. .
فقال له أبو ذر: من غفار يا رسولَ الله، واسمي: أبو ذر الغفاري. .

فازداد الرسولُ انشراحاً، وتبسم في وجه أبي ذرّ الذي قال:

ـ إن العـرب ـ يا رسـول الله ـ كلها تعـرف أن قبيلة غفـار تقـطع الـطرق وتنهب السـابلة. . ولكنْ والله إن رجعتُ إلى قــومي، لأقـومَنَّ فيهم داعياً بما ذلـك خلاصٌ لهم من تلك العـادات السيئة التي قـامت فيهم منذ زمن طويل. .

وأعجبَ الرسولُ ﷺ بنيَّة أبي ذر، فقال له:

ـ يـا أبا ذر! حـاذر قريشـاً مـا دمتَ فينـا، حتى إذا رجعتَ إلى قومك فقم فيهم داعياً، حتى إذا بَلغكَ خبري، فأتوني.

وأخذت الحميةُ أبا ذر فقال للرسول:

ـ والذي بعثَك بالحق لأصرُخَنَّ بهذا الدِّين هنا بين ظهراني أهل مكة. .

ولم يلبث أبـو ذر حتى أتى المسجد الحـرام، فوقف وهـو ينادي بأعلى صوته:

ـ أشهدُ أنَّ لا إله إلاّ الله، وأشهدُ أنَّ محمداً رسولُ الله. .

ودوّى صوتُهُ في جنبات الكعبة، فشقَّت صرختُه على من كـانوا في الجوار، وصَعُبَتْ عليهم جرأة هـذا الغريب الـذي وقف يعلن كُفره بالآلهة التي يعبدون، فاجتمع إليه نفرٌ وبادره أحدهم بالسؤال:

ـ من أنتَ أيها الغريب؟.

ـ من قبيلة بني غفار. .

ـ ويحك من مارقٍ، اتشتم آلهتنا وتسفِّه أحلامنا! . . ؟

ثم اجتمعوا ينهالون عليه بالضرب حتى سقط مغشياً عليه. .

وكان العباس بن عبد المطلب في تلك الناحية، يرى ويسمع. فلما رأى ما حلَّ بالرجل، تقدَّم وفرق النَّفر عنه، وصاح فيهم:

ـ ويلكم. . ماذا تفعلون. . ألا تدرون أنه من غفار، وأنها طريق تجارتكم إلى الشام، وتفعلون به ما تفعلون؟! . .

وعجب النفر مما قاله العباس. . فقال بعضهم لبعض: لعلَّ ابن عبد المطلب قد صبأ. أم تراه يخاف حقاً على تجارتنا من بني غفار؟! . .

ولم يأبه لما يقولون عنه، بل أخذ الرجل إلى زمزم وغسَلَ له وجههُ، ثم أقعده حتى يرتاح ويهدأ روعه، ولم يتركه العباس حتى اطمأنَّ عليه، فتركه وانصرف عنه. .

وعادَ أبو ذر إلى رسول الله ، فواساه على ما ألمَّ به ، ثم نادى عليّاً ، فصحبَهُ إلى منزله حيث بات ليلته ، وفي الصباح أذِنَ له رسول الله بالخروج، فعادَ أبو ذر الغفاري إلى قومه، وراح يدعوهم إلى دين الله، فآمن به جميع بني قومه. . ولبث أبو ذر يدعو إلى الإيمان، ويترقب اليوم الذي يدعوه فيه رسولُ الله حتى يلتحق به. .

لقد آمنت قبيلة غفار بالدعوة الإسلامية، فكانت أول جماعة مسلمة بين قبائل العرب. . ثم امتدَّ خبر الإسلام إلى أبعد من ديار بني

غفار. فأسلم بعض الأفـراد القلائـل من ديار متفـرقة، أمثـال عمرو بن عَبسَة السلمي، وضماد أزد شنوءة.

أما عمرو بن عبسة السلمي فقد كان منذ شبـابه يعلم بـأنَّ رهبان النصـارى وأحبار اليهـود يتحـدَّثـون عن بعث نبي جـاءَ زمـانُـه، فتمنى الرجل أن تدوم أيامهُ ليعيش هذا الزمان ويشهد مواقف الأنبياء. ولذلك فإنه ما أن سمع بأحد أبنـاء مكة يقـول بأنـه نبيٌّ مبعوث من الله، حتى راح يسأل كل آتٍ من ناحية مكة عن صحة هـذا الخبر.. فلمـا التقى رجـلاً وأثبتَ لـه صحـة مـا يُـذاع، هيَّـأ نفسـه وذهب إلى مكـة للقـاء النبيّ..

جاء عمرو بن عبسة كما جـاء أبو ذر الغفـاري من قبل، فـذهب إلى الكعبـة وجلس ينتظر على مقـربة من جمـاعـةٍ هنـاك، حتى أقبـل رجلٌ، فسمع من تلك الجماعة بَعْض ما ينمُّ عن الهزء والسخرية عندما قال أحدهم:

ـ إنه ابن عبد الله، لعلَّه جـاء يطلب إلى السمـاء أن تخاطبـه.. وأدرك عمرو من فوره بأنه هو الرجل الذي يروم لقاءَه فلما قضى حاجته في المسجد الحرام وانصرف تبعه عمـرو ودون أن يلفت انتباه أحـد.. فلما أدركه في أحد أزقة مكة، تقدم منه وقال له:

ـ حُيِّيتَ يا أخا العرب..

وردَّ عليه النبيُّ: وعليك التحية والإكرام، وعلى من اتَّبَـعَ الهُدى السلام...

وسُرَّ عمرو لحلاوة القول، وأدرك أنه محمد بن عبد الله، ولكنه رغب أن يتأكد من شخصه، فسأله:

ـ من الرجل؟

ولم تكذبه أذناه وهو يسمعه يرد عليه:

ـ محمد بن عبد الله. نبيُّ الله ورسوله بَعثني بالهدى ودين الحق لِيُظْهِرهُ على الدِّين كلِّه ولو كَرِهَ المشركون.

قال عمرو: هل لك أن تحدثني عن هذا الدين..

قال الرسول الكريم: اتْبَعْني..

وأخذه إلى داره، حيث قدَّم له الطعام والشراب، ثم جلس بقربه يبيِّن له الدِّين الذي بعثه الله به، حتى إذا اطمأنَّ إلى صدق ما يقول، وحقيقة ما يهدي إليه، قام وأمسك بيديه وهو يُعلِن الشهادتين بالله ورسوله.. وانشرح قلب الرسول لرجل يأتي من بعيد ويدخل في الإسلام. وفرِح عمرو بإسلامه على يدي الرسول، وطلب إلى رسول الله أن يزيده إيماناً ومعرفة، فبعث إلى أحد الصحابة ليرافق أخاه إلى دار المسلمين، حيث يجد مَن يُزوده بالمعرفة التي يريد..

تلك قصة إسلام عمرو بن عبسة، جاء من بني سلمة، بهدىً من الله، فوجد الهداية الكاملة التي توثَّبتْ إليها نفسُهُ فاستحقَّتها..

وأما ضماد أزد شنوءة، فقد دفعه الكفار، بحكمة من الله ـ سبحانه ـ إلى الدخول في الإسلام.. ذلك أن الرجل كان مشهوراً

في العرب بأنه يَرقي مَنْ بـه مَسّ من الجنون، أو من غلب عليه السِّحر، ويدَّعي بأنَّ الله ـ سبحانه ـ يشفي على يديه كل مَن يَرقيه. . جاء إلى مكة، ليشتري بعض الحوائج الشخصية، فرآهُ جماعةٌ من سفهاء قريش وعرفوه. . فراحوا يتغامزون ويتضاحكون، مستهزئين. . قم قال أحدهم:

ـ ويْحَكم يا رجال، ألا ترغبون بشفاء مجنون قريش!. .

ـ آه منكَ يا ابن اللعينة ما أشدَّ دهاءَكَ ومكرك!. .

ـ اخرس أيها السفيه، أتتهمني بالمكر وغايتي مساعدة محمد بن عبد الله!. .

ـ بل قل تريد التشهير به حتى تلوكه الألسن. . أنت لئيم حقاً. .

ـ قُطع لسانك، وهل أبذك[1] لؤماً وخبثاً. .

ـ دعونا الآن وهذه المهاترات. . . وانظروا إلى صاحبكم ضماد إنه يشتري الروائح والعطور ليرشها في أنوف المسحورين. .

ـ إن رجلكم قد أصاب. . فدعوا السِّفاهَ والممازحة، حتى لا يمرَّ ضمادٌ ولا نراه. .

ـ وهل يفلت منا إلا بعد أن نمتطيه.

ـ هيا احزموا امركم. . ماذا نقول له:

ـ سهل جداً، نغريه بالمال، وندفع به إلى ابن عبدالله حتى يذهب ويرقيه من جنونه. . .

---

(١) بذَّ القوم. سبقهم وغلبهم، علاهم في حُسْنٍ أو عمل فهو باذ.

ـ بل من سحره . . .

ـ من الجنون والسحر . .

ـ هيا وهاتوا ما في جيوبكم . .

وانتظر هؤلاء السفهاء من قريش حتى فرغ ضماد من شراء حاجياته، فأتوه وأغروه بالمال كي يذهب إلى محمد ويرقيه . . ثم اقتادوه حتى أوصلوه إلى باب منزله، ودفعوه للدخول، وولوا متفرقين . .

استأذن ضماد بالدخول، وطلب أن يقابل محمداً، فاستقبله مرحِّباً يسأله عن حاجته . . فقال له ضماد:

ـ تناهَتْ إليَّ أخبارٌ بأن رجلاً من قريش قد غُلِبَ على أمره بما لا يستطيع دفعه عن نفسه . . وإني أرقي من هذه الرياح، والله يشفي على يديَّ من يشاء . فَهَلُمَّ، إن كان بك شيء منها، حتى أرقيك . .

وتبسَّم الرسول ﷺ وقد رأى في الرجل بعض السذاجة، وبانَ عليه بأنه ضحية خدعة ماكرة، فقال له:

ـ « إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه . من يهدِ الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له . أشهد أن لا إلـه إلاّ الله وحده لا شريك له» . .

ورَدَّدَ النبي ﷺ قوله هذا ثلاث مرات . . ثم سأل الرجل إن كان فيما قاله ما يضير . .

قال الضماد: لا والله . . بل هو قول رجل حكيم . .

وسكت قليلاً ثم قال:

ـ ولكنك تشهد بأن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له.. ولم تأتِ على ذكر آلهتنا التي نعبُدها لتقرِّبنا إلى الله زلفَى..

قال له النبي:

الحق، الحق، إنها أباطيل، كلها أباطيل.. ثم تلا عليه سورة الإخلاص:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾

ومن بعدها سورة الفلق:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾

فسأل ضمادُ النبيَ ﷺ: وما الفَلَق؟

وكان في بيت رسول الله ﷺ بعض المسلمين يجلسون ويستمعون، فطلب إلى أحدهم أن يشرح للرجل ما يريد فهمه، فقال أحد المسلمين: إن الفلق من معانيه الصبح.. والاستعاذة بالله سبحانه ـ وهو رب الصبح ـ دليل على أن النور يأتي مع الصبح فيبدد الظلمة ويبدد معها شرَّ كل غامض مستور.. ومن معانيه الخلق كله، فالله سبحانه وتعالى يشير أيضاً إلى كل ما يفلق عنه الوجود والحياة، فهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ﴾ (١)

---

(١) سورة الانعام ٩٥ .

وعادَ ضماد يسأل: وما معنى النفاثات في العقد؟

قال المسلم: النفاثات في العقد، هنَّ الساحرات الساعيات بالأذى عن طريق خداع الحواس، وخداع الأعصاب، والإيحاء إلى النفوس، والتأثير على المشاعر.. وهن يعقدن العقد في نحو خيط أو منديل وينفثن فيها كتقليد من تقاليد السحر والإيحاء.. ولذا فإنَّ السحر شر يُستعاذُ بالله منه، ويلجأ منه إلى حماه..

وصمت ضماد أزد شنوءة وأطرق مفكِّراً ثم قال:

مَنْ يُعيد عليَّ تلاوة ما قرأتموه؟

وعادَ النبيُّ ﷺ يتلو بنفسه سورة الإخلاص.. وسورة الفلق.. حتى إذا أنهى التلاوة سأل الرجل رأيه عن هذه التلاوة، وعما سمع من الرجل المسلم.. فقال ضماد:

ـ والله قد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء.. ولكنني ما سمعت قط مثل هذه الكلمات...

وعاد النبي ﷺ يبيِّن لضماد مفاهيم الإسلام، وضمادُ يُصغي ويحس باطمئنان حتى إذا فتح الله سبحانه قلبه على الإيمان قال للنبيّ:

ـ «واتعساه!.. ثكلتني أمي أن صَدَّقتُ القوم.. أيتهموك بأوصاف أنت براء منها. والله إنهم لكاذبون وأنت الصادق. إليَّ يَدك يا محمد أبايعكَ على دين الحق الذي أنت عليه.. وإني أشهدُ أن لا إله إلّا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسولُ الله».

لقد جَذَبتْ قوة الإيمان بالله الواحد ضمادَ أزدشنوءة، واحتضنته دعوة الحق بين ذراعيها.. فنسيَ زمرة قريش وسفاههم، ونسيَ المال الذي دفعوه له، فأعلن ولاءه لدين الله وتصديق رسوله، فكان من الأخيار البارِّين..

فقصة ضماد هذه، وغيرها من القصص الكثيرة، قد ظهرت مع إعلان الدعوة الإسلامية، وهي تدل على حقارة ووضاعة الأساليب التي راحت قريش تستعملها لمحاربة الدعوة، لأنها كانت لا تترك فرصة لمناوأة الدعوة ومحاربتها إلاّ وتستغلها.. فقد اتخذتْ زمرةٌ من السفهاء ضماد مطيةً لنفث حقدهم على محمد ﷺ فإذا برجل أزدشنوءة يصير في عداد المسلمين، ويرتد كيد المشركين عليهم فيكونون من الأخسرين..

وإن مثل هذه القصص. وإن كانت تحصل بصورة فردية، إلاّ أنها كانت تُثير مخاوف القريشيين، فيندفعون للبحث عن طرق وأساليب جديدة للقضاء على الدعوة الإسلامية، قبل أن يستفحل أمرها وتنتشر بين الداني والقاصي.. فاندفاعُ قريش في هذا السبيل مردُّه الخوف على مكانة قريش، والحرص عليها من الأخطار التي قد تتعرض لها بفضل محمد وأتباعه..

فقريش كانت سيدةً بين قبائل العرب، والدعوة الإسلامية أول ما تطالُ كبراءَها وزعماءَها وتذهب بتلك الغطرسة القائمة فيهم على الحسب والنسب، وعلى التباهي بأنهم وحدهم الأشراف وغيرهم الدُّون.. وإذا استتبَّ أمرُ الدعوة فلسَوف تزيل الفوارق المجتمعية

بينهم وبين سائر الناس، وتحقق المساواة بين مختلف الطبقات في مكة، فلا يبقى بينهم وبين الفقراء والعبيد والموالي تلك المكانة التي تميزهم وتجعلهم الأسياد على من سواهم. .

ولقد باتت قريش تدرك هذه المخاطر من واقع أتباع محمد، حيث كلهم سواء، كما يظهرون لأهل مكة، وكما تُخبرهم عن واقعهم عيونُهم التي تراقبهم، وتتبع خطواتهم. . إنهم يعيشون في وحدة متآلفة، لا فرق بين أبي بكر ـ نسابة العرب ـ وبين بلال بن رباح ـ العبد الحبشي الذي أعتقه ابن أبي قحافة ـ ولا ميزة لعثمان بن عفان ـ صاحب المال والثروة والوجاهة في بني أميَّة ـ على عمار بن ياسر ـ مولى بني مخزوم ـ. . تماماً كما أن علي بن أبي طالب ـ ابن شيخهم وصاحب المناصب ـ والأرقم بن الأرقم، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام. . وغيرهم. . وغيرهم. . هم على قدم المساواة مع خباب بن الأرت ـ عبد سباع بن عبد العُزى الخُزامي ـ ومع عامر بن فُهيرة ـ مولى الطُّفَيْل بن عبد الله الأزديّ أخي عائشة لأمها أم رومان ـ وصهيب بن سنان الرومي، وأفْلَح أبي فُكَيْهَةَ ـ عبد صفوان بن أمية ابن خلف الجمحي ـ وسواهم من أولئك الضعفاء والموالي الذين أعزَّهم الله بالإسلام، فتحررت نفوسهم وقلوبهم من ربقة العبودية بفضل الإيمان، ونَجَتْ أجسادهم من التعب والشقاء بعون إخوانهم المسلمين الذين كانوا يجمعون المال يفتدونهم به ليخلصوهم من عذاب سامتهم به قريش طويلاً ويغدقون عليهم ذلك الفيض المعنوي الذي ينسيهم العذاب والحرمان والمرارة، ويجعلهم آمنين مطمئنين. . وليس الخوف على المكانة، ولا إنكار المساواة، وحدهما مما كان

يُؤلِّب قريشاً على دعوة محمد وحسب، بل وما بدأت هذه الدعوة تُنذر به من هدم صروح الربا، تُربي به قريش أموالها، فيزيد في تجارتها ويزيد في غطرستها وصلفها. . ومن تقويض أسس بيوتات الفحش والدعارة مما يفقد رجالاتها أمكنة اللذة والمُتع الدنيوية الرخيصة السافلة. .

إن مثل هذه الاخطار، وقد باتت تلوح في أفق مكة على لسان محمد بن عبد الله ﷺ وأتباعه، هي ما أوجست قريش منها خيفةً، فهي تقضُّ مضاجع سادة الكفر وأركان الشرك، فتوغر صدورهم بالحقد على الدعاة وتملأ نفوسهم بالبغضاء لهم. .

نعم صارت مكانة أشراف قريش في خطر. . وشرفهم كان يقوم على المال، وعلى اللهو والملذات، فهل يسكتون، ويكتفون بشهر العداوة؟ لا. . بل عليهم القيام بأعمال جدية تزيح كابوس الأخطار الذي بدأ يجثم على صدورهم، ويثقل كواهلهم. . فتنادوا، واجتمعوا عند الكعبة كي يتدبروا خطةً جديدة للقضاء على الدعوة الإسلامية. .

لقد كان هؤلاء المشركون من ذوي الطمع، ويغلب عليهم الجشع وحب المال. . ومن كانت فيه عادة سيئة يظن أنها تمتلك الآخرين. . لقد تشاوروا فيما آل إليه أمرهم من الخسران، فبدأوا بعد مداولة طويلة جرت بينهم أن عليهم إغراء محمد بالمال والجاه، فربما تكون هذه هي الوسيلة الناجعة لإيصالهم إلى مأربهم الدنيء. . فلما استقروا على هذا الرأي قالوا:

ـ من يذهب إليه ويكلمه؟

ولم يجرُؤ أحدٌ على الاستجابة، وركوب هذا المركب الخشن، لما كان للنبي ﷺ من هيبة وجلال، ولما كان له عليهم من سطوة.. فظلوا صامتين.. وطال بهم الصمتُ حتى أيقنوا أنهم غير قادرين على هذا الأمر.. فقام بعضهم يريد مغادرة المكان، فوقف النضر بن الحارث وصرخ فيهم:

ـ ما بالكم يا قوم، اتجتمعون على أمر ولا تبتُّون فيه؟..

فقال أبو لهب: واللات والعزى لا يبرح أحدٌ هذا المكان حتى نتخذ قراراً فيما اجتمعنا إليه.

قال النضر: أنا أرشح عتبة بن ربيعة ليذهب ويكلّم محمداً..وسكت عتبة ولم يجب، فاستبشر القوم خيراً بسكوته الذي قد يدل على الرضا، بأن يكون سفيراً عنهم لدى محمد بن عبد الله، فتنادت الأصوات من حوله، تحضُّه على السعي في هذا الأمر، فقام من فوره حتى أتى محمداً، فدخل عليه وقال له:

ـ «يا محمد.. إنك منا حيث قد علمت من المكان في النسب،والشطر من العشيرة.. وإن القوم يَرون أنك قد أتيت بأمرٍ عظيم فرَّقتَ به جماعتهم، وسفَّهتَ أحلامهم، وعبتَ آلهتهم ودينهم، وكفَّرتَ من مضى من آبائهم.. وقد اجتمع أشراف قومك،وأجمعوا على أن أعرض عليك أموراً قرروها لتنظر فيها. فلعلك تقبل منها بعضها أو ترغب فيها جميعها».

فقال رسول الله ﷺ لعتبة: قل يا أبا الوليد، أسمع. .

قال ربيعة: «إن كنت في دعوتك إنما تريد بهذا الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا، فلا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد مُلكاً ملَّكناك علينا. . وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (تابع من الجن) تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى تبرأ». . .

قال هذا القول والرسولُ الكريم ينصتُ إليه كما هي عادتُه ﷺ من الإصغاء لمحدِّثيه، وانتظر حتى وجده قد أفرغ ما في جعبته من عروض سَخِيَّةٍ، فقال له:

ـ أفرغت يا أبا الوليد؟

قال: نعم. .

ومرَّت لحظات حاسمة كان يتوقف عليها مصير السفارة بين الحق والباطل. . فما قالُه محمد بن عبد الله ﷺ هو القول الفصل. . فلن يختار النبيّ على الدعوة الإسلامية شيئاً. . وما محمدٌ إلاّ رسول قد خلَتْ من قبله الرسُلُ. . . .

ولئن كانت العروض التي تغدق عليه كبيرة وكبيرة جداً إلاّ أنه مبعوث بالحق، ومن كان الحق رائده فلا يمكن أن يُغريه شيء في الوجود كله.

ثم قطع الرسول العظيم ﷺ جو الوجوم وتوجه نحو عُتبة وطلب منه أن يستمع، كما استمع هو إليه، فتلا الرسول الكريم قوله تعالى:

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾ وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا۟ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ ۩ (١)

وما أن تلا رسول الله ﷺ آية السجدة الأخيرة هذه، حتى خرَّ ساجداً يُثني على الله ويحمده، فلما فرغ من تسبيحه هذا وشكره لله تعالى، قام ووقف أمام عتبة من جديد، وهو يقول له: هل سمعت يا أبا الوليد؟

---

(١) سورة السجدة ١ ـ ١٥.

كـان عتبة بن ربيعـة يسمع القـرآن، وكلما زادَ الـرسول ﷺ في التلاوة كلما أحسَّ ذلك الرجـل قشعريـرة تسري في جسـده، حتى إذا سمـع الـرسـول ﷺ يتلو ﴿وذوقـوا عـذاب الخلد بمـا كنتم تعملون﴾ تحـولت القشعريـرة في جسمه إلى رعدة في مفاصله، فصـار يهتز من الرهبة والخوف، ولم يعاوِدْهُ بعض اطمئنـانه إلاّ بـالتفات الـرسول إليـه وسؤ اله له إن كان سمع تلك التلاوة المباركة . .

فردَّ الوليد: إيْ والله قد سمعت . . .

فقال له الرسول ﷺ عندئذٍ: أنت وذاك . .

وارتج الأمر على عُتبة فحارَ بما يجيب، ولكنه آثر عدم قول شيء آخر، ثم انصرف، وهو يشعر في قرارة نفسه بتفاهة ما قدَّمه من عروض لمحمد بن عبد الله إزاء ما أسمعه إياه . . فاستعجـل الخطى إلى قـومه وهو لا يدري أيهرب من محمد، أم يهرب من الحق الذي جابهه بـه، أم يهـرب من نفسه السيئـة التي كمنت لـه بـالمـرصـاد، فجعلتـه رغم الخوف الذي اعتـراها، لا يتنـاول يدي النبيّ ﷺ ويعلن إسـلامه . . . إنه لا يدري فعلاً، ولكنه يستحِثُّ الخـطى للوصول إلى تلك الجمـاعة التي تنتظره علَّه يتخلص من هذا الهلع الذي يكاد يوهي قواه . . . حتى إذا أقبل عليهم، وهو على تلك الحالة، قـال بعضهم لبعض: قد عـادَ عتبة بغير الوجه الذي ذهب به . .

ووصل عتبة وارتمى منهوك القوى، خائر العزيمة، فسألوه:

ـ ما وراءك يا أبا الوليد؟

فـطلب إليهم أن يعطوه فـرصة حتى يستـردَّ أنفاسـه . . وبعـد أن

ارتاح بعض الوقت، رفع رأسه وقال للقوم:

ـ يا معشر قريش .. لقد حمَّلتموني فوق ما أطيق ، والله لقد سمعت قولاً ما سمعت مثلَه قطُّ .. يا معشر قريش : أطيعوني ، واجعلوها لي » ! ..

والتفت الجمعُ إلى بعضهم البعض، وقد ظنوا أن عتبة قد خرج على إجماعهم، ولم يغب عنه ما يخالجهم من سوء الظن به، فقطع عليهم حبل التفكير وتابع قوله:

ـ « يا معشر قريش! .. خلُّوا بين هذا الرجل وما هو فيه، واعتزلوه.. فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت نبأ.. فإنْ تُصِبْهُ العربُ فقد كُفِيتُموهُ بغيركم، وإن يظهر على العرب، فَمُلْكُهُ مُلْكُكم، وعِزُّهُ عِزُّكم ، وكنتم أسعد الناس به » ..

فقد أراد عتبة بن ربيعة أن يكون نصوحاً، بما رآه في صالح القوم، ولكنهم أجفلوا من نُصحه، ورأوا فيه ما ينم عن هذيان، فقالوا له:

ـ «سحرك يا أبا الوليد بلسانه».

ولم يكن أمام عتبة إلاَّ أن يقول: «والله ما هو بالسحر أو بالكهانة، ولكن هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم»..

وتفرَّق المشركون، وقد أوقع في أيديهم.. فهذا عتبة سيد من سادات قريش، قد ذهب إلى محمد وخاطبه، وعرض عليه المال والشرفَ والسلطان، فارتدَّ فاشلاً.. بل جاء يحاول إقناعهم بعدم

التعرض له. . . فما هو أمر محمد بن عبد الله؟!. .

تفرقت جماعة الكفار والقلق يستبد بهم، وذهب كل واحد منهم إلى بيته مهموماً، مقهوراً، فلم يطق أن يكلمه أحد وصار لا يأبه لطعام ولا لشراب، بل انزوى في عزلة منفردة وظهر عليه التذمُّر من محمد بن عبد الله، ومما يدعوا إليه. .

ولم تكد تلك الليلة تنقضي حتى عادت تلك الجماعة نفسها، تجتمع في الصباح الباكر عند الكعبة، وكأنها على موعد، فيتشاوَر من فيها على اعتماد مسلكٍ آخر يسلكونه مع محمد حتى ينالوا منه، ويصلوا إلى مأربهم!. . اجتمعوا على الغي من جديد وبعثوا إلى محمد ﷺ: «إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك فأتِهم. .» فلما بلغه خبرهم بادر ﷺ فلعلَّ اجتماعه بإبن ربيعة غيَّر بعض ما في نفوسهم، وكان حريصاً على رشدهم، ثم وصل، وجلس إلى أولئك الزعماء من قريش، فراحوا يعيدون على مسامعه، ما ردَّدوه من قبل مرات كثيرة، وهم يقولون:

«يا محمد! إنا دعوناك لنعذر إليك فلا نعلم أحداً أدخل على قومه ما أدخلتَ على قومك، شتمتَ الآلهة، وعِبتَ الدِّين، وسفَّهتَ الأحلام، ومزَّقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً أعطيناك، وإن كنت تطلب الشرف سوَّدناك، وإن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك من يشفيك». . . ثم استفاضوا في الشكاية، وإظهار المكر والخداع ما بدا لهم. . . وأبدوا من التأسي على أمرهم، والحرص على مصلحتهم ما طاب لهم. . . يعلنون المحبة والإخلاص له، ثم لا

يلبثـون أن يلمِّحوا لـه بالتهـديـد والـوعيـد، حتى أفـرغـوا كـل مـا في جعبتهم، ولم يعد عندهم شيء يضيفونه، فسألوه:

ـ أو لسْنا على حقٍ فيما نقول ؟ ! . .

وكـان جواب رسـول الله ﷺ بسيطاً ، هـادئاً ، رصينـاً ، إذ قـال لهم :

ـ «ما بي ما تقولون»! . . .

لقد أراد أول ما أرادَ ﷺ أن يدفع عنه التهمة الظالمة الغـاشمة، التي وجهوها إليه، وهم يظهرون له ـ كذباً ونفاقاً ـ حرصهم على شفائه إن كان به مسّ، لأنَّ بِنَفْيِ التهمة، إثباتاً لأحقية ما يدعوهم إليه. . فكان أول ما بادأهم بهذا النفي القاطع ليوقر في آذان هذه الجماعة بـأنه نبي الله، وأن ما يقوله لهم هو الحق الذي يقنع كـل من رامَ حقاً، ويُـرضي كل من آرب صواباً. . .

«ما بي ما تقولون». . .

قول الصدق الناصع، الذي لا ينفي تهمة وحسب، بـل ويجابـه صاحب الادعاء بأنه كاذب مارق بجانب هذا الصدق! . .

ولئن كان على النبي ﷺ أن يرفع عن نفسه الحيف، إلاّ أنـه كان ـ في موقفه ذاك ـ لا يَبْغي إلا وجه الله، والدعوة إلى دينه الواحد، فلما أنكـر عليهم الاتهام ورده إليهم ـ إذ وضعهم هم في مـوضـع المتهمين لأنهم يقولون كذباً ـ عاد إلى هدفه الأول، وغايته الأساسيـة، ينذرهم، ويبلغ رسالة ربه، وهو يقول لهم: «ما جئتكم بما جئت أطلب أموالكم

ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم.. ولكن بعثني الله رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً. فبلغتكم رسالات ربي. ونصحت لكم. فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

لقد كان الرسول ﷺ، قد بلَّغَ من قبل، وبشَّر، وأنذرَ.. وها هو الآن يبلِّغ، ويبشِّر، وينذر.. فهل بين هذه الجماعة من أسياد قريش أن يهتدي؟!..

لا.. إنهم لا يريدون هدايةً، ولا يرغبون في استقامة.. بل همّهم الأوحد أن يتخلّى محمد بن عبد الله عن دعوته، ولذلك وصل بهم الأمر إلى حد الغرابة والعجب.. إذ يتوهمون أنفسهم جبابرة عتاة، قادرين على الوصول إلى ما يريدون!... ويزيد في أمرهم عجباً أنَّ الجهل قد وصل بهم إلى أن يقارنوا بين فضل الله على محمد بما منحه من النبوة وبين ما يرغبون في إعطائه إيّاه من المال والسيادة والملك... والأشد عجباً في هذا الجهل، أنهم يريدون أن يقايضوا بدين الله، دين الوثنية والجاهلية.. ألا إنهم جاهلون حقاً؟!

لقد تعامَوْا عن كل هداية يدعوهم إليها رسولُ الله ﷺ وأصروا على الكفر والشرك، حتى إذا وجدوا خيبة الأمل فيما دعوْا إليه محمداً، ورأوا ثباته على موقفه، عادوا إلى المكيدة التي اتفقوا عليها في صباحهم، فقام أحدهم يقول لمحمد:

ـ «لقد أفسدتَ كل أمر بيننا وبينك، ولم يبقَ أمامنا إلا أن نقتلك

ونخلص أهل مكة من شَرِّك»! . .

فقال الرسول صلوات الله وسلامه عليه: حسبيَ الله ونِعْمَ الوكيل. .

فانبرى أحدهم من الصف، ينتهرُ الرجل ويقول بخبث ودهاء:

ـ لا يا أخا العرب. . إن محمداً هو منّا حيث تعلمون، ونحن لا نضمر له شراً ولا عداوة، ولكننا نريد أن نُحاجَّه في أمره، فإن أصدَقَنا القول وأقنعنا بهذا الأمر الذي يدعو إليه، اتَّبعناه وكان لنا فيه الشرف والعزة! . .

ولم يكن هذا الذي أبداه أحد تلك الجماعة الكافرة من وحي فكره، ولم يَقُلْهُ عبثاً، بل أرادَ البدء بالخطة التي أحكموا تدبيرها، عندما اتفقوا على أن يطالبوا محمداً بإتيان معجزات حسية تثبت أنه نبي مرسَلٌ من السماء، حتى إذا عَجَزَ عن إظهار تلك المعجزات نجحت الخطة وبدا عجز محمد وتحققت نهاية دعوته . . .

هكذا كان التصميم على تعجيز محمد بن عبد الله للوصول إلى الخلاص منه، فانبرت تلك الفئة الباغية تتبارى في طلب المعجزات، فقالوا له:

ـ يا محمد! . . ليس أحد أضيق بلداً منا، فاسأل ربّك أن يسير هذه الجبال التي ضيَّقتْ علينا وليبسط لنا بلادنا، وليخرق لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وأن يبدّل أرضنا القاحلة جنات وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة. .

واسـأله يـا محمد . . أن يبعث لنـا مَن مضى مِن آبـائنـا . وليكن فيمن يبعث قصيّ بن كلاب فإنه كان شيخُ صدقٍ، فنسـألهم عما تقـول أحق هو أم باطل؟ فإن بُعثوا وصدَّقوك، صدقنـاك نحن وعرفنـا منزلتـك من الله ! . .

فقال لهم الرسول الكريم ﷺ : « ما بهذا بعثت إليكم . . إنمـا جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلَّغتكم ما أرسلت به، فإن تقبلوه فهو حظكم في الـدنيا والآخـرة وإن تردُّوه عليَّ أصبـر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم » . .

وألحُّوا في مثل هذا اللجاج والتعجيز، فقال أحدهم :

ـ «لِمَ لا يسـألُ محمد بن عبـد الله ربه أن يسقط علينـا كِسفاً من السماء، أو يأتي بالله والملائكة قبيلاً؟ وقال آخر: نـريد من محمـد أن يسـأل ربه بـأن يبعث ملكاً يشهـد بنبوّتـه ويراجعنـا عنـه ونحن هـا هنـا مجتمعون» . .

وعاد الرسول الكريم ينفي بعثه بالمعجـزات، ويؤكد لهم أنَّ الله سبحانه وتعالى قد بعثه بالهدى ودين الحق، يبشر بالإسلام ديناً واحداً، ينضوي الناس تحت لوائه آمنين، سالمين، حائزين على أسباب الـدنيا والآخرة، فمن اتبع الدين القويم كـانت له الهـداية، ومن أنكـر وكذَّب رسوله، فحسابه عنـد ربِّه عسيـر، ومآلـه النار المحـرقة، حيث الجحيم الأبدي . .

تلك بعض المعجـزات التي طالبت جمـاعة الكفـار محمداً بـأن يأتي بها ربّهُ على يديه حتى يؤمنوا به، فكان جواب الرسـول الكريم،

بأنه لم يُبعث حتى يأتي بالمعجزات، وإنما أُرسـل ليُبَلِّغ رسـالات ربِّه التي تنزل عليه وحياً من السماء. وفي تلك المعجزات التي طالبـوه بها نزل قول الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ (١)

وقوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ (٢)

لقد أرادت جماعة قريش أن تستعجل العذاب، فـطلبتْ أن ينزل الله عليهم كِسفاً من السماء.. ولكن جواب رسول الله كان قاطعاً، وهو أن العذاب بالمشركين واقع لا محـالة ولكنَّ: ذلـك إلى الله إن شاء أن يَفْعَلهُ بهِم في آلـدُّنيـا فَعَـل... فـأي قـوم أحـاق بهم الجهــل، حتى استعجلوا عذاب الله ينزل عليهم في الدنيا قبل الآخرة؟..

لقد بعث الله ـ سبحانـه ـ محمداً رحمـة للعالمين، كمـا جاء في التنزيل العزيز، ولا يعقل أن ينزل على قريش ـ رغم كفرهم ـ العـذاب الساحق والرسول ﷺ قائم بين ظهرانيهم.. ولولا الجهـل الذي أطبق على عقولهم لامعنوا في التفكير بآيات الله العظمى، ولأدركوا أن وجود

---

(١) سورة الاسراء ٩٠ ـ ٩٢.

(٢) سورة الانعام ٨ .

محمـــدٍ ﷺ بينهم هـو الـــذي يمنـع عنهم العـــذاب السـاحق الـــذي يطلبون. . .

لا. . لم يكن لدى تلك الجماعة أي سبيل لوعي وإدراك ما يتلوه عليهـا محمد ﷺ من آيـات الله الدّالّـة على كـل شيء في الـوجـود، ولذلك أمعنوا في المكابـرة وطلب المعجزات، ولـم يقفـوا عند حـدّ ما سألوه، بل زادوا عليه لجاجاً وهم يقولون:

ـ «يا محمدا! . . ألا يخبـرك ربك بـالسِّعر الـرخيص قبل أن يغلو فتشتريه وتربح فيه؟ وبالأرض التي تجدب فترتحـل عنها إلى أرض قـد أخصبتْ؟ أو لِمَ لا يكـــون لـك بيت من زُخْـرُفٍ، فـلا تعـــود تلتمس المعاش مثلنا، فنصدِّق بأنَّك نبي، لأن للأنبياء منزلة تمنعهم من مزاولة أفعال الناس»؟. .

وكان رد الرسول الكريم بأنه بشر مثل سائر الناس، وعليه السعي والجـد لكسب معـاشـــه، ولكنـه رســـولٌ من الله ينـذر ويبشِّـــر القـوم المؤمنين. وجـاء تنزيـل العزيـز الحكيم يصدِّق قـول رسولـه الكريم، بقوله سبحانه وتعالى:

﴿قُلْ لَآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (1)

فلما أجاب الرسول بأنه بشرٌ، يعمل مثلهم لكسب معاشه، عادوا يلحُّون عليه في طلب المعجزات، فقالوا له:

(1) سورة الاعراف ١٨٨.

ـ يا محمد !. . أما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألناك عنه ونطلب منك ما نطلب، فلينزِّل عليك ما يعلِّمك به الردّ علينا، ويخبرك بما هو صانع بنا إن لم نقبل ما جئتنا به. . لقد بلغنا أنّه يعلِّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له الرحمان وإنّا لا نؤمن بالرَّحمان أبداً. . فقد أعْذَرْنا إليك يا محمد، أما والله لا نتركك وما فعلتَ بنا حتى نهلكك أو تهلكنا».

نعم بلغتْ بهم القحة إلى هذا الحد من التطاول على الله ورسوله. ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد من الوقاحاة والسفاهة والجهالة، بل اندفعوا في الضلال، وهم يظنون أنه أُرْتِجَ على محمد، ولم يعد يقول شيئاً ، فصرخ أحدهم:

ـ نحن نعبد الملائكة وهي بنات الله!. .

ـ وزعق آخر: ـ لن نؤمن لك حتى تأتي بالله والملائكة قبيلاً. .

وقد نزل قول الله تعالى فيما خادعوا به أنفسهم، فقال عزَّ من قائل:

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ (١)

---

(١) سورة الرعد ٢٧ ـ ٣٠.

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (٢٠) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ (٢٢) وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (٢٣) * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (٢٤) ﴾

وهنا أراد النبي ﷺ الذهاب، إذ لا فائدة من المكوث بين هؤلاء القوم وهم يمعنون في الضلال، ولكنَّ عبد الله بن أمية بن المغيرة المخزومي ـ وكان ابن عمة النبي ـ عاتكة بنت عبد المطلب ـ اعترض طريقه وقال له: «« يا محمد، لقد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله، ثم سألوك لأنفسهم أموراً فلم تفعل، ثم سألوك أن تجعل ما تخوفهم به فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتَّخذ سلَّماً إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر، ويأتي معك نفر من الملائكة ما ظننتُ أني أصدِّقك»...

ها قد بانت حقيقة نوايا القوم، يفصح عنها عبد الله بن أمية، إذ لم يطلبوا إلى محمد ما طلبوا من المعجزات حتى يؤمنوا به، ولكن ليضروه في دعوته ويعجزوه، لأنه وإن تحققت تلك المعجزات على يديه فإنهم لن يؤمنوا به أبداً..

---

(١) سورة الزخرف ١٩ ـ ٢٤.

نعم وقف عبد الله ذاك، يُعلن لمحمد ﷺ حقيقة نواياهم الخبيثة.. فماذا يكون بيد الرسول بعد لهم؟! إنّما يُنذِرُ من اتبعَ الذِّكرَ وخَشِيَ الرحمٰن بالغيب؟ وقد ظلَّ طوال يومه يتلو عليهم القرآن، ويهديهم إلى الذكر الحكيم، ولكنه كلما زادهم تذكيراً كلما ازدادوا غلواً ومكابرة، وأوغلوا في طلب المعجزات التي لو أراد الله سبحانه أن تتحقق لأتاها فور طلبها لأنه وحده العزيز القادر المتعالي الذي يقول للشيء: كن فيكون.. ولكنها حكمة الله البالغة، وقد شاء سبحانه وتعالى أن يضع بين يدي الإنسان وامام بصيرته الحقائق البينة، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلَّ فعليها، وإذن فلِمَ المعجزات إلى قريش والرسول يتلو عليهم آيات الله البيِّنات التي تهدي إلى الحقائق؟!..

لا، ليس من حاجة إلى معجزات ولو طلبوها، ما دام أنهم في الأصل لن يؤمنوا بما ينزل على محمد ﷺ أو بما يقوله ويفعله، بل يُصِرُّون على الكفر والضلال... وقد قال سبحانه وتعالى بما أفصح عن عبد الله بن أمية المخزومي:

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (1)

وقوله تعالى:

---

(1) سورة الاسراء ٩٠ ـ ٩٣.

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾(١)

هكـذا، وبمثل تلك الأبـاطيل، كـانت قـريش تحـارب الـدعـوة الإسلامية . . فقد اجتمع سادة الكفر لكي يُعجِزوا النبيَّ ﷺ أمام الناس ويمنعوه وأصحابه عن اتباع الحق الذي يهدي إليـه، فما وجـدوا وسيلة أفـضلَ من الطلب إليـه أن يأتي الله سبحـانه على يـديـه بـالمعجـزات والخوارق . . وإذا كان الله ـ سبحانه ـ قد فعل ذلـك على أيدي النبيين والمرسلين ، فإنما أتى بمعجزات حسيَّة تتوافق مـع زمان كـل نبي ومع أوضاع البيئة التي عاش فيها ، فمكن لموسى عليه السلام من أن يُعجز أساطين السحر الذي كان يسيطر في تلك الايام سيطرة عجيبة ، ومنـح عيسى بن مريم عليه السلام القدرة على إحيـاء الموتى وشفـاء الأبرص والأكمه لظهور الطب في زمنـه ظهوراً عجيبـاً أيضاً . . ولكنـه سبحانـه وتعـالى ـ هو صـاحب العلم والإرادة ـ لم يشـأ أن يجعـل لمحمـد ﷺ معجزة حسية لا يراها إلاّ أبناء عصـره وحسب ، بل جعـل له معجـزة دائمةً أبدَ الدهرِ وعلى طول الزمان ومَرِّ الأيام . .

وليست تلك المعجـزة إلاّ ما أنـزله على قلبـه الشريف من قـرآن كـريم، كـان ولا يـزال وسيبقى معجـزة المعجـزات لأنَّ الجِنَّ والإنس جميعاً عاجـزون على أن يأتـوا بمثله ولو كـان بعضهم لبعض ظهيراً . . وتلك المعجزة قد ظهرت لكفار قـريش حينما كـان رسول الله ﷺ يتلو

(١) سورة الانعام ٧.

على مسامعهم آيات الله، بلسانهم العربي الفصيح، فراحوا يحاولون يائسين تبديل بعض الآيات علَّهم يجدون السبيل لمحاربة محمد، ولكنَّ محاولاتهم باءت جميعها بالفشل والخسران. . . وأيقنوا أنهم أمام المعجزة التي تصفع وجوههم بالحق، والتي لا يمكن الخوض فيها للوصول إلى مأربهم، فارتدوا على محمد ﷺ بطلب تلك المعجزات الحسيَّة. .

ولقد ظنوا وهم يسمعون محمداً يردّ أمر ما يطلبونه إلى الله سبحانه لو شاء فعله، أنهم هزموه وانتصروا عليه، وأن معركتهم معه قد ذهبتْ إلى غير رجعة، وأن الناس قد علمت ،وسوف تعلم العجز الذي وقع فيه، فلا يعود أحد يُقبل على دعوته أو يتبعه. .

هكذا كانت تصورات قريش، عندما ذهب أسيادها إلى بيوتهم قريري العيون، مساء ذلك اليوم، الذي جادلوا فيه محمداً وهم يتوهمون أن الأمر بينهم وبينه قد انتهى، وأن الرجل ـ إن لم يرحل عن مكة ـ فسوف ينزوي في بيته. .

ولكنها أيامٌ معدودةٌ، وسرعان ما تبيَّن لزعماء قريش ـ أسياد الكفر ـ خطل ما كانوا يتوهمون. . فقد استمرَّ محمد على دأبه السابق، واستمرَّ أتباعه من ورائه، يحثُّون الناس على فهم العقيدة الإسلامية والدخول فيها، والناس يستجيبون ملبِّين نداء الإيمان. . مما بدَّد أحلام قريش، وأعادَ سحابات القلق التي لم تتبدد من أجوائها أكثر من أيام معدودات. . .

نعم عـادَ القلقُ إلى نفـوس القـريشيين، والهمُّ إلى قلوبهـم، فواكبتهم التعاسة، وحلَّ بهم الشقاء.. فماذا يصنعون؟!..

إنهم أشـرار.. ولن يعـدمـوا الحيلة.. ولن تفـوتهم الـوسيلة.. لذلك أرسل كفار مكة كلًّا من النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبـار اليهود في يثـرب، كي يشاوروهم في أمـر محمـد بن عبـد الله، فلعـلَّ عندهم ـ وهم أهـل الكتاب ـ الخبـر اليقين عن حقيقة مـا يقولـه لهم، أو الوسيلة الناجعة للقضاء عليه...

لقد ذهب موفدا المشركين يعرضان على أحبار اليهود مـا يلاقيـه قـومهمـا من محمـد بن عبـد الله، فـطلب إليهمـا الأحبـار أن يَصِفـاه لهم.. ففعلا.. ثم طلبوا إليهما أن يخبراهم بما يقول، وبمـا يدعـو إليه، ففعلا..

وراح أحبارُ يهود يثرب يتشاورون فيما بينهم، بعد أن طلبوا إلى موفَدَي قريش، إمْهالهم بضعة أيام حتى يَرَوا ما يقررون.. فلما حـلَّ الموعد، كـانت وصيةُ بني إسـرائيل إلى رؤوس الكفـار في مكة، أن يسألوا محمد بن عبد الله عن مسائل ثـلاث.. فإن عـرف أخبارهـا فهو نبيٌّ مرسَل.. وإلّا فإنَّ على قريش أن تتدبَّر أمرها معه...

ولم تقف وصية بني إسرائيل عند هـذا الحد، بـل أشارت على قريش أن تستعجل في حسم أمرها مـع ذلك الـرجل حتى لا يستفحـل خطر دعوته، ويقوِّض أركان مكانتها بين العرب!...

فحمـل النضـر وعقبـة تلك الـوصيـة، وغـذّا في السيـر على

راحلتيهمـا حتى وصلا إلى مشـارف مكـة ، فـوجـدا جمـاعـةً في انتظارهما . .

لقد كانت تلك الجماعة مؤلفة من أبي سفيان ، وأبي جهـل ، وأبي لهب ، ومن عـداهم من ألدّ أعـداء الدعـوة الإسـلامية ، وأكثـر الناس حقداً على محمد بن عبد الله ، فلم يطيقوا الانتـظار في ديارهم لعـودة الرجلين ، بـل جاؤ وا إلى مشـارف مكـة يستعجلون رجـوعهمـا الذي يتوقف عليه مصيرهم ! . . وهـا هم يرَوْنهمـا مسرعَيْن نحـوهم ، فيستعجلونهمـا الخـطى حتى يصـلا ويخبـرانهم بـالـوصيـة . . فيقـوم الجماعة ويعقدون الندوة ، ثم يقف أحد الرجلين ليعلن في القوم :

- « يا معشر قريش ! . . لقد جئناكم بما يفصل بيننا وبين محمـد ابن عبـد الله . فقد أمـرنا أحبـارُ اليهود في يثـرب أن نسأل الـرجل عن أخبار ثلاثة ، حتى نحدد موقفنا منه . . » . .

وسأل القوم بلهفة :

- وما هي هذه الأخبار الثلاثة ؟ . .

قال الرجل : اسألـوه :

- عن فتية ذهبوا في الدهر الغابر وكان لهم أمر عجيب .

- وعن رجل طاف في مشارف الأرض ومغاربها .

- وعن ماهية الروح » ! . . .

وبعثـوا إلى الـرسـول ﷺ ليجيء إليهم ، فجـاءهم إلى الكعبـة أعـزهـا الله ، واجتمـع إليهم . فسـألـوه أن يخبـرهم عن تلك الأمـور

الثلاثة ، بعدما قالوها له ؛ وتفكَّر الرسول ﷺ قليلاً ، ثم طلب إلى القوم أن يمهلوه حتى الغداة ليرد على ما سألوه به . .

. . . ولم يكن محمد ﷺ ليعرف أخبار الماضي ، وما العلم إلاَّ من عند الله . . وهو وحده باعثه ، وله أن يجيبه إلى سؤاله أو يمنع عليه . .

وتركهم الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، ودخل إلى المسجد ، فصلَّى ودعا ربَّه أن يبيِّن للناس من آياته ما طلب كفار قريش ، ثم عاد إلى داره ينتظر استجابة الحق له . .

وانقضت تلك الليلة ، ولم ينزل الوحي على النبيّ ﷺ كما أمَّل ورَجا . . فحزن وقلق . . وخرج في الصباح يريد الذهاب إلى جوار الكعبة المكرَّمة ، فإذا ببعض رجال قريش يلقونه في الطريق ، فيستوقفونه ويسألونه عمَّا طلبوه البارحة . . ولكنَّ النبي ﷺ لم يقل شيئاً ، بل آثر الانصراف ، والهمُّ بادٍ عليه . .

ومرَّت أيام عدَّة ، ومحمد لا يتلقى خبراً من السماء ، حتى ظنَّ الكفار أن هذا التعجيز أصاب الهدف ، وأن هذه هي جولتهم الأخيرة معه ! . .

وانقطع النبيُّ إلى مناجاة ربه ، معتزلاً أهل بيته وأصحابه ، إلاَّ لأمرٍ هام ، وظلَّ قائماً على الدعاء والتضرع ، حتى انقضت ليالٍ خمس عشرة ، فإذا بالوحي ينزل عليه ، ويخبره جبريل الأمين عليه السلام ، بما سُئِلَ عنه . .

وفي الليلة الأخيرة بالذات من تلك المدة ، وفيما كان محمد ﷺ يتلقّى الوحيَ . . كان ثلاثة من رؤوس المشركين ، قد اجتمعوا في إحدى الحانات يعاقرون كؤوس المجون والرذيلة ، احتفاء بالخلاص من دعوة محمد . .

وفي وسط تلك الحانة ، وعلى مرأى من جمع غفير ، تعالى صوت أبي لهب ينادي إحدى الجواري ويقول لها :

ـ « هاتي لنا مزيداً من الخمرة يا جارية السوء »! . .

وأقبل اليهودي ، صاحب الخيمة ـ ذات الراية الحمراء ـ على أبي لهب ، بعد ما صرخ في جاريته :

ـ « أسرعي يا لعينة ، ألا تعلمين من يناديك ، إنه سيدنا وشيخ بني هاشم المقبل » . .

وانحنى ذلك اليهودي المتبذّل على أذنه يسر بها :

ـ « لك عندي اليوم يا سيدي جارية جديدة ، آيةٌ في الروعة والجمال » .

وما ان سمع أبو لهب ذلك ، حتى استدار نحو اليهودي وسأله بلهفة : « وأين هي يا ابن شلومة ؟ . ائتني بها » ثم تناول السكيرُ جرعةً فملأت فمه ، فابتلعها وأتبعها بواحدة أخرى ، ثم مال على أبي جهل ـ عمرو بن هشام ـ وقال له :

ـ « أتعلم يا أبا الحكم أن هذا اليهوديَّ اللعين لا يُبقي لنا مالاً ولا شرفاً ؟ » . .

وسمعه رفيقهما الثالث أبو سفيان بن حرب ، فقال له :

ـ « أنسيت يا رجل أنك بين خمرةٍ وجواري ابن شلومة . . فكيف تفكِّر بالمال والشرف ؟ » . .

وعقَّب أبو جهل على كلام أبي سفيان ، فقال :

ـ « وحقِّ اللاتِ والعزَّى ما قلتَ إلا الصدق . . إن هذا اليهودي يدفع لنا بجواريه قصداً حتى يسلبن منَّا الألباب ، ويُفرغن ما في جيوبنا . . والعلة أننا نعرف ذلك ، ولكننا نكون به راضين فرحين » . .

قال أبو سفيان : « إنها المُتعة وقد نشأنا عليها ، واللِّذة وقد سرت في دمائنا ، فما لنا عنهما محيد » . .

وضحك أبو جهل بملء فيه ، ثم ارتمى على جاريته ، ليعبَّ الخمرة من يدها . .

وتطلَّع أبو سفيان إلى صاحبيه ، فوجدهما غارقَين بما هما فيه . . ولكنَّ تطلعه كان لغرضٍ أرادهُ ، فتناول كأسه وصاح بهما : لعلنا نسينا أو أُخِذنا، فلم نشرب نخب الرجل الذي نحتفي به . . هيا . . وآمْلآ كأسيكما ليكون احتفالنا بالانتصار على عدونا ، كاملاً » . .

وما كاد أبو جهل يسمع كلامه ، حتى تناول كأسه ورفعها نحوه وهو يقول : « ما أطيب كلامك يا بن عم . . . ولسوف تعلم العرب كلها أننا نحن الثلاثة كان لنا فضلٌ كبير في هزيمة محمد

ابن عبد الله . . » ثم التفت إلى أبي لهب ، وهو غارق بين أحضان جاريته وقال له :

ـ « ما بالك لم ترفع كأسك يا رجل . . أم تراك حزيناً على ما أصاب ابن أخيك محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ؟ . . » .

واستفاق أبو لهب من نشوته ، بعض الشيء ، فتناول كأسه ، وصاح في الرجلين :

ـ « ويحكما من خبيثين ، أتحسبانني أتخلى عن زعامة بني هاشم وفيَّ رمق من حياة ، أم تراكما نسيتما بأنني أفنيت العمر وأنا أطلبها وأركض وراءها . . . هاكم نخب صاحبنا ، ولو أنه لم يذق الخمرة في حياته » . .

ولم يكد يُفرغ شرابه في جوفه حتى عادَ إلى ما كان فيه . . فالتفت أبو سفيان إلى عمرو بن هشام ، وغمزَ بعينيه ، ففهم هذا الأخير بأنه يريد أن يقول له :

« وهل هذا السكّير الماجن أهلٌ حقّاً لزعامة بني هاشم ؟ » . .

ثلاثة . . ذوو عربدة ، وفسق ، وفجور . . لفَّهم الليل في حانة يهوديّ ليسكروا ويخمروا ، وينغمسوا في الرذائل والموبقات ، حين ظنُّوا ـ ظنّاً فقط ـ أنهم ألحقوا وأعوانهم من قريش ، الهزيمة بمحمد ابن عبد الله ، وصرفوا الناس عن اتباع دعوته . . فراحوا يحتفلون بهذا الانتصار الكاذب . . ولكنهم سرعان ما تبيَّن لهم خطأ ظنِّهم ، ولم يهنأوا بما خيِّل إليهم ، فلم تطلع شمس الصباح ، إلا وكان الخبر قد

ذاعَ في مكة بأن محمد بن عبد الله على الصفا ، يدعو أهل مكة للقائه . . .

جاءَ الخبرُ زعماء قريش ، فأطار الخمرة من رؤوس أولئك الثلاثة الماجنين ، واندفعوا هم وأمثالهم من رؤوس الشرك ، راكضين ، لا يَلْوُون على شيء ، حتى بلغوا الصفا ، فإذا جمع غفير قد سبق إليه . . وما هي ألا هنيهات ، حتى وقف رسول الله ﷺ يخاطب الجمع :

« يا أهل مكة ! . . يا معشر قريش ! . .

لقد سألتموني عن أمور ثلاثة ، وما كان لي أن أعلم الغيب ، حتى نزل عليَّ وحيُ ربي . . وها أنا أبلغ جواب ما سُئلت عنه . يقول الله تعالى :

﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [1]

وقوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ۚ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴾ [2]

وبعد هذا التقديم ، عادَ الرسول الكريم يذكِّر كفار قريش بما سألوه عنه ، عن فتية ذهبوا في الدهر ، فتلا عليهم الرسول خبرَ هؤلاء الفتية قولَ الله تعالى فيهم :

---

(١) سورة الكهف ٢٧ .

(٢) سورة الكهف ٢٣ ـ ٢٤ .

﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾

وظلَّ يتلو عليه الصلاة والسلام ما أنزل الله تعالى على قلبه الشريف من أخبار أولئك الفتية حتى آخر ما قاله الله تعالى فيهم :

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۝ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (٢)

هذا ما سألتْ عنه قريش بأمر من أحبار يهود يثرب . . قصة فتية أشداء ، آمنوا بربهم ، بالله الواحد الأحد ، في وسطٍ كافرٍ مشرك ، حتى إذا افتضح أمرهم ، لم يعد لهم من سبيل للالتقاء مع قومهم ، لا في العقيدة ، ولا في المشاركة الحياتية ، آثروا الفرار واختبأوا في كهف أووْا إليه . .

وأقام أولئك الفتية في الكهف ، يستروحون رحمة الله الواسعة . وحلَّت عليهم إرادة الله ، فناموا في هدأة الإيمان ، وظلوا في نومهم ذاك ثلاث مئة سنين وازدادوا تسعا ، بَقوا خلالها يتقلبون في نومهم من جنب إلى جنب ، حتى ليحسبهم الرائي أيقاظاً وهم رقود . . أو نياماً كالأيقاظ ، وإلى جانبهم كلبهم قد بسط ذراعيه وكأنه يحرسهم ، فلا

(١) سورة الكهف ٩ ـ ١٢ .

(٢) سورة الكهف ٢٥ ـ ٢٦ .

يجرؤ أحد على القرب منهم . . كل ذلك بتدبيـر الله كي لا يعبث بهم عابث حتى يحين الوقت المعلوم .

وفجـأة تدُبُّ فيهم الحيـاة ؛ فيستيقظون ، ويفـركون أعينهم . . تمـامـاً كمن ينـام في ليله ويستيقظ في الصبـاح . ولكنهم شعـروا بـأن نومهم كان طويلاً ، فسألوا بعضهم : كم لبثنا ؟ ! . فقالـوا لبثنا يـوماً أو بعض يوم . . ويحسون بالجوع ، فيبعثون بأحدهم إلى المدينة ، وهم يحذِّرونه بألاَّ ينكشف أمره حتى لا يأتي به أهل تلك المدينة ويعلموا بأمرهم فيقتلوهم لأنهم خارجون عن دينهم، ولأنهم يعبدون إلهاً واحداً وهم مشركون . .

ويـذهب أحد الفتيـة إلى المدينـة ، فيجـد جميـع معـالمهـا قـد تغيرت ، وأن أهلها مؤمنون مثله ومثل رفاقه بـالله الواحـد . . ويسـأل متى دخـل الإيمـان إلى هـذه المـدينــة ، فيعلم أن عجلة الـزمن قــد دارت ، وأن أجيالاً عديدة قد تعاقبتْ منذ دخوله ورفاقه إلى الكهف . . فعنـدهـا لا يخـاف الفتى ، ويُعلن أمـره لأهـــل المـدينـــة المؤمنين ، فيعـرفون أنــه أحد أولئـك الفتية الـذين فـرُّوا بـدينهم في عهـد الملك الظالم ، والذين ظلَّ الخلَف يتناقل قصتهم عن السَّلَف . .

ثم يعود الفتى إلى رفاقه ، ويخبرهم بحقيقة أمرهم . . فيدركون أنهـا إرادة الله ـ سبحـانـه ـ وقـد أبقتهم تلك المـدة الـطويلة من عمـر الزمان ، حتى يكونوا عبرةً واضحةً ، ومثـلاً حسياً على قـدرة الله تعالى على البعث ، إذ أعثر الله تعالى عليهم ليعلم الناسُ أن وعـدَ الله حقٌّ ، وأن الساعة آتيةٌ لا ريب فيها . . .

ويتنازع أهل المدينة أمرهم ، ليعرفوا على أي دين كانوا كي يبنوا لهم البنيان الذي يتوافق وذلك الدين الذي كانوا عليه ، فيقول بعض أهل المدينة : لنبنِ لهم أي بنيان ، ربهم أعلم بهم . . ولكن من بيدهم الغلبة والرأي يقولون : لنتخذنَّ عليهم مسجداً . .

ثم تنقضي السنون ، ويختلف الناس في عدد أولئك الفتية ، فجماعة تقول : كانوا ثلاثة ورابعهم كلبهم . وجماعة أخرى تقول : بل كانوا خمسة وسادسهم كلبهم . . وغيرها تقول : سبعة وثامنهم كلبهم . . .

ولكنَّ الحقيقة أن ذلك كله في علم الغيب ، ولا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالى . . فالعبرة ليست في عدد أولئك الفتية ، ولا في المدة التي لبثوا فيها في كهفهم . بل هي في اعتماد المؤمنين على الله ، وهم يلوذون بدينهم فراراً من المشركين . . وفي قدرة الله وإرادته في البعث ، حتى يوقن الذين يقولون بأن هذا البعث مستحيل ، أنهم خاطئون ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله ـ سبحانه ـ يبعث من في القبور . . .

هذه هي قصة أهل الكهف ، وهي محفوظة في كتاب الله الخالد ، القرآن الكريم في سورة الكهف . . وقد تلاها الرسول الكريم ، كما أنزلت ، بقول الله تعالى . . . فلما انتهى منها ، عادَ يقول للجمع الواقف يسمعه :

وأما الرجل الذي سألتموني عنه ، وقد طاف في مشارق الأرض

ومغـاربها ،فإن الله سبحانه وتعالى يقول فيه :

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ (١)

وظل الرسول الكريم يتابع خبر الرجـل ، الذي يصفـه الله تعالى بذي القرنين ، من خلال آيات الله البيِّنات ، يتلوها على مسامع أهـل مكة ، وعلى مسامع رؤوس قريش خاصة ، حتى نهاية خبـره ، عندمـا طلب إليـه قـوم وجـدهم بين سـدَّين بلغهمـا ، أن يعينهم على إيجـاد مخرج من ظلم يأجوج ومأجوج الذين يأتونهم طغاة ظالمين ، يفسدون عليهم الحياة ، حيث يقول الله تعالى في ذلك :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾ ﴾ (٢)

---

(١) سورة الكهف ٨٣ ـ ٨٨ .

(٢) سورة الكهف ٩٤ ـ ٩٨ .

لقد سألت قريش الرسول الكريم أن يخبرها عن رجل طاف في مشارق الأرض ومغاربها . فأظهر لها آيات الله في ذلك الرجل ، وتلا تلك الآيات العظيمة على مسامعها ، وهي تروي قصته كلها . . فهل أفادت قريش من أخبار ذلك الرجل المؤمن الصالح ؟ ! . .

أما قصة ذي القرنين فهي أن رجلاً من ملوك حمير ، وكان اسمه أبا بكر بن أفريقش ، ـ لأن ملوك حِمْيَر كانوا يلقَّبون بذي ، كذي نواس ، وذي يزن ـ قد رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، فمر بتونس ومراكش وغيرهما ، وبنى مدينة افريقية فسميت القارة كلها باسمه ، وسمّيَ ذا القرنين لأنه بلغ قرني الشمس . . وعلى ذلك فهو ليس الإسكندر ذا القرنين المقدوني ، أحد القادة الإغريق المعروف في التاريخ ، والذي كان على الوثنية ، بل إنه ذو القرنين ، الرجل المؤمن الصالح الذي مكَّن الله له في الأرض ، فقام برحلات ثلاث : واحدة إلى المغرب ، وواحدة ألى المشرق ، وواحدة إلى مكان بين السدَّين . . .

مضى ذلك الرجل في وجه ما يسَّر الله له ، وسلك طريقه إلى الغرب ، حتى إذا وصل إلى مكان ، رأى الشمس تغرب فيه ، وربما يكون ذلك المكان في نقطة على شاطىء المحيط الأطلسي ، أو عند مصب أحد الأنهار ، حيث تكثر الأعشاب ويتجمع حولها طين لزج هو الحمأ ، وتوجد البُرك وكأنها عيون الماء . . فرأى الشمس تغرب هناك (وجدها تغرب في عين حمئة) . . وقد وجد في ذلك المكان قوماً ، أعطاه الله سبحانه سلطة التصرف في أمرهم ، فأعلن ذو القرنين حكمه

العادل فيهم ، ودستوره السوي في حكم البلاد التي يفتتحها ، وذلك بأن يعذب الظالم المعتدي في دنياه ، ثم يردُّ إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً . وأما المؤمنون ، الذين يعملون الصالحات ، فلهم الجزاء الحسن ، والمعاملة الطيبة ، والتكريم والمعونة والتيسير . .

وعاد ذو القرنين من تلك الرحلة في المغرب إلى المشرق ، ووصل إلى أرض مكشوفة ، لا تحجبها عن الشمس مرتفعات ولا أشجار ، بما ينطبق على الصحارى والسهول الواسعة . . فلما فتح تلك البلاد ، أقام فيها حكماً عادلاً سوياً ؛ مثلما فعل في بلاد المغرب ، بحيث ينال كل امرىء جزاء عمله ، فمن يعمل خيرا يُجْزَ به خيراً وشكْراً ، ومن يعمل شراً وظلما ينل عذاباً شديداً .

ثم انتقل بعد ذلك إلى مكان يقع بين حاجزين طبيعيين أو بين سدَّين ، فوجد هنالك قوماً متخلفين « لا يكادون يفقهون قولاً » . فعرضوا عليه أن يعينهم ، في مقابل خراج من المال يجمعونه ويقدمونه له ، على قوم يأجوج ومأجوج الذين يهاجمونهم من وراء الحاجزين ، ويُغيرون عليهم من ممر هناك ، فيعيثون في أرضهم فساداً ، دون أن تكون لهم القدرة على دفعهم وصدِّهم . .

ولم تكن غاية ذي القرنين جمع المال ، بل اقتلاع الفساد من الأرض وإرساء الحكم الصالح ، فلم يقبل ما عرضوه عليه من مال ، ولكنه أبدى استعداده لتقديم العون لهم ، فأشار بردم الممر الذي يغير منه القوم المعتدون ، ثم طلب إلى القوم أن يأتوه بقطع من حديد ، وجعلها كومة في الفتحة بين الحاجزين ، فأصبحا كأنهما صدفتان

تغلغان تلك الكومة بينهما . . وظل يأمر بجمع الحديد حتى علا وصار بمساواة قمَّتي الحاجزين ، أشعل ناراً حامية فيه حتى يحمى ، ثم أتى بنحاس أذابه وصبَّهُ فوق الحديد ، فاختلط به ، وتماسكَ معه ، وزاده صلابةً . وبذلك تمكن ذو القرنين أنَّ يسدَّ المنفذ الذي كان يأتي منه يأجوج ومأجوج ، ولم يعد عندهم القدرة على تسوُّره والهبوط عنه ، أو ثقبه والنفاذ منه ، وبذلك لم تعد عندهم طريق لمهاجمة القوم الضِّعاف فأمِنَ المتخلِّفون واطمأنُّوا . .

ونظر ذو القرنين إلى العمل الرائع الذي قام به ، فردَّه إلى قوة الله ، ثم أعلن ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ، ستدك قبل يوم القيامة ، فتعود الأرض جرداء ، مستوية ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾ [١] *

وكانت قد انقضت بضع ساعات ، وشارف النهار على منتصفه ، والنبيُّ ﷺ واقف على الصفا ، لا يكاد يتلو آية من آيات الله العظمى ، في خبر فتية الكهف ، أو خبر ذي القرنين ، حتى تنهال عليه الأسئلة ممن كان يصغي إليه ، بعضهم يسأل بدافع التعجيز ، وبعضهم يسأل حبّاً بمعرفة معاني الآيات ، والنبيُّ ﷺ يشرح المعاني التي تتضمنها العظات والعِبَر التي تهدف إليها ، دونما ملل أو كلل . . حتى إذا أراد أن يرتاح قليلاً ، صاح أحد الجموع :

(١) سورة الكهف ٩٨.

ـ ولقد سألناك عن ماهية الروح ؟ .

فقال الرسول صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله تعالى يقول :

فقال أحدهم : وما يعني ذلك ؟

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾[1]

فأعاد الرسول ﷺ تلاوة الآيات المباركة . . ووقف يشهد القوم وهم يتفرقون في كل ناحية لا يلوون على شيء . . فحمد ربَّه ونزل إلى الكعبة ، فطاف وصلّى ، ثم ذهب إلى بيته ، ليعنى بشؤون عائلته ، التي افتقدته ذلك اليوم . .

. . . ها قد أُجيبَ المشركون عما سألوا عنه ، فهل يؤمنون ؟ ! . .

لقد كان خليقا بهم أن يهتدوا إلى الإيمان ، وهم يرون محمداً يخبرهم بأمور من الماضي السحيق ، ما كان له ليعرفها لو لم تنزل عليه من السماء . . أفلا يتفكرون بذلك ، ويدركون بأن الوحي ينزل عليه حقاً من ربِّه ؟ ! . .

لا ! . لم تؤثر في المشركين تلك المعجزة التي أتاهم بها محمد في ذلك اليوم ، وتلا عليهم فيها من أخبار الدهور الغابرة ، ما يعجز عن معرفته أي إنسان في الوجود ، إلا بوحيٍ أو تعليم . . ومع ذلك لم يؤمنوا . .

---

(١) سورة الاسراء ٨٥.

لا !. لم يؤمنوا ، وسواء عليهم أأنـذرتهم أم لـم تنذرهـم فهـم لا يؤمنون . . فقلوبهم في أكِنَّةٍ وفي آذانهم وَقْر . .

لم يؤمنوا ، بل انصرفوا معرضين ، وكتبوا على أنفسهم أن يبقوا منغمسين في حمأة الضلال . .

ولكن رغم إعـراضهم ذاك ، ورغم إنكـارهم نبـوة محمـد ﷺ ، فقد بقي أثرٌ في نفـوس عدد منهم لتلك الأجـوبة التي لا تُعْـرف بسحر ولا كهـانة ولا رجمـاً بالغيب . . ذلـك أن تلاوة الـرسـول للقـرآن على مسـامعهم ، وترتيله الآيـات الكريمـة بما يتنـاسق مع وقعهـا وجـرسهـا وعظاتها ، جعلهم يتذوقون حلاوة لم يعرفوها من قبل ، فتثير فيهـم تلك الحـلاوة ميلاً لـلاستماع إلى تـلاوة القرآن . . فقـد جذبتهـم التـلاوة ، وشدَّهم الترتيل ، وكأنَّ الله ـ سبحانه ـ أرادَ بهـذا الانجذاب أن يعـرفوا الأدلـة والبيِّنات التي يقـدمها رسـوله ، حتى يهتـدوا . فـإن كفـروا من بعدُ ، فيكون كفرهم بعد البيِّنة ، وبعد إقامة الحجة ومعرفة الدليل ، أي أنه يكون كفر عنادٍ ، وكُفر شركٍ ونفـاق ، بعيد الجـذور في نفوسهـم ، عميق الأصول في قلوبهم .

على أنـه ، مهمـا تكن كـوامن دخـائلهم ، فقـد أحسّـوا بـذلـك الانجذاب ، وإن كانوا يرفضونه عنـاداً في ظاهـر تصرفـاتهم . . وبفعل ذلك الإحساس، خرجَ، بعد مدة وجيزة، منفـرداً، كلٌّ من أبي سفيـان ابن حـرب ، وأبي جهـل (عمـرو بن هشـام) والأخنس بن شـريف ، خـرجـوا في ليلةٍ ذات ظـلام دامس ، إلى جـوار بيت رسـول الله ﷺ ـ وهم يعرفون أنه يقضي شطراً كبيـراً من الليل في الصـلاة والتهجد ،

وتلاوة القرآن ـ كي يستمعوا إلى ما يقوله ويتلوه . . .

لقد ذهب كل من أولئك الثلاثة ، خِلسةً عن عيون القوم ، لئلا يعرف أحدٌ بأمره ، فيكون موضع هُزْءٍ واستخفاف .

وجلس كل واحد منهم ، وهو لا يعرف بأمر صاحبه ، بناحية في جوار بيت رسول الله ، وراح يستمع ، ولم يشعر ، وهو مأخوذٌ عن نفسه ، إلاَّ بطلائع الفجر وقد بانت ، فانتبه وهبَّ واقفاً يريد العودة إلى داره . . ولكم كانت دهشتهم كبيرة ، وهم يلتقون وجهاً لوجه ، كأنهم على موعد مع بعضهم البعض . .

وقف أولئك الثلاثة ، يتأمل كل واحد منهم الآخرَيْن . . . وقد عقد الخجلُ ألسنتهم ، فلم يبادر أحدُهم بكلمة أو تحية . . حتى إذا شعروا بأن مكوثهم قد طال على تلك الحال ، قال أبو سفيان : ويحنا ما لنا ولهذا الوقوف . . ألا تدرون بأنَّ الناس بدأت تهب من رقادها ، ولسوف يفتضح أمرنا إن بقينا على هذه الحالة . .

فقال له أبو جهل : وما أتى بك إلى هذه الناحية ؟ ! . .

فردَّ عليه أبو سفيان بجرأة : الشيء الذي أتى بك وبصاحبك ! . .

وهنا تدخل الأخنس وقال : لا يلومنَّ بعضكم بعضاً ، فكلنا سواء في اللوم . . ولكن عاهِداني ألا تعودا إلى مثلها مرة أخرى ! . .

وتعاهدوا ألاَّ يعودوا للاستماع إلى محمد ثم انصرفوا مستعجلين . . ولكن ما ان توسَّط ليلُ ذلك النهار الذي جمعهم

صباحُهُ ، حتى هبَّ كل واحد منهم من رقاده ، وعادَ إلى مجلسه الذي كان يقتعده في الليلة الماضية ، وكان من أمرهم عند الفجر مثلُ ما كان في سابقه . .

وأتت ليلةٌ ثالثةٌ ، ففعلوها . . ولكن ما ان تلاقوا هذه المرة ، حتى أيقنوا أن لا مفرَّ من قرارٍ حاسم ، يمنع عليهم المجيء ، فقال أحدهم :

ـ « لن نبرح هذا المكان حتى نتعاهدَ ألَّا نعود . . ماذا دهانا يا صحاب ؟ ! . . واللات والعزى ، لو عرفت بنا قريش لسخرتْ منا أشد السخرية ، ولكان في ذلك سبيل لازدياد أتباع محمد » . .

واتفقوا على عدم العودة ، ولكنَّ أبا جهل أصرَّ إلَّا أن يحلفوا عند هبل على تعاهدهم ، فاجتمعوا في عصر ذلك اليوم ، وتقدموا من هبل يركعون على قدميه ، وهم يحلفون بألَّا يرجعوا مرة أخرى إلى جوار بيت محمد للاستماع إلى القرآن ، بل عليهم أن يلغوا فيه كي يتمَّ لهم الفلاح . .

وإذ تعاهدوا على الكفر ، أنزل الله تعالى فيهم : ﴿ **وقال الذين كفروا ، لا تسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه لعلكم تفلحون** ﴾ . .

ولكنهم ، رغم ما تعاهدوا عليه من الإصرار على الكفر والضلال لم يستطيعوا أن يُسْكِتُوا ذلك الصوت الصارخ في أعماقهم ، يدفعهم إلى تذكر القرآن ؛ فكان إذا اجتمع أحدهم بالآخر ، أول ما يبادئه ، بالسؤال عما سمع من القرآن . . وقد سأل الأخنسُ أبا جهل مرة :

ـ هلاَّ أخبرتَني يا أبا الحكم ، ولكن بصدق ؟ ! . .

ـ وبماذا تتهمني يا أبا ثعلبة ؟ ! . .

ـ لا ، وحق اللات والعزى أنا لا أتهمك ، وإنما أردت أن أعرف رأيك بما سمعت من قراءة محمد بن عبد الله . . .

ـ أنت خبيث يا أبا ثعلبة ، تشير إلى اتهامي بالكذب ثم تُقسم على عدم الاتهام . . . ليكن في نيَّتك ما يكون ، ولكنني أقول حقاً : قد سمعت أشياء عرفتها وعرفت ما يراد بها ؛ وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها . .

وكاد الأخنسُ أن يغصَّ بريقه وهو يجترعه ، فقال لأبي جهل :

ـ لا حاجة لأن تسألني يا أبا الحكم . . فأنا مثلك تماماً لم أفقه كل ما سمعت في تلك الليالي . . .

ولما التقى الأخنسُ ، بعد أيام ، بأبي سفيان بن حرب ، سأله مثلما سأل صاحبه من قبل ، فسمع منه مثلما سمع من أبي جهل ، ولكنَّ أبا سفيان عقَّب على الحديث ، بقوله :

ـ « إنه أمرٌ رهيب علينا يا أبا ثعلبة . . لقد تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف . . أطعَموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا . . حتى إذا تجاذبنا الركب وكنا كفَرَسي رِهان ، قالوا : منَّا نبيٌّ يأتيه الوحيُ من السماء . . . فهل ندرك مثل هذه المرتبة ؟ . . واللات والعزى لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه » . . .

ـ إذن فلا القرآن وما تحمل آياته من عظات، ومن تعاليم تسمو بالإنسان إلى معارج الإيمان والرقي، ولا فصاحة كلامه، وروعة بلاغته وبيانه، تستطيع أن تدفع بالمشركين إلى طريق الحق، لأنهم يصرّون على العداوة للدعوة التي ينبثق عنها هذا الحق، ويمعنون في التباعد عما يهدي إليه القرآن، وهو يهدي للتي هي أقوم.. وهذا بخلاف حال المسلمين، الذين كانوا يعايشون القرآن، وينعمون بأجوائه، ويتفيأون في ظلال نفحاته وآياته... إنهم يحيون في الاستماع إليه، وفي تلاوته، وفي التفكُر بمضمونه، ويعيشون معه في إشراقٍ روحيٍّ، وصفاءٍ نفسي... وينهجون على شريعته سلوكاً قويماً، وعدلاً سوياً، فيرتقون بالإنسانية في أروع صورها وأشرف أشكالها ..وهنا يكمن الفرق بينهم وبين المشركين الذين كانوا يعايشونهم نفس البيئة والمجتمع، ويشاطرونهم نفس أسباب الحياة ومقومات الوجود.. ولكنهم يفترقون في طريقي الإيمان والكفر..

وكان النبيُّ ﷺ يدرك هذا الواقع الذي ميَّز المسلمين عن المشركين، وكان أكثر الفضل فيه للقرآن الكريم. ولقد أرادَ منذ البدء إسماع هذا القرآن للقرشيين، ولكنهم أبَوا عليه ذلك وتمنعوا... وآثروا المجادلة والنقاش اللذين لا طائل تحتهما ولا مأرب فيهما إلاّ الوصول إلى غايتهم الوحيدة التي أقضَّت مضاجعهم، وهي تعجيز محمد وإظهار فشله بين الناس.. ولكنَّه صلَّى الله عليه وآله وسلم كان يدرك نواياهم الخبيثة تلك، فإنهم لم يرصدوا له موقفاً، كي يجادلوه ويحاجّوه، إلاَّ وجعلَ القرآن بينه وبينهم. فالقرآن يدور على لسانه

صلّى الله عليه وآله وسلم لدى كل سؤال وعند كل جواب ولدى ضرب كل مثل، وعند إعطاء كـل نصيحة، ولـدى كل حجـة واحتجاج، فهـو يفيض عليهم من قول الله تعالى، تذكرة وتنـاسقاً مـع أجواء نقـاشهم، والمسائل التي كانوا يطرحونها للبحث.

فقـد كان النبي ﷺ يـدرك هذا الأثـر العـظيم للقـرآن الكـريم، وسعى جاهداً لأن تسري معايشـة المسلمين العميقة للقـرآن في نفوس القرشيين، ولكن بطريقة عفويـة وبديهيـة، بعدمـا تمنَّعوا بصـورة إرادية عن متابعته والانضواء تحت لواء الـدعوة الإسـلامية.. فعسى أن يؤثـر هذا السريان في من ظلُّوا على الحياد، ولم يناهضوا دعوة الحق بباطل يبتدعونه، ولم يقاوموها بشرٍّ يظهرونه.. فقد يتسنَّى لهؤلاء المحايـدين أن تتفتح نفوسهم وقلوبهم على الهداية، فيعلو الحق ويزهق الباطل..

وبمثـل هذا التصورُ السليم للمرحلة التي تمرُّ فيها الدعوة، عَزمَ رسـول الله ﷺ أن يجهر بـالقرآن، ليسمعـه أهل مكـة كلهم، ولو رغمـاً عن إرادتهم!.. فـأفضى إلى المسلمين، في دار الأرقم بن الأرقم بما رآه، وطلب إليهم أن يُبـدوا مـا يـرون... ولم يكن أمـام المسلمين خيارٌ، فالحق واحدٌ ولا يقبل التجـزئة، فكيف إذا كـان مصدره رسـولُ الله ﷺ!...

لقـد أفرح رأيُ الـرسـول ﷺ المسلمين، فـأرادَ كـل واحـد من الصحـابة أن يكـون له شـرف الجهر بـالقرآن على رؤوس الأشهـاد.. فتقدم أبو بكر، وعليٌّ، وعثمان (رضوان الله عليهم)... وسواهم... كـلٌّ يـطلب إلى رسـول الله ﷺ أن يـأذن لـه بـالخـروج حتى يقـوم

بالمهمة. . . ولكن عبد الله بن مسعود أبى إلاّ أن يَحظى هو بهذا الشرف، لا أنانيةً ولا أثرةً، بل زيادة في إرضاء الله، وخوفاً على إخوته من أذى قريش. . فوقف يرجوهم أن يخلّوا بينه وبين هذا الأمر، ولكن شعور إخوانه في الدين نحوه، لم يكن بأقل من شعوره نحوهم، فقالوا له:

ـ «إننا نخشى عليك من المشركين يا عبد الله، وإنَّ أيَّ رجلٍ منَّا له عشيرة قد تمنعه من القوم إن أرادوه».

لقد كانوا صادقين فيما قالوه، وهم يعرفون الواقع المرير الذي تعيشه قبائل العرب، والذي يقوم على العصبية التي تحمي أبناء العشيرة الواحدة، وتمنع عنهم أذى الغير. . ولكنَّ عبد الله بن مسعود أبىٰ إلاّ أن يكون هو أول من يجاهر بتلاوة القرآن على مسامع قريش، فعاد يطلب من النبي ﷺ أن يأذن له بالخروج. . .

ويلتفت الرسول الكريم إلى الصحابة، ويعلن أن عبد الله هو القارىء. . . وإنها حكمة رسول الله ﷺ فلا جدال فيها ولا نقاش. . .

وذهب عبد الله بن مسعود إلى المسجد الحرام، وارتفع على مكان عال، ثم راح يقرأ بأعلى امتداد صوته:

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا

تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ [1]

وتهادى صوت عبد الله في جنبات مكة وهو يتابع قراءة سورة الرحمن من القرآن الكريم. . . وراح ذلك الصوت يتعالى، ويتعالى، ويصل صداه إلى آذان قريش، فيسمعه نفرٌ من المشركين، كانوا في نادٍ لهم يتآمرون، فإذا بهم يسكتون وينصتون. . . وإذا بالصوت يتتابع، ويزداد صعوداً وعلوّاً. . . فقالوا: من يذهب ويأتينا بخبر الرجل؟!. .

وقام أحدهم يسرع الخطى إلى مصدر الصوت، ثم ارتدَّ إليهم راكضاً وهو يقول: إنه عبد الله بن مسعود، هو يقرأ بعض ما يقوله محمد. . .

وقع الخبرُ كالصاعقة على رؤوسهم. كانوا يستمعون، ويعلمون أن أحدهم يقرأ القرآن، ولكنه لم يخطر على بال أحدهم أن يكون القارىء هو عبد الله بن مسعود. . وكان أكثرهم دهشة عقبة بن أبي معيط، إذ ما كاد يسمع باسم عبد الله حتى امتقع لونه، وشحب وجهه، فطأطأ رأسه خجلاً من قومه، وراح يفكّر بما حلَّ به. . .

أبداً ما كان ليدور في خلد ابن أبي معيط بأن يقف يوماً راعي غنمه، ذلك الرجل القصير القامة، الخفيف اللحم، الذي يزدريه

(١) سورة الرحمن ١ ـ ١٣.

الكثيرون ممن حوله... يقف ويجهر بما جهر به هذا الصعلوك... إنه ما كان ابن أبي معيط ليظن أن تبلغ القحةُ بعبد الله هذا الحد، فيتحدى أسياد قريش كلهم، ويتحدَّى سيده أبا الحكم (وهي كنية ابن أبي معيط)، بالذات..

وظلَّ عقبة مطأطىء الرأس، ولكنَّ أمية بن أبي خلف لم يتركه في صمته، فقال له:

ـ ما بال ابن أم عبد يتحداك يا عقبة؟!..

ولم يكد أمية يتلفظ بتلك العبارة، حتى انهالت السخرية على عقبة من كل جانب، فلم يعد يحتمل ما يسمع، واندفع كالمجنون نحو المسجد الحرام يريد عبد الله بن مسعود.. إلّا أن جماعة الكفر لم يتركوه يذهب وحده، فاندفعوا وراءه بمثل اندفاعه، حتى وصلوا إلى عبد الله، فاجتذبوه من رأسه ويديه ورجليه، وراحوا ينهالون عليه بأيديهم ضرباً وبأرجلهم ركلاً، وهو لا ينثني يصيح فيهم: فذكر إن نفعتِ الذكرى.. فذكِّر إن نفعت الذكرى... حتى خارت قواه من شدة الضرب، فتلاشى ووقع مغشياً عليه، عندها تناول عقبة حجراً كبيراً وهمَّ أن يهوي به على رأسه، لولا أن أمسك به أميَّة بن أبي خلف وهو يقول له:

ـ ويحك يا رجل!. أتريد أن تدنس يديك بقتل راعي غنم نتن الرائحة... هيّا بنا، ولسوف يموت وحده من شدة الضرب الذي أنزلناه به...

واقتاده أميةُ صاحبَه، ثم فرَّق جماعته وهو يقول: اذْهبوا

واتركوه، فهو ميِّت لا محالة. . .

وجاء بعض فتيان المسلمين، يحملون عبد الله الشجاع الصابر إلى دار الأرقم بن الأرقم، فيمدِّدونه على الأرض، والدم يسيل من فمه وأنفه. . . ولم يكن أمام إخوانه المسلمين، وهم يرونه على تلك الحالة إلاَّ أن يقولوا: «حسبنا الله ونِعْمَ الوكيل. . هذا ما كنا نخشاه على أخينا عبد الله». . ثم اسرعوا يسعفونه بما تَيَسَّر لهم من إسعافات حتى عاد إلى وعيه وأفاق. . وكانت أول بادرة منه أنه جالَ بناظريه حوله، يبحث عن رسول الله، فرآه جالساً فوق رأسه، والابتسامة تعلو ثغره رحمةً ومواساةً. . فأحسَّ عبد الله بقواه تعود إليه، وهبَّ من رقدته يقول للنبي ﷺ :

ـ والله يا رسولَ الله ما رأيت أعداء الله أهون عليَّ منهم اليوم. . ولو أجزتني لآتينَّهم غداً بمثلها .

وربَّت الرسولُ الكريمُ على كتفه، وهو يهنئه بالفوز الذي أحرزه، ويقول له:

ـ «لا يا عبد الله. حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون».

. . . وهكذا تتجلىَّ حكمةُ رسول الله ﷺ عندما اختار ابنَ مسعود ليجهر بقراءة القرآن، على الملأ من قريش. . فهو من بين الأضعفين في المسلمين، في نظر تلك الجماعة. التي تقيم للفوارق الاجتماعية وزناً كبيراً. . فإذا ظهر عبد الله يتحداهم، فإن في فِعلِه هذا، تحديّاً للشرك من قبل الإيمان، وتحديّاً للباطل من قبل الحق. . فلا عصبية، ولا قبلية، ولا مكانة اجتماعية، هي مقياس للفضل. . بل

الإيمان والحق والعدل.. والمساواة التامة بين جميع المسلمين، إن كانوا من ضِعاف القوم أو أقويائهم..

نعم تلك هي الحكمة المحمدية التي تبيِّن لقريش بأن المسلم هو جندي لله سبحانه، وله من القوة الذاتية ما يتحدى بها الملأ من الكفار، والعتاة من قريش، ذوي الغطرسة الجوفاء، والصلافةالرعناء..

فهل وَعَتْ قريش ذلك وأيقنتْ به؟!...

إلّا أنهم مشركون حقاً، وذوو عصبية جاهلية فعلاً!...

لا يفقهون، ولا يدركون.. فقد خرج عبد الله بن مسعود ـ راعي الغنم ـ ليبيِّن لهم آلاء الله ـ سبحانه ـ وعظمائه في الكون، والوجود، والحياة... فكان جزاؤه على أيديهم الضرب والأذى... ويا ليت كفار قريش أدركوا بأن عبد الله بن مسعود كان يرشدهم ويهديهم إلى رحمة الله ـ الرحمن الرحيم ـ الذي وسِعَتْ رحمته كل شيء، عسى أن يرعووا عن ضلالهم، فتطالهم تلك الرحمة!.. ولكن أنَّى لهم أن يدركوا آلاء الرحمٰن، أو أن يفقهوا معنى رحمته، وقد أطبق على عقولهم الجهل، وجمدت نفوسهم على الكفر!...

لم يقف عبد الله بن مسعود صارخاً فيهم: هلموا يا معشر قريش وادخلوا في دين الله.. ولكنه أراد أن يثير فيهم الشعور بالإيمان، ويملأ نفوسهم بالهداية.. وإنهم لا يريدون ذلك.. ومن كانوا كذلك، فلا يهديهم دليل، ولا تقنعهم حجة، أيّاً كانت الدعوة الموجهة إليهم، وأيّاً كان الداعي، سواء كان ابن عشيرة، أم كان من الضعفاء المساكين... ومن خلال هذا الإنكار الأعمى، هجموا على ابن

مسعود يضربونه، حتى يسكتوا ذلك الصوت الذي انبرى يتحداهم، ويتهدد وجودهم الضال، ويتوعد كيانهم الضائع . . .

. . ألا إنهم كفار مشركون . . في الضلالة يعمهون . . وفي البهتان يُمعنون . . فاتخذوا من الجهر بالقرآن وسيلة لزيادة بهتانهم، وسبيلاً للإمعان في تآمرهم . . .

لقد رأوا في حادثة ابن مسعود ذريعة جديدة للتملق إلى النبيِّ ﷺ أو استمالته، أو إظهار بطلان دعوته في إقامة المساواة بين جميع الناس . . فذهب بعض رؤوس قريش، وطلبوا منه أن يطرد فقراء المؤمنين أمثال عبد الله بن مسعود، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، وعمار، وخباب، إذا كان يطمع في إيمانهم وإسلامهم . . . أو أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس هؤلاء النفر من الفقراء والموالي، لأن قذارتهم كانت تؤذي السادة من كبراء قريش . . . وقد ردَّهم الرسول العظيم، بعد أن استمع إليهم، على أعقابهم خاسرين . . فقد جاء الإسلام ليساوي بين الناس أمام الله، فلا تفاضل بينهم بمالٍ ولا نسبٍ ولا جاه . . (فهذه قيم زائفة زائلة) . . . وإنما التفاضل بمكانتهم عند الله، والمكان عند الله يوزن بقدر اتجاه الإنسان إليه، وتجرّده له، وما عدا هذا فهو وراء الهوى والسفَه والبطلان . .

وقد نزل في ذلك النفر من قريش قول الله تعالى :

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ

أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ (١)

عاد أولئك النفر من المشركين من مقابلة محمد ﷺ خاسرين، حانقين، حاقدين.. إذْ لم يُفلح الدسُّ الذي أرادوه لتشويه القِيم والمُثُل التي يدعو إليها محمد ﷺ، وخاصة المساواة بين الناس أجمعين، بل رأَوْا أن أولئك الفقراء الذين يزدرونهم، هم في نظر ابن عبد الله أفضل منهم بكثير، مع أنهم سادة قريش، وسادة العرب.. أوَلَيس ذلك عجباً!...

وحقاً ما رأت تلك الجماعةُ.. فالمسلمون جميعاً ـ والضعاف منهم خاصة ـ ما اعتنقوا الدعوة الإسلامية إلا بقلوب صافية توجَّهتْ بكلِّيتها إلى الله، مخلصة في إيمانها، لا تبغي جاهاً ولا مالاً ولا انتفاعاً، وإنما تبتغي مرضاة الله سبحانه وتعالى.. وهذا بخلاف المشركين، إذ أعرضوا عن اعتناق تلك الدعوة لكي يظل لهم التسلُّط والاستغلال، ولكي لا تضمحل عنجهيتهم، وتقف الدعوة في سبيل شهواتهم.. ولو دخلوا في الإسلام، لجعلوه سلعة في سوق الدعوات تشترى منهم وتباع.. ولذلك فقد لفظهم الإسلام، لأنه لا يعقل أن يستوي الخبيث والطيِّب، وأن يتوازى الخير والشر، أو يتهادن الحق والباطل.. ومن أجل هذا أيضاً ردَّهم النبيُّ ﷺ فاشلين، مما زادهم حقداً عليه، وإمعاناً في محاربة الدعوة التي يحملها.. وها هم يَرَون المناسبَة سانحةً لنفث ذلك الحقد، فسوق «مجنة» ستقام بعد عدة

---

(١) سورة الكهف ٢٨ ـ ٢٩.

أيام، وستأتي قبائل العرب إليها من أقطار الجزيرة كافة، فما عليهم إلاَّ التهيُّؤ والاستعداد للّحاق بمحمدٍ هناك ـ وهو لا شك ذاهب، يفتن تلك القبائل، كما فتن بعض أهل مكة ـ فينبغي أن يكونوا له بالمرصاد.

وكان من عادة العرب كلما حضروا إلى مكة في موسم الحج أن ينتهزوا فرصة عرض بضائعهم في أسواقها، وكان أشهر هذه الأسواق ثلاثة: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز.. فأما عكاظ فهي سوق بين مكة والطائف، على بُعد يوم من الطائف وثلاثة أيام من مكة، وأما مجنة فهي سوق بأسفل مكة، على نحو اثني عشر ميلاً منها، وأما ذو المجاز فهي سوق على يمين الموقف من عرفة على بعد ثلاثة أميال منها، وهي أقرب الأسواق الثلاثة إلى مكة..

وكان العرب يبدأون بعكاظ فيحضرون إليها مع هلال ذي القعدة، فيقيمون بها عشرين يوماً، ثم ينصرفون إلى مجنة، فيقيمون بها عشرة أيام. فإذا رأوا هلال ذي الحجة انصرفوا إلى ذي المجاز، وأقاموا بها ثماني ليال. ثم يتروَّوْنَ من مائها في اليوم الثامن، ويخرجون إلى عرفة ليؤدوا مناسك الحج..

وكان رسول الله ﷺ قد عقد العزم على أن يغشى هذه الأسواق الثلاثة، ليعرض نفسه على القبائل التي حضرت الموسم، يدعوهم إلى الله عز وجل، ويُعلن على مسامعهم أنه نبي مُرْسَل، ويطلب منهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يظهر الله ما بعثه به..

وكانت قريش قد أعدَّت عدَّتها، منذ عرفتْ ما عزم عليه رسول الله من عرض دعوته على القبائل، وأجمعت رأيها على أن تشوِّه هذه الدعوة. وأن لا تترك رسول الله ﷺ يحقق نجاحاً بمسعى، أو يؤمل هناءةً بمرتجىٰ. . فاجتمع رؤوس قريش في دار «الوليد بن المغيرة» كي يتفقوا على ما سوف يقولونه لقبائل العرب، حتى يصرفوا اهتمامها عن محمد، إذا وُجِدَ عندها نوعٌ من الاهتمام بذلك الرجل وبدعوته. .

وكانوا يتمنون في قرارة نفوسهم لو أن النبوة ـ إنْ كان لا بدَّ من نبوة ـ نزلت على الوليد أو على عمرو بن عمير، سيد ثقيف لا على محمد بن عبد الله، ذلك لأن النبي عندما أخذ يدعو بدعوته، ويبلِّغ عن ربِّه، لم يكن بعدُ قد تجاوز سن الشباب بكثير، ولم يكن كذلك بارزاً في مجال الزعامة الأرضية قبل غيره. . . فعظُمَ عليهم أن يكون مثله داعيةً يُستجاب له، ومرشداً يهتدي الناس بهديه، ورسولاً ينضوي الزعماء تحت لوائه، فقالوا: لو كان ما يدعو إليه محمدٌ حقاً لكانوا هم الأحق بأن يُنتَدَبوا لهذه الدعوة، وأن يُكَلَّفوا هذه المهمة، لأنهم هم الزعماء والناس لهم تبع! . . .

لقد كان المال وحده هو المقياس الذي تقيس به تلك الطغمة أقدار الناس، فبمقدار ما يكون لدى المرء من المال، يكون له حظ من الشرف والسيادة. وقد سيطرت عليهم هذه الفكرة حتى أصبحت عندهم في منزلة العقيدة، ومن أجل ذلك قالوا: أيُنَزَّل على محمد، ويُترَك (الوليد بن المغيرة) كبير قريش وسيدها، ويُترَك (أبو مسعود عمرو بن عمير) سيد ثقيف، وهما عظيما القريتين؟! . .

وقد حكى الله سبحانه قولهم هذا، ثم خطّأ نظرتهم إلى المال واعتباره مقياس الكرامة. فقال:

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝ وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ۝ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ۝﴾ (1)

اجتمع الكفار للتشاور والتقرير، فوقف أبو جهل، مبادئاً بالحديث، وهو يوجه القول إلى الوليد بن المغيرة صاحب الدار:

ـ « إيه يا أبا عبد شمس.. قد جئناك لنقف على رأيك في مواجهة محمد بن عبد الله، إن حدَّثته نفسه بدعوة قبائل العرب إلى دينه في سوق «مجنة».. فما تقول يا شيخ بني مخزوم»؟

قال الوليد:

ـ « والله يا قوم إنكم لتعلمون مقدار عداوتي لابن عبد الله، وحربي عليه، ومجادلتي له في دينه.. وليس أمامنا سبيلٌ إلاَّ أن نجمع أمرنا، ونصدر عن رأي واحد، وما عداه يؤدي بنا إلى تكذيب بعضنا بعضاً، فتدخلنا الفرقة، ويتشتت الجمع، وتذهب ريحنا»..

---

(1) سورة الزخرف ٣١ ـ ٣٥.

قال عتبة بن ربيعة:

« قُلْ يا أبا عبد شمس، ونحن نوافقك الرأي». .

قال ابن المغيرة: «بل أنتم قولوا». .

وسكت الجمعُ، وراح كلٌّ يفكر بما يقوله في محمد بن عبد الله. . حتى إذا انقضتْ بضعُ لحظات، ارتفع صوت خويطب بن عبد العزى يقول:

« نقول عنه بأنه كاهن». .

وردَّ الوليد بن المغيرة: لا تنفع. . فقد رأينا الكهّان، وما به زمزمة الكاهن ولا سجعه.

فقال أبو جهل: « نقول بأنه مجنون». .

وأجابه الوليد نافياً أيضاً: « وهذه لا تنفع أيضاً يا أبا الحكم. . لقد عرفنا الجنون وأهله، فما هو بِخَنْقه ولا تَخالُجِهِ ولا وَسْوَستِه». .

وأخذ الكلام زمعة بن الأسود، فتطلّع الجميعُ إليه، يحثّونه على أن يُبديَ رأيه، فقال:

«نقول عنه بأنه ساحر». .

ولم يوافق الوليد بن المغيرة على ذلك، فقال: «وهذه أيضاً لا تنفع. . لقد رأينا السحرة وشعوذتهم، فلا هو بنفثهم ولا عَقْدِهم». .

وهنا وقف أبو لهب محتداً، وقد استبدَّ به غضبٌ اشتهر به، فقال:

ـ لقد تفرَّقنـا في الرأي يـا قوم. . والـلات والعزى لن نبـرح هذا المكـان إلاَّ وقـد طلعنـا على العـرب في الغـداة بمـا يهـزِّىء بمحمـدٍ ويجعلها تسخرُ منه. . ولئن تقاعـدتم عن ذلك لأحملنَّهـا عليه وحـدي قولةً شديدة مكرهة.

فقال له أبو سفيان بن حرب: «اهدأ يا رجل، فـالرأي عنـد أبي عبد شمس لا يقصر ولا يخيب». .

ورأى الـوليـد بن المغيـرة انفعـال القـوم، وأدرك الثقـة التي يمحضونه إيّاها، فأمسك ذقنه بيده، وراح يتفكَّـر بما يقـول، حتى رأوه يهز برأسـه، فأدركـوا أنه وَجَـدَ الحلَّ. . ولكنـه عاد وأطـرق من جديـد ممعناً في التفكير، حتى انقضت لحظات ـ حسبوها دهراً ـ فـرفع رأسـه وقال:

«والله إنَّ لِقـولِهِ لَحَـلاوة، وإنَّ عليه لَـطَلاوة، وإنَّ أصله ثـابتٌ، وإن فـرعه لمـرتفع، وإنـه لَمُثْمِرٌ أعـلاه، مُغْدِقٌ أسفلُهُ، وإنـه ليعلو وما يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته». .

وسكت هنيهة ثم تابع:

«يـا معشر قـريش. . والله ما أنتم بقـائلين شيئاً ممـا أبـديتم إلاّ وعرف أنَّه باطل. . وإنَّ أقرب القول فيه، أن تقولوا: لقد جاء بقول هو سحر، يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المـرء وزوجه، وابنـه وأخيه، وبين المرء وعشيرته فهو رجل مسحور». . .

وقد نزل قول الله تعالى في هذه الجماعة المفترية:

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ (١)

لقد أدهشت حيلة الرجل القوم فصاحوا من شـدة الفرح: حُيِّيتَ يـا شيـخ بني مخـزوم، لقـد وجـدتَهـا والله أخيـراً. . ونحن عليهـا سائرون. . .

استقروا على رأي الوليد بن المغيرة، فـانصرف كـل واحد منهم في سبيله، ينشد المأرب الذي يريد، وهو يعدُّ عدَّته للذهاب إلى سوق «مجنة». .

وحل الموسم. .

وخرجت قريش. .

وكان من عادتها في المواسم، أن تخرج إلى الأسواق، كما لكل بطن من بطونها منازله، ورايته، وحَكَمُهُ. .

وفي تلك الحقبـة من تاريـخ قريش، كـان أبو طـالب حكَم بني هـاشم. . وأبو سفيـان بن حرب حكم بني أميـة. . والوليـد بن المغيرة حكم بني مخـزوم. . والعاصي بن وائـل حكم بني سهم. . وعتبـة بن ربيعة ـ أبو هند زوجة أبي سفيان بن حرب ـ حكم بني عبد شمس. .

خرجت قريش إلى سـوق «مجنة» بقيـادة أولئك الـزعماء، بينمـا خرج الرسول ﷺ في نفر من الصحابة، لا يبتغـون جاهـاً ولا زعامـةً، وإنما يرجـون لقاءَ النـاس لهدايتهم إلى دين الله الـواحد الأحـد. . وما

(١) سورة الاسراء ٤٧.

عتم أن قام الرسول ﷺ بعد وصوله، يدعو قبائل العرب إلى الحق، فتصدى له شياطين قريش يحولون بينه وبين تلك القبائل.. وكان أول من بادأه في الهجوم، عمه أبو لهب، إذ انبرى يقول للجماعة التي وقف محمد يحدِّثها، ويعرض عليها أمره:

«لا، لا تصدقوا هذا الرجل يا قوم!.. إنه ابن أخي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، وأنا عمه عبد العزى بن عبد المطَّلب.. إنني أعرفه حق المعرفة، ولا يعدو كونه رجلاً مسحوراً..»

وردَّ الرسول الكريم تهمة أبي لهب بقوله: «ما أنا إلَّا بشيرٌ ونذير، من رب العالمين».

فقال أبو جهل من ناحيته: «بل إنه مجنون».

وقال الرسول ﷺ: «إن أتّبع إلَّا ما يُوحى إليَّ»..

فقال عتبة بن ربيعة: «بل هو شاعر يتربص الشياطين لتوحي له زخرف القول»...

فقرأ الرسول الكريم قولَ الله تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝﴾[1] وقال ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ۝﴾[2]

عندها نادى أميَّة بن خلف في الجماعة:

«أورأيتم.. إن هذا إلَّا سحرٌ مبين.. إن هذا إلَّا افتراء..»

فرد الرسولُ ﷺ عليه نافياً تهمة الافتراء:

---

(١) سورة الشعراء ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) سورة النمل ٦.

﴿إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾ (١)

وكان مثل هذا المشهد يتكرر كل يوم من أيام «مجنة» العشرة. . فالرسول الكريم يريد أن يوصل دعوة الله تعالى إلى قبائل العرب. وكُفَّار قريش يتصدون له بالتكذيب، ويجدِّفون عليه زوراً وبهتاناً. . بل لقد حاولوا أن يوغروا الصدور عليه، فراحوا يبثون بين تلك القبائل بأنَّ محمد بن عبد الله، هو عدوّ للعرب جميعاً، لأنه جاءَ يُعلن العداوة للآلهة، ويعيب الدين، ويفرِّق بين الأرحام. . . ولكنَّ القبائل لم تكترث لمحاولاتهم تلك، ولم تُعِرْها اهتماماً. . فالسوق عامة لجميع الناس، ولكل واحدٍ أن يقول ما يوافق هواه، وأن يعمل ما يؤمن مصلحته. . وإنَّ أشدَّ الاهتمام في هذه السوق، ينصبُّ على التجارة، وكسب الأموال، فهذا ما يعني القبائل ويهمُّها، أما قريش، وخلافاتها فيما بينها، وتخاصمها على الزعامة والشرف، فهذا من شأنها وحدها. .

هكذا ظنَّت العرب، وهي ترى كبار بطون قريش، يحيطون برجل من عشيرتهم، يكذِّبونه، ويسفِّهونه. . فلعلَّ هذا الرجل يريد انتزاع الزعامة لنفسه، وأولئك الشيوخ ينفسون عليه هذا التطلُّع. . وكل ذلك شأن داخلي لقريش، لا يعني القبائل بشيء، من بعيد أو قريب. . إذن فليتخاصم بنو قريش، وليجادل بعضهم بعضاً، ما طاب لهم الجدال، أو ليتناقشوا ما طاب لهم النقاش. . فالقبائل

---

(١) سورة الاحقاف ٨

تسمع وتشهد ما يدور بينهم ، ولكن دون اكتراث أو اهتمام . . .

وبمثل ذاك الاعتقاد الخاطىء ، ودونما أي وعي لحقيقة ما كان يدعو إليه محمد رسول الله ﷺ ، انقضت أيام « مجنة »، ولم تدخل واحدة من قبائل العرب في دين الله . . . ولكن الصوت الكريم ارتفع ، ومشت الدعوة إلى الله في جميع الاتجاهات بعد انفضاض السوق وارفضاض الجموع . .

. . وكان أن انتقلت السوق إلى « عكاظ ». . . وماج هذا السوق بالتجار وبالشعراء والخطباء . . فهـا هنا تجارة جديدة ، فإلى جانب التجارة بالسلع والمواد ، تقام الندوات ، وتُلقى القصائد ، ويقف الخطباء . . وها هنا في سوق « عكاظ » يجتمع الناس من شتى أقطار الجزيرة العربية ، يبرز كل صاحب فكر ، أو بيان ، أو خطابة ، فتجرى المباراة ، وتُمنح الألقاب ، وتُعلن الكفاءات ، في كل ميدان من ميادين الأدب والإبداع .

وها هنا أيضاً ، وفي سوق عكاظ ، يجري الجدال والنقاش ، بين أصحاب المذاهب والنزعات والدعوات . . فاليهود والنصارى يحاولون نشر تعاليمهم ، والصابئة أو الدهريون ، يعلنون معتقداتهم . . وكل صاحب دعوة يحاول أن يبثها أو يوصلها إلى غيره . . .

ولكن هيهات لأولئك اللاهثين وراء المال والثروة ، أو لهؤلاء الذين تنوَّعت عقائدهم ومعتقداتهم ، أن يُدانوا رسول الله ، محمد

ابن عبد الله ، حين كان يقف بين تلك الجماعات كلها ، محاولاً إعلان الحق ، صادعاً بالدعوة إلى الدين ، صابراً على تشهير أبناء عشيرته الأقربين به ، غير عابىء بمساءاتهم وتهجماتهم ، ولا آبهٍ لإفكهم وأضاليلهم . . .

إنَّه رسول الله ، الذي يحمل إلى البشرية العقيدة السماوية الكاملة في نهاية مطافها . . . فهل من يَعي لما يقول ، ويعلن ، ويدعو؟ . وهل من يجنِّد نفسه لذبِّ أولئك الشياطين من حوله . . فينال رضى الله ورحمته ؟ ! . .

لا ! . . لم يُقبل عليه أحد . . ولم تَفْقَهْ منه جماعة . . اللهمَّ إلاَّ رجل واحد ، كان لا يطيق لجاج القوم عليه ، فيأتي ليفرِّقهم عنه باللّين حيناً ، وبالإرهاب حيناً آخر . . وذاك عمه أبو طالب ، شيخ قريش . . .

وكما انتهت أيام « مجنة »، انتهت أيام « عكاظ » دون أن تهتدي قبائل العرب إلى دعوة الحق . .

ثم أعقبتهما سوق « ذي المجاز »، وما لاقى الرسول العظيم فيها أياماً أفضل من الأيام التي مرَّت في غيرها . . حتى إذا انتهت المواسم ، وعادت القبائل إلى ديارها ، عاد أسيادُ الكفر والخداع من قريش ، إلى مكة ، ممتلئي الصدور فرَحاً ، لأنهم استطاعوا أن يصرفوا الناس عن محمد ، فلم تدخل قبيلة واحدة في دينه ، ولم يدخل فردٌ واحدٌ في أتباعه . . واعتقدوا أنها هزيمة ساحقة ، سوف

تترك آثارهـا السيئة على الـدعوة ، وأقلهـا انزواء رسـول الله في بيته ، وعـدم احتمالـه مواجهـة الناس ، ومـواجهة قـريش بالـذات . . ولكنها ظنون سوء ، فمن كان داعيةً لـربه ، لا يخـاف شيئاً ، ولا يخجـل من قول الحق . . ولئن رغبتْ قبائل العرب عن دعـوة الإسلام ، فـإن هذه الدعوة باقية ، دائمة ، ثابتة . . وصاحبها أيضاً باقٍ ، معاهد ، عامل ، يأتمر بـأوامر ربـه ، ويبلِّغ رسالاتـه . . إنه مـع الحق ، والحق معه . . صنـوان لا يفترقـان . . ومهما تـألَّبتْ قوى الشـر فلن تردّ أحـدهما عن الآخر . . ولذلك كانت الصدمة كبيـرة لعتاة قـريش ، حين رأوا محمداً يعـود وأصحابـه إلى مكة ، لا ليلوذ بـالفـرار ، ولا ليختبىء في داره ، ويحبس نفسـه عن النـاس ، بـل ليعمـل على نفس المنهـج ، وبنفس الدأب ، وبالعزيمة المعهودة عنده . .

لقـد رأوه يعود إلى سيـرته الأولى . . بـل أشـدّ صـلابـةً من ذي قبـل ، فهو لا يتـرك طوافـاً حول الكعبـة ، ولا صـلاة في رحـابهـا إلاَّ ويأتيها ، ولا يسأله أحدٌ عن أمر إلاَّ وأصدقه فيه القول . .

« إنه لعجيبٌ أمر هذا الرجل حقاً ».

هكـذا كانت تقـول قـريش في نـواديهـا ، وهي تتشـاور في أمـر محمد ، وتتفكر في وقفـاتها معـه وفي موقفـه الثابت منهـا ، منذ أعلن دعوته . . . وها هم يرون أن كل هزيمـة ظنُّوا أنهم ألحقـوها بـه ، هي محض ظنٍّ ووهمٍ ، فـلا الرجـل ضَعُفَ صوتـه بالـدعوة ، ولا الـدعوة التي يحملهـا خَبَتْ أو هدأت مسيـرتها . . فمـاذا يفعلون إذن ؟ ! . . . قالوا :

إن أبا طالب هو شيخ قريش ، ولنا عليه حق الرعاية ، كما أن لابن أخيه عليه حق الحماية . فلنذهب إليه كي ينظر بأمر محمد . . .

وجاء وفد قريش إلى أبي طالب ، وفيه رؤوس الكفر : أبو جهل ، وأبو لهب ، وأبو سفيان ، وأبو البختري بن هشام ، والأسود ابن المطلب ، وعتبة بن ربيعة ، والوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل السهمي ، وابنا الحجاج ـ نبيه ومنبه ـ ودخلوا على سيد القبيلة ، وألقوا على مسامعه ما هم يردِّدونه دائماً ، في ندواتهم العامة والخاصة منذ بضع سنين . . وقالوا له فيما قالوا :

« يا أبا طالب ! . . . إن ابن أخيك محمد قد سبَّ آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفَّه أحلامنا ، فإمَّا أن تكفّه وإمَّا أن تخلي بيننا وبينه ، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فَسَنكْفيكه » . .

لقد كانوا يتوهمون بأن أبا طالب على دينهم ودين آبائهم . . دين الوثنية والشرك . . وأنه على خلاف مع ابن أخيه الذي يزعم أنه على دين الله الواحد ، وإن كان هذا أو غيره لا يمنعُهُ من أن يحميه ويدفع عنه الأذى بفعل العصبية والقربى . .

ولكن مهما تكن ظنون القوم وأوهامهم ، وأيّاً كان توجههم إلى أبي طالب ، فهو يعلم أن القوم ليسوا على حقٍّ في مخاصمة ابن أخيه ، ولكن لهم عليه هو حق المطالبة بشؤونهم العامة ـ ما دام سيدهم ـ إذن فما يمنعه أن يقول لهم قولاً جميلاً ، وأن يردهم رداً

رفيقاً ، لا اقتناعاً بعدالة ما يطالبون ، بل حرصاً على محمد ، وحماية له ؟ . .

هكذا فكَّر أبو طالب ، وهكذا فعل . . فقد صرف تلك الجماعة التي جاءته بالتي هي أحسن ، فخرجوا من عنده يتساءلون :

هل إنَّ أبا طالب معهم وضد ابن أخيه ، أم أنه ضدهم وعلى دين ابن أخيه ؟ ! . . .

لقد حاروا بأمر شيخهم ، فما عادوا يدرون بأي اتجاه هو . . ولكن الشيء الأكيد الذي رجعوا به من عنده ، هو أن هذا الشيخ يحمي ابن أخيه ، ويمنعه من كل مكروه . . فكان هذا الاقتناع لديهم حافزاً جديداً للحقد على محمد ، ونصب المكائد للنيل منه . . فلم يرَوْا أيْسَرَ من المجيء مرة أخرى إلى أبي طالب يُغرونه بشيء قد يطيب له ، فيتنحَّى عن نصرة ابن أخيه ؛ فمشَوْا إليه ومعهم عمارة بن الوليد (أنهد فتى في قريش ، وأكثرهم جمالاً ، وأنطقهم شعراً) يدفعون به إليه ، قائلين :

« يا أبا طالب ! . . هذا عمارة بن الوليد ، وهو كما نعلمه وتَعْلَمه من جمال الخلق وحسن الصفات ؛ فخذه ، فلك عقله ونصرته ، واتخذْه ولداً . . وأسلم لنا ابن أخيك ، هذا الذي يخالف ديننا ودينك ، ويفرِّق جمعنا وجمعك ، فنقتله ، فإنما رجل برجل » . .

وأخذت الدهشةُ أبا طالب ، وهو يرى ما يعرض عليه القوم . .

فراح يفكِّر في حجم الصلف الذي بلغ بهؤلاء حَدّاً لا يقبله عاقل في الوجود . . فقال في نفسه :

« أية جهالة جهلاء حلَّت برؤوس هؤلاء القوم . . وأية حطَّةٍ ومهانةٍ ملأت نفوسهم ؟ ! . . من يظنونني حتى يعرضوا عليَّ ما يعرضون ؟! . . أيريدون أن يستبدلوا محبتي لمحمد بمحبة فتى غريب عني ؟ ! . . أم يريدون أن يقايضوا نبيّاً عظيماً بشاعر يهيم في كل واد ؟ . . أية مساومة رعناء جاؤوني بها . . وأي تبادل خاسر ، فاشل أرادوه معي ؟ ! . .

« ألا إنهم سفهاء حقاً ، لا يدرون ماذا يفعلون » .

ورأوه يرفع رأسه بعد تفكير طويل ، وقد بدا الاستهجان والعَجَب واضِحَين على ملامح وجهه ، ليقول لهم :

ـ « والله لبئس ما تسومونني ! . . أتعطونني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني لتقتلوه ؟ ! . . هذا والله لا يكون أبداً » . .

ردَّهم شيخ الحكمة والرأي ، لا بدافع الغضب والعصبية ، ولكن بمنطقٍ غلب على منطقهم ـ إن كان عندهم منطق ـ وبحجة أقوى من كافة حججهم . . ولو كانت لديهم ذرَّة من التفكير السوي ، أو صدق المواجهة مع أنفسهم ، لبان لهم خطل ما جاؤوا به ، ولأيقنوا أن لا إنسان في الوجود يُسلِّم ابنه للذبح ولو أعطيَ ملك الدنيا بأسرها . .

وكان بين تلك الجماعة ذات القلوب القاسية المطعم بن عدي

ابن نوفل بن عبد مناف . . فتقدم من أبي طالب ، بعدما ذهب القوم عنه ، وقال له :

ـ « لقد أنصفك قومك يا عم . . وما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً » . .

وأغضب هذا القول أبا طالب ، فشتمه وقال له :

ـ « اخرس أيها الوقح . . ثكلتك أمُّك . . والله ما أنصفَتْني هذه الجماعة الباغية . . ولكنك شطَطت وزلَلْت ، فأجمعت على خذلاني ومُظاهرتهم عليَّ . . فاغْرُبْ عن وجهي قبل أن أدنِّس يدي فيك ، وليكن لك العار والخذلان . . هيا وانصرف ـ يا قبَّحك الله ـ واصنع ما بدا لك » . . .

لقد باءت صفقتهم بالخسران ، بعد أن أرادوها رابحة ، فما زادتهم الخسارة إلا نقمة وعداوة ، فكانت دافعاً جديداً للاستمرار في هجمتهم الشديدة على النبي ﷺ ، من خلال عمه أبي طالب . . ولذلك ائتمروا وآثروا أن يذهبوا إلى أبي طالب من جديد ، ولكن بلهجة الشدة والعنف هذه المرة . . . فجاؤوه يقولون :

« يا أبا طالب ! . . إنَّ لك شرفاً ومنزلة فينا ، وإنَّ الأمر يتعلَّق بمكانة قريش ، وبكيان قريش ، ومعتقد قريش ، وليس كما يظن البعض أو يوهمك بأننا نريد الزعامة من بني هاشم . . ألم يخبرك ابن أخيك محمد أنَّا عرضنا عليه مالا إن كان يريد المال ، وجاهاً إن كان يسعى وراء الجاه ، وملكاً علينا إذا كانت غايته الملك ، وما زلنا عند

عـروضنا هـذه ، مـاذا يـريـد منـا بنـو هـاشم أكثـر من ذلـك ، يـا أبـا طالب ؟ ! . . . وقد استنهيناك عن ابن أخيك ، فلم تنهـه عنا . فـوحق الآلهة التي نعبد لا نصبر على هذا الحال الذي نحن عليـه حتى تكفه عنا أو ننازله وإيَّاك حتى يهلك أحد الفريقين » . .

ها قد جاؤ وا يريـدونها حـرباً سـافرة ، والحجـة : حمايـة دينهم والحِفاظ على مكانة قريش ، فماذا يقول لهم أبو طالب ؟ . .

إنه أمام موقف يهدِّده ويهـدِّد ابن أخيه ، ولكنـه شيخ البـطحاء ، ومهما حمَل القوم عليه أو اعلنوا الشِّدَّة ، فهو لا يهتمُّ ، ولا ينثني ، ولا يتقاعس عن واجب يراه حقـاً ، فما كـان منه إلا أن انبـرى يدفـع القوم ويقول :

« قاتلكم الله من قوم قساة ظالمين . . عـرضتم عليَّ الشكايـة ، وعـرضتم عليَّ المسـاومـة ، وهي عـروض قبيحـة ـ مثـل وجـوهكم القبيحـة ـ حتى إذا وجـدتم أن الفشـل حليفكم ، ولا تملكـون حقـاً تقارعون به العدو والصديق ، جئتم تهددونني بالقوة ، وتريدون إشعـال الحـرب بين بـطون قـريش . . فـلا والله لن أُعينكم على هـذا ، بـل وسأقف في وجه كل من يريـد الفتنة ، ونشـر البغضاء والكـراهية . . . فاذهبوا عني ، يا معشر قريش ، واصنعوا ما بدا لكم »! . .

إنه موقف حرِج ودقيق ، وقد عرف كيف يخلص منه أبو طالب ، ولكن بثمنٍ غـالٍ ، بذلـه من قلبه ، ونفسـه . . فقد أحسَّ الشيـخ بعد خروج القوم بـأنَّ الضيق يملأ صـدره ، والقلق يستبد بـه ، والهمَّ يلفُّه

من كل جانب . . لأن الموقف بات ينذر بالخطر ، وبدت علائم القتال ترتسم جليةً في أجواء المشركين ، الذين لا يفتأون يؤلبون أهل مكة كلها على محمد ، ويُغرون الناس جميعاً بعداوته . . . وها هي مصلحة الجماعة ، بات الخطر يتهددها أيضاً ، وصاحبها أبو طالب هو المسؤول عنها ، إن أصابها خيرٌ فهو وراءه ، وإن أصابها شرٌ فهو المسؤول عنه ! . . .

وخرج أبو طالب ، يريد ابن أخيه . . فلقيه ، وعرضَ عليه ما جاء به القوم من عروضٍ مغريةٍ أو عداوة سافرة ، لم تعد خافيةً على أحدٍ في مكة . .

ورأى الرسول ﷺ ، أن عمه أبا طالب ـ ولأول مرة ـ يُظهر تردداً وتخوفاً . . فهل هو يخاف القوم وبأسهم ، أم تراه لا يرغب في إثارة العداوة ، ويحاول أن ينزع أسباب القتال ؟ ! . . رأى الرسول الكريم ذلك فسأل عمَّه : وهل تظن الموقف صعباً إلى هذا الحد يا شيخ البطحاء ؟ ! . .

فقال له أبو طالب : « ما أرجوه يا بني هو أن تُبقي عليَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلني من الأمر ما لا أطيق » . .

نظرَ الرسولُ الكريم إلى وجه عمِّه ، فإذا الحزن ، والألم ، والكرب ، تبدو واضحة على قسمات ذلك الوجه . . فحزن . . وتأسَّى لحاله . . ودفعه هذا الحزن إلى الإطراق والتفكير ! . .

. . . ماذا بعدُ ؟ ! . .

ها هم الكفار ذوو بأس وشدَّة ، أتوا ينذرون بالحرب . .

والمسلمون ما زالوا ضِعافاً ، قلائل ، لا يقوون على هذه الحرب . .

والأهم من ذلك كله ، هو أن أمر ربه ـ سبحانه ـ لم يأته بعد بإظهار الشدَّة في وجه أعداء الله . .

إذن ولِم الإطراق والوجوم ؟ . .

من أجل الشيخ ، وما أصابَهُ من هموم ٍ ؟ ! . .

ليكن ، إنها الضريبة التي يدفعها الرجال العظام ، في سبيل الحق الذي من أجله يعملون . .

ورفع الرسول العظيم رأسه نحو عمه بعد تفكيرٍ وقال له :

ـ « يا عمّ . . والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظهِرَه الله أو أهلك دونه » . .

هذا هو عزمُ رسولٍ . . وهذه هي وقفة تاريخ . . إنه يقفها الآن محمد بن عبد الله ، ليرسم للتاريخ الإنساني خطاً جديداً ، مساره الهدى والحق ، وطريقه الخير والعدل ، وسبيله الاستقامة والصدق وعنوانه الإخلاص والتضحية . . بعيداً عن كل عوامل الضعف أو الأنانية ، أو العصبية والتبعية ، وأبعد ما يكون عن الأهواء أو الانفعالات والعواطف ، ليقرّ في ذهن الزمان بأنَّ أمر الله هو الغالب ، وبأن حامليه أولي العزم من الرسل والنبيين هم وحدهم

القادرون على صنع التاريخ من أجل الإنسان ، والإنسان فقط في هذه الأرض . . ومن أجل الحقيقة ، والحقيقة وحدها ، في الوجود . . وفي الكون . . وفي الحياة الدنيا والآخرة . . .

. . . لقد اهتزَّ كيان أبي طالب ، وهو الشيخ الوقور ، الجسور ، وهو يسمع ابن أخيه محمداً ﷺ يرفض كل مباهج الدنيا ولآلئها من أجل أمر الله ، وفي سبيل الله . . . فهل بعد أروع أمراً ، وأشد رهبةً ، تَفْرق منه القلوب ، وتهتز له النفوس ؟ ! . .

. . لقد كان أبو طالب يعرف ابن أخيه حق المعرفة ، ويعرف ما فيه من صفات حميدة ، وما لديه من مُثُل عليا ، وتطلُّعات سامية . . وقد جاءت بعثته من الله تزيد في تلك الصفات والمُثُل والتطلُّعات ، ولتكتمل في محمد تلك النفس الإنسانية ، فتبلغ العظمة حقاً وحقيقة . . .

وها هي هذه العظمة تبرز في إيمان محمد الذي يفوق كل وصفٍ أو تصوُّر ، حتى ليكاد أبو طالب ، يرى ابْن أخيه ودِين الله وحدةً متكاملةً ، لا يمكن أن ينفصِما عن بعضهما البعض . . مما هَزَّ كيان الشيخ ، وجعلَ القشعريرة تسري في جسده ، فتقدم من محمد ﷺ واحتضنه إلى صدره ، كأنه يريد أن يزيل كل ضيق أو قلقٍ أو همٍّ ساوره قبل هذه اللحظات ، ثم قال له :

ـ « امضِ يا ابن أخي على أمرك وافعل ما أحببتَ . فوالله لا أُسْلمك لشيء تكرهه أبداً » . .

. . . وخرج أبو طالب من دار ابن أخيه ، وما زال التأثر يفعل فيه فعله ، وسُمِعَ يقول ويردِّد :

والله لن يصلوا إليكَ بجمعهم   حتى أُوَسَّدَ في التراب دفينا
فامضِ لِأمرِك ما عليك غضاضة   أَبْشِرْ وقَرَّ بذاك منك عيونا
ودعوتني وعلمتُ أنك ناصحي   فلقد صدقت وكنتَ قَدْمَ أمينا
وعرضتَ دينا قد عرفت بأنه   من خير أديان البرية دِينا

وذهب أبو طالب - شيخ قريش - إلى أبناء عشيرته ، من بني هاشم ، وبني عبد المطلب ، يطوف عليهم بيتاً بيتاً ، ويكلِّمهم فردا فرداً ، عمَّا شهده من عزم ابن أخيه ، في حملِ أمر الله ، وفي رفضه الدنيا ومُلكها وزخارفها ، والمضي في الدعوة إلى الحق الذي لا يساوم فيه . .

. . وكان أبو طالب في تطوافه ذاك يدعوهم إلى الاجتماع في دارته . . حتى إذا جاءت الغداة ، واجتمع بنو هاشم ، وبنو عبد المطلب ، وكان فيهم المسلمون ، والكافرون الذين لم يدخلوا في الإسلام ، وقف فيهم شيخهم ، يعاود ذكر ما ردَّده على مسامعهم في الأمس ، من عزم محمد بن عبد الله ، على متابعة أمر ربِّه ، وتأليب قريش الناس على عداوته ، وإظهار العزم على قتاله وقتال أبي طالب بالذات إذا ظلَّ يمنعه ، ثم قال للقوم :

« أي أبناء قومي . . لقد جاء محمد بالحق ، وقال بالأمسِ قولَ

الفصل ، فهل تمنعون محمداً من قـريش ، وتذودون عنـه بما لي ولـه عليكم من حق ! . . ».

فأجابه الجميع بلهجـة واحدة : والله يـا شيخنا لا نعمـل إلا بما قطعتَ . . ولسوفَ ترانا عدوّاً لمن عاداه ، وحـرباً على مَن حـاربه . . نذُبُّ عنه بالأفئدة والنفوس ، قبل المال والسلاح ، ونحميه ونمنعه قبل الولد والعيال . . .

لبَّتِ العشيرةُ نداء أبي طالب ، وعاهـدته على صـلاح رأيه ، إلاَّ واحداً ، فقد أبى إلاَّ الخروج على إجماعهم ، بل أعلن أنه لن يتـوانى عن شهر العداوة لمحمدٍ ، وعن العمل من أجل قهره . . ولم يكن ذاك الخارج إلاَّ أبا لهب ، أخَ أبي طالب ، وعـم الرسول ، فقد امتنـع على رأي عشيرته ، وخرج وهو يشتم بني هـاشم الذين وقفـوا هذا المـوقف العدائي من قريش من أجل دفاعهم عن محمد بن عبد الله . . .

لقد خرج أبو لهب من ندوة أخيه أبي طالب ، ليلحق بندوة تضم جمعاً من رؤ وس كفار قريش ، وقد استبدَّ بهم الغضب من موقف أبي طالب ، فجاؤ وا يتعاهدون على اعتماد أسلوب جديـد ، يستطيعـون به النيل من هذا الخارج على دينهم ودين آبائهم . وقد استقرَّ رأيهم على مبادأة محمد ، بالنيل من أتبـاعه ، وإنـزال العذاب بهم حتى يفتنـوهم عن دينهم . . فأما من كانت له عشيرة تمنعه فقالوا : نتـركه حتى تحين الفرصة . . وأما الآخرون ، من أولئـك العبيد والمـوالي فسوف ينـالون أشد أنواع العذاب ، وستكون رمضاء مكة ، ونار رملها المحرقة جـزاءً لهم . . . وبـالفعـل تفـرَّقت جمـاعـة الكفـر هـذه ، وهي تعتـزم هـذا

الأسلوب الوحشيّ الفظّ في أذى المسلمين . .

تفرَّقوا وراحوا يوغرون صدور القرشيين بالحقد ، حتى يثِب كل واحد منهم على من يصل إليه من المسلمين ، فلا يتركه إلا وقد أنشب مخالب حقده فيه ، ينهشه كحيوان مفترس ، أو ينفث عليه من سمه كحية رقطاء خرجت من وكرها في الرمضاء ، تفتش عن فريسةٍ تزدردها أو تنشب فيها أسنانها المليئة بالسم الزعاف . .

وكان البدء في ديار بني جمح . .

إذ اعترض أحد الكفار طريق أمية بن خلف ، فبادره بالقول مستهزئاً : « أصبأت يا أميَّة » ؟ ! . .

وصُعق أمية لقول الرجل ، فصاح فيه :

« ألمثلي يُقال هذا ، يا ابن اللعينة ، وأنا أبحثُ عن قرشيٍّ أؤلِّبه على محمد وأتباعه » ؟ ! . .

قال الرجل ؛ ولِمَ لا تبدأ بنفسك ؟ . .

واستبدَّ الغضب بأميَّة أكثر من ذي قبل ، فقال للرجل مرعداً ، مزبداً : « وبماذا تنعتني قبَّحتك الآلهة » . .

قال الرجل : لقد تهاونتَ بشؤون بيتك ، حتى هزىء بك عبدك الحبشي . . .

ولم يصدق أمية ما يسمع ، فترك الرجل وولى يعدو بأقصى سرعته ، حتى دخل ناحية بني جمح ، فراح يصيح : يا قومي ، اتبعوني . . .

وما ان وصلَ بيته ، حتى صرخ : ائتوني بذاك العبد الأسود اللعين . .

وإن هي إلا لحظات ، حتى كان بلال بن رباح ، مولاه الحبشي ، قد طرح أمامه ، مكبَّل اليدين ، فقام إليه ، ينهال عليه بالسوط ضرباً ، وبالأرجل ركلاً ، وهو يصيح فيه .

ـ واللات والعزى لأسومنَّك عذاباً لم تسمع به قريش أبداً . .

ولم يقف به الغضبُ عند هذا الحد ، بل أمر بأن تُنزع عنه ثيابه ، ثم تكبل يداه ورجلاه بالحديد . . حتى إذا فعلوا فيه ذلك ، أمرَ مَنْ حوله بأن يأخذوه ويطرحوه على الرمال الملتهبة في بطحاء مكة ، حين تكون الهاجرة على أشدها ، ثم يؤتى بصخرة كبيرة ، فتوضع على صدره . .

ووقف أمية فوق رأس بلال ، وقد شفىٰ غليله منه ، وراح يضحك بملء شدقيه ، ويقول له :

ـ والآن أيها العبد اللئيم ! . . أتكفر بدين محمد حتى أرفع عنك هذا العذاب ؟ . .

ولم تكن لدى بلال القدرة على أن يردَّ عليه ، فقد أخذ منه العذاب كل مأخذ ، ولكنه وهو يسمع هذا الرجل يطلب إليه أن يكفر بدين الله ، لا يجد إلَّا أن يرفع ناظريه نحو السماء ويقول :

ـ أحد . . أحَد . . موحِّداً الله ، معترفاً بربوبيته .

ويهيج أميَّة بن خلف من جديد . . ويشعر كأن الدم يغلي في

عروقه ، فينـدفع يـطأ رأس بلال بقـدميه ، ويعتلي على الصخـرة فوق صدره ، ويقول :

أُدع إلٰهـك يخلصـك ممـا أنت فيـه ، وابعث إلى محـمـد ابن عبـد الله كي ينقـذك مني . . . فـإن لم تستـطع فـاكفـر بمـا أنت فيه . . .

ويظل بلال صابراً ، ولا تسمـع منه إلا كلمـة واحدة : أحـد . . أحد . . .

وينقضي ذلك النهار ، وحقـد أمية بن خلف لا ينتهي . . فبـلال ما زال ثابتاً على عهده لله ورسوله ، ولا يحيـد عن ترداد كلمـة ألوهيـة الله الواحد . . مما يدفع بأمية أن يأتي بـأم بلال ، حمـامة ، فيجعلهـا إلى جـانب ابنها ، مـطروحة على رمـال مكة ، تحت شمس الـظهيـرة المحرقة ، وقد وضع أمية رجله فوق عنقها ، وهو يقول لبلال . . .

« إيه أيها الحبشيُّ النتن . . أترى من هنا . . إنها أمك حمامة ، يعفِّـر التراب وجههـا ، وتدوس قـدماي رقبتهـا ، فهـل أنت تـارك دين محمد حتى تنجو أمك من عذابها ؟ . . » .

لقد كان حريّاً ببلال ، وهو يسمع أن أمَّه تهان كرامتهـا ، وتذوق من عذاب أمية ما ذاق ، أن يستجيب لما يطلبه منه . . ولو فعل ذلك ، لخلص هو وأمه من ذلك العذاب الشديد . . ولكن ، أنَّى للظلـم مهمـا اشتـدَّ ، وأنَّى للقسوة مهمـا عنفت ، أن تبـدل الإيمـان في نفس بـلال الصادقة . . وإنه لمستعد أن يتلقى المـوت بكل جـوارحه ، ولا يتخلى

عن دينه . . نعم إنه باقٍ على إيمانه الثابت ، ولن يجد أمية أي تجاوب لما يندبه إليه . . بل على العكس ، فإنه كلما اشتدَّ عليه وعلى أمه كلما اشتدَّ عصيان بلال وتمرده عليه . . .

ويظل بلالٌ وأمه حمامة على تلك الحال عدة أيام . . فيأتي أبو بكر (رضي الله عنه) إلى أمية ويقول له :

ـ ألا تتقي الله يا رجل في هذين المسكينين ، إلى متى تظل في عذابهما هذا ؟

وينظر إليه أمية بعين حاقدة ، ويقول :

ـ أنت منْ أفسده يا ابن أبي قحافة ، فإن كنت تروم نجاته مما هو فيه ، فأبعده عن دينك ودين ابن عبد الله . . .

ويتفكَّر أبو بكر (رضي الله عنه) قليلاً ، ثم يقول لأمية :

ـ بل أُبادلك عليه بغلام أسود عندي ، هو على دينك ، وهو أجلد منه ، فسأعطيكه به . .

ويرى أمية في عرض أبي بكر صفقة رابحة ، إذ ما يفيده موت هذا العبد الحبشي ، الذي لم ينفع معه عذاب ؟ . .

أوَليس أفضل له أن يأخذ عبداً على دينه ، فينتفع به ؟ ! . . ولذلك فإنه ما إن عرض عليه أبو بكر رضي الله عنه إبدال بلال بعبده ، حتى رضي وقال :

ـ قبلت . . .

وتَمَّ التبادلُ الذي أرادَهُ الله ، ونجا بلال من سورة العذاب الـذي ألمَّ به ، ليصير حرّاً بعد أن يعتقه أبو بكر . . ثم لا يلبث المسلمون أن يجمعوا مالاً يقدمونه لبلال ، فيفتدي به أمه المسكينة ، ويخلِّصها من جور أمية بن خلف ، وتصير من حرائر المسلمات . .

وانتشـر تعـذيب المسلمين في كـل مكـان ، وفي كـل بـطن من بطون قريش . .

فها هم أولاء بنو مخزوم يذيقون أهل أحد بيوت المسلمين أشـدَّ ألوان العذاب كي يفتنـوهم عن دينهم ، فلا يكـون لهم ما يـريدون . . إنه بيت ياسر بن عامـر العبسي ، لجأ إلى سـراة بني مخزوم ، محـالفاً « أبا حذيفة » بن المغيرة ليدفع عنه عادية البطون الأخـرى من قريش ، وقد زوجه « أبو حذيفة » أمَةً لـه ، وهي سميّة بنت خيـاط ، فولـدتْ له « عمـاراً » و « عبيد الله ». وسـارت بهم الحيـاة في كنف بني مخـزوم رقيقـة ، لا جدب فيهـا ولا عسر ، وتقـدم « ياسـر » في العمـر ، كمـا اكتملت رجولة « عمار ». .

فلمـا أشرق الضـوء الجديـد على مكة ، وبعث الله نبيَّـه محمـد ابن عبـد الله إلى العالمين ، كـان عمـار من بين بضعـة وثـلاثين رجـلاً أسلمـوا في دار الأرقم بن الأرقم . . وعرض عمـار الإسـلام على أبيـه وأمه فأسلما ، وكانوا جميعاً يكتمون أمرهم ، حتى كان يومٌ علمتْ فيـه بنـو مخزوم بـإسـلامهم . فلم ينكـروا . . ولكن مـا ان تنـادت قـريش لتعـذيب المسلمين ، حتى اشتدَّ بنـو مخزوم على عمـار وأبيـه وأمـه ، يخرجونهم إلى الأبطح ويطرحـونهم على الرمضـاء ، تحرق أجسـادهم

باللهب الذي كان يتصاعد من الرمال لاذعاً . . وقد ظلّوا على تلك الحالة المحزنة أياماً ، مرَّ خلالها رسول الله ﷺ وقد أشرفوا على الهلاك ، فقال الذي يُشرف على عذابهم : يا أم عمار هذا هو نبيكم محمد فاطلبي منه أن يخلصكم مما أنتم فيه . . . ففتحت تلك المسكينة عينيها عند سماعها ذكر محمد ، بعد أن كانت قد غابت عن الوعي ، والتفتت من حولها ، ولما رأته ، صاحت بملء جوارحها : انظر ماذا حلَّ بنا يا رسول الله ! . .

فأجابها الرسول الرحيم :

« صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة » . . .

وسمعته سمية زوجة ياسر ، فقالت له بكل نفس طيِّبة راضية :

« الحمد لله إني أشمُّ رائحتها يا رسول الله » . . .

ولم يستطع ياسر أن يتحمل ذلك العذاب الشديد ، فقضى في الرمضاء شهيداً . . .

وجاء بعد موته ، أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ إلى زوجه سميَّة ، يستهزىء بها ، ويطلب إليها أن تشتم محمداً . . ولكنَّ سمية بصقت في وجهه وقالت، له : قبَّحكَ الله أنت وآلهتك اللعينة . . . فأنت وإياها الذين تستحقون الشتم واللعن . .

ويطير صواب أبي جهل ، فيأخذ حربته ، ويطعنها بها ، فيرديها قتيلةً . .

وتلحق سمية بزوجها ، مستبشرة بالجنة التي وعدهم بها رسول

الله ، فتكـون أول قتيلة شهيدة في الإسـلام : ويصدق فيهمـا قـول الله تعالى :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾(١)

ويشتد أبو جهـل في العذاب على عمـار يحرقـه بحرِّ الشمس أو بوضع الصخر على صدره أو بمحاولة إغراقه في برميل من الماء . . ويحتمل عمـار عذابـه ، ويجالـد ، حتى تخـور قـواه ، ويفقـد كـل قـدرة على المقـاومة . . وفي سـاعة ضعفـه هذه ، وبينمـا هو يتـرنّـح بين الحيـاة والموت ، تقدم منه أبو جهل وقال له :

ـ أتـريد الخـلاص يـا عمـار ؟ . . إذن تسبَّ محمـداً وتقـول في اللات والعزى خيراً . . .

وتحت وطأة الإغماء والعـذاب الشديـد ، استجاب عمـار لطلب أبي جهل اللئيم . . فتركوه . . ولكن ما ان فكُّوا وثاقه وصار قادراً على تمـالـك نفســه حتى أتى النبيَّ ﷺ راكضـاً وهــو يبكي . . فقـال لــه النبي ﷺ :

ـ ما وراءك ؟

فقال عمار : شـرٌّ يا رسـول الله . . وأخبره بمـا فعل تحت وطـأة العذاب والقهر . .

فسأله الرسول ﷺ : فكيف تجد قلبك يا عمار ؟

---

(١) سورة آل عمران ١٦٩ .

قال : أجده مطمئناً بالإيمان . .

فقال له الرسول الأعظم : يا عمار إن عادوا إلى مثل ما فعلوا بك ، فعُدْ . .

وبمثل عمار وغيره من المسلمين الذين ذاقوا من العذاب أشدَّه ، ولم يقدروا على الاحتمال ، فصدرت عنهم كلمات لا تتعدى الشفاه ، ولا أثر لها في القلوب المليئة بالإيمان . . .

نعم بمثل هؤلاء المعذبين ، المظلومين ، نزل قول الله تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ﴾[1]

إنه قول الله تعالى ، الذي يظهر عظمة الخالق ، وسموّ الإسلام الذي يأخذ الإنسان بحسب النظر إلى حالاته من حيث القوة والضعف ، والإرادة والإكراه . . يأخذه في كل حالة يتعرَّض لها ، وفي كل أمر يجابهه ، فيحكم عليه بالحكم العدل السوي . . .

إنه قول الله الذي ما زال كتاب الله يضعه قاعدة تطبَّق في كل زمان ومكان . . قاعدة توجب اتِّباع الأحكام العادلة في الناس . . فمن أتى منكراً تحت الضغط والإكراه ، وكان قلبه بخلاف ذلك ، فإن المسؤول عن فعله ، يكون من دفعه إلى هذا المنكر ، وهو الذي يجب أن يحلَّ به العقاب ، حتى يرعوي عن ظلم الآخرين ودفعهم إلى ما يخالف إيمانهم ومعتقداتهم . . إنها إحدى ركائز الإسلام ، في مخاطبة الإنسان ، وهي تحثُّه على إرساء العدل في جميع أحكامه . .

---

(١) سورة النحل ١٠٦ .

ولا نظنّن مجتمعاً ساده العدل إلا وصَلُح فيه حال الإنسان . . .

ومن المعذّبين في الإسلام ، خبّاب بن الأرت ، كان أبوه سواديّاً من كَسْكَر ، تبنّاهُ قوم من ربيعة ، وحملوه إلى مكة فباعوه من سباع ابن عبد العزى الخزاعي حليف بني زهرة . وخبّاب تميمي كان إسلامه قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم . . كانت صنعته الحدادة . . وقد جاءه العاص بن وائل ، متحرِّشاً ، مُفتريا ، يحتج بسيف له ، فلما أخذه ، أبى أن يدفع لخبّاب عنه إلاّ أن يكفر بدينه ، فقال له خبّاب :

« لا والله لا أنكر دين الله حتى تموت ثم تُبعث » . .

فقال له العاص : فإني إذا متُّ وبُعثت جئتني ولي مال وولد فسأعطيك . .

لقد أراد الكفار أن يستدرجوا خبّاباً إلى العذاب عن طريق المال، فما أجداهم ذلك نفعاً . . حتى إذا رأوه ثابتاً على دِينه ، أخذوه وعذّبوه عذاباً شديداً ، فكانوا يعرّونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ، ثم الحجارة المحماة بالنار . . ولما لم تنفعهم هذه الأساليب ، صاروا يلوون رأسه ، ويشدّون رقبته بحبل إلى جذع شجرة أو صخرة ، دون أن يجيبهم إلى شيء مما أرادوه منه . . وظلَّ على هذا العذاب ، حتى افتداه إخوانه المسلمون بمال جمعوه له ، فارتاح من ظلم الكفار واستعبادهم .

ومن المعذبين في الله صهيب بن سنان الرومي . . لقد عذِّب عذاباً شديداً مثلما عُذِّب غيره من المسلمين ، ولم ينجُ من العذاب إلاَّ بعد أن جمع له المسلمون مالاً افتدوه به ، وقد كنّاه رسول الله ﷺ بعد

عتقه : أبا يحيى قبل أن يولد له . .

وكان صهيب يمرُّ يوماً بصحبة خبَّاب وعمار بقريش ، فيقول المشركون : هؤلاء جلساء محمد ويهزؤ ون . . فيرد صهيب : نحن جلساء نبي الله ، آمنا وكفرتم ، وصدقناه وكذبتموه ، ولا خسيسة مع الاسلام ولا عزَّ مع الشرك .

ومن المسلمين الذين لاقوا عذاباً أليماً أبو فكيهة ، وأسمه أفلح ، وكان عبداً لبني عبد الدار ، كانوا يعذبونه وهم يربطون برجليه حبلاً ويسحبونه على الرمال في الرمضاء ، وهم يقولون :

ـ أين هو ربُّك . .

فيقول لهم : الله ربي وربكم . .

فأخذوا الحبل يخنقونه به خنقاً شديداً ، وهم يقولون لبعضهم بعضاً : زيدوه عذاباً حتى يأتي محمد فيخلِّصه بسحره . . ولم يزالوا به على تلك الحال حتى ظنّوا أنه قد مات . . وقد مرَّ به أبو بكر وهو على تلك الحالة ، فأفاقه ، واشتراه وأعتقه . .

تلك هي بعض الأساليب التي استعملها رؤوس قريش ، كي ينزلوا بالمستضعفين من المسلمين أشدَّ ألوان العذاب وضروبه . . فقد شنُّوا عليهم هجمة رعناء تنم عن حقد دفين على الدعوة الإسلامية ، وتصميم على اقتلاع جذورها حتى تموت في مهدها ، فكان منهم ذلك الظلم القاتل ، والعذاب الشديد ، حتى جعلوه ، في تلك الحقبة من الدعوة ، شغلهم الشاغل ، فلا يتخلّون عنه إلا لسآمة أو ضجر ، مثلما كان يقول عمر بن الخطاب قبل إسلامه للبيبة ، جارية بني مؤمّل ابن حبيب بن عدي ، إذ كان يعذّبها حتى يملَّ فيدعها وهو يقول :

« إني لم أدعك إلاَّ سآمةً » . . .

ولشدَّ ما كان يؤذي المشركين ، انـدفاع المسلمين ، يخلِّصـون إخوانهم المعذبين ، وهم يجمعون المال ويفتدونهم به ، ثم يعتقـونهم فيصيروا أحراراً . . وقد عبَّر عن تلك النقمة أبو قحـافة ـ والـد أبي بكر (رضي الله عنه) إذ أمسك به يوماً ، وكان لا يزال على الشرك ، وقال له :

« يا أبا بكـر ، إني أراك تعتق رقابـاً ضِعافـاً ، فلو أنك فعلت مـا فعلت وأعتقت رجالاً جلداء يمنعونك ، ويقومون دونك » . . .

فقال له أبو بكر (رضي الله عنه) : يا أبتِ إني أفعل ما أفعل في سبيل الله » . . .

قال له أبوه : ولكنَّ هذا يغضب بني قومك ! . .

قال أبو بكـر : إنني أبتغي مرضـاة الله ورسولـه . . وإنني أدعوك إلى الله ، تنجُ . .

ولم يكن المستضعفون من المسلمين وحدهم معـرَّضين للعذاب والمهانة ، إذ لاقى إخـوانهم الآخرون ممن لـه مكانـة ومنعة ، ضـروباً شتَّى من الهـزء والسخريـة ، وقد تـرأس الحملة على هؤلاء أبو جهـل الفاسق ، فقد كان لا يلتقي برجـل مسلم إلاَّ وأنَّبه وخـزَّاه ، وقال لـه : تركتَ دين أبيك وهو خير منـك ، لنسفِّهنَّ حلمك ، ولنخـطِّئنَّ رأيك ، ولنضعنَّ تـرفك . . وإذا كـان ممن يعمل في التجـارة ، قال لـه : والله لنكسرنَّ تجارتك ، ولنهلكنَّ مالك . . .

ولم يكن هـذا الأسلوب الـذي اعتمـدتـه قـريش مـع هؤلاء المسلمين ، ليشفي غليلهـا ، ولكنهـا كـانت تخـاف ، تحت وطـأة العصبية، أن تثور الفتنة بين بطون قريش، فيندلع القتال ولا يعرف بعدها مـداه أحد ، وبـذلك تكـون ضربـة قاضيـة على الجميع . . من أجـل ذلك ، عمدتْ إلى أسلوب التأنيب والخزي ، مكتفية به ، وهي تتحيَّن الفُـرَص التي تسنـح لهـا لشن حـرب شعـواء على المسلمين كـافـة ، تبيدهم بها إن استطاعت لذلك سبيلاً . .

ويـدل على خـوفهم ذاك قـول هشـام بن الـوليـد ، لأبي جهـل وأتباعه ، وقد جاؤ وا يستأذنونه بعتاب أخيه وقد أسلم ، فـأذن لهم وهو يوصيهم :

« هـذا لكم ، فعليكم به فعـاتبـوه ، وإيـاكم ونفسـه فـأُقسم لئن قتلتموه ، لأقتلنَّ به أشرفكم » . .

وتركوه وهم يقولون : « اللَّهمَّ الْعَنْهُ ، فوالله لو أصيب في أيدينـا لقتل أشرفنا رجلاً » . . . على أن قريشاً ، وهي ترى أن أذى المسلمين لم يزدهم إلا تمسُّكاً بدينهم ، والتفافاً حول بعضهم البعض ، قـد طار صوابها ، فلم تعد تحفل بشيء ، ولم تعد تحسب حساباً لأي أمر مهما كانت عواقبه وخيمة . . وها هي جماعة منهم ، تتصدَّى لمحمـد ﷺ ، حين كان يطوف يوما بالكعبة ، ومعه أبو بكـر (رضي الله عنه) وتـروح تهـزأ بهمـا ، فمـا كـان من أبي بكـر إلا أن قـال لهم : « يـا معشـر قريش ! . . إن الله قد أرسـل إليكم محمداً رسـولاً يدعـوكم إلى الخير وإلى دين الله الـواحد فتكفـرون به ، وتعبـدون أصنـامـاً لا تسمـع ولا

تبصر ، ولا تغني عنكم شيئاً . . أفلا تهتدون وتـدركون عـظَمة مـا جاء به » . .

فصرخ أحدهم : « ويْحَكم أيها القرشيون ! . . أتتركـون ابن أبي قُحافة يسب هو الآخر آلهتنـا ؟ . . واللات والعُـزى لقد فعلتْ فتنـةُ ابن عبد الله فعلها المشؤوم في القوم . . . فهيا وارذلوه » . . .

وهنا أخذت الحمية عتبة بن ربيعة ، فتقدم من أبي بكـر (رضي الله عنـه) وصفعه بشـدة على وجهه ، وإذا بجمـاعة المشـركين تنهـال عليـه بالضـرب من كل جـانب ، وهو لا يستـطيع دفعهم، وإلى جانبـه رسول الله ﷺ ، يحاول أن يمنع القوم عنه ، فيبعدونه ؛ حتى نالـوا أبا بكر (رضي الله عنه) بأذى شديد ، ولم يتركوه إلاَّ والدم يسيل منه .

وطـار الخبـر إلى بني تيْم - قـوم أبي بكـر - فـأقبلوا غـاضبين ، حانقين ، ولكنهم لم يدركوا تلك الجماعة التي آذت صاحبهم ، إذ مـا لبثت بعـدما جـاء الخبر بقـدوم بني تيم ، أن تفـرقت في أزقَّـة مكـة ، اختفاءً عن العيون . .

وأقسم بنـو تيم ، وهم يـرَون صـاحبهم على تلك الحـال ، أن يقتلوا عتبة بن ربيعة بـه إن مات . . وسـرعان مـا حملوه ، وأخذوه إلى داره ، لتلقاه أمه بائسة ، مولولة ، فتقوم على إسعافه وتضميـد جراحـه حتى يفيق ، فإذا به يتطلَّع حوله وهو يقول :

- أين رسول الله ، ماذا فعلوا به ؟

وكـانت عنده أختـه أم جميـل ، وهي ممن أسلم ، وقـد جلست

بقربه تداريه ، فقالت له :

« هذه أمك تسمع » . .

قال لها : «فلا شيء عليك منها » . .

قالت له : « إنه بخير والحمد الله » . .

قال : « فإن لله عليَّ ألا أذوق طعاماً وأشرب شراباً أو آتي رسول الله » . .

وعرفت أمه سلمى بنت صخر مرادَهُ ، فلم تُنكر عليه الذهاب إلى محمدٍ ﷺ ولكنها نصحت بالتروي إلى أن يسكن الناس . فلما حانت الساعة ، أبت عليها نفسها إلاَّ أن ترافقه ، خشية عليه من الألم الذي كان ما يزال يعتصره ، فقام يتكىء على أمه وأخته حتى أدخلتاه بيت رسول الله ﷺ ، فهبَّ يستقبلهم ، وهو يسأل أبا بكر عن حاله ، فقال أبو بكر :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله . . والله ما بي من بأس إلاَّ ما نال مني أولئك القوم في رأسي . . وهذه أمي ، أم الخير ، قد برَّتْ بولدها ، فعسى أن ينقذها الله بك من النار » . .

وأجلس النبيُّ ﷺ أم الخير بجانبه ، وراح يحدِّثها عن دين الله ، حتى انشرح صدرها للإسلام ، فأعلنت بين يَدي رسولِ الله ﷺ : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . .

ولاح البشر في وجه النبي ﷺ وهو ينظر إلى أبي بكر فرحاً . . فلم يستطع أبو بكر (رضي الله عنه) أن يحبس دمعة نزلتْ على خده

لشـدة تأثـره بإسـلام أمه ، ثم هبَّ يقبِّـل هذه الأم التي أعتقهـا الله من النار ، وهو يقول لها :

ـ لقد فزت بالخير يا أم الخير . . .

ولم يكن ذلك الأذى الذي أصـاب أبا بكـر (رضي الله عنه) إلاَّ مثالاً على ما كان يصيب باقي المسلمين ـ ممن له عشيرة تمنعـه ـ على يدي المشركين حتى لم يفلت أحـد إلاَّ وأوذي في صورة أو في أخـرى من صور الجهالـة والسفاهـة إما في نفســه ، أو في مالـه ، أو في أحد عياله . . إلى أن وصلَ الأمر بالمشركين للاعتداء على النبي ﷺ نفسـه والنيل منه . . وها هي صور الاستهزاء به يتمـادى بها المشـركون حتى لم يعـد يمر يوم إلاَّ ويناله مثل ذلـك الأذى . وإنَّه صلى الله عليـه وآله وسلَّم ليـأتي يومـاً طائفـاً حـول الكعبـة ثم يـذهب ويجلس في طـريق المسعى ، على صخرة نائية ، يتأمل ويفكر كعـادته ، فـإذا بأبي جهـل ـ (عمـرو بن هشام) يمـرّ بقربـه ، فيميل إليـه يشتمـه ويسخـر منـه ، والـرسـول ﷺ لا يجيب صــاحب النقص بمثـل نقصـــه ، لأنَّ خلقـه القرآن ، وهو ـ من قبل مبعثه عليـه الصلاة والسـلام ـ كان يـأنف سمع الشتيمة وينـكرها، ولذلك لم يردَّ على أبي جهل بل ظل ساكتـاً ، فلما طالَ لجاجُ هذا الفاسق بسفاهته على النبي ﷺ لم يجـد عندهـا بدّاً من الابتعاد عنه ، فتركه في موقفه ذاك ، يـزداد غيظاً ، ويـزداد معه سفـالةً وبذاءة . . .

وكانت على مسافة قريبـة منهما ، مـولاة لعبد الله بن جـدعان ، قـد وقفت ترقب وتسمـع سفاهَ أبي جهـل ، فـآذاهـا تعـدِّيـه هـذا على

النبي ﷺ ، وتمنَّت تلك الإنسانة أن تكون لديها القدرة حتى تهجم على ذاك الحقير ، وتنشب أظافرها في وجهه ، ولكنها وهي المسكينة ، لم تجد ملاذاً للتخفيف من غضبها على أبي جهل ، وحزنها على رسول الله ﷺ إلا البكاء . . فراحت تتأوَّهُ وتذرفُ الدموعَ حزينة مهمومة ، حتى مرَّ بها حمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) فسألها عمّا يبكيها ، فأخبرته بما حصل للنبيِّ ﷺ منذ فترة وجيزة . .

وكان حمزة عائداً من رحلة قنص . . وقد عُرِف عنه أنه في عودته لا يأتي أهله قبل أن يذهب إلى بيت الله الحرام ، فيطوف حول الكعبة ، ثم يروح يتجول في مكة متنقلاً من مكان إلى مكان ، وما مرَّ بنادٍ لقريش ، إلاَّ ووقف وتحدَّث معهم . .

لقد حنق حمزة وهو يسمع تلك المولاة تخبره بما أخبرته ، فتركها ؛ وإن هي إلا خطوات وعاوَدته كلماتُها ، تطن في أذنيه ، وهي تقول له :

« . . وكيف لا أبكي يا أبا عمارة ، وقد رأيت بأم العين ما أصاب الصادق الأمين ، محمد بن عبد الله ، من ذلك الرجل أبي الحكم عمرو بن هشام ، حين وجده قرب الكعبة ، فشتمه وآذاه ، وبلغ منه ما يكره ، دون أن يبدي محمد ﷺ كلمةً واحدةً . . . » . .

وأحسَّ حمزةُ كأنَّ شيئا في داخله يعتصر قلبه ،فيستبد به الغضبُ ، وينسى كل أمر إلا البحث عن عمرو بن هشام . . فراح ينتقل من نادٍ إل نادٍ ، ومن مكان إلى آخر حتى عثر عليه في مجلس

لجماعته من بني مخزوم ، فتقدم منه ، وهو يرفع قوسه بيده ، وضربه ضربةً شديدة شجَّت رأسه ، وهو يقول له :

« ويْحك يا عمرو ! . . أتشتم محمد بن عبد الله ، وأنا على دينه وأقول ما يقول . . فردَّ عليَّ ذلك إن استطعت » . . . ! . .

وقام رجال بني مخزوم يريدون أن ينصروا صاحبهم ، فاستوقفهم أبو جهل وقال لهم :

ـ دَعوا أبا عمارة . . فإني والله قد سببت ابن أخيه سبّاً قبيحاً . .

لقد ثار حمزة بن عبد المطلب ، فتى قريش الأغر وصاحب القوة والبأس ، عندما علِم بالتعدي على ابن أخيه زوراً وبهتاناً . . وكان في ثورته تلك تعبير رائع عن العهد الذي قطعه بنو هاشم لأبي طالب ، في منع محمد وحمايته . . وتأكيد في الوقت نفسه ، على اعتزاز حمزة بنفسه ، واعتداده بشجاعته ، إذ لم يلبث أن قام رجال بني مخزوم يريدونه ، حتى وقف قبالتهم ، وقد استلَّ سيفه من غمده ، وصرخ فيهم :

ـ هيا ، وليتقدم كل من يريد أن يذوق طعم ضربات من يدي ، أقلها شجّ الرؤوس ، وكسر الأنوف . . أو الهلاك لا محالة وإلى الجحيم يا أعداء الله . . .

ولما لم يتقدم أحدُ، وتقاعسوا جميعاً عن مواجهته، ترك حمزة أولئك القوم ، يتقوَّلون ما يشاؤون وتوجه إلى داره وهو يقول في نفسه : « . . . ما الذي دعاني أن أعلن أمام الناس بأنني

على دين محمـد ؟ . . » ووصل إلى بيتـه والمشاعـر تتقاذفـه في شتى الاتجاهات لا يدري ماذا يفعل . . وجاء الليل وبات أرقـاً لا يغمض له جفن ، ولا يهدأ له أوار . . إنه يتفكَّر بما قالهُ أمام بني مخـزوم ، وبما يجب عليه عمله للحفاظ على كـرامته . . فهـو علمٌ في قريش ، وإذا قال شيئاً فإنه يلزم نفسه به ، ويكون حجةً عليـه ، بل وحجـة على بني هاشم ، الذين عرفهم القوم أهل صدق وصفاء سريرة . . . فماذا عساه يفعل ؟ ! . .

وعنـد الفجر ، وفي سـاعة الصفـاء والسكون ، إلَّا من أصـوات ديكة مكة ، تصيح مؤذنة باقتراب طلوع صباح جديد ، جاءه الإلهام ، فقال في نفسه : « . . اللهمَّ إن كان ما صنعته خيراً ، فاجعل تصـديقه في قلبي ، وإلَّا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً » . .

لقد سلَّم حمزة أمره لخالقـه ، فذهب في الصبـاح وطاف حـول الكعبة المكرمة ، ثم قصد دار ابن أخيه محمد بن عبد الله . .

واستقبله النبي ﷺ وهو يرى القلق بـادياً عليـه ، فسألـه عمَّا ألَمَّ به ، وأبدى استعداده لنصحه ، وهو من خلال ذلك يكبر فيه تلك الهمة العالية التي دفعته لضرب أبي جهل وتلقينه درساً لن ينساه في حياته . .

لقد وجدَ حمـزةُ أن ابن أخيه قـد علِمَ بما جـرى معه بـالأمس ، وقد سرَّه فعل عمِّه ، لأن المشركين ـ في مثل هذه الحال ـ يعلمـون أن بين أهل محمد من يحميه ويذود عنـه ، فانشـرحت أساريـره ، وأحسَّ بالاطمئنان . . فجلس مرتاحـاً يتأمَّـل ذلك الـوجه الصبـوح ، الذي لم

تزده الأيام ، إلَّا كمالاً وإشراقاً . . ثم راح يحدثه عن خبره مع أبي جهل ، حتى انتهى ، فقال للنبي : « نعم يا ابن أخي ، هذا ما حصل ، وقد وقعتُ في أمر لا أجد له مخرجاً ، وتكاد الحيرة تقتلني مما وقعتُ فيه ، لأني لم أعد أعلم أرُشْداً أتيتُ أم غيّاً . . فحدثني حديثاً طويلاً ، وأبِنْ لي من نصحك ما يهديني ، فوالله أشتهي يا ابن أخي أن تحدثني » . .

وأقبلَ الرسول الكريم على عمه حمزة ، بصفائه الروحي المعهود ، وبطهره النفسي المشهود . . يذكره ، ويعظه . . ويبيِّن له من آيات الله ، ما لو دخل إلى القلب لملأهُ أماناً ، ولو وعاهُ العقلُ لملأه هُدىً ، ولو لامَسَ النفس لهذَّبها وشفاها . . .

. . . الرسول ﷺ ماضٍ في تبيان الحق الذي بعثه الله ـ سبحانه ـ به ، وفي ترشيد عمه حمزة ، وهذا العم مُقبلٌ عليه بجوارحه ، يسمعه بأذن مصغية ، ويعي ما يقول بروح نقيَة طاهرة . . فإذا بالإيمان يهزُّ قلبه ، وإذا به يأخذ يَدي الرسول الكريم فيضعهما على صدره ويعلن له :

« أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . . . » . ثم لا يلبث أن يهبَّ واقفاً ، كمثل عادته في كل أمرٍ جلَل ، وهو يقول للرسول ﷺ : « فأظهر يا ابن أخي دينك . . فوالله ما أحب أن لي ما أظلته السماء وأنا على ديني الأول » .

تلك كانت نتيجة الإيذاء الذي تعرَّض له النبي ﷺ من أبي

جهل . . وهي النتيجة الحاسمة التي كانت في كل مرة تثير قريشاً وتدفعها للاشتداد على المسلمين . . فكلما كانت تمعن في العداء للإسلام ، وكلما كانت تزداد في أذى المسلمين ، كلما كان هذا الإيذاء يزيد المؤمنين إيماناً ، ويزيد من إقبال الناس على الإسلام ، والدخول فيه ، ولا سيما من ذوي النفوس العالية ، وأصحاب الشهامة ، الذين يرفضون الظلم أيّاً كان مصدره ، ويكرهون العنت ، أيّاً كان مسببه . . كما حدث لحمزة بن عبد المطلب (رضي الله عنه) .

ولم يكن دخول حمزة في الإسلام حدثاً عادياً . . إذ إنَّه هزَّ كيان المشركين ، فرأوا فيه إنذاراً بسوء العاقبة التي باتت تنتظرهم . . لأن حمزة كان يمثل قوة قائمة بذاتها ، وهذه القوة قد انحدرت من صفوفهم لتقف في الجانب المعادي ، في صف عدوهم الأوحد ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فاندفعوا للاشتداد على النبي ﷺ ، حتى ناله الأذى والاستهزاء على أيديهم جميعاً . . فكان عمه أبو لهب ، من أشدّ الناس عليه ، هو وزوجه وأولاده . . لا يمرُّ يوم إلا ويطرحون القذارة والنتن على بابه لأنه كان جاره ، فكان رسول الله ﷺ يقول : « أيُّ جوار هذا يا بني عبد المطلب ! » .

وإنَّ رؤوس المشركين ليجتمعون يوماً عند هبل ، تلبية لدعوة أبي سفيان بن حرب ، وهو يقدم قرباناً للآلهة على ما أصابت تجارة له في اليمن من ربح ـ وقد جاؤوا على مضض ، لأنه لم يعد يطيب لهم مقام ، أو يهنأ لهم بال ، ولا تسرهم مناسبة مهما بلغتْ من أهمية ، ما

دام محمد بن عبد الله ، يؤلِّب الناس عليهم ، ويفرقهم عنهم ـ فبينا هم كذلك إذا بهم يرون النبيَّ ﷺ قد جاء ليطوف كعادته ، ويصلي في الكعبة الشريفة . . فانتظروا حتى إذا كان قائما في صلاته ، قال أبو سفيان :

ـ من يذهب ويخزي هذا الرجل الذي أقضَّ مضاجعنا ، ونغَّص عيشنا ، وأفسد علينا أمور حياتنا ؟ ! . .

قال عتبة بن ربيعة ـ وهو أبو هند زوج أبي سفيان ـ : « أنا له . . » . .

قال له صهره أبو سفيان : « لا يا عم ! . . فزوجتي هند لا ترضى لأبيها أن ينحطَّ إلى هذا الدرك ! . . وإنها لن تغفر لي لو علمتْ أنني تركتك تفعل . . فدع هذا الأمر عنك » . .

وردَّ عليه عتبة بنبرة وحدَّة : بل إنَّ ابنتي هنداً ستفخر بي ، حين تعلم أني أنزلت بمحمد سخرية لاذعة . .

لكنَّ أبا سفيان منعه من ذلك لكبر سنِّه ، وقال له :

ـ لن أدعك تفعل أيها الشيخ الجليل ! . .

وهنا أخذت الحمية أبا جهل ، فقام يأخذ بعض بقايا القربان المذبوح ، ويندفع نحو النبي ﷺ فيلقيها عليه ، وهو ساجدٌ بين يدي الله عز وجل . . ثم عادَ إلى مجلسه ، والقوم يستقبلونه بالضحك والهتاف . .

الكفار يضحكون ويسخرون ، والنبي ﷺ لا يحفل بفعلهم

الشنيع ، بل يظل في تعبُّده حتى يفرغ ، فيذهب إلى بيته ، وتلقاه ابنته فاطمة الزهراء (سلام الله عليها) على تلك الحالة ، فتحزن وتبكي ، ثم تأخذ ثوبه فتزيل ما علق به ، وتنظفه ، وهي ترفع ناظريها إلى السماء وتقول :

« اللهمَّ هذا عبدك ورسولك ، فارحمه يا أرحم الراحمين ، وأنزِلْ بأعدائه اللعنة التي يستحقون » . .

وراح رؤوس المشركين ، يتربصون بالنبي ﷺ ويرقبون تحركه ، فلا يتركون سانحة تمرُّ ، إلا ويقدمون على نفث سمومهم التي تنمُّ عن حقد وعداوة لا توصف . . فهذا عقبة بن أبي معيط الذي هو من أشد الناس أذى لرسول الله ﷺ وعداوة له وللمسلمين كان يأخذ المِكْتَل فيجعل فيه عذرة ويضعه على باب رسول الله . . فَبَصُرَ به يوماً طليب ابن عمير بن وهب بن عبد مناف بن قصي ، وأمه أروى بنت عبد المطلب ، فأخذ المِكتل منه وضرب به رأسه ، فشكاه عقبة إلى أمه ، فقال : قد صار ابنك ينصر محمداً . فقالت : ومن أولى به منَّا ؟ أموالنا وأنفسنا دون محمد . . .

وحمل عقبة الضغينة في قلبه ، حتى إذا وجد محمداً يوماً عند الكعبة ، تقدم من ورائه خلسة وأخذ ثوبه على حين غفلة منه وجعله حول عنقه ، وحاول أن يخنقه به ولكنه لم يلبث أن تركه لأنه رأى جماعة من فتيان المسلمين ، تُقبل نحوه . . . .

وكما حاول عقبة بن أبي معيط أن يخنق النبي ﷺ بثوبه ، فقد عزم أبو جهل على النيل من النبي ﷺ ، وها هو يعِد رؤوس المشركين

بأنه سيتربَّص بمحمد ويضربه بحجر كبير يشجّ رأسه . . وارتـاح الكفار لمـا أعلنه أبـو جهل ، وهم يمنّـون أنفسهم بنجاحـه ، ويقـول بعضهم لبعض : لئن قتل أبو جهل محمداً فقد كفانا شـرَّه ، وإن ثأر بنـو هاشم لمحمد بقتل أبي جهل ، نكون قد نجوْنا نحن بجلودنا . . .

. . لا غـرابة إن تضـامنَ أولئك السفهـاء على مثل هـذه النوايـا الخبيثة ، فهم في آحادهم جبناء ، أخِسَّاء ، لا يجرؤ ون على مواجهـة محمد ، ولكنهم مجتمعين ، كانوا كالثعـالب ، أقدر مـا يكونـون على حبْك المؤ امرات ، ونسج خيوط الفتن والدسائس . . وها هم يوغـرون صـدر أبي جهل بدفع جديد من الحقد حتى يُقدم على ما اعتزمه بشأن محمـد . . فيكون نجـاحه نجـاحاً لهم ، ويـرتدّ فشله عليـه وحـده . . فراحوا يرقبون أبـا جهل في تحـركه ، ومـلاحقته للنبي ، حتى إذا رأوه يوماً يتبعه إلى الكعبة ، تفرَّقوا في أمكنة متعددة مختبئين عن العيـون ، ليروا ما سوف يكون من أمر صاحبهم ! . .

لقد ترك أبو جهل محمداً حتى بدأ بالصلاة ، فتقدم منه خلسةً ، على رؤ وس أصابع رجليه ، وهو يحمـل بيده حجـراً يريـد أن يضربـه بـه . . ولكنه مـا ان وصل إليـه حتى وقف هنيهـة ثم ارتـد على عقبيـه مسرعاً لا يلـوي على شيء . . .

ورأى الكفار هروب صاحبهم ، فشعروا بالخزي والمـرارة ، ولم يجرؤ أحد منهم على الـظهور لمـواجهته ، إلاَّ أبـو سفيان بن حـرب ، فإنه اندفع يعترض أبا جهل ، وهو يقول له مخزيا :

« قبَّحـكَ الله من جبـان . . مـا الـذي منعــك عن ابن عبـد الله

فولَّيتَ هارباً بعد أن وقفت فوق رأسه » ؟ . .

وبجهد نطق لسان أبي جهل ، فقال له :

ـ لقد قمت لأفعل كما وعدتكم البارحة . . وما ان دنوْت من ذلك الرجل حتى أحسستُ وكأنَّ يدَيَّ قد يبستا على الحجر ، وعرض لي دونه فحل من الإبل . . . والله ما رأيت مثل هامته ،ولا رقبته، ولا أنيابه ، فهمَّ أن يأكلني ».

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴾[1]

ومن المستهزئين بالنبي ﷺ وأتباعه كان الأسود بن عبد يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة ، وهو ابن خال النبي ﷺ كان إذا رأى فقراء المسلمين قال لأصحابه : هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون مُلك كسرى . . وكان يقول للنبي ﷺ : أما كُلِّمتَ اليوم من السماء يا محمد ! . .

ومنهم الحارث بن قيس بن عدي بن سعد بن سهم السهمي ، وهو ابن الغيطلة ـ أمه ـ كان يأخذ حجرا يعبده ، فإذا رأى أحسن منه ترك الأول وعبد الثاني ؛ وفيه نزلت الآية الكريمة : ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلّهه هواه** ﴾ . .

ومنهم أميَّة وأبيّ ابنا خلف . . وكانا على شر ما كان عليه أحد من أذى رسول الله ﷺ وتكذيبه . . جاء أبيٌّ إليه ﷺ بعظم فخذ ففته

---

(١) سورة الإسراء ٤٥ .

في يده وقال : زعمتَ أن ربك يحيي هذا العظم بعدما أرمَّ ؟ ! .

« قال ﷺ : نعم ثم يبعثك الله وإياه ويدخلك في النار » فنزل الوحي ليقرأه الرسول البشير النذير على رؤوس القوم ، قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾(١)

ومنهم العاص بن وائل السهمي ، والد عمرو بن العاص ، وهو القائل لما مات القاسم ، ابن النبي ﷺ : « إن محمداً أبتر » أي لا يعيش له ولد ذكر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **إنَّ شانئك هو الأبتر** ﴾ . .

ومنهم نبيه ومنبِّه ابنا الحجاج السهميان ، وكانا على ما كان عليه أصحابهما من أذى الرسول ﷺ ، وكانا يلقيانه فيقولان له : « أما وجد الله من يبعثه غيرك ؟ إنَّ ها هنا من هو أسنّ منك وأيسر » . .

ومن شياطين قريش المستهزئين ، النضر بن الحارث ، كان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها في الخير والشر ، وفي عناصر الكون . فكان يلحق محمداً ﷺ في كل مجلس يدعو فيه قومه إلى الله ويحذرهم عاقبة ما أصاب مَنْ قبلهم من الأمم التي أعرضتْ عن عبادة الله ، حتى إذا ذهب الرسول ﷺ من مجلسه ،

---

(١) سورة يٓس ٧٧ ـ ٨٠.

أخلفه النضر وراح يقص على قريش حديث فارس ودينها ثم يقول : بماذا يكون محمد أحسن حديثاً مني ! . . أليس محمد يتلو من أساطير الأولين ما أتلو ؟ ! . . وكانت قريش تذيع أحاديث النضر ـ من طريق الرواية ـ دعاية ، على ما ينذر محمد الناسَ به وما يدعوهم إليه . .

هؤلاء وغيرهم ، أمثال زهير بن أبي أمية ، أو طعيمة بن عدي ابن نوفل بن عبد مناف ، أو مالك بن الطلاطلة ، أو ركانة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب ، ممن كانوا أشد عداوة لرسول الله : يشتمونه ، ويستهزئون به ، ويكذِّبونه . . ولقد حاول بعضهم أن ينال منه بالضرب ، فما أمكنَ له ، بل حماهُ الله ومنعه منهم ، وكفاهُ شرَّ المستهزئين ؛ حتى أسقط بيدهم ، ولم يعودوا يدرون ماذا يفعلون ! . . فقد توجهوا إليه مباشرة ، بشتى أنواع الأساليب الدنيئة ، وأقبح طرق المساءات ، فما زاده ذلك إلَّا قوة وثباتاً ، وما زادهم إلا خِسَّةً وخُسراناً . . . وقد لجأوا إلى أساليب أخرى ملتوية ، فما كانت نتائجها أفضل عليهم من سابقتها . . فإنهم بعثوا إليه رجلاً غريباً ، قد جاء يستعديهم على أبي جهل الذي ابتاعَ منه إبلاً قدم بها مكة ، دون أن يدفع له أثمانها ، فتقدم الرجل الغريب من محمد ﷺ وقال له : « يا أخا العرب ، إني رجل من إراش ، قدمت بإبل لي إلى مكة فابتاعها مني عمرو بن هشام ، ولم يدفع لي أثمانها ، فرحت أستعدي القوم عليه ، فأرسلوني إليك ، وقد جئتُ طالباً إنصافي ، فهل لك أن تعيد لي حقاً يوشك أن يضيع » . .

وعرف النبي ﷺ ما يدبِّره الكفار من مكيدة ، ولكنه لم يكن أبداً

ليتوانى عن نصرة الضعيف ، فاصطحبَ الرجل حتى أتى دار أبي جهل ، وطرق عليه بابَه ، فخرج ليرى من الطارق ، وإذا به أمام محمد ﷺ وجهاً لوجه ، والرسول الكريم يقول له :

- « أعطِ هذا الرجل حقه . . » . .

وتلعثم أبو جهل وحار بما يجيب ، ولكنه لم يلبث أن قال للرسول ﷺ :

- انتظر ، ولا تبرح حتى أعطيه الذي له . .

ودخلَ إلى داره ، ثم عادَ سريعاً وأدّى للأراشي حقوقه ، وهو يقول للنبي ﷺ :

- دعني يا ابن عبد الله . . فإني لا أطيق مواجهتك ، ولا مجاهرتك بما في نفسي . .

وعرف الكفار بما جرى. فما إن التقوا صاحبهم أبا جهل حتى قالوا له :

- ويحك يا أبا الحكم ! . . واللات والعزى ما سمعنا بمثل ما صنعت .

فقال لهم : « أتدعونني وشأني ! . . إنكم أنذال لا تدرون ماذا تفعلون . . والله ما إن طرق محمد بابي وخرجت فرأيته ، حتى أحسست أن روحي قد فارقتني . . إذ رأيت فوق رأسه سيفاً مسلولاً نحوي ، فلو أبيت لتقدّم مني ذلك السيف ونحرني في عنقي » . .

وراح الكفار يسخرون منه ، وهم يقولون : « أترى يا أبا الحكم أن الأشباح حليفة ابن عبد الله ، وهي لا تطلع على غيرك من قريش ! . اذهب أخزاك الله وأوهامك . . بل إنه الخوف من محمد ابن عبد الله يسيطر عليك ويفعل فعله بك . . » . . .

ويسكت أبو جهل على مضض ، ثم لا يلبث أن يقول لهم :

ـ من كان منكم أكثر شجاعة ، فذاك محمد بن عبد الله ، فليأته ، لنر ما يكون من أمره . .

ويتطلع القوم إلى بعضهم البعض ، فلا يجيبون ، لأن حجة صاحبهم قوية ، وهي تظهر مدى خذلانهم وخسرانهم في مواجهة محمد بن عبد الله . . إذن فليس أمامهم من سبيل إلاَّ العمل مجتمعين ، فذلك أجدى لهم . . وإذا كانت تلك الأفعال التي قام بها رؤوس المشركين ، والأحداث التي أحدثوها ، ما زادت محمداً إلاَّ قوةً ، وما زادت أتباعه إلا كثرةً وإيماناً ، فإن في ذلك حوافز جديدة لهم على متابعة عداوتهم ، وهم لن يعدموا الوسيلة ، ولن تفوتهم الحيلة . .

وإذا كان الأذى الذي لاحقوا محمداً به ، لم يقعده عن دعوته ، فما عليهم إلا أن يشتدوا بهذا الأذى عليه وعلى أتباعه . .

وها هم يهجمون على المسلمين بأعنف وأعتى من ذي قبل ، حتى صار الإيذاء عاماً ، فلم ينجُ منه أحدُ من المسلمين . . يلاحقونهم به إن خرجوا لأعمالهم وكسب قوت عيالهم ، أو ذهبوا إلى

الأسـواق يبتاعـون متاعـاً ، أو كانـوا في زيارةٍ أو صـلاة ، أو تبشير . . حتى حـلَّ الضيق بالمسلمين من كـل جانب ، وانتـابهم الخـوف على أنفسهم ، وعلى أهلهم وأطفالهم ، وعلى أرزاقهم ومواشيهم . .

وكان النبيُّ ﷺ يرى كل ما ينزلُ بأصحابه من أذى ، وما يلاقـونه من عذاب ؛ فيتألم ، ويشق عليـه أنه لا يستـطيع أن يفعـل لهم شيئاً ، ويحزُّ في نفسه أنه لا يقدر أن يرفع عنهـم الظلـم ، فالله سبحانه وتعـالى لم يأمره بعد بالمقاومة ، وما عليه إلاَّ الطاعة والامتثال لأوامر ربه . .

ولكنه ﷺ وهو في تألمه وحزنه ، لا ينفك قائماً بين المسلمين ، باقياً بجانبهم ، يواسي ، ويعزِّي ويدعو إلى الصبر الجميل حتى يظهـر الله أمره ، ويرد كيد المعتدين . .

ومثل هذه النفحات المحمدية الطيبـة من العطف ، والشفقـة ، والحدب ، والمواساة ، وتقديم كـافة أشكـال العون المعنـوي ، كانت زاد المسلمين على احتمـال المصـاعب ، والاقتنـاع بعـدالـة الصبـر وبجزائه العظيم : فوز في الدنيا والآخرة . .

وهـل للمسلمين أملٌ أكبـر ، أو رجاءٌ أسمى ، من إعـلاء كلمـة الله ، حتى ينالوا هذا الفوز . .

ولكن ، مهما كانت الأماني كبيرة ، ومهما كانت الآمال المرتقبة عريضة ، حتى ولو كانت هذه الأماني والآمـال شبه محققـة لأنها وعـدٌ من رسول الله ، فإن النفس الإنسانية تـظل فيها مـواطنُ ضعف كثيرة ، ومـظاهر وهن عـديدة ، فينشـد صاحبهـا في حـالات الضعف والـوهن

الخلاص مما يعـاني ، والانفلات ممـا يقاسي . . ومن هـذا القبيل جـاء خبّاب بن الأرت يوماً إلى رسول الله ﷺ ، وقال له : « يـا رسول الله ، ألا تـدعو الله ؟ » . . وهـزَّ النبيُّ ﷺ رأسه وهـو يرى مـا أصاب خبـاب والصحابَة من حـالاتِ ضعفٍ بدأت تُشـارفُ بهم على اليأس ، وأدرك أنه لا مجال للمهادنة أو الاستسلام لمثل هـذه المشاعـر والانفعالات ، فقال لخباب يعِـظه : « قد كـان منْ قبلكم ليمشّط بأمشـاط الحديـد ما دون عظامه من لحم وعصب ، مـا يصرفـه ذلك عن دينـه . . ويوضـع المنشـار على مفرق رأسـه فيشق باثنتين ، مـا يصرفـه ذلك عن دينـه . ولَيُتِمَّنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ، ما يخاف إلاَّ الله عزَّ وجلّ . . ولكنكم تستعجلون » . .

وكثرت شكوى المسلمين ، وصاروا يخافون أن يفتنوا عن دينهم من شـدة غلواء قـريش ، واشتـدادهـا في الأذى عليهم . . والنبيُّ ﷺ يـدرك هـذا الأمـر ، ويـدرك مـدى الضيق والألم اللذين يعـان منهمـا المسلمون . . إنه يـدرك كل شيء . . ويجب القيـام بعمل مـا يخفِّف عن كـاهل المسلمين بعض مـا يعانـون . . فراح صلى الله عليـه وآلـه وسلم يفكِّر بما يجب أن يفعل . . وبعد طـول تفكير ، جمـع أصحابـه كلهم ، وأبان لهم أنه لا يجد مخرجاً مؤقتاً من هذه الأوضاع إلاَّ بابتعاد المسلمين عن اضطهاد قـريش ، ولذلـك أشار عليهم ﷺ بـالهجرة إلى أرض الحبشـة ، وقال لهم : « فـإن فيها ملكـاً لا يظلم من كـان عنـده حتى يجعل الله لكم مخرجاً مما أنتم فيه » .

نعم ، هذا ما قرره الرسـولُ العظيم ، ومـا أشار بـه على أتباعـه

الأبرار . . أن يهاجروا إلى الحبشة ، حتى يحين الموعدُ الذي يعودون فيه إلى بلادهم ، وقد أظهر الله ـ سبحانه ـ دينه ، وعلَتْ كلمة الحق . . وكان ذلك في شهر رجب من السنة الخامسة من مبعث رسول الله ، الموافقة لسنة خمس عشرة وستمئة (٦١٥) ميلادية . .

وخرج ـ في ذلك الشهر من تلك السنة ـ المسلمون في أول هجرة لهم ، متخفين عن أعين الكفار ، حتى لا يلحقوا بهم ويمنعوهم من ترك مكة . . وكانت عدة أولئك المهاجرين الأوائل اثني عشر رجلاً وأربع نساء ، وهم : عثمان بن عفان وبرفقته زوجته الفاضلة رقية بنت رسول الله ﷺ التي تزوجها بعد أن طلقها ابن أبي لهب إيذاءً لأبيها ـ وأبو حذيفة بن عتبة ومعه امرأته سهلة بنت سهيل . . ومصعب ابن عمير . . والزبير بن العوام . . وعبد الرحمن بن عوف . . وأبو سلمة بن عبد الأسد ـ ترافقه زوجه ـ أم سلمة بنت أبي أمية . . وعثمان ابن مظعون . . وعبد الله بن مسعود . . وعامر بن ربيعة العنزي ومعه امرأته ليلى بنت أبي حثْمة . . وأبو سبرة بن أبي رُهْم . . وحاطب ابن عمرو . . وسهيل بن وهب بن بيضاء العَنْزي . .

ولقد نزل في هؤلاء المهاجرين قول الله تعالى :

﴿ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ۝٥٦ كُلُّ نَفْسٖ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ۝٥٧ ﴾ (1)

لقد أنزل الله سبحانه وتعالى هذه الآيات مواساة لأولئك

---

(١) سورة العنكبوت ٥٦ ـ ٥٧ .

المهاجرين فهم يخافون الهجرة إلى بلاد ليس لهم بها دار ولا عقار ، وليس فيها من يطعمهم أو يسقيهم . . وقد خوَّف الله ـ سبحانه ـ المؤمنين هؤلاء بالموت ليهوِّن عليهم أمر الهجرة (**كل نفس ذائقة الموت**) ، ومن ثم ذكر ـ سبحانه ـ ثوابَ مَن هاجروا .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ (١)

وإثباتاً لأمر الله تعالى ، نَزَل المهاجرون في أرض الحبشة ، فأقاموا آمنين ، بعيدين عن أي خوف أو حقد أو بطش يلاحقهم به الكفار . . ولقد يسَّر الله ـ سبحانه وتعالى ـ أحوالهم ، فوجَد بعضهم عملا يكسب منه رزقه ، ومن لم يجد عملاً ، أعانَهُ إخوتُهُ من ذوي المال والنعمة ، أمثال عثمان بن عفان ، على سبل العيش ، بما يقدمونه له من مال أو رزق ، فعاشوا ، تلك الفترة ، وحدة إسلامية متماسكة ، يحدبون ، ويساعدون ، ويذودون عن بعضهم البعض ، بكل ما يملكون من أسباب العون والمساعدة المعنوية والمادية . .

ونظراً لقلة أولئك المهاجرين ، لم تكن لهجرتهم أية أصداء في أرض الحبشة الواسعة ، فلم يأبه الناس لهم ، ولم يكترث أحد بوجودهم . . ولكنْ وإن لم تُظهر الهجرة دلائل معينة ههنا ، إلَّا أن برهانها قد سطع في مكة ، وغايتها أذهلتْ قريشاً ، ذلك أن المسلمين

---

(١) سورة العنكبوت ٥٨ ـ ٦٠.

حريصون على التمسُّك بدينهم ، متفانون في سبيل هذا الدين مستعدون لاحتمال كل أنواع المشاق والخسارة في سبيله ، حتى ولو كانت تَرك أعمالهم ، وهجر أهاليهم ، والابتعاد عن ديارهم ! .

ولو أن قريشاً وعتْ هذا الدرسَ الرائع يقدِّمُهُ المسلمون عن إرادة ووعي وإدراك فقد كان من شأنه أن يضعها أمام التفكُّر بالحقيقة التي لا مناصَ منها ، وهي أن الدين الجديد ما بعثَه الله سبحانه إلاَّ ليبقى ، مهما تألَّبتْ قوى الشر عليه ، أو مهما قامت في وجه أتباعه ومريديه العقبات والصعاب . . نعم لقد كان على قريش أن تدرك معنى العطاء الذي يقدمه المسلمون بهجرتهم ، ولكن من أين لهم مثل هذا الإدراك ، وقد خبا في نفوسهم الهدى ، وسيطر على عقولهم الضلال ! . . وها هم في طغيانهم يعمهون ، ليتخذوا من الهجرة ، ذريعة أخرى ، يضيفونها إلى ذرائعهم السابقة ، للهجوم بالأذى على المسلمين الباقين في مكة ، يختصون به من غلب عليهم الحلم والمروءة ، وهم لا يتوقعون منهم أية مناوأة أو مقاومة . .

وهكذا بقي كثير من أصحاب النبي ﷺ بجانبه ينصرونه في دعوته إلى الحق ، وقيامه بأمر الله ، بينما هاجرت جماعة قليلة ، إلى حيث اختار لهم الرسول الأعظم الهجرة ، في بلاد الحبشة . . وهذا الاختيار الذي جاء بعد طول أناة وعمق تفكير ، ما كان ليتمَّ إلاَّ ليثبتَ في ضمير العالم كله ، أن أرض الحبشة ـ بلاد النصرانية ، وهي دين الله ـ هي أولىٰ من أي أرض أخرى ، باحتضان أبناء دين الله الواحد ، واستقبالهم بالأمن والسلام ، حيث لا يلقون أذىً ، ولا افتراء ، ولا

يعانون من تعذيب أو جهالة . .

لقد كان ذلك الاختيار من لدن الرائد ، الحكيم ، المدبِّر ـ بعد الله سبحانه ـ محمد بن عبد الله ، الرسول الأعظم . . ولذلك لم يكن اختياره أرضاً لهجرة ، عند قبائل العرب في البادية ، وهم من اشتهروا بالسليقة ، بحبهم للحمية والجوار . . ولا في بلاد فارس ، حيث امبراطورية قوية ، وذات سطوة وهيبة وسلطان ، تنازع امبراطورية روما حُكمَ البلاد والأمصار الواسعة ، وتضاهيها بأساً ونفوذاً . . .

وإذا كان من بين أهداف تلك الهجرة ، ضرب المثل لقريش خاصة ، وللعرب عامة ، هو أن يدركوا حقيقة الرسالة التي ندب إليها محمد بن عبد الله . فإن من الغرابة حقاً ، أن يرى المشركون في تلك الهجرة شيئاً جديداً لم يألفوه من قبل ، وبما لم يتخطَّ حيِّز تفكيرهم الضيِّق ، وهو أن هذه الهجرة سوف تتيح لأتباع محمد بن عبد الله الفرصة كي يقوَوْا ، وتشتد شوكتهم في بلاد الغربة ، فيلحق بهم آخرون ، ثم لا يلبثون أن يشكلوا قوة منيعة بالرجال والمال والسلاح ، فيعودوا إليهم ليوقعوا بهم ، وبذلك تدور عليهم الدائرة ، ويحلُّ بهم ، وبمكانتهم ، وبآلهتهم ، الويل والثبور ، وتنزل بهم عظائم الأمور . . .

هذا ما رآه كفار قريش من هجرة المسلمين ، لقد خافوا من عاقبتها الوخيمة على أنفسهم ، فاندفعوا في العنت والإرهاب بأشدّ مما مضى ، يذيقون الباقين في مكة من المسلمين ، أعتى أنواع الأذى والعذاب . .

ولقد كان من كفار قريش المتحمسين والمغالين في عداوتهم

للدعوة الإسلامية ، عمر بن الخطاب ، إذ كان في طباعه شراسة وفظاظة ، قلَّما يعرف قلبه الرحمة . . حتى عرف عنه ، بأنه ما من ضرب من ضروب الجلف وصلافة الجاهلية إلاَّ وكان ظاهراً فيه . . ولقد كان صاحب خمرة ، يحبها ويطرب لندامتها . .

لقد كان عمر يتهدَّد المسلمين دوماً ، ويشارك جماعته أسياد قريش ، في أذيتهم والنيل منهم . . ولقد بلغ به الحماسُ يوماً ، بعدما عشعشت الخمرة في رأسه ، أن يعلن لندمائه ، بأنه لم يعد يحتمل وجود محمد بن عبد الله ، هذا الرجل الذي جاء يُفَرِّق بين قريش ، ويعمل على هدم حكمها وسيادتها في العرب . . وما عتمَ بعد إعلانه ذاك ، أنْ هبَّ يريد محمداً ليقتله . . وفيما هو في طريقه للبحث عنه ، التقى به نُعيم بن عبد الله ، فاستوقفه وسأله عمَّا يغضبه ، فعلم ما يعتزم الذهاب إليه ، فقال له :

ـ والله لقد غشَّتك نفسك من نفسك يا عمر . . أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! . . أفلا ترجع إلى أهلك وتقيم أمرهم ؟ ! . .

وسأله عمر بدهشة : وأي أهل بيتي يا هذا ؟ ! . .

قال نُعيم : أختك . . فاطمة بنت الخطاب ، وصهرك . . سعيد ابن زيد . فوالله قد صبآ ، وصارا من أتباع محمد . .

وزاد هذا الخبر عمر هياجاً ، فترك الرجل ، وراح يركض إلى بيت أخته فاطمة ، وهو يرغي ويزبد ، وشرر الغضب يتطاير من

عينيـه . . وما إن وصـل صحن الدار ، حتى جمـد في مكانـه . . فقد سمع من يقرأ القرآن في داخل البيت . . .

« إذن فقد صدق نعيم في ما قاله لي » . . . وعلا صوته بـالشتائم وهو يندفـع إلى داخل الـدار ، وسمعه من فيهـا ، وأدركوا الحـالة التي جـاءَ فيها ، فـأخفـوا الصحيفـة التي كـانـوا يقـرأون ، ثم وقف صهـره وأخته ، بانتظاره ، وهما يرتجفان خوفاً وفَرقاً منه . .

دخل عمرُ على غضبتـه تلك وهو يسـأل ، أول ما يسـأل ، بدون أي تقديم أو استفسار :

ـ ما هذه الهينمة التي سمعت ؟

قالت له أخته ، وهي تريد أن تكفَّ الشرَّ الذي جاء به :

ـ ما سمعت شيئاً ؟ . .

قـال لها عمـر : بلى ! . . وإنـك وهـذا ـ يعني صهـره سعيـداً ـ تابعتما محمداً على دينه . .

ثم تقـدم من سعيد ، وأمسكـه من عنقه ، يـريد أن يبـطش به ، لولا أن ألْقتْ فاطمة بجسدها على زوجها تحميه ، مما زادَ في إغضاب عمر ، فضربها ضربةً شديدةً على رأسها ، فشجَّه . .

ورأى سعيد ما حلَّ بزوجـه ، فهانت عليـه نفسه ، فقـال لعمر ، غير هيّاب ولا وجل :

ـ نعم لقد أسلمنا ، وآمنَّا بالله ورسوله . . فاصنع ما بدا لك . .

وكأنَّ هذا العزمَ الذي جوبه به عمر ، ورؤيته لمنظر الدم يسيل من رأس أخته ، قد ذهبا بغضبه ، وأعادا إليه بعض صوابه ، فجلس على مقعد بقربه ، وطلب أن يُعطى الصحيفة التي كانوا يقرأونها . .

ولم تعبأ فاطمة لجرحها ، بل رفضت أن تعطيه الصحيفة ، وقالت له :

- بل لا تمسُّها حتى تغتسل وتتطهَّر . . إنه قرآن لا يمسه إلَّا المطهَّرون . .

ولم يُثر كلامُ فاطمة أخاها عمر ، بل أنزلَ الله السكينة على قلبه ، فإذا حاله قد تبدَّلتْ بسرعة عجيبة ، وإذا هو يتبدل من غاضبٍ آمرٍ ، إلى وديعٍ يستمع لأمر أخته ويطيع ، فيقول لها :

- وكيف تكون طهارتكم ؟ . .

وأرادت فاطمة أن تعلِّمه كيف يتطهر . . ولكنه ، قبل أن يفعل ، أقبل عليها ، يغسل الدم عن وجهها ، ويطلب إلى زوجها أن يساعده على تضميد جرحها ، ثم لا يلبث أن يجلس بقربها ، ويروح يواسيها ، ويطيِّب خاطرها ، ويرجوها أن تسامحه على الهفوة التي ارتكبها بحقها . . فسامحته أخته فاطمة على الفور - ومن أولى بالمسامحة ونبذ الكراهية من قلب مسلم - ثم قادته إلى مكان الاغتسال وأتته بثوب لزوجها ، وعلمته كيف يتطهر . . فتطهَّر . . فلما جاء إليهما ، وجَد رجلاً غريبا ، يقف إلى جانبهما ، فسأل عنه ، فقالا :

- إنه خباب بن الأرت ، وهو من كان يقرأ الصحيفة ، وقد اختبأ

في ناحية من الـدار عند مجيئـك خوفـاً من أن تقتله في سَوْرة الغضب الذي استبدَّ بك . .

قال عمر : لا بأس عليك يا خباب ، اجلس . .

وجلس الجميع ، وراح عمر يقرأ ما في الصحيفة . . وكان كلما قـرأ آية ، تـوقف وهو يبـدي استحسانـاً وإعجابـاً ، فتلتفت إليـه أختـه وتقول :

ـ إنه ليس من كلام البشر يا أخاه ، بل هو قول الله تعالى . . إنه قرآن كريم يهدي للتي هي أقوم . .

وتابع عمر القراءة ، وعاد يتوقف ويبدي إدراكه لروعة مـا تتضمن الآيات التي يقرأ . . فيقف خباب أمامه ويقول :

ـ فالله الله اتقِ يا عمر ، وكن من أتباع دين الله ، يهـدِك ويُنجك من عذاب شديد . . .

ولم يُثر كلام خباب المولى حفيظة عمر السيد . . بل ظلَّ يتابـع القراءات مأخوذاً ، حتى إذا أكمل الصحيفـة ، أبقاهـا بين يديـه ، وهو يشدُّ عليها ، ويقول :

ـ ما أعظم ما وجدت في هذه الصحيفة . .

وآنستْ فيه أخته فاطمة غلبة البرّ ، فقالت له :

ـ عسى أن يهديك الله سبحانه يا أخي ، وينصرَ بك الإسلام . .

فقـالَ سعيـد : والله لقـد سمعت رسـول الله ﷺ يقـول : اللهمَّ

انصرِ الإسلام بأحد العمرين : عمر بن الخطاب ، أو عمرو بن هشام . .

لقد أنس عمرُ واطمأنَّ لكلام الله عز وجل ، فقام يأخذ سيفه من جانبه ويتَّشح به ، ثم يلتفت إلى صهره سعيد ويقول له :

ـ أين ألقى محمد بن عبد الله ؟ . .

ونظر سعيدُ إلى زوجه ، وكأنَّه يريد أن يقولَ لها : هل يذهب عمرُ إلى النبي ﷺ مسالماً أم معادياً ؟! . .

ولكنَّ التفاتة خباب كانت أكبر استشفافاً لمكنون دخيلة عمر ، إذ لم يساوره شك في سؤال هذا الرجل عن النبي ﷺ ، ولم يداخله منه خوف قطٌّ على حياة رسول الله ، فقال له :

ـ إنني أعرف مكانه فهيّا بنا إليه . .

ومضى عمر بن الخطاب برفقة خباب ، حتى بَلغا دار الأرقم بن الأرقم ، فطلب عمر من خبّاب ، بوداعةٍ ولينٍ ، أن يتركه يدخل بمفرده ، فتنحّى خبّاب مستجيباً . .

وهنا تقدم عمر يطرق الباب ، على وجل وخوف . .

وسمع جمعُ الصحابة الذين كانوا ملتفين حول النبي ﷺ يستمعون إلى تلاوة القرآن وتفسير آياته والتبصُّر بعظاته . . سمعوا طرقاً على الباب ، فقام أحدهم ينظر من الشق ليرى الطارق ، فإذا به يرجع ويقول للرسول ﷺ : إنه عمر بن خطاب ، وقد أتى متَّشِحاً بسيفه . .

وخشيَ بعض الصحابة من مجيء هذا الرجل ، الذي لم يعرفوا

عنه إلا شرّاً بالمسلمين ، فأرادوا منعه من الدخول ، ولكنَّ حمزة ابن عبد المطلب (رضي الله عنه) قال لهم :

« لِمَ لا نأذن له ؟ . . فإن كان يريد خيراً بذلناه له . . وإن كان يريد شرّاً قتلناه بسيفه » . .

وأمَرَ النبيُّ ﷺ بالباب ففُتح . . وقام بنفسه يلقى عمر ابن الخطاب ، وهو يأخذ بمجمع ردائه ، ويجذبه جذبة قوية ويقول له :

« ما جاء بك يا ابن الخطاب ، فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزل الله بك قارعة » ! . .

واهتزَّ كيان عمر ، حتى شعر كأنَّ الدم يكاد يجمد في عروقه . . وأحسَّ أن هاتين اليدين اللتين تمسكان بجلبابه ، وأن صوت هذا الرجل الذي كان لبضع ساعات ينوي قتله ، تأخذ به ، وتقذفه إلى جحيم من النار ، ثم لا تلبث أن تنتشله ، وتدعو له بالرحمة ! . .

وظلَّ عمر واقفا في مكانه لا يأتي بحركة ، ولا ينبس ببنت شفة . .

ورأى الرسول الكريم أنه ليس في هذا الرجل الفظ الغليظ أية جذوة من شدة ، فدعاه للجلوس . .

ويمتثل عمر كطفلٍ وديع ، فيتخذ له مكاناً بين الصحابة ، ولكنه يجيل ناظريه فيمن حوله ، فيرى بأنَّ بينه وبين هؤلاء الأشخاص

الذين يحيطون به جفوة وغربةً بعيدتين ، فيتساءل في نفسه :

« أين ذهبت القرابة التي تصل الأرحام بيني وبين بعض هؤلاء الفتيان ؟ ! . . وأين تلك المودة والصداقة اللتان كانتا تربطاني بالبعض الآخر ! . . هل هم أغراب ، أم أنني أنا الغريب عنهم ؟ ! . . » . .

إنه هو الغريب حتى الساعة ! . .

وهو في الواقعِ من نأى به المزار ، فظل في جاهليته ، بينما هدىٰ الله تعالى من يحيطون به ، فافترقوا عنه ، وكانوا هم الفائزين . .

. . ولكن هذا الإحساس بالغربة ، لا يثني عمر عما جاء من أجله ، فيثوب من تفكيره ، ويستأذن الرسول ﷺ بالسؤال عن الدين الجديد الذي يدعو إليه . . فيُقبِل عليه الرسول العظيم مبيِّناً أحقِّيَّة الإيمان بالله الواحد ، وهدي عقيدة الإسلام ، واستقامة نهج الدين الجديد . . ويُظهرُ له الفوارق بين عبادة الله رب العالمين ، وبين الآلهة المزيفة التي يعبدها ملأُ قريش ، والعربُ عامة . . .

ويمضي النبي ﷺ في إرشاده ، يتلو من آيات الله المباركات ، ويظهر بيِّنات تلك الآيات ، ما جعلَ عمر بن الخطاب ـ ذا البأس والصلافة والعنفوان ـ إنساناً آخر ، اختلفت مداركه وأحاسيسه وتطلُّعاته ، وتبدَّل فيه كل شيء . .

ها هو ذا في قليل من الوقت ينبعث من داخله نداء يدعوه إلى الإسلام .

وها هو ذا وهج الإيمان يملأ قلبه ، فيعلن للرسول ﷺ إسلامه ،

وينطق بالشهادتين : « اشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله » . .

ويعلو البشر وجه النبي ﷺ . . فقد صار واحدٌ ممن كانوا ألدَّ أعداء الدعوة ابناً لها . . ولم تقلّ فرحة الصحابة عن فرحة نبيهم ، فأخذوا يتقدمون من أخيهم الجديد ، يهنّئونه على الفوز الذي ناله : رضىً من الله ورحمة ، ومحبة من رسول الله وبركة . .

ويشعر عمر (رضي الله عنه) بالسعادة تملأ كيانه . . فيعلن من ساعته استعداده لنُصرة دين الله ، والوقوف بجانب رسول الله ، في السراء والضراء ، ومؤازرة رواد الدعوة إلى الله . . .

وكان أول ما تبادر إلى ذهن عمر (رضي الله عنه) بعدما خرجت جماعة المسلمين من دارتهم العامة ، أن يعلن هو بنفسه إسلامه على ملأ من قريش ، وخاصةً على رؤوس أسياد الكفر . . وتفكّر في تلك الجماعة فرأى أشدّهم جهالةً وحقداً أبا جهل ـ عمرو بن هشام ـ وقد عرف من إخوته المسلمين لقب هذا الرجل الذي أطلقوه عليه ـ أبا جهل ـ فذهب إليه ، وكله ثقة وإيمان ، يطرق باب دارته . .

وقام أبو جهل ليرى من الطارق ، فإذا به أمام عمر بن الخطاب وقد جاءه بطلعة بهية تغمرها إمارات الارتياح والاطمئنان ، فاستبشر خيراً ، وراح يتأهل به ويدعوه للدخول وهو يقول :

ـ عِمْت مساءً يا عمر . . تفضل بالدخول . . ما أحلاها من زيارة يشرفني بها بطلٌ من أبطال قريش ! . .

ولكنَّ عمـر لم يأبـه لهذه الحفـاوة ، بل يقـول له بنبـرته الحـادة المعهودة :

ـ مـا جئت لأدخـل يـا عمـرو ! . . ولكنْ لأخبـرك بمـا تكـره وتبغض . . لقـد آمنت بـالله ، وبنبـوَّة محمـد بن عبـد الله ورسـالتـه ، وصدَّقت بما أنزل الله تعالى على قلبه الشريف . .

ونزلتْ كلمات عمر على أبي جهل كالصاعقـة ، فامتقـع لونـه ، وارتدَّ إلى الوراء ، يوصد بابَهُ في وجه عمر وهو يقول له :

ـ قُبِّحتَ ، وقُبِّحَ ما جئتَ به . .

فيقول له عمر (رضي الله عنه): بل أنتَ الذي قبَّحـك الله أيها الكافر ، ألا تخرج إليَّ ! . . .

وأنّى لهذا الفاسق أن يجرؤ على مواجهة عمر ، فقـد غاب وراء الباب ، واختفى صوته . . إنه ولا شك قد أغصَّهُ الحَنَقُ القاتلُ ، فارتدَّ إلى ظلمات نفسه ينطوي على مخازيها السحيقة . .

. . وذاع خبـرُ إسـلام عمـر بن الخـطاب في مكـة ، فـذهلتْ قـريش . . وهـاجت رؤوس المشـركين ثـائـرة ، لأنهم أحسّـوا أنهم يفقدون نصيراً قـويا في محـاربة الـدين الجديـد . . فاعتـزموا البـطش بـه . . ولكنْ رأوا أن دونهم وذلك سـدّاً منيعـاً . . فعمـر بن الخـطاب رجـل ذو عزم وغضب ، وصـاحب همة وبـأس . . يضـرب ، يقتـل ، يظلم . . دون أن يأبه لشيء . . هكذا يعرفونه ، فهل يتغيَّر ؟ ! . . وإنَّ

له فوق قوّته وبأسه ، عشيرة تحميه وتمنعه ، ولذلك فإنهم عاجزون عن النيل منه . .

تلك كانت قناعة الكفار وهم يعلمون بخبر إسلام عمر ، ولسوف يدعونه وشأنه حتى تحين الفرصة للايقاع به ، فينقضُّون عليه ، ويتخلَّصون منه . وليكن همهم الأوحد الوصولَ إلى ابن عبد الله ، لأنهم إن قضوا عليه ، اجتثّوا دعوته من جذورها ، وهان عليهم القضاءُ على أتباعه ، حتى ولو كان فيهم حمزة بن عبد المطلب ، وعمر ابن الخطاب ! . . .

تلك كانت غاية قريش الكبرى في نواديها ومجالسها بعد إسلام عمر بن الخطاب . . .

أما مجالس المسلمين فكانت على خلاف ذلك تماماً . . فهي دوماً مجالس الهدى والإيمان ، ونوادي التآلف والتآخي ، ومجتمعات الحق والعدل . . لا يعنيهم من الأمر إلا إيصال الدعوة الإسلامية إلى الناس ، ولا يهمهم من شأنهم إلاَّ اهتداء قريش ، وهم قومهم وأهلوهم ، إل دين الله ، حتى ينجوا من العقاب الشديد الذي أعدَّهُ الله ـ سبحانه ـ للكافرين . . وها هم أولاء المسلمون يتحلَّقون جماعةً حول رسول الله ﷺ بجوار الكعبة الشريفة ، وهم يتفكرون في الوسائل التي توصلهم إلى نشر الدعوة ، وردع قريش عن غيِّها ، في حين قَبَعَ زعماء قريش في مجلس مقابل يُجمِعون على الباطل ، ويأتمرون بالشرِّ والمنكر . .

ونظرَ عمر بن الخطاب إلى تلك الجماعة ، فعرف بما تهتمُّ به وتشتغل . . فقال للنبيِّ ﷺ :ألسْنا على حق إن متنا أو حيينا يا رسول الله ؟

قال له الرسول الكريم : بلى والله يا عمر . . والذي نفسي بيده ، إنكم لعلى الحق إن مُتُّم أو حَيِيتُم . .

قال عمر (رضي الله عنه) : ففيم المهادنة والسكوت يا رسول الله ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجنَّ . .

إنَّه الحق يتفاعل في نفوس المسلمين ، وينطق به عمر ابن الخطاب ، في مبادرة جديدة للدعوة . .

وكان الأمر الإلهي قد صدر إلى رسوله الكريم أن يتجاوز المرحلة السريّة للدعوة صوب الجهر والإعلان . وهذا أمر لا بد منه لدعوة عالمية شاملة جاءت لكي تثبت وجودها المنظور في الأرض العربية أولاً ، وفي العالم فيما بعد ثانياً . . من أجل ذلك تمسك الرسول العظيم بمبادرة عمر الطيبة ، وفيها يرى الفرصة مؤاتية للاختبار الذي يريد . . ولكن أي اختبار كان يريده رسول الله ﷺ ؟ ! . .

إنه الاختبار لمدى تفاعل الدعوة في نفوس المسلمين ، واستعدادهم للانطلاق بها من العقال الذي فرضته عليها قريش على مدى ست سنوات متواصلة ، حتى يمكنهم إيصالها إلى الناس . . بعدما صارت عندهم القدرة على ذلك من خلال ذلك التعليم الواعي ، والتثقيف المدرك ، والغرس اليانع ، الذي قام بها الرسول ﷺ خلال تلك المدة من مبعثه ، حتى يعد دعاة الإسلام . . وها هي اللحظة قد سنحتْ لهؤلاء الدعاة من أجل أن يقدموا على خطوة جديدة ، لها من الجذوة والجدية ، ما يمكن أن يفصل في حياة

الدعوة بين مرحلتين . . . فينتقلون من مرحلة التعليم والإعداد إلى مرحلة التفاعل مع المجتمع لبنائه من جديد على أسس الإسلام ، وتعبُر الدعوة من مرحلة التخفِّي إلى مرحلة العلانية ، على أسس وطيدة وثابتة ، تظل دعائمها قائمة إلى أبد الدهر . .

نعم لقد شاء الرسول الكريم أن يكون خروج المسلمين علانية ، هو الاختبار والمحك لهم وللدعوة ؛ فسُرَّ بما أبداه عمر ابن الخطاب وهو يقول له : « والذي بعثك بالحق لنخرجنَّ ». . . فطلب إلى الصحابة أن يتفرَّقوا في مكة ، ليدعوا إخوانهم المسلمين الآخرين ، ممن لم يكونوا حضوراً آنذاك ، وأن يأتوه بُعَيد العشية إلى دار الأرقم بن الأرقم ، حيث يكون في انتظارهم . .

وحان الموعد ، واجتمع المسلمون في دارتهم العامة . .

وفي هذا الاجتماع وقف التاريخ يتأمل كتابة صفحة جديدة من حياته ، على يد ذلك الرسول العظيم محمد بن عبد الله ﷺ . .

إنه قد قضى ست سنوات على مبعثه الكريم . . وقد أنزل الله تعالى عليه من الآيات العِظام ، ما يجعل الإسلام قادرا على الوقوف في وجه جميع التيارات الفكرية التي كانت سائدة آنذاك في الجزيرة العربية ، ليصدِّق منها ما احتوته الرسالات السماوية التي سبقت ، من تعاليم الألوهية الحقة ، الصادقة ، ولينقض ما أدخل على تلك الرسالات من دسٍّ وتأويل وتزوير للحقائق ، ومن ثم ليَقضي على سَفَهِ معتقد الوثنية والشِّرك ، ويمحوَ جميع الأفكار الخبيثة التي لا تتوافق وحياة الإنسان السليمة ، المعافاة من الأمراض والشوائب . . وإنَّ في

خروج المسلمين ، ما يؤمِّن هذا الاحتكاك الفكري بين فكر الإسلام النيِّر الحق ، وبين الأفكار الأخرى التافهة السائدة ، وخاصة أفكار قريش الفاسدة ، التي لم تحمل للمجتمع إلا جاهلية خرقاء ، بتراء ، لا أساس لها ولا منطق ، اللَّهم إلَّا الحفاظ على عصبية متحكمة بالعقول والنفوس ، وعلى نظام اجتماعي مهترىء ، يقيم الوزن الأكبر للفوارق الاجتماعية ، وللتمايز والاختلاف الطبقي . .

نعم إن خروج المسلمين واحتكاكهم الفكري سيكون الخطوة الأولى لتغيير تلك المفاهيم القديمة التي جاء الإسلام يتصدَّى لها ويُحِلّ مكانها المفاهيم والأفكار الإسلامية الرائعة . . وفي إحلال الأفكار الإسلامية يبدأ بناء المجتمع الجديد ، الذي لا يعدو في واقعه مجموعة من الناس وما يوحِّد بينهم من أفكار ومشاعر وأنظمة ، يتوافقون عليها من أجل المصلحة العامة الشاملة ، وليس من أجل مصالح فردية ، وعلاقات مجتمعية ضيقة ، إطارها الغاية الشخصية المحصورة ، ومحورها النفع الأناني الهدّام ، بما يخالف السلوك السليم ، الذي يظل دوماً مربوطاً بمفهومه الإنساني ، حتى إذا خرج عنه ، تعلَّقت به المفاهيم القائمة فقيَّدته ، وبعدت به عن التغيير الذي يطلب من أبناء المجتمع كلما دعتهم الحياة ، بحركتها الدائمة ، إلى تغيير جذري في المعتقدات والأفكار والمشاعر ، وفي أنماط العيش وأساليبها ووسائلها . .

وليس الهدف أيضاً من ذلك الخروج إلَّا إحداث هذا التغيير الذي سوف يؤدي إلى انقلاب شامل في المجتمع ، وذلك من خلال

مرحلتين يمرُّ بهما :

- مرحلة تغيير طريقة التفكير حتى يتغير ما في النفوس . .
- ومرحلة تغيير الواقع عندما يكون هذا الواقع سيِّئاً . .

وليست هاتان المرحلتان في حقيقتهما ، إلا تغييراً للأساس غير الثابت وغير السليم ، وإحلالاً مكانه للأساس المقطوع بصحته وصدقه ، وهذا الأساس الصحيح الصادق ، يكون المقياس الرئيسي لجميع المقاييس ، والمفهوم الأساسي لجميع المفاهيم ، والقناعة الأساسية لجميع القناعات . . وبه تتغيَّر القيم كلها : قيم الأشياء ، وقيم الأفكار وقيم الأساليب والوسائل ، وقيم الروابط والعلاقات . . . وبمثل هذا التغيير الذي يقوم عل الاحتكاك بين الافكار وتصارعها مع بعضها البعض - حتى يسود فيها الصحيح ويسقط الغثُّ الهشُّ - لا يمكن إلاَّ اعتماد طريقة واضحة وسليمة ، وهذه الطريقة موجودة لدى المسلمين ، وعناصرها معروفة لديهم ، فهي تقوم :

- على تصورهم الهدف الذي يريدون ، وهدفهم الأول والأخير إعلاء كلمة الله تعالى . .

- وعلى الطريقة التي توصلهم إلى هذا الهدف ، وطريقتهم واضحة ، بما يرسمه الرسول العظيم بوحي من القدرة الإلهية .

- وعلى معرفة المجتمع ، معرفة تامة ، حتى يمكن هدم ما يجب هدمه ، وبناء ما يجب بناؤه ، لأنه في الأصل لا هدم بلا بناء ، وإلاَّ كان الهدم من أجل الهدم فقط ، في حين أن الإ الام حاء

للبناء ، ولذلك وجب هدم ما يتعارض وهذا البناء الجديد . . أي بناء المجتمع الإسلامي حيث العدل والمساواة والأمن والسلام . .

وإن هذه التصورات وأمثالها ، بالنسبة لشتى المفاهيم ، تجعل من المسلمين حملة للدعوة ، ينبري كل منهم حاملاً الصفات التي تميِّزه عن غيره من أبناء المجتمع ، والتي تظهره :

عارفاً لأمَّته .

مُطَّلِعاً على خفاياها . .

واقفاً على أسرار نفسيتها . .

خبيراً بطرق توجيهها . .

يعرف كيف يخاطبها بلغتها ،وكيف يتملك زمامها ، وكيف يكون موضع تقديرها واحترامها ، ولا يكون ذلك إلاَّ إذا حاول أن يكمِّل نفسه . .

فإذا انطلق المسلمون على هذه الأسس الواضحة ، أمكن لحركتهم ، وهي حركة فكرية انقلابية شاملة ، أن تجتثَّ جذور الفساد القائم ، وأن تمحو الظلم والاستعباد والاستغلال ، لترسي قواعد الإيمان الحق بالله تعالى ، وتنظِّم المجتمع البشري ، وفق ما يناسب هذا المجتمع في تطلُّعه نحو الأفضل والأحسن . .

تلك كانت الغاية من عزم المسلمين على الخروج ، بعد حقبة ست سنوات من استخفاء دعوتهم . . ولقد أرادَ الرسول الأعظم أن يكونَ هذا الخروج بدءَ الانطلاق بالدعوة ، على مفاهيم الإسلام

الصحيحة، القويمة، الثابتة، فجمعَ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وأبان لهم الطريقة التي اعتمدها، والمنهج الذي رسمه لهذا الخروج . .

وكان الليل في هزيعه الأخير، عندما توقف الرسول ﷺ عن الحديث، وأمَر المسلمين بالذهاب إلى بيوتهم، داعياً الله سبحانه وتعالى أن يوفقهم في خطواتهم الجديدة، وأن يحقق الغاية التي يرجونها، ألا وهي إعلاء كلمة الحق، ورفع راية الإسلام والتوحيد . .

وأُغلِق المقرُّ العام للمسلمين، وخرج الرسولُ ﷺ إلى دارته، ليقوم الليل ساهراً، مصلِّيا، متهجِّداً . . يقرأ القرآن، وهو راضي النفس، عما اعتزمه، وصمَّم على تنفيذه . .

لقد أعادَ على أذهان الصحابة الأبرار، وعلى مدار ساعات طويلة، كلَّ ما ينير سبلهم، ويسدِّد خطاهم، ويرشدهم إلى الطريق المستقيم، فلم يجدهم إلَّا دعاة حقيقيين، قادرين على إظهار أمر الله . . فقد توطَّد الفكر الإسلامي في نفوسهم، حتى غدا هذا الفكر قوةً منيعةً قابلةً للتطبيق في معترك الحياة، وصارت لديهم القوةُ على نشر الدعوة، والاستعداد للتضحية في سبيلها . . وتلك الحقائق، قد جعلت الرسول العظيم يدرك بأن الاستخفاء بالدعوة والبقاء على التكتُّل السرِّي لم يعُد وارداً . . فقد بات واضحاً أن الدعوة قد اجتازت مرحلة الإعداد، وبات لها أن تنطلق . .

وبالفعل كان ذلك الانطلاق . .

نعم لقد انطلقت الدعوة ، في تلك الساعة التي عادَ فيها الرسول ﷺ وجَمَعَ الصحابة في دار الإعداد والعلم والمعرفة ، وعَرَض عليهم مرة ثانية ، طريقته في الخروج ، فهبّوا جميعاً يُلبّون النداء ، بأفضل استعداد ، وأعلى همة وعزم . . .

. . إنهم كانوا يتوقون إلى مثل هذا اليوم ، الذي يأمرهم فيه الرسول ﷺ بالخروج مسلمين ، يمشون على الأرض ، بين الناس ، غير مستخفين ، ولا وجلين . . وإنهم كانوا ينشدون هذا الوقت الذي يظهرون فيه غير عابئين بصلافة قريش ، ولا هيابين لِعنَت جاهليتها . . فقد كفى أولئك المشركين استعلاءً عليهم ، وآن لهم أن يخفّفوا من غلواء جهلهم ، وتشبّثهم بالنقمة والعداوة . .

نعم لقد كفى المشركين كل ذلك ، وهم يعلمون بأمر الدعوة منذ أول يوم نزل فيه الوحي على رسول الله ﷺ . . فقد عرفوا منذ البداية ، وهم يعيشون في بلد مثل بلدهم مكة ، حيث أواصر القربى تربط الجميع ، والعلائق الاجتماعية ، والصلات الشخصية فيما بينهم على أشدها ، بأنّ ما جاء به محمد رسول الله ، لم يكن لمطمعٍ خاص ، ولا لغاية شخصية . . بل جاء يدعو إلى دين الله الواحد ، دين الحق والهداية ، وقد آمن به عدد من الناس ، من سادة ومستضعفين ، راحوا يسيرون على النهج القويم الذي تفتحت عقولهم عليه ، واطمأنت نفوسهم به . .

وقد كانوا يعرفون ذلك ، ويعرفون أيضاً أن محمد [illegible] كان يكتّل أصحابه ، ويسهر على تكاتفهم ،

وتماسكهم ، ويشدِّد على أواصر الوحدة فيما بينهم ، حتى صاروا كتلةً واحدةً متراصة . .

كانوا يدركون كل هذه الأمور ، ولذلك شهروا عداوتهم للدعوة منذ البدء ، وقاموا يحاربونها بالمقاومة ، والإيذاء ، وشتّى أنواع الضغوط والظلم . وكلما كان يمر يوم ، كلما كان يزدادُ ضلالهم ، وكلما أظهروا من العَنَتِ والعداوة، كانت الأوامر تُعطى من رسول الله إلى المسلمين بتحاشيهم، وبالبقاء على استخفائهم. . أما وقد أمرهم الرسول الأعظم بخلع ثوب الاستخفاء هذا، فهل يبقون عليه؟!. .

وهل يقبلون بأن يظل شرُّ قريش مستطيراً ، بينما خير الإسلام مستكين ؟ !. .

لا والله لن يكون ذلك ، وفي نفوسهم حمية الإسلام الصادقة . . وفي قلوبهم الإيمان بالله العظيم !. . إذن لا شيء يمنعهم من الظهور . . وها هم يظهرون ، وينطلقون . .

أزفت الساعة ، ووقفت مكة كلها تشهد نقطة تحوُّل التاريخ .

نقطة الانطلاق

إن المسلمين خارجون في صفَّين ، على رأس أحدهما حمزة ابن عبد المطلب ، وعلى رأس الآخر عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنهما ـ وأمام الجميع آيةُ الله تتهادى في شخص رسوله محمد ابن عبد الله . . لقد خرجوا في هذا التنظيم الدقيق الذي لم تعهده قريش ، ولا العرب من قبل ، متوجهين نحو الكعبة المباركة ، ليطوفوا على أعين الملأ من قريش ، وليصلّوا على رؤوس الأشهاد . . وقريش واقفة ترقب ، وتشهد ما يجري تحت سمعها وبصرها ، وهي تكاد لا تصدِّق ما ترى وتشهد . . فقد أخذتها الدهشة ، وراحت تتساءل : « هل بلغت الجرأة بمحمد بن عبد الله أن يظهر أمره هكذا علناً وأن يخرج بأتباعه متحدّياً كل قوة قريش ، وضارباً بنفوذها عرض الحائط » ؟ ! . . نعم تلك كانت تساؤلات زعماء قريش ، وهم أول من يشهد هذا الخروج الذي جعلَ الأرض تميد بهم ، ولكن لسبب ما ظلّوا في موقع المراقبة والمشاهدة ، ولم يتقدَّموا نحو المسلمين ، يفرقونهم ، أو يحولون بينهم وبين ما يفعلون . .

وإذا كان هذا الخروج المفاجىء قد أذهلهم ، ومنعهم من

الإقدام على تصرفٍ سريع وفوري ، فإنَّ رَدَّة الفعل ، قد جاءت حثيثة تنبعث من الحقد الدفين في نفوسهم . . وها هي ردة فعلهم تظهر عنيفة ، وهم يتنادون فيما بينهم على وضع الحجارة وحزم الشوك في طريق عودتهم ، وعلى إتيان أي فعل لا يجعل لابن عبد الله سبيلاً لغلبتهم وإظهاره عليهم . . فيندفعون يحملون الحجارة ، يقذفون بها الصفَّين وهما عائدان ، تتبعهم الجماهير المحتشدة ، وتتواثب على رشق المسلمين بالحجارة ، وحَثْوِ رؤ وسهم بالتراب والرمال ، وقَذفهم بمواعين النفايات والأقذار ، وضربهم بالأشواك والْعِصيّ . .

نعم لم يعد المشركون يحتملون هذا المنظر المؤذي ، ولم تعد عندهم قوة على الصبر ، فاندفعوا في هيجانهم ذاك ، ينالون من المسلمين ، إيذاءً ، وينهالون سباباً وشتائم ، ويسمعونهم تهديداً ووعيداً . .

ووقَع ما وقع على المسلمين من جراء هذه الهجمة العاتية ، فلم يحفلوا بما أصاب أجسادهم من ضرر ، بل كان كل همهم أن يدفعوا الضرر عن رسول الله بمنهجهم ، ولذا لم يبادروا إلى دفع الأذى عن أنفسهم ، ولا إلى إبداء أية مقاومة ، لتلك الجماهير العمياء الغاضبة ، ولم يفروا ولم يتضعضعوا ، بل حافظوا على تماسكهم ، وعلى استقامة صفَّيهم ، حتى أمرهم الرسول العظيم بالإسراع في العودة ، كي يتحاشوا ما أمكنهم هذا الإيذاء ، وحتى لا تزيد الإصابات التي وقعت بينهم ، وأدَّتْ إلى جرح العديد منهم . .

وعمل المسلمون بما أمرهم به الرسول ، فأسرعوا يحثُّون خطى

العودة ، راضين بما يصيبهم ، طالما أن الغاية التي أرادوها قد تحققت وخرجوا بدعوتهم مؤمنين ، صادقين ، ولتكون لهذه الدعوة انطلاقتها . .

وإنها والحق يقال ، كانت انطلاقة ميمونة ، جاءت ثمرة جهد طويل ، وتفكير عميق ، وتصميم ثابت . . فقد خطَّط لها الرسول العظيم لتكون انطلاقة ناجحة ، وأن تستمرّ بنجاحها حتى يتم أمر الله تعالى ويُظهر دينه ولو كره الكافرون ، ويكفي هذه الانطلاقة نجاحاً حتى الآن ، أن الحق والباطل قد تقابلا وجهاً لوجه ، ولأول مرة منذ مبعث الرسول ﷺ عدوّين متضادّين : الحق ها هنا في صفّي الإيمان وأصحابه ، والباطل هناك في جموع الشرك وأعوانه . .

عادَ المسلمون ، ودخلوا دار الأرقم بن الأرقم ، وغايتهم المحافظة على تكتلهم ووحدتهم ، فلا يتفرق جمعهم في ساعة ، تغتنمها قريش فرصة سانحة ، فتثب عليهم ، آحاداً وجماعات ، في وثبةٍ رعناء لا يعرف مداها إلاَّ الله ، ولا تكون نتائجها إلاَّ توقف الانطلاقة ، وتقهقر الدعوة ، ولو لفترة من الزمن . . ولكن ، إن بقوا مع بعضهم البعض ، فإنَّ قريشاً لن تنال منهم مثلَ ما تتوخّى ، فهي تعرف أنهم كلهم فتيانٌ أشدّاء ، مستعدون للقتال والتضحية في سبيل دعوتهم ، وقد تقف من ورائهم بطون قريش ، بدافع العصبية والحمية ، فينشب بين تلك البطون قتالٌ ، تكون عواقبه وخيمة لا محالة على الجميع . .

نعم كان المسلمون يعرفون هذه الأمور ، ويدركون أن قريشا لم

تدبّر بعد قتالاً عامّا ، ومع ذلك فقد آثروا اليقظة والتحسُّب ، فعادوا إلى دار الأرقم بن الأرقم ، مجتمعين . . ووقف على حراستهم في الخارج بعض شبابهم الأشاوس ، وفي طليعتهم حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب (رضي الله عنهما) وغيرهما من ذوي البطش والعزيمة ، يمتشقون السيوف ، ويلبسون الدروع ، وهم على أهبة الاستعداد لحماية من في داخل الدار ، والذود عنهم . .

ومرَّ ذلك اليوم ، ولم تقدم قريش على فعل طائش ، فصدق ظن المسلمين . . ولعلها اكتفَتْ بما أوقعت في المسلمين من إصابات ، فانصرف زعماؤها تأكلهم الحسرة ، ويقتلهم الحنق ، كي يتدبَّروا خطة جديدة ، تأتي كردَّة فعل شديدة على هذا الخروج الذي قام به المسلمون اليوم . .

ولم تلبث تلك الخطة أن ظهرت ، عندما تنادى رؤوس المشركين وائتمروا فيما بينهم ، وأقروا بأن يبعثوا إلى الحبشة بجواسيس ، ينشرون بين المهاجرين من المسلمين ، أنَّ اتفاقاً قد جرى بين قريش ، وبين رسول الله ﷺ فلا يتعرّض لآلهتها بالشتم ، ولا يذكرها بسوء ، مقابل أن تكفَّ هي - قريش - عن التعرُّض للمسلمين وإيذائهم . .

وبالفعل ، انطلق جواسيس الكفار إلى أرض الحبشة ، وقاموا بالدور الذي رسمه لهم زعماؤهم ، حتى شاعَ بين المسلمين خبرُ الاتفاق الملفَّق الكاذب ، واقتنعَ بعضهم بضرورة العودة إلى مكة . .

ولكنَّ هذه الحيلة التي انطلَتْ على بعض المسلمين ، ووقعوا

في شراكهم ، لم يصدقها إخوانهم الآخرون ، بل أدركوا أنها كذب من قريش ، ترمي من ورائه إلى أغراض بعيدة ودنيئة . . فقاموا يحاولون ثني من اعتزم العودة بالعدول عن رأيه ، ولكن محاولاتهم لم تجد آذاناً مصغية ، إذ كان الحنين إلى الوطن ، ورؤية الأهل والأقارب ، قد أثَّرتْ في نفوسهم كثيراً ، فودَّعوا الباقين ، ورجعوا إلى الديار مؤملين . . ولكنهم ، ما ان وصلوا إلى مشارف مكة ، حتى وجدوا أن الأمر على خلاف ما توقعوا . . فلا اتفاق بين النبي ﷺ والمشركين ، ولا مهادنة أو شفقة من قريش على المسلمين ، بل كانت خطة مدبّرة ، حتى يعود المهاجرون إلى مكة ، فلا يبقون بعيدين عن الإيذاء الذي تشتدُّ به قريشٌ على المسلمين ، ولا يفلتون من العذاب الذي توقعه بهم . .

نعم عاد أولئك النفر من المهاجرين ، وكلهم آمال في هدنة وسلم ، فلم يجدوا أنفسهم إلاَّ وهم في مأزق أشد ضيقاً من الهجرة ، فوقعوا في الحيرة ، لا يدرون ماذا يفعلون . . .

ورأى البعض ، أن لا مناص من العودة على أعقابهم إلى أرض الحبشة ، إذا أرادوا الفرار بدينهم ، في حين آثر البعضُ الآخر عدم العودة تلك والنزول إلى مكة ، في حماية بعض المشركين وجوارهم . . ولذلك دخل عثمان بن عفان في جوار أبي أحيحة سعيد ابن العاص بن أمية ، ودخل أبو حذيفة بن عتبة بجوار أبيه ، في حين دخل عثمان بن مظعون بجوار الوليد بن المغيرة . .

وإذا كان لهذا الجوار الذي اختاره بعض المهاجرين دوافعه

العديدة والمعروفة ، فإنهم لم يلبثوا أن أدركوا ضرورة ترك هذا الجوار ، الذي لم يكن إلاَّ نتيجة تغلُّب المشاعر على العقل ، والضعف على القوة في النفس . .

وزاد في قناعتهم ، أن ما آتوه لم يكن صواباً عندما صاروا يروحون ويجيئون في مكة آمنين ، بينما يتعرض إخوانهم الآخرون ، لأشدّ أنواع المساءة والإهانة ، ولأشنع أساليب الأذى والعذاب . . فراح كل منهم يعمل على إبراء نفسه من الجوار الذي اختاره . .

وها هوذا عثمان بن مظعون ، أبرز مثال على أولئك العائدين من الهجرة ، وما يعانونه من ندم ، إذ لا يستطيب مقاماً بعد عودته من الحبشة ، وفي النفس لومٌ دائم ، فيحدِّث نفسه وهو يقول : « أأكون في ذمة مشرك ! . . إن جوار الله أعز وأبقى » . .

ويعتزم عثمان ترك جوار من أجاره ، فيذهب باحثاً عن الوليد بن المغيرة حتى عرف بأنه في مجلس لقريش ، وقد جاءت جماعة منها تستمع إلى لبيد بن ربيعة ينشدها شعراً . . فدخل عثمان ، واتخذ مكاناً ثم راح يصغي مثل الآخرين ، وهو ينتظر نهاية المجلس ليرد على الوليد جواره . . ومرَّ بعض الوقت ولبيد يعتزُّ في إنشاده ، حتى قال : « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » . .

ويطرب عثمان لذكر الله ـ عز وجل ـ فيرفع صوته بالاستحسان وهو يقول للبيد : ـ صدقت . .

ويبتسم لبيد لقوله ، فيكمل قائلاً :

« وكل نعيم لا محالة زائل » . .

وهنا ينتفض عثمان ، فيصرخ في وجه الشاعر :

ـ كذبت هذه المرة . . فنعيم الجنة لا يزول . .

وتعقل الدهشة لسان لبيد ، فيتوقف عن إنشاده ، ويتطلع إلى القوم المحلّقين حوله ، ويقول مستهجنا :

ـ يا معشر قريش ! . . ما كانت مجالسكم هكذا . . ولا كان السفه من شأنكم . . وما كان جليسكم ليؤذى . . فمتى حدث هذا ؟ ! .

وكأنما قول لبيد هذا قد أعادَ الوعي إلى المجتمعين ، بعدما كانوا مأخوذين عن أنفسهم بجمال شعره ، فدبَّت الفوضى فيما بينهم ، واختلط اللغط ، وعلَت الضجة بين حانق على عثمان بن مظعون وغير آبهٍ له ، حتى تقدم البعض من لبيد ، يطيِّبون خاطره ، ويبعدون عنه الشعور بالانتقاص من كرامته ، وهم يرجونه ألَّا يعير اهتماماً لهذا الصعلوك (عثمان بن مظعون) فإنه لا يعدو كونه أحد أتباع محمد بن عبد الله الذين فتنهم بقوله ، فباتوا يصدِّقون كل ما يقول . . وأنه لولا جوار الوليد بن المغيرة له ، لما تجرّأ على الدخول إلى مجلسهم ، وقيامه بما فعل . .

ولكنَّ ذلك لم يهدّىء من غلواء غضب لبيد ، مما جعل نفراً من الحاضرين ، يقومون إلى عثمان ، فيضربونه ويشتمونه ، حتى آذوه في جسده أذية قوية كان أشدها لطمة أصابت عينه بورم برز من فوره

فغطّاها . . ولم يتوقفوا عنه إلاَّ عندما تقدم الوليد بن المغيرة يدفعهم وهو يقول :

ـ دعوه فإنه من ذوي الأرحام فينا . .

ولكنه لا يلبث أن يقول لعثمان ، شامتاً ، ساخراً :

ـ ما كان أغناك عن هذا . .

وهو يريد بذلك الأذى الذي أصاب عينه . . فيلتفت إليه عثمان ويقول :

ـ بل والله إنَّ عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في سبيل الله . .

ويسكت قليلاً ثم يقول له : وإني أرد عليك جوارك منذ الساعة يا عماه . . .

ولا يجعل الوليد للغضب مكانا في نفسه وهو يسمع ما يقوله له عثمان ، بل يرى أن ما أصابه يدعو للإشفاق عليه ، فيطلب إليه أن يهدأ ، وأن لا يتسرَّع في رد جواره ، وهو يقول له :

لا تتعجَّل يا ابن أخي ، فلك إن شئت أن تبقى في جواري . .

ولكنَّ عثمان يرفض ذلك بأنفة وإباء ، فيرد عليه قائلاً :

ـ لا ! . لن أعود إلى غير جوار الله ، ولن أستجير بغير الله . .

تلك كانت المكيدة التي نصبتها قريش للردّ على خروج المسلمين ، إذ خدعت المهاجرين منهم إلى أرض الحبشة ، حتى يعودوا ؛ فلما عادوا هجمت عليهم هجوم الذئب الكاسر على فريسة

وقعت بين مخالبه ، تحاول تمزيق شتاتهم ، حتى تفتنهم عن دينهم ، ويرتدوا إلى عالم الشرك والوثنية . . .

ولكنْ هل أوصلتْ قريشاً فعالُها تلك إلى ما تصبو إليه وتشتهي ؟ .

لا ! . .

فإن العذاب ، والأذى ، والاستهزاء ، صارت عند المسلمين مثل خُبزهم اليومي . . يعرفون أنه لا يمكن أن يطلع عليهم نهار ، أو يحل بهم ليل ، إلَّا وسوف يلقون فيه أنواعاً كثيرة من شدة قريش وصلافتها . .

ورغم كل ما كانوا يعانون ، وما يلاقون ، فقد ظلّوا على نهجهم قائمين ، ولدعوتهم متابعين . . لقد كانوا وطَّنوا النفوس على احتمال المصاعب والشدائد ، منذ اليوم الذي دخلوا فيه الإسلام ، وقد عاهدهم الرسول ﷺ على الاحتمال ، وها هم للعهد حافظون ، وفي حمل الدعوة ، والانطلاق بها مستمرون . . وقد انبروا ، بعد التقويم الذي أجروه لخروجهم ، يعملون على نشر تعاليم الإسلام ، سراً وعلانية ، من خلال الاحتكاك الذي بدأوه ، بقريش خاصة ، وبالمجتمع المكي عامة ، حتى يوصلوا تلك التعاليم إلى الأذهان ، علّها تؤثّر في نفوس المشركين ، وتعمل على اقتلاع جذور إفكها وضلالها . . ولكن ، ويا للأسف ، لم يستجب لهم المجتمع المكي حينذاك . .

وهذا أمر طبيعي ، إذ كيف يستجيب ذلك المجتمع الفاسد لنداء

الحق ، وزمام قيادته بأيدي عصبة من الكـافرين ، الـذين ما فتئـوا منذ مبعث محمد ﷺ يجهدون في العمل للقضاء على الإسلام ، ويبذلـون شتى المحاولات ، لمنع انتشـار هذا الـدين الجديـد الذي جـاء يدعـو إليه . .

نعم لم يتمكن زعمـاء قريش من تحقيق غـاياتهم الخبيثـة ، بـل على العكس كانوا يرون أن كثيراً من مكـائدهم وألاعيبهم تـرتد عليهم بـالخسـران ، ممـا يـزيـد في هيجـانهم وانفعـالهم ، ولا يجـدون إلاَّ الأذى ، والخداع ، والعداوة ، والبغضاء ، كوسائل تنفِّس عن حقدهم الدفين على محمد ﷺ ودعوته .

وإنهم ، بعـد انـطلاق المسلمين وخـروجهم عـلانيـةً ، وبعـد الأفعـال الشـديـدة التي لاحقـوهم بهـا ، دون أن تفـلح أو تحـقِّق مقاصدها ، صاروا أشدَّ حقداً وعداوةً . . .

ولكن ماذا عليهم أن يفعلوا بعد ؟ ! . .

الخداع ، المكر ، الاستهزاء ، العذاب . . . كلها استعملوها ، وقاموا بها . .

فهل يستمروا في هذه الوسائل ، وهي بالغة في الشـدة ، فلعلَّها تـوصلهم يومـاً إلى ما يصبـون إليـه ، ويكـون لهم مـا يبتغـون ؟ ! . . نعم ، فاندفعوا في الأذى والعذاب إلى أقصى حدودهما ، حتى تحوَّلا إلى خطر على حياة المسلمين ، وحياة عيالهم وأطفالهم . .

وإذا كان المسلمون يرضون بهذا الخطر يتهددهم ، فإن الرسول

العظيم يرى فيه ظلماً لا يطاق ، وفي الوقت نفسه ، لا سبيل إلى ردِّه . .

ولشدّ ما كان ﷺ يؤلمه أن يراهم يتحملون ، ويصبرون ، ولا ردَّ لهم إلا المضي في الاحتكاك بأهل مكة ، ونشر تعاليم الإسلام .

ولكن تلك التضحية الرائعة ، التي كان يتقبلها المسلمون بكل رضا ، وطيبة خاطر ، ما عادت لترضي محمد رسول الله ، لأنها في الواقع لا تؤتي ثمارها المرجوَّة ، ولذلك كان لا بدَّ من أن يقرر النبي ﷺ ما يراه في صالح المؤمنين . . ولذلك يعود ﷺ فيأمرهم بالهجرة ثانية إلى أرض الحبشة ، تفادياً لتلك المصائب التي تحل بهم ، وتنزل عليهم ظلماً وعدواناً . .

نعم عادَ الرسول العظيم ﷺ يستحثّ المسلمين على الخروج من مكة . .

ويجد المسلمون أنفسهم أمام أمر لا مفرَّ منه ، فيشق عليهم أن يُرْغَمُوا على الهجرة ، ولكن ما يحزنهم أكثر هو فراق نبيِّهم ، وبقاؤه مع نفر منهم في مكة ، يتحمَّلون وحدهم صلافتها وطيشها ، فيأتيه عثمان بن عفان (رضي الله عنه) وفي قلبه حرقة ، وفي عينه دمعة ، وهو يقول له :

- يا رسول الله ، لقد كانت هجرتنا الأولى ، وهذه الثانية التي تأمرنا بها إلى النجاشي ، ولست معنا . .

فيقول له الرسول الأعظم ﷺ :

ـ « أنتم تهـاجـرون إلى الله وإليَّ . . لكم هـاتـان الهجـرتـان جميعا » . .

ويقنع عثمان بما يقوله النبيُّ ﷺ ، فيودعه قائلا :

ـ حسبنا الله ونِعم الوكيل .

وينطلق في هذه الهجرة الثانيـة ثلاثـةٌ وثمانـون رجلاً ، وإحـدى عشـرةَ امرأةً قـرشية ، وسبـعٌ من غير قـريش ، يقصدون جميعهم بـلاد الحبشة ، فراراً بدينهم ، وخوفاً من فتنة قـريش لهم . . ينأون في تلك البلاد عن أعين قريش ، ويبعدون عن ظلمها وعدوانها . .

ويقيم هؤلاء المهـاجرون ، مـع مَن سبقهم في الهجرة الأولى ، أحراراً آمنين مطمئنين إلى جوار ملك عادل ، أكـرمَ وِفادتهم ، وأحسنَ معـاملتهم ، بعدمـا عـرف بـأمـر مجيئهم مـرتحلين عن قـومهم الـذين يُناصبونهم العداوة ، ويُنْزِلون بهم الويلات . .

. . وجنَّ جنون قريش ، وهي ترى المسلمين ينأون عن أذاها ، ويبتعـدون عن رصـد أعينهـا ، ولا يبقى منهم في مكـة ، إلَّا جمـاعـة صامدة ، قادرة على الوقوف في مواجهة عدوانها ، بفضل بـأسها ومنـع العشائر لها . .

. . وزاد في غضب قريش عندمـا علمتْ أن ملك الحبشة ، قـد آوى المهـاجرين ، وأمـر رعيَّته أن تعـاملهم بالحسنى ، فلا يُظلم منهم أحـد ، أو يُعتـدى عليـه ، أو يُبخس حق لـه . . فعـادَ زعمـاؤ هـا يجتمعـون ، ويتشـاورون فيمـا يجب عليهم القيـام بـه ، حتى لا ينعم أولئك المهاجرين بهدأة بال ، أو هناءةٍ بـطيب مقام . . . ولـذلك فقـد

قرروا أن يبعثوا إلى النجاشي برسل من عندهم ، يحاولون إقناعه بطرد المهاجرين من بلاده ، وإعادتهم إلى ذويهم في مكة . . وقد رأوا أن أفضل السبل لذلك ، هو إغراؤه بالمال والهدايا ، يحملها إليه ، رجال منهم ، لهم معرفة به ، وحظوة عنده . .

فراح رجالهم يتبرعون بالمال ، ونساؤهم يقدمن الأساور والحُلِيَّ ، حتى جمعوا منهم الكثير ، فاشتروا الهدايا النفيسة ، وأعدُّوها للتوزيع على بطانة الملك وحاشيته ، بعدما أفرزوا للنجاشي النصيب الأوفَى منها ، ثم عادوا يتداولون في مَنْ يَبعثون ، على أن تكون لديه قوة على الإفك ، وبشرط أن يتمتع بحظوة عند النجاشي ، فما وجدوا أكثر كفاءةً واستعداداً من عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن أبي ربيعة ، تتوفر فيهما تلك الصفات ، ولأنهما قادران على القيام بتلك المهمة .

وحمَل مبعوثا قريش إفكهما واحتيالهما وهداياهما ، وانطلقا إلى بلاد الحبشة ، يزرعان الفتنة في بلاد الملك وفي ديار حاشيته . . فإنهما عمدا بعد وصولهما ، إلى الاتصال ببطارقة الملك ، يقدمان لهم الهدايا ، ويعملان على استمالتهم إليهما ، والاستجابة إلى رغباتهما ، فما وجدا عند أولئك البطارقة إلا القبول والاستعداد ، والوعد بتقديم العون لهما والمساعدة لدى الملك . .

ولم تمض أيام معدودة ، حتى كان البطارقة قد هيَّأوا للقاء موفدي قريش مع النجاشي ، فدخلا عليه ، يقدِّمان هدايا قريش له ، ويتملَّقانه بأشد أنواع الدهاء والخبث ، فارتاح النجاشي لذلك الإطناب

في المديح ، واعتلى فوق عرشه ، يسألهما عما يريدان ، وعمّا جاءا من أجله ، فقال له عمرو بن العاص :

« عفوك أيها الملك العظيم . . إنه قد ضوى إلى بلدكم منا غلمان سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا في دينكم ، بل جاؤ وا بدين ابتدعوه ، لا نعرفه نحن ولا جلالتكم . . وقد بعثنا إليكم فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم ، لتردُّوهم إليهم ، فهم أعلى بهم عيناً ، وأعلم بما عابوا عليهم ، وعاتبوهم فيه » . .

والتفت النجاشي إلى عبد الله بن أبي ربيعة وقال له :

ـ وأنت أيها الرجل ، ماذا تقول ؟ ! . .

فقال له عبد الله :

ـ إني لا أزيد على ما قاله رفيقي يا سيدي ، إنا نرجو عطف جلالة الملك على طلب قومنا ، وردّ أولئك السفهاء إليهم . .

وحارَ النجاشي بما يجيب ، فما كان يعلم عن المهاجرين من مكة إلى بلاده إلاَّ أنهم قوم ضعفاء ، قد لحِقَ بهم الظلم والقهر ، فآثروا الاحتماء بجواره ، نأياً عما يصيبهم وينزل بهم . . ولذلك ارتأى أن يقف على رأي بطارقته وأعوانه ، فقالوا له متآمرين :

ـ تعلم أيها الملك العظيم أن هذَين الرجلَين ما جاءا إلا مبعوثَين من أكبر قبائل جزيرة العرب ، وأكثرها مكانة ورفعة ، وقد بعثهما قومهما إلى عاهل الحبشة المفدَّى ، حتى لا يكون في بلاده نفرٌ من الأعراب مفسدين ، جاؤ وا تحت ستار الهجرة لينشروا ديناً ما عرفناه

من قبل ، وما سمعنا به قط . . فإن هو قدَّم العون لهذين الرجلَين على ما جاءا به ، فذلك من كرم الملوك ونبلهم ، وليست هذه إلَّا سجايا مليكنا العزيز وصفاته . . وإليه يعود الرأي والتدبير .

أُفٍّ لمثل هذا الكذب ، وويلٌ لذلك البهتان ، يفتريان به على ملك عادل ، تملُّقاً ورياء . . لقد فعلت الهدايا فعلها في أولئك البطارقة ، فانصاعوا للرشوة وصاحبَيها ، وتركوا الحقيقة ونزاهتها . . لقد كان الأولى بهم ، أن يقدموا لمليكهم النُّصْح ، فيطلبوا إليه أن يستمع إلى المسلمين ، ويقف على رأيهم ، حتى يأتي حكمه عدلاً وصواباً ، ولكنهم لم يفعلوا ، بل تواطأوا وتآمروا ، فقالوا لسيدهم ما قالوا . . . ولكنَّ ذلك السيد ، لم يأخذ بما أشاروا عليه ، بل وَجَد أنَّ في الأمر مكيدة ودهاءً ، فأطرق يتفكَّر ، حتى إذا اهتدى إلى الحق ، وهو رجل عدل وصلاح ، رفع رأسه ، وصرخ في أعوانه وبطارقته غاضباً :

ـ لقد أخطأتم ولم تصيبوا . . فلا والله لا أسلِّم قوماً جاوروني ونزلوا بلادي ، وقد اختاروني على من سواي ، حتى أدعوهم إليَّ وأعرف من خبرهم ما يطمئنُّ إليه قلبي . . فإن وجدتهم على مثل ما يقوله رَجُلا قريش كان لي شأنٌ معهم ، وإن كانوا على خلافه ، كنتُ لهم مانعاً ، وأحسنتُ جوارهم . . .

ولم يعتم أن أرسل النجاشي في طلب المسلمين . . فلما وصلهم خبره ، اختاروا منهم وفداً على رأسه جعفر بن أبي طالب ، وبعثوهم إليه تلبيةً لطلبه . .

ودَخل وفد المسلمين على عاهل الحبشة ، فسألهم قائلاً :

ـ يا معشر المهاجرين . . لقد جاءني مبعوثان من قريش ، يقولان بأنكم فارقتم دين قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، بل اتَّبعتم رجلاً جاء يدعو إلى الفرقة بين أبناء قومه ، ويعيب عليهم دين آبائهم وأجدادهم ، فماذا تقولون فيما تُتَّهمون به ؟ ! . .

وتقدم رئيس الوفد ، جعفر بن أبي طالب ، يقول له :

« اعلم أيها الملك ، إنَّا كنَّا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الأرحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف . .

نعم ، هكذا كانت قريش ، وكانت معها العرب ، حتى بعث الله ـ سبحانه ـ إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه . . فقد كان طوال حياته أبعد ما يكون عن تلك الفعال الجاهلية ، ولم يُعرف عنه قط أنه أتى واحدة منها . . فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده ، ونخلع ما كنَّا نعبد نحن وآباؤ نا من دونه من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكفّ عن المحارم ، وإراقة الدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزُّور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات ، وأمرَنا أن نعبد الله ، ولا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والعبادة لله تعالىٰ ، وفقّهنا بتعاليم الإسلام ، وحثّنا على اتِّباع مكارم الأخلاق ، فلا نأتي بقولٍ أو فعلٍ إلاَّ في سبيل خير الإنسان ، ورفعته وصلاحه ، فصدَّقناه وآمنَّا به ، واتَّبعناه على ما جاء به من عند الله ، فعبدنا الله

وحده لا نشرك به شيئاً ، وحرَّمنا ما حرَّم علينا ، وأحللنا ما أحلَّ لنا ، فعدا علينا قومنا ، فعذَّبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان ، والتخلي عن عبادة الله ، وأن نعود فنستحلَّ ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا وظلمونا وضيَّقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا إلى بلادك واخترناك على سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا أن لا نُظلَم عندك » . .

فأشرق وجه النجاشي ، وقال لجعفر (رضي الله عنه) .

ـ وهل معك مما جاء به رسولكم عن الله من شيء تقرؤه عليَّ ؟

قال جعفر : نعم .

وتلا عليه سورة مريم من أولها إلى قوله تعالى :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١)

فلما سمع النجاشي ما قرأه جعفر ، زادَ قلبه اطمئناناً ، فسأل البطارقة :

ـ ماذا تقولون ؟ !

فقالوا :

---

(١) سورة مريم ٢٩ ـ ٣٤.

« هذه كلمات تصدر من النبع الذي صدرت منه كلمات سيدنا يسوع . . ».

. . لم يستطع أولئك البطارقة أن يدجِّلوا ويخادعوا ، وكلمات الحق تبين لهم صادقة من لدن عزيز حكيم ، يتلوها مؤمن موقن مثل جعفر بن أبي طالب ، فطَأطأوا لها الهَامَ والرؤوس ، وأقروا بعظمتها وأحقِّيتها ، ولم يجرؤوا إلا على قول الحقيقة ، وقد اختفت من نفوسهم آثار الرشوة ، وطارت من أذهانهم الوعود الفارغة ، لموفدي قريش . . .

نعم لم يكن بإمكانهم إلاَّ تصديق قول الله تعالى ، فانصاعوا إلى الحق ، يقفون ـ رغماً عن إرادتهم ـ بجانب المسلمين ، الذين هم في الأصل بجانب الحق ، وما تلاه رئيس وفدهم لم يكن إلاَّ الحق .

وعلا البشرُ وجه النجاشي ، بعدما سمع من بطارقته ما قالوا فقال بدوره :

« إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة » . .

ثم التفت إلى موفَدَي قريش ، وقال لهما :

« انطلقا ، والله لا أسلمهم إليكما » . .

وانفضَّ الاجتماع من مجلس ملك الحبشة ، وتفرَّق كلٌّ في حال سبيله . .

لقد خرج المسلمون ظافرين ، منتصرين ، وهم يُعْلون كلمة الحق على الباطل . .

بينما ذهب رجلا قريش إلى نزلهما ، وقد أكلتهما الحسرة بأنيابها ، وداسهما الفشل بأرجله ، ليرتميا على فراش الهوان ، حانِقين ، غاضِبَيْن . .

ولكن هل يهدأ بهما المقام ، أو يغمض لهما جفنٌ بعد الذي لقياه ؟

لا ! . لن يذوقا طعماً للراحة ، ولن يطيب لهما مبيت إلاَّ وقد وصلا إلى غرضهما وهو إغواء النجاشي بدفع المسلمين إليهما . . وها هما يقضيان الليل أَرِقَيْن ، يتفكَّران بما يفعلان . .

ورأى عمرو بن العاص أن يستغلَّ حظوةً يأملها بطيب تملُّقه ومخادعاته عند ملك الحبشة ـ وقد كان يعرفه من تردُّده على بلاطه ، فيما سبق عندما كان يأتي إلى هذه البلاد في أعمال تجارية ـ فصمَّم على الذهاب إليه ومقابلته على انفراد ، علَّه يستجيب إلى مطلبه . .

فلما كان الغد ، عاد ابن العاص إلى النجاشي ، فقال له :

ـ إن المسلمين يقولون في عيسى بن مريم قولا عظيماً ، فهم ينكرون عليه أنه ابن الله ، فأرسِلْ إليهم فسلْهم عما يقولون فيه . .

فأرسل النجاشي في طلب المسلمين . . فحضروا وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب (رضي الله عنه) ثانية ، فسألهم النجاشي :

« ماذا تقولون عن عيسى بن مريم ؟ وكيف تنكرون أنه ابن الله ، وماذا تقولون فيه ؟ ! . .

قال جعفر (رضي الله عنه) :

« نقول فيه الذي جاء بـه نبيُّنا . . إنـه يقول : هـو عبدُ الله ورسـولُه وروحُه وكلمتُه ألقاها إلى مريم العذراء البتول » . .

ثم عـادَ يتلو عليـه من سـورة مـريم مـا أعـادَ إلى ذهنـه تـلاوتَـهُ بالأمس ، وتابع قول الله تعالى :

﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ (١)

حتى إذا انتهى من التـلاوة ، أخذ النجـاشي عصـاه ، وخطَّ بهـا على الأرض خطّاً وقال : وقد بلغتْ منه المسرَّةُ أكبر مبلغ :

« ليس بين ديننـا ودينكم أكثر من هـذا الخط » . . ثم أمر ببعض رجال حرسه أن يأتوه بهدايا قريش ويرفضوها ، ويدفعوها إلى عمرو بن العاص وهو يقول له :

« أما أنت يا ابن العـاص ، فعُدْ من حيث أتَيْت ، واحمـل معك هدايا قومك . . فما أخذ الله الرشوة منّي حتى آخذها منكم ، ولا أطاعَ الناس فيَّ حتى أطيعهم فيه ، ولا تعُدْ إليَّ بمثل ما أتيتني به » . .

وخرج عمرو بن العـاص من عند النجـاشي ، يجرّ أذيـال الخيبة مـرة أخرى ، وذهب إلى صـاحبه عبـد الله بن أبي ربيعة ، والاصفـرار يعلو وجهــه ، والامتعـاض يكـاد يقتله . . ورآه صــاحبــه على تلك

---

(١) سورة مريم ٣٤ ـ ٣٦ .

الحالة ، فأدرك ما عاد به من فشل ذريع ، فجلس ينـدب حظّه ، وهـو يلعنُ الساعة التي طلب فيهـا النجاشي الـوقوف على رأي المسلمين ، حتى كان موقفه منه ومن صاحبه ما كان . .

ولم يعـد أمام مـوفَدَيْ قـريش إلاَّ الارتحـال ، إذ لا جـدوى من بقـائهما في أرض الحبشـة ، ولا طائـل فيه ، فـأمْرهمـا قـد افتضـح ، ومهمتهما قد فشلتْ ، فعادا إلى قريش وهما ينقمان ، أكثر ما ينقمان ، على القرآن الكريم ، وخاصة على ما تلاه جعفر على النجاشي ، لأنـه كان السبب الوحيد في فشل مهمتهما . .

نعم لقد عاد عمرو بن العاص وعبـد الله بن أبي ربيعة إلى مكـة وهما يتجرعان كأس المـرارة والحسرة . . عـادا يلقيان قـريشاً بـالفشل الذريع الذي أصابهما ، لتذوقَها قريش كأسَ علقمٍ أشدَّ مرارة من كأسهما ، وخيبةَ أملٍ أقـوى من خيبتهما ، وهي تـرى أن المهمة التي بعثت بهـا هـذين الـرجلين قـد بـاءت بـالفشـل ، كمـا بـاءت من قبـل جميـع محاولاتها ، وسقطت كافة مكائدها التي نصبتها لقتل الدعوة الإسـلامية في مهدها ، ومنعها من الظهـور ، فلجأتْ من أجـل ذلك إلى أسلحـة متعددة :

سلاح استمالة النبي ﷺ وإغرائه بعروض واسعـة (المال والجـاه والسلطان والحكم . .).

وسـلاح التعجيز ، بمـا طلبت إليه أن يـأتي بمعجزات وخـوارق تشهدها بأم العين . .

وسلاح الدعاية ضدّه ، باتّهامه زوراً وبهتاناً بأنه كاهن وساحر ومجنون ، وضد الدين الذي يدعو إليه ، عندما جنّدت النضر بن الحارث ، يقول للناس بأنه يعرف من أخبار الماضي ، وقصص الأمم الأخرى أكثر مما يعرفه محمد بن عبد الله ، ويدَّعي بأنه يأتيه وحيٌ من السماء . .

وسلاح الاستهزاء ، والأذى ، والعذاب ، تصيب به المسلمين كافة ، أسياداً ومستضعفين ، وتُلحِقه بالنبيِّ ﷺ رغم حمايته من بني هاشم وبني عبد المطلب . .

نعم لقد رجعت قريش بعد كل ذلك بالخسران ، ولم تتمكن من الوصول إلى مآربها الدنيئة ؛ وها هم اليوم ـ زعماء الكفر ـ بعد أن أيقنوا أن سبب فشلهم وهزيمتهم في جميع الميادين كان القرآن ، وآخرها في أرض الحبشة ، عادوا واجتمعوا للتآمر على القرآن المجيد، وقرّروا الدخول بحربٍ ضروس مع هذا الذكر العظيم ، فرأوا أن محمداً ﷺ يكثر من الجلوس عند المروة مع غلام نصراني يقال له جبر ، فزعموا أن جبراً هذا ، غلام الفاكه بن المغيرة ، هو الذي يعلِّم محمداً أكثر ما يأتي به ، فراحوا كلما سمعوا منه ما ينبىء عن الماضي ، والدهر الغابر ، وما يحدِّث به عن المستقبل الاتي ، مع أنَّه أُمِّيٌّ لم يقرأ ولم يكتب ، يروِّجون بين الناس لذلك الزعم الباطل ، ويُعلنون أنَّ لدى النصارى من العلم بأخبار الماضي والمستقبل شيئا كثيراً يعلِّمهم إيَّاه أحبارُهم الذين عَرفوه من التوراة والإنجيل . . وجبر هذا هو نصراني ، تعلَّم من تلك الأحبار ، ما يذيعه في الناس . .

ولشدَّة العَنت والضلال ، كـان سيِّد جبـر ، الفاكـه بن المغيرة ، يأتي به ويضربه ضرباً مبرحاً وهو يقول له :

ـ أأنت الذي يُعلِّم محمداً ما يقوله ؟ . .

فيدفع جبر التهمة عن نفسه ويقول :

لا والله ، بـل هـو يُعلِّمني ويهـديني ، وأنـا لا أحسِن إلاَّ قـراءة الكتب الأعجمية . . فنزل في ذلك قول الله تعالى :

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (١)

ولـو تفكَّر أولئـك المشركـون قليلا ، لـوَجدوا سخـافـة ادِّعـائهم وزَعمهم . فلغـةُ جبر الـذي يُضيفون إليـه التعليم ويحيلون إليه القـول أعجمية ، ولذلـك لم يقل القـرآن الكريم « عَجَمِيّـاً » لأن العجمِي هو المنسـوب إلى العَجَم وإن كان فصيحـاً ، و « الأعجمي » هو الـذي لا يفصح وإن كان عربياً . . ألا نرى أن « سيبويـه » كان عجميـا وإن كان لسانه لسان اللغة العربية ؟ ! . .

وهنا يأتي التساؤ ل المستغرب ، والمستهجن في آن معاً ، كيف وصل الغباء بأولئك القوم ، في الافتراء على القـرآن الكريم بـأن الذي يعلِّمه لمحمد هو جبر وهو أعجميّ ؟ . فهل يمكن لجبر هذا الأعجمي أن يعلِّم كلاماً لا يستطيع الإنس والجن أن يعـارضوا منـه سورةً واحـدةً فما فوقها ؟ ! . .

---

(١) سورة النحل ١٠٣.

ولما تبيَّن لأولئك المشركين أن زعمَهم هذا وترويجهم له ، لم يأتِ بأية نتيجة ، جاء نفر منهم إلى محمد ﷺ وفيهم الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وقالوا له :

ـ « يا محمد ، هل تأتي بكتاب ليس فيه ترك لعبادة اللات والعزَّى ، ومناة ، وهبل ، وليس فيه عيب لها ، وتسفيه أحلام من يعبدونها ! . . فإن فعلت فخيراً ، وإن لم تستطع ، فبدِّله بكلام من عندك ، تذكر فيه آلهتنا بخير ، فنذكر نحن إلٰهك بخير ، أو نعبد ربَّك سنة ، وتعبد آلهتنا سنة » . .

ونزل قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝ ﴾ (1)

وألحُّوا عليه باللَّجاج أن يأتي بقرآن غير القرآن الكريم ، أو أن يبدِّله بقول من عنده ، فأنكر الرسول ﷺ عليهم ذلك إنكاراً شديدا ، وبيَّن لهم أن القرآن هو قول الله تعالى ، يَنزل عليه بالوحي ، فلا يمكنه ، أن يأتيَ بمثله ، وأنَّ ما يدْعونه إليه ، كفرٌ وعناد . . فنزل في ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ

(1) سورة الكافرون ١ ـ ٦ .

إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ (١)

ودعا الرسول الكريم ذلك النفر من قريش ، وتلا عيهم هذه الآيات التي نزلت عليه من الله تعالى ، فاستكبروا وكانوا من الظالمين ، ثم عرضوا عليه مجددا ، أن يؤتي الله ـ سبحانه ـ على يدَيه معجزاتٍ حسِّيَّة ، تجعلهم يصدِّقونه ، ويؤمنون بما بعثه الله به ، وقالوا له :

« يا محمد ! . . إذا كنت غير مستعد أن تبدِّل قرآنك ، وتريدنا أن نؤمن بك رسولاً ، فَلِم لا تطلب إلى ربِّك أن يحوِّل جبال مكة ذهبا ، أو أن يأتي بالملائكة يشهدون على نبوَّتك . . وإن لم تفعل ، فستكون مفتريا حين تقول : هذا من عند الله . . . وفي ذلك نزل قول الله تعالى :

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ (٢)

---

(١) سورة يونس ١٥ ـ ١٧ .

(٢) سورة هود ١٢ ـ ١٤ .

وعادوا يلحون في اللَّجاج ، وهم يقولـون : في نفسنا ريب ممـا تقول ، فهل عندك جديد غير ما قلت ، مما يجعلنا نؤمن ؟ . .

وراح الرسول الكريم ﷺ يذكِّرهم بما أبانَهُ لهم من قبل . وكيف أن القرآن هو من عند الله . وقد أنزل الله تعالى ردّا على ادِّعـائهم بأنـه قرآن افتراه ، أن يأتوا بعشر سور مفتريات ، فـظلُّوا على عنادهم وغيِّهم لا يؤمنون ، وذريعتهم أنهم ما زالوا في ريب مما يقول لهم ، وأنه هـو الذي يقول القرآن ويفتريه ، فنزل في ذلك قول الله تعالى :

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [1]

فهل بعد أروع من هذا القرآن ؟ ! . .

وهل بعد رحمة الله الواسعة من رحمة ؟ . .

لقد نزل قول الله تعالى يتحدّاهم بصورة سـافرة أن يـأتوا بسـورة واحدة تُشبه القرآن ، وأن يستعينوا بمن يشـاؤون من ذوي العلم والفقه في اللغة ، والبيان في القول ، ولكنهم غير قادرين على أن يأتوا بسورة واحدة . .

. . وبعد هذا التحدي ، وبيان عجزهم وعجز أهـل الأرض ومن فيهـا من الإنس والجن ، طلب الله ـ سبحـانـه ـ إليهم النُّـزوع عن الكفر ، حتى لا يكونوا وقودا لنار جهنم .

---

(١) سورة البقرة ٢٣ ـ ٢٤ .

فهل بعد هذه العظمة عظمة ، وبعد هذه الرحمة ، رحمة !. .

إنها رحمة الله القادر ، الجبار ، المهيمن ، يفسح في المجال الأرحب لعباده وخلقه ، ولو كانوا من الكافرين ، كي يرعَوُوا عن الضلال ، ويهتدوا إلى الحق ، ثم يتوب عليهم ، وتشملهم الرحمة الواسعة ، وتكون لهم جنة عرضها السمٰوات والأرض ، فسبحان الله الرحمن بعباده ، الرحيم بأوليائه . .

إنها عظمة القرآن وهو ينبِّه الآدميين إلى سوء فعالهم ، ويأمرهم بأن يتَّقوا ولا يجدِّفوا على الحقيقة ولو كانت الحقيقة إعجازاً لهم ، ولا يستطيعون الإتيان بمثلها على الإطلاق ، نعم يأمرهم أن يتَّقوا العذاب الأليم الذي ينتظرهم من جراء تجديفهم ذاك . . . فتلك هي الآية البيِّنة الكائنة أبَدَ الدهر في ضمير الإنسان ، وفي ضمير الوجود ، علَّ هذا الإنسان يهتدي بالقرآن ، وينضوي تحت لواء الإسلام !. . .

أما قريش ، فرغم كل ذلك التسامح الذي يأتي به القرآن ، ورغم كلِّ الأدلة والحجج القاطعة التي يدفعها بها ، فقد أوصدت دون نفوسها كل منافذ الحق ، وأغلقت دون قلوبها كل نفاذٍ لنور الإيمان ، وطمستْ على عقولها بالضلال والوهم ، ولم تستجب لدعوة محمد بن عبد الله ﷺ رغم ما كانوا يتلو عليها من آيات القرآن الكريم البيِّنات ، ورغم ما كان يقدمه لها من العظات والبلاغات . .

نعم لم تستجب له ، بل ظلَّتْ على جهالتها ، ممعنة في الكفر ، باذلة كل ما تستطيعه من جهود لمحاربته ، وهي تعتبره خارجاً عليها وعلى دينها ودين آبائها . . ومن أجل ذلك ظلَّتْ طوال هذه

السنوات تثابر على مكافحته واضطهاده ، بينما ظلَّ هو ﷺ يدعوها إلى الحق بالحُسنى ، ويجادلها بالتي هي أحسن ، ويذكِّرها بأنه رسولٌ من الله ، لها ، وللناس كافة . .

المقاطعة والحصار في شعاب مكة

كانت قريش تستميتُ في مقاومة محمد ﷺ وفي محاربة الدعـوة التي يحمل . . وقد بلغتْ في تلك المقاومة ، وتلك المحاربة ، أعلى درجـات القسوة ، واستخـدمت في ذلك كـل أفانين الافتـراء وضـروب التعنت وكـان آخرهـا التجديف على القـرآن . . . فهل عنـدها بعـد ما تستعمله من أسلحة أشد دهاء وخبثاً ؟ ! . .

وماذا أمامها بعد ، وقد ثبت لديها باليقين القاطع أن كل ما قامتْ به كان محض أباطيل ، ولم يوصلها إلى الغاية الرئيسية التي ترجوها ؟ نعم هل بعدُ لديها ما تفعله ، إلَّا أن تقرَّ لمحمد بن عبد الله ﷺ بصدق ما يدعوها إليه ، فتكون لها بهذا التصديق هداية إلى نور الحق ، الذي ما فتىء النبيُّ ﷺ يحاول أن يـطرح ظِلالـه على وجودهـا ، ويعمل على أن يجـذب إلى هذا الحق نفـوسها الحـائرة حتى يخلِّصهـا من حقدهـا الـدفين ، ويشفيَها من أمـراضها القـاتلة ، فتنضوي تحت لـواء الإيمان بوحدانية الله تعالى ، وتدخل في الإسلام راضية قانعة ؟ . .

نعم ، هـل بقي أمام قـريش إلاَّ هـذا السبيـل ، الـذي يـدفعهـا

للتفريق بين ألوهية الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، وبين خرافة وأوهام أوثانها ، تتخذها آلهة لتقرِّبها زُلفىٰ إلى الله ؟ ! . .

لا . . فليس أمامها إلا هذه الحقائق تهتدي إليها ، لو كانت لها عقول غير عقولها ، ولو كانت لها نفوس غير نفوسها ، ولو كان في صدورها قلوب غير قلوبها . . ولكن ، وهي قريش ، وفيها تلك الطغمة الباغية من الذين يتسلمون زمام الزعامة فيها ، فإنها على كفرها باقية ، وعلى وثنيتها قائمة ولم يحن الوقت الذي تدفعها فيه قوة الإسلام إلى الإذعان والرضوخ لأمر الله . . . ومن أجل ذلك ، فإنها لم ولن تُهادِن في حربها الضروس لمحمد ﷺ ودعوته ، ولم ، ولن تعدم الوسيلة والحيلة تبتدعها ، والأسلوب والطريقة تخترعهما ، للمضيِّ في تنفيذ سياستها الرعناء التي توصلها لتحقيق مآربها الوهمية . .

وها هي قريش قد رأت أن ما استعملته من وسائلها مع النبي وصحبه ، من المسالمة والإغراء ، ومن السخرية والاستهزاء ، ومن الإرهاب والتعذيب ، ومن الدعاية والتهويش لم يُجْدِها نفعاً ، ولم يصرف الناس عن دعوة الإسلام ، ولم يَحُل بينها وبين الظهور والانتشار . ورأت قريش أن فشلها في معالجة الأمور قد زاد الدعوة الإسلامية قوة وانتشاراً، وخاصة بعد فشلها في بلاد الحبشة ، وبعد سقوط إشاعتها في النِّيل من القرآن ، فعليها إذن أن تعتزم اتِّباع نمط جديد من أنماط عداوتها ، فتفكِّر في مقاطعة شاملة ، لا تقتصر على محمد ﷺ وعلى أَتباع الإسلام وحسب ، بل تشمل بني هاشم وبني عبد المطلب ، لأنهم يحمون محمداً ويمنعونه منها . .

ولكي تنفِّذ ما اعتزمته من مقاطعة ، عقدت مؤتمراً ، وكلَّفتْ منصور بن عكرمة ، أن يكون كاتب صحيفة المقاطعة التي تعاقد فيها شيوخ الكفر ، وأسياد الوثنية على قطع كل الصِّلات مع بني هاشم وبني المطلب ، فلا ينكحون منهم ، ولا يُنكحون إليهم ، ولا يبيعونهم ولا يَبْتاعون منهم شيئاً ، ولا يأخذون منهم أو يعطونهم قولاً أو عملاً ، إلا إذا تخلّوا عن محمد وخذلوه ، وعادوا إلى ندوة قريش ، يقرُّون بما تُقِرّ ، ويأتمرون بما تأتمر . . .

وبعد الانتهاء من هذا التعاقد الخبيث ، أمروا بصحيفتهم تلك التي وقّع عليها أربعون رجلاً من قريش ، فعلَّقوها في جوف الكعبة ، توكيداً بذلك الأمر على أنفسهم . . .

فإلى ماذا كانت ترمي قريش من سياسة المقاطعة هذه وما كانت مآربها ؟ ! . .

لقد كانت مآربُ أولئك الدهاة الخبثاء من قريش خبيثة حقاً ، لعلَّ عقد مقاطعتهم قد يكون أشدّ أنواع الأسلحة التي يستخدمونها لمحاربة محمد ﷺ والإسلام . فهو سوف يؤدي حتماً إلى إخراج حماة محمد ﷺ من بني هاشم وبني المطلب من مكة ، ولا يكون أمامهم إلَّا التشريد في البلدان والامصار ، فيرتاحون من نفوذهم إلى الأبد ، أو قد يلجأون إلى البراري والفلوات ، بلا رزق يصيبون ، أو طعام وشراب يحصلون عليه ، فيموتون جوعاً وعطشاً . . . وإلَّا فإنَّ أولئك الحماة سوف يتخلّون عن محمد ﷺ ، بعد أن يفقدوا القدرة على الاحتمال ، فيرجعون إلى قريش راضخين للأمر الذي فرضته

عليهم ، ومستعدين لتنفيذ كل ما تطلبه منهم . .

هذا بالنسبة إلى بني هاشم وبني عبد المطلب . . أما محمد بن عبد الله ، فسوف يجد نفسه وحيداً ، بلا نصير أو معين ، وعندها لن يكون أمامه إلاَّ الإذعان ، والتخلي عن الدين الذي يدعو إليه . . أو إنه على أبعد تقدير ، سوف يبقى مشرَّداً ، ولا يعود يجتمع إلى الناس فتضمحل الدعوة التي يحمل رويداً رويداً ، ويزول خطرها على مكانة قريش . . وعندها تعود أوثانها إلى سابق عهدها من العِزَّة والمجد . .

نعم ، تلك كانت تصورات قريش من سياسة المقاطعة التي أقرَّتها ونفَّذتها . . ولكن هل حققت هذه المقاطعة أغراضها فعلاً ؟ ! . .

لا ، ونعم . . .

لا ، من حيث الجوهر . .

أما من حيث الظاهر ، فنعم . .

فمن حيث الجوهر ، لم تؤدِّ سياسة المقاطعة ، إلى القضاء على الدعوة الإسلامية ، لأن المسلمين ظلُّوا على إيمانهم ثابتين ، ومن يمنعون محمداً ﷺ ظلُّوا على عهدهم قائمين . . إذن فالدعوة باقية ، ولا يمكن لإرهاب قريش ، ولا لظلم شياطينها ، كما لا يمكن لأية قوة في العالم ، أن تقدر على غلبة أمر الله سبحانه وتعالى . .

فكيف إذا كان هذا الأمر ، هو الإسلام ، الرسالة السماوية التي أرادها الله في نهاية مطاف الرسالات إلى الأرض ، الرسالة الأخيرة

الكاملة المتكاملة ، التي لا تحمل للإنسان ، والوجود ، والكون بأسره ، إلاَّ معاني الحقيقة الكبرى ، التي طالما رام الإنسان أن يكون له مثلها ، وطالما استعجل الإنسان بعثها ، ولكنَّ الله سبحانه أرادها أن تنزل إلى الأرض بعد أن يولد محمد بن عبد الله ﷺ الذي يكون هو حاملها ومبلِّغها . .

فهل يمكن لسياسة قريش الخرقاء أن توقف تلك الدعوة التي تحمل رسالة الإسلام ؟ ! . .

وهل يجوز على حامل الدعوة أن يرضخ لضغوط تلك السياسة الرعناء ؟ ! . .

أما والله لا يكون هذا ولا ذاك . . فإنه رسول الإسلام ، عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، وهو كلما اشتدَّ عليه الكفر وأعوانه ، كلما ازداد صلابةً وإيماناً . . وإن في مقاطعة قريش تلك ، لَدافعٌ جديد له على الثبات والعزم ، فلا تزيده المقاطعةُ إلاَّ اعتصاما بحبل الله ، وتمسّكاً بدين الله ، وتصميماً على إظهار أمر الله . . .

وإن مقاطعة قريش تلك ، لَدافعٌ جديد أيضاً للمسلمين ، لأنها لا تزيد هؤلاء المؤمنين ، إلاَّ إيماناً ، وصلابةً وصبراً . .

وها هم يحتملون مشاق المقاطعة ، وفظاعة قسوتها ، ويقنعون بما قدَّر الله لهم من ألم وعذاب واضطهاد ، في هذه المرحلة من حياة دعوتهم ، التي بها يحيون ، ومن أجلها يعملون ، ويتحملون . .

نعم لم يُقْضَ على الدعوة الإسلامية كما توهمت قريش ، ولا اضْمحَلَّ أمرها ، طوال سنوات ثلاث ، استمرت خلالها المقاطعة ، واستدام تجويع المسلمين . . وبذلك خسرت قريش في الحقيقة ، ما ظنته في الواقع أكثر أعمالها ربحاً . . هذا في جوهر الأمر الذي قامت به قريش ، فما نالت منه ما توهمت ، بينما أينعت للإسلام ثمرات جديدة في الصبر والثبات ، والاحتساب عند الله ـ سبحانه ـ ولكن ، وفي ظاهر عمل قريش ، فقد بدا أن المقاطعة قد حققتْ أهدافها المرسومة من العنت والظلم ، إذ استطاعت قريش ، أن تُخرِج الرسول الكريم والمسلمين ، ومعهم بنو هاشم وبنو المطلب من مكة ، فيذهبوا إلى الشعاب في ظاهر مكة ، يلوذون بتلك الفلاة من استبداد أولئك الكفار واضطهادهم ، فيمضون ثلاث سنوات كاملة في المقاطعة التامة والعذاب والهوان ، إذ كانوا يلاقون من أنواع الجوع والحرمان أشدها ، ومن أشكال الحاجة والعوز أكثرها . . .

لقد تركوا ديارهم ، وخلَّفوا فيها الأرزاق والمواشي ، إذ منعت عليهم قريش حملها أو سوْقَها حين خروجهم . . ولم يحملوا إلاَّ بعض القوت والزاد الذي ما لبث أن نفذ بعد مدة وجيزة . . وكيف لا ينفذ ، وهم أعداد كثيرة ، ضمت جمع المسلمين ، وبطني بني هاشم وبني المطلب ، بشيبهم وشبابهم ، وبنسائهم وأطفالهم . . . وقبعوا في شِعابهم ، منعزلين عن مكة ، وعن العرب ، عزلة تامة . .

فأية حالة وصلت بهؤلاء في تلك الشعاب ، عندما كانت تشتد عليهم الرمضاء المحرقة ، فلا يجدون إلاَّ الرمال الملتهبة ، والصخور

المشتعلة ، أفرشة تكوي أجسامهم النحيلة ، فلا تزيدهم إلَّا تضوُّراً وضعفاً وجوعاً . . .

وكيف استطاعوا أن يطيقوا البرد القارس ، والصقيع القاتل ، في تلك الشعاب ، أيام الشتاء ، والأمطار تنزل عليهم مدراراً ، ولا غطاء ولا وطاءَ إلَّا بعض الكهوف الضيِّقة ، يُدخلون إليها النساء والأطفال والشيوخ ، بينما يقبع الباقون خارجها ، يلتحفون السماء ويفترشون الغبراء ، تحت وطأة تلك الأمطار والغيوم السوداء الداكنة .

فكيف يمكن أن نتصوَّر حالة الشيوخ ، وقد وهن منهم الجسم ، فلا يحتملون الجوع والعطش ؟ . . وكيف كانوا يحتملون الحر والقر؟ .

أم كيف نتصوّر حالة الأمهات ، وأطفالهن يذوون على صدورهن ، فيتحولون من زهرات يانعة نضرة ، إلى أكداسٍ من الأعواد الجافة ، لا حياة فيها ولا رمق ، إلَّا بعض لهاث يتصاعد من الصدور بشق النفس ؟ . فكم ذوى من أولئك الأطفال بأعوادهم الطرية التي لا تحتمل الجفاف واليباس الذي داخلهم من العطش والجوع ، وفقدان الحليب والطعام ! . .

لقد هانت الدنيا على أولئك الناس ، فراحوا يفتِّشون عن وسيلة يحتمون بها مما يصيبهم ، فلم يجدوا إلَّا الحجارة يضعونها على بطونهم الخاوية اتِّقاء للآلام التي تنهش في أمعائهم ، أو الخرق البالية يعصبون بها رؤوسهم ، لتخفيف الأوجاع التي لا تفارقهم . . .

تلك كانت حال أصحاب الشعب . . . ونبينا صلى الله عليه وآله هو أول من شدَّ حَجَر المجاعة على بطنه ، فما اشدها من حالة كانوا فيها لا يجدون مأوىً ولا ملجأ ، ولا غطاء ولا فراشاً ، ولا يقعون فيها على ماء أو طعام ، اللهم إلاَّ بعض ما كانت تنبت الأرض من أعشاب صالحة للأكل ، يسدُّون بها رمق أكثرهم حاجة ، وأشدهم دنّواً من ملاقاة الحتوف . . .

نعم لقد هانت عليهم الدنيا !. . وهم في غالبهم ، من بني هاشم ، وبني المطلب ، أصحاب الثروات ، والمواشي ، وذوي البيوت المفتوحة على مصاريعها ، يُقْرون الضيف ، ويُطعمون الجائع ، ويَسوسون الناس ، فلا أمر يُقطَع إلا برضاهم ، ولا شيء يُقام في مكة إلاَّ بإرادتهم . . فهم أسيادٌ أعزاء ، أصحاب مناصب الكعبة ، وأصحاب المقام في مكة. . . فهكذا كانوا حتى طردتهم قريش إلى الشِّعاب ، ووصلوا إلى تلك الحالة المزعجة . . أفلا تهون عليهم الحياة ؟ !. . .

ولكن ، ورغم كل ما حلَّ بهم ، ورغم كل ما أصابهم ، فقد كان لهم الشرف الأعلى ، إذ ما زالوا يحافظون على العهد . . فقد عاهدوا شيخهم أبا طالب على منع محمد ، وها هم يلاقون من ذلك العهد ما يلاقون ، فلا يحيدون عنه ، ولا يتخلون عن كلمة أعطوها . . فهل تجد أكثر منهم اعتزازاً وشرفاً ومكرمةً ؟ !. .

لقد تخلوا عن كل مباهج الحياة في سبيل عهدهم ، وشارفوا

على الممات من جراء هذا العهد ، فكانوا على الدهر نبراس الوفاء والالتزام . . . ويكفيهم شرفاً ما كان يفعله سيدهم أبو طالب ، كما يروي عنه ابن كثير في تاريخه ، إذ كان إذا أخذ الناس مضاجعهم طلب إلى رسول الله فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك جميع من في الشعب ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو أخوته فاضطجعوا على فراش رسول الله أو دعا الرسول أن يأتي مكاناً آخر ينام فيه محافظة على سلامته .

أولئك هم أصحاب الشعاب ، الأسياد الذين طردتهم قبيلتهم قريش ظلماً وعدواناً . . .

أما محمد بن عبد الله ﷺ الذي صار ، منذ يوم مبعثه رسولاً للناس كافةً ، مثلاً أعلى للمسلمين ، وقائداً حكيماً لهم ، فهل كان يمكن أن يعايش المحنة التي أصابت أصحاب الشعب إلَّا على هذا الأساس ، وعلى أنه النموذج الذي يُحتذى في الصبر والرضا بقضاء الله عند رفع كلمة الله والدعوة إليها ؟

فماذا كان يفعل ، وهو من عرف عنه ، طوال حياته ، أنه الكريم ، الشفوق ، العطوف ، ذو النفس العالية ، وصاحب الصفات السامية ؟ ! . . .

فماذا كان يفعل هذا الإنسان ، وهو يرى مَن حوله ، وأصحابه ، ومانعيه ، يتحملون ما يتحملون ، ويعانون ما يعانون ؟ ! . .

إنه كان ﷺ يعايش آلامهم ، فتهون عليه آلامه . .

ويرى جوعهم وعطشهم وحرمانهم ، فتزول من نفسه كل أسباب الجوع والعطش والحرمان . . يجلس وحيداً حزيناً . متألماً ، فيضرعُ إلى الله متوسِّلاً ، راجياً ، أن يزيل عن هذه الجماعة التي تحيط به ، كل كرب وضنك ، وأن يخلِّصها من تلك المأساة المروعة التي حلَّت بها . .

ويأتي إلى هؤلاء المظلومين ، معتصراً آلامه في نفسه ، مبدياً ابتساماته المشرقة ، التي كانت تزيل عنهم الهمَّ والألم . . . لا يتركهم أبداً ، بل يظل بينهم ، مواسياً ، مشجِّعاً ، مبيِّناً مكرمة الصابرين عند الله ، وفضائل المعذَّبين في سبيل الله . . .

لا يدَع ساعة من نهار إلَّا ويمنِّيهم بالفرج والخلاص ، وهو يضرب لهم الأمثال عن مخلوقات الله في الأرض ، فيذكِّرهم بأنَّ أضعف المخلوقات يرعاها ربّ السماء وصاحب العرش العظيم ، الذي له ملك السمٰوات والأرض ، فهو يرى ويعلم كل ما فيها ، ومن فيها ، وييسر الرزق لجميع المخلوقات . . ومن أجل ذلك ، كان على الإنسان أن يتوكَّل على الله وحده ، وأن يسلم أمره إليه ، فلا يخاف بعده غائلة الجوع والفقر ، ولا يهاب حرمان أيام وسنين . .

نعم كان رسول الله ﷺ يبيِّن لأصحاب الشِّعب تدبير الله ـ سبحانه ـ في مخلوقاته ، ويأمر المسلمين بأن يكون لهم هذا النهج من التوكُّل ، ويقول لهم : « لو توكلتم على الله حق التوكل ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً وتروح بطاناً » . .

وقد كان لهم ﷺ المثال الرائع على الاحتمال ، وعلى التفاني والتضحية ، مثله في عملِه ، كمثله في قوله ، فقد كان ، قبل أن ينفذ الزاد منهم ، أو كلما رزقهم الله من زاد غيره ، يترك نصيبه ، لمن هو أحوج منه إليه ، ويكتفي بالقليل القليل ، وأحياناً كثيرة يرضى بكسرة من الخبز اليابس يسد بها جوعته .

وبمثل هذا النهج النبوي ، من العطف ، والشفقة ، والرحمة ، وبمثل ذلك الدأب من المواساة ، والتشجيع ، والتوكُّل على الله تعالى ، أمكن له أن يعين أصحاب الشعب على بلواهم ، فكان الزاد المعنوي الذي يستقون منه قوة الاحتمال وقهر الشدة ، ومصارعة الضيق والشظف .

تلك هي الأحوال والأوضاع التي كان عليها أصحاب الشعب من جراء سياسة المقاطعة التي فرضتها عليهم قريش ، والتي وصلت إلى حد يفوق التصوُّر من حصارٍ أين منه اليوم أي حصار آخر قد تفرضه بعض الدول على دولة معيَّنة ، عقاباً لها على سياسة تنتهجها ، حيث تبقى منافذ العالم الأخرى مفتوحة على هذه الدولة المحاصرة ، فلا يموت شعبها من الجوع ، بل لا يقبل العالم الآخر أن يميت هذا الشَّعب بسبب السياسات المتضاربة ، هذا في حين أن سياسة المقاطعة التي اعتمدتها قريش ، قد جعلت أصحاب الشِّعب معزولين عن سائر الناس ، فلا اتصالات معهم ، لا اقتصادية ولا سياسية ولا اجتماعية، حتى ولا علاقات مع غيرهم إطلاقاً . . اللهمَّ إلَّا ذلك الاختلاط البسيط ، الذي كان يسمح فيه للمسلمين ، بالنزول ايام

الأشهر الحُرُم ، إلى الكعبة . . . والذي كان يجد فيه الرسول الكريم سبيلاً للخروج من عزلته المفروضة عليه للاتصال بقبائل العرب التي تفِد مكة في المواسم ، ودَعْوَتِها إلى دين الله الواحد . . فكان عليه وعلى آله الصلاة والسلام ، ينزل مع بعض الصحابة ، كل يوم من أيام المواسم ، ثم لا يلبثون أن يعودوا في المساء إلى الشعاب ، دون أن يتمكنوا من حمل شيء معهم ، إذ كانت قريش لهم بالمرصاد ، تمنعهم وتحول دون قيامهم بأية عملية بيع أو شراء ، أو قبول هدية ، أو سداد دين . . .حتى إذا انقضت أيام الأشهر الحرم ، منع عليهم النزول إلى مكة ، وظلّوا في الشِّعاب على أحوالهم المتردية . . .

وإذا كانت قلوب أسياد الكفر من قريش ، قد وصلت إلى هذا الحد من القسوة والفظاظة ، فإنها وجدت في هذه القسوة راحة لها ، وفي الفظاظة شماتة بأولئك المحاصرين ، فطاب لها العيش بدونهم ، وهنأت ببعادهم، فصار حديثهم عن وهن أصحاب الشِّعاب وضعفهم ، وبات تندرهم بالمعاناة التي يلقونها ، فلا ينقضي مجلس إلاَّ بعد أن يرتوي أولئك الكفرة الفَجَرة من الشماتة والسخرية اللتين تُطربان آذانهم ، وتَشفيان غليلَ أحقادهم . . .

على أن تلك القساوة على طولها واشتدادها لم تعد لتروق لبعض القرشيين ، وهم يعلمون من أمر أصحاب الشعب ما يعانون ومن أحوالهم ما يلاقون . . فقد أخذت الشفقة تتسرّب إلى بعض ذوي النفوس الرحيمة منهم ، وراحت تقض مضاجعهم ، وتؤرِّق لياليهم ، وهم يرون أنهم يروحون ويغدون في رغد من العيش والهناءة

والاستقرار في حين أن هناك في شِعاب مكة ، أناساً يكاد الجوع والعطش يقتلهم . . .

ومن جراء تلك الشفقة ، وبفضل ذلك الإحساس بالعطف ، أخذ بعض أبناء قريش ، يبعثون إلى منْ في الشِّعاب بالزاد والماء ، خفية عن عيون القوم ، وهم يستعملون في ذلك الدواب وسيلة لهم ، يُحمِّلونها ما يقدرون عليه ، ثم يقودونها تحت جنح الظلام إلى طرق الشعاب ، ويتركونها تسير على غير هدى ، فيمسك بها المحاصرون ، وينتفعون بما تحمِل . . .

ومن أبرز أولئك الأشخاص الذين لامسَتْ قلوبهم الرحمةُ ، كان حكيم بن حزام بن خويلد . . فلم يهُنْ عليه أن تبقى عمَّته خديجة بنت خويلد ـ زوجة رسول الله ﷺ ـ بدون طعام ، وهي صاحبة الفضل عليه وعلى كثيرين غيره ، فأخذ ، ومعه غلام ، بعض القمح يريد إيصاله لها في ظاهر الشِّعب ، ولكنَّ سوء الحظ يطالعه ، فيلتقيه أبو جهل ـ عمرو بن هشام ـ ويعرف بأمره ، فيستوقفه ، معترضاً ، مهدِّداً ، متوعداً بأن يفضح أمره أمام قريش ، ثم يقول له :

ـ ويحك يا حكيم بن حزام . . واللات والعزَّى لا تبرح حتى أفضحك . .

ولكنَّ سوء الطالع يذهب عنه ، إذ بينما هو في جداله مع أبي جهل ، يمرُّ بهما أبو البختري بن هشام ، فيتوقف ليعرف ما يدور بين

هذين الرجلين ، حتى إذا وقع على جليّة الأمر ، تقدَّم من أبي جهل وقال له :

ما بالك يا أبا الحكم تمنع الرجل من طعام لعمته يريدها به ؟.

فقال له أبو جهل : وكيف لا أمنعه ، وفيه خروج على أمر قريش .

فقال أبو البختري : طعام كان لعمته عنده فبعثت إليه فيه ، أفتمنعه أن يأتيها بطعامها ، ثم أي ضررٍ في بعضٍ من قمح يذهب بها حكيمٌ إلى جماعةٍ عزلتموها عن كل أسباب الحياة ، حتى وصل بكم الجور لأن تميتوهم جوعاً ؟ ! . . . خلِّ سبيل الرجل يا أبا الحكم !. .

قال أبو جهل : فليموتوا ، وليذهبوا جميعهم إلى الجحيم ولن أدع الغلام يحمل لهم قمحاً . .

قال أبو البختري : ما هكذا الظن بقريش !. . خلِّ سبيل الغلام ، وليرْحل في شأنه . .

قال أبو جهل : لن أدعهُ يفعل . .

وإزاء هذا اللؤم من أبي جهل ، وهذا الإصرار في العناد ، لم يجد أبو البختري إلَّا أن يتناول لحى جمله ، ويضربه بها ضربة شديدة ، فشجه ووطئه وطأً شديداً . . ومن تحت الضربات والوطء ، تخلَّص أبو جهل ومضى هارباً وهو يكيل لأبي البختري ولحكيم ابن حزام ، أشنع أنواع الشتائم وأقبحها . .

لقد فرَّ أبو جهل من بين يدي أبي البختري بن هشام ، ليذهب

ويـذيع في مكـة خبـر حكيم بن حـزام ، فيـأتي بعض مجـرمي قـريش إليه : يلومونه ، ويتوعدونه بـالإيذاء والقتـل إن حاول أن يعيـد الكرَّة ، ويوصل إلى المسلمين في الشِّعاب أي شيء . .

ولكنَّ خبـــر ابن حـــزام دفـــع كثيـــرين من غيـــر المجـــرمين ، والحانقين ، إلى التفكُّر بـالقيام بمثـل ما فعـل ، وهم يشعرون فـداحة العمل الذي يقترفه زعماء قريش بحق المحاصرين . . وكان هشام بن عمرو أكثر الناس عطفاً على أولئك المظلومين ، إذ لم يُبْلِ أحدٌ أحسن من بلائه في الشفقة والرحمة ، فقد كان يأتي بالبعير ، فيحمِّله الطعام والبر ، ثم يسير في جـوف الليل حتى يصـل إلى الشعاب ، وهنـالـك يخلع خطامه من رأسـه ، ثم يضربـه على جنبه ، بعـد أن يوجهـه نحو المحاصرين ، فيسير البعير ، حتى يحسَّ به بعضهم ، فيأخذوه يقتاتون بحمله ، فإذا لم يبق منه شيء ، قاموا وذبحوه ، حتى يؤمِّنوا زاداً ليـوم آخر . .

وكان هشام يكـرر عمله هذا كلمـا سنحتْ له الفـرصة ، دون أن يفتضح أمره . . وربمـا فعل غيـره مثل فِعله ، ممـا جعل المحـاصَرين يبقـون على قيد الحيـاة ، ولا يموتـون جوعـاً وعطشـاً كما رغب طُغـاةُ قريش وجبابرةُ الكفر . .

نَقضُ الصَّحِيفَة

وظلَّ هذا الوضع على حـاله ، حتى قـاربتْ سنواتٌ ثـلاث على الانتهاء ، كان خلالها البعضُ من قريش يحاسب نفسه على ما اقتـرفوه

من خطأ بحق أولئك المحاصَرين ، وهم منهم إخوان وأصهار وأبناء عم ، حتى وصلت المحاسبة عند بعضهم إلى الشعور بالذنب ، فقام نفرٌ قليلٌ منهم يسعى إلى نقض الصحيفة التي كانت ما تزال حتى هذا الوقت معلَّقة في جوف الكعبة ، دون أن يجرؤ أحد على أخذها أو المساس بها . .

وكان أول من سعى لنقض الصحيفة هشام بن عمرو . . وذلك عندما رأى أنه كلما طالت مدة الحصار ، كلما استدامت قريش على إمعانها في غلواء التشدُّد والتعنُّت ، ودون أن تجديها المقاطعة أي نفع ، أو تعود عليها بأية فائدة ، سوى التشفي . من محمد ﷺ والمسلمين ، والاستعلاء على بني هاشم وبني المطلب ، الذين صمَّموا على البقاء بجانب سليل بني هاشم حتى النهاية . . فتساءل هشام في نفسه : « إذن ولم البقاء على تلك المقاطعة » ؟ ! . .

وراح هشام يسعى لدى غيره في أمر النقض ، فذهب إلى زهير ابن أبي أمية بن المغيرة المخزومي ، وكان ابن عمة محمد ، عاتكة بنت عبد المطلب ، بل كان معروفاً بغيرته على النبيِّ ﷺ واحترامه ومحبَّته له . .

وذهب إليه هشام يحدِّثه فيما فكَّر به ، وهو يقول له :

يا زهير ! . . أرضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنعم بمباهج الحياة ، وأخوالك حيث علمتَ في الشعاب يكاد الجوع يقتلهم ! . . أما إني أحلفُ بالله ، لو كانوا أخوال عمرو بن هشام ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ، ما أجابَك إليه أبداً . .

وتفكر زهير قليلاً ، ثم قال لهشام :

ـ ويحك يا ابن العم ، فماذا تراني أصنع وما أنا إلا رجل واحد . . والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمت إلى تلك الصحيفة أنقضها . .

قال هشام : قد وجدت رجلاً ! . .

قال زهير : ومَنْ يكون ؟ .

قال هشام : أنا . .

قال زهير : ابْغِنا ثالثاً . .

قال هشام : سوف أجده ، فانتظرني . .

وذهب هشام إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، وكان له صديقا حميماً ، فقال له :

ـ أرَضيت أن يهلك بطنان من بني عدي وأنت شاهد على ذلك وموافق ؟ أما والله لئن أمكنتموهم من هذه ، لتجدونهم إليها منكم سراعاً . .

وتساءل المطعم عما عساه أن يفعل ، وهو رجل بمفرده . . فأخبره هشام بأن هنالك غيره ، ولما سأله عن من يكون ، قال له : « أنا » . . عندها طلب المطعم أن يكون معهما رجل ثالث فهما لا يكفيان للإقدام على هذا العمل الخطير ، فأخبره هشام بأنه وجَدَ الرجُل الثالث ، وسمّاهُ له . . فصمت المطعم قليلاً ثم قال :

ـ وثلاثة نفر لا يكفون . . نريد رابعاً .

فقال له هشام : انتظرني ، وسوف أوافيك به . .

ثم اتَّخذ طريقه إلى دار أبي البختري بن هشام ، وعَرَض عليه مسعاه ، فسأله أبو البختري ، دون أن يخفي دهشةً أخذته ، وهو يقول :

ـ عَجَباً من أمرِك يا هذا . . أوَتجد أحداً يعين على ما ترجوه ؟ ! . .

وكانت دهشة أبي البختري أشد من ذي قبل ، وهو يسمع هشاماً يقول له :

ـ ولِمَ لا ! . . أم لعلَّ الطيش قد ذهب بحجى الرجال ، فلم يعُد أحد يتفكَّر إلاّ بما يريده بعض جبابرة قريش وعتاتها . .

قال له أبو البختري : اخفِض صوتك يا رجل ، وأخبرني مَن يُعين على نقض الصحيفة ! . .

قال له هشام بن عمرو : إن قُمتَ لها فأنا عونُك ، ومعنا زهير ابن أبي أميَّة ، والمطعم بن عديّ . . قال أبو البختري : لو تكون معنا عصبةٌ أخرى . .

قال هشام : ذلك لن يكون . . ولكنني سأجد رجالاً آخرين إن استطعت . .

راح هشام يبحثُ بين القوم ، عمَّن يساعده في أمره ، فلم يرَ أقرب إليه من زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد ، فجاءه وكلَّمه ، مذكِّراً إيّاه بالقرابة التي تربطه بالمحاصرين ، وبأن للقرابة حقوقاً يجب

الحفاظ عليها وصونُها ، فـوجد عنـدهُ قبولاً واستعـداداً ، ولكنَّه أبى إلاَّ أن يعلم مَنْ هم الآخرون ، فسمّاهم هشام له ، ثم تركه ، وراح يفتِّش من جديد على من يعينـه في مسعاه ، فـوجَدَ أن ليس أحـداً يملك عزماً مثـل الذي وجـده عند أولئـك الأفذاذ ، فعـادَ إليهم واحداً ، واحـداً ، يدعوهم للحاق به إلى أعلى مكة . . واستجـاب لذلك النفرُ القليـل ، وذهبـوا إلى خـطْم الحجـون حيث اجتمعـوا ، وتعـاهـدوا على نقض الصحيفـة ، على أن يكون زهيـر بن أبي أمية هـو أول من يبدأ بـالجهر فيما اعتزموه . . .

وأقبـل الصبـاح ، فغـدا أولئـك النفـر ، حسبمـا اتَّفقـوا ، إلى الكعبـة ، فـطافـوا مـع بعضهم سبعـاً ، ثم وقف زهيـر بين النـاس ، يدعـوهم إلى سماعه ، فـأقبلوا عليه ، حتى إذا صـاروا جماعـةً ، قال لهم :

ـ « يا أهل مكة ! . . إسمعوا وعُوا . .

إنَّـا نـأكـل الـطعـام ، ونلبس الثيـاب ، وننعم بـأسبـاب الـدنيـا وأطـايبها ، وهنـاك في الفلاة ، بـلا مأوى ولا طعـام أو شراب ، وبـلا فراش وغطاء ، بنو هاشم وبنـو المطلب ، هلكى . . لا يَبتـاعون ، ولا يُبتـاع منهم . . أرَضيتم أن يكون أهـل لكم في هذا المـأزق الكَرِب ، وأنتم عنهم غافلون ، غير عابئين ، ولا مهتمِّين . . أتراكم قد نسيتم بأنَّ هـاشماً كـان يـطعم النـاس في سنـوات الجـدب والجفـاف ، ويحمي أهلكم من الجوع والهلاك ، حتى إذا قام أحدٌ من سليلته يدعـو إلى ما يدعو ، تضافرتم عليه جميعكم ، تذيقـونهم مرّ العـذاب وسوء الهـوان

في مقاطعة أردتموها قاتلة !. . لا والله ، لن أقعد حتى تُشَقَّ تلك الصحيفة القاطعة الظالمة . . ». .

وعلا اللغط بين القوم ، ودبَّ بينهم الشِّقاق ، لأنهم ظهروا بين مؤيد ومعارض لقول زهير بن أمية ، حتى إذا رأى أبو جهل بأن الأمر قد ارتدى طابع الجدِّيَّة ، وسمع هشام بن عمرو يدعو إلى شقِّ الصحيفة ، صرخ أبو جهل في وجه هشام :

ـ خسئت وكذبت يا هذا ، والله لا تُشَق الصحيفة . .

وهنا انبرى أصحابُ النقض ، ينفِّذون ما اتَّفقوا عليه ، فقال زمعة بن الأسود ، رادّاً على أبي جهل :

ـ بل أنت الكاذب يا ابن هشام ، والله ما رضينا كتابتها حين أردتم ذلك . .

وقال أبو البختري : لقد صدق زمعة ، فنحن لا نرضى بما كُتِبَ في تلك الصحيفة ، ولا نقرّ شيئاً قد فرضوه علينا قوةً وإكراهاً . .

وقال المطعم : إن زمعة وأبا البختري ما قالا إلَّا حقّاً ، وكذب من قال غير ذلك . . وها أنا أبرأ إلى الله من تلك الصحيفة ، وما كُتب فيها . .

لقد تضافر أولئك الرجال على أبي جهل يسفِّهون رأيه ، فحاول أن يشقَّ وحدة الرأي التي طلعوا بها ، ولكنه لم يُفلِح ، إذ سرعان ما رأى الجمع قد بُهتوا ، وظلوا في أماكنهم حائرين ، لا يدرون ماذا يفعلون ، وعلى أي سبيل يتجهون ، فقال في نفسه :

« هذا أمر قد قُضِيَ بليل ، وتشاوروا فيه بغير هذا المكان » . . .

وفي تلك الأثناء ، دخَلَ المسجدَ أبو طالب وبرفقته أخوه حمزة ابن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، وبعض شبان المسلمين، جاؤ وا من الشعب لأمر بعثهم به الرسول الكريم ؛ فلما رأوا تلك الجماعة متحلِّقة حول زهير بن أبي أمية ، وأبي جهل ـ عمرو بن هشام ـ تقدم أبو طالب يسأل الجماعة قائلاً :

ـ « أما تُخبرونا يا قوم ما أنتم فيه من جدال ؟ ! » . .

قال زهير : لم نعُد نرضى بصحيفةٍ ما كُتبت إلاّ في غفلةٍ منّا وطيش . .

قال أبو طالب : يا سبحان الله ، والله ما قدمتُ من الشعب إلاّ وأنا أحمل خبرَ تلك الصحيفة إلى قريش ! . . .

قال أبو جهل : وما هو خبرك يا شيخَ بني هاشم . .

قال أبو طالب : أرى أن يجتمع زعماء قريش كلهم هنا ، حتى أبلِّغهم بما بعثني به ابن أخي محمد بن عبد الله في شأن هذه الصحيفة . . .

وذاع الخبرُ في أرجاء مكة كلها ، يحمله نفرٌ ممن كانوا في المسجد يستمعون ، وقد ذهبوا يبلِّغون كلَّ من يلقَوْنه دعوة أبي طالب للاجتماع بهم في الكعبة . . فظنَّ البعض من قريش أن شيخ القبيلة قد جاء يحمل إليهم خبر الاستسلام والرضوخ لرأيهم ، بينما أوجس البعض الآخر خيفةً من مجيئه ، وهم يعلمون مقدار صلابته ، وتمسكه

برأي يتخذه ؛ ومن أجل ذلك جاؤ وا يتدافعون نحو المسجد الحرام ، وفي نفس كل منهم شتّى الظنون ، حتى إذا اجتمع الملأ من قريش ، قامَ فيهم أبو طالب خطيباً ، فقال :

ـ يا معشر قريش ، لقد نزل جبرائيل الأمين على ابن أخي محمد وأعلمه بأمرِ الله تعالى في صحيفتكم . . وها أنذا مع هؤلاء الفتيان قد جئناكم موفَدين من محمد ، حتى إذا وصلنا وجدنا فتياناً شجعاناً من أبنائكم قد سبقونا إلى ما جئنا من أجله ، فتبارك هؤلاء الفتيان ، الذين رغبوا في رفع الظلم عنّا ، نحن الذين ما عهدونا إلاّ نصراء للمظلوم على الظالم ، وأعواناً للحق على الباطل . . وهذا ما يجعلنا نطمئن إلى مسعاهم ، ويجعلكم أنتم ترعوون وتعودون عن ضلالكم . . ولكن ما نريده الآن هو أن تسمعوا الخبر الذي جئناكم به بأمر صحيفة المقاطعة . .

فقالوا هاتِ ما عندك يا أبا طالب ! . .

فقال لهم :

ـ إن ابن أخي محمداً قد أخبرني بأنَّ الله أرسل على صحيفتكم الارضةَ فأكلَتْ ما فيها من قطيعة رَحِمٍ وظلم ، وتركَتْ اسم الله تعالى . . فإن كان صادقاً علمتم أنكم ظالمون لنا ، قاطعون لأرحامنا . وإن كان كاذباً ، علمنا أنكم على حق وأنّا على باطل . . فماذا ترون في هذا يا معشر قريش ؟ ! . .

ونزل عليهم الخبر بخلاف ما كانوا ينتظرون . . ولكنهم أقرّوا بعد التشاور فَتحَ الصحيفة ، وكأنهم يسلّمون سلفاً ، بأن النتيجة سوف

تكون لصالحهم ، إذ لا يمكن لأرضة أن تأكل كل ما في الصحيفة ، ولا تترك إلا جزءاً يسيراً من رأسها، وهو الجزء الذي كُتِبَ عليه عبارة « باسمك اللهمَّ » التي كانوا بها يستهلون مواثيقهم الهامَّة . . وبمثل هذا الظن ، ارتضوا بفتح الصحيفة ، فقالوا لأبي طالب :

ـ لقد قبلنا بما عرضت يا أبا طالب . .

وتوجه أحدهم إلى جوف الكعبة ، فسحب اللُّفافة التي كانت فيها الصحيفة ، ثم أتى يشقها أمام الجميع . . . ولكم كانت دهشة زعماء قريش شديدة ، حين وجدوا أن الصحيفة في داخل اللفافة قد أُكِلَتْ برُمَّتها إلاَّ فاتحتها حيث اسم الله تبارك وتعالى ما يزال وحده باقياً منها . . فأمسك أبو طالب بهذا القسم اليسير منها ، وراح يدور به على المجتمعين ، فرداً فرداً ، حتى إذا طاف عليهم ، وشاهدوا بأم العين ، صِدق ما قاله لهم ، وما بعثه به ابن أخيه محمد بن عبد الله ، وقف شيخ القبيلة ، وقال لهم :

ـ أرأيتم يا معشر قريش أنكم أوْلى بالظلم والقطيعة منا . . . والله ما كنا لنُقدم يوماً على مثل ما أقدمتم عليه ، ولا أن نستسيغ هوانَكم بمثل ما رضيتم هواننا . .

ونكَّسَ زعماء المشركين رؤوسهم، دون أن يقولوا له شيئاً . . ثم مرَّت هنيهة على تنكيسهم فرفع أحدهم صوته ـ ولم يعد قادراً على لعق الحسرة التي أصابتهم ـ فقال لأبي طالب :

ـ إنما تأتوننا بالسحر والبهتان . .

فقال له أبو طالب :

ـ ويحك أيها المجدّف الكاذب . . أتجرؤ على مخالفة الحقيقة وهذه آثار أسنان الأرضة بادية فيما تبقى من الصحيفة . . لقد خسئت في ادِّعائك الضالّ ، فاصْمُتْ ولا تعدْ إلى مثل هذا الإفك الذي تفوَّهتَ به ، وإلاَّ قطعتُ أنفاسك بسيفي هذا » . . .

وعلا الوجوم وجوه جبابرة قريش ، فلم يعُد يجرؤ أحدهم على التفوُّه بكلمة واحدة . . فقد توافقوا منذ لحظات مع أبي طالب على تحديد ظُلم من يظهر ظُلمهم وبغْيُهم . . وها هم يظهرون أنهم هم أصحاب الظلم والصلافة ، فهل يُبدون شيئاً يزيد في خزيهم وبهتانهم ؟ . إنه ليكفيهم عاراً ما فعلوه ببني هاشم وبني عبد المطلب ، وما عدوا به عليهم ، فهل يَقدرون على المضيِّ في المقاطعة ؟ ! . .

لا . . لم يعد ذلك ممكناً ، وقد انتصرت عليهم الأرضة ، فتفرقوا إلى بيوتهم ، يلوذون بأنفسهم من خزيٍ وعارٍ أذَلاَّهم . . في حين ذهب أولئك النفر الذين سَعَوا في نقض الصحيفة إلى بثِّ الخبر في أنحاء مكة ، وسَرْدِ خبر الأرضة ، وفي نيتهم ألاَّ يبقى أمام المتعنِّتين مجال للتعنُّت والتشبُّث بالباطل . .

أما أبو طالب وفتيان المسلمين الذين كانوا برفقته ، فقد عادوا مسرعين إلى الشِّعاب ، ليزفُّوا إلى أهليهم خبر نقض الصحيفة ، وزوال الشدَّة عنهم ، وليدعوهم للعودة إلى مكة ، مرفوعي الرؤوس ، عالي الهمم . . ولم يستطع أبو طالب أثناء عودته في الطريق ، أن يمنع

نفسه من التأثُّر ، فجاشت قريحته ، فقال في نقض الصحيفة قصيدة منها هذه الأبيات :

وقد كان في أمر الصحيفة عبرةٌ متى ما يُخَبَّرْ غائب القوم يَعجَب

محا الله منها كُفرهم وعُقوقَهم وما نقموا من ناطق الحقِّ مُعربِ

فأصبح ما قالوا من الأمر باطلاً ومن يختلقْ ما ليس بالحقِّ يكذب

فانتهت المقاطعة ، وخرج من كانوا في الشِّعاب إلى مكة عائدين ، فأتاهم أصحاب الأمس نادمين ، آسفين ، ما عدا رؤوس الشرك ، الذين يدَّعون زعامة بطون قريش ، فإنهم لم يُقبِلوا على بني هاشم ولا على بني المطَّلب مرحِّبين ، بل ظلّوا على بعادهم عنهم ، طالما أنهم يحمون محمداً ويمنعونه . . .

وهكذا عاد المسلمون إلى ديارهم في مكة ، ليتابعوا الدعوة بعزيمة أمضى ، وبثبات أشدّ من ذي قبل . . وكان يمكن أن يُعذروا لو استكانوا فترة من الزمن ، يستروحون فيها بعض الراحة لشدة ما عانوا خلال تلك السنوات الثلاث المتواصلة ، أو يتفرغون خلال مدة إلى طلب الرزق للتعويض عما فاتهم . . لكنهم دعاةٌ ، ومسؤولون أمام الله ، وهم يتحمَّلون هذه المسؤولية ، ويمشون على النهج الذي رسمه القرآن الكريم للرسول ﷺ ولهم ، وذلك في قوله تعالى له :

﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ (١)

---

(١) سورة الزخرف ٤٣ ـ ٤٤

ولذلك فلا الراحة ، ولا الرزق ، ولا مطالب الحياة الدنيا بأسرها ، توازي عندهم كلمة تقال لله وفي سبيل الله . . .

فما أسمىٰ هذه الدعوة !. وما أرفع هذا اللقب الذي يحملونه !. إنهم أصحاب رسول الله ﷺ وحاملو مشعل الدعوة الإسلامية ، أعظم دعوة للتفكُّر في الكون والوجود والإنسان ، وأعظم رسالة للخلاص من موبقات الدنيا ومفاسدها ، فهل يركنون إلى راحة ، ولو كانوا متعبين ، ونداء الحق ما زال ملحّاً ، يدعوهم إلى العمل ؟ . .

وهل يرتضون مهادنة لأنفسهم ، والكفار من حولهم ما يزالون على عنادهم مكابرين ، وفي النيل منهم ممعنين ؟ ! . . .

لا . . فإنهم مسلمون : ويحملون الإسلام . . وكفاهم بذلك عزّةً ومكرمةً . . عزّة في النفوس تقوّي عزائمهم . . وكرامة في الحياة تزيد صلابتهم ومثابرتهم . .

نعم عادَ رسول الله ﷺ ومعه المسلمون ، بعد حصار الشعاب ، إلى ممارسة نشاطاتهم السابقة ، في الدعوة إلى دين الله ، وفي حثّ الناس على تقبُّل الإيمان ، والاهتداء إلى الحق ، فازداد عددهم أكثر من ذي قبل ، وازداد تفتح الأذهان على دعوة الإسلام . . وبهذا التفتّح اتّسع نطاق الدعوة حركةً ، وعملاً ، وأسلوباً ، وطريقةً . .

ولكن ، وبمقدار ما كان لهذا النطاق أن يتسع ويمتدّ ، بمقدار ما

كان الاصطدام مع قريش يحتدم . . ومن خلال ذلك يحصل التعنُّت والصدّ للدعوة من قِبَل المجتمع المكي ، كما يحصل الصراع حول سائر الأفكار والمعتقدات الرئيسة الجديدة . .

ذلك أن الدعوة الإسلامية ، كانت تحمل بنفسها أسس الصراع والمكافحة مع أفكار قريش ومعتقداتها ، فهي تقوم على الدعوة إلى وحدانية الله وعبادته وحده لا شريك له ، في حين أن عقيدة قريش تقوم على عبادة الأوثان والأصنام ، وتتخذها زُلفىٰ تقرِّبها إلى الله . . كما أن الدعوة تأخذ بزمام سفينة المجتمع لكي ترسوَ بها على قواعد حياتية جديدة ، تعمل على اقتلاع النظام الفاسد القائم في ذلك المجتمع بما يتناقض مع وجود قريش ، ومكانتها الاجتماعية . .

ومن أجل ذلك اشتدَّ الصراع في هذه الحقبة من تاريخ الدعوة الإسلامية ، ولا سيما بعد خروج المسلمين من الشِّعاب ، إذ لم يعد لَدَى قريشٍ أشدَّ من سلاح المقاطعة ، وقد استخدمته ، فما فتَّ في عضد المسلمين ولا أضعفَ علانيةَ دعوتهم ، فكان حريّاً بهم ، أن يشنّوا ذلك الصراع الفكري الذي قاموا به ، وإن لاقى اصطداماً بأفكار قريش التي تقوم في الأصل على أسس وقواعد حياتية سلبية في معظمها ، بما يجعلها تتعارض وأفكار الإسلام وتعاليمه . . وكان عون المسلمين الأكبر في هذا الصراع المحتدم ، القرآن الكريم ، فهو يبيِّن ـ بصورة جليَّة ـ التعارضَ القائم ، فَيُنْحي على الكفار باللائمة ، ويَنعتهم بصراحة ، أنهم وما يؤمنون به من أفكار ، وما يدينون به من معتقدات ، أكوامٌ من الهشِّ التافهِ الذي مصيره الزوال في نار الجحيم

المحرقة ، وذلك منصوصٌ عليه بقوله تعالى :

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[1] . ثم يَشُنُّ عليهم هجوماً عاتياً في أنماط عيشهم، وما اعتادوا عليه من ربا وفواحش وعادات اجتماعية بالية، كي يجتثها من الجذور، ويقتلعها من الأعماق، فيقول لهم : ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾[2] . ثم يبيِّن لهم خسران الذين يطفِّفون الكيل والميزان ، ويتوعدهم بقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝﴾[3] ذلك أنه كان من عاداتهم السيِّئة عدم إيصال الحقوق لأصحابها من خلال التعامل بالبيع والشراء، الذي كان يتم في الاسواق العامة بين بائع جملة وبائع مفرّق، وبين تجار ومستهلكين ، وهم غالبية الناس الذين تهمهم المبادلة الصحيحة في سوق العرض والطلب . . فكان بائع المفرق يستوفي حقه كاملاً ولكنه يبيع مطفِّفاً للمستهلك ، أي يسرق حقه خلسةً ودون أن يشعر ذاك المستهلك بما يسرق منه . . شأنهم في ذلك ، شأن الكثيرين في يومنا هذا ، الذين يعتقدون بأن سرقة حق المستهلك هي نوع من الحذلقة والمهارة يزيدون فيها أرباحهم ، دون أن يدروا بأن هذه السرقة ، التي يتوهمون أنها صغيرة ، سوف تكون جمراً من نار ، يؤمرون بإمساكها بأيديهم ، وتُكْوَى بها جُلُودُهم فتشويها . لتعيدهم

---

(١) سورة الانبياء ٩٨.

(٢) سورة الروم ٣٩.

(٣) سورة المطففين.

بالتذكُّر إلى ما كانوا يفعلونه في الحياة الدنيا . . فجاء القرآن الكريم يضرب هذه العلاقات الاقتصادية القائمة على أسس غير سليمة ، لا تصل فيها الحقوق كاملة إلى أصحابها . . وبمثلها ضرب من قبل المعتقدات الوهمية البالية بقوله تعالى : ﴿ **إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم** ﴾ . . ثم لا يتوانىٰ عن ضرب العلاقات الاجتماعية القائمة على الاعتقاد الأخرق في الشرف والكرامة ، الذي يدفعهم إلى قتل بناتهم ظلماً وعدواناً دون أن يرتكبنَ ذَنْباً أو يقترفنَ إثماً ، فيسألهم باللغة التي يفهمون : وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ [1] .

هذه الآيات الكريمة وغيرها كانت تنزّل لضرب تلك العلاقات التي كان يقوم عليها المجتمع المكي ، وقد اعتمدها المسلمون سلاحاً في وجوه المعاندين أخذاً عن القرآن الكريم ، وكان من الطبيعي أن يحتدم الصراع الفكري بينهم وبين الكفار ، الأمر الذي كان يفرض على قريش الاصرار على محاربة الدعوة الإسلامية ، ومحاربة دعاتها بشتَّى الوسائل والأساليب ، واتباع أحقر الطرق وأشنع الصور والأشكال . .

وقد كان نهج المسلمين في صراعهم الفكري ذاك يقوم على الصراحة والوضوح ، بما ينزل به الوحي على الرسول الكريم ﷺ دون مواربة ، وبغير مداهنة . . وهو النهج الذي اعتمده الرسول ﷺ منذ بادأ قريشاً بدعوته ، يوم كان فرداً وحيداً ، أعزل لا نصيرَ له ولا

(١) سورة التكوير ٨ ـ ٩ .

معين ، ولا يملك عُـدَّةً ولا سلاحـاً ، إلَّا سلاح الإيمـان ، ونصـرة الله تعالى . . .

ولقـد ظهر في دعـوته متحـدِّياً ، لا يتـطرق لنهجـه ضعف ، ولا يعـوقه عن احتمـال التكليف الجسيم عائق . . بـل استمرَّ في كفـاحـه ونضـاله ينقض الاراء الخـاطئة ، ويهـدم المعتقدات الفـاسدة ، لينشـر ويقيم بديلاً عنها أفكار الإسلام السليمة ، الصحيحة ، التي لا يعتورها نقصان ، أو يتخللها زلَل . .

وعلى مثـل هذا النهج من الدعوة ، وهذا النمط من الكفاح ، عادَ رسول الله ﷺ من الشِّعاب لمتابعة تبليغ رسالة ربه ، مما جعل الناس يقبلون عليه ، بعدما أخذ نورُ الإسلام يسري بين قبائل العرب البعيدة عن مكة . .

وإذا كانت قريش تقف بالمرصـاد لكل من يـأتي مكة، وتحـاول منعهم من الاتصـال بمحمد بن عبـد الله ﷺ فإن ذلـك لم يثن غالبيـة الوافدين عن البحث عن الرسول الداعي للإسلام والاستماع إليه . . .

فها هوذا الطفيل بن عمرو الدوسي ، سيـد قبيلة بني دوس، يأتي يوماً إلى مكة ليتصل برسول الله ، حتى إذا وصلها جاءه كفار قريش ، يحذِّرونه من رؤ ية محمد بن عبد الله والاجتماع به، وهم يصفون قـوله بـأنه كـالسحر، يفـرق بين المرء وأهله، ويحـول بين المـرء ونفسـه . . وأنهم يخشون على سيد بني دوس وشيخها الجليل، من الوقوع في يد ذلك الساحر، فيصيبه منه الأذى، وتحل بقومه الفـرقة، كمـا حلَّتْ في قريش، من جراء فعاله . .

لقد أدخلوا في ذهن الطفيل مثل هذه الأمور الكاذبة، حتى اقتنع الرجل بما قالوه له، وعـزف عن الاتصال بمحمـد بن عبد الله، بعـدما كان يريد لقاءه ساعة غادر دياره . .

وكمثل عادة العرب، كان لا يأتي أحدٌ إلى مكـة إلّا ويذهب إلى الكعبة. وهكذا جاء الطفيـل يطوف، حتى إذا انتهى من طـوافه وجلس يستريح في الجوار، رأى على مقربة منه رجـلاً يقوم بصـلاة لم يعرفهـا من قبل. . فراح يـرقبه ويصغي بسمعـه إلى ما يقـول. . فإذا بـه يسمع كـلاماً حسنـاً أعجبـه. . فـازداد في الإصغـاء، وزادتـه تـلاوة الـرجـل استحساناً، فقال في نفسه: «والله لأستعلمنَّ من يكون».

ورأى على بُعدٍ منه، بعض الأفراد، فذهب يسـألهم عن الرجـل المصلي، فعرف أنه محمد بن عبد الله، الـذي حذّرتـه منه قـريش. . فعادَ إلى مجلسه، يـرقبه ويستمـع إليه من جـديد، وهـو يحدِّث نفسـه قائلاً:

«ثكلَتْني أمي إن استمعتُ لقريش. . أوَلست رجلاً لبيباً شاعراً، لا يخفى عليَّ الحسن من القبيـح؟!. وهـا قــد سمعت الحسن. . فمـا يمنعني أن أحدِّث الرجل، فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وإن كان قبيحاً تركته» . .

ومكث الطفيل في مجلسه حتى غادر الرسول ﷺ المكان، فقام يتبعه. . ودخل عليه في بيته، فـأخبره بـأنه سيـد بني دوس، وأنه جـاء يستمع إليه، بعدما حذَّرته قريش منه، وهو يقول:

«يا محمد بن عبد الله . . إنَّ قومك لاقوني، وما زالوا بي، حتى أجمعت ألاَّ ألقاك ولا أكلمك . . وقد غدوتُ إلى المسجد الحرام، وأنا أحشو أذنيَّ بما يمنعني عن سماعك إن لَقيتك . . ولكنني حين رأيتكَ في صلاتك، وقد عرفتُك، لم تطاوعني نفسي إلا أن أصغي إليك. نعم لقد أبى الله إلاَّ أن يُسمعني قولك، وكان قولاً حسناً، فاعرض عليَّ أمرك» . . .

واستبشر النبيُّ ﷺ بالرجل خيراً، فأقبل عليه مهتماً، يتلو من القرآن الكريم على مسامعه ما يجعل الرجل يخشع . . ويبيِّن له من معاني الآيات التي يتلو، ما يجعله يوقن أمراً عدلاً، حقيقةً كاملة . . .

لقد كان الطفيل يستوعب ما يقوله الرسول ﷺ بسرعة عجيبة، يظهر معها حقاً أنه رجلٌ لبيب ـ كما قال عن نفسه ـ ولذلك فإنه لم تمض عليه بين يدي الرسول العظيم إلاَّ بضع ساعات قليلة، حتى كان الإيمان قد ملأ قلبه، والقناعة قد ثبتت في نفسه. فإذا به يهب من مقعده وينطق بشهادة أن لا إله إلاَّ الله، وأَنَّ محمداً رسولُ الله . .

ثم لا يتركه الرسول الكريم يغادره، بل يطلب إليه المبيت عنده . . فيبقى الطفيل في ضيافته يومين آخرين، لا ينفكّ خلالهما متابعاً للرسول ﷺ في كل ما يفعل، وما يقول، حتى إذا أَنِس من نفسه القدرة على حمل الدعوة قال للرسول ﷺ :

«يا نبيَّ الله! . . إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم أدعوهم إلى الإسلام، فادعُ الله أن يسدِّد خطاي، وأن يمنحني العونَ فيما أدعوهم إليه» . .

ولم يتردد الرسول الكريم في تلبية طلب الطفيل، فدعا الله سبحانه وتعالى أن يُعينَه في دعوته، وأن يكون له ناصراً في أمره. .

وخرج الطفيل راجعاً إلى دياره. .

وجاءه أبوه، وكان شيخاً كبيراً، يسأله عن حاله، وكيف أمضى وقته في مكة، فإذا به يشيح بوجهه عن هذا الأب، رغم محبته واحترامه له، وهو يقول:

«إليك عنِّي يا أبي، فلستُ منك ولستَ مني، إنْ لم تؤمن بما آمنت. . !. .

وأخذ العجبُ هذا الشيخ، وهو يسمع كلام ولده، في حين لم يعلم منه يوماً، إلَّا الرأفة والبر به، فسأله:

ـ هاتِ يا بني وأخبرني. .

فقال له الطفيل: لقد هداني الله إلى الإسلام يا أبي، وتابعتُ هذا الدين الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله ﷺ . .

قال أبو الطفيل: أي بني، دينك ديني. . ولكنْ ألا تخبرني على أيَّة ملَّةٍ هذا الدين؟ . .

قال الطفيل: إنَّه على ملّة أبينا إبراهيم. .

قال أبوه: إذن حدِّثني عنه. .

قال الطفيل: لا يا أبت، لا أفعل إلَّا بعد أن تغتسل وتطهّر ثيابك، ثم تأتيني طاهر النفس والجسد، وقد خلعْتَ منك الافكار

المترسِّبةِ ، والقابعة في أعماقك، فعندها أعلِّمك كما عُلِّمت. .

قال الشيخ: لئن كان دينٌ يدعـو إلى مثل هـذا الطُّهـر، فعليَّ أن أتعلَّمه . .

. . ولم يلبث أن قام، فاغتسل ولبس ثوبـاً طاهـراً، كما قـال له ولده، ثم عاد إليـه، يتبيَّن منه حقيقـة الدين الـذي آمن به . . ومـا زال معه، حتى أعلن أبو الطفيل إسلامه، راضياً قانعاً . .

وكان للطفيل مع زوجته الموقف نفسه الـذي اتخذه مـع أبيه، إذ أبى عليها أن تقربه وهو يعلن لها بأنها ليست منه، وليس هـو منها، إن لم تكن على دينه، لأنه دين الحق والهداية، فقالت له امرأته:

ـ وهل كنتُ يوماً إلَّا على دينك . .

فقال لها الطفيل: بل كنَّا على دين الشرك والوثنية، وقد بـاعدني الله عن هذا الإفك، وصرتُ مؤمناً بالله الواحد الذي لا شريك له . .

قالت الزوجة: وماذا أفعل؟

قال الطفيل: أول ما عليـك أن تبرئي من «ذي الشـرى» (الصنم الأخـرق الـذي تعبـده دوس) ثم تتـطهـرين في نفسـك وفي جسـدك، وثوبك، فألقنك التعاليم التي تسمو بهـا النفس الإنسانيـة عن الوثنيـة، ويكون لكِ بعدها أن تهتدي! . .

وفعلت الزوجة المخلصة ما أمرها به الزوج المؤمن، ثم عـادت وملء نفسها اللَّهفة للاستماع إليه . . . وظلَّت بقربه، تسمع منه، وتؤمن بما يقول، حتى أعلنت النـطق بالشهـادتين العظيمتين . . . ثم لم تلبث

امرأة الطفيل، أن سألت زوجها، وقد اطمأنّت إلى مشاعرها الجديدة:

ـ أولسنا نخشى على الأبناء من «ذي الشرى»؟..

ـ فقال لها زوجها: لا يا ابنة العم، وهم بيننا، ولسوف نهديهم إلى الحق، بإذن الله...

وراح الطفيل يدعو أبناء قبيلته إلى الإسلام، فلم يستجيبوا له.. ذلك أن قبيلة دوس كانت غارقة في عادات جاهلية قبيحة استمرأت طعمها الخبيث، واستلذّت عملها اللعين، حتى غدت في صلب سلوكها اليومي، وفي أساس عيشها الحياتي.. لا ترى في الزنا فاحشة، ولا في الرِّبا محرَّماً، بل تراها طُرقاً مألوفة للوصول إلى لذائذ الحياة ومتعها.. فلم يكن غريباً إذن، وهي على تلك الحالة الاجتماعية الفاسدة، أن ترفض دعوة الطفيل لها، ما دامت ترى في هذه الدعوة تغييراً جذرياً للقواعد السلوكية في المجتمع الدوسي، الذي لم يكن في واقعه، إلّا صورة مصغَّرة عن مجتمعات القبائل الأخرى في الجزيرة العربية، التي تحكمت فيها العادات والتقاليد المتوارثة، حتى عاشت لها وعليها..

وآلم الطفيل إعراض بني دوس عما يدعوهم إليه، فعاشَ ليالي طويلة في الأرق والهموم، حتى لم يعد يرى مفرّاً من الخروج من حالته تلك إلّا برؤية رسول الله ﷺ يلقاه، ويستشيره في أمر بني قومه، فيكون له خير ناصح، وموجِّه..

وبالفعل، قصد الطفيل مكة، وجاء رسول الله ﷺ شاكياً،

منتجِباً، فلم يجد إلّا صدراً يلقي عليه همومه، ونفساً راضية تخفِّف عنه معاناته. . فهدأه الرسول الأعظم ﷺ، ودعاه إلى الحكمة والتروي، ثم دعا له ولقومه بالهداية، وأمره بالرجوع إليهم، داعياً إيّاهم بالرفق والمودة، وبالصبر على ملاقاة المعارضة، وتقبُّل الصِعاب. .

وعادَ الطفيل إلى مضارب بني دوس، يدعو القاطنين فيها بمثل ما أمره نبيُه ﷺ، فاستجاب له مع مرِّ الوقت نفرٌ كبير منهم، كانوا يأخذون على أنفسهم العمل بجانبه، والسعي معه لهداية الآخرين، حتى يقضي الله أمراً كان مقدوراً. .

ويظل الطفيل قائماً في دعوته بين أبناء قومه، حتى تنقضي سنوات، ويعلم بحصار رسول الله ﷺ لخيبر، فيأتيه وجماعة من أبناء قومه ناصرين. . ومنذ ذلك الوقت، يظل بجانبه، فلا يفارقه، حتى يتوفَّى الله رسوله الكريم، ويذهب إلى خالقه. . .

ويكون للطفيل شأنٌ فاعلٌ في متابعة الدعوة الإسلامية. . فيكتب له أن يكون محرقاً لصنم عمرو بن جُمحة، وكان يدعى «ذو الكفين»، وقد جاء يُضرم النار فيه وهو يقول:

يا ذا الكفَّين لستُ من عبادِكَ   ميلادُنا أقدم من ميلادكَ
إني حشوتُ النار في فؤادكَ

ويتتابع هذا الشأن للطفيل، فيخرج مع المسلمين، يوم ارتدَّت العربُ، ويسير في الأفواج لملاقاة المرتدين، حتى يفرغوا من طليحة،

ومن أرض نجد كلها، فيذهب إلى اليمامة، ومعه ابنه عمرو، بعدما بلغ سن الرجولة . .

ويرى الطفيل وهو في طريقه إلى اليمامة، رؤ يا تأخذ بمجامع فؤاده، فيطلب إلى أصحابه أن يعبروها له، فيسألوه عن رؤ ياه تلك، فيقول لهم:

«لقد رأيت أنَّ رأسي حلق، وأنه خرج طائرٌ من فمي، وأنه لقيتني امرأة ما زالت بي حتى أدخلتني في مخدعها. . ثم يأتي ابني فيطلبني طلباً حثيثاً، ولا ألبث أن أراه قد حُبس عنّي».

قالوا: والله لا ندري ما تأويلها، وعسى ان يكون خيراً . .

وساروا معاً، حتى إذا قطعوا بعض المسافة، عاد الطفيل يقول لأولئك الأصحاب، محدِّثاً عن رؤ ياه: أما والله فقد عبرتْ لي . .

قالو: كيف؟! . .

قال: أما حلق رأسي فوضعه. . وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي. . وأما المرأة التي أدخلتني مخدعها، فالأرض تُحفَر لي فأُغيَّبُ فيها. وأما طلب ابني عمرو لي ثم حبسه عني، فأرى أنه سيجتهد في أن يصيبه ما اصابني . .

ولقد صدق حدسُ الطفيل الدوسي، فإنه لم يلبث طويلاً في اليمامة حتى قتل شهيداً، وجُرح ابنه عمرو جراحة شديدة، ولكنه أبلَّ منها وتعافى. . وظلَّ في الجهاد قائماً حتى قُتل شهيداً عام اليرموك في زمن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فكان كأبيه، مثال الوفاء

والإخلاص للإسلام، وقد أنعم الله تعالى عليهما بالشهادة في سبيل الله، فهنيئاً لهما ذلك المصير المخلّد. .

وما إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، ومن تابعه من أبناء قومه، إلّا تعبير عن خروج الدعوة الإسلامية من حدود مكة، وانطلاقها في أرض الجزيرة العربية.

ذلك أنه كان لنتائج الحصار الذي فرضته قريش على المسلمين، ومن اعتزل معهم في الشعاب، أثره في الأعراب الذين كانوا يفِدون مكة في المواسِم، وكانوا يعلمون بأمر المقاطعة التي قامت بها قريش، مما جعلَ تلك المقاطعة حديث الوافدين إلى مكة والمغادرين، تتحدث به الركبان في طرق الفلوات، وتنقله إلى مجالس قبائلها في المضارب والمنازل البعيدة، حتى انتشر خبرُ الدعوة إلى دين الله الواحد في أرض العرب كلها، كما انتشر خبرُ الحصار العجيب. . ولقد تعدى الإخبار عن الدعوة بلاد العرب، فعرفت به الحبشة، كما عرفت به فارس والروم. .

ففي الحبشة راح المهاجرون يتحدثون بأمر الإسلام جهاراً وعلانية، بعدما استقرَّ بهم المقام في تلك الديار على أثر الموقف الذي اتخذه النجاشي من موفدَيْ قريش، يوم جاءا يطلبان إليه أن يسلمهما المسلمين، وردَّهما خاسرين. .

ومن تلك الأحاديث، علمَ بعض أهل نجران، الذين جاؤوا إلى الحبشة، في أمور خاصة لهم، بأن في مكة رسولاً يدعو إلى دين الله

الواحد. . فلما عادوا إلى بلادهم في نجران، أخبروا أبناء قومهم بما سمعوه، فقرروا أن يبعثوا إلى مكة بعشرين رجلاً، حتى يعلموا شيئاً مفصَّلاً من أمر ذلك النبيّ الذي يدعو إلى دين جديد غير النصرانية. .

وبالفعل قدِمَ وفد نصارى نجران والتقى رسولَ الله ﷺ وكان اللقاء رائعاً. . سأل فيه أولئك الموفدون عن كافة المسائل التي أرادوا السؤال عنها. . ولا شك بأنها كانت مسائل تتعلق بالألوهية، وبالعقيدة، وبالسلوك الإنساني، وشتى المفاهيم التي تعالج وجود الإنسان في حياته على الأرض، وبعثه بعد الموت، وتلاقي الرسالات السماوية التي تعاقبت منذ أبينا آدم عليه السلام، حتى الرسالة التي يقوم محمد ﷺ بنشرها بين الناس، على الأسس السويَّة التي لا تختلف في جوهرها، ولا تتنازع في حقيقتها، ما دامت تستقي من ذات المصدر العلوي الواحد. . .

نعم حاوَر وفدُ نجران ـ وهم أهل كتاب، أي على علم ومعرفة بالتوراة والإنجيل ـ حاوروا محمداً ﷺ وتباحثوا في المسائل التي عرضوها عليه، فأبان لهم حقيقة تعاليم الإسلام، وصدق ما ينطق به القرآن من قول العزيز الرحمٰن، بما جعلَ الدَّمعَ يفيضُ في عيونهم، والدَّعَة تسكن في قلوبهم. . فيدعوهم الرسول ﷺ إلى الإسلام، وتكون استجاباتهم لدعوته ظاهرة بديهية. .

لقد آمن وفدُ نجران بما قالَهُ لهم رسول الله ﷺ، فأذهل إسلامُهم بعض زعماء قريش، ممن عرف بأمرهم، فتنَادَوْا مع الآخرين، يتربَّصون بهم، حتى إذا خرجوا من بيت محمد ﷺ وصاروا

في أحد أزقة مكة، تصدّوا لهم مستنكرين، ثم تقدم أبو جهل، على رأس الطغمة الكافرة التي ترافقه، وهو يعترض على أصل مجيئهم قائلاً: «خيَّبكم الله من ركْب.. بعثكم مَن وراءكم من أهل دينكم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدَّقتموه بما قال.. فما كان هكذا الظن بكم»..

ولم يكن لدى أصحاب ذلك الوفد إلَّا أن قالوا: «سلام عليكم، لا نبتغي الجاهلين.. لنا ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً».

فلم يؤثِّر اعتراض المشركين على وفد نجران بشيء، بل زادهم الله إيماناً، لأنهم كانوا نصارى حقيقيين، وكانوا من قبل ان يستمعوا لمحمدٍ ﷺ، يعرفون أمر نبيّ آخر الزمان، ويعلمون الكثير من علاماته.. وقد نزل فيهم قول الله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ۝ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝﴾ (1)

صدق الله العظيم، فقد كان أهلُ نجران من المهتدين، هداهم الله ـ سبحانه ـ إلى نور الحق، فلمّا تُليتْ عليهم آياتُه، قالوا: آمنّا به،

(1) سورة القصص ٥٢ ـ ٥٦

إنَّا كنَّا من قبله مُسْلِمِين . .

وليس إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي، ومن بعده، إسلام وفد نجران، إلَّا امتداداً للدعوة الإسلامية في مجالات جغرافية بعيدة عن مكة، تنقلها إليها الأخبار التي تحيط بحامل الدعوة الكريمة، محمد ابن عبد الله ﷺ الذي ظلَّ ثابتاً على أداء الرسالة التي بعثه الله تعالى بها، دون أن يصمت أو يلين، أو يستكين، رغم كل المقاومة التي جابهته بها قريش، وحاولت من خلالها القضاء عليه وعلى الدعوة التي يحمل. . ومع التأكيد على الفارق الجوهري بين ما يدعو إليه محمد ﷺ وبين ما تدعو إليه قريش. . فإنه، في الوقت التي كانت هي تعمل وتدعو للقضاء عليه وعلى الإسلام، كان هو لا يعمل ولا يدعو إلا لهدايتها إلى نور الحق الذي بعَثَه الله تعالى به، حباً بأبناء قريش، ورأفة بهم، حتى يحلَّ الإيمان في نفوسهم فتنال الغنى الأوفى منه، وتنعم بحقيقة العبودية لله تعالى، ومن ثم يكون لها الخلاص من الشرك والوثنية ومن وضاعتهما، ومن ورائه الخلاص من العذاب الذي ينتظر الكافرين والمشركين . .

نعم هذا هو الفرق الشاسع بين دعوتين: دعوة إلى الحق وقطبُها محمد بن عبد الله ﷺ، ودعوة إلى الباطل، وأقطابُها عُتاة الكفر في قريش. . ومن خلال هاتين الدعوتين ظلَّت المواقف ثابتة، لا تتغيَّر، فقريش تمكر، وتخادع، وتكيد ، ومحمد ﷺ والمسلمون من ورائه، يُبطلون الحِيَل والمكائد، ويسفِّهون أصحابها. . ثم لم تمضِ شهور معدودة على انتهاء المقاطعة، وفيما الرسول ﷺ ماضٍ في نهجه

الدؤوب، إذا بنائبات جديدة تفاجئه، وتفجعه بأعزّ الناس عليه. .

فقد حلَّت السنة العاشرة بعد مبعث رسول الله ﷺ، التي توافق سنة عشرين وستماية ميلادية (٦٢٠) م، يوم ناهزَ أبو طالب، عمُّ الرسول ﷺ الثمانين من العمر. . (أي السنّ التي تؤدي إلى وَهَن العظم، وذهاب القوة الجسدية، وملازمة الأمراض والآلام، نعم حلَّت تلك السنة، ووقع أبو طالب بمرض شديد، ولعلَّ مناوأة قريش له في ذَوْدِه عن ابن أخيه، والمعاناة التي عاناها خلال سنوات المقاطعة الثلاث، قد أتعبتهُ وزادت في وهنِه وضعفه، حتى جعلت المرض يقوى عليه، ويجعله طريح الفراش على شكل مزعج ينذر بقرب نهاية عمره . .

وأدركت قريش أنَّ أبا طالب لن يقوم من رقدته هذه، وأن الموت قد يدركه خلال أيام معدودة، فلمَ لا تذهب إليه علَّه ينيلها وهو على فراش الموت، ما رفض أن ينيلها إيّاه، وهو في عزّ القوة والصحة؟!. .

. . ثم ألم تكن قريش ترى فيه، رغم موقفه المعادي لموقفها، الصلة التي استمرَّت قائمة بينها وبين ابن أخيه محمد. في كل مرة كان يخطر على بالها أنها قد وجدت ما يمكن أن يثني محمداً عن دعوته، فتأتي أبا طالب ليكلمه ويفاوضه في شأن ما تعرضه عليه؟. .

وأيضاً: أوَلم يكن أبو طالب ضماناً لأمن قريش، فمنع بحكمته ودرايته، كل الأسباب التي كانت ستؤدي للاقتتال بين بطونها، يوم كان الغضب يستبدُّ ببعض زعمائها، فيُقدِمون على إثارة الفتنة التي يمكن أن توصلهم للقضاء على أنفسهم قبل القضاء على محمد، دون أن

يدركوا الآثار التي تترتب على تلك الفتنة؟

لقد أدرك زعماء قريش المكانة التي كان يتمتع بها شيخهم أبو طالب، فجاؤوا إليه في عُصْبَةٍ ضمَّتْ: عتبة وشيبة ابنَي ربيعة، وعمرو بن هشام (أبا جهل)، وأمية بن خلف، وأبا سفيان بن حرب، ما عدا كثيرين غيرهم.. وقالوا له:

«يا أبا طالب!.. أنت منَّا حيث قد علمتَ، وقد حضَرَك ما ترى، ونحن نتخَّوف عليك.. وقد علمت الذي بيننا وبين ابن اخيك.. فادْعهُ، فَخُذْ له منَّا، وخُذْ لنا منه، ليكفَّ عنّا ونكفَّ عنه.. وليَدَعنا وديننا وندعَه ودينه»..

صحيح أن هذا الشيخ الجليل يعالج سكرات الموت، عندما جاءته هذه العصبة اللئيمة التي تستغل ضعفه وانشغال آله به، لتعرض عليه ما تعرض.. ولكنه لم يفقد الوعي والحكمة بعد، فهو ما زال، رغم وهنه، في أتمّ حالات الإدراك والعقل.. ولذلك فقد جعله عرضُ قريش يتفكّر بما يفعل...

وطاف به التفكير ـ قبل أن يجيب ـ إلى آفاق بعيدة، فتراءى له ان قريشاً لو كانت صادقة فيما تقول، فإن في ذلك مصلحة ابن أخيه، إذ يصبح في منأى من الأذى، طليقاً من الوقوع في المكائد والمصائد التي ما زالوا يدبرونها للإيقاع به.. وفي هذا ما يتيح المجال واسعاً امام محمد لمتابعة نشر الدعوة، وإظهار دين الله، هذا الدين الذي

سينتصر على ديانة قريش بقوة تعاليمه، وسموِّ أفكاره، وعظمة منهجيَّته . .

ولكنَّ الشيء الهام الذي لا تطمئن إليه نفس أبي طالب: هو هل ان محمداً سوف يوافق على ما تعرضه قريش؟!. . وهذا يعني أنه سوف يهادنها، فلا يتعرض بسوء لآلهتها، ولا يصيب دينها، ولا يسفِّه أحلامها، بما يتناقض تماماً مع ما جاء به ودعا إليه. . لا، لن يقبل محمد بأن يأخذ عمُّه أبو طالب منه لقريش، وأن يأخذ من قريش له. . . .

وتصور أبو طالب أثناء تفكيره هذا، محمداً ﷺ وهو يقول له: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري: على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه». . فقال في نفسه: هيهات لمحمد أن يقبل بما تبديه قريش، وإنه لفي عزمه الأكيد على إظهار دين الله. . .

ولكنه رغم هذا التفكير، وبدافع حبه لابن أخيه، وأمله في أن يفارق الحياة وقد اطمأنَّ عليه من عنت قريش وظلمها، بعث في طلب محمد ﷺ حتى يكلِّمه فيما يُبدي القوم. . .

وجاء الرسول ﷺ وجلس بجانب فراش عمه، فقال له: «يا ابن أخي، هؤلاء أشراف القوم قد اجتمعوا إليك ليعطوك ويأخذوا».

وسمع الرسول ﷺ من عمه بإصغاء، فأجاب بهدوء، متوجهاً إلى القوم:

«نعم! . . كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم».

قال أبو جهل: نعم وأبيك. . وعشر كلمات. .

قال محمد ﷺ: «تقولون: لا إله إلاّ الله. . وتخلعون ما تعبدون من دونه».

واستمعوا، وفكروا. . فذلك هو مطلب محمد الوحيد، فهل يعطونه إيّاه، ويعطيهم من بعده ما يريدون. . .

ثم تطلّع بعضهم إلى بعض، وتلاقت العيون تحمل الدهشة والغضب. . . إنه أمر جازم ومقطوع به، لا يقبل مناقشة ولا مفاوضة. . هذا هو أمرُ محمد. . . كلمةٌ واحدة. . . وكل شيء بعدها قابل للحوار والمناقشة. . .

وخرجوا عن صمتهم، فسألوه متعجبين:

- أتريد يا محمد أن تقتل آلهتنا وتحيي إلٰهك وحده؟ . .

فقال لهم الرسولّ: لا إله إلاّ الله الحيُّ القيُّوم، وحدَه لا شريك له. . وإنَّكم ومَا تَعْبُدون من دونِ الله حَصَبُ جَهَنَّم». .

ولم يرَ الكفار إلاَّ أن يقول بعضهم لبعض:

«ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون. . فانطلقوا، وامضوا على دين آبائكم، حتى يكون الأمر بينكم وبينه». .

وهبّوا من مجلسهم ماضين على دين الكفر والوثنية. . يخلّون الساحة للإيمان النقي الصافي. . .

وخرجت العصبة الضالة من عند أبي طالب، فالتفت الشيخ إلى ابن أخيه وقال له:

«والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً». .

ثم لم ينقضِ على ذلك اللقاء إلاَّ بضعة أيام، حتى توفي شيخ مكة. .

عَامُ الحُزْن

. . توفي أبو طالب، الذي دافع عن الإسلام، عندما منع ابن أخيه وحماهُ، ومن ورائه كانت حماية المسلمين. . وتوقف القلب الذي نبضَ بالحب لمحمد ﷺ، منذ تفتحت عيناه على الدنيا، وظل ينبض بهذا الحب حتى آخر لحظة من حياته. . ولقد عايش محمد ﷺ هذا الحب، وعايش المواقف الرائعة التي صدرت عن صاحبه كلِّها، أفلا يكون فراقُهُ صعباً عليه، ويُدخل إلى نفسه الحزن، ويملأ قلبه بالأسى؟! . .

وكيف لا يكون هذا الفراق أليماً وقد نأى بالأب، والكفيل، والنصير، والحامي؟!.

في لحظة غيّب الموت عم النبيِّ ﷺ، ولكنه في اللحظة ذاتها أحيا كوامن العاطفة الصادقة، والمشاعر الفياضة، التي أبكت النبي ﷺ حتى جعلته يَشرق بالدَّمع، ولا يجد للخلاص من تلك الفاجعة الكبيرة التي المَّتْ به، إلاّ التوجه إلى خالقه، يحتسب مُصابه

عنده، ويدعو لعمِّه الراحل بالمغفرة والرحمة . .

وإذا كان الرُّسل والأنبياء، وأولو العزم بصورة خاصة. قد تختلف نظرتهم إلى الحياة والموت عن نظرتنا نحن ـ بني آدم العاديين ـ إلّا أنهم في الوقت نفسه بشرٌ مثلنا، وعندهم المشاعر والعواطف التي عندنا، ولا يمكن لها إلا أن تستجيب لنداء التأثر حيال موت إنسان عزيز على صاحبها، فلا يمكن لقلوبهم إلّا أنْ يملأها الحزن، فكيف إذا كان أحدُها كقلب محمد ﷺ نبيِّ الرحمة، والإنسان العطوف الرؤوف الذي تُذيبه المشاعر الإنسانية السامية، وتؤلمه العواطف الشخصية العالية؟! . . .

وكيف لقلبه ألَّا يمتلىء حزناً، ولنفسه ألَّا تتفجع ، وهو يرى عمَّه أبا طالب، الذي عايش كل لحظة من لحظات حياته التي امتلأت بالأحداث العظيمة، واحتوت وقائع حياتية إنسانية حافلة، وهو يراه الآن يذهب في الرحلة التي لا رجوع منها، وخلَّف وراءه ذلك الفراغ الكبير، الذي لا يمكن لغيره ـ مهما كانت مكانته ـ أن يشغل أكثر من حيِّز بسيط في مداه الواسع البعيد! . .

لقد كانت الفاجعة كبيرة حقاً على رسول صلّى الله عليه وآله وسلم . . ولكن ما زال عنده الأحبة الكثيرون ممن يقدرون على تخفيف غلواء تلك الفاجعة . . وفي طليعة هؤلاء المحبين، رفيقة العمر، وشريكة الحياة، وخدينة البذل والجهاد، خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها)، أم المؤمنين الأولى، والزوجة الوفية، الصادقة، المخلصة، التي جنَّدت نفسها منذ تزوجت من هذا الرجل العظيم،

لخدمته، وللقيام على راحته، ولتقديم العون له، بكل ما ملكتْ معنوياً ومادياً. . . وما أدراك بما بذلتْ وبما أعطَتْ في سبيل الدعوة إلى الله! . .

لقد صارت، بعد أبي طالب، الملاذ الذي يأوي إليه رسول الله ﷺ، يبثها أحزانه، وهمومه، فيجد عندها الصدر العطوف الذي يحتمل معه الأثقال، ويخفف عنه الأحمال. . فإن توفّى الله سبحانه أبا طالب، فهي إلى جانبه باقية، وعندها من الحب، والبر، والحنان، والبذل والعطاء السخي، ما قد يواسيه، ويخفف عنه بعض حزنه. .

وبالفعل كان لتلك الزوجة المرضية دورها المنتظر. . فهي وإن آلمها موت أبي طالب، فإنها أقبلت على رسول الله ﷺ تجهد في مؤاساته، وتذوب في مداراته، حتى بات حزن محمد ﷺ ونفسها صنوين، تحاول ان تنتزع من نفسه هذا الحزن لتدخله الى نفسها حتى تخلّصه، أو تأخذ الجزء الأكبر منه، فيرتاح الرسول ﷺ لهذه المشاركة الكريمة الفعلية ويهدأ خاطره. . .

أجل، قد أمكن لأم المؤمنين خديجة بنت خويلد (رضي الله عنها) أن تلعب هذا الدور العظيم، ولكنها لا تلبث بعد مدة وجيزة من الزمن إلاّ أن تذوي هي الأخرى، ويعجز الجسم الرهيف الشريف عن التحمُّل، وينوء بالحمل الكبير من الهموم، فترحل عن الحياة الدنيا، وفي نفس السنة، وكأنها كانت مع أبي طالب في نفس العام على موعد مع الموت . .

نعم عادَ الموتُ ليخْتَطِفَ زوجة محمد ﷺ، فتنزل الفاجعة عليه أشد وأعتى.. فيتطلع حواليه، فإذا هو بين عشية وضحاها، لا يرى إلى جانبه المؤاسية الصادقة إذ ادلهمّت الأمور واشتدَّ البلاء..

لقد ماتت خديجة (رضي الله عنها) فغاب مؤنس الرسول إذا استوحش من الناس، وتوارت المرأة الكريمة العظيمة التي كانت للنبيّ مكان الهدأة والسكن إذا أحبَّ أن يرتاح مما يعاني من مكائد المعاندين..

ثم أخذ التفكير يلازم رسول الله ﷺ وهو يخلو إلى وحدته، وفي الليالي الموحشة، وهو يستعيد ذكرى الأيام التي عاشها مع خديجة (رضي الله عنها) فيجدها الإنسانة التي آمنتْ به يوم كفرَ بنبوَّته الناس، وصدَّقته إذ كذَّبوه، وواسته إذ حرَموه..

خمسٌ وعشرون سنة مرَّت، كانت خلالها خديجة (رضي الله عنها) مثالَ المرأة الطاهرة النقية، وعنوان الزوجة الوفية المخلصة.. بذلت من أجله، وفي سبيله، ومن أجل دعوته، وفي سبيل الله، كل ما تملك من مالٍ وفير، وملكٍ كثير، وجاهٍ عريض، وشرف باذخ، وعز شامخ.. وكان بذلها من قلبها، ومن جوارحها، ومن نفسها، قبل البذل من مالها..

فكيف لا يكون موتها مأساة بالنسبة إليه؟.. أو كيف لا يكون رحيلها فاجعة لا أكبرَ ولا أشدَّ في حياته؟..

كانت السنة العاشرة من مبعثه ﷺ الموافقة لسنة عشرين وستمائية

ميلادية ـ يوم داهمت رسول الله ﷺ هاتان الفاجعتان الأليمتان ـ سنة المصائب والهموم، فحق لتلك السنة أن تكون عامَ الأحزان كما دعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. . .

كيف لا، وفي مدة وجيزة، فقدَ الحبيبين: الحاميَ المكافح، والمؤنسة المواسية. . فأي أثر يمكن لنا تصوُّره مما تركته هاتان الفاجعتان في نفس محمد ﷺ؟!. .

الهم والكرب. . التعاسة والشقاء. . الوحدة والوحشة. . الضعف والقلق. . كانت كلها مجتمعة. . وهذه لو تضافرت على أي نفس كما تضافرت على نفس محمد ﷺ لأحست بما أحست به نفسه الشريفة. . ولكن أنَّى لنا صبرُ خاتم الأنبياء ﷺ؟. .

إذ يكفي لبعضها أن يدفع [بمن تضافرت عليه] إلى هزيمة الصبر والجلَد، أو ضعضعة القوى أو ضعف النفس، أوْ وهن العزيمة، أو خَور القدرة عن الاحتمال والمقاومة، أو ما عدا ذلك من عوامل الضعف!!!. .

ولكن . . هو محمد ﷺ الذي ليس كغيره، فهل تسمح نفسه التي ليست ككلّ النفوس أن تجعل تلك الأثقال تتغلب عليها، ثم تنتهي بالتخاذل أمام الصبر عليها والمصابرة؟!. .

لا والله!. . فهو صاحب النفس الكبيرة، وصاحب الشخصية الإنسانية المتكاملة. . وقبل ذلك، هو حامل رسالة الله الكبرى إلى الأرض، ورافع لواء كلمة التوحيد لله تعالى والإيمان بالحق. .

لا!. لا يمكن أن تنال الفواجع والمآسي من رسول الله ﷺ مهما عظُمَت.. فهي لها وقعها، وآثارها، حقاً.. ولكن المهمة التي هي على عاتقه أسمىٰ، وأعلى، وأعظم..

فلا همّ يأخذ بالخناق إذا دهم الموتُ بجبروته.. لأنه حق على جميع خلق الله..

ولا يمكن للموت أن يؤثّر على الرسول في المضيِّ بدعوته.. ولكن ما يخلِّفه من آلام وأحزان، تبقى كلها هيِّنة خفيفةً سهلة أمام تعنُّت قريش وظلمها.. فهي ترى في فقد محمد بن عبد الله النصيرين الكبيرين، حصول نقطة ضعف في ساحِ جهاده، وترى - من ثم - الفرصة مؤاتية للاشتداد عليه في الأذى، فبدأت تتعرض لأذاه في شخصه الكريم..

فهؤلاء سفهاء قريش، يعترضونه كلما مرَّ في أحد أزقَّة مكة، يذرون التراب عليه، أو يرمونه بالأوساخ والأقذار، أو يقذفونه بالحصى والحجارة، أو ينهالون عليه بالشتائم والسباب..

وفي هذا الوقت بالذات، كانت ابنته فاطمة عليها السلام في ريعان الصبا.. وكانت الإنسانة الجديرة بأن تشاركه مصابهُ، في داخل بيته، بعد رحيل أمها خديجة... وكيف لا، وهي بنت محمد ﷺ وربيبة الوحي!.. وبنت خديجة وربيبة العطف والحنان والبذل والسخاء!. لذا كان الرسول ﷺ يأتيها، وعليه آثار مساءات قريش الفادحة، فتهبُّ الفتاة المكلومة، المحزونة، لملاقاته، لتزيل عنه آثار

تلك المساءات ، وتغسل أثوابه وهي تشرق بالدمع . .

وينظر الرسول العظيم إلى هذه الابنة الهزيلة الجسم الرقيقة العواطف، فيراها تفرِّج عن نفسها ببكائها، فيرى أنها هي أَوْلى بالمواساة، فيتساءل في نفسه:

تُرى من تبكي فاطمة: أتبكي أماً ماتت، أم أباً عَصَفَ به زلزال قريش على هذا الشكل من المهانة والوضاعة؟! . .

وأيّة حرقة نحسّها في أعماقنا ونحن نرى أكبادنا يبكون. وأية مرارة نعانيها في قرارة أنفسنا، ونحن نحمِّل هؤلاء الأبرياء هموماً نحن ألقينا ثقلها على عواتقهم؟.

وأيّة لوعة أحرق لأفئدتنا من ظلم الناس وطيشهم الذي يكون مصدر آلام لأبنائنا، ونحن لا نقدر على رفع هذا الأذى الأحمق عنهم؟! . .

وأية دمعة لا تقرِّح أجفاننا، وتُحرق عيوننا، ونحن نرى دموع الأبناء الأبرياء الطاهرين توجعهم حدباً علينا ورفقاً بنا ونحن لا نستطيع دفع مصدرها؟!.

ربّاه! . . إنه محمد ﷺ . . هو أكثر الآباء براً ببناته، وأكثرهم حناناً عليهنَّ . . وهذه ابنتُه المحببةُ الأثيرة ـ بنت خديجة التي تحملها روحها وريحها ـ فاطمة ـ تبكي ألماً ومرارة، وحرقة، ولوعة أمام ناظريه، وبكاؤ ها منتظرٌ كلما عادَ إليها كئيباً حزيناً، مُعَنىًّ بما يحمله

من تلك الفئة الباغية من قريش التي تدفع بسفهائها للنيل منه بفعلها الشنيع!...

ربّاه!.. أنت خبيرٌ به، فما كان يوماً إلاّ عوناً للمظلوم على الظالم، ولا حادَ عن جادة الصواب، وهو في نبوّته ورسالته، ما بعثته إلاّ لهدى قريش التي تظلمه، ولهداية الناس كافة من بعدها.. أفيكون نصيبه هذا من قريش، ومن الدنيا؟. ثم يكون نصيب ابنته فاطمة عليها السلام ما تناله من أذية لحال أبيها، وأذىً في نفسها لأنها ابنته؟!..

سبحانك اللهمَّ!.. أنت الحكيم، المقدّر... وقد قدَّرتَ على رسولك الأعظم أن ينالَ ما ينال.. لترفع قَدْره!..

ولا بأس بحامل الدعوة من السماء أن يكون عرضة للبلاء.. وها هي ذي فاطمة عليها السلام في البيت.. بنت أبيها، وأمُّ أبيها.. وحاملة وظيفة حنان البنت والأم.. لذا ـ ومنذ عام الأحزان ـ صار الرسول ﷺ يدعوها: يا أم أبيك.. بدلاً من: يا فاطمة.

وحقّ لها أن تحمل هذا الاسم الذي يفرِّج عن قلب النبيّ ﷺ لأنه لم يدْعُ أمّاً في حياته، ولأنها هي مفرجة همه كما الأم سواء بسواء.. فهي مأواه.. ومشتكى همومه وبلواه.. وماسحةُ الهم والغم عن جبينه كلما أتاه هم أو ألم به غمّ!.

ففاطمة منذ الآن هي أمه، وهي بنتُه، وهي والدعوةُ كل دنياه!

لكن.. في تلك المأساة الكبيرة، التي كان يعيشها محمد ﷺ، والتي كانت أشد عليه من فقدان عمِّه وزوجه، ماذا كان يستطيع أن

يفعل، وتلك الابنة تغرق في الأحزان؟!..

لقد كان يحتمل، ويصبر.. فلا تزيده آلامها إلّا توجهاً بقلبه إلى الله، وإيماناً بنصره، فيقول دوماً لفاطمة عليها السلام كلما همىَ الدمعُ من عينيها:

«لا تبكي يا بنيَّة، فإنَّ الله مانعٌ أباك»..

وإنَّه بذلك ليصوِّر حالته تلك التي وصلَ إليها مع قريش التي تندفع في صبٍّ جام حقدها وغضبها عليه، بعد موت عمه أبي طالب، وفقد حمايته له، تبرح به الآلام، وتثقل كاهله الهموم، فيصرِّح على الملأ بقوله: «والله ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب»..

ثم لم يكن حال المسلمين عامةً بأقلّ من حال النبيّ ﷺ في تلك المرحلة من حياة الدعوة، إذ اعتمدت قريش خطة الخبث والدهاء، تقوم على استفراد المسلمين، آحاداً، لتُنزل بهم من أذاها مثل ما تُنزل بالرسول ﷺ.. وكانت تتعمَّد عدم التعرُّض لهم جماعات، محاذرةً بذلك قوَّة تجمعهم، لو أرادوا المقاومة، ثم إنَّ في هذا الاستفراد إضعافاً لهم أكثر من تناولهم بالأذى مجتمعين..

وقد كان يحقق لقريش مأربها ذاك، واقع الحياة الذي أبداً يفرض على كل إنسان، كما يفرض على المسلمين أيضاً، ألَّا يبقوا مع بعضهم، وفي تجمُّع دائم، ما دامت هناك الأعباء العائلية التي تلزمهم بالسعي لكسب الرزق، أو تجعلهم يتفرقون لغايات شتَّى.. هذا فضلاً

عن أن واجب الدعوة يستدعي الاتصال بسائر الناس، ولا يمكن القيام بهذا الواجب، بصورة جماعية دائماً، بل لابد من الإتصالات الفردية إلى جانب المساعي الجماعية، كي يكون للدعوة تفاعلها الذي يريدون. . .

ولكنَّ الأمر بقريش يصل إلى حد لا يطاق. . . إذ كلما مرَّت الأيام، كلما ازدادت تضييقاً على عمل المسلمين، وخنقاً لتحركهم، حتى ضاق الرسول ﷺ ذرعاً بهذا الواقع المرير، الأمر الذي جعله يفكر في خطوة جديدة يُقدِم عليها. . فتبين له أن الدعوة في مكة صارت في وضع يشبه الجمود، ولم تعد تتقدم إلى الأمام، بسبب تألّب أهلها عليه، وازديادهم في الغي والشطط، يوماً بعد يوم. .

إن الدعوة قطعت مرحلة الابتداء وانطلقت، عندما خرج المسلمون صفَّين مُتحدِّين الكفرة من قريش كما مرَّ سابقاً، فإن المسلمين انتبهوا إلى ذلك، ورأوا أن نقطة الانطلاق قد أخذت مداها، وبلغ صداها العرب وغير العرب، فلا بد من خطوة أخرى، لأنه إذا لم يُهيَّأ للدعوة انتقال سريع من نقطة الانطلاق إلى نقطة الإرتكاز، أي إلى إقامة نواة الدولة الإسلامية التي تنضوي الدعوة تحت لوائها، يأوي الدعاة إلى ظلّها وفيئها كما هُيِّيء لها من قبل الإنتقال من الابتداء إلى الانطلاق، إذا لم يتم ذلك بتؤدة فإن جميع الجهود والتضحيات ستذهب أدراج الرياح. خصوصاً والمجتمع المكي على هذا الحال من عدم الاستجابة، فلِمَ لا تذهب الدعوةُ إلى أبعد من هذا المجتمع الضَّال - إلى أي بلد آخر - فلربما وجدت في أهليه نضوجاً في الفكر

أكثر، واستعداداً للإيمان أقوى؟!..

إن دعوة النبيّ ﷺ هي للناس أجمعين.. والناس كافةً مدعوون للاهتداء إلى نورها وبرهانها وطريقها المستقيم بل إنَّ عليهم كلهم الوقوف بجانب رائدها ضد تلك الحرب الشعواء التي تشنها قريش، وضد كفار مكة، لو كانوا يعقلون. لا الوقوف فقط ضد قريش التي أعرض جبابرتها عن الإيمان، وغلب عليهم الجدل بالباطل، من غير توجه إلى الاقتناع، فلعلَّ في الوقوف ضدهم، ما يجعل قريشاً ترعوي عن ضلالها، وتهتدي إلى نفوسها الضائعة، فيحق الحق ويزهق الباطل!..

مُحَمَّد رَسُول ٱللَّه ﷺ في الطَائِف

. . وأي بلد هي أقرب لمكة؟! . . الطائف . .

وهي بلد ذات قوة وثروة، لا تقلّان عن قوة مكة وثروتها، بفضل ما حباها الله من جودة في المناخ، وخصب في الأرض، ساعد على انتشار زراعة الفواكهة والخضار، حتى صارت الزراعة مورداً اقتصادياً هاماً إلى جانب التجارة الواسعة التي تتعاطاها مثل مكة وباعتبارها أيضاً مُلتقى طرق كثيرة . .

ولعلَّ في الطائف ـ كما يأمل الرسول ﷺ ـ أناساً يُقبلون على الإسلام، ويتخذونه عقيدة ودِيناً، ثم يحثّون الناس على اتِّباعه، ويكونون من أعوانه في ميدان نشر أمر الله تبارك وتعالى . .

واعتزم الرسول ﷺ الرحيل . . وسافر إلى الطائف في أواخر شهر شوال من السنة العاشرة لمبعثه . . وهي السنة الحافلة بالأحداث، إذ فيها كانت نهاية المقاطعة والخروج من الشعاب . . وفيها كان موت أبي طالب، وخديجة (رضي الله عنها)، وخلالها ازداد أذى قريش للمسلمين، فنالت من الرسول ﷺ ما لم تنل خلال السنوات السابقة منذ مبعثه . .

وهكذا خرج الرسول ﷺ سعياً على الأقدام، يرافقه زيد بن حارثة ربيبُ النبي الذي أبى البقاء في مكة، بدافع من حبِّه لرسول الله ﷺ ورغبة في القيام على خدمته، من دون سائر الصحابة الأبرار، لأن الرسول ﷺ كان قد تبنَّاه وصاروا يدعونه زيد بن محمد. .

وقد منع الرسول أصحابه من مرافقته، حتى لا تخلو الساحُ في مكة لقريش وحدها، لأنه بذلك قد تتيح لها الفرصة لمعاودة السيطرة على المجتمع المكي بعد أن تضعضعت هذه السيطرة أو كادت. . .

. . وفي الطائف، قصد الرسول العظيم أشراف ثقيف وكانوا ثلاثة إخوة هم: عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن يعمر.

جاءهم الرسولُ ﷺ وراح يحدِّثهم عن دعوته، وأهميتها في حياة العرب، وحياة الناس أجمعين، ويدعوهم في الوقت نفسه إلى نصرته، والقيام معه على من خالفه من قومه في قريش، ثم اعتمد في دعوتهم نفسَ النهج الذي عُرف عنه، من تلاوة آيات الله العظمى، إلى بيان معانيها الرائعة، وإظهار عظاتها البالغة، التي لو أُسمعت إلى الحجارة وفقهتها لخرَّت ساجدة إجلالاً لقدرة مُنْزِلها وعظمته. . . ولكن، ورغم ما في البيان من آيات لقوم يتفكَّرون، لم يستجب زعماء ثقيف لنداء الإيمان، بل على العكس، ردّوا على محمد ﷺ وهو يبلغ رسالات ربه، بشرّ جواب.

فقال أحد هؤلاء السفهاء الضالين: «إنني أمرط ثياب الكعبة إن كان الله بعثك نبياً».

وقال الآخر: «أما وجد الله أحداً غيرك يُرسله»؟ . .

وقال الثالث: ويبدو أنه كان أكثر تهذيباً وربما أرجح عقلاً من أخويه: «والله لا أكلمك أبداً. لئن كنت رسولاً من الله كما تقول، لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، ولئن كنت كاذباً على الله فما ينبغي لي أن أكلمك».

هذا ما كان من أشراف ثقيف، وهو كما يظهر جلياً، ردٌّ على الرسول ﷺ بالتكذيب والسخرية. . لا ضيرَ أن هؤلاء القوم آثروا الضلالة على الهدى، ولم يستجيبوا لدعوة الإيمان الحق، ولكن أما كان أولى بهم، وهم أشراف في قبيلتهم وفي بلدهم، أن يستجيبوا لنداء المروءة، وأن يكتموا خبر ﷺ عن الناس، فلا يذيعون في أبناء قومهم، بعد أن طلب هو ﷺ منهم ذلك، لأنه يعرف نتائج ذلك الذيوع وصعق الجاهلين به، وأقلها مجلبة الأذى له على أيديهم، ثم وصول خبره إلى قريش فيزيدها صلافة وعتوة » ؟ ! . .

وفي الواقع إنَّ أصالة الشرف والمروءة كانت ميتة في نفوس أولئك النفر الثلاثة، حتى لم يبق عندهم أي شيء منها، مع أن المروءة كانت من صميم حياة العربي في صحرائه. . وحتى أنهم لم يحملوا من كرامة الأشراف إلاَّ اللقب فقط، يختالون به على الناس بينما هم في حقيقة أمرهم ذوو لؤم وخبث. . فبدل أن يحدوهم شيء من النخوة ويصرفوا الرجل بالحسنى، فإنهم وسفهاءهم قد أطلقوا أولاد الأزقة يلحقون به، ويسخرون منه، ثم أغروا به جهلاءهم وعبيدهم، وألَّبوا أهل الطائف ضده، بعد أن حضّوهم على أذيته. . وها هُمُ

أولئك الناس يجتمعون في صفين على جانبي الطريق الذي يريد محمدٌ ﷺ الخروج منه عنهم، فينهالون عليه بالسباب والشتائم، ويضعون في طريقه الشوك ويرشقونه والحجارة، في أغلبها على قدميه، حتى أنه كان لا يرفع رجلاً أو يضعها إلاَّ رضخوها بالحجارة، فجرحت ساقاه وتخضبت قدماه بالدماء!!

وكان زيد بن حارثة الوفي الأمين يحاول أن يذود عن نبيِّه الكريم بجسمه، وأن يتلقى ضربات الناس عنه، بأطرافه، فتقع عليه حجارتهم، لتفعل فيه أكثر مما فعلتْ بالنبي ﷺ، وهو غير عابىء بما يلاقيه، غير آبه بما ينزل عليه، بل همّه أن يحمي نبيّه، وأن يبعد عنه أذى القوم...

ولم يكن أمام الرسول إلا أن يستعجل زيداً في المسير، ويدعوه إلى أن يحثّ خطاه، حتى يفرّا من هذه الجماعة الظالمة.. يا الله!.. هذا رسولك وحبيبك، محمد بن عبد الله، أشرفُ خلقك، واحسنُهم خُلقاً، الصادق في إنسانيته، القائم في رسالته، يجبره قومه القرشيون، على أن يطلب النجدة في ديار الغربة، حتى إذا أتاها فلا يلاقي فيها إلاَّ هواناً أشدَّ، وجهالةً أعتى، وعداءً ألدَّ، لدينك أنت يا ذا العزة والقدرة؟..

هل هذا ما كتبته على رسولك ﷺ، في دعوته لدينك الحنيف، حتى وجد هؤلاء الجاهليون المشركون، في هذا الداعية، موضعاً للسخرية والتهكم، فراحوا يستعرضونه في صفين، يتعاونون على ازدرائه والسخرية منه؟..

سبحـانك اللهم وعفـوك . أنت ناصَـر المستضعفين . . وأحقُّهم رُسُلك وأوليـاؤك وهــذا محمــد بن عبــد الله ، حبيبــك ونجيبُــك ونجيّك ، يلوذ بالفرار من الساخرين والمستهزئين بعد أن خذله قومُـه وعـشيـرتـه ! . فـلمَنْ تـتـركــه في هــذه الـشــدَّة ، وأنـت أرحـم الراحمين ؟ ! . .

سبحانك اللهمَّ وعفـوك! . . إنه الـرسول الأعـظم، الحبيب إلى قلوبنـا، المالـك لنفوسنـا . . فلا يمكن إلاَّ أن نقف خـاشعين لحلمـك وحِكمتك، فأنت الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بك . .

. . هكـذا خرج الـرسول ﷺ من الـطائف، ليحتمي في الجوار بحـائط في ظل شجيـرات كرمةٍ، تـدلّت على سور بستـان فسيح، كـان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وقد التجأ إليه رسول الله ﷺ مع زيد ابن حـارثة، حتى يلتقـطا الأنفاس، من شـدة ما أصـابهما من التعـدِّي اللَّئيم . .

ركن الـرسـول ﷺ إلى الـظل قـرب الحــائط، مهيض الجنـاح، مكلوم الفـؤاد ، فهانتْ عليه الدنيا، ورفع ناظـريه إلى السمـاء، يشكو إلى ربه ظلم الكفار وجهالتهم، ويسأله الرضا والمغفرة، قائلاً بـدعائـه القائم أبد الدهر دليلاً على ذلك الارتبـاط من عبوديتـه الحقة الخـالصة لله : «اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقلةَ حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الــراحمين . . أنت رب المستـضعـفيـن، وأنت ربـي . إلى مـن تكِلُني . . إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فـلا أبـالي ، ولكنَّ عــافيتـك أوسـع لي . . أعـوذ بنـــور

وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصَلحَ عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنْزِل بي غضبَك، أو تُحل عليَّ سخطك. لك العُتَبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلَّا بك». .

وكان هذا الدعاء فيه الحزن والأسى، ولكن عينَ الله، ورسوله يجهد نفسه في سبيل نشر دينه الحق ترعاه، وترصد حركاته، وتراقب فعاله، وتراه وهو يردِّد كلماته. . وإنَّ إيذاء هذا الرسول العظيم قد آذى السماء ومن في السماء يقيناً، فكانت ردَّة الفعل المباشر الفوري، أن ارسل الله سبحانه وتعالى جبرائيل الأمين عليه السلام، يواسي النبي ﷺ في أزمته النفسية: أن . . يا محمد، يا من أرسلك الله رحمةً للعالمين، إن الله عز وجل قد سمع قول القوم ورأى فعالهم، وقد بعثني لتأمرني بأمرك، إن شئت بعث إليهم ملكاً يزلزل بهم الجبال ويزيحها، ويرميهم بصواعق، لا تترك لهم او لبلادهم أثراً، أو أنه يخسف بهم الأرض، فتبتلعهم، وهنا تجلَّت عظمة رسول الله ﷺ في قوله: «لا . . بل أرجو الله أن يُخرِج من أصلابهم من يعبده على وجه هذه الأرض». .

لقد رغب أهل الطائف، وعلى رأسهم، جماعة ثقيف، عن دين الله، فآذوا نبيّه ورسوله الكريم، فلم يجد محمدُ ﷺ ملاذاً له إلَّا الله ـ سبحانه ـ فتوجه إليه بدعائه ذاك، غير مبالٍ بأية صعوبة مهما كانت، ولا عابىء بأي ألم مهما عظُم، ولكن كان يهمه أمر واحد فقط وهو رضا ربّه، وبعده تهون أمور الدنيا بأسرها. .

ولعلَّ هذا الإتصال الروحي بخالقه قد جعل الرسول ﷺ، يهدأ

بعد التأثر الذي أصابه، فجلس يستريح في فيء الكرمة، وفي ظلال الرحمة الربانية، وابنا ربيعة، صاحبا البستان، يرقبان حركاته وسكناته، فأثارهما أمر هذا الرجل. الذي ظلَّ ثابت الجأش، متماسك الأعصاب، رغم الذي لاقاه، فإذا بهما يتطلعان بعضهما إلى بعض، ويتبادلان المشاعر الصامتة، التي تعبِّر عن الدهشة والإكبار، فيهزّ شغاف قلبيهما، ويدعوان غلاماً لأحدهما، كان يُدعى عدّاساً، ويأمرانه بأن يقطف بعض العنب، ويأخذه إلى الرجل المتفيء بظل البستان مع صاحبه، حتى يبلا ريقهما بعد الذي أصابهما من المهانة والمشقة..

ويجيء عدّاس بطبق مملوء بالعنب، ويقدّمه للرسول ﷺ ويدعو الرسول زيداً إلى تناول بعض العنب، ثم يمد يده إلى حبة ويقول:

«بسم الله الرحمن الرحيم»...

ثم يأكل.. وفعل زيد بن حارثة مثل ما فعل النبي ﷺ، وعداس واقف ينظر إليهما.. فلما سمع ذكر الله الرحمن الرحيم قال مخاطباً الرسول ﷺ:

ـ هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد..

وأدرك الرسول أن هذا الغلام ليس على الوثنية، فسأله عن بلده ودينه، فقال له عدّاس: أنا من أهل نينوى، وعلى دين النصرانية..

قال له الرسول ﷺ: إذن أنت من قرية الرجل الصالح، يونس ابن متى؟!..

وبُهِتَ عدَّاس لذكر النبيّ يونس عليه السلام، فقال للرسول

(ص) : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ ! . .

فقال له الرسول ﷺ : ذاك أخي . . كان نبيّاً وأنا نبي . . وانطلق إيمان النصرانية بالنبوّة المحمدية نقياً، تعبِّر عنه نفس عداس الطاهرة، فقد ارتمى على الرسول ﷺ متأثراً، يقبل رأسه ويديه، محاولاً الوصول إلى تقبيل قدميه، فمنعه الرسول ﷺ عن ذاك . . ولكن عدّاساً قال له :

ـ دَعني يا نبيَّ الله ، أغسل هذه الدماء عن قدميك بدموع مآقي ، عسى أن يرحمني الله ، وأكون من عباده الصالحين . .

ثم دعا له الرسول الكريم بالرحمة، والبركة . . فطربتْ نفس عدّاس، وجلس إلى جوار النبيّ ﷺ يسأله عن حاجة يقدمها له ولصاحبه، وابنا ربيعة يشهدان ما يجري، فإذا بأحدهما يقول لأخيه :

أمّا غلامك فقد أفسده عليك . .

ويصرخ صاحب عدّاس به، فيستأذن الرسول ﷺ ويذهب إلى سيده، فيقول له :

ـ ويلك يا عدّاس . . ما بالك انكببت على هذا الرجل توسعه لثماً، حتى رغبت في تقبيل قدميه! . .

ويجيبه عدّاس صادقاً والله قد مَنَعَني من تقبيل قدمه، وما كان أحب إليَّ أن أقبِّلها . . أما إنه أخبرني بأمرٍ لا يعلمه إلاَّ نبيٌّ مرسل . .

فقال له ابن ربيعة : ويلك يا عداس، لا يصرفنَّك عن دينك . فإن دينك خير من دِينه . .

فأجاب عدّاس مخلصاً: أما إنَّه دين الله.. فكله خير..

وهكذا.. لم يجد رسول الله ﷺ خيراً في الطائف.. وكان لا بد له إلا أن يمضي في الخطة التي رسمها للدعوة، رغم أن الطائف لم تستجب له، فعليه إذن أن يعرض دعوته على القبائل، حتى إذا وافقت إحداها، طبَّق عليها الإسلام ثم دعا بقية القبائل إلى تطبيقه، فقرَّر العودة إلى مكة، مهبط الوحي.. كي يتمكن من الاتصال بقبائل العرب، التي ستفد مكة، وقد بات موعدها قريباً بحلول المواسم..

ولكنه وهو لم يحقِّق ما أراده في الطائف، فلا بدَّ له من الرجوع سريعاً.. فقام يغذ السير. وبجانبه زيد بن حارثة، لا يفارقه أبداً.. وظلَّا يسيران حتى هبط الليل، وهما في جوف الصحراء. فتوقفا عن المضي كي يأخذا قسطاً من الراحة..

.. وتحت سماء الصحراء الصافية وفي هدأة السكون، حيث لا حركة، ولا ضوضاء، ولا حسيس، ولا أنيس، إلَّا توقُ النفس الكبيرة للاتصال بخالقها، في إشراق روحاني، لا تعرف تسابيحه إلَّا ملائكة السماء، راح صوت الرسول ﷺ يتهادى في جنبات البادية، وهو يذكر الله تعالى، ويسبِّحه في عليائه. فتستجيب له الكائنات التي تعرف حلاوة الإيمان، وتستشعر حقيقة العبودية لكي تشاركه في تمجيده الخالق العظيم، رب العوالم وما فيها من مخلوقات الإنس والجن...

ويصلُ صوت الرسول ﷺ في ترتيله القرآني إلى أسماع نفرٍ من

جن نصيبين، وهم في طريق ذهابهم إلى اليمن، فيسترعي انتباههم هذا الذكر الحكيم، ويجلسون لينصتوا، حتى يخفت الصوت قليلاً، ويهدأ صاحبه، فإذا بهم يخرون ساجدين لله تعالى، وقد غزا الإيمان قلوبهم، فاستجابوا لنداء الإسلام، مؤمنين بصدق رسالة حامله ﷺ . .

ولم يظهر هؤلاء الجنّ على النبيِّ ﷺ ، بل اكتفوا بما أنعم الله عليهم، فولّوا إلى قومهم منذِرين، يهدونهم إلى الإيمان، فآمنوا بما قالوا لهم، وصاروا مسلمين.

وإذا كان هؤلاء النفر من الجن لم يظهروا أنفسهم للنبيّ ﷺ ، فإن الله سبحانه قد رأى وقد سمع . . وقد رأى ما آل إليه أمر رسوله الكريم في الطائف، فصرف إليه في طريق العودة نفراً من الجن، يستمعون إليه ويؤمنون به، وذلك تعويضاً له عمّا أصابه في الطائف التي جاءها ولا همَّ له إلّا إظهار دين الله . . حتى إذا تعامى بنو البشر عن الهدى والرحمة، أقبل الجن مهتدين . .

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ (١)

نعم إنَّ في إيمان الجنّ لحِكمة إلٰهيَّة بالغةً، وهي أن يعوض على

(١) سورة الاحقاف.

الرسول العظيم ﷺ ما قاساه من إعراض بعض الإنس عن دعوته ، فاستجاب له الجنُّ . . وفي ذلك عظة لقوم يتفكرون . .

وتابعَ الرسول ﷺ بعد ليلة ذاك السير حتى وصلَ مشارف مكة، وأراد الدخول إليها، فخاف عليه زيد بن حارثة، من كيد للكفار قد ينصبونه له، فرجاه ألّا يدخل إلّا في جوار أحد من أهل مكة . .

ونزل الرسول ﷺ عند رغبة زيد ، وهو يراه يتعلق باطراف ثوبه، حائلاً بينه وبين التقدم إلى مكة، وكي لا يتعرض للأذى بعد ذلك التعب الشديد الذي نالَ منهما في الطائف ، وبعد مشاق السفر وقطع المسافات ، حبّاً به ، وشفقةً عليه وإكراماً له ، وجلس يرقب وينتظر ، حتى إذا مرَّ به في تلك الناحية رجلٌ من مكة استوقفه وطلب إليه إن كان يبلغ رسالة يحمله إيّاها . . . فسأل الرجل عن كنْهِ تلك الرسالة ، فأخبره ﷺ بأن يذهب إلى الأخنس بن أبي شريف ، ويقول له بأن يجير محمد بن عبد الله في عودته من الطائف . .

وذهب الرجل، وجلس النبي ﷺ مع زيد ينتظران، حتى إذا مرَّت عدة ساعات، أدرك بعدها الرسول ﷺ أن الأخنس قد رفض طلبه، فلبث في مكانه آملاً مرور شخص آخر. . وإن هي إلاَّ هنيهات مرَّ بهما شخص غير الأول، فطلب إليه أن يذهب إلى سهيل بن عمرو ليجيره، ولمّا لم يأته خبر، أوصى مع شخص ثالث، وسأله بأن يذهب إلى المطعم بن عدي، ويقول له بأن محمد بن عبد الله يسألك الجوار حتى يبلغ رسالات ربه، فأجابه المطعم إلى ما أراد، ولكن كان الليل قد حلَّ، فلم يفعل شيئاً، فطلب منه أن يبيت تلك الليلة عنده فلما

اصبح الصباح خرج ﷺ وخرج معه المطعم هو وبنوه الستة وقد تقلَّدوا السيوف جميعاً وقالوا لرسول الله ﷺ طُف، واحتبوا بحمائل سيوفهم في المطاف وقبع المطعم بن عدي في أحد أركان المسجد، حتى دخل نفر من قريش وفيهم أبو سفيان بن أمية بن عبد مناف. فلما رآه وجماعته، أقبل عليه يسأله:

ـ أمجير أم تابع؟..

فقال له المطعم: بل أنا مجيرٌ..

قال أبو سفيان: إذن لا تُخفر (أي لا ينتقض عهدك ولا يُعتدى على من اجرته) فقد أجرنا من أجرت.. فهلَّا أخبرتَنا من هو صاحب الجوار؟

قال المطعم: محمد بن عبد الله..

ووقع الخبر على أبي سفيان كالصاعقة.. وأسقِط في يده، فلم يعد قادراً على الرفض، وقد أعطى للمطعم وعده، فإذا نكث فقد ينقلب جوار المطعم إلى عداوة لقريش، فيخسرون فيه عضدا ونصيراً.. وهكذا لم يُبدِ أبو سفيان ولا أحد من جماعته ممانعة، فأرسل المطعم إلى النبيّ ﷺ يدعوه للنزول إلى مكة..

ودخَلَ الرسولُ ﷺ مكة، وفي نفسه حسرة ولوعة لهذا الوضع السيء الذي أوصله لطلب جوار احد المشركين حتى يتمكن من الدخول إلى داره وإلى بيت الله..

إنها حقاً قساوة على تلك النفس الأبية، ما بعدها قساوة، ولكن ما العمل وهو امر الله ومشيئته؟!.

وعادَ الرسول ﷺ سيرتـه الأولى في تبليغ رسـالة ربِّـه. . لا يعبأ بما ينزل عليه من مصاعب، أو يحلُّ به من مساءات، فسيان عنده ذلك كله، طـالما هـو قائم على عهـده لربِّـه، مخلص في إظهـار أمـره. . يحـاول الكفار مجـادلته بـالبـاطـل، فيـأبى إلاَّ أنَّ يجـادلهم بـالحسنى والموعظة الحسنـة، ولكن إن ناكفـوه القول، حبـاً في إيذائـه والإساءة إليـه، فإنـه لا يمتنع عن منـاكفتهم بمثل مـا يفعلون حتى يرعـووا. . . وهذه جماعة منهم في نادٍ قائم على الشرك، تـرى الرسـول ﷺ ماراً، فيقول أبو جهل لبني عبد مناف، الحاضرين في ناديهم:

«أنظروا، ذاك نبيّكم يا بني عبد منافـ!. .

فيقـول له عتبـة بن ربيعة ومـا ننكر ان يكـون منّـا نبي أو منـك! ويسمع النبيُّ ﷺ ما يقولان، فيتقدم من الجمع، ويقول موجِّهاً الكلام لعتبة:

أمَّا أنت يا عتبة فوالله مـا حميت لله ولا لرسـوله، ولكنـك حميتَ لأنفك». . .

ثم يلتفت إلى أبي جهل ويقول له: «أما أنت يـا عمرو فـوالله لا يأتي عليك كبير من الدهر حتى تضحك قليلاً، وتبكي كثيراً» . .

ثم يخاطب الكفار وهو يقول:

«أما أنتم يا معشر الملأ من قريش، فوالله لا يأتي عليكم غير قليل من الدهر حتى تدخلوا فيما تُنكرون وأنتم له كارهون».

الحق، الحق، ينطق به رسول الله ﷺ، وهو يُنذر هؤلاء الكَفَرة الفجَـرة بما سيؤول إليـه أمرهم، يـومَ يُظهـر الله سبحـانـه دينـه الـذي

ينكـرونه، ثم يـدخلون فيه رغمـاً عن أنوفهم، مكـرهين، مهـزومين. . فالموعد آتٍ، لا ريب فيه، فليتمادوا في الإعراض والإنكـار، وليتفننوا في الأذى والمقـاومة . . إنهـا مرحلة سـوف تمرُّ ـ طـالت أم قصرت ، فهي إلى زوالٍ حتماً ـ وسيدرك الذين كفروا أي منقلب ينقلبون . . .

وتتابع تلك المرحلة، بعذابها وقهرها، وتحل أيام المواسم.

وفي أيام معدودة، تفدُ إلى أم القرى قبائل العرب، آتية من جميع أنحاء الجزيرة العربية لتشهد منافع لها ولتقيم مناسك الحج. . .

محمد ﷺ يعرض نفسه على أهل النصرة

إن الافكار مهما بلغت عمقاً وتناهت لاستيعاب أوضاع، تظل بلا جـدوى وكأنهـا لـم تكن، إن ظلَّت حبيسة في رؤوس أصحـابهـا، ولم تنطلق إلى واقع الحياة تؤثر فيه. ولا يكون لها مثل هـذا التأثيـر إن لم تدخل في قنـاعات رجـال أقويـاء، يستطيعـون تحويـل التصورات إلى قرارات، والدراسات إلى سياسات. ومن أولى من رجل السلطة يقتنـع بفكـرة فيحيلها واقعـاً وحقيقة، ومَن أفضـل لها من أشخـاص يتمتعـون بنفوذ وقوة يجسدونها نمط حياة وأسلوب تعايش.

والفكـر الإسـلامي الـذي يحمله محمـد ﷺ استجـابـة للوحي الإلٰهي، كمن فيه من القوة ما جعل الدعوة التي حملها تأخذ مداها إلى الحد الذي أطلقها حقيقة يجب ان تعانق عقول ونفوس أصحاب النفوذ حتى تتمكن من إقامة الحكم الذي تستهدفه.

ولـذا تهيأ الـرسول الأعـظم ، بعـدمـا ضـربت المنـازل في منىً

واعتلتها الرايات تُعلن عن النازلين فيها ، لملاقاة شيوخ القبائل ورؤسائها للاتصال بهؤلاء الذين وحدهم يملكون السلطة آنذاك ، ويجسدون من دون غيرهم مراكز القوى في بيئتهم ، فيكونون أهل نصرة لمن استنصر بهم .

ولعلَّ ذلك الذي كان هو بخلاف ما نشهد اليوم حيث تتوزع مراكز القوى ما بين الحاكم والتاجر ، والسياسي والقائد العسكري ، وكل واحد منهم منهم يكون من أهل النصرة .

نعم جاء الرسول محمد ﷺ قاصداً أهل النصرة من القبائل العربية التي وفدت مكة في ذلك الموسم ، فتوجه إلى سيد كندة في مضاربه ، وهو يومذاك شيخ يقال له مليح ، فدعاه إلى الله ، ودعَا جماعته معه ، ولكنَّهم أبوا الهداية .

فأتى كلباً ، وقد نزل منهم بطنٌ يقال له بنو عبد الله ، فدعاهم أيضا إلى الله ، وعرض نفسه عليهم ، فرفضوا مثل بني كندة الانصياع إلى الحق .

ثم أتى ﷺ من بعدهما إلى منازل بني حنيفة ، فكان موقفهم أشدّ من موقف من سبقهم ، وردوه رداً غير جميل . . ولكنه ، رغم هذا الإنكار من قبائل العرب ورغم عدم الاستجابة إلى الإيمان الذي يدعوهم إليه ، لم ييأس ولم يقنط ، بل تابع الاتصال بالقبائل ، فأتى بني عامر بن صعصعة ، يبلغهم رسالة ربه . وطمع هؤلاء إذا هو انتصر

بهم ، أن يكون لهم الأمر من بعده ، فراحوا يفاوضونه على ذلك ، وقالوا له :

ـ « أرأيت إن نحن تابعناك ، فأظهرك الله على من خالفك ، أن يكون لنا الأمر من بعدك » ؟ ! .

وجاءهم الجواب القاطع ، الذي لا ريب فيه ، وهو يصدر عن رسول الله ﷺ :

« الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء » .

إنه واضحٌ وبديهيٌّ أن الأمر لله وحده ، فهو سبحانه يضع أمره حيث يشاء ، ولا يمكن لأحد من أهل الأرض أن يقرر أمراً هو لله سبحانه . . ولكن كيف يعرف أهل الأرض هذه الحقيقة ، وهم لا يطلبون إلا الحياة الدنيا . . ولذلك قال بنو عامر لرسول الله ﷺ :

« أفنهدف نحورنا للعرب دونك ، فإذا ظهرت كان الأمر لغيرنا ! . . لا حاجة لنا بأمرك » .

وجاءَ أحد شيوخ بني عامر ، وقد كان في طلب حاجة شخصية له خارج المنازل ، فلما عرف النبي ﷺ ونسبه ، استنكر ما فعله بنو قومه ، وقال لهم :

يا بني عامر هل من تلاق ؟ . . والذي نفسي بيده ما تقوَّلها إسماعيليٌّ قطُّ ، وإنها لحقٌّ ، وأين كان رأيكم عنه »! . .

لقد أراد هذاالشيخ الحكيم أن ينصح بني قومه ، ولكنهم لم

يأبهوا لهذا النصح الجميل ، فظلّوا على كفرهم بسبب المطمع إلى الملك والسلطان ، لا الإيمان بالله وإعلاء كلمة الحق . .

تلك هي النزعة التي كانت تُسيطر على النفوس ، وتذهب بالعقول ، يبرزها بنو عامر في طلبهم إلى رسول الله ﷺ أن يكونوا خلفاء له في الأرض على دين الله ، وهمُّهم الوحيدُ أمور الدنيا ، وشاغلُهم أسبابُ الحياة . . فهل يكون مثل هؤلاء جديرين بأن يحملوا الأمانة الكبرى التي عهدها الله سبحانه لرسوله الكريم ، وجعلها من بعده لأوليائه الصالحين وحدهم ، من دون سائر خلق الله ؟ ! .

لا ، لا يمكن لبني عامر ، ولأمثالهم من أهل الأرض ـ وهم طلاب مجدٍ دنيوي ـ أن يندبوا أنفسهم لنصرة دين الله ، ولا يرتضي الله سبحانه وتعالى هذه الجماعة ، وأمثالها لحمل امره والدعوة إليه ، فكان إعراضهم بمشيئة الله . . ولكن ذلك لم يمنع رسول الله ﷺ أن يستمر بدعوة القبائل في منازلها ، يعرض عليها دعوته ويسألها نصرته وحمايته حتى يبلِّغ رسالة ربِّه ، غير مبالٍ بإعراض القبائل عنه ، وعدم الاستجابة له ، موقنا أن الغلبة للحق وإن طال الزمن ، وأن النصر مع الصبر ، وأن الفرج بعد الكرب ، وأن مع العسر يسرا .

. . إذن ، فالرسول ﷺ لا يُلاقي إلا الصدود والإعراض من قبائل العرب . ولكن الموسم لم ينتهِ بعد ، ولذا فهو لن يحيد ، ولن يتوقف عن متابعة الاتصال . .

ومن خلال هذه المتابعة يعلم أن هناك بني شيبان وهو لم يأتهم

بعد . . فيدخل الرسول ﷺ عليهم مع بعض أصحابه ، ويجتمعون بهم ، فيسألهم أبو بكر (رضي الله عنه) :

ـ مَن القوم ؟ .

قالوا : من بني شيبان بن ثعلبة . .

قال أبو بكر : لنا فيكم أهل وخلان وصحبة .

ويريد أبو بكر ، أن يظهر فضلَ هؤلاء القوم ، فيقول لرسول الله ﷺ :

« بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، ليس بعد هؤلاء القوم من عز ، وإنهم غررٌ في قومهم وغرر في الناس » .

كان على رأس بني شيبان رجل يقال له مفروق بن عمرو ، فسأله أبو بكر :

ـ كيف العدد فيكم ؟

قال مفروق : إنا لنزيد على ألف ، ولا نغلب من قلة .

قال أبو بكر : فكيف المنعة فيكم ؟

قال مفروق : علينا الجُهد ، ولكل قوم جدّ .

قال أبو بكر : فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم ؟

قال مفروق : إنَّا أشد ما نكون لقاء حين نغضب . وإنا لنؤثر الجياد على الأولاد ، والسلاح على اللِّقاح (أي الإبل)، والنَّصرُ من عند الله يديلنا مرة ويديل علينا . .

قال أبو بكر : وهل بلغكم أن الله سبحانه بعث فينا ، نحن معشر قريش ، محمد بن عبد الله ، رسولاً مبشراً ونذيراً ؟

قال مفروق : لقد بلغنا ذلك ، وما عرفناه . .

قال أبو بكر : إنه هو رسول الله ﷺ وقد جاء يعرض نفسه عليكم . .

وراح الرسول الكريم يتحدث إلى بني شيبان . . ثم دعاهم إلى ترك الوثنية وعبادة الأصنام ، والإيمان بالله الواحد الأحد ، وبالإسلام دين الهداية والحق ، حتى إذا أفاض في البيان والتبيان ، قال لهم : « أدعوكم إلى شهادة لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأني رسول الله ، وأن تؤوني وتنصروني حتى أؤدي عن الله تعالى الذي أمرني به ، فإن قريشاً تظاهرت على أمر الله ، وكذّبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد » . .

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ ! . . فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى :

* ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ (١)

(١) سورة الانعام ١٥١ ـ ١٥٣ .

فقال مفروق : وإلامَ تدعو أيضاً يا أخا قريش ؛ فوالله ما هذا من كلام أهل الأرض ، ولو كان كلامهم لعرفناه . .

فتلا رسولُ الله ﷺ :

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١)

فقال مفروق : دعوت والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاق ، ومحاسن الأعمال ، ولقد أساء قوم كذبوك وظاهروا عليك . .

وأحب أن يشركه في الكلام هانىء بن قبيصة ، فتابع قائلاً : « هذا هانىء بن قبيصة شيخُنا وصاحب ديننا» . .فقال هانىء: «قد سمعت مقالتك يا أخا قريش . . وصدّقت قولك . وإني أرى إن تركنا ديننا ، واتبعناك على دينك لمجلسٍ جلسته إلينا ـ ولم نتفكّر في أمرك ، وننظر في عاقبة ما تدعونا إليه ـ لزلّة في الرأي ، وطيشة في العقل ، وقلة نظر في العاقبة . وإنما تكون الذلة في العجلة . . وإن من ورائنا قوماً نكره أن نعقد عليهم عقداً ، ولكن نرجع وترجع . . وننظر وتنظر » . .

وأرادَ هانىء أن يشركه شيخ آخر من القوم ، فقال : وهذا المثنى ابن حارثة شيخنا وصاحب أمرنا .

فقال المثنى : « قد سمعت مقالتك ، واستحسنت قولك يا أخا

---

(١) سورة النحل . ٩٠ .

قـريش ، وأعجبني مـا تكلمت بـه . . والجـواب هـو جـواب هـانيء ابن قبيصـة . وإنَّا إنمـا نزلنـا بين حيزين : أحـدهما اليمـامة ، والآخـر السماوة ».

فقال رسول الله ﷺ : وما هذان الحيزان ؟

قال المثنى : « أما أحدهما فطفوف للبر ، وأرض العرب ، وأمـا الآخر فأرض فارس وأنهار كسرى ، وإنما نـزلنا على عهـد أخذه علينـا كسرى : لا نحدث حدثاً ، ولا نُؤوي محـدثاً (والمحـدث هنا الـذي يحاول تغيير الوضع القائم)، ولعل الأمر الذي تدعونا إليه ممـا يكرهـه الملوك ، فأما ما كان مما يلي العرب ، فذنب صاحبه مغفور ، وعـذره مقبول ، وأما مـا كان يلي بـلاد فارس ، فـذنب صاحبـه غير مغفـور ، وعـذره غير مقبـول ، فإن أردت أن تنصـرف ونمنعك ممـا يلي العـرب فَعلْنا ».

فقال رسول الله ﷺ : « ما أسأتم الرد إذ أفصحتم بالصدق ، إنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه » . .

ثم خاطب رسول الله ﷺ الجمع قائلاً : « أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيـراً ، حتى يمنحكم الله بـلادهم وأمـوالهم ، ويغـريكـم بهـم ، أتسبِّحون الله وتقدسونه » ؟ . .

قال النعمان بن شريك ؛ « اللهم إن ذلك لك يـا أخا قـريش ».
فتلا رسول الله ﷺ ؛

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ۝ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ۝﴾ (١)

ثم انصرف الرسول ﷺ مع أصحابه .. وذاع الخبر في قريش : إن محمداً يتنبأ بأن المسلمين العرب ستغلب الفرس بعد مضيٍّ سنين معدودة ويتضاحك المشركون هازئين : لقد صار ابن عبد الله يعرف أحداث المستقبل .. وراحوا يتهكمون على المسلمين ، ويسخرون من النبي ﷺ ..

وهكذا ارفضَّ هذا الاجتماع ، ولم يدخل بنو شيبان بن ثعلبة في دين الله ، للأسباب التي أظهرها شيوخهم ؛ ولكنهم كانوا خيرا من القبائل الاخرى ، التي عرَضَ الرسول ﷺ نفسه عليها أمثال بني كندة ، وبني كلب ، وبني حنيفة ، وغيرها من القبائل التي كانت تبدي الصدود ، وعدم التفهُّم ، أو تبدي حب الحكم والسلطان ، أو تبدي الطمع في المكانة والسيادة ، بحيث كان لكل منها مأرب لا يتفق مع الإسلام ودعوته الخالصة ، الخالية من المطامع والمآرب ..

وانتهى موسم الحج لذلك العام ، وعادَ الرسول ﷺ من تلك الجولة ، وقد أسمعَ دعوته لقبائل العرب ، وإن لم تُقبل إحداها على تلك الدعوة .

ولم يكن هذا الإعراض ، بدافع التنكُّر للتعاليم الجديدة التي كان يعرضها محمد ﷺ على كل من قدم مكة في الموسم ، بل إنَّ

(١) سورة الأحزاب ٤٥ ـ ٤٦ـ ٤٧ .

ملاحقة قريش له ، في نفَر من زعمائها ، وتأليب شيوخ تلك القبائل عليه ، كان من الأسباب المانعة أيضاً لاعتناق تلك القبائل الإسلام . . وكان أكثر القرشيين ملاحقة للنبي ﷺ ، عمه عبد العزى أبو لهب ابن عبد المطلب، إذ كان يتبعه من منازل إلى أخرى ومن نادٍ إلى آخر ، مكذباً له فيما يبلّغ من رسالة ربّه ، وهو يقول :

« إن هذا ابن أخي ، وأنا أعرف الناس به . وإنه لا يدعوكم إلى خير وإنما هو يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم وحلفاءكم من الجن من بني أقيش إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه ولا تسمعوا له » . .

وكانت العرب تسمع لزعماء قريش ، وتُعرض عن محمدﷺ حتى لا تترك دينها ودين آبائها ، فضلاً عن الدوافع القبلية التي تتحكم في نفوسها . .

ولقد كان في ذلك الاعراض عن الاسلام وبعد العرب عن الإيمان بالله الواحد الأحد ، إيلامٌ شديدٌ للنبي ﷺ . . بل كان يزيد في إيلامه ذلك الإصرار من قريش على عنادها في مقاومته ومحاربته ، وعلى إنزال العذاب والأذى به وبالمسلمين . . فهي ما وهنت يوماً عن اختلاق الأسباب لافتعال المشاكل والجور على حامل الدعوة واصحابه ، وما تقاعست حيناً عن إعلان عداوتها وحربها عليهم ، حتى صارت الأجواء المحيطة بالرسول ﷺ نكداً من جميع الجوانب : مآسي وأحزان في حياته الخاصة ، مصاعب ومتاعب في حياة الدعوة ، وظلم وقهر في حياة الدُّعاة . . فهل بعد أصعب من ذلك على إنسان

حتى ولو كان رسولاً لله سبحانه ؟ ! . .

ثم كان يزيد أيضاً في آلام الرسول ﷺ أنه لا يجد في داخل بيته من يقوم بذلك الدور العظيم الذي كانت تقومُ به زوجه خديجة رضوان الله عليها ؛ فقد كانت ابنته فاطمة عليها السلام تنوء بحمل أثقال المرارة والأسى على أبيها ، في الوقت الذي فيه تحرص على توفير الراحة لهذا الأب الرحيم أشد الحرص ، أما هو ، صلوات الله عليه ، وبما يحمل في طيات قلبه الشفوق فقد كان يرى أن ابنته أولى بالرعاية والحنان من حمل الهموم والرزوح تحت أثقالها . . . ولذلك ، فقد أمضى الرسول ﷺ خلال هذه الفترة ، أياماً ثقيلة مرهقة ، وبات ليالٍ عصيبة مؤرقة حتى صار الحزن مطبوعاً على وجهه الشريف ، مما جعل الصحابة يتألمون من أجله ، ويتفكرون في السُّبل التي لا تبقيه مع ابنتيه وحيدين، مستوحشين لفراق الزوجة والأم ، فراق السيدة خديجة رضوان الله تعالى عليها .

وكانت أكثر من آلمهُنَّ حُزن النبي ﷺ على فراق تلك المبرورة الطيبة ،واحدة من النساء المسلمات هي خولة بنت حكيم السلمية ، زوج الصحابي الحكيم عثمان بن مظعون (رضي الله عنه). فراحت تتفكَّر في سبيل يخفف عن الرسول الكريم بعض أعبائه ومشاغله ، ورأت أن الحل الأفضل هو في زواجه من إنسانة مؤمنة ، فلما اقتنعت بتفكيرها هذا ذهبت إلى رسول الله ﷺ ، تخاطبه مترفقة ، متلطفة ، وهي تقول له :

ـ يا رسول الله ، كأني أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة رحمها الله ؟ . .

ويجيب الرسول الكريم : أجل . . فقد كانت أم العيال وربَّة البيت .

وسكتت خولة قليلاً ، ثم قالت :

ـ ألا تتزوج يا رسول الله ؟ . .

فسألها الرسول ﷺ : منْ بعد خديجة ؟

فقالت : إن شئت بِكراً ، فعائشة بنت أبي بكر . وإن شئت ثيباً فسودة بنت زمعة ، التي آمنت بك ، وتبعت دينك ، وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها الذي مات وتركها وحيدة . .

لقد أصغى الرسول ﷺ لما قالته خولة ولكنه طلب إليها أن تتركه وتعود إليه في الغد . . وحين ذهابها ، راح ﷺ يستعرض ما قالته هذه المرأة المؤمنة ، ويتذكر حياة سودة بنت زمعة ، الإنسانة التي كان لها نصيب خاص في الزواج ، إذ بعد ما جاوزت مرحلة الصبا والشباب تزوجت ابن عم لها يدعى « السكران بن عمرو » . . فأمضت معه سنوات قصيرة كانا خلالها قد آمنا وبايعا النبيَّ ﷺ ، ثم هاجَرا مع المهارجين إلى أرض الحبشة . ولكنَّ المنية لم تلبث أن اغتالت الزوجَ دون أن يُنجب من سودة أولاداً ، فندبت حظها وعاشت من بعده أرملة ، مهيضة الجناح ، تصبر على قضاء الله وقدره ، وتتأسَّى بالإيمان الذي ملأ قلبها . فكانت من المسلمات العاملات في مكة ، على نشر الدعوة . .

.. إن حياة هذه المرأة بما واكبها ، جعلت الرسول العظيم يتخذ بشأنها قراراً .. فلما جاءته خولة بنت حكيم في صباح اليوم التالي ، أرسلها في طلب سودة ، وسرعان ما جاءت تسأله عما يريد ، فلم تصدق أذناها ما سمعته منه وهو يعرض عليها نفسه ، فبادرته فوراً بالإيجاب وقالت :

ـ أمري إليك يا رسول الله ..

وطلب إليها الرسول الكريم أن تأتي برجل من قومها ليزوجها .. فذهبت إلى ابن عم لها يدعى « حاطب بن عمرو » وجاءت به شاهداً على زواجها من رسول الله ﷺ ..

ودخلت سودة بنت زمعة بيت النبوَّة ، فأسبغ الله عليها من نعمائه ورفع قدرها ، وزادها شرفاً وتكريماً بأن جعلها أمّاً للمؤمنين ..

وعاشت سودة في البيت ، تقوم على خدمة الرسول ﷺ بكل جوارحها ، وهي تصل بذلك حاضرها العظيم بماضيها الكريم ، وقد تفتحت أمامها آفاق المستقبل المشرق بالإسلام ، المضيء بالإيمان والرضوان ..

ومثل ما أراد الرسول الأعظم أن يثيب امرأة مؤمنة على إخلاصها في سبيل الله ، فجعل من نفسه رائداً للحدب والبرّ والعطف في بني الإنسان ، كذلك أراد ﷺ أن يعطي المثل في الوفاء والاعتراف بحسن الجميل ، ولذلك طلب من صديقه أبي بكر يَدَ ابنته عائشة ..

ولعلَّ غاية الرسول ﷺ من هذا الأمر ، الاعتراف لأبي بكر

بفضله في الإسلام . . إذ كان (رضي الله عنه) أول رجل راشد قد صدَّقه وآمن بما دعاه إليه دون أي تردد أو إبطاء ، ثم راح من يوم إسلامه ، يعمل على دعوة من وثق به من أهل مكة لتصديق رسول الله ﷺ والدخول في الإسلام ، حتى آمن بفضل أعماله تلك نفرٌ من أوائل المسلمين ودخلوا في دين الله على يدَي رسوله الكريم . .

هذا الاندفاع في سبيل الله ، وما فيه من مؤازرة لرسوله ﷺ ومدّ يد العون له في أدق الأمور وأهمها ، ألا وهي دعوة الناس إلى التخلّي عن معتقدهم الديني واتباع عقيدة جديدة ـ وما ذلك بالسهل اليسير ، ما كان ليمرَّ في حياة الرسول العظيم دون التوقف عنده ، لا ليجزيَ الرجل على إيمانه ، ولكن ليبيِّن للناس فضل أولئك المسلمين الأوائل وتأثيرهم في أبناء مجتمعهم ، وأثرهم في تثبيت دعائم الإسلام . . فكان أن اعتزم ﷺ أن يخطب عائشة بنت أبي بكر في سبيل تلك الغاية السامية ألا وهي الوفاء والبذل لأبيها . . ذلك أن المرأة التي يتزوجها رسول الله ﷺ تكون أمّاً للمؤمنين ، وفي هذا الزواج ليس مكرمةً عظيمة للمرأة وحسب ، بل شرفاً واعتزازاً لذويها ، وخاصة لأبيها وأمها . . فعندما تنال عائشة تلك المكرمة ، فلسوف يهنأ أبو بكر ويعتز . . ولا شيء أحبّ إلى قلب إنسان ، ولا سيما المسلم ، من أن ينال ولده مكانة كبيرة ، لها شأنها في الحياة الدنيا ، وفي الحياة الآخرة إن شاء الله تعالى له ذلك وقدَّر . .

نعم بمثل هذا السموّ الفكري ، والغاية النبيلة ، بعثَ الرسول ﷺ بخولة بنت حكيم إلى أبي بكر (رضي الله عنه) لتخبره

برأي الرسول الكريم .

ودخلت خـولـةُ بيت أبي بكـر ، فـالتقتهـا زوجتـه « أم رومـان » بالتأهيل والترحيب ، فقالت لها خولة ، بعدما ألقت عليها السلام :

ـ ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة يا أم رومان ؟ ! .

قالت زوجة أبي بكر : وما ذاك ؟ ! . .

قالت خولة : أرسلني رسول الله ﷺ أخطب له عائشة . .

وأجابت أم رومان ، والفرحة تملأ كيانها :

ـ ما أحبَّ إليَّ ذلك . . وددتُ من كل قلبي . . انتظري أبـا بكر يا أختاه ، وسيعود سريعاً . .

وحضر أبو بكر (رضي الله عنه)، فـأخبرتـه زوجه بـطلب رسول الله ﷺ إليه ، فبهت الرجل قليلاً ، ثم قال لها :

ـ وهل تصلح ! . . إنها ابنة أخيه . .

لم يقررْ أبو بكر ما يفعل، فتركته خولة وعادت إلى رسـول الله . تخبره مقالته ، فعادَ الرسول ﷺ وبعثها إليه ثانية لتقـول له : إن رسـول الله ﷺ يقـول بأنـك يا أبـا بكر أخـوه في الإسلام ، وأن ابنتَـك تصلح له . .

وعرف أبو بكر (رضي الله عنه) بما بعثَ إليه الرسول ﷺ فـوقع في حَيرة وحَرَج . .

أما علة إحراجه فهو أن عائشة كانت محط الأنظار ، منـذ نعومـة أظفـارهـا ، فهي جميلة للغـــايـة . . بيضـــاء اللون ، تغـطي وجههـا

الحمرة ، فكان الرسول ﷺ يـدعوهـا بالحميـراء . . وكانت ذات قـامة ممشوقة ، وشعر طويل ، تعتني به أشد الاعتناء ، وتحبه حباً جماً . .

وفوق هذه المزايا الخلقية ، كانت عـائشة تتمتـع بصفات خُلُقيـة معيَّنـة ، فكانت خجـولة بـطبعها ، مـوفورة الـذكاء والنشـاط ، عصبية المزاج ، قد أخذت من طباع أبيها ما تأصل فيها ، وجعلَها فتاة وكأنهـا شعلة متوقدة من الجمال والحيوية . .

ذلـك كله ، ما جعلهـا تبرز في عيـون الآخرين ، ويسعـون إلى طلب يـدها ، حتى وافقَ أبـوها على أن يخـطبها إلى جبيـر بن المطعم ابن عديّ ، أحد أهل مكة المقربين إليه بالمودة والصداقة . .

تلك الخطبة التي كانت قد تمت منـذ عدة شهـور ، هي ما أقلق أبا بكر ، عندما طلب إليه الرسول ﷺ يَد عائشة ، فحـارَ ماذا يفعـل ، هل يخلف وعده للمطعم ، وهذا ليس شيَمه ، أم يرفض تلك المكرمة التي عرضها عليه رسول الله ، ويترك هذا الشـرف العظيم الـذي يأتيـه من خير خلق الله . ؟ . .

إنـه مأزق حـرج حقاً ، وقـع فيه أبـو بكر (رضي الله عنـه) . . ولكنه لن يقعد مكتـوف اليدين ، بـل سيسعى للخلاص منـه ، علَّ الله سبحانه يتيح له باباً للفرج . .

ومضى أبو بكر إلى المطعم بن عدي ، وفي نيَّتـه أن يطلب إليـه تزويج ابنـه من عائشـة ، فإذا وافق ، فسـوف يذهب إلى رسـول الله ، ويخبره بجليَّة الأمـر ، وبأنـه لم يستطع أن يتحـرَّر من وعد قـطعه على

نفسه ، ولسوف يدرك الرسول الكريم موقفه ، فيبارك له شرف الوفاء بالوعد . .

دخل أبو بكر بيت المطعم فألفاه مع زوجه لوحدهما . ووجدها أبو بكر الفرصة المناسبة ، فأخبر المطعم بما جاء من أجله . . فما كان من الرجل إلاَّ أن التفت إلى زوجه وسألها : وما تقولين يا امرأة ؟ ! . .

وأحسَّ أبو بكر في توجُّه المطعم إلى زوجه وسؤالها عما تقول ، أن هنالك نية مبيتة عند أهل هذا المنزل ، فانتظر لعلَّ المرأة تُفصح عنها . . وبالفعل ، كان ظنّ أبي بكر في محلّه ، إذ ما لبثتْ أن أفصحتْ عما كانت قد اتفقت عليه مع زوجها من قبل وذلك عندما قالت لأبي بكر :

ـ أتعلم يا ابن أبي قحافة ! . . لعلّنا إن زوَّجنا ابننا بابنتك ، أن تفتنه أنت فيصبأ ويدخل في دينك . .

وشعر أبو بكر ببشائر الفرج تدنو منه ، فسأل المطعم :

ـ وما تقول أنت يا أبا جبير ؟

فلم يزد على أكثر من أن يقول : لقد سمعت ما قالت المرأة . .

وخرج أبو بكر تحُفُّه ظلال العناية الإلٰهية ، فالمطعم هو الذي نكث الوعد ، وصار أبو بكر (رضي الله عنه) في حلٍّ من همٍّ أرَّقَه وأضناه ، فأسرع إلى بيت خولة بنت حكيم ، يدخل عليها والرحمة تغمره ، ولا يلبث أن يقول لها :

ـ لقد فرجتْ يا أختاه ، إني ملتق رسول الله ﷺ الآن ، ولكني

أحببت أن أزفَّ لك البشرى ، لأنك صاحبة الفضل في سريان الفضل إلينا . ولم تقدر خولة أن تمنع عنها الفرح فهبَّت مسرعة إلى رسول الله ﷺ تسبق أبا بكر إليه ، فما كان منه ﷺ إلاَّ أن لبس بُردته ، وتوجَّه إلى دار الصدِّيق الوفيِّ ، والأخ المناضل ، أبي بكر ، يطلب يدَ عائشة . . وفي مساء ذلك اليوم من شوال للسنة العاشرة من مبعث رسول الله ، الموافقة لسنة عشرين وستمئة ميلادية ، تمت خطبة رسول الله ﷺ على عائشة بنت أبي بكر . .

كانت عائشة يومذاك في التاسعة من عمرها . . وخُطبتها في تلك السن المبكرة لم تدهش أحداً أو تثير عجباً . . فالزواج المبكِّر للفتيات كان معروفاً عند العرب ، وإقدام الرسول ﷺ على خطبة فتاة حديثة السن ، لا تخالف ذلك الواقع السائد ، فضلاً عن الغاية السامية التي أرادها الرسول ﷺ من تلك الخطبة ، تكريماً لوالد الفتاة ، وزيادة في رفع قيمته ومكانته . . وهي مكانة كان يعرفها المسلمون حق المعرفة ، فارتاحت نفوسهم لها كثيراً ، وجاؤوا إلى رسولهم الكريم يهنِّئونه على ما فعل ، ولم يكن إلاَّ بإرادة من الله سبحانه ، من خلال توجه رسوله المصطفى ﷺ إلى واقع الحياة يعايشه بما يستحق من معايشة كريمة نبيلة . . وهذا الذي دفعه لأن يعتزل الوحدة التي فرضها على نفسه من بعد موت أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) .

ولكن هل حقاً إن زواج النبي ﷺ أو خطبته كانا كفيلين بأن يذهبا عن نفسه العبء الثقيل الذي تحمله . . أمْ أن هنالك الهدف الأسمى ، هو شغل الرسول الدائم ، ومسيرة همه الأول ؟ ! . .

لا . . فما كانت أمور الدنيا ومباهجها لتلفت الرسول ﷺ يوماً وتشده إليها . .

وما كانت أسباب التمتع والراحة بذات وزن أو اعتبار عنده .

إنه حامل الرسالة الكبرى ، وصاحب الدعوة العظيمة ، وهما ، في نظره ، وفي يقينه ، الأوْلى والأهم من كل شيء في الوجود . . والرسالة لا تتقبَّلها العقول التي أغلقها التحجُّر ، ولا تستسيغها النفوس التي ملأها الضلال . . وأصحاب هذه العقول والنفوس ما يزالون بعد عشر سنوات من مبعثه همُ الأكثر عدداً ، والأقوى مقاومة وعناداً . . إذن فهذا ما يشغل الرسول ﷺ وهو مثار قلقه ومصدر همه الدائم وهو ما يعمل ويجهد لإزالته والقضاء عليه . .

. . لقد رفض أهل مكة دعوة الهداية ، فما توانى أن ذهب إلى خارجها . . وكانت الطائف ذات مركز جغرافي وديني واقتصادي يداني مركز مكة ، فقصدها وردّه أهلوها بشر جواب . . ثم ما تقاعس عن عرض نفسه على القبائل في المواسم ، فأبت ، وامتنعتْ عليه ، ولكن بأقل من قريش تعنتاً ورفضاً . . فماذا يفعل بعد هذا كله ؟ ! . .

وكيف لا يكون متعب النفس ، مهموماً ، يتفكَّر في السُّبل التي تجعل الناسَ تعرف الحق ، وتهتدي إلى اليقين ، وهو كلما أبانَ ، وأظهر ، وبشَّرَ وأنذر ، كلما ازداد الناس من حوله جهالةً وضلالاً ؟ .

كانت الأيام تمر سراعاً وكانت في مرورها تشد على صدر الرسول ، وتضيق عليه الخناق حتى شعر وكأن الغربة قد استحكمت ما

بين الناس والإسلام ، وحالت دون نفوسهم والاهتداء إليه . .

في هذا الوقت ، وقد بدا للرسول ﷺ أن مجتمع مكة خاصة ، والجزيرة العربية عامة ، قد امتشقت سلاح الجهل ، وتشبَّثت بقوة الشر ، لتناصبه ودعوته العداء . . وفي الوقت الذي أخذتْ فيه الهموم من نفس الرسول ﷺ كل مأخذ ، تدخلت العناية الإلهية ، لتواسي محمداً ﷺ ، وتطمئنه إلى مصير الدعوة التي يحمل . فوقعت أعظم معجزة عرفها الإنسان على وجه الأرض . . لا لتكون تأييداً لدعوة الإسلام ، وإثباتاً لحقيقته السماوية ، ولا لنصرة دين الله وتقدمه . . بل حدثت ، في هذه الحقبة من الزمن بالذات ، لتكون تأييداً للرسول ﷺ ذاته ، وتشريفاً له وحده دونما أية علاقة بالإسلام . . وكأنما أراد الحقُّ ، عزَّ وجلَّ ، أن يوقع في نفس رسوله الكريم ، أنه إذا كان أهل الأرض لم يحمدوه ، ولم يعرفوا قدره ، فإن السماء تعرف له القدر الكبير وتوليه جزيل الحمد . . وإذا كان الناس يرفضونه ، ويرفضون ما يدعوهم إليه ، فإن الله سبحانه وتعالى ، يجتبيه ويشرِّفه ، ويدعوه إليه ، ليريَه من آياته الكبرى ما تطمئن به نفسه ، ويرتاح له فؤاده ، ويُزيل الأثقال والهموم عنه . . وعن جسمه وقلبه .

نعم تدخلت القدرة الإلهية ، في هذا الوقت العصيب لتأتي بمعجزة الإسراء والمعراج ، إيناساً للرسول المصطفى ﷺ ، وتلبية لدعائه إلى خالقه حين أحسَّ بجفوة الناس ، ومرارة الأذى ، وظلم العشيرة . .

نعم حدثت المعجزة الفريدة ، معجزة الإسراء والمعراج ،

لتكون ثاني حدثين اثنين في تاريخ الأنبياء والمرسلين الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض ، فإن في الحدثين المذكورين حصل الاتصالُ المباشر من الخالق سبحانه وتعالى ، مع اثنين من هذه النُّخبة المختارة .

فالاتصال الأول كان عندما كلَّم الله تعالى نبيّه موسى عليه السلام على جبل الطور في سيناء ، والاتصال الثاني حصل عندما أسرى الله تعالى بعبده محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به إلى سدرة المنتهى ليكون على قاب قوسين أو أدنى ، وليرى ، ويسمع ، ويتحدث في عروجه بما لم يره ، ولم يسمع به أو يتحدث عنه غيره ، من الخلق أجمعين . . والسؤال الذي طرح ويطرح بهذه المناسبة لا بدَّ من التعرض له . .

فمتى ؟ وكيف حصل ذلك ؟ . .

أما متى حصل الإسراء والمعراج ، فإننا أشرنا إلى الوقت وأنه كان حين وصلت الحالة بالنبي ﷺ إلى أقصى درجات المرارة والألم ، وبعد الأحداث التي تعاقبت منذ السنة العاشرة لمبعثه حتى السنة الحادية عشرة ، أي قبل هجرته إلى المدينة بسنتين أو أقل بقليل . .

وأما كيف حصل ذلك ، فالقرآن الكريم يثبت أن الإسراء والمعراج قد كانا بالجسد والروح والنفس ، وذلك بدليل قوله تعالى :

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ

لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

فعبده هو محمد ﷺ ، مكوَّن من الجسد والروح والنفس . . ولا يمكن تأويل النصّ القرآني الصريح بما ينافيه أو بما هو بخلافه ، أو القول بعكس هذا الوضوح ، فلا بدَّ إذن من اعتبار أن الإسراء تمَّ بالجسد والروح . والقادر على أن يَسري بعبده ليلاً كل تلك المسافة من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس في فلسطين بسرعة خارقة عجيبة ، لا يُعجزه أن يَعرُج به إلى السماء ليُريَهُ من آياته الكبرى .

ثم إن القدرة الإلٰهية ، قد أثبتت لبني الإنسان ، في أكثر من زمان ، وفي حياة الناس العاديين ، أنَّ في حياة النبيين والمرسلين ، لا شأن للقوانين ، والنظم التي يعرفها أبناء البشر ، لأنها تقول للشيء : « كن فيكون » . . وهذه الإرادة المطلقة التي خلقت هذا الكون العظيم ، بما فيه من عوالم وآفاق ، هي نفسها ، ووحدها التي نفَّذت الإسراء والمعراج . .

ولا يمكن للعقل البشري أن يستغرب وقوع هذا الحدث العظيم ، عندما يتذكر بأن الإرادة الإلٰهية قد أعطت للنبي سليمان (عليه السلام) ملكاً لم يُعطَ لأحد من قبله ولا من بعده . فقد سخَّرت له الرياح ذلولا ، يمتطيها على بساط فتحمله حيث أراد في جوانب الكرة الأرضية . . وقد جعلت له الجن خدماً وعبيداً يأتمرون بمشيئته ،

---

(١) الاسراء ١ .

ويعملون وفق إرادته ، في البناء على سطح الأرض ، وفي الغوص إلى أعماق البحار ، وفي انتشال الثروات النادرة منها ، أو الإتيان بعرش ملكة سبأ بلقيس ، من بلاد اليمن إلى القدس في أقل من ومضة طرف . . والإرادة الإلٰهية نفسها هي التي مكَّنته من فهم لغة الطيور والحشرات ، يكلِّمها ، كما يكلم سائر الناس ، فتأتمر بأمره . . . وهي نفسها التي جعلت عصا موسى عليه السلام تلقف ما يأفك السحرة الكاذبون . . وجعلت المسيح عليه السلام يُبرىء الأكمَه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله . وهي التي حفظت يونس عليه السلام في بطن الحوت ، ومنعت نار النمروذ عن إبراهيم عليه السلام وجعلتها عليه برداً وسلاماً ، وحملت نوحاً عليه السلام في السفينة ، وأغرقت أهل الأرض بكفرهم وعصيانهم . . .

فما العروج بالشكل الذي سمعت ، إلا للدلالة على إمكان الخروج من نطاق هذه الكرة الأرضية التي تسبح في الفضاء الذي يضمُّ الملايين من أمثالها من الكواكب والشموس والمجرات الهائلة التي تكبرها بملايين وملايين المرات . . وما هو ـ أيضاً ـ إلا إشارة إلى قدرة الله الخارقة لإيقاظ الغافلين ولجعلهم يتفكَّرون في خلق السماوات والأرض ، وفي أنفسهم ، يحيون عليها بتعاقب الليل والنهار ، إن هي إلَّا آية صغرى من آيات الله العُظمى . .

وما هو أخيراً إلا بمثابة إعجاز ، وإلفات نظر العالمين ـ سائر العالمين ـ بالأمس واليوم ، وفي المستقبل ـ إلى أنه إذا تطورت وسائل السفر والانتقال ، فإن الناس سيجترحون العجائب ، لأن الإسراء

والمعراج تمَّ بواسطة نقل إلهية اخترقت جاذبية الأرض وطبقات الأثير، وطَوَت المسافات فانعدمت أمامها المسافات ، وطوت الزمن فانعدم أمامها الزمن ، الذي لا دليل عليه إلا تعاقب الليل والنهار ، وطلوع القمر هلالاً في يومٍ سميناه أول الشهر ، واختفاؤه في يوم آخر سميناه آخر الشهر ، ولا دليل عليه أيضاً إلا تقسيم فترات بياض النهار إلى ساعات تتحدَّر بطلوع الشمس ومغيبها . .

هذا وقد حققت معجزة الله العظيم لنبيِّه الكريم في رحلة عظيمة كانت للأمس القريب غريبةً عجيبةً ، وصارت اليوم ـ وبعد غزو القمر مراراً وتكراراً ـ أقرب إلى الذهن والمعقول ، وإن كانت بحد ذاتها وواقعها مُدهِشَةً مُذهِلةً كأكثر معجزات الأنبياء والرسل في عالم التقدير والاعتبار . .

وإذا كان للعقل الإنساني أن يفهم بعض مدلولات المعراج ، فإنه ، بالإضافة إلى اطمئنان نفس محمد ﷺ وأنس قلبه ، كان للبرهان على الخروج من نطاق هذا الكوكب الأرضي الذي يسبح في الفضاء ، ليعرف الذين ينكرون البعث ، بأنهم غير باقين في هذه الأرض بعد انحلال أجسامهم ، وأنهم لا شك مبعوثون جسداً وروحاً ونفساً ، في مكان ما من عوالم الله تعالى ، التي لا يعلمها إلَّا هو سبحانه ، ولكي يتفكروا في خلق السماوات والأرض وما يحيط بهنَّ . . .

فهذه الدلالات تعبِّر عن الإسراء ، أي الانتقال من مكان إلى

مكان بواسطة لا يعرفها البشر ، ومن المعراج بنفس الواسطة التي تتحلل من قوانين الجاذبية ، والأبعاد ، والأعماق ، والمسافات ، وما إليها من القوانين التي تحكم تصرفات بني البشر ، والتي لا شأن لها عند إرادة الله السنية التي تقول للشيء : كُن فيكون . .

وإذا كانت الإرادة الإلٰهية قد تجلّت ، وجعلت من الإسراء والمعراج وسيلة كشف لإحدى وسائل المواصلات التي تفرض على الإنسان الإذعان لها ، والرضوخ لحكمها ، فإنها ـ وهي إرادة الله ـ قد جعلتهما أيضاً فتنةً للناس ، لتثبت في الروع ، أن الإنسان ، مهما بلغ من العلم والمعرفة ، عاجز عن الوصول إلى علم الله . ولكنّه مدعوٌّ في كل وقت ، للتوجه الدائم نحو هذا العلم ، وإلَّا فَقدَ ميزته التي خصَّه الله تعالى بها عن سائر المخلوقات فليبدأ ـ عاجلاً أو آجلاً ـ للبحث عن الوصول لبعض تلك العوالم ليصل إلى معرفة عظيم صنع الله وقدرته . . . على أنه ، وإن قدر الإنسان أن يفقه سر معجزة الإسراء والمعراج أو لم يقدر ، وغالب الظن أن هذا السرَّ ما زال في جوانب كثيرة منه مغلقاً على بني البشر ، فإنها تظل الحدث العظيم الذي لا يمكن إنكاره ، ولا التنكر له ، ما دام القران الكريم قد أثبته وأكده بقول الله تعالى :

﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ۝٩ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً

أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ وقوله تعالى

سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾

ولقد نزل في حدث الإسراء والمعراج التكليف بالصلوات الخمس.

ومثل حدوث الإسراء والمعراج، يؤكد القرآن الكريم معجزة أخرى، حصلت على يد النبي ﷺ وهو في مكة.. تلك هي معجزة انشقاق القمر، إذ يقول سبحانه وتعالى: ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾

من هنا لم تكن حادثة الاسراء والمعراج المعجزة التي أريد منها قهر الناس على الاعتقاد بصدق نبوة محمد ﷺ كما كان يحدث للأنبياء السابقين، وإلا لكانت تلك الحادثة قد حصلت في الظروف الحالكة الصعبة التي كان يعيشها النبيُّ والمسلمون معه ولا سيما المستضعفون منهم، بل كانت من أجل التكريم لشخص النبي ﷺ، والإيناس له، ومن غير أن تعطل المنهج العقلي الذي اشترعه القرآن.. فقد اقترح المشركون على النبي - يوماً - أن يرقى في السماء، فجاء الجواب من عند الله - سبحانه: ﴿قل: سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً؟﴾. فلما أعرج به إلى السماء بعدئذٍ، لم يُذكر قط أن ذلك رد على التحدي بل على العكس، وجدنا الروايات تحدثنا عن أن

---

(١) سورة النجم ١ - ١٨.
(٢) سورة الاسراء ١.
(٣) سورة القمر ١.

صعوبة تصديق حادث غيبي كهذا ، دفع المشركين إلى مزيد من التحدي والاستهتار ، كما ردَّ نفراً من المسلمين من ضعاف الإيمان إلى كفرهم ! . . ومهما يكن من أمر فإن حادث التكريم هذا ترك ثماره في نفس رسول الله ﷺ فاستراح إلى رعاية الخالق ، وقلّ اكتراثه لذم أهل الجهل والعنت ، ثم نشط إلى متابعة الدعوة التي بعث لحملها .

على أنه سبحانه وتعالى ، وإن لم يشأ ـ جلَّت قدرته ـ أن تحفل حياة محمد ﷺ ، كنبي ورسول ، بالمعجزات ، كما حفلت بها حياة النبيين والمرسلين الذين كان خاتمهم ، فإنه سبحانه ، قد جعل مقابل كل المعجزات ، التي حصلت في زمان معين ، وفي مكان معين = وقد تحصل = واطَّلع عليها أناسٌ شهدوا وقوعها ، وعايشوا أحداثها، نعم جعل مقابل كل ذلك معجزة تلتصق بحياة محمد ﷺ وتكون الدائمة أبدَ الدهر ، تتحلل من قيود الزمان والمكان ، لتخاطب الأزمان كلها ، والخلائق كلها ، إلى يوم الدين . . وتلك المعجزة هي القرآن الكريم القائم أبداً ، الخالد دوماً ، تراه وتسمعه وتحسُّه سائر مخلوقات الأرض ما حييت فحق أن يكون المعجزة الخالدة ، التي يقصِّر عنها ، وسوف يقصِّر أهل الإنس والجن كافة . . لأنه ليس لمخلوق أن ينطق بقول كقول الله تعالى ، ولا أن يُؤتى حكمة وموعظة وتدبيراً هي من مثل ما أنزل الله تعالى . .

لقد أكمَلَ الله سبحانه وتعالى حدَثَي الإسراء والمعراج في جزءٍ من ليلة واحدة . وعادَ النبي ﷺ إلى مكة يتفكَّر في السُّبل التي تمكِّنه من أن يوصل للناس هذين الحدَثين العظيمَين ، اللَّذين أكرمه الله

تعالى واختصه بهما وحده ، دون سائر عباده المخلصين ، فأصبح من تلك الليلة ذاهباً إلى المسجد الحرام ، يطوف ويصلي ويجلس منتظراً حتى جاء نفرٌ من قريش ، للتفيُّؤ في ظلال الكعبة كعادتهم ، فأراد أن يتحدث إليهم ، ولكنَّ الجهول ، أبا جهل ، وكان فيهم ، قد سبقه عندما رآه ، فتقدم يقول له مستهزئا : هل استفدت الليلة شيئاً يا محمد ؟ ورآها الرسول فرصة سانحة لإخبار القوم . فدعاه إلى الجلوس إليه لمحادثة الجميع بأمر هام . . وعجب أبو جهل لهذه الدعوة ، فقال للنبي ﷺ :سألتك ولم تجبني . .قال النبي ﷺ : نعم ! .

ثم عادَ يدعوه للجلوس حتى يخبره بما استفاده في ليلته . . وامتثلَ أبو جهل فتقوقع صاغراً ، ثم جاء بعض القرشيين ينضمُّون إليه ، حتى إذا تهيَّأوا للإصغاء ، راح الرسول العظيم يخبرهم بحادثَي الإسراء والمعراج حتى أتى على آخر الخبر ، فقال أبو جهل ضاحكاً : واعجباً ، ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ ! . وتبسَّم النبيُّ ﷺ وقال : نعم . .

ولم يصدِّق أبو جهل وكأنما أراد أن يفضح محمداً فيما يدَّعيه ، فقال له : أو تخبر قومك بذلك ؟ قال النبي ﷺ : نعم .

فصاح أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي ، هلمُّوا فأقبِلوا وأقبل كل من في أرجاء الكعبة وفي جوارها ليعرفوا ما يريده أبو جهل، فدعاهم للاقتراب من محمد حتى يسمعوا منه قولاً عجيباً ! .

وجلس الجمع ينصت ، فراح النبي ﷺ يحدثهم عن حدَث ليلته ، وكيف أسرى به الله من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم عرج به حتى كان قاب قوسين أو أدنى . . .

فالنبيُّ ﷺ يتحدث ويُخبر . . والكل سكوتٌ كأنما على

رؤوسهم الطير ، بين ذاهِلٍ ودهِش ، وبين منكرٍ ومكذِّب ، إلا فئة قليلة ، قد آمنت بصدق ما يقول ، لأنها تعرف أنَّ محمداً ابن عبد الله، ما قال كذباً قطُّ في حياته، وما تحدث إلا صدقاً في قومه ، وإذا كان لا يكذب على الناس فهل يكذب على ربه وهو عندهم ـ قبل الرسالة ـ الصادقُ الأمين ؟ . .

وسرىٰ الخبرُ في مكة كسريان النار في الهشيم حتى وصَلَ أسماع المسلمين . . فهلَّل وكبَّر غالبهُم على ما آتى الله تعالى نبيه محمداً من مكرمة وعزَّة ، ولكن فئة قليلة ارتدَّت لسماع الخبر ، وذلك لتأثيره السلبي عليها ، إذ رأت فيه خارقة عجيبة ، لا تقبلها عقولها . . وما ذلك بمستغرب ، أن ترتد تلك الفئة . . . ألا ترى إلى الشجرة ذات الثمار اليانعة الناضجة ، لا تستطيع أن تميز الخبيث مما عليها من الطيب ، حتى إذا هبَّت ريح خفيفة ، تساقطت تلك التي داخَلَها الفساد في جوفها ، بينما اشتدت أخواتها الصحيحة تتمسك بأمهاتها الأغصان ! . .

هكذا الحركات الفكرية ، تهبُّ عليها أحداث مهمة في حياتها ، حتى تمنحها القوة إذا كانت فاعلة مؤثرة في وجودها ، أو تعصف بها فتزيلها ، إذا كانت سلبية الأثر والفاعلية في محيطها . . نعم قد تأتي الأحداث على الحركات الفكرية في ظرف أو في آخر ، لِتَفْرُز من أتباعها أقوياء النفوس من ضعافها ، فيتساقط هؤلاء الضعفاء كتساقط الثمرات الفاسدة ، لا يلوُون على الخبر اليقين .

وفي الدعوة الإسلامية كان حدث الإسراء والمعراج تلك الهزة

العنيفة ، التي حصلت في أدق ظروف الدعوة وأكثرها حرجاً نظراً لما يستتبعها من أحداث أخرى متلاحقة كانت تستدعي فرز ذوي النفوس القوية من المسلمين ، الذين سيحملون مع نبيّهم ﷺ تلك المهام الكبرى على عواتقهم ؛ وبذلك يمحّص الله سبحانه الذين آمنوا عن صدق من الذين آمنوا عن ضعف ، فيسقط الذين يعتريهم الشك ويزداد الصادقون إيماناً .

على أن ارتداد بعض الذين أسلموا لسماع خبر الإسراء والمعراج ، وإن شكّلَ حادثة سلبية بالنسبة إليهم ، إلَّا أنه كان له وجهٌ آخر إيجابي في حياة الدعوة ؛ وقد أبرز هذا الوجه الإيجابي ما ذهب إليه جمهور من أن الإسراء كان بالجسد والروح ، ولو كان بالروح أو رؤيا رآها النبي ﷺ لما كان في ذلك غرابة ، ولما كان حصل الارتداد ، فالإنسان العادي يرى في المنام رؤى غريبة وأحلاماً عجيبة ، وقد ألف الناس ذلك في كل زمان ومكان ، وهم يصدقون صاحبها لأنها مجرد أضغاث أحلام ، كما أن كتب الديانات وأخبار العظماء والنساك حافلة بمثل هذه الأحلام . . أما في حياة النبي محمد ﷺ فلو كان العروج روحياً أو قصته منام ، فما كان أسهل عليه ﷺ من أن يخبر الناس بحقيقته وبأنه أوحي به إليه ، أو أنه مجرد رؤيا رآها في المنام . . ولو فعل ذلك لما أثار تلك الدهشة والتساؤلات الكثيرة التي أدت إلى ارتداد جماعة أسلمت . . هذا فضلاً عن أن النبي ﷺ صادق مصدَّق ولا يمكن أن يجعل الرؤيا في المنام حقيقة حسيَّة عايشها بجميع مداركه وملكاته . .

ثم إن أهمية الإسراء والمعراج ؛ كما تبيّنهما سورة « الإسراء » وسورة « النجم » تكمن بدلالتها على أن النبي محمداً ﷺ هو نبيُّ القبلتين ، وإمام المشرقين والمغربين ، ووارث الأنبياء قبله ، وإمام الأجيال ؛ فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس ، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى ، وصلّى الأنبياء خلفه ، وكان هذا إيذاناً بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه ، وصلاحيتها لاختلاف الزمان والمكان . .

لقد جاء الإسراء ، ليعلن أن محمداً ﷺ ليس من طراز القادة أو الزعماء الذين لا تتجاوز مواهبهم ، وجهودهم ، ودوائر كفاحهم حدود الشعوب والبلاد ، ولا تسعد بهم إلا الشعوب التي يولدون منها ، والبيئات التي يعيشون فيها ، إنما هو من جماعة الأنبياء والمرسلين الذين يحملون رسالات السماء إلى الأرض، ويحملون أوامر الخالق ونواهيه إلى الخلق ، وتسعد بهم الإنسانية على اختلاف شعوبها وطبقاتها وعهودها وأجيالها . لا بل هو أبعد من ذلك ، إنه خاتم النبيين ، وسيد الخلق أجمعين . .

نعم لقد كان الإسراء والمعراج حدثاً هاماً في حياة الدعوة الإسلامية ، لأنه أكد للمؤمنين الصادقين كثيراً من الدلالات والمعاني فساروا مع نبيهم الكريم على بركة الله ، دعاةً مخلصين للحق .

أما المشركون فقد ذهبت جماعة منهم ، يقودها أبو جهل إلى أبي بكر بن أبي قحافة ليسألوه عن رأيه فيما يقوله صاحبه . . فجاؤوه يقولون :

ـ يـا ابن أبي قحافـة هل سمعت مـا يقولـه صاحبـك محمـد بن عبد الله!.. إنه يزعم بأنه أسريَ به من المسجد الحرام إلى المسجـد الأقصى في بيت المقـدس ، وتبعه المعـراج به إلى المـلأ الأعلى عند ربكم .

فقال أبو بكر لهم : إن كان قال ذلك فقـد صدق . إني لأصـدقه مما هو أبعد من ذلك . أصدّقه بخبر السماء ، ولا أصدقه في غـدوة أو روحة ؟! ..

وبهذا التصديق دعي أبو بكرٍ « الصديق » ..

وهب المشركون يتبـارون في تعجيز النبي ﷺ بـالأسئلة عما رأى في رحلته العجيبة تلك ، حتى إذا نكف عن ذلك ، وقد توهموا أن مـا يقوله ... زعم بزعم ، رأوا أن خير ما يعجزه هو الطلب إليه أن يصف لهم بيت المقـدس ، لأنه لم يـذهب إليه قطُّ من قبـل . فلمـا سـألـوه عنـه ، وصفـه لهم بـأدق وصف ، كمثـل إنسـان يعيش في جـواره .. فسألوا التجار الذين يذهبون إلى بلاد الشام وفلسطين عن الصفات التي اعطاها ، فقالوا : إنهـا والله لأوصاف بيت المقـدس ، ولا ندري كيف علِمَها ابنُ عبد الله الذي لم يدخل القدس في حياته ..

ورغم ذلك فقد رأى النبي ﷺ أنهم لا يصدقون .. فأخبرهم أنه وهو في طريق العودة قد مـرَّ على عيرٍ لقـريش ، فيها بعيـر لهم نافـر ، فأرشدهم إلى مكانه ..

وراح يشدد لهم على صدقـه ، بقولـه : « وآية ذلـك أني مررت

على عيرٍ بالروحاء ، فأنفرهم حس الدابة ، فندَّ لهم بعير ، فدللتهم عليه ، ثم أقبلت ، حتى إذا كنت بضجنان مررت بها فوجدت القوم نياماً ولهم إناء فيه ماء ، قد غطوا عليه بشيء ، فكشفت غطاءه وشربت مما فيه ، ثم غطَّيت عليه كما كان . . فسلوهم عن ذلك . وإنَّ عيرهم الآن تصوب من ثنية التنعيم البيضاء ، يتقدمها جمل أورق عليه غرارتان مخيطتان تطلع عليكم من طلوع الشمس . .

ورأى القوم أن محمد بن عبد الله ، يقدم لهم أدلة حسية وشواهد مادية وأنه يسمّى بني فلان وبني فلان من قريش ذاتها ، ويؤكد لهم المحلة التي وصلت العير إليها ، وهي الثنية ، فلمَ لا يذهبون وينتظرون قدوم القافلة ، قبل أن تدخل مكة ، وتشيع في من يقودها أخبارُ محمد ، فربما لا تعود وتتبين حقيقة ما يقوله ! . . ولذلك خرجوا إلى الثنية فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس ، وهم في قرارة أنفسهم يأملون ألا تأتي القافلة فيكذبوه . . وفيما هم في جلوسهم ، وما أن قال قائلهم : هذه الشمس قد طلعت ، حتى صاح آخر :

« والله هذه العير قد طلعت ينقدمها بعير أورق . فانظروا يا قوم »! . .

ووصل رجال القافلة ، فسألوهم عن الإناء ، وعن البعير الذي أضلوه ، فأخبروهم بما حصل ، وكان كما ذكره لهم محمد بن عبد الله تماماً وكمالاً . .

ومع ذلك فقد أبَوا الإيمان والتصديق ، فقالوا : « إن هذا إلاَّ سحرٌ مبين » . .

جافت الحقيقةُ عقول أولئك القوم ، فادَّعوا وزعموا أن ما يقوله محمد بن عبد الله ﷺ سحرٌ . . وفي الواقع كانوا هم المسحورين . . فقد سحرتهم الوثنية بأباطيلها ، مثلما سحرهم الشيطان بضلاله ، فباتوا لا يؤمنون بحقيقة السماء . . أما الحق الذي يحمله قول محمد بن عبد الله ، الذي - هم بالذات - أطلقوا عليه صفة الصادق الأمين ، فإنه كذبٌ في نظرهم ، لأنه نظرٌ موهومٌ أخرق .

لقد كذبوه وهو يدعوهم إلى صلاح نفوسهم ، أفلا يكذبونه وهو يحدثهم عن الإسراء والمعراج ، وعقولهم أقصر من أن تستوعب آيات الله تعالى ، وعظاته البالغة ؟ ! . .

وراحوا يتقولون عنه في أرجاء مكة أبشع الأقاويل ، ويوجِّهون إليه أشنع التهم . . . ولكنه لم يهتم لشيء من ذلك . . .

إذن فليتقوَّل الكفار ما يتقوَّلون ، وليفعلوا ما شاؤوا أن يفعلوا . . فذلك كله لن يوقفه عن المضي في دعوته . . إنه على عهد الله قائم ، وعلى دين الهداية سائر . . .

وها هو ﷺ غير آبهٍ أبداً للأكاذيب والأباطيل ، يترقب كل من يقدم إلى مكة ، وله اسم أو شرف ، حتى يدعوه إلى دين الله . . وينتظر مجيء أي قبيل من العرب حتى يعرض عليه الإسلام . .

وإن النبي ﷺ لفي هذا العزم ثابتٌ ، وفي بحثه ساعٍ ، يعرف بقدوم سُويْد بن الصامت ، أخ بني عمرو بن عوف ، من بطون الأوس في يثرب ، وقد جاء مكة ليحج ويعتمر ، فيذهب إليه النبي ﷺ

ويلتقيه . . ثم يطلب إليه أن يستمع إلى قراءة يتلوها عليه ، فقبل الرجل ، وجلس ينصت لقرآن كريم يرتله رسول الله ، وكان الرجل يسمى « الكامل » لجده وشعره ونسبه ، فأعجبه ما يسمع ، وقال للنبيِّ ﷺ : « والله إن هذا القول حسن » . .

لم يُفْصح سويد عما جال في خاطره ، ولم يظهر عما خالجه من مشاعر . . ولكنه لم يبعد عن النبي ﷺ ، إذ استحسن القرآن ، وأعجب لسمو البيان . .

وانصرف سويدٌ إلى يثرب ، بعد ذلك اللقاء ، وما عَرَفه قومه بعد ذلك ، إلاَّ وهو يردّد ما سمعه من محمد بن عبد الله ، حتى لم يشك أحد أنه دخل في الإسلام . . إلاَّ أن العمر لم يطل به ، فقد قتل على أيدي الخزرج قبل أن يلتقي رسول الله ﷺ مرة ثانية كما كان يؤمل . .

ولقد جاء من بعد سُوَيد إلى مكة جماعة من بني عبد الأشهل ، من الأوس على رأسهم أبو الميسر أنس بن رافع يلتمسون الحلف من قريش على خصومهم من الخزرج . .

ذلك أنه كانت بين قبيلتي الأوس والخزرج عداوة مستحكمة ، يغذيها يهود يثرب ، من أجل الإيقاع بين هاتين القبيلتين ودفعهما إلى الاقتتال ، كعادة اليهود الدائمة في تفريق الجماعات ، وإلقاء بذور الفتن في أي مجتمع يعيشون في ظله ، حتى يضعف الجميع ، ويكونون هم الأقوى . . .

وبالفعل كان لليهود ما أرادوا ، إذ نشبت العداوة والبعصاء بين

الأوس والخزرج ، ودارت الحروب بينهما بصورة شبه مستمرة ، تقع من وقت لآخر ، مما كان يجعلهم في حاجة أو نصرة من الخارج ، ومن أجل ذلك جاءت تلك الجماعة من الأوس ، وبينهم فتى يقال له إياس بن معاذ ، لطلب الحلف من قريش .. فلما عَرف الرسول الكريم ﷺ بقدومهم جاءهم يعرض نفسه عليهم ، فقال لهم :

« هل لكم فيما هو خير لكم مما جئتم له » ؟.

ودعاهم إلى الإسلام ، وقرأ عليهم القرآن ، فقال إياس :

ـ هذا والله خير مما جئنا له .

فنهره رئيس الوفد انس بن رافع ، وقال له :

ـ دعنا منك فلقد جئنا لغير هذا ..

ولم ير إياس إلا السكوت ، فسكت ..

وترك رسول الله ﷺ هذه الجماعة ، لتمضي في المهمة التي جاءت من أجلها ، وتعود إلى المدينة ، لتشارك في واقعة شديدة حدثت في موضع من يثرب يقال له « بعاث » تقاتل فيه الأوس والخزرج حتى هلك من أشرافهما الكثير ، ولم يبق من شيوخهم إلا القليل ، فعضتهم تلك الحرب عضاً شديداً بنابها ، ونالت منهم ما لم تنله حروبهم من قبل ، حتى ضعفوا ضعفاً قوياً ..

بيعة العقبة الأولى

فلما كان الموسم الذي عقب « بعاث »، التقى الرسول ﷺ ، وهو يعرض الإسلام على القبائل بمنى ، برهط من الخزرج ، فعرض عليهم نفسه ، ودعاهم إلى الإسلام . . وقد كانوا أهل أوثان ، مثل عرب يثرب ، بخلاف اليهود ، إذ كانوا أهل كتاب ، وكانوا كلما وقع قتال بين الأوس والخزرج ، يزيدون في إيلامهم ، ويقولون لهم : إنَّ نبياً يبعث الآن وسوف نتّبِعْهُ ونقاتل معه أعداءنا ونقتلكم قتل عاد وثمود . . فلما قرأ الرسول العظيم على ذلك النفر من الخزرج القرآن الكريم واستحسنوا التلاوة، قال بعضهم لبعض :

ـ هذا والله النبي الذي توعَّدكم به اليهود فلا يسبقنَّكم إليه . .

ولذلك أجابوا الرسول ﷺ فيما دعاهم إليه ، وصدقوه ، فقالوا له :

« إن بين قومنا شراً ، وعسى الله أن يجمعهم بك ، فإن اجتمعوا فلا رجل أعزَّ منك » ثم انصرفوا عنه . .

لقد آمن ذاك النفر من الخزرج ، وكانوا سبعة : أسعد بن زرارة

ابن عُدَس أبو أمامة، وعوف بن الحارث بن رفاعة ـ وكلاهما من بني النجار، أخوال النبي ﷺ ـ ورافع بن مالك بن عجلان، وعامر ابن عبد حارثة بن ثعلبة بن غنم ـ وهذان من بني زريق ـ وقطبة بن عامر ابن حديدة بن سواد من بني سلمة، وعقبة بن عامر بن نابىء من بني غَنْم، وجابر بن عبد الله بن رياب من بني عبيدة . .

لقد آمن هذا النفر من أهل يثرب بالإسلام دينا، وبمحمدٍ بن عبد الله ﷺ رسولاً، فانصرفوا إلى بلدهم، راضين مطمئنين إلى ما هداهم الله إليه، وهنالك راحوا يذكرون الإسلام كثيراً، ويتحدثون عن رسول الله ﷺ ورسالته، وأخلاقه ومناقبه، حتى صار الرسول ﷺ حديث أهل يثرب، لا يخلو من ذكره مجلس، أو تفوت التحدُّث به ندوة . .

وحلَّ موعد الحج في الموسم الثاني، فجاء إلى مكة اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، وقد عقدوا النية على الالتقاء برسول الله ﷺ . . فلما نزل هؤلاء الرجال في المنازل التي نصبوها في منى، وعرف النبيُّ ﷺ بهم، من خلال دأبه المستمر على الاتصال بالعرب، آحاداً وجماعات وقبائل، عندما يفِدون مكة في المواسم، طلب إبلاغهم أن يجتمعوا إليه سرّاً في مكان يدعى العقبة، وعيَّن موعداً لذلك أثناء الليل، حتى لا تكشف قريش أمره . .

وجاء رجال الأوس والخزرج والتقوا برسول الله ﷺ يسألونه عن الإسلام وتعاليمه، وعن عقيدة التوحيد وأثرها في النفوس والأخلاق . . وأقبل النبيُّ ﷺ عليهم، مفعماً بالغبطة والسرور يتلو

القرآن الكريم ، ويبيِّن معاني الآيات التي يتلو ، حتى لانت قلوبهم إلى الإيمان ، وشعر النبيُّ ﷺ بإيمانهم ، فطلب إليهم أن يبايعوه . . .

كان هؤلاء الرجال نقباء من الأوس والخزرج ، ومبايعتهم تعني الوثوق والحفاظ على العهد ؛ وإذا كان الرسول ﷺ يطلب مسلمين ، من جميع الناس ، ومن جميع أهل الأرض ، فإنه هنا يطلب المبايعة بياناً للشرع الإسلامي في العلاقات الاجتماعية والأسرية ، يحملها هؤلاء السادة إلى بلادهم ، كي يقوموا بحقها خير قيام ، فيعرف أهل يثرب كم هي عقيدة التوحيد عظيمة ، والمناقب التي تقوم عليها سامية . .

وتمت المبايعة في تلك الجلسة ، وعرفت البيعة ببيعة العقبة الأولى ، وقد تعهد فيها أولئك الرجال قائلين :

« لقد بايعناك يا رسول الله ألا نُشرك بالله شيئاً ، ولا نسرق ، ولا نزني ، ولا نقتل أولادنا ، ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيك في معروف » . .

وقد عقد تلك البيعة أولئك السادة الكرام : أسعد بن زرارة من بني النجار ، وعوف ومُعاذ ابنا الحارث ورافع بن مالك بن عجلان ، وذكوان بن عبد قيس من بني زريق ، وعبادة بن الصامت ، من بني عوف بن الخزرج ، ويزيد بن ثعلبة بن خزيمة أبو عبد الرحمن ، وعباس بن عبادة بن نضْلة من بني سالم ، وعقبة بن عامر بن نابىء ، وقطبة بن عامر بن حديدة ، وهؤلاء جميعاً من الخزرج . . وعقدها

معهم من الأوس : أبـو الهيثم بن التَّيْهـان حليف لبني عبـد الأشهـل ، وعُويْم بن ساعدة حليف لهم . .

ولكي يزيدهم النبيُّ ﷺ توثيقاً ؛ قال لهم :

« فـإن وفَّيتم فلكم الجنة ، وإن غشيتم شيئـاً فأخـذتم بحـده في الدنيا فهو كفارة له ، وإن سترتم عليه إلى يوم القيـامة فـأمركم إلى الله تعالى إن شاء عذَّب وإن شاء غفر » . .

الدَّعْـــوَة
وَمُصْعَبُ بنُ عُمَيْرٍ في المَدِينَة

وأقام هؤلاء المبايعون في مكة ، يؤدون فرائض الحج حتى أكملوها ، فلمـا أرادوا الرجـوع إلى يثرب طلبـوا من النبي ﷺ أن يبعث معهم من يُعلِّمهم ويُفقِّههم بـالإسلام ، وهم يحسبـون أنهم بحاجـة إلى عدد من الصحـابة كي يقـوموا بهـذا الأمر الجسيم ، ولكنَّ النبي ﷺ لم ينتـدب لهـذه المهمة سـوى شخص واحد ، إذ طلب ﷺ من مصعب بن عُمَيـر ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار أن يذهب معهم وأمره أن يُقرئهم القرآن ويعلِّمهم الإسلام ، وقال له :

ـ إذهب معهم يا مصعب على بركة الله . .

وامتثـل مصعبُ لأمر نبيِّـه ، وارتحل مـع القوم إلى يثـرب ليقـوم بالمهمة الجليلة التي نُدِب لها ، فنـزل هناك على أسعـد بن زرارة . . ومنذ وصوله راح يعلِّم المسلمين عقيدة الإسـلام ويُقرئهم القـرآن حتى سُمِّي في يثـرب « المقرىء » . . وجعـل أسعد ومصعب يتعـاونان على

الدعوة إلى الله الواحد الأحد ، ويجتهدان اجتهاداً شديداً في الترغيب في الإسلام ، وكان لهما في ذلك أساليب لطيفة ، ومداخل محببة إلى القلوب . .

ففي أحد الأيام ، وبينما كان مصعب مع أسعد بن زرارة يجتمعان بالرجال ممن أسلم في دار لبني ظُفَر ؛ عرف بأمرهما سعد ابن مُعاذ وأُسَيْد بن حُضَير ، وهما سيّدا بني عبد الأشهل ، وكلاهما مشرك ، فخافا على قومهما من مصعب وما يدعو إليه ، فقال سعدٌ لأُسَيد :

« لا أبا لك ، انطلق إلى هذَين الرجلين اللذين أتيا دارنا ليسفِّها ضعفاءنا ، فازجرهما وانههما أن يأتيا دارنا . . فإنه لولا أسعد بن زرارة ، وهو ابن خالتي ، لكفيتك ذلك » . .

فأخذ أسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل عليهما ، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب .

ـ هذا سيد قومه ، قد جاءك فاصدق الله فيه . .

ووصل أسيد ، وقال لهما مغضباً :

« ما جاء بكما إلينا ، لتسفِّها ضعفاءنا ! اعتزلاني إن كان لكما بأنفسكما حاجة . . » . .

ورأى مصعب مقدار ما عليه الرجل من الانفعال ، فأخذه باللِّين ، وطلب إليه أن يهدأ ، ثم قال له :

«أو تجلس فتَسمع ، فإن رضيت أمراً قبلته ، وإن كرهتَه كُفَّ عنك ما تكره » . .

ورأى أسيد أن ما يعرضه هذا الرجل عليه هو عدل ، فقال :

ـ انصفت . .

ثم ركَّز حربته وجلس . . فأقبل عليه مصعب يتلو على مسامعه القرآن ، ويكلمه في الإسلام ، فما عتم أن قال أُسَيد:

« ما أحسن هذا الكلام وأجلَّه . . كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدِّين » ؟ . .

قالا له :

ـ تغتسل وتتطهر ، وتطهر ثيابك ، ثم تشهد شَهادة الحق ، ثم تصلي . .

قال : ولِمَ أغتسل ؟ . . !

قالا : من أجل النظافة من أدران الشرك وأوضار الحياة ، والنظافَةُ من الإيمان . والنظافة هي في الأصل طهارة ، ومن يتطهر في جسده وثوبه ، فلا بد أن ينعكس ذلك على نفسه .

قال : وما شهادة الحق ؟

قالا : تشهد بأن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله . .

قال : وما الصلاة ؟

قالا : فريضة من الله على المسلمين ، تؤدَّى خمس مرات في اليوم ، لدوام اتصال العبد بمعبوده ، وطلب رضاه ومغفرته ،

والإحساس بالواجب ، وهي إلى ذلك تنهى عن الفحشاء والمنكر . .

واستحسنَ أُسيد ما سمع من الرجلين ، وتفكَّر قليلاً ، ثم قال : أفعل ما تقولان . .

ثم قام من فوره فذهب واغتسل ولبس ثياباً نظيفة طاهرة ، ثم جاء إليهما ودخل في الإسلام . . وبعدها قال لهما :

« إن ورائي رجلاً إن تبعكما لم يتخلف عنكما أحد من قومه ، ذاك هو سعد بن معاذ » .

وتركهما أُسيد وذهب إلى نادي قومه ، فلما أقبل عليهما ، قال لهم سعد :

« أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم » .

وسأل سعد أسيداً : ما فعلت ؟

قال أُسيد : « كلَّمتُ الرجلين ، فوالله ما رأيت بهما بأساً ، وقد نهيتهما فقالا نفعل ما أحببت . . وقد حُدِّثت أن بني حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه ، وذلك لأنه ابن خالتك ، ويريدون أن يحقِّروك » . .

لقد أراد أُسيد أن يجد سبباً يدفع بسعد بن معاذ لملاقاة مصعب ، فما رأى أمراً أفضل من إثارة النخوة التي تلزم بحماية الأقربين ، ومن عزة النفس التي تدفع للذود عن الكرامة . .

وهبَّ سعدُ بنُ معاذ مغضباً مما سمع ، مخافة أن يفعلها بنو

حارثة للنَّيل منه ، فامتشق حربته في يده ، ثم قال :

ـ والله ما أراك أغنيت شيئاً . .

وخرج سعد مغضباً إلى حيث يجتمع مصعب وأسعد بن زرارة مع المسلمين ، حتى إذا وقف على الجمع ، ورأى الرجال آمنين مطمئنين أدرك ما قصده أُسيد ، وهو أن يأتي الرجلين فيكلِّمهما ويسمع منهما ، فقال ، وهو يخاطب أسعد :

« لا والله يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ، ما رُمت هذا ؛ أتغشانا في دارنا بما نكره » . .

ومَنع مصعبُ أسعد بن زرارة من الردّ ، وبادر هو قائلاً :

« أو تجلس فتسمع ، فإن رضيت أمراً قبِلتَه ، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره » . .

ورأى سعد أن ما يقوله هذا الرجل حقّ ، فجلس وقد ركَّز حربته بجانبه ، فراح مصعب يعرض عليه الإسلام ويقرأ عليه القرآن ، فقرأ أول سورة الزخرف :

﴿ حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

وفتحَ الله قلب الرجل على الإيمان ، فدخل في الإسلام قانعاً ،

---

(١) سورة الزخرف ١ ـ ٦ .

مثل أُسيد بن حُضير ، ولكنّه ما لبث أن ترك مصعباً وصاحبه ، ثم عاد إلى نادي قومه ، وطلب إليهم الاجتماع به ، ثم قال مخاطباً إياهم : « يا بني عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمري فيكم » ؟.

قالوا : « سيدنا وأفضلنا » . .

قال : « فإن كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرامٌ حتى تؤمنوا بالله الواحد الأحد ، وبرسوله محمد بن عبد الله ﷺ » .

قالوا : « وضِّح لنا حتى ننظر في الأمر الذي تدعونا إليه » . .

ومن مساء ذاك اليوم المبارك راح سعد بن معاذ يعقد الاجتماعات مع مصعب بن عمير ، ويتفقَّه في الإسلام ، ثم ينشره في بني قومه ، حتى أسلم بنو عبد الأشهل رجالاً ونساءً . .

تلك أرض يثرب . . أرض الصدق والإيمان والصفاء ، وصاحبة الاستعداد لقبول الإسلام وحمايته ، وتلقِّي دعوة الله تعالى والقيام بالحق ، لأن فيها الأنصار ، وهم الأوس والخزرج أي إبنا حارثة ابن عمرو بن عامر، وهم أعزَّ الناس نفساً، وأشرفهم همماً، ولم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك .

لقد استجاب جمعٌ كبيرٌ من أهل هذا البلد الطيّب لمصعب بن عمير ، بصورة تقرُب من العفوية النقية الطاهرة ، وبطبعية متزنة قانعة ، لأنَّ أولئك القوم كانوا ذوي نفوس باحثة عن الحقيقة تطلبها حتى تتخلص من تفاهة الوثنية ، ورعونة الكفر ، وحتى تنجوَ من الشر الذي استفحل في حياتها وجعلها تقوم على الحروب والاقتتال

والعداوة ، بتحريض من اليهود ، الذين نزلوا بلدهم ، وعملوا جاهدين لإيقاع الفرقة في صفوفهم ، حتى تبقى هذه الفرقة مستحكمة بين الأوس والخزرج ، فيستفيدوا هم اليهود من هذا الوضع ، ويسلبوا البلد خيراته ، ويسيطروا على اقتصاده القوي من التجارة والزراعة . . فعندما يدخلون في الإسلام ، وهو السلام ، فإن تلك البغضاء المستشرية تموت ، وذلك الخراب والدمار لا يحدُثان ، فيتوقف نعيق الغربان فوق ديارهم ، وتحلُّ محله أصداء الإيمان والنداء بكلمة لا إلٰه إلَّا الله . . ويتم الوفاق ، وترتفع أصوات الحق والسلام . . فلمَ لا يُقبل الأوس على الإسلام ، ولِمَ لا يتبعهم نفرٌ كبير من الخزرج ! . . ولِمَ لا تتجاوب أصداء الدعوة السماوية في ربوعهم ، فيتذاكرونها مذاكرة لا تتصل بشرف تمسّه أو عصبية جاهلية تنصرها ، ولكن بتجاوب وإيمان ، لا يصدران إلا عن قوم يطلبون الحق ، ويرجون الاستجابة ، وزوالَ تلك الفرقة التي تشرذمهم ، ومن ثم تقضي على كيانهم .

نعم تلك هي أرض يثرب . . وأولئك هم أهلوها في الغالب من الأوس والخزرج ، استجابوا لدعوة الإسلام ، قبل مجيء رسول الله إليهم ، وقبل أن يُصبحوا الأنصار الكرام ، الذين أعزَّ الله تعالى بهم الدين ، وأيَّد بعزمهم رسولَه الكريم بالنصر المبين . . .

ومرت أشهر ومصعب يعمل في المدينة بهمة لا تعرف كللاً ولا مللاً . . يتحرك بالقرآن ، ويحرك أفئدة الناس هناك وعقولهم بالقرآن . . كانت آيات الله تملك في بنيتها معجزة سحرِ الإقناع ،

وكان مصعب يزيدها سحراً في تلاوته إياها وسط حشود الناس التي كانت تجتمع ، مبهورة الأنفاس من حوالي مصعب ، في أزقة المدينة وبيوتاتها ، وهو يتلو آيات الله الكريم . .

وظل مصعب مقيماً في يثرب على تلك الحال من بث الدعوة حتى حلَّ موسم الحج من العام التالي ، فعاد إلى مكة مع جماعة من الأوس والخزرج ، ودخل على مجلس رسول الله ﷺ مبادراً بالتحية : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . .

ويستقبله الرسول ﷺ مهلِّلاً فيسأله :

« وعليك السلام ، كيف تركت يثرب يا مصعب » ؟

قال مصعب : تركتها إسلاماً والحمدُ لله يا رسول الله . .

وعجب بعض الحضور مما يسمعون فقالوا :

ـ وكيف ذلك ، ومنذ مدة وجيزة كنَّا فيها يا رسول الله ، وما زال اليهودي يهوديّاً ، والمشرك مشركاً ؟.

وردَّ مصعب وهو يتوجه بالكلام إلى رسول الله ﷺ :

ـ الحمد لله يا رسول الله . ما تركت بيتاً في يثرب إلَّا ويتحدَّث في الإسلام . .

. . وكان حقاً ما قاله مصعب . . فقد فشا الإسلام في يثرب ، وسرى نورُه في جوانبها بسرعة فائقة، مما جعل أفكار الإسلام تطغَىٰ على جميع مجالس أهل المدينة ، وكان عدد المسلمين يزداد يوماً بعد يوم ، والدعوة تلقى التجاوب أكثر فأكثر ، حتى صارت يثرب برمَّتها خليَّة للتفقُّه بالإسلام أو التحدث عنه . .



بَيْعَةُ العَقَبَةِ الثَّانِيَةِ

وكـان جماعـة الأوس والخزرج الـذين عاد معهم مصعب ثـلاثـة وسبعين رجلاً وبينهم امرأتان : نسيبة بنت كعب أم عمارة من بني مازن من بني النجـار وأسماء بنت عمـرو بن عدي من بني سلمـة . . جاؤوا جميعاً إلى مكة للحج ، وكانت نفـوسهم مشوقـة لرؤيـة رسول الله ﷺ والتحدُّث إليه ، قبل أن تكون غايتهم أداء فريضة الحج ، لأن بوسعهم كلَّ عام أن يقوموا بتلك الفريضة ، أما الاجتماع برسول الله ﷺ والتزود منه بالمعرفة ، فتلك فرصة لا تسنح دوماً ، بـل وقد تكـون فاتحـة خير على الإسلام ، في مخاطبته الناس كافة . .

. . وبتلك الـروح الإسلاميـة المتوثِّبـة ، أقـام الأوس والخـزرج منـازلهم في منى ، وبعثـوا إلى رسـول الله ﷺ أن يلقـاهم في الـزمـان والمكان الذي يريد . .

وجاءهم مبعوث النبي ﷺ يطلب إليهم موافاته في العقبة ، ولكن دون أن يعلم بـأمـرهم من معهم من المشـركين ، وخفيـة عن عيـون قـريش ، التي تحاول الاتصـال بقبائـل العـرب بـاستمـاتـة لمنعهـا من الاستماع إلى محمد ﷺ والتحدث إليه . وكان طلب الرسول أن

يأتوا إليه متفرقين إذا مضى ثلث الليل الأول ، فلا ينتظرون غائباً ولا يوقظون نائماً . .

وانتظر هؤلاء المسلمون ، الوافدون من يثرب حتى مضى من الليل ثلثه ، فقاموا يتسللون مستخفين عن الكفار من أبناء بلدهم ، ومحاذرين كشف قريش لأمرهم ، كما طلب إليهم النبي ﷺ . . فخرجوا فرادى في جوف الليل والظلمة داكنة ، فإذا بنور الحق يجمعهم في اللقاء برسول الله ﷺ . . . فلما اكتمل العدد ، وقف العباس بن عبد المطلب ، عمّ الرسول ﷺ وكان قد جاء مع ابن أخيه محمد بن عبد الله كي يستوثق له من هؤلاء القوم ، ثم قال بحزم :

« يا معشر الخزرج (وكانت العرب تسمي به الأوس والخزرج)، إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ، فهو في عز ومنعة ، وإنه قد أبى إلاَّ الانقطاع إليكم واللُّحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترَون أنكم مُسْلِموه وخاذلوه فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة » . .

فقالوا : « قد سمعنا ما قلت ، ونريد أن نسمع لرسول الله » . .
ثم توجَّه أحدهم نحو النبي ﷺ قائلاً :
ـ حدِّثنا يا رسول الله .

وراح النبيُّ ﷺ يتحدث عن الإسلام ومعانيه العظيمة في حياة بني البشر ، مركِّزاً على المواثيق والعهود لإقامة الروابط السليمة

والعلاقات الوطيدة بين الأفراد والجماعات ، وما بين المؤسسات والمجتمعات . . والجميع ينصتون بكل وعي وإدراك ، حتى انقضت بضع ساعات ، توقف عندها الرسول ﷺ عن الكلام ، سائلاً القوم أن يمنعوه ، إن أرادوا ، مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم . .

وكان الموقف دقيقاً ، فهبَّ البراء بن معرور ، منهم ، وقال : « إنَّا والله لو كان في أنفسنا غير ما ننطق به لقلناه ، ولكن نريد الوفاء والصدق ، وبذل مهجنا دونك يا رسول الله . . والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع به ذرارينا ، فبايعْنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب . . فخذ لنفسك ولربك ما أحببت » . .

فتكلم رسول الله ﷺ ، فتلا القرآن ودعا إلى الله ، ورغّب في الإسلام ، ثم قال : تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل ، والنفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأن تقولوا في الله ولا تخافوا لومة لائم ، وعلى أن تنصروني ، فتمنعوني إذا قدمتُ عليكم ، مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم . . فأخذ البراء بن معرور بيده ثم قال :

« نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعنَّك مما نمنع به ذرارينا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أهل الحرب ». .

واعترض الكلام أبو الهيثم بن التيهان ، فقال :
« يا رسول الله ، إن بيننا وبين اليهود حبالاً وإنَّا قاطعوها ، فهل عَسَيْتَ إن أظهرك الله عز وجل أن ترجع إلى قومك وتدعنا » ؟ .

وأجابه الرسول العظيم ، صاحب الكلمة الفصل وهو الذي لا ينطق بالهزل :

« بل الدم الدم ، والهدم الهدم[1]، أنتم مني وأنا منكم ، أسالم من سالمتم وأحارب منحاربتم».

تلك العبارة كانت شهيرة في العرب ، عندما يراد بها المعاهدة والنصرة ، وقد عنى بها النبي ﷺ أن طلب دمهم يكون طلب دمه ، وأن إهداره هو إهدار دمه ، فكان بذلك واضحاً ﷺ على الإلفة والوحدة اللتين تربطانهم به ، واللتين لا تنفصم عُراهما ما داموا في الوجود . . فهو معهم في الحرب والسلم ، وفي الشدة والرخاء ، وفي الهزيمة والنصر . . وفي كل حالة من الحالات ، ما داموا حافظين للعهد ، وناصرين لدين الله . .

وبعد أن اقتنع القوم ووافقوا على البيعة طلب إليهم رسول الله أن يختاروا منهم إثني عشر نقيباً ليمثلوا قومهم ويكونوا هم المسؤولين عنهم تجاه رسول الله ، فاختاروا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . ولما اجتمع هؤلاء النقباء للبيعة اعترض العباس بن عبادة بن نضلة وخاطب الجمع قائلاً :

« يا معشر الخزرج ! . . أتدرْون على ما تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون

---

(١) قال ابن قتيبة : كانت العرب تقول عند عقد الحلف والجوار دمي دمك وهدمي هدمك أي كل ما يحري عليكم يجري علي وذمتنا واحدة ودمنا واحد .

أنكم إذا نُهكت أموالكم بمصيبة ، وأُصيب أشرافكم بقتلٍ أسلمتموه ، فمن الآن فدَعوه ، فوالله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة » . .

لقد أراد ابن عبادة أن يظهر للقوم جسامة الأمر الذي يطلبون عليه المبايعة ، وأن يزيد في قوة تمسكهم بالميثاق الذي يقيمون ، فأجاب القوم ، وهم يدركون ذلك كله ، وقالوا :

« إنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف . فما لنا يا رسول الله إن نحن وفَينا بذلك » ؟ ! . .

قال الرسول ﷺ : « الجنة » .

وهنا بسط القوم أيديهم ، فبسط الرسول العظيم يده ، وبايعوه وهم يقولون :

« بايعنا على السمع والطاعة في عسرنا ويسرنا ومنشطنا ومكرهنا وأن نقول الحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم » . . .

وهنا توجَّه الرسول ﷺ إلى النقباء الاثني عشر المختارين وقال لهم :

« أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريِّين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي » . .

وهكذا تمت بيعة العقبة الثانية في جوف الليل ، على غفلة من

قـريش ، والجميـع يحــرصـون على ألاَّ يــطَّلع أحـدٌ على عملهم إلاَّ الله . . ولكن ذلـك كـان من المستحيـل وقـريش تبثُّ حـول النبي ﷺ الجواسيس والمخبرين ، يترصدون حركاته ، ويُراقبون كل اتصـالاته ، وخـاصة الاتصـال بالـوافدين إلى مكـة من غير أهلهـا . . لـذلـك فـإن النبي ﷺ عنـدما خـرج مع عمـه العبـاس بن عبـد المـطلب إلى شُعب العقبـة ، تبِعه أحـد أولئك الجـواسيس متخفِّياً ، حتى التقى بـالجمـع الذي ينتظره ، فقبـع الرجـل وراء صخرة يتنصت ليعـرف ما يـدور بين النبي ﷺ وأهل يثرب . . وظـلَّ في مكانـه ، وهو مصغي السمـع حتى انفضَّ الاجتماع وتمت البيعة، فقام يعدو حتى لا يفتضح أمره ، ولكنَّ القوم أحسّوا بحـركاتـه ، ورأوه وهو يفـر بعيداً عنهم ، فـأرادوا اللِّحاق به ، ولكنَّ النبي ﷺ منعهم من ذلك . .

وخشيَ بعض المبـايعين من عمل طـائش تُقـدم عليـه قـريش ، ولكن غـالبهم لم يعبأ ، فقـال العباس بن عبـادة معبِّراً عن عـزم القـوم وبأسهم ، ويخاطب النبي ﷺ :

« يا رسول الله ، والله الذي بعثك بالحق ، إن شئتَ لنميلنَّ على أهل منى غداً بأسيافنا » . .

ولكنَّ رسول الله ﷺ أجابه : « لم نؤمَر بـذلك بعـد » . . والتفت إلى القوم المحيطين به يطلب إليهم الـرجوع إلى مضـاجعهم ، فعادوا غير هيَّابين ، لا يحفلون بخطبٍ يداهمهم ، أو بحـرب تجبههم ، فهم أهل الوَغى ، وقد ضرستهم الحرب بأنيـابها فـلا يبالـون بمن يناصبهم العداء . .

عـاد المبايعـون من الأوس والخـزرج ، من شعب العقبـة إلى منـازلهم في منى ، ليستغـرقـوا في النـوم ، هـانئين ، راضين ، والمشركون من قـومهم لا يعلمون بمـا دار في تلك الليلة ، ولا يدرون بما قاموا به . . .

فلما طلع الصباح ، كـان جاسـوس قريش قـد دار على كل بيت من زعمـائها يُعلمـه بمـا دار في العقبـة ، جـاءت جمـاعـةٌ من أولئـك الزعماء ، يعاتبون الخزرج على ما فعلوا ، فقال أحدهم :

«قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تخرجونه وتبايعونه على حرْبنا ، وإنه والله ما من حي من أحياء العرب أبغض إلينا أن تنشب بيننا وبينهم الحرب منكم » . .

وبُهِتَ مُشركو الخزرج ، وراحوا يؤكدون لزعمـاء قريش أنـه لم يحصل شيء مما يقولونه لهم . . .

ولم يقتنـع زعماء قـريش بتلك التأكيـدات ، فـذهبـوا إلى زعيم الخزرج الكبير عبد الله بن أبيّ بن سلول ، يسألونه عن حقيقة ما جرى في الليلة الفائتة ، فدهش ذلك المشـرك ، كما دهش غيـره من قبل ، وقال نافياً :

« والله إن هـذا لأمر جسيم ، ومـا كان قـومي ليفوِّتـوا عليَّ بمثل هذا ، وما علمته كان . . » . .

وعـادت قريش لا تؤكـد الخبر ولا تنفيـه ، ولكنها راحت تبحث وتتقصّى علّها تقف على جلية الأمر ، فلم يمض يوم أو يومان إلاَّ وثبت

لديها اجتماع محمد بالأوس والخزرج ، ومبايعتهم له في العقبة . . .

ولما أيقن أهل البيعة أن قريشاً ما زالت تتقصّى الحقيقة ، ولسوف تصل إلى جلية الأمر ، إن عاجلاً أو آجلاً ولئلا ينشب قتال مع قريش وقد منعهم الرسول ﷺ عنه ، قاموا يستعدون للرحيل ، وما عتّم أن قفلوا راجعين إلى بلدهم . . ولكنّ قريشاً سارعت إلى جماعة تبعث بها لمطاردتهم وإعادتهم إلى مكة ، فأدركوا سعد بن عبادة ، والمنذر ابن عمرو من بني ساعدة بن كعب ، ولكن المنذر استطاع أن يفلت من القوم وأعجزهم أمره ، وأخذوا بسعد بن عبادة ، زعيم الأوس بعد أن أُلقي القبض عليه ، وهو لا يزال قريباً من مكة ، في مكان يسمى « أذاخر »، فاقتادوه بعد أن ربطوا يديه إلى عنقه ، وأدخلوه مكة مكتوفاً وهم يضربونه وينتهرونه ، ولم يتمكن من الخلاص من أيديهم إلاَّ بعد أن استغاث بجبير بن المطعم بن عديّ بن نوفل وبالحارث بن حرب ابن أمية بن عبد شمس ؛ إذ كان يجير لهما من يخرجون في تجارتهما إلى الشام ، حين مرورهم بيثرب ، فجاء هذان الرجلان ، وخلَّصاه من الضرب ، فعاد إلى يثرب . .

رجع ذلك الوفد إلى المدينة يدعون إلى الإسلام فأجابهم الكثير من الناس ، بينما أصرَّ شيوخ من الأوس والخزرج على شركهم وكان من بينهم عمرو بن الجموح الذي اتخذ لنفسه صنماً في داره من خشب أسماه (مناة) . .

وكان عنده ولد اسمه معاذ هداه الله تعالى إلى الإسلام ، فكان يأتي كل ليل هو وبعض الفتيان إلى صنم أبيه فيطرحونه في مكان

الأوساخ ، فإذا أصبح عمرو يصرخ ويقول : ويلكم من عدا على آلهتنا هذه الليلة ؟ ثم يذهب إلى صنمه فيأخذه ويغسله ويضع عليه الطيب ويرده إلى مكانه في بيته . .

وطال الأمر حتى تعب عمرو بن الجموح ؛ وأخيراً جاء بسيف ووضعه في عنق الصنم وقال له : إن كان فيك خير فامنع نفسك الليلة فهذا السيف في عنقك .

ونام ، فجاء ابنه والفتيان أصحابه فأخذوا السيف من عنق الصنم وربطوا بديلاً عنه كلباً ميتاً ثم ألقوه في بئرٍ يلقون فيه الأوساخ.

وأصبح عمرو بن الجموح ، ونظر إلى مكان الصنم فلم يجده ، ذهب يبحث عنه، وكانت مفاجأته كبيرة وهو يراه منكسراً في بئرٍ مقروناً بكلب ميت . . عندها رجع إلى رشده فخاطب الصنم قائلاً :

والله لو كنت إلـهاً لم تكن أنت وكلب وسط بئر في قرن
الحمد لله العليِّ ذي المِنن الواهب الرزاق ديان الدين
هو الذي أنقذني من قبل أن أكون في ظلمة قبرٍ مرتهن
بأحمد المهدي النبيّ المؤتمن

وآمن عمرو بن الجموح برسالة محمد ﷺ ودخل الإسلام عن عظة وقناعة . هذا في ناحية يثرب . .

أما قريش في مكة فقد بات مؤكداً لديها أنَّ الأوس والخزرج قد بايعوا محمداً وناصروه فصاروا حلفاءه في الدعوة التي يحمل ، وإن

من شأنِ هذا الحلف أن يضيع تلك الجهود المضنية التي بذلتها قريش خلال ثلاث عشرة سنة ، للقضاء على هذه الدعوة ، أو على الأقل لجعلها محصورة في دائرة مكة فلا تتعداها ، ولا يطَّلع عليها العرب . . أما الآن ، وإزاء حلف محمد وأهل يثرب ، فأية جهود تفيد ؟ ! . .

ألم تتفتح أمام محمد السبل ، وتشرع له المجالات ، فيخرج من نطاق دائرته تلك إلى حيث يمكنه إقامة قوة تهدد قريشا ، وتقضي على جميع أحلامها في غلبته والإجهاز على دعوته ؟ ! . .

. . . وماذا تصنع قريش الآن ؟

. . . الاندفاع في إيذاء المسلمين . . .

إنه أمر بات عادياً ، وصار خبزهم اليومي الذي ألِفَه المسلمون . . إلاَّ أن الشدَّة التي تجابههم بها قريش الآن قد فاقت كل أنواع العذاب ، وكل أساليب الظلم ، التي عرفوها منها في السابق . . بل وإن ما تقوم به من أذى خلال هذه الفترة القصيرة ، يوازي أذاها خلال سنوات عديدة . . . ولكن ما العمل ، والرسول ﷺ يعلن لهم دائماً أنه لم يؤمَر بالمقاومة ؟ ! . .

ولم يكن ليغيب عن بال النبي ﷺ ، بعد افتضاح أمر العقبة الثانية ، ما سوف تُقدم عليه قريش من قسوة وظلم واعتداء . . ولكنه الآن يرى أن المعركة التي تشنها عليه ، وعلى المسلمين هي أشد من كل شيء مضى . وقد جعلتها قريش معركة حياة أو موت . .

ولكن ما ظن قريش ؟ ! . .

ألا تعلم أن الغلبة سوف تكون ولا ريب للصادقين ؟ ! . .

ولكن الغلبة يلزمها تفكير وتدبير . . وعلى الرسول ﷺ أن يعمل لما يحقق له قهر قريش التي تقف حجر عثرة في سبيل نشر الإسلام وانطلاقه . . .



الهجرة إلى يثرب

وبكل حكمة وأناة ، وبكل تقدير واحتساب ، صمّم الرسول العظيم على القيام بما يحقق له الإفادة التامة من حلفه مع يثرب ، ورأى أن الخير كل الخير في هجرة المسلمين إليها . .

نعم الهجرة إلى يثرب هرباً من ظلم قريش وبطشها ، وحُبّاً في تركيز نواة دولة الإسلام ، ولذلك جمّعَ بعض الصحابة ، وأمرهم بأن يبلِّغوا جميع أخوانهم المسلمين بقراره في الهجرة إلى يثرب ، حيث لهم اخوة في الدين ، يُعِزُّونهم ، وينصرونهم ، ويذودون عنهم بدافع الإيمان الصادق ، والعقيدة السامية . . ولكن ، ليكن الخروج خفية ، حتى لا تثور ثائرة قريش ، وتحول بينهم وبين خروجهم . .

وراح المسلمون يهاجرون في الخفاء ، فرادى وأزواجاً ، وهم يلبون نداء الواجب ، ويمتثلون لأمر الرسول ﷺ . . إلا أن قريشاً ما لبثت أن كشفت أمرهم ، وعرفت تدبير نبيّهم ، فاندفعت تحاول منعهم من ترك مكة ، فتردَّ كل من تستطيع ردّه ، وتنزل به أشد العذاب لتفتنه عن دينه . . وقد بلغ بها الظلم أنها كانت تحول بين الزوج والزوجة ، فلا تدعها تخرج معه إذا كانت قرشية ، وأن تحبس كل من لا ينصاع

لأوامرها في ثنيه عن دينه أو إجباره لأن يتنازل عن كل ما كسبه في حياته ، كما جرى مع أبي سلمة وصهيب . .

وتروي أم سلمة ما حصل لها ولزوجها ولابنها فتقول : لما أجمع أبو سلمة الخروج إلى المدينة حملني على بعيره ومعي ابني سلمة في حجري ، ثم خرجنا ، فلما رآنا رجال بني المغيرة تقدموا منا وقالوا لأبي سلمة : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرأيت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها في البلاد ؟ ثم نزعوا خطام البعير من يده وأخذوني منه .

وعرف بنو عبد الأسد رهط أبي سلمة فجاؤ وا بني المغيرة وقالوا لهم : والله لا نترك ابننا عندها إذ نزعتموها من صاحبنا . وتتابع أم سلمة قائلة : واختلف القوم ، وما زالوا يتجاذبون ابني سلمة بينهم حتى خلعوا يده ، وانطلق به بنو عبد الأسد . أما بنو المغيرة فقد حبسوني عندهم ، بينما انطلق زوجي أبو سلمة إلى المدينة ، بعد أن فرَّقوا بيني وبين ابني وبين زوجي .

أما ما كان مع صهيب فهو أنه لما أراد الهجرة ، قال له كفّار قريش : أتيتنا صعلوكاً حقيراً ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذي بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك .

فقال لهم صهيب : أرأيتم إن جعلت لكم مالي ، اتخلون سبيلي ؟

قالوا : نعم

قال : إني قد جعلت لكم مالي .

وبلغ رسول الله ﷺ فقال : « ربح صهيب ، ربح صهيب ».

ولكن ، رغم ذلك التعدي الكبير من قريش على المسلمين وإيقاعها بهم ، فقد ظلَّت هجرتهم تتتابع إلى يثرب حيث ينزلون على الأنصار في بيوتهم ، مشرعين أبوابها لاستقبالهم ، فارشين أرضها لإكرامهم والاحتفاء بقدومهم . . يقدمون لهم الطعام ، ويبذلون في سبيلهم الأموال ، راضين ، قانعين ، حيث فتح لهم الله أبواب رحمته فبدَّل خوفهم أمناً ، وذلهم عزاً ، وهوانهم كرامة ، ولقد منَّ الله عليهم بهذه النعمة إذ يقول سبحانه :

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (١)

وهكذا نزل عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وأخوه زيد بن الخطاب ، وعمرو بن سراقة ، ومن لحقهم من أهليهم على رفاعة ابن عبد المنذور بن زهير من بني عمرو بن عوف ، ونزل طلحة بن عبيد وصهيب بن سنان على خُبيب بن إصاف ، ومثلهم نزل غيرهم في منازل المسلمين من أهل يثرب ، الذين كانوا يشعرونهم بأنهم ليسوا مهاجرين بل إنهم بين أهليهم وذويهم . .

لقد جمعهم الإيمان الصادق ، مهاجرين وأنصاراً ، ومحبةُ الله ورسوله قد فاضت عليهم جميعاً . . .

---

(١) سورة الأنفال ٢٦ .

وفي هؤلاء المهاجرين والأنصار نزل قول الله تعالى :

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ (١)

وهكذا جعل المسلمون يهجرون مكة حتى خلت منهم ديارها ، وحتى هُجِرتْ دورٌ بأسرها وأُغلِقَتْ أبوابها ، وغدت تصفر فيها الرياح ، وكان من هذه الدور دار بني جحش ، ودار بني مظعون ، ودار بني البُكَيْر . هجرها سكانها رجالاً ونساءً ، وها هو ذا عتبة ابن ربيعة والعباس بن عبد المطلب ، وأبو جهل بن هشام ، مروا وهم مصعدون إلى أعلى مكة ، بدار بني جحش ، فنظر إليها عتبة تخفقُ أبوابها يباباً ليس فيها ساكن ! . فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال :

وكل دار وإن طالت سلامتها   يوماً ستُدركها النكباء والحوبُ

ثم قال : أصبحت دار بني جحش خلاءً من أهلها . . .

فقال أبو جهل وهو يشير إلى العباس : هذا عمل ابن أخي هذا . . فرّق جماعتنا ، وشتّت أمرنا ، وقطع صِلاتنا بيننا ! . .

وما زال المسلمون يلتحقون بالمدينة والرسول يحضهم على

(١) سورة الحشر ٨ ـ ٩ .

الهجرة إليها حتى لم يبق بمكة إلاَّ رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي (رضي الله عنهما) . .

بقي الرسول ﷺ في مكة دون أن يعرف أحد ما يعتزمه هو : أيظل في مكة أم يهاجر؟ . .

وما كان لأحد أن يعرف ، ما دام أنه ﷺ قد أمر أصحابه من قبل بالهجرة إلى الحبشة ، بينما بقي هو في مكة ، فهل يكون أمره في هذه الهجرة مثل أمره فيما سبقها ؟ . .

حتى أصحاب النبيِّ ﷺ لم يكونوا يعرفون ما قرَّره لنفسه . . ولذا كان أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) يأتيه مستأذناً في الخروج ، فلا يزيد الرسول ﷺ على أن يقول له :

« لا تعجل لعلَّ الله يجعل لك صاحباً » . .

ولعلَّ هذا التكتُّم من النبي ﷺ قد أزعج قريشاً كثيراً ، وأوقعها في حيرة ، لا تدري ما تفعل حياله ، وقد تأمَّلت أن يخرج من بلدها ، وتعود إلى سابق عهدها من الرخاء والهناءة . .

ولكنَّ هذا الأمل من بعض زعمائها قد أغضب آخرين ، فقالوا : لئن جعلنا محمداً يهاجر إلى يثرب فسوف تكون له قوة يستطيع معها مداهمة مكة والإيقاع بنا ، فنُغلب على أمرنا من أولئك اليثربيين ، أهل الحرب والقتال . .

وقالوا : ولو رغب محمد في عدم مهاجمة مكة ، فلسوف يأمر الخزرج بقطع الطريق على تجارة قريش إلى الشام ، فتحل بهم

المجاعة . . وإن هو فعل ، فلا أحد يلومه . . ألم تقم قريش من قبل بفرض الحصار عليه وعلى أتباعه وأهله من بني هاشم وبني عبد المطلب ، وتجعلهم يبقون في شعاب مكة ثلاث سنوات بكاملها ، لاقوا خلالها أشدَّ ألوان الهوان والحرمان ؟ ! . .

لقد داهمَ الخوف قريشاً ، فبات زعماؤها يتساءلون :

هل ندع محمداً يهاجر ، فنُعَبِّد أمامه الطريق لمهاجمتنا أو لحصارنا ؟

. . فلئن هاجر وفعل بما نفكّر به ، فإنه لن يزيد على أن يردَّ لقريش ما بادأته هي به ، وتعنتت فيه . .

وفي الواقع ، هل يُقدم محمد بن عبد الله على تجويع مكة ، ولو كانت فيها قريش عدوة دعوته ؟ ! . .

خسِئتْ قريش في تفكيرها الارعن . .

ما بال زعمائها قد نسوا محمد بن عبد الله الإنسان الشريف ، الفاضل ، الذي لم يُقدم يوماً في حياته على عمل إلاَّ وكان فيه خير الإنسان ، وهم الذين سمَّوه ، من أجل صفاته الحميدة ، وخصاله السامية بـ « الصادق الأمين » . .

وما بال هؤلاء الزعماء قد تناسَوا أنه سليل بني هاشم ، الذين كانوا يطعمون الناس في سنوات الجدب حتى يمنعوا عنهم غائلة الجوع ، ويحموهم من الموت . . فهل يعقل أن يُقدم هذا الرجل

النبيـل على تجويعهم ، وهم ، رغم شـركهم ، وجهالتهم ، مـا زالـوا أبناء عشيرته الأقربين !. .

وهل أظلمت بصائرهم إلى هذا الحد ، حتى جهلوا أن رُسل الله لا يَظلِمون ، ولا يستغلُّون ، فكيف بسيد الرسُل محمد بن عبـد الله ، حبيب الله تعالى ، ورسوله المصطفى ، ونجيّه المجتبى !. .

لقـد خسئت قـريش حقـاً في ظنـونهـا وأوهـامهـا . . فمحمـد ابن عبد الله لن يفعل شيئاً من ذلك. . ولكنه يحمل رسالة الله سبحـانه ، فمن اهتـدى فقـد كفـاه الله العقـاب ، ومن أراد البقـاء في الضلال فعقابه يكون شديداً من الله سبحانه في آخرته . .

إنَّ قريشاً ـ وهي والصلافة والشرك صنوان ـ لا تريد أن تنظر إلى واقع محمد ، وإلى شخصيته ، ولا تحب أن تَعِي رسالته . .

إنها قدرت أن تحاصره بـالعداوة والبغضـاء والإيذاء منـذ مبعثه ، وها هي الآن رغم كل ما فعلته ، تتخوَّف منه أشد الخوف . .

إنها تخاف محمداً في خروجه حتى لا يقوى بـأهل يثـرب ، كما تخـافه في بقـائه حتى لا يـأتي هؤلاء يطلبـونه ويـريدون خـلاصـه من أيـديها . . بـل وإنها تخـاف بقاءه على قيـد الحياة ، ولـه من القوة مـا يمكنه من تحقيق النصر عليها في يوم من الأيـام . . تمامـاً كما تخـاف من قتله ، حتى لا يهبَّ بنو هاشم وبنو المطلب يطالبون بـدمه ، فتقـع الحـرب الأهلية التي قـد تقتلع الأشراف والمـوالي ، والأموال ، وتـذر مكة هباءً منثوراً تنعق فوقها الغربان . .

إنهـا أزمـة قـريش الكبـرى قـد حلَّت بهجـرة المسلمين إلى يثـرب . . ولكنَّ سبب هـذه الأزمـة في رأيهـا هـو محمـد بن عبـد الله وحده ، فماذا تصنع وقد وقعت في هذه الأزمة ؟ ! .

وتتـابعت تلك الأزمة ، تعصف بحيـاة قريش على امتـداد بضعة شهور ، حتى تنادى زعماؤ ها لعقـد اجتماع في دار النـدوة ، دار قصيّ ابن كلاب ، للتشاور في الرأي وتقرير ما يتـوجب عليها حيـال النبي ﷺ وخاصة في أمر إخراجه أو إبقائه ؟ ! . .

واجتمع سادة قريش وعلى رأسهم : عتبة وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو سفيـان بن حـرب ، وأبـو البختـري بن هشـام ، وطعيمـة بن عـديّ ، وحبيب بن مـطعم ، والحارث بن عـامر ، والنضـر بن الحارث ، وأبـو الأسـود ربيعـة بن عـامـر ، وحكيم بن حـزام ، وأبـو جهـل عمـرو ابن هشـام ، ونبيـه ومنبّـه ابنـا الحجـاج ، وأميـة بن خلف . . حتى إذا اكتمـل عددهم ، راحـوا يستعرضـون الحلول التي تريحهم من رسـول الله ﷺ . .

فـاقترح أبـو البختري بن هشـام أن يلقـوا القبض على النبيِّ ﷺ وأن يحبسوه وفي يديه ورجليه أصفادٌ من الحديـد ، حتى يموت داخـل السجن .

فقالوا : ما هذا برأي ، لو حبسناه فإن دعوته ستبقى ، يثِب علينا اتباعه من المدينة وهم يحاولون إطلاق سراحه بالقوة . .

فاقترح أبو الأسْود ربيعة بن عامر أن يُخرجـوه من مكة منفيـاً عنها

دون أن يبالوا أين وقع إذا غاب عنهم .

ولكنهم عدلوا عن هذا الرأي حين اكتشفوا أن هذا هو ما يصبو إليه النبي ﷺ بعد أن غدا له أنصار وأتباع في يثرب .

وهنا اقترح أبو جهل عمرو بن هشام أن تأخذ قريش من كل قبيلة من قبائلها شاباً من أشرافها ، فتجتمع عصابة تمثل جميع قبائل قريش ، ويقوم هؤلاء جميعاً بالاشتراك في قتل النبي ﷺ فيتفرق دمه في القبائل كلها ، ولا يستطيع بعدها بنو عبد مناف على قتالهم جميعاً ، فيرضون فيه بالدِّية وتستريح قريش من هذا الذي بدَّد شملها وفرَّق قبائلها أشتاتاً . .

وأعجب هذا الرأي المجتمعين ، فأقروا واعتمدوا على أن يجري تنفيذه ليلاً والنبي ﷺ نائم في فراشه ، أي أن يجري اغتياله وهو نائم في تلك الليلة في بيته ، على الفراش . .

وتفرَّق زعماء قريش يختارون فتيانهم وهم يحسبون أن أمر النبي ﷺ قد بات على وشك النهاية . . إنْ هي إلَّا بضع ساعات ، وسوف يُقتل محمد . . وبقتله تموت دعوته وينتهي أمرها ، ويتفرق أتباعُه عنها ، فلا يجد المهاجرون مناصاً من العودة إلى بلدهم وقومهم ، والرجوع إلى دينهم وآلهتهم . . وبذلك تعود لقريش وحدتها التي تمزقت أو أوشكت ، ومكانتها التي تضعضعت أو كادت . .

وتناهى إلى مسامع النبي ﷺ ما بيَّتت له قريش ، وما أعدَّت من مؤامرة لقتله ، فبعث إلى ابن عمِّه علي بن أبي طالب عليه السلام أن

يأتيه على جناح السرعة لأمرٍ هام يحتاجه فيه . .

وجاء عليّ ودخل على النبي ﷺ فوجده على قرآنه قائماً ، يتلو ويرتِّل ، هادئاً ، ينبعث النور من وجهه الكريم ، ويعلو تقاسيمه الطاهرة الارتياحُ والاطمئنان . .

وجلس عليٌّ فأدناه النبيُّ ﷺ منه ، وقرَّبه إليه ، ثم أسرَّ في أذنه بأنه يريد الهجرة إلى يثرب ، وأن على عليٍّ مهام جسيمة ، يخلفه فيها في مكة . .

ولم يسأل عليٌّ (سلام الله عليه) عن المهام التي يكلفه بها رسول الله ، فقد كان على استعداد لتلبية أوامره مهما كانت ، ولتنفيذ مطالبه مهما غلت . . ولكن الرسول العظيم أخبره بما عليه القيام به وهي ثلاثة :

النوم في فراشه مساء هذا اليوم ، وأداء الأمانات لأصحابها ، واستخلافه على الفواطم . .

فقد فكَّر الرسول العظيم في عمل يموّه به على قريش ، ساعة يخرج من مكة ، فرأى أن ينام أحدُ في فراشه لتعتقد قريش أنه ما زال في منزله . . ولما كان لا بد من إنسان يمثل دور النبي ﷺ أمام عيون المتآمرين ، وأن يكون هذا الإنسان في أعلى درجات الحب والإخلاص والفداء للدين الإسلامي وللنبي ﷺ بحيث يقدم على الموت فداء لرسول الله ﷺ ولدين الله تعالى ، ولما كان لا بد أن يكون هذا الإنسان في أعلى درجات الشجاعة ورباطة الجأش ، بحيث لا

يتشبَّث بالحياة في آخر لحظة فيكشف عن شخصيته ، وبذلك يفسد خطة النبي ﷺ ويكشف عنها ، فيتمكن المتآمرون من ملاحقة النبي ﷺ قبل أن يصل إلى مكان يختبىء فيه . . من أجل ذلك كله اختار علياً (رضي الله عنه) لأنه كان يعلم بأنه الإنسان الوحيد الذي تجتمع فيه كل الشروط المطلوبة للقيام بعملية التضحية والفداء . . فلم يكن في المسلمين من يماثله في حبِّه وإخلاصه للنبي ﷺ وحبِّه وإخلاصه للدين الإسلامي . وإذن فهو الإنسان الوحيد المرشَّح للمهمة الجسيمة حتى يمكن للنبي ﷺ أن يهاجر من مكة إلى يثرب . .

وتلقى عليٌّ الأمر من النبي ﷺ وهو يقول له :

« نم على فراشي ، وتوشَّح ببردي الحضرمي الأخضر هذا ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه » . .

وتقبَّل عليٌّ (رضي الله عنه) الأمر دون خوف أو وجل . .

لم يتسلل إلى نفسه شبح الخوف ، ولم تطرق خياله سيوف قريش تشرع فوقه ، وتهمُّ بالانقضاض عليه ، بل تراءى له أمر واحد وهو نجاة النبي ﷺ وخلاصه من كيد الكافرين . .

هذا ما شغل تفكير عليّ (رضي الله عنه) في تلك الساعة ، فارتمى على النبي يقبِّله ، ويأسف لعدم رفقته في الطريق حتى يذود عنه بنفسه في كل وقت . .

وقام الرسول ﷺ إلى صندوق أماناته يؤدِّيها لعليّ ، ويدلُّه على أصحابها ، حتى إذا فرغا ، خرج عليٌّ لقضاء بعض حاجاته ، ثم عاد

إلى بيت النبي ﷺ وهو يحاذر أن يراه أحدٌ ، ثم دخل وأغلق وراءه باب الدار ، وعاد إلى جانب النبيِّ ﷺ يأنس بحديثه ، ويتزود بنصائحه حتَّى حان وقت النوم ، فذهب إلى الحجرة التي ينام فيها رسول الله ﷺ واندسَّ في فراشه ، ثم ألقى عليه بردة الرسول ﷺ . .

في هذه الأثناء كان النبي ﷺ قد جلس في أحد أركان حجراته ، ينتظر حلول ساعة خروجه ، وهو بين الفينة والفينة ، ينظر إلى الخارج فيرى رجال قريش ، وقد أحاطوا بداره من كل جانب ، مدججين بالسلاح ، وهم يرقبون ويترصدون كل حركة حول المنزل ، وبعضهم يتطلع من وقت لآخر ، إلى مبيت النبيِّ ﷺ من فرجة ، فيرون في الفراش رجلاً نائماً ، فيطمئنون إلى أنه محمد ، وأنه ينام كعادته قرير العين . .

وبقي النبيُّ ﷺ في مكانه حتى كان الثلث الأخير من الليل ، فقام متوكِّلاً معتزماً ، وخرج في غفلة من تلك الجماعة التي نصَّبتها قريش حراساً عليه ، وأعدَّتها زمرة كافرة لقتله ، وهو يتلو من القرآن الكريم قول الله تعالى :

﴿ يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٧ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ۝٨ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩ ﴾

(١) يس ١ ـ ٩

ثم أخذ قبضةً من تراب نثرها صَوْبَ القوم وقال : شاهَتِ الوجوه وأغشيت الأبصار . . .

لقد أغشيت الأبصار فعلاً ، وشاهت الوجوه من آيات الله العظمى ، وأقامت بينهم وبين النبي سداً ، فجعلتهم لا يرونه ولا يُبصرونه وهو يخرج من بينهم . . ذلكَ فَضْلُ الله يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ، والله ذو ٱلْفَضْلِ العَظِيم . .

وذهب الرسول إلى بيت أبي بكر الصديق . فلما رآه صاحبه ، عجب لمجيئه في هذا الليل البهيم ، فقال في نفسه : « خير إن شاء الله ، ما جاء الرسول هذه الساعة إلاَّ لأمر حدث » . .

وسأل الصديق النبيَّ ﷺ قائلا : « ما الأمر يا رسول الله » ؟ .

قال الرسول الكريم : إن الله تعالى قد أذن لي في الخروج . .

فقال أبو بكر : الصحبة يا رسول الله .

قال النبي ﷺ : الصحبة .

واطمأنت نفس أبي بكر الصديق ، وبان له الآن قصْد النبيِّ ﷺ عندما كان يذهب إليه ويستأذنه في الهجرة ، والنبي ﷺ يطلب إليه ألاَّ يعجل عسى أن يجعل الله له صاحبا . . .

نعم لقد أدرك أبو بكر الصديق أن استئخار النبي ﷺ له ما كان إلاَّ ليجعله رفيق دربه ، وصاحبه في هجرته . . وها قد أزفت الساعة ، وجاءه الرسول العظيم يطلب إليه الرحيل معه ، أفلا يفرح بذلك ، ويُسعد به ؟ ! .

وقام أبو بكر الصديق يعطي تعليماتـه إلى ابنه عبـد الله ، وابنتيه أسماء وعائشة ، ومولاه عامر بن فهيـرة ، ويطلب إلى عبـد الله خاصـة يش ، فيستمع إلى مـا يأتمـرون به على النبيّ ﷺ ثم لمكان الذي سيختبئان فيه ، ليقصَّه عليهما . .

بـو بكر الصـديق ، وخرج مـع النبي ﷺ من خوخـة في ، ثم انطلقا جنوبا ، إلى جبل مكة ، ومقصدهمـا غار ثـور ، أي في الإتجـاه المؤدي إلـى اليـمن ، وهـو الاتـجـاه الـذي أراده الرسول ﷺ كي يسلك طرقاً غيـر مألـوفة ، مـا دامت قريش لن تتـوانى لحظة واحدة عن اللِّحاق به ، عندما تتكشف حقيقـة خروجـه لها . . . لقد سار الرسول ﷺ وصاحبه في طريقهما ، في الوقت نفسه الذي همَّ رجال قريش باقتحام داره والدخول عليه لقتله وهم يظنون أنه هو النائم في فراشه ، ولكنهم عندما سمعوا صوت امـرأة تتكلم في الدار ، قـال أبو لهب ، عم النبي ﷺ وقد كان معهم :

« لا أدعكم تدخلون عليه بالليل ، فإن في الدار صبياناً ونسـاء ، ولا نأمن أن تقع بهم يدٌ خاطئة ، فنحرسـه الليلة ، فإذا أصبحنـا دخلنا عليه » .

وقال بعضهم لبعض : « والله إنها للسُّبـة في العرب أن يُتحـدث عنَّا أنَّا تسوَّرنا الحيطان على بنات العم ، وهتكنا ستر حرمتنا » . .

تلك هي مشيئـة الله العلي القـديـر ، أن يفتن تلك الجمـاعـة بعضهم بعضا ، فيمتنعوا عن الدخول إلى بيت رسـول الله ﷺ ، ويبقوا

منتظرين حتى مطلع الصباح ، فيكون الوقت متسعاً لـدى النبي ﷺ لأن يصل إلى المكان الذي ينوي الاختباء فيه ، قبل أن يكتشفوا خطَّته . .

فلما تنفس الصبح وانكشف الظلام ، هبّ رجال قريش ؛ يرمون النائم من فرجـة في الباب بـالحصى ، ويحصبونـه بصغار الحجـارة ، وهو يتقلب تحت البردة ، ثم تشجَّعوا وأتوا الحُجرة ، وقصدوا الفـراش ليقتلوا النائم فيه ، فوثب علي بن أبي طالب في وجوههم وقال : « مـا شأنكم » ؟

قالوا : أين محمد ؟

قال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ ألستم قلتم : نُخرجه من بلادنا ؟ فقد خرج عنكم . .

وظنَّ هؤلاء الحـراس أنها مؤامـرة دبَّرهـا أبو لهب حتى يخلِّص ابن أخيه من القتل ، فحال بينهم وبين الدخول عليه وهـو نائم لإتمـام عملية الاغتيال ليلاً ، فأقبلوا عليه يضربونه ويقولون :

« أنت تخدعنا منذ الليل » . .

وذاع الخبـرُ في قـريش أن محمـداً قـد تـرك مكـة دون أن يـراه أحـد . . أما النـائم في فراشـه فقد كـان علي بن أبي طـالب . وأعلن زعمـاؤ ها من فـورهم أنهم سيدفعـون مائـة ناقـة لمن يرده عليهم ، ثم قرروا ملاحقة النبي ﷺ للقبض عليه قبل أن يصل يثرب . .

أما النبيُّ ﷺ فإنه كان قد وصل إلى غـار ثور على طـريق منى ، ودخله مع صاحبه في جوف الليل ، وبقيا فيه ينتظران ما يكون من أمـر

قريش . وغار ثور كهف بأعلى جبل « ثور » العالي ذي القمَّتين ، يقع على ثلاثة أميال من جنوب مكة ، في طريق المنحدر منها إلى اليمن ؛ يمشي السائر إليه نحو ساعتين في طريق ليِّن كثيف الرمال ، ثم يصعد فيه صعوداً هيِّناً حتى يصل إلى قمَّته القريبة ؛ فإذا وصل إليها ، مشى قليلاً في طريق ممهَّد سهل كأنه برزخ ، ثم يأخذ في الصعود إلى القمة الأخرى ، في مرتقى وعر شديد الانزلاق ، كثير المضايق والصخور ، فلا يزال كذلك يبذل من جهده وقوته ، ويستعين بكل خبرته وهمَّتِه ، حتى يصل إلى الغار فيجده كهفاً ضيِّقاً لا تزيد مساحته على مترين ونصف متر ، رابضاً تحت صخرة ضخمة تغشى جوفه ظلمة خفيفة ، له فتحتان : فتحة ضيقة في جانب منه ، وأخرى في الجانب الآخر لا تزيد سعتها على نصف متر ، وهي التي يستطيع الداخل أن يدخل منها بغير مشقة كبيرة ، وقد دعي بغار ثور نسبة لثور بن عبد مناة لأنه ولد عنده .

وجدَّتْ قريش في أثر النبي ﷺ تستعين برجل من خزاعة يسمى « أبو كرز » يقفو الأثر ويكتشف مسالك المارة . .

وسار « أبو كرز » يتعقب أثر النبي ﷺ واستطاع أن يميز أثر قدمه على الأرض من أثر قدم شخص آخر يرافقه ، وتتبع الآثار حتى وصل إلى باب الغار ، وقال : ما جاوزا هذا المكان ، فإمَّا أن يكونا قد صعدا إلى السماء أو أنهما دخلا تحت الأرض . .

إنها لحظة من أدق اللحظات فيها نظرت السماء إلى الأرض فإذا هي تحبس الأنفاس لأن ما يتقرّر في هذه اللحظة قد يكون إما شقاء

الناس على هذه الأرض إلى ما لا نهاية له ، وإما بزوغ فجر جديد على الإنسانية، فيه تتفتح آفاق العقل والشعور ليدرك الإنسان الحقائق التي تدل على عظمة الخالق ، وعلى سمو خلق الإنسان . . نعم لقد حبست الأرض أنفاسها لئلا يتغلب الكفر على الإيمان والباطل على الحق ، فكانت تلك اللحظات الرهيبة في عمر الزمان . . . وفي داخل الغار كان العرق يتصبَّب من أبي بكر وهو يسمع ما يقوله « أبو كرز » ويخاف من أن يقتحم عليهما الباحثون ، فأمسك أنفاسه وبقي لا حراك به وأسلم أمره لله . .

وراح بعض القرشيين يدورون حول الغار ، وبعضهم يتسلَّقه ، دون أن يحاولوا الدخول إليه ، فسأل بعضهم البعض : ولِمَ لا تنظرون في الغار؟ .

فقالوا : إن العناكب قد نسجت خيوطها على بابه ، فلا يمكن لأحد أن يدخله دون أن يتبدد النسيج ، ثم إن على باب الغار حمامتين قد عشَّشتا وباضتا في العش منذ زمن طويل . .

فالكافرون في الخارج يبحثون ، والله يمنعهم من الدخول إلى الغار . . أما في الداخل فرسول الله ﷺ يصلي ويدعو الله سبحانه أن يكفَّ شرَّ الباحثين ، بينما أبو بكر (رضي الله عنه) أخذ يزداد خوفاً ، فيقترب من رسول الله ﷺ ويلصق نفسه به ، فيهمس النبي ﷺ في أذنه : « لا تحزن ! إن الله معنا » . . والحزنُ من الإنسان لا يكون عادةً إلَّا على عزيزٍ عليه ، وحاشا للصِّدِّيقِ أن يحزنَ على نفسِهِ ، فما أهونُ النفس على أصحاب رسول الله ، وانما كان حزنه أَنْ يُكتشفَ

أمرهما ، وتمتد يد الغدرِ إلى رسول الله ﷺ

.. وبعد أن أعياهم البحث ، انصرف فتيان قريش ، وهم على قناعة تامة ، بأنه لا فائدة من الدخول إلى هذا الغار ، فلا أثر يدل على أحد دخله منذ زمن طويل .. حتى إذا اختفت أصواتهم ، ولم تعد تسمع لهم حركة ، قال رسول الله ﷺ : الحمد لله ، الله أكبر ..

وفي قصة الغار هذه نزل قول الله تعالى :

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (١)

وقوله تعالى :

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (٢)

ترى من هم جنود الله الذين أيَّد الله بهم رسوله الكريم ، فلم يرها كفار قريش ؟ ! ..

إن من جنوده العنكبوت ، الحشرة الضعيفة الواهية الخيوط التي لا خطر لها من قوة ولا شأن لها من مقاومة ، قد نسجت خيوطها على باب غار ثور ...

ثم من جنوده ذلك الطائر اللطيف الضعيف ، أي الحمامة التي عششت وباضت على أول مدخله ..

---

(١) سورة الأنفال ٣٠.

(٢) سورة التوبة ٤٠ .

بل من جنوده النبات الذي ارتفع وتشابك بفروع يابسة أشبه بالهشيم تلفه خيطان العنكبوت ويعلوه الغبار . . هذا إلى جانب ملائكته الذين سخَّرهم لحفظه ورصدهم لحمايته ورعايته . .

أولئك هم الجنود الذين بعثهم الله من أجل تعمية الباحثين من الكفار! . . أو ليست الخلائق كلها: الملائكة، وكثير من الجن ومن البشر، والطير والنبات والحشرات وحتى الجماد هي جنودٌ لله تعالى . . وهي بأمره وإرادته ؟! . .

أوَلَيس كل من في السمٰوات والأرض يسبِّح باسمه سبحانه ؟ ! . . ومع ذلك فإن قريشاً تريد أن تقتل محمداً ﷺ لأنَّ الله بعثه رسولاً . . فهي لم تُقدِّرْ أنه سيُفلِتُ من يدَيها أو أنها يمكن أن تخفق في العثور عليه وقد جنَّدت كل جهودها وحشدت كل إمكانياتها في البحث عنه ، لقد أسهِرتْ ليلَها وأشْقتْ نهارها ، وأقضَّت مضاجعها ، ودسَّت أنوفها في كل مكان تتشمم ريحه ، وأرسلت خبراءها في كل ناحية يتلمسون آثاره ، ويتعسَّسون مواقعه ، ولكنها على رغم ذلك لم تظفر من جهودها بطائل . . .

فلما انقضى عليها أكثر من يوم وهي على هذه الحال من الثورة والاضطراب ، ومن الجُهد الدائب الخائب ، استولى عليها اليأس ، وفلَّ عزمها الإخفاقُ ؛ فكفَّت عن البحث ، وأيقنت أن من المستحيل أن يكون قد بقي في مكة وجوارها .

لقد أيَّد الله سبحانه نبيه المصطفى ﷺ وانكفأ رجال قريش عن

البحث وعادوا خائبين ، بينما حلّت السكينة على النبيِّ ﷺ وصاحبه ، فراحا يتحدثان وينتظران حلولَ اللّيل حتى تأتيهما الأخبار .

فلما كان المساءُ جاء علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) يصطحب معه هند بن أبي هالة ، ابن خالة رسول الله ﷺ بعدما عرفا من عامر بن فهيرة ، مولى أبي بكر ، الذي كان يرعى غنمه في شعاب مكة ، بمكان مخبأ الرسول . .

والتقاهما النبيّ ﷺ يسألهما عمّا وراءهما ، فأخبراه بخيبة قريش ، وأن رجالها عادوا مخذولين ، فأمر النبي ﷺ هنداً أن يبتاع له بعيرين ، فقال أبو بكر الصديق : « قد كنت أعددتُ لك ولي يا نبي الله راحلتين ، نرتحلهما إلى يثرب »، فرفض النبيُّ ﷺ أن يأخذهما أو يأخذ إحداهما إلاّ بالثمن ، ونزل أبو بكر الصديق عند رأيه ، فأمر النبيّ ﷺ عليّاً فأقبضه الثمن، وقال لعلي :

« إنهم لن يصلوا من الآن إليك يا عليّ بأمر تكرهه حتى تُقدِم عليَّ . فأدِّ أماناتي ، كما أعلمتك البارحة ، على أعين الناس ظاهراً . . ثم إني مستخلفك على فاطمة ابنتي ، ومستخلف ربي عليكما ومستحفظُه فيكما ». ثم أمره أن يبتاع رواحل له وللفواطم : فاطمة بنت النبي ﷺ ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم(أم علي) وفاطمة بنت الزبير بن عبد المطلب . . وعادَ فأمر علياً أن يقوم صارخاً في الأبطح غدوة وعشية :

« من كان له قِبَلَ محمدٍ أمانة أو دَينٌ فليأتِ فلتردّ إليه أمانته » . .

ثم انصرف عليٌّ وهند للقيام بما أمرهما به رسول الله ، وبقي النبيُّ ﷺ ينتظر قدوم عبد الله بن أبي بكر الصديق ، ليعرف أخبار قريش وما تدبِّره . .

ودام التخفِّي في غار ثور ثلاثة أيام ، وكان خلالها عبد الله بن أبي بكر يُمضي في قريش نهاره ، ويسمع ما يأتمرون وما يقولون في شأن رسول الله ﷺ ثم يأتيه في المساء فيخبره الخبر . . وكان عامر بن فهيرة، يرعى في رعيان أهل مكة، فإذا أمسى أراحَ غنمه بجوار النبي ﷺ وصاحبه فاحتلبا . . فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى مكة ، تبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعفي عليه . . وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما بالطعام إذا أمست ، بما يصلحهما . .

وفي اليوم الثالث ، وحين عرف النبيُّ ﷺ أن قريشاً قد سكنت عنه ، ولم تعد تطلبه في البحث ، بعدما أعياها ذلك ، أتيَ بالبعيرين ، وأتته أسماء بنت أبي بكر بطعامهما . فلما همَّا بالارتحال ولم تجد ما تعلِّق به الطعام والماء في راحلتيهما ، شقت نطاقها وعلَّقتْ الطعام بنصفه ، وتمنطقت بالنصف الآخر ، فسميت لذلك : « ذات النطاقين » . .

وانطلق الركب يسير على اسم الله حين أرخى الليل سدوله ، وكان الوقت في مستهل الشهر القمري ، فلم تغب الشمس حتى كسا الظلام مناظر البادية فحجبهم عن العيون . وحين أخذ الركب وجهته إلى المدينة ، نظر رسول الله ﷺ إلى مكة نظرة حارة ثم قال : « والله إني لأخرج منك ، وإني لأعلم أنك أحب أرض الله إلى الله ، وأكرمها

على الله . . ولـولا أن أهلك أخرجـوني منك مـا خرجت ». . وقـال :
« اللهمّ إنك تعلم أنهم أخرجوني من أحبِّ البلاد إليَّ ، فأسكنِّي أحبّ البلاد إليك » . .

لا . همَّ أن يُخـرج المشركـون الرسـول الأعـظم من بلده ، فكـل البلاد هي لله تعالى وذلـك لقولـه تعالى : ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾[1] . . لقد كان خروج الرسـول من مكة لمصلحـة الدعوة التي تنذر وتبشر الناس بعبادة الله ، فإذا حالت رعونة المشـركين دون إيفـاء هـذه العبادة حقهـا ، فكـان لا بـدَّ من الخـروج كي يُمكِّنَ للدعوة ولعبادة الله في أرض الله الواسعة . .

ولقـد كانت مغـادرة النبي ﷺ غـار ثـور في يـوم الاثنين ٤ ربيـع الأول من السنـة الثـالثـة عشـرة لمبعثـه ، المـوافق ٨ أيلول سنـة **٦٢٢** ميلاديـة ، وقد اتخذ إلى يثـرب دليلاً لـه عبد الله بـن أزيـقط الليثي (أحد بني الدّيل) ، وكان لا يـزال على شركـه ، إلَّا أن النبي ﷺ وثق به وأمن من غدره ، فضلا عن خبرته الواسعة في طرق الصحراء ، ولذلك سلك بالنبي ﷺ وبصاحبه دروباً غير مألوفة ، إذ أمعن إلى الجنوب بأسفل مكة ، ثم توجه إلى تهامة على مقربـة من شاطىء البحـر الأحمر ، ثم اتجه شمالاً محاذياً الشاطىء مع الابتعاد عنه ، متَّخذاً من السُّبل ما قلّ أن يطرقه أحد . .

وأمضى النبيُّ ﷺ والصـديق طيلة الليـل وصـدر النهـار على راحلتَيهما ، لا يعبآن بمشاق السفر ، ولا بمصـاعب طرق الصحـراء ،

---

(١) سورة العنكبوت ٥٦ .

بقرِّها وقيظها ، وبقساوتها وحدَّتها ، فالغاية في سبيل الله سامية ، والتعب والشقاء من أجل الحق هيِّنان . . ولكن لا بدَّ من قيلولة تعيد للمهاجرَين أنفاسهما ، فاختار رسول الله ﷺ صخرة كبيرة ، جلسا في ظلِّها يستروحان الراحة مما أصابهما في سيرهما المتواصل منذ حلول المساء . . وفيما هما يَقيلان ، مَرَّعلى مقربة منهما رجل ، لم يعرفاه ، فسأل الرسول عنه دليله ، فلم يعرفه هو الآخر . . فخلّوه وشأنه . .

ولكنَّ هذا الرجل ما إن أقبل على مكة ، وعرف أن قريشاً تتحدث في خروج محمد ، وأنها تتعقّب أخباره ، حتى قال لهم بأنه رأى ركباً ثلاثة مرَّ بقربهم ، ويعتقدهم محمد وصاحبَيه . .

وكان في النادي الذي أخبر فيه هذا الرجل ما أخبر ، سراقة بن مالك بن خثعم فلما سمعه يقول ذلك أومأ إليه بعينيه أن يسكت ، وقال يضلِّل القوم :

« إنما هم بنو فلان » . .

لقد كان سراقة من ذوي النفوس التي يغريها الكسب المادي ولو جاء عن طريق الجريمة ، وقد أراد أن يفوز بمغنم النوق المائة ، التي أعلنت عنها قريش لمن يرد محمداً إليها . . فأسكت الرجل ، وموَّه على القوم ، ثم لم يلبث بعد أن مكث قليلاً ، أن قام يستأذن القوم ، وينطلق إلى بيته ، فيتدجج بسلاحه ويأمر بإرسال فرسه إلى بطن الوادي حتى لا يراه أحد ساعة خروجه . .

واندفع سراقة صوب الناحية التي وصفها الرجل ، حتى إذا قطع مسافة غير قصيرة ، كبا به جواده وهو يجد في الركوب ، وكاد يسقط

عنه لولا أن تدارك نفسه ، فنزل عن الجواد ، وأنهضه ، ثم عادَ يمتطي ظهره ويحثّه بسوطه على العدو ؛ وعاد الجواد فعثر به مرةً أخرى ، وعادَ هو فركبه وراح يسوطه بقوّة وعنف كي يشتدَّ انطلاقه ، ويمكّنه من إدراك الراحلَين . . . وإن هي إلاَّ ساعة من وقت حتى بدا له الرحل من بعيد ؛ وهمَّ يريد أن يدركه حتى يردَّ النبيَّ ﷺ وصاحبه إلى مكة ، أو يقتلهما إن حاولا الدفاع عن نفسيهما ، فلزَّ فرسه لزة أخيرةً ، وقد بدا له أنه نال الظفر ، ولكن الفرس ما كادت تقدم بضع خطوات حتى تعثر عثرة كبيرة أوقعها في الأرض ، وألقت بفارسها من على ظهرها يتدحرج بسلاحه . . إلاَّ أنه هبَّ سريعاً يمتطي ظهرها ويحثها بالسوط على المسير حتى قارب الوصول إليهم فسمع رسول الله ﷺ يقرأ القرآن ولا يلتفت إلى الضجة المحدثة خلفه ، وإن كان صاحبه يكثر الالتفات في محاولة لمعرفة ما يريد هذا الفارس فعله . . ولكنها لحظات وتغوص أرجل الفرس في الزمل حتى تبلغ الركب فيهوي صاحبها من على ظهرها ، ولكنه لا يحفل بإهوائه بل يستوي قائماً يريد أن ينفض عنه غبار الأرض فيتراءى له وكأنَّ ذلك الغبار دخان كثيف يصعد في السماء ، فأجفل سراقة لهذا المشهد ، وقد داخله خوف شديد ، وعندها أيقن أن الله مانعه من إدراك ضالته ، وأنَّه إن أصرَّ ممعنا ، فإنه معرِّض نفسه لخطر قاتل . . وزاد في يقينه تعثر فرسه به طوال الطريق ، وهو الفارس الذي لم يكبُ به جواد ركبه قطُّ فكان كل ذلك كافياً لأن يعقل ويتعظ، فوقف ونادى « يا كرام الناس!

أنا سراقة بن مالك . . انظروني أكلمكم ، فوالله لا أريبكم ولا

يأتيكم مني شيء تكرهونه » . .

فقالوا له : وماذا تبغي منا ؟

قال : « إني أطلب من محمد أن يكتب لي كتاباً يكـون آية بيني وبينه » . .

وأمَر النبيُّ ﷺ أبا بكر فكتب لسراقة كتاباً ، ثم ألقاه إليه ، فأخذه وعاد ادراجه ، وأخذ نفسه بتضليل من يطاردون المهاجرَ العظيم بعد أن كان هو يطارده . . ولقد ظلَّ سراقة محتفظا بكتـاب رسول الله ﷺ حتى كان فتح مكة ، فجاءه وقال له :

« هذا كتابك لي ! أنا سراقة بن مالك » . .

فقال رسول الله ﷺ : هذا يوم وفاء » . .

وتتابعتْ مسيرة تلك الهجِرة المباركـة ، في أرض تهامـة ، وكان أكثر مشي الركب في الليل ، احتماءً من لظى الهاجرة المحرقة ، ولأن في الليل ابتعاداً عن النـاس ، وعن غدر قـريش وصلافتهـا ، فلا تـرى المهاجرَين العيون ، ولا تلحقهما الفرسان ، أو يتعقبهما الباحثـون . . لقد كانت الظلمة تغطي الآفاق أثنـاء ذلك المسيـر فكانت الـرواحل لا ترى طريقها بوضوح ، حتى لتكاد تتعثَّر في أكثر من مـوضع . . ولكنَّ رحمة الله ، وعينه الساهرةَ على نبيِّه ، هما الضمان البالغ له ، يحميانه من صعاب الطريق وعثراتها ، ومن وحوش الفلاة الكاسرة وهجماتها ، ومن الحشرات القاتلة وغـدراتها ، فـلا تعرُّض لخـطر ، ولا أذى ، ولا إيلام ، ولا عقاب ، اللهـم إلاَّ وعثـاء السفر ، وهي مقبـولة ، مـا دامت الهمم عالية ، والثقة بالله كبيرة . .

وخلال الطريق ، مرَّ الركب على خيمة أم معبد الخزاعية ، فسألوها عن طعام أو لبن يشربونه ، ولكنهم لم يجدوا عندها شيئاً منه ؛ وقد اعتذرت لهم المرأة ، وشكتْ قلَّة الرزق ، وقالت :

« لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى . وإنَّ القوم مرملون ، مُسْنِتون » . . . (في سنة جدب) . .

ورأى النبي ﷺ شاةً واقفة بجانب خيمة أم معبد ، فسألها : « وما هذه الشاة يا امرأة ؟ . .

قالت : « شاة خلَّفها الجهد عن الغنم » . .

فقال عليه وعلى آله أفضل الصلاة والسلام : « فهل بها من لبن » ؟

قالت : « هي أجهد من ذلك » . .

قال ﷺ : « تأذنين لي أن أحلبها » . .

قالت : « إن كان بها حلب ، فاحلبها » . .

فدعا رسول الله ﷺ بالشاة ، فمسح ضرعها ، وذكر اسم الله تعالى ، ثم دعا بإناء واسع ، وراح يحلب الشاة ، فإذا الحليب ينزل من ضرعها غزيراً حتى امتلأ الإناء ، وأم معبد واقفة ، تنظر ولا تصدق عينَيها . . وراحت تقول في نفسها : « كيف لهذه الشاة أن تحلب ، وهي أضعف الغنم ، حتى انها لم تقو على السرح في البادية مع الغنم الأخرى ! . . وكيف يحلب هذه الشاة وهي لم تلِد هذا العام ، بسبب الجفاف والجدب ، اللَّذين أفقد الماشية العشب والمرعى » ؟ ! . .

وشربت أم معبد حليباً طازجاً نقيّاً حتى ارتوت ، بعد أن شرب أبو بكر الصديق والدليل بأمر من النبي ﷺ الذي أبى أن يشرب قطرة واحدة قبل أن يرووا . . ثم عاد فحلب في الوعاء ثانية حتى ملأه ، وتركه لصاحبة الخيمة ، بعد أن ودّعوها وودّعت بالخير . .

ابتعد القوم عن أم معبد ، فجاء زوجها ، أبو معبد أكثم بن عبد العزى بن معبد بن ربيعة ، يسوق غنمه وأعنزه الضامرة ، الهزيلة ، وقامت إليه زوجه تستقبله باللّبن ، فعجب وقال لها :

« من أين هذا اللبن يا أم معبد ، لا شيء منه في البيت ، والشاة عازب » ؟ ! . .

قالت : « والله لقد مرَّ بنا رجل مبارك ، وهو الذي حلب الشاة ، فحلبت، حتى شبعتُ، وشبع من معه ».

قال : « ومن هو هذا الرجل يا أم معبد؟»

قالت : « لم أسأله عن اسمه » . .

قال : « هل تصفينه لي ؟ » . .

فقالت : « رأيت رجلاً ظاهر الوضاءة ، حسن الخلق ، مليح الوجه ، لم تعبه ثجلة (ضخامة البطن)، ولم تزر به صعلة (صغر الرأس) ، قسيم وسيم ، في عينيه دعج ، وفي أشفاره وطف (كثرة الشعر) ، وفي صوته صحل ، أكحل ، أزج ، أقرن ، في عنقه سطع ، وفي لحيته كثافة ، إذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلّم سما وعلاه البهاء ، حلو المنطق ، فصل لا نزر ، ولا هذر ، كأنّ

منطقه خرزات نظم يتحدَّرن ، أبهى الناس وأجملهم من بعيد ، وأحسنهم من قريب ، ربعة ، لا تشنؤه عين من طول ، ولا تقتحمه عين من قصر ، غصن بين غصنين ، فهو أنظر الثلاثة منظرا ، وأحسنهم قدّا ، له رفقاء يحفُّون به ، إن قال استمعوا لقوله ، وإن أمر تبادروا لأمره » . .

فقال زوجها : « هذا والله صاحب قريش الذي تطلب ، ولو صادفته لألتمسنَّ أن أصحبه ، ولأجهدن إن وجدت إلى ذلك سبيلا » . .

لقد ترك الركب المحمدي أم معبد الخزاعية ، وسار تحفُّه بركاتُ الله ورضوانُه ، يغذُّ السير إلى يثرب التي كانت تنتظره بلهفة وشوق ، وقد دخل حبه قلوب المسلمين فيها لمجرد سماعهم بذكره الطيِّب ، وبخصاله الحميدة ، ومزاياه الجليلة ، التي أهَّلته لأن يكون رسول الله ، لا لأهل مكة ، ولا لأهل يثرب وحدهم ، ولا لكل العرب فحسب . بل للناس كافة .

نعم لقد أحبَّه اليثربيون قبل أن يروه ، فراحوا بعدما سمعوا بخروجه من مكة يرقبون اليوم الذي يصل فيه إليهم حتى تستقبله قلوبُهم وأفئدتهم ، قبل عيونهم وآذانهم . . إنهم يعلمون أنه خرج من مكة ، ولكنهم لم يعرفوا أي طريق يسلك ؛ ولو عرفوا لذهبوا إلى ملاقاته ، يحمونه بالمهج والنفوس . . إلَّا أنهم في انتظاره ، وصباح كل يوم يخرجون إلى منافذ مدينتهم ، ويبقون ممدودي الأنظار إلى

الجهـات كلهـا ، علهم يـرونـه من بعيـد ، أو أن أحـداً يخبـرهم عنـه بخبر . . .

وبقوا على هذه الحال من الشوق والانتظار يخرجون كل يوم بعد صـلاة الصبح إلى ظـاهر المـدينة يتلمّسـونه حتى تغلبهم الشمس على الظلال في تلك الأيام الحارة من شهر أيلول . . أما النبيّ ﷺ فقد كان يجـدُّ في المسير حتى يخلص من وعثـاء ذلـك السفـر الـذي طـال بـه وبصاحبه ، حتى بلغ قباء على فرسخين من المدينة ، وكـان ذلك يـوم الاثنين في الثاني عشر من ربيع الأول (١٦ أيلول ٦٢٢ ميلادية) فأقام فيهـا هو وصـاحباه أربعـة أيـام . . فيكـون قـد أنفق ثمـانيـة أيـام على الطريق ، منذ خروجه من غار ثور إلى أن وصل إلى قباء.

إنـه رسول الله ﷺ ، وقـد هاجـر لإعلاء كلمـة الله . . وما إقـامة المساجد إلا إحدى السُّبل التي تجمع المسلمين على إقامـة شعائـرهم ولذا فإنَّ النبي ﷺ لم يترك الوقت يذهب سدىً خلال إقامتـه في قباء ، بل اسَّس خلالها مسجداً ، وهو أول مسجد أمـر بإقـامته بعـد بعثته . . وفي هذا المسجد نزل قولُ الله تعالى :

﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (١٠٨)[1]

وفيما راح النبي ﷺ يهتم منذ أول يوم دخل قباء بتأسيس مسجـد قباء ، كان في الوقت نفسه ، يفكِّـر بعليّ وبالفـواطم ، وماذا حـلَّ بهم

---

(١) سورة التوبة ١٠٨ .

بعد هجرته . . ولكنه لم يلبث أن استراح ، واطمأنّ وقد سمع بقدومهم إلى قباء حيث هو ﷺ . .

لقد كان عليّ بن أبي طالب (رضي الله عنه)، قد أقام بمكة ثلاثَ ليال وأيامها ، أدّى أثناءها الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ للناس ، فلما فرغ من ذلك قام يشدّ الرحال ، قاصداً يثرب مع الفواطم الثلاث (رضي الله عنهن)، وتبعهم أيمن بن أم أيمن ، وأبو واقد الليثي ، وآخرون من ضعفاء المسلمين ، الذين لم يستطيعوا الخروج من قبل . .

وقد تعقَّبه ثمانية رجال من قريش ، يريدون الفتك به ، فاشتبك معهم ، وقتل منهم جناح مولى الحارث بن أمية . . وتابع سيره حتى بلغ قباء في اليوم الثاني من وصول النبي ﷺ إليها . .

وإذا كان الجهد قد أخذ من عليٍّ (رضي الله عنه) وهو يتحمل مسؤولية النساء العزيزات على النبيِّ ﷺ اللاَّتي أوصاه بهنَّ ، فصارت سلامتهن أغلى عليه من حياته ، فإن ذلك الجهد ، وما أدى إلى ورم في رجليه ، وتشنُّج في مفاصله وعروقه ، قد زالت كلها عند مرأى النبي ﷺ فاندفع نحوه بكل جوارحه ؛ وتلقاه النبي ﷺ في أحضانه ، يعتنقان ويشدان ، حتى خشعت العواطف لاعتناقهما ، وذابت المشاعر لشدّهما . .

ورأى النبيُّ ﷺ ما حلَّ بقدمي علّي ، فأخذ يمسح عليهما بيديه

الطاهرتين ، حتى أبلّتا على الفور ، ولم يشتكهما عليّ من بعدُ أبداً . .

وكان المسلمون في يثرب ما يزالون على انتظارهم كعادتهم كل يوم ، فلما كان نهار الجمعة من ربيع الأول لذلك العام ، كان أول من رآه رجل من اليهود فصرخ بأعلى صوته يخبر الناس بقدوم رسول الله ﷺ وهو يقول :

« يا بني قَيْلَة (كانت هذه كنية العرب في المدينة) هذا صاحبكم قد جاء » . .

ومثل سريان النور الشديد ، سرى خبر مقدم رسول الله ، في يثرب ، فخرج أهلوها ، شيوخهم وفتيانهم ، ونساؤهم وأولادهم ، يستقبلون الوافد العظيم ، الذي جاء يحمل لهم الهداية من الله ونور الحق ، ويبشرهم برضوان الله تعالى ورحمته . . .

خرجوا يكبِّرون : « الله أكبر ، الله أكبر . . جاء محمد . . الله أكبر ، الله أكبر . . جاء رسول الله »

لقد استقبلت يثربُ رسول الله ﷺ باسمة الثغر ، ترفل في حلل الفرح والفخر ، وكانت بنات الأنصار ينشدن في سرور ونشوة :

طلع البدر علينا من ثنيّات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

وبوصول النبيِّ ﷺ إلى يثرب ، انتهى العهد المكيّ ، وابتدأ

عهد جديد في حياة الدعوة الإسلامية ، هو العهد المدني . . هو عهـد الدولة الإسلامية . .

وقد استمرَّ عهـدُ ما قبـل الهجرة ثـلاثَ عشرة سنـة في مكة ولـم يُفـرض خلالهـا سوى الصلوات الخمس من التشـريعات الإسـلامية ، بعدد ركعاتها ، المعروفة في كل صلاة ، عند المسلمين الآن . .

* * *

الفهرس

الفصل الأول

حياة الرسول الكريم قبل البعثة

الفصل الثاني

الاعداد الإلهي لمحمد ﷺ وحمل الدعوة في مكة







